المملكة العربية السعودية

وزارة التعليم العالي

جامعة أم القرى

كلية الدعوة وأصول الدين

قسم الكتاب والسنة

تخصص التفسير وعلوم القرآن الكريم

مرحلة الدكتوراه

التناسق الموضوعي في سورة غافر

إعداد الطالب / حسين بن سيد محمد عبد الكريم عبد الغفور

الرقم الجامعي / ٤٣٠٧٠١٧٧

مشرف الرسالة

فضيلة الشيخ الأستاذ الدكتور

جمال بن مصطفى عبد الحميد عبد الوهاب النّجار -حفظه الله تعالى-

١٤٣٤ هـ - ١٤٣٥ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

ملخص الرسالة

بسم الله، والحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

فهذه رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه من جامعة أم القرى، كلية الدعوة وأصول الدين، قسم الكتاب والسنة، تخصص التفسير وعلوم القرآن.

عنوان الرسالة: **(التناسق الموضوعي في سورة غافر)**. وتتكون من مقدمة وبابين وخاتمة، على النحو التالي:

المقدمة: وتتضمن أهمية الموضوع، وسبب اختياري له، وهدفي منه، ومنهجي في دراسته، والدراسات السابقة، وفيها تمهيد:

التمهيد: وفيه مقدمات تعريفية.

الباب الأول: التناسق الموضوعي في سورة غافر، وفيه تمهيد وثلاثة فصول:

التمهيد: عرض موجز للسورة الكريمة.

- **الفصل الأول:** تعريف بسورة غافر، وفيه سبعة مباحث.
- **الفصل الثاني:** خصائص السورة الزمانية والمكانية والتنزيلية والموضوعية، وفيه خمسة مباحث.
- **الفصل الثالث:** جو السورة ومقاصدها ومناسباتها، وفيه ستة مباحث.

الباب الثاني: التناسق الموضوعي في سورة غافر، دراسة تطبيقية، وفيه ثلاثة فصول:

- **الفصل الأول:** صفات منزل القرآن، ومشاهد للفريقين والدارين، ويشمل الآيات (١-٢٠)، وفيه ستة مباحث.
- **الفصل الثاني:** الاعتبار بمصارع الغابرين، وجهاد الرسل والمؤمنين مع أقوامهم بالكلمة، ويشمل الآيات (٢١-٥٥)، وفيه خمسة مباحث.
- **الفصل الثالث:** بيان أحوال المجادلين، وعرض دلائل التوحيد، والوعد بنصر المؤمنين وخسران الكافرين، ويشمل الآيات (٥٦-٨٥)، وفيه ستة مباحث.

وتحت كل مبحث من المباحث السبعة عشر هناك مطالب كالآتي:

- **المطلب الأول:** ربط الموضوع بالمحور الأساس للسورة. - **المطلب الثاني:** التناسق بين هذا الموضوع وسابقه. ما عدا المبحث الأول فليس فيه.
- **المطلب الثالث:** أسباب النزول الواردة -إن وجدت-. - **المطلب الرابع:** التناسب بين الآيات والجمل والكلمات.
- **المطلب الخامس:** التفسير الإجمالي للآيات. - **المطلب السادس:** بيان ما ترشد إليه الآيات.

هكذا في كل المباحث، إلا المبحث الأول في الفصل الأول –بداية السورة-، فإن المطلب الأول فيها: مقدمة السورة، وعلاقتها بالمحور الأساس للسورة.

الخاتمة: وتشتمل على نتائج الدراسة الكلية.

وأهم نتائج الجزء النظري: أن مقصد سورة غافر الأعظم ومحورها الأساسي ووحدتها الموضوعية هو: **ردع العدوان ودفعه عن الرسالة والرسول والمؤمنين ونصرتهم في خضم الصراع بين الحق والباطل في أشد مراحل الاستضعاف بالعهد المكي**.

وأهم نتائج الجزء التطبيقي: أن الآية الموضوعية المحورية لهذه السورة والتي تجذب موضوعات السورة الأخرى نحوها هي قوله تعالى: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ٥١ ﴾غافر: ٥١، ففي هذه الآية تتمثل الوحدة الموضوعية لسورة غافر.

والله تعالى أسأل أن يوفقني لما يحبه ويرضاه، وأن يرزقني الإخلاص في القول والعمل، وأن يتقبل مني بقبول حسن، إنه أعظم مسؤول وأكرم مأمول، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد الصادق الأمين، وعلى آله وصحبه و التابعين.

الباحث / حسين عبد الغفور

Abstract

In the name of Allah, all praise is due to Allah alone, and may prayer and peace be upon His Messenger.

This dissertation is presented as partial fulfillment of the Ph.D. requirement at Umm Al Qura University, Faculty of Da'wah and Theology, the Department of Quran and Sunnah, the specialty of Tafseer and Qur'anic sciences.

Dissertation title**: (Thematic consistency in Sura Ghafir).** The dissertation consists of an introduction, two chapters, and a conclusion as in the following order:

Introduction: includes the explanation of the significance of the topic, the reason for choosing the topic, its objectives, methodology, previous studies, and preface.

Preface: includes the explanation of terms and definitions.

Chapter One: - Thematic consistency in Sura Ghafir - consists of a preface and three parts:

Preface: Brief explanation of the Sura.

Part One: Definition of Sura Ghafir; it has seven sections. -**Part Two:** Temporal, spatial, contextual, and theoretical characteristics of the Sura; it has five sections. -**Part Three:** The environment surrounding the Sura, its objectives, and circumstances; it has six sections.

Chapter Two: - Thematic consistency in Sura Ghafir - an empirical study; it contains three parts.

Part One: The characteristic of the revelation of the Quran, the scenes of the two groups and two worlds (on earth and Hereafter). This includes verses 1-20; it contains six sections. -**Part Two:** Reflections on the demise of the past nations. Jihad of the apostles and believers with their followers on the words of Tauhid; it includes verses 21-55 and it contains five sections. -**Part Three:** The explanation of the state of the polemicists (arguers), justification and evidence of tauhid, the promised victory for believers and the demise of non-believers; it includes verses 56-85 and has six sections.

Under each of the seventeen sections mentioned above there are the following subsections:

-**First subsection:** Linking the topic to the central focus of the Sura. - **Second subsection:** Consistency or agreement between the topic at hand and the previous topics (except for section one). -**Third subsection:** Circumstances of revelation - if any. -**Fourth subsection:** Proportionality and coherence in the verses, sentences, and words. -**Fifth subsection:** Comprehensive explanation of the verses. -**Sixth subsection:** Reference or the directions pointed by the verses.

This is how the subsections are organized except for the first subsection in Part One (beginning of the Sura). The subsection for it is instead - Introduction to the Sura and its relationship with the central focus of the Sura.

Conclusion: includes the overall results of the study.

The most important results of the theoretical section: the goal of the Surat Ghafir, its primary focus, and the unity of its topic are aimed at deterring any aggression against the mission, the Prophet, and the believers and ensuring victory to them in their efforts to uphold truth and abhor evil during the most vulnerable stages of the Mecca struggle.

The most important results of the implementation section: the central and integral part of the Surat and one that ties together with other similar Sura is the verse: {Surely, We shall help Our Messengers and the believers both in this world and on the Day when the witnesses rise} ghafir:51. There is an extent of thematic unity of the Sura Ghafir in this particular verse.

I ask Allah to guide me to what He loves and which He pleases, and to bless me with sincerity in words and actions, and to accept my good deeds with His blessings for Allah is the greatest of whom we can ask and look forward to. May Allah pour his blessings and peace upon our Prophet Muhammad al-Sadiq al-Amin and his family, companions, and followers. **Researcher: Hussain Abdul Ghfoor.**

الإهداء

* إلى الذين إذا ذكروا الله وجلت قلوبهم، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا، وإذا استمعوا للقول اتبعوا أحسنه، وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه، إليهم وإلى إخواننا المسلمين في مشارق الارض ومغاربها أهدى هذا العمل.

* إلى من أمسك بيدي الصغيرة في أول يوم دراسي من عام ١٤٠٥ هـ وأخذني إلى المدرسة الفيصلية الابتدائية لأبدأ مشوار العلم والأدب، والذي أقف اليوم بعد ثلاثين عاما في آخر مراحله النظامية، ثلاثون عاما وهو يعطني الأمل والمال، ويبذل لي وقته وفكره وصحته، ليبصر فيّ يوما حصادا يانعا، وثمرا نافعا، وذخرا باقيا، فله مني اليوم هذا الإهداء بكل البر والحب والتقدير، وجميل الذكر والشكر الجزيل، إلى **والدي الحبيب.**

* إلى التي استقبلت مني أول ما استقبلت الألم والتعب، فقابلت ذلك بالرعاية والعناية والحب، واستأنفت معي مسيرة من العطاء لا تعرف كللا، ورحلة من الحنان لا تنضب أبدا، ومراحل من السهر الطويل، والعمل الكثير، ساعية لغرس كل فضيلة، وإبعاد كل رذيلة، ولسانها لا تفتر عن الدعاء في كل حين، فلها مني اليوم هذا الإهداء مع قمم المحبة والوفاء، وسماء الشكر والعرفان، ودعاء الليل والنهار، وأقصى البر والإحسان، إلى **أمي الغالية.**

* إلى الذين شاركوني رحلة هذه الحياة، منذ اللحظات الأولى وحتى الساعة، وكان الحب منهم لا ينضب، والدعم لا ينقطع، والصحبة والرفقة لا تنقضي، فلهم مني هذا الإهداء مع الاعتراف بالجميل، والمكافأة بالجزيل، وكل الحب والتقدير، إلى **إخواني وأخواتي الأعزاء.**

* إلى التي استلمت الأمانة من أمي، وجعلت البيت سكنا وراحة لي، وضحّت بفراق أهلها وبلدها من أجل مرافقتي رحلة الحياة، وبذلت جهدها، وساندت وآزرت وشجعت، ووضعت الخطط والبرامج لأتمكن من إنجاز هذه الرسالة على أحسن وجه، وصبرت في ذلك كله، وهيأت من حولي أجمل مناخ وأهدأ مكان، فلها مني اليوم الإهداء معطرا بالشكر والثناء، وجميل العطاء، والذكر الحسن والدعاء، إلى **زوجي الكريمة.**

* وختاما، وأنا أخطو خطواتي الأخيرة في الحياة الدراسية الجامعية، أتوقف، وتعود بي الذاكرة للأستاذ عبد الفتاح، أول أستاذ علمني أبجديات العلم، وبدايات القراءة والكتابة، وتمتد الذكريات عبر عشرات وربما مئات من الأساتذة والمشايخ الذين علموني الخير، وكانوا السبب بعد توفيق الله تعالى لما أنا عليه اليوم، وتمضي بي الذاكرة لتقف على أعوام قضيتها في رحاب جامعة أم القرى مرحلة تلو مرحلة، مع أساتذتي الكرام ومشايخي العظام، الذين قدموا لي الكثير، باذلين بذلك جهودا كبيرة في بناء جيل الغد لبعث فجر الأمة من جديد، فإلى هؤلاء جميعا مني خالص الدعاء مع الشكر والتقدير، والحب والاحترام، وإليهم جميعا أهدي هذا الجهد والعمل، الذي أسأل الله أن يتقبله بقبول حسن، وأن يجعل لهم ولي أجره سواء، وأن ينفع به الجميع، آمين.

حسين عبد الغفور

شكر وتقدير

إنّ كل شكرٍ فهو لله أولا وآخرا، وكل حمدٍ فهو له سبحانه ابتداء وانتهاء، فله وحده المنة والفضل علي وعلى الخلق أجمعين، وقد جعل الله تعالى من شكره شكر من سخّر من عباده لنفع الآخرين وبذل الخير والمعروف والعلم النافع لهم، فبشكري لربي ومولاي أتوجه بالشكر الجزيل لكل من شارك وساهم بقليل أو كثير في إتمام هذا البحث وإنجازه على هذا النحو الحسن، وأخصّ منهم الأقربين من أهلي وعشيرتي الذين بذلوا الخدمة والنصح، وساعدوا بكل وجه ممكن، وألسنتهم تلهج بالدعاء لي بالتوفيق والتيسير والتسديد والنجاح.

ثم أتوجه بالشكر الجزيل والعرفان الجميل إلى جامعة أم القرى الراعية والحاضنة والمعلمة والمربية، فهذا الصرح المكي الشامخ له مني كل إجلال وتقدير، وأخصّ بذلك كلية الدعوة وأصول الدين وعميدها الشيخ المبارك الذي يتابع العمل إثر العمل للارتقاء بهذه الكلية ورفع شأنها وزيادة نفعها وخيرها، هو ومن معه من منسوبي هذه الكلية المباركة أهل الفضل والإحسان والخلق الحسن، فلهم مني كل شكر وتقدير وعرفان بالجميل.

ولقسم الكتاب والسنة، ورئيسها الكريم ذو الفضل والدين والخلق الحميد، وجميع منسوبيها نصيب وافر من شكري وامتناني، فقد تعاملت معهم مباشرة فقدموا لي الخير، ويسروا لي الأمور، وذللوا أمامي الصعاب، فجزاهم الله عني كل خير.

كما أتوجه بالشكر العميق الذي لا يحده حد، والتقدير العظيم الذي لا يقدر قدره أحد -إلا الله تعالى- إلى كافة أساتذتي ومشايخي الذين تتلمذت على أيديهم في السنة المنهجية، فقد استفدت منهم علما وأدبا، ودينا وخلقا، وعلى رأسهم المشرف على رسالتي فضيلة الشيخ الأستاذ الدكتور / جمال بن مصطفى عبد الحميد عبد الوهاب النجار، الذي لازمته مشرفا على رسالتي في مرحلتي الماجستير والدكتوراه، فلم أر منه إلا بذل النفس طيبة لخدمة الطلاب بكل وجه ممكن، مع علمه الغزير وخلقه الجميل، فله مني كل حب وشكر وتقدير ودعاء، وجزآه الله عني خير الجزاء وأوفاه.

ولا يفوتني أن أتوجه بالشكر العميم إلى مرشدي الكريم فضيلة الشيخ الأستاذ الدكتور / صديق بن أحمد مالك، الذي استقرّ اختيار هذه الرسالة على يديه، فله مني الشكر والدعاء على كل نصح وإرشاد قدمه إلي، وكل وقت ثمين بذله لي.

وأشكر مقدما الشيخين الكريمين، والعالمين الفاضلين، الّذَين سأَشرُف قريبا -بإذن الله تعالى- وأسعد بقراءتهما لرسالتي هذه، واقتطاعهما جزء ثمينا من وقتهما لمناقشة الرسالة وإسداء التوجيهات والملاحظات النافعة والقيمة، فلهما مني كل شكر وتقدير سلفا، ولهما مني صالح الدعاء بالبركة في العمر والعلم والعمل، جزآهما الله عني كل خير، وجعل جهدهما مأجورا مشكورا.

والحمد والشكر لله أولا وآخرا، لا إله إلا هو، لا أحصي ثناء عليه، هو كما أثنى على نفسه.

التناسق الموضوعي في سورة غافر

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، منزل الكتاب الكريم، والصلاة والسلام على رسول الله الأمين، مبلغ الذكر الحكيم، وعلى آله وصحبه والتابعين، ومن تبعهم على النهج القويم، أما بعد ...

فإنه ما من معجزة، حسية كانت أو معنوية، فانية كانت أو باقية، إلا وقد آمن عليها خلق من الناس، وأعرض عنها خلق آخرون، فتقرر بهذا: أنه ليس من لوازم المعجزات أن يؤمن بها الجميع، بل سيظل السجال قائما بين الحق والباطل، وستبقى المدافعة قائمة بين أهل الحق وأهل الباطل، حتى يأتي وعد الله، ثم يُنْبِئُ الله جميع الخلائق بما كانوا فيه يختلفون، ويحكم بينهم بالحق وهو خير الحاكمين.

وإن من أعظم معجزات الله تعالى التي أنزلها للناس كافةً باقيةً خالدةً إلى يوم الدين، هي معجزة القرآن الكريم، قد آمن به وخضع له أقوام على مر العصور وتعاقب الدهور، كثير منهم هم أعقل الناس وأعلم الناس وأفهم الناس وأذكى الناس وأطهر الناس، فظهرت لهم معجزاته، وانكشفت لهم أنواره وهداياته، فأذعنوا، وأسلموا قلوبهم لله ﴿ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾الأنعام:٨٨.

وقد كفر به وأعرض عنه أقوام، أغلبهم أنصفتهم عقولهم لكنهم ما أنصفوها، وبيّنت لهم علومهم الحق لكنهم ما قبلوا بيانها، وأوضحت لهم أفهماهم وقلوبهم الهدى لكنهم ما خضعوا ولا أسلموا، بل اتبعوا أهواءهم، فأضلوا أنفسهم، ﴿وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾﴾المائدة:٧٧.

وقد جعل الله تعالى هذا القرآن هداية للناس إلى كل خير، وإرشاداً لهم إلى الحق المبين، أنزله نوراً وهدى للناس، فيه صلاح حياتهم ومعادهم، وسعادة دنياهم وأخراهم ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾المائدة:١٥-١٦.

ولتتحقق هداية القرآن الكريم الشاملة، كان -ولابد- أن يكون هذا النور المبين صالحاً لكل زمان ومكان، وقد كان هذا، فلا زالت أنوار القرآن الكريم تشع كأنما أنزل اليوم، فلا عجائبه تنقضي، ولا علومه تفنى، وقد أثر عن بعض السلف أن العبد لو أعطي بكل حرف من القرآن ألف فهم لم يبلغ نهاية ما أودعه

الله في آية من كتابه[1]؛ لأنه كلام الله الذي تكلم به وأودع فيه من الحكم والأسرار ما لا يستطيع عبدٌ إحصاءها أو فهمها.

وفي هذا قال الدكتور محمد دِراز[2]: "وتقرأ القطعة من القرآن فتجد في ألفاظها من الشفوف والملاسة والإحكام، والخلو من كل غريب عن الغرض، ما يتسابق به مغزاها إلى نفسها دون كدِّ خاطر ولا استعادة حديث، كأنك لا تسمع كلامًا ولغات، بل ترى صورًا وحقائق ماثلة، وهكذا يخيل إليك أنك قد أحطت به خُبرًا ووقفت على معناه محدودًا، هذا ولو رجعت إليه كرة أخرى لرأيتك منه بإزاء معنى جديد غير الذي سبق إلى فهمك أول مرة، وكذلك.. حتى ترى للجملة الواحدة أو الكلمة الواحدة وجوهًا عدة، كلها صحيح أو محتمل للصحة ... وهكذا نجد كتابًا مفتوحًا مع الزمان يأخذ كل منه ما يُسِّرَ له؛ بل ترى محيطًا مترامي الأطراف لا تحده عقول الأفراد ولا الأجيال"[3].

ومن أبدع علوم القرآن الكريم هو ما ألهمه الله وعلَّمَهُ وفتح به على قلوب وعقول هذه الأمة في هذه الأجيال المتأخرة المتخلفة، لتجد به طريقا إلى الهدى والرشاد بعد التيه والاعتلال، وهذا العلم هو التفسير الموضوعي.

والتفسير الموضوعي علم مستمد من التفسير الأصيل، ومتجدد على أساسٍ منهجي سليم، وهو نوع من أنواع التفسير، قد بدأت أصوله تترسخ، ومنهاجه تتضح منذ نصف قرن من الزمان، وأقرّ تدريسه في الجامعات، فهو إلى جانب التفسير التحليلي والإجمالي والمقارن أصبح يشغل حيزاً في الدراسات القرآنية المعاصرة.

ومساهمة في إبراز هدايات القرآن الكريم وأنواره من باب التفسير الموضوعي، أتقدم بهذه الرسالة لدراسة التناسق الموضوعي في سورة غافر.

وسورة غافر المكية "تعالج قضية الحق والباطل، قضية الإيمان والكفر، قضية الدعوة والتكذيب، وأخيراً قضية العلو في الأرض والتجبر بغير الحق، وبأس الله الذي يأخذ العالين المتجبرين، وفي ثنايا هذه

---

١) انظر: البرهان في علوم القرآن للزركشي (٩/١).

٢) هو محمد بن عبد الله دراز، العالم الأزهري الفقيه الأديب من هيئة كبار العلماء بالأزهر، مؤلف كتاب (النبأ العظيم) الذي قاله عنه الشيخ عبد الستار فتح الله: "إنه كتاب صغر حجمًا وغزر علمًا، وهو من أعاجيب الكتب في الإسلام، وهو يمثل أعجوبة الدراسة"، انظر: مقدمة محقق النبأ العظيم لأحمد فضيلة (٢٨/١). ولد عام ١٣١٢ هـ، وتوفي سنة ١٣٧٧ هـ، -رحمه الله تعالى رحمة واسعة-. انظر: الأعلام للزركلي (٢٤٦/٦). ومعجم المؤلفين لكحالة (٢١٢/١٠-٢١٣).

٣) النبأ العظيم لمحمد دراز (١٥١/١-١٥٢).

القضية تلم بموقف المؤمنين المهتدين الطائعين ونصر الله إياهم، واستغفار الملائكة لهم، واستجابة الله لدعائهم، وما ينتظرهم في الآخرة من نعيم.

وجو السورة كله -من ثم- كأنه جو معركة، وهي المعركة بين الحق والباطل، وبين الإيمان والطغيان، وبين المتكبرين المتجبرين في الأرض وبأس الله الذي يأخذهم بالدمار والتنكيل، تنسم خلال هذا الجو نسمات الرحمة والرضوان حين يجيء ذكر المؤمنين!

ذلك الجو يتمثل في عرض مصارع الغابرين، كما يتمثل في عرض مشاهد القيامة -وهذه وتلك تتناثر في سياق السورة وتتكرر بشكل ظاهر- وتعرض في صورها العنيفة المرهوبة المخيفة متناسقة مع جو السورة كله، مشتركة في طبع هذا الجو بطابع العنف والشدة ... وعلى العموم فإن السورة كلها تبدو وكأنها مقارع ومطارق تقع على القلب البشري وتؤثر فيه بعنف وهي تعرض مشاهد القيامة ومصارع الغابرين، وقد ترق أحياناً فتتحول إلى لمسات وإيقاعات تمس هذا القلب برفق، وهي تعرض حملة العرش ومن حوله يدعون ربهم ليتكرم على عباده المؤمنين، أو وهي تعرض عليه الآيات الكونية والآيات الكامنة في النفس البشرية"[١].

وتشتمل الدراسة على الآتي:

أولا : أهمية الدراسة :

من المعلوم أن تفسير القرآن على أربعة أنواع:

تفسير إجمالي، وتفسير تحليلي، وتفسير مقارن، وتفسير موضوعي.[٢]

فالتفسير الإجمالي: يراد به بيان معاني الآيات القرآنية كلها على وجه الإيجاز والاختصار، والاقتصار على حاصل المقصود والمراد منها، بدون توسع أو تفصيل، وبدون زيادة في المباحث التفصيلية في العقيدة أو اللغة أو الفقه.

والتفسير التحليلي: يعنى بدراسة وتحليل أجزاء الآيات القرآنية من المفردات والجمل، من حيث المراد الشرعي، والأصل اللغوي، والدلالة الإفرادية، والدلالة التركيبة، وصولاً إلى بيان معاني الآيات كلها، ومعرفة الغرض منها، آية آية، من أول القرآن الكريم إلى آخره.

---

١) في ظلال القرآن لسيد قطب (٣٠٦٥/٥).

٢) مباحث في التفسير الموضوعي لمصطفى مسلم (٣١/١، ٥٢-٥٤).

والتفسير المقارن: يراد به الوقوف عند أقوال المفسرين في معنى الآية القرآنية، عن طريق الجمع والاستقصاء، ثم المقارنة والموازنة، ثم الاختيار والترجيح.

وأما التفسير الموضوعي فيبحث في ثلاث اتجاهات:

فيبحث في أحد اتجاهاته في موضوع محدد عرض له القرآن الكريم من خلال جمع الآيات التي تتصل به من القرآن كله.

ويحاول في اتجاه ثاني دراسة مصطلح قرآني ليستخرج منه المعاني والدلالات واللطائف والحقائق.

ويحاول في اتجاه ثالث كشف الموضوع الرئيس الذي تعالجه السورة القرآنية، والموضوعات الفرعية التي تخدمه، فيما يسمى بـ (الوحدة الموضوعية للسورة القرآنية) أو (التناسق الموضوعي في السورة).

وتنبع أهمية هذا الموضوع من وثيق اتصاله بالقرآن الكريم، وأنه يدور حول المقصد الأساسي من علم التفسير كله، حيث تظهر أهمية هذه الدراسة في الأمور الآتية:

١-إنّ وحدة النسق في السور القرآنية من أبرز خصائص أسلوب القرآن الكريم وأحد دلائل إعجازه، وقد أشار إلى هذا بعض العلماء، يقول الشيخ محمد رشيد رضا (ت:١٣٥٤هـ): "إن التفنن في مسائل مختلفة منتظمة في سلك موضوع واحد هو من أنواع بلاغة القرآن وخصائصه المدهشة التي لم تسبق لبليغ، ولن يبلغ شأوه فيها بليغ، ... والكلام لم يخرج بهذا التنويع عن انتظامه في سلكه، وحسن اتساقه في سبكه، فهو دائر على قطب واحد في فلكه"[١].

وأكد هذا المعنى سيد قطب (ت:١٣٨٥هـ) فقال بأن لكل سورة من سور القرآن الكريم شخصية مميزة، شخصية لها روح يعيش معها القلب كما لو كان يعيش مع روح حي مميز الملامح والسمات والأنفاس، ولها موضوع رئيسي أو عدة موضوعات رئيسية مشدودة إلى محور خاص، ولها جو خاص يظلل موضوعاتها كلها ويجعل سياقها يتناول هذه الموضوعات من جوانب معينة تحقق التناسق بينها وفق هذا الجو.[٢]

---

١) تفسير المنار (١/٢٤٠).

٢) انظر: في ظلال القرآن (٢/١٩٨).

٢-إنّ دراسة أسلوب القرآن الكريم وبيان إعجازه ومباينته لأساليب ومناهج التآليف البشرية لا يزال بحاجة إلى مزيد دراسة وعناية خصوصاً فيما يتعلق ببناء السورة القرآنية الواحدة، وخصائص وبلاغة هذا البناء بجوانبه المختلفة، فلا يزال هذا المجال بكراً يحتاج عناية الباحثين واهتمامه، وتأتي هذه الدراسة خطوة في هذا السياق.

٣-إنّ سورة غافر من السور المثاني التي تنتمي لمجموعة متميزة من سور القرآن الكريم لها خصائصها وأسلوبها وموضوعاتها وهي مجموعة سور آل حم السبعة، وسورة غافر هي أول سورة في هذه المجموعة، فكانت دراستها والتأمل فيها ودراسة موضوعاتها من الأهمية بمكان لإبراز هدايات هذه السورة والوقوف على خصائص وموضوعات وأهداف سور الحواميم عموما، وأول سورة فيها خصوصا.

٤-إنّ في دراسة التناسق الموضوعي في السور القرآنية رد على من يطعن في كلام الله تعالى، ويرى أنّ في موضوعات السور القرآنية اضطرابا وعشوائية، وذلك ليتوصل إلى نتيجة مفادها أنّ القرآن الكريم وليد فكر بشري لا وحي إلهي.

٥-إنّ الوقوف على التناسق الموضوعي في السورة الواحدة، وإظهار الترابط والتناسق في نظمها ومعناها وموضوعاتها يدفع المسلم إلى شحذ الهمم لدراسة كتاب الله عز وجل، وتدبر آياته، من أجل الوقوف على هداياته في جميع المجالات.

ثانيا: أسباب اختيار الموضوع:

إن مما دفعني لاختيار هذا البحث العديد من الأسباب، منها:

أولا: دافع شرعي:

- رغبة في خدمة الكتاب العزيز وإبراز هداياته وأنواره ووجوه إعجازه لتنتفع به الأمة.

- رغبة في نيل رضوان الله تعالى وثوابه؛ لما في دراسة القرآن الكريم من الأجر العظيم، والثواب الجزيل، والشرف الرفيع في الدنيا والآخرة، فهو أحق ما صرفت إليه الأفهام، وبذلت فيه الجهود، وقضيت به الأيام، ولهذا قد رأينا سلفنا الصالح رضوان الله تعالى عليهم بذلوا جلّ أوقاتهم، وأزهى أعمارهم، في تدبر آياته، فنالوا بذلك شرف العلم وشرف المعلوم، قال ابن عطية (ت:٥٤٢): "لما أردت أن أختار لنفسي، وأنظر في علم أعد أنواره لظلم رمسي، سبرتها بالتنويع والتقسيم، وعلمت أن شرف

العلم على قدر شرف المعلوم، فوجدت أمتنها حبالا، وأرسخها جبالا، وأجملها آثارا، وأسطعها أنوارا، علم كتاب الله"[١].

- رغبة في أن يكون هذا التفسير أداة لرفع درجات اليقين، بحيث لا يخلص القارئ من صفحة إلى أخرى إلا وقد ارتقى يقينه، هذا مع تصحيح التصورات وزيادة العلم، فإن التفسير إذا لم يخدم قضية الإيمان –وخصوصا في عصرنا المادي الشهواني– فكأن المفسر لم يفعل شيئا، والله عز وجل يقول: ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا ﴾ الأنفال:٢، فالأصل الأصيل هو أن يتعمق الإيمان بتلاوة الآيات، وعلى المفسر أن يساعد في ذلك، مع أن كثيرا من التفاسير يفترض أصحابها سلامة الإيمان وكماله، ومن ثمّ يركزون على النكت والشروح والفوائد ومناقشة الخصوم، وكل ذلك له فوائده، غير أن من أهداف هذا البحث خدمة قضية زيادة الإيمان.

ثانيا: دافع منهجي وموضوعي:

- قلة الدراسات في هذا المجال نسبة إلى غيره من العلوم الأخرى المتعلقة بكتاب الله تعالى، فرأيت أن أتناول سورة غافر بدراسة موضوعية؛ كونها مليئة بالموضوعات والتوجيهات القرآنية، التي في مجموعها تشكل مصبا واحدا، هو مدافعة الباطل بالحق وقوة الحوار مع الأدب.

- قلة من كتب في التناسق الموضوعي لسور القرآن الكريم، خاصة إذا دققنا النظر في سورة غافر –حسب اطلاعي– فلا يوجد من تناول الوحدة الموضوعية فيها برسالة علمية مستقلة وافية وشاملة، وإنما هناك من أشار في بطون بعض الكتب والرسائل إشارة عابرة عند حديثه عن هذه السورة، وسيأتي ذلك مفصلا عند استعراض الجهود السابقة في هذا الموضوع.

- أهمية هذا اللون من التفسير في بيان الموضوعات التي تناولتها سور القرآن الكريم، وتجليتها على أفضل وجه؛ كونه يتناول الموضوع الواحد في القرآن الكريم، أو موضوعات السورة الواحدة بنوع من التفصيل والإشباع.

- اتجاه أنظار العلماء والباحثين نحو النظر والتدبر في أوجه إعجاز القرآن الكريم من جهة اللفظ والمعنى، ولكنهم لم يعطوا الوحدة الموضوعية ووحدة النظام والتناسق الموضوعي كبير اهتمام.

١) المحرر الوجيز (١/٣٤).

- وأخيرا من الأسباب التي دفعتني إلى اختيار هذا الموضوع هو تلبية للتوجيهات الكريمة من قسم الكتاب والسنة بكلية الدعوة وأصول الدين بجامعة أم القرى، حيث تمت الموافقة على مشروع "التناسق الموضوعي في سور القرآن الكريم"؛ ولذا قمت بالتسجيل في هذا المشروع واخترت: (التناسق الموضوعي في سورة غافر)، وذلك بعد استشارة أساتذتي الأفاضل في قسم الكتاب والسنة؛ وعلى رأسهم مرشدي الفاضل الشيخ الأستاذ الدكتور/ صديق بن أحمد مالك، ومشرفي الفاضل الشيخ الأستاذ الدكتور/ جمال بن مصطفى عبد الحميد عبد الوهاب النجار -حفظهم الله تعالى وجزآهم عني خيرا-، فاستعنت الله تعالى في اختيار هذه السورة الكريمة لتكون موضوع أطروحة الدكتوراه بإذن الله تعالى وتوفيقه وعونه.

ثالثا: أهداف البحث:

أردت من خلال بحثي في هذا الموضوع تحقيق أهداف سامية عديدة ، منها:

أولا: إبراز جانب من جوانب إعجاز القرآن الكريم في النظم البديع، من خلال التّناسق الموضوعيّ في السّورة، والوقوف على الارتباط الوثيق بين موضوعات السّورة ومحورها.

ثانيا: تعريف التناسق الموضوعي في السورة ، وإبراز الفرق بينه وبين التناسب.

ثالثا: دراسة الموضوعات الرئيسية التي تناولتها سورة غافر، وإبراز مدى تناسقها، وتفسيرها في ضوء تناسقها الموضوعي، من خلال البحث العلمي الرصين.

رابعا: الوقوف على الهدايات القرآنية في سورة غافر، والاستفادة منها في واقع حياة المجتمع الإسلامي، وخدمة قضية زيادة الإيمان.

خامسا: إثراء المكتبة الإسلامية بدراسة علمية جديدة تفتقر إليها في الدراسات الموضوعية لسور القرآن الكريم.

رابعا: الدراسات السابقة:

إن الجهود التي قدمت في هذا الموضوع –التناسق الموضوعي- يمكن تصنيفها إلى قسمين: دراسات عامة، ودراسات خاصة:

أولا: الدراسات العامة: فقد اهتم عدد قليل من العلماء بدراسة التناسق بين موضوعات السورة، أو ما يسمى بـ"الوحدة الموضوعية في سور القرآن الكريم"، والتي تمثل قاعدة راسخة، ولبنة قوية، لا غنى عنها في فهم مدلولات الوحدة الموضوعية، إلا أن فهم هذه المدلولات يتسع لتطور العلم، وترقي الفكر، وتوسع المعرفة جيلا بعد جيل، فمن ذلك:

١-مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير للإمام فخر الدين الرازي (ت:٦٠٦هـ)، والذي كان له دورٌ بارزٌ في إظهار الوحدة الموضوعية، والربط بين الآيات والموضوعات، فهو يقول منكرا على المفسرين عدم اهتمامهم بهذا الأمر: "ومن تأمل في لطائف نظم هذه السورة وفي بدائع ترتيبها، علم أن القرآن كما أنه معجز بحسب فصاحة ألفاظه وشرف معانيه، فهو أيضاً معجز بحسب ترتيبه ونظم آياته، ولعلّ الذين قالوا إنه معجز بحسب أسلوبه أرادوا ذلك، إلا أني رأيت جمهور المفسرين معرضين عن هذه اللطائف غير متنبهين لهذه الأمور، وليس الأمر في هذا الباب إلا كما قيل:

والنجم تستصغر الأبصار رؤيته ... والذنب للطرف لا للنجم في الصغر"[1].

٢-مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور للإمام برهان الدين البقاعي (ت:٨٨٥هـ)، حيث كان البقاعي مؤمنا بأن القرآن كله وحدة واحدة، وأن كل سورة جزء من هذه الوحدة القرآنية العامة، وأن آيات كل سورة تتناسق وتتناسب لِتُكَوِّنَ فيما بينها وحدة واحدة للسورة، وقد أدار تفسيره "نظم الدرر" على هذا الأساس، وقدم تحليلات رائعة ونفيسة، ويمكن القول بأن الموضوع الأصلي للكتاب كان يتناول "مقاصد السور القرآنية" وهو جزء لا يتجزأ عن الوحدة الموضوعية، بل نقول: إن المقاصد القرآنية هي جزء من الوحدة الموضوعية، والحقيقة أن هذا الموضوع من الأهمية بمكان، حيث لم نجد أحدا من القدماء -ممن سبق البقاعي- وجه اهتمامه عند تفسيره لكتاب الله إلى هذا إلا شذرات متناثرة هنا وهناك، لا تعدو عن محاولات ينقصها الاستيعاب والشمول.

٣- نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان للمعلم الهندي عبد الحميد الفراهي[2]، ولم يتم تفسيره هذا، وله تحليلات لطيفة في السور التي فسرها، وله آراء سديدة في الوحدة الموضوعية للقرآن.

---

١) مفاتيح الغيب للفخر الرازي (١١٢/٧).

والبيت لأبي العلاء المعري. انظر: دمية القصر للباخرزي (١٦٤/١). والكشكول لبهاء الدين الهمذاني (٣٠٦/١).

٢) هو عبد الحميد بن عبد الكريم الفراهي الهندي، أبو أحمد، أحد العلماء المبرزين في علوم القرآن والعربية، ولد عام ١٢٨٠ هـ، وتوفي عام ١٣٤٩ هـ، -رحمه الله تعالى رحمة واسعة-. انظر: مقدمة مفردات القرآن للفراهي لمحققه محمد أجمل الإصلاحي (١١/١-٤١).

٤- النبأ العظيم للدكتور محمد عبد الله دراز، حيث بيّن في كتابه هذا أن القرآن الكريم كله وحدة موضوعية، وأن السورة القرآنية سواء القصيرة منها أو الطويلة، هي كذلك تشكل في حد ذاتها وحدة موضوعية، وقدم دراسته التطبيقية على سورة البقرة التي تعد أطول سور القرآن الكريم، كنموذج على ما ذهب إليه من القول بالوحدة الموضوعية، وقد أبدع في كتابه هذا أيما إبداع..

٥- في ظلال القرآن لسيد قطب، وهو من أبرز من قال بالوحدة الموضوعة في سور القرآن الكريم، وتحليلاته للسور القرآنية وبيانه لموضوعاتها الرئيسية في غاية الروعة والنفاسة، لا تجدها عند غيره من المفسرين السابقين والمعاصرين.

٦- التحرير والتنوير للشيخ محمد الطاهر بن عاشور (١٣٩٣هـ)، فهو كثيرا ما يذكر موضوع السورة الكريمة مبينا ما فيها من محاور وأحكام أدبية وتشريعية، ويعتبر تفسيره من أهم الكتب التي خدمت التناسق الموضوعي في القرآن الكريم، قال في مقدمة تفسيره: "ولم أغادر سورة إلا بينت ما أحيط به من أغراضها لئلا يكون الناظر في تفسير القرآن مقصورا على بيان مفرداته ومعاني جمله كأنها فقر متفرقة تصرفه عن روعة انسجامه وتحجب عنه روائع جماله"[١].

٧- الوحدة الموضوعية للقرآن الكريم للدكتور محمد محمود حجازي[٢]، صاحب التفسير الواضح، وفي رسالته هذه يتناول وحدة الموضوع في القرآن.

٨- الأساس في التفسير لسعيد حوّى[٣]، وقد خدم التناسق الموضوعي والوحدة الموضوعية بأسلوب فريد، ويعد أبرز من كتب في هذا المجال، فلا يستغنى عن تفسيره للباحثين في نظام القرآن وترابط موضوعاته، قال في مقدمة تفسيره: "دندن علماؤنا حول الصلة بين آيات السورة الواحدة، وحول الصلة بين سور القرآن، وحول السياق القرآني، وجاءت نصوص تتحدث عن أقسام القرآن: قسم الطوال، وقسم المئين، وقسم المثاني، وقسم المفصل، ... وفي عصرنا -الذي كثر فيه السؤال عن كل شيء- أخذ كثيرون من الناس يتساءلون عن الصلة بين آيات القرآن الكريم وسوره، وعن السر في تسلسل سور القرآن على هذه

---

١) التحرير والتنوير (٨/١).

٢) هو محمد محمود حجازي، مصري من علماء الأزهر، من أبرز مصنفاته (التفسير الواضح)، و (الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم)، التراجم عنه شحيحة، ولد عام ١٩١٤م، ولا يعرف سنة وفاته -رحمه الله تعالى رحمة واسعة-. انظر: مناهج المفسرين لمنيع محمود (٣٧٧/١).

٣) هو سعيد بن محمد بن ديب حوّى، أبو محمد، أبرز الدعاة الإسلاميين المنتمين إلى جماعة الإخوان المسلمين، كاتب أديب موسوعي، ولد في حماة، ودرس على يد عدد كبير من المشايخ، وكتب سيرة ذاتية لنفسه بعنوان (هذه تجربتي وهذه شهادتي) فيها صراحة عجيبة، وكان قد كُلِّف بوضح مناهج تربوية وتعليمية لجماعة الإخوان، مما جعل حياته تكريساً للدعوة والتأليف، وقد أورد صاحب الترجمة قائمة بمؤلفاته حتى عام ١٤٠٧ هـ في آخر مذكراته، ولد سنة ١٣٥٤هـ، وتوفي بالأردن سنة ١٤٠٩هـ. -رحمه الله تعالى رحمة واسعة-. انظر: تكملة معجم المؤلفين لمحمد خير يوسف (٢١٠/١-٢١٢).

الشاكلة المعروفة، فأصبح الكلام في هذا الموضوع من فروض العصر الذي نحن فيه، ولقد منّ الله عليّ في أن أسد هذه الثغرة مصححا الكثير من الغلط في هذا الشأن، ومضيفا أشياء كثيرة لم يسبق أن طرقها أحد"[١].

ومن أهم مميزات تفسيره اشتماله على نظرية كاملة في الوحدة الموضوعية شاملة لجميع سور القرآن، وهي قائمة على اعتبار سورة البقرة تفصيلا لما أجملته سورة الفاتحة، وأن ما بعد سورة البقرة تفصيل لها؛ ولكل قسم ومجموعة ولكل سورة وحدتها الموضوعية، ومحورها من سورة البقرة التي تقوم بالتفصيل فيه، وهذه النظرية على هذه الصورة لم يسبقه إليها أحد.[٢]

٩-وهناك موسوعة (التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم) والذي قام به نخبة من علماء التفسير وعلوم القرآن، تحت إشراف الأستاذ الدكتور مصطفى مسلم[٣]، وهي من إصدارات جامعة الشارقة، وقد تناولت هذه الموسوعة موضوعات كل سورة من سور القرآن الكريم.

ولعلي أشير هنا إلى أبرز الفروقات بين هذه الموسوعة وبين ما سيقوم به الباحث في رسالته "التناسق الموضوعي في سورة غافر":

- (موسوعة التفسير الموضوعي لسور القرآن) على جلالة قدر من كتب فيها يلاحظ عليها الاختصار؛ حيث تناولت جميع سور القرآن الكريم مما أدى للاجتزاء فلم تأخذ كل سورة حقها كافيا.
- لم تتناول الموسوعة الألفاظ وتحليلاتها، ولا الربط بين الجمل داخل الآية الواحدة.
- لم تتناول الموسوعة براعة استهلال الانتقال من موضوع لآخر.
- لا يوجد فيها الربط الكافي بين الآيات وبين الموضوع العام للسورة.

وهذه الجوانب المهمة التي أغفلتها الموسوعة، سيتناولها الباحث، وقد وضعت الخطة على أساسه.

ثانيا: الدراسات الخاصة: وأقصد بها تناول سورة غافر بدراسة موضوعية كافية شافية، فمن خلال اطلاعي لم أجد من كتب في التناسق الموضوعي لهذه السورة، إلا ما جاء عاما في بطون الكتب، مثل

١) الأساس في التفسير (٩/١).

٢) انظر: نظرية الوحدة الموضوعية للقرآن الكريم من خلال كتاب (الأساس في التفسير) لأحمد الشرقاوي (٥٥/١).

٣) هو مصطفى مسلم محمد، أستاذ في التفسير وعلوم القرآن، وخبيرٌ في مركز تفسير للدراسات القرآنية، سوري الجنسية، حصل على شهادة الدكتوراه من جامعة الأزهر قسم أصول الدين تخصص علوم القرآن، وعمل أستاذا مشاركا للدراسات القرآنية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ثم أستاذا بجامعة الشارقة، والآن متفرغ لبحوثه الخاصّة، وله إنتاج علمي ضخم في تخصصه، ولد عام ١٩٤٠م، -حفظه الله تعالى ونفع بعلمه-. انظر: موقع المكتبة الشاملة على الشبكة العنكبوتية.

موسوعة التفسير الموضوعي لسور القرآن المذكور آنفا، والذي ذكروا فيه باختصار الموضوعات التي اشتملت عليها سور القرآن الكريم، ومنها سورة غافر.

ولم أجد -بعد البحث- من تناول سورة غافر بدراسة موضوعية خاصة أو من حيث التناسق الموضوعي.

خامسا: منهجية البحث:

تقوم طريقة البحث في هذه الدراسة على أساس منهجي، هو: المنهج الاستقرائي:

ويتمثل في دراسة أقوال المفسرين في معاني الآيات الكريمات في سورة غافر، على أن تنطبق عليها الضوابط والمحددات التي سبق شرحُها في (حدود الدراسة)، ومعلوم أن التفسير الموضوعي يمر عبر بوابة التفسير التحليلي، فالموضوعي بذلك ليس مبتور الصلة بالتفسير التحليلي.

و كذلك تحليل الموضوعات التي اشتملت عليها السورة الكريمة، وانطباقها على الأصول التي قررتها الدراسة النظرية للتناسق الموضوعي، وبيان أوجه ذلك التناسق وربط الموضوعات والآيات بعضها ببعض، وبيان أوجه علاقتها بالمحور العام للسورة.

سادسا: طريقة البحث:

إن الطريقة المتبعة في تقسيم الموضوع هي طريقة البحوث العلمية الأكاديمية المتبعة في موضوعات الوحدة الموضوعية للسورة الواحدة على النحو التالي:

- ذكر أهداف السورة وموضوعاتها –الأساسية والفرعية-.
- الكشف عن المحور الأساسي الذي ترمي إليه السورة بموضوعاتها المتعددة.
- بيان علاقة اسم السورة بموضوعها الكلي، وبيان اختصاصها بما اختصت به.
- تقسيم السورة إلى محاور، ووضع عنوان مناسب لكل محور ذي موضوع واحد.
- بيان اتصال كل محور من محاور السورة بالمحور الأساسي للسورة.
- كتابة الآيات الخاصة بالموضوع الواحد، والتحدث عن سبب نزولها إن كان لها سبب، ومحاولة معرفة المناسبة بين كل محور وآخر، وربط كل محور بما قبله وما بعده.

- تفسير آيات الموضوع تفسيرا موضوعيا إجماليا وسطا ليس بالإيجاز المخل، ولا بالإطناب الممل.

وقد راعيت في هذا التفسير ما يلي:

- بيان الصلة بين جمل وكلمات الآية الواحدة بإيجاز.
- بيان الصلة بين آيات الموضوع الواحد.
- بيان بلاغة التعبير القرآني في الموضوع الذي يخدم هدف السورة، أو محور من محاورها.
- مراعياً في ذلك ربط موضوعات السورة بموضوعها المحوري وإبرازه، وبيان مناسبة ذلك، بحيث تظهر السورة في نسق موضوعي واحد، ترتبط بالمقاصد الأساسية للقرآن الكريم.
- أنبه في ختم آيات كل موضوع من موضوعات السورة إلى ما ترشد إليه الآيات، وتحت هذا العنوان أركز على أهم الحقائق والدلالات والإرشادات التي تتضمنها تلك الآيات، وربطها بواقع الأمة الإسلامية.
- الإشارة إلى المقاصد واللطائف والنكات التي وردت في الآيات، بما يخدم إبراز التناسق الموضوعي في السورة.

مراعياً عند كتابة البحث المنهجية العلمية، وذلك في الأمور التالية:

- كتابة الآيات بالرسم العثماني برواية حفص عن عاصم، مع ذكر رقم الآية وعزوها إلى السورة التي وردت فيها وذلك بعد نهاية الآية أو الآيات، ولا أكرر العزو مرة ثانية في آيات المقطع الواحد، ولا في الآيات المكررة في ذات الصفحة.
- أذكر معلومات النشر المتعلقة بالكتاب الذي أنقل منه في ثبت المراجع والمصادر فقط.
- إذا تم اقتباس كلام من أي كتاب بالمعنى أو بتصرف يسير فإني أكتب العبارات بدون أقواس ثم أشير في الهامش بكلمة (انظر)، وأشير للكتاب الذي تم أخذ المعلومات منه بالجزء والصفحة، وما تم اقتباسه بالنص فأضعه بين قوسين صغيرين " " للتنصيص وأعزوه في الهامش إلى الكتاب المقتبس منه بالجزء والصفحة.

- أنقل آراء المفسرين في الموضع الواحد مرتبا ذلك حسب أوّلية الوفاة؛ وذلك لأن اللاحق عادة يستفيد ممن سبقه.

- أخرج الأحاديث تخريجا علميا موجزا، مكتفيا بالصحيحين إذا كان الحديث فيهما أو أحدهما؛ لصحتهما ولتلقي الأمة لهما بالقبول، وإن لم يكن فيهما أو في أحدهما خرّجته من غيرهما مبتدئا بالكتب الأربعة المتبقية وموطأ الإمام مالك ومسند الإمام أحمد وغيرها، مع ذكر درجة الحديث من إحدى المصادر المعتمدة.

- اكتفي في الآثار المروية عن السلف بعزوها إليهم وتخريجها من أبرز مظانها دون الحكم عليها في الغالب.

- أترجم للأعلام الذين وردت أسماؤهم في صلب البحث في أول موضع يذكر فيه، ولا أترجم لمن استفاضت شهرتهم من الصحابة والأئمة وأكابر العلماء والمصنفين السابقين والمعاصرين.

- أقوم بالتعريف بالأماكن المبهمة التي تحتاج إلى تعريف.

- أقوم بضبط ما يُشكل قراءته أو تتعدد فيه وجوه القراءة، وأترك ما لا يُشكل ولا يتعدد.

- ميزت بالأقواس والنقط ما يلي:

أ- ﴿ ﴾ للآيات القرآنية.

ب- (( )) للأحاديث النبوية.

ت- " " لكلام المصنفين والعلماء من المفسرين وغيرهم.

ث- ... ثلاث نقاط متتابعة في حالة حذف شيء من النص.

ج- ذيلت البحث بفهارس عديدة كاشفة لتيسر الوصول إلى المعلومة.

وسيرى القارئ الكريم -بإذن الله تعالى- في هذا البحث أني لا أتكلف صياغة شيء يحتاجه البحث إذا كان غيري قد صاغه الصياغة التي أرضاها، أو التي تقصر عنها صياغتي أصلا، فليس الهدف إلا وجه الله عز وجل، ثم إحسان هذه الدراسة وإتقانها، مع حرصي على العزو والتوثيق، بل إن الأفكار والمعاني التي يفتح بها الله عليّ ابتداء، ثم أقف لاحقا على منطوقها أو مفهومها عند غيري من المتقدمين أو

المتأخرين فإني أعزو وأشير إليه، توثيقا للمعلومة وتأكيدا لها، وربما رجعت إلى كتب بعض المفسرين المخالفين، ولكن ما أخذت منهم إلا ما يوافق منهج السلف، واجتهدت في تحري الحق والصواب ما استطعت إلى ذلك سبيلا، والله الموفق والمعين.

سابعا: هيكل البحث والدراسة:

ستكون هذه الدراسة -إن شاء الله تعالى- في مقدمة وبابين وخاتمة، وهي على النحو التالي:

المقدمة: وتتضمن أهمية الموضوع، وسبب اختياري له، وهدفي منه، ومنهجي في دراسته، والدراسات السابقة، وفيها تمهيد:

التمهيد: وفيه مقدمات تعريفية:

أولا: تعريف التفسير الموضوعي.

ثانيا: تعريف الوحدة الموضوعية.

ثالثا: تعريف التناسق الموضوعي، وبيان العلاقة بينه وبين كل من الوحدة الموضوعية والتفسير الموضوعي، وذكر فضل وثمرة التناسق الموضوعي.

رابعا: تعريف علم المناسبات، وذكر فوائده وثمراته، وبيان العلاقة بينه وبين كل من التناسق الموضوعي والتفسير الموضوعي، وذكر مواطن الافتراق والاتفاق بينه وبين والتفسير الموضوعي.

خامسا: تعريف علم المقاصد، وبيان المقاصد القرآنية العظمى، والعلاقة بين التناسق الموضوعي والمقاصد الكلية للقرآن الكريم.

سادسا: تعريف السورة القرآنية.

سابعا: تعريف الآية القرآنية.

الباب الأول: التناسق الموضوعي في سورة غافر، وفيه تمهيد وثلاثة فصول:

التمهيد: عرض موجز للسورة الكريمة.

- **الفصل الأول: تعريف بسورة غافر**، وفيه سبعة مباحث:

- **المبحث الأول**: اسم السورة الكريمة.
- **المبحث الثاني**: سبب التسمية.
- **المبحث الثالث**: معاني أسماء السورة.
- **المبحث الرابع**: آل حاميم.
- **المبحث الخامس**: فضائل السورة.
- **المبحث السادس**: فضائل آل حاميم.
- **المبحث السابع**: عدد آيات السورة وكلماتها وحروفها.

- **الفصل الثاني**: **خصائص السورة الزمانية والمكانية والتنزيلية والموضوعية**، وفيه خمسة مباحث:
- **المبحث الأول**: تاريخ نزول السورة.
- **المبحث الثاني**: مكان نزول السورة، والمكي والمدني فيها.
- **المبحث الثالث**: أسباب النزول الواردة في السورة، وفوائد معرفة سبب النزول وثمرته.
- **المبحث الرابع**: مناسبة السورة لما قبلها وما بعدها.
- **المبحث الخامس**: اختصاصات السورة.

- **الفصل الثالث**: **جو السورة ومقاصدها ومناسباتها**، وفيه ستة مباحث:
- **المبحث الأول**: الجو العام الذي نزلت فيه السورة.
- **المبحث الثاني**: الوحدة الموضوعية للسورة ومحورها الأساسي ومقصدها الأعظم.
- **المبحث الثالث**: مقاصد وأهداف السورة وموضوعاتها.
- **المبحث الرابع**: المناسبة بين اسم السورة وموضوعها الكلي.
- **المبحث الخامس**: مناسبة فاتحة السورة لموضوعاتها.
- **المبحث السادس**: مناسبة فاتحة السورة لخاتمتها.

الباب الثاني: التناسق الموضوعي في سورة غافر، دراسة تطبيقية، وفيه ثلاثة فصول:

- **الفصل الأول**: **صفات منزل القرآن، ومشاهد للفريقين والدارين**، ويشمل الآيات (١-٢٠)، وفيه ستة مباحث:
- **المبحث الأول**: صفات منزل القرآن، ويشمل الآيات (١-٣).
- **المبحث الثاني**: بيان حال المجادلين في آيات الله، ويشمل الآيات (٤-٦).

- **المبحث الثالث**: إعانة قوية للمؤمنين في تصديهم للمشركين، ويشمل الآيات (٧-٩).
- **المبحث الرابع**: مشاهد من مصير الكافرين وندمهم الشديد، ويشمل الآيات (١٠-١٢).
- **المبحث الخامس**: بيان دلائل قدرة الله تعالى ووحدانيته وصفاته العلى وآثارها، ويشمل الآيات (١٣-١٧).
- **المبحث السادس**: الإنذار المباشر للمشركين بسوء العاقبة في الآخرة، ويشمل الآيات (١٨-٢٠).

- **الفصل الثاني: الاعتبار بمصارع الغابرين، وجهاد الرسل والمؤمنين مع أقوامهم بالكلمة،** ويشمل الآيات (٢١-٥٥)، وفيه خمسة مباحث:

- **المبحث الأول**: إنذار المشركين بسوء العاقبة في الدنيا بالنظر إلى مصارع الغابرين، ويشمل الآيات (٢١-٢٢).
- **المبحث الثاني**: ذكر نموذج للاعتبار من قصص الغابرين الهالكين، ويشمل الآيات (٢٣-٢٧).
- **المبحث الثالث**: قصة مؤمن آل فرعون في دعوته ودفاعه عن الحق، ويشمل الآيات (٢٨-٤٦).
- **المبحث الرابع**: مشهد الخصام بين أهل النار، ويشمل الآيات (٤٧-٥٠).
- **المبحث الخامس**: وعد الله الحق بنصر الرسل والمؤمنين، ويشمل الآيات (٥١-٥٥).

- **الفصل الثالث: بيان أحوال المجادلين، وعرض دلائل التوحيد، والوعد بنصر المؤمنين وخسران الكافرين**، ويشمل الآيات (٥٦-٨٥)، وفيه ستة مباحث:

- **المبحث الأول**: كشف بواعث المجادلين، وإثبات الحجة عليهم، ويشمل الآيات (٥٦-٥٩).
- **المبحث الثاني**: بيان طريق النجاة ودلائل ربوبيته تعالى وألوهيته، ويشمل الآيات (٦٠-٦٥).
- **المبحث الثالث**: لا مصالحة في الإشراك بالله، ولا مساومة في عبادة الله بعد أن توالت البينات، ويشمل الآيات (٦٦-٦٨).
- **المبحث الرابع**: التعجيب من انحراف المجادلين وبيان لجزائهم الأخروي، ويشمل الآيات (٦٩-٧٦).
- **المبحث الخامس**: الأمر بالصبر والتأكيد على النصر والاعتبار بمزيد من الآيات، ويشمل الآيات (٧٧-٨١).
- **المبحث السادس**: ختم السورة بوعيد المجادلين وتحذيرهم بحتمية انقضاء زمن الإمهال، ويشمل الآيات (٨٢-٨٥).

وتحت كل مبحث من المباحث السبعة عشر –السابقة– هناك مطالب كالآتي:

- **المطلب الأول**: ربط الموضوع بالمحور الأساس للسورة.
- **المطلب الثاني**: التناسق بين هذا الموضوع وسابقه. ما عدا المبحث الأول فليس فيه هذا المطلب.
- **المطلب الثالث**: أسباب النزول الواردة –إن وجدت–.
- **المطلب الرابع**: التناسب بين الآيات والجمل والكلمات.
- **المطلب الخامس**: التفسير الإجمالي للآيات.
- **المطلب السادس**: بيان ما ترشد إليه الآيات.

هكذا في كل المباحث، إلا المبحث الأول في الفصل الأول –بداية السورة–، فإن **المطلب الأول** فيها: مقدمة السورة، وعلاقتها بالمحور الأساس للسورة.

الخاتمة: وتشتمل على نتائج الدراسة الكلية.

والله تعالى أسأل أن يوفقني لما يحبه ويرضاه، وأن يرزقني الإخلاص في القول والعمل، وأن يتقبل مني بقبول حسن، إنه أعظم مسؤول وأكرم مأمول.

وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا ونبينا محمد الصادق الأمين وعلى آله وصحبه و التابعين.

التمهيد

مقدمات تعريفية

تعريف التناسق الموضوعي

كان لزاما علي تعريف التناسق الموضوعي في سور القرآن إذ هو عنوان هذا البحث وموضوعه، لكن ثمة عناوين أخرى ينضوي التناسق الموضوعي تحتها، ولا يكتمل الأمر إلا بتعريفها جميعا فبينهم تعلق وثيق، وهذه العناوين هي:

التفسير الموضوعي.

الوحدة الموضوعية.

فالتناسق الموضوعي تابع للوحدة الموضوعية التابعة بدورها للتفسير الموضوعي الذي هو أحد أنواع تفسير القرآن الكريم.

وهناك عناوين أخرى هي كالروافد لهذا النوع من التفسير يحسن تعريفها أيضا، وهي:

علم المناسبات.

علم مقاصد القرآن.

ولما كان تعلق كل هذا بالقرآن الكريم وسوره وآياته، حسن تعريف السورة والآية.

فأبدأ بتعريف التفسير الموضوعي، ثم الوحدة الموضوعية، ثم التناسق الموضوعي، وبعد ذلك يأتي تعريف المناسبات فالمقاصد، فتعريف السورة والآية.

أولا: تعريف التفسير الموضوعي

*التفسير: لغة: أصل مادته "فَسْر"، بمعنى الكشف والإبانة والإيضاح والإظهار، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ الفرقان: ٣٣، أي: بياناً وإيضاحا وتفصيلاً.

قال ابن فارس[١]: "الْفَاءُ وَالسِّينُ وَالرَّاءُ كَلِمَةٌ وَاحِدَةٌ تَدُلُّ عَلَى بَيَانِ شَيْءٍ وَإِيضَاحِهِ، مِنْ ذَلِكَ الْفَسْرُ، يُقَالُ: فَسَرْتُ الشَّيْءَ وَفَسَّرْتُهُ"[٢].

وقال ابن عاشور: والتَّفْسِيرُ مَصْدَرُ فَسَّرَ -بِتَشْدِيدِ السِّينِ- الَّذِي هُوَ مُضَاعَفُ فَسَرَ -بِالتَّخْفِيفِ-، الَّذِي مَصْدَرُهُ الْفَسْرُ، وَالْفَسْرُ الْإِبَانَةُ وَالْكَشْفُ لِمَدْلُولِ كَلَامٍ أَوْ لَفْظٍ بِكَلَامٍ آخَرَ هُوَ أَوْضَحُ لِمَعْنَى الْمُفَسَّرِ عِنْدَ السَّامِعِ.[٣]

*والتفسير: اصطلاحا: تعددت أقوال أهل العلم في حده، لكن تعاريفهم اتفقت على أن علم التفسير علم يبحث عن مراد الله تعالى من كلامه المنزل على رسوله محمد ﷺ بقدر الطاقة البَشرية، فهو شامل لكل ما يتوقف عليه فهم المعنى، وبيان المراد.[٤]

وموضوعه: ألفاظ القرآن الكريم من حيث البحث عن معانيه وما يستنبط منه.

قال مساعد الطيّار[٥]: "إذا انطلقت من التعريف اللغوي الذي هو البيان، وعُرِّف التفسير بأنه: بيان القرآن الكريم وإيضاح معانيه، فإن الضابط فيما يدخل في صلب التفسير هو البيان؛ أي: ما كان فيه بيان عن المعنى المراد بالآية، فهو من صلب التفسير، وما كان خارجاً عن حد البيان، بحيث يفهم المعنى من دونه، فهو من متممات التفسير وعلومه، لا من صلبه وأصله، إذ المقصود من التفسير فهم معاني القرآن"[٦].

ولتتمة الفائدة أورد تعريفين لعلم التفسير عند أهل العلم:

---

١) هو أحمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي، إمام في اللغة، ومن أبرز مصنفاته (معجم مقاييس اللغة) وقد بلغ في كتابه هذا الغاية في الحذق باللغة، وتكنّه أسرارها، وفهم أصولها، إذ يرد مفردات كل مادة من مواد اللغة في أصولها المعنوية المشتركة فلا يكاد يخطئه التوفيق، وقد انفرد من بين اللغويين بهذا التأليف، توفي سنة ٣٩٥ هـ -رحمه الله تعالى رحمة واسعة-. انظر: معجم الأدباء لياقوت الحموي (١/٤١٠-٤١٨). وسير أعلام النبلاء للذهبي (١٢/٥٣٨-٥٤٠).

٢) معجم مقاييس اللغة (٤/٥٠٤).

٣) انظر: التحرير والتنوير (١/١٠).

٤) التفسير والمفسرون لمحمد حسين الذهبي (١/١٢-١٤).

٥) هو الشيخ مساعد بن سليمان بن ناصر الطيار، عالم معاصر، متخصص في التفسير وعلوم القرآن لا يكاد يتكلم أو يصنف في غيره، يعمل أستاذا مشاركا في جامعة الملك سعود بالرياض، وهو من مواليد عام ١٣٨٤هـ، -حفظه الله تعالى ونفع بعلمه-. انظر: الموقع الرسمي للشيخ على الشبكة العنكبوتية.

٦) تفسير جزء عمّ (١/٧).

الأول: قاله أبو حيان (ت:٧٤٥هـ): "التَّفْسِيرُ: عِلْمٌ يُبْحَثُ فِيهِ عَنْ كَيْفِيَّةِ النُّطْقِ بِأَلْفَاظِ الْقُرْآنِ، وَمَدْلُولَاتِهَا، وَأَحْكَامِهَا الْإِفْرَادِيَّةِ وَالتَّرْكِيبِيَّةِ، وَمَعَانِيهَا الَّتِي تُحْمَلُ عَلَيْهَا حَالَةَ التَّرْكِيبِ، وَتَتِمَّاتٍ لِذَلِكَ.

فَقَوْلُنَا: عِلْمٌ: هُوَ جِنْسٌ يَشْمَلُ سَائِرَ الْعُلُومِ.

وَقَوْلُنَا: يُبْحَثُ فِيهِ عَنْ كَيْفِيَّةِ النُّطْقِ بِأَلْفَاظِ الْقُرْآنِ: هَذَا هُوَ عِلْمُ الْقِرَاءَاتِ.

وَقَوْلُنَا: وَمَدْلُولَاتِهَا: أَيْ مَدْلُولَاتِ تِلْكَ الْأَلْفَاظِ، وَهَذَا هُوَ عِلْمُ اللُّغَةِ الَّذِي يُحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي هَذَا الْعِلْمِ.

وَقَوْلُنَا: وَأَحْكَامِهَا الْإِفْرَادِيَّةِ وَالتَّرْكِيبِيَّةِ: هَذَا يَشْمَلُ عِلْمَ التَّصْرِيفِ، وَعِلْمَ الْإِعْرَابِ، وَعِلْمَ الْبَيَانِ، وَعِلْمَ الْبَدِيعِ.

وَمَعَانِيهَا الَّتِي تُحْمَلُ عَلَيْهَا حَالَةُ التَّرْكِيبِ، شَمِلَ بقولِهِ: الَّتِي تُحْمَلُ عَلَيْهَا: مَا دَلَالَته عَلَيْهِ بِالْحَقِيقَةِ، وَمَا دَلَالَتُهُ عَلَيْهِ بِالْمَجَازِ، فَإِنَّ التَّرْكِيبَ قَدْ يَقْتَضِي بِظَاهِرِهِ شَيْئًا، وَيَصُدُّ عَنِ الْحَمْلِ عَلَى الظَّاهِرِ صَادٌّ، فَيَحْتَاجُ لِأَجْلِ ذَلِكَ أَنْ يُحْمَلَ عَلَى غَيْرِ الظَّاهِرِ، وَهُوَ الْمَجَازُ.

وَقَوْلُنَا: وَتَتِمَّاتٍ لِذَلِكَ: هُوَ مَعْرِفَةُ النَّسْخِ، وَسَبَبِ النُّزُولِ، وَقِصَّةٍ تُوَضِّحُ بَعْضَ مَا انْبَهَمَ فِي الْقُرْآنِ، وَنَحْوَ ذَلِكَ"[١].

والثاني: قاله ابن عاشور: "هُوَ اسْمٌ لِلْعِلْمِ الْبَاحِثِ عَنْ بَيَانِ مَعَانِي أَلْفَاظِ الْقُرْآنِ وَمَا يُسْتَفَادُ مِنْهَا بِاخْتِصَارٍ أَوْ تَوَسُّعٍ"[٢]، بحسب الطاقة البشرية.

والتفسير أول العلوم الإسلامية ظهورا، إذ قد ظهر الخوض فيه في حياة النبي ﷺ، فكان بعض أصحابه رضوان الله عليهم أجمعين يسألونه عن بعض معاني القرآن الكريم، وهو أيضا أشرف العلوم الإسلامية ورأسها على التحقيق.[٣]

*الموضوعي: لغة: أصل مادته (وضع)، ضد رفع، وهو بمعنى جعل الشيء في مكان ما، سواء كان بالحطّ والخفض، أو بالإلقاء والتثبيت، والوضع أعم من الحطّ، ويكون في المحسوسات كوضع الشيء على

١) البحر المحيط (٢٦/١). وانظر: الإتقان في علوم القرآن للسيوطي (١٩٤/٤-١٩٥).
٢) التحرير والتنوير (١١/١).
٣) انظر: التحرير والتنوير لابن عاشور (١٤/١).

الأرض، وفي المعنويات كالشخص الوضيع وهو الدنيء ذاتا أو نسبا، كمن قعدت به همته عن المعالي فكأنما أخلد إلى الأرض فهو موضوع عليها لا يفارق موضعه، والوضع جعل اللفظ بإزاء المعنى.[1]

قال ابن فارس: "الْوَاوُ وَالضَّادُ وَالْعَيْنُ: أَصْلٌ وَاحِدٌ يَدُلُّ عَلَى الْخَفْضِ لِلشَّيْءِ وَحَطِّهِ. وَوَضَعْتُهُ بِالْأَرْضِ وَضْعًا، وَوَضَعَتِ الْمَرْأَةُ وَلَدَهَا"[2]، "والإِبِلُ وَضيعَةٌ: رَعَتِ الحَمْضَ حَوْلَ الماءِ ولم تَبْرَحْ"[3]، وهذا المعنى ملحوظ في التفسير الموضوعي؛ لأن المفسر يرتبط بمعنى معين لا يتجاوزه إلى غيره حتى يفرغ من تفسير الموضوع الذي التزم به أو السورة التي التزم بها.[4]

*والموضوعي: اصطلاحا: نسبة إلى موضوع، ويراد بها فكرة أو قضية كلية أو جزئية أو مفردة متعلقة بجانب من جوانب الحياة في العقيدة أو مظاهر الكون أو السلوك الاجتماعي تعرضت له آيات القرآن الكريم.[5]

ومن هذين الجزأين يتركب مصطلح "التفسير الموضوعي"، وهو نوع من أنواع تفسير القرآن الكريم وتعريفه: بأنه علم يتناول القضايا حسب المقاصد القرآنية من خلال سورة أو أكثر.[6]

أو هو عرض لمعاني آيات من القرآن الكريم تتعلق بغرض معين بحسبه.

وبالتالي ليس من مقصود التفسير الموضوعي تفسير الآيات المتعلقة بالموضوع، بل مقصوده توظيف معاني الآية المتعلقة بالموضوع وكلام المفسرين فيها لإبراز الموضوع وتتميم عناصره.[7]

وأنواعه ثلاثة:

النوع الأول: التفسير الموضوعي للكلمة القرآنية: وهو أن يختار الباحث كلمة أو مفردة تكررت في القرآن، فيتتبعها من خلال القرآن، ويأتي بمشتقاتها ويستخرج منها المعاني والدلالات واللطائف، مثل مفردة: الخير، والأمة، وغيرها.

---

١) انظر: المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني (٨٧٤/١). والتوقيف على مهمات التعاريف للمناوي (٣٣٨/١). ومجلة البيان، العدد (١٩/١٦٥)، دراسة بعنوان "التفسير الموضوعي" للدكتور عبد الحميد غانم.

٢) معجم مقاييس اللغة (١١٦/٦).

٣) القاموس المحيط للفيروز آبادي (٧٧١/١).

٤) انظر: مباحث في التفسير الموضوعي لمصطفى مسلم (١٥/١).

٥) انظر: المرجع السابق

٦) انظر: المرجع السابق (١٦/١).

٧) انظر: تحرير التفسير الموضوعي والوحدة الموضوعية للسورة للدكتور محمد با زمول (٢٠/١، ٢٥).

النوع الثاني: التفسير الموضوعي لموضوع قرآني: وهو أن يختار الباحث موضوعاً من القرآن، له أبعاده الواقعية في الحياة، أو العلم، أو السلوك، إلخ، فيشكّل منه موضوعا معينا، ويخرج بخلاصة تساعد على حل مشاكل المسلمين ومعالجة أمورهم، مثل: الصبر في القرآن، واليهود في القرآن، وغيرها.

وهذا النوع من التفسير الموضوعي هو المشهور في عرف أهل الاختصاص، وإذا أطلق اسم (التفسير الموضوعي) فلا يكاد ينصرف الذهن إلا إليه، ويمكن تعريف النوعين السابقين اختصارا بأنه: بحث مفردة من مفردات القرآن الكريم أو موضوع من موضوعات القرآن الكريم على مستوى القرآن جميعه.[١]

النوع الثالث: التفسير الموضوعي للسور القرآنية: وهو أن يختار الباحث سورة من القرآن، ويبحث عن الهدف الأساسي في السورة، وتكون مدار بحثه، ويخرج منها بدراسة موضوعية متكاملة.[٢]

وهذا البحث الذي أقوم به يتبع هذا النوع من أنواع التفسير الموضوعي.

١) انظر: التفسير الموضوعي للشيخ الكومي والقاسم (٢٣/١).

٢) انظر: مباحث في التفسير الموضوعي لمصطفى مسلم (٢٣/١-٢٩).

ثانيا: تعريف الوحدة الموضوعية

*الوحدة: لغة: أصل مادته "وَحَدَ"، وتعني الانفراد.

قال ابن فارس: "الْوَاوُ وَالْحَاءُ وَالدَّالُ: أَصْلٌ وَاحِدٌ يَدُلُّ عَلَى الِانْفِرَادِ. مِنْ ذَلِكَ الوحدة"[1].

فالواحد في الحقيقة هو الشيء الذي لا جزء له البتة، ثم تستعمل الوحدة في معنى الاتحاد، أي صيرورة الاثنين وما فوقهما واحدا.[2]

*والوحدة: اصطلاحا: يراد به ترابط أجزاء البناء لتكون موضوعا واحدا متسقا منتظما.

*فالوحدة الموضوعية باعتبارها مركبا وصفيا تعني: اتحاد الموضوع الذي ذكر متناثراً بحيث لا يكون فيه تباين أو اختلاف، بل يؤلف وحدة كاملة، كما نقول: وحدة الموضوع.

وهي تعني في القرآن الكريم: ارتباط آياته كلها بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة متسقة المعاني منتظمة المباني.

وتعني في السورة القرآنية: ترابط أجزائها وآياتها ومقاطعها المتعددة لتكون موضوعا واحدا، ومحورا يجمع المواضيع المتشعبة في السورة الواحدة، وهذا متعلق بأغراض السور القرآنية، وهي من فروع علم المناسبات.[3]

ومن الخطأ في الفهم أن يظن بأن وحدة الموضوع للسورة تعني أن السورة موضوع مستقل أو فصل في باب، أو بحث في كتاب.[4]

قال محمد حجازي: "ولقد راعني وانا اكتب (التفسير الواضح) هذا النسق العجيب في سور القرآن وترتيبها في المصحف، فهذه سورة مدنية بجوار سورة مكية، وهذه سورة مدنية وسط عدد من السور المكية وهكذا. ثم اذا نظرت الى نفس السورة وآياتها تجد العجب العجاب، تجد السورة وقد جمعت آيات متعددة، وإن تكن متناسبة ومتلائمة، ولكنك تجد السورة تتحدث من موضوع خاص، فماذا قرأت غيرها تجدها تحدثت هي الأخرى عن نفس الموضوع، ولكن بشكل خاص ونسق يلتئم مع جو السورة التي قيل فيها،

---

١) معجم مقاييس اللغة (٦/ ٩٠).

٢) انظر: المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني (١/ ٨٥٧). والوحدة الموضوعية لمحمد حجازي (١/ ٣٣).

٣) انظر: الوحدة الموضوعية في القرآن لحجازي (١/ ٣٣)، وتحرير التفسير الموضوعي والوحدة الموضوعية للسورة للدكتور محمد با زمول (١/ ٥٥).

٤) انظر: أهداف كل سورة ومقاصدها لعبد الله شحاته (١/ ٦).

هذه ظاهرة استرعت البحث والنظر، أما السابقون فتخلصوا من هذا بالقول بالنسخ، فالآية المتأخرة نسخت المتقدمة وهكذا. واما نحن فقد هدانا الله الى القول بنظرية (الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم)"[١].

وتسمى الوحدة الموضوعية كذلك بنظام القرآن، وهو علم لا يظهر التناسب وحده، بل يجعل السورة كلاما واحدا، ويعطيها وحدانيتها التي بها صارت سورة كاملة مستقلة بنفسها، ذات عمود تجري إليها أجزاؤها، ويربط الآيات بعضها ببعض حتى يأخذ كل آية محلها الخاص، والمقصود من معرفة هذا النظام ليس إلا التدبر، فإنه الإقليد له، ثم التدبر في الكتاب هو الوسيلة إلى الإيمان والهدى والتقوى.[٢]

١) انظر: مناهج المفسرين لمنيع محمود (٣٧٨/١).

٢) انظر: نظام القرآن للفراهي وكلمة جامعه (٥/١، ٩).

ثالثا: تعريف التناسق الموضوعي

*التناسق: لغة: أصل مادته "نسق": وهو ما كان على ترتيب ونظام واحد.

قال ابن فارس: "النُّونُ وَالسِّينُ وَالْقَافُ أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى تَتَابُعٍ فِي الشَّيْءِ. وَكَلَامٌ نَسَقٌ: جَاءَ عَلَى نِظَامٍ وَاحِدٍ قَدْ عُطِفَ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ"[١].

ومن يمعن النظر في آيات القرآن، ويتأمل ترابط موضوعاته في السورة الواحدة، بل تناسق كلماته في الآية الواحدة، يجد هذه المعاني بارزة جلية، فالموضوعات منتظمة، والمقاصد متتابعة، وتثنية الموضوعات وعطف بعضها على بعض بارز جلي، كل ذلك بأسلوب بلغ الغاية في الروعة، والكمال في الأداء.[٢]

*فالتناسق الموضوعي: اصطلاحا: هو تتابع القضايا وانتظامها وترتيبها في القرآن العظيم وسوره.[٣]

*والتناسق الموضوعي في السورة القرآنية: هو إظهار تماسك بناء السورة القرآنية واتساق معانيها المتشعبة التي تتضمنها والتحام موضوعاتها ضمن غرض محوري واحد لخدمة مقصود واحد دون تنافر أو تفكك.[٤]

وهو بهذا يتداخل مع مناسبات القرآن العظيم التي هي علل ترتيب أجزائه بعضها ببعض، أو المعنى الذي يربط بين سوره وآياته -كما سيأتي-، لكن التناسق الموضوعي في السورة القرآنية؛ هو المعنى الذي يربط بين موضوعات السورة خاصة ويبين علل ترتيبها؛ لإبراز التلاؤم والانسجام والنظام والتتابع بين الموضوعات، وبالتالي يكون التناسق الموضوعي في سائر القرآن الكريم بإبراز التلاؤم والانسجام والنظام والتتابع بين موضوعات السور، بعد تحرير مقاصدها والغاية التي ترمي إليها كل سورة، فينتظم موضوعات القرآن الكريم تناسق تام ونظام بديع يبهر العقول ويأخذ بالألباب.

فالتناسق هو إبراز نظام البناء الموضوعي للسورة في ترتيب وترابط وانسجام.[٥]

ولعله -أيضا- يظهر جليا التشابه بين تعريفي التناسق الموضوعي والوحدة الموضوعية، وهو كذلك، إلا أن الوحدة الموضوعية ربما تقتضي أن للسورة موضوعا واحدا فقط، وهذا حاصل في بعض سور القرآن، إلا أن

---

١) معجم مقاييس اللغة لابن فارس (٤٢٠/٥). وانظر: العين للفراهيدي (٨١/٥).
٢) انظر: التناسق الموضوعي في سورتي الممتحنة والصف لمحمد الذبياني (٣٠/١).
٣) انظر: التناسق الموضوعي للدكتور محمد با زمول (١٠/١).
٤) انظر: وحدة النسق في السورة القرآنية لرشيد الحمداوي (١٣٨/١-١٤٠).
٥) التناسق الموضوعي في السورة القرآنية للدكتور محمد با زمول (١٠/١-١١).

معظم السور القرآنية متعددة المواضيع، ولكنها مع تعددها متحدة في هدف عام تتجه إليه، ملتحمة في نسيج واحد متناسق، فالتناسق الموضوعي للسورة هو المعنى الذي يربط بين موضوعات السورة ويبين علل ترتيبها؛ لإبراز التلاؤم والانسجام والنظام والتتابع بين الموضوعات.[1]

يقول الزمخشري (ت:٥٣٨هـ): "إنّ التفصيل سبب تلاحق الأشكال والنظائر وملاءمة بعضها لبعض، وبذلك تتلاحظ المعاني ويتجاوب النظم"[2].

فقوله "تتلاحظ المعاني ويتجاوب النظم" فيه من الدلالة على أن آيات كلّ سورة إنَّما يكون بينهما من التناسب والتجاوب والتآخي والتناغي ما يحقّقُ لكُلِّ سورة وحدة بيانيّة معجزة مُدْهِشةً.[3]

ويقول الشاطبي (ت:٧٩٠هـ): إن السورة الواحدة مهما تعددت قضاياها فهي تكون قضية واحدة، تهدف إلى غرض واحد، أو تسعى لإتمامه، وإن اشتملت على عديد من المعاني[4].

ويقول محمد عبده (ت:١٣٢٣هـ): "إِنَّ الْقُرْآنَ لَمْ يَأْتِ عَلَى طَرِيقَةِ الْمُنْشِئِينَ وَالْمُؤَلِّفِينَ الَّذِينَ يَخُصُّونَ كُلَّ طَائِفَةٍ مِنَ الْكَلَامِ بِمَوْضُوعٍ مُعَيَّنٍ وَيُسَمُّونَهَا فَصْلًا أَوْ بَابًا، وَلَكِنَّ لِلْقُرْآنِ أَغْرَاضًا يُبْرِزُهَا بِصُوَرٍ مُخْتَلِفَةٍ، فَكُلَّمَا لَاحَتِ الْمُنَاسَبَةُ لِذِكْرِ شَيْءٍ مِنْهَا أَوِ الِاحْتِجَاجِ عَلَيْهِ أَوِ الدِّفَاعِ عَنْهُ، جَاءَ بِهِ يَجْذِبُ إِلَيْهِ الْأَذْهَانَ، وَيُسَارِقُ بِهِ خَطَرَاتِ الْقُلُوبِ، مَعَ مُرَاعَاةِ التَّنَاسُقِ، وَحِفْظِ الْأُسْلُوبِ الْبَلِيغِ، لِهَذَا يَتَكَرَّرُ فِيهِ الْمَعْنَى الْوَاحِدُ بِعِبَارَاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ، وَيَتَجَلَّى الرُّوحُ الْوَاحِدُ فِي أَشْكَالٍ مُتَنَوِّعَةٍ"[5].

وهذه الرسالة التي بين أيدينا مقصدها بيان التناسق الموضوعي في السورة الواحدة، والسورة هي غافر.

ولمزيد من البيان فإن التناسق الموضوعي الكلي لسورة غافر، يحتاج إلى عدد من التناسقات الجزئية الأخرى، والتي سأبينها خلال هذه الدراسة -إن شاء الله تعالى-، وهي:

- تناسق المواضيع الفرعية للسورة مع بعضها.

---

١) انظر: التناسق الموضوعي للدكتور محمد با زمول (١١/١).

٢) الكشاف للزمخشري (٩٨/١).

٣) انظر: العزف على أنوار الذكر (٨٠/١-٨٠).

٤) انظر: الموافقات للشاطبي (٢٦٥/٤-٢٧٤). وعلوم القرآن لنور الدين عتر (٣٤/١). والموسوعة القرآنية المتخصصة (٢٨٨/١). وعلوم القرآن عند الشاطبي من خلال كتابه الموافقات للمحمد سالم أبو عاصي (١٥١/١-١٥٥).

٥) انظر: تفسير المنار (٣٦٥/١).

- تناسق الألفاظ والجمل في الآية الواحدة.
- تناسق خاتمة الآية مع موضوعها ومضمونها.

وقد تبين من خلال التعريفات أن التناسق تابع للوحدة، وهي تابعة للتفسير الموضوعي في أحد أنواعه، وحتى يكتمل التصور الصحيح عن موضوع ومادة هذا البحث، سأذكر العلاقة بين التناسق الموضوعي وكلٍ من الوحدة الموضوعية والتفسير الموضوعي.

العلاقة بين التناسق الموضوعي والوحدة الموضوعية[1]

إن العلاقة بين التناسق الموضوعي والوحدة الموضوعي علاقة عموم وخصوص، فالتناسق الموضوعي أعم من الوحدة الموضوعية، فكل وحدة موضوعية تناسق موضوعي، وليس العكس، فإن التناسق الموضوعي يهدف إلى إبراز التقارب والتلاؤم بين موضوعات السورة في نظام بديع، بينما الوحدة الموضوعية يطلب فيها إبراز الهدف والغاية التي ترمي إليها السورة، ومحله من المقاصد الكلية، فالتناسق الموضوعي معين في الوصول إلى الوحدة الموضوعية في السورة.

ومناسبة موضوع مقطع من الآيات في السورة لمقطع آخر، وترتيب ذلك في السورة، هو (التناسق الموضوعي في السورة القرآنية)، فإن زاد المفسر على ذلك ونظر فيما يرمي إليه هذه الترتيب، والغاية التي ينتهي إليها، والمحور الذي تدور عليه موضوعات السورة ويجمعها، فهذا هو (الوحدة الموضوعية للسورة القرآنية)؛ إذ هو الهدف والمحور الأساس الذي تندرج موضوعات السورة فيه على ترتيبها.

فالوحدة الموضوعية لسورة يقصد منها: أن يسعى المفسر إلى بيان الموضوعات التي تضمنتها الآيات، ومن ثم الربط بينها، بذكر المعنى الذي يجمع بينها، والتي تكون تارة معنوية، وتارة لفظية؛ ومن ثمَّ إيجاد الموضوع المحوري الذي تهدف إليه السورة، والتناسق الموضوعي هو بوابة الوحدة الموضوعية للسورة.

---

١) انظر: التناسق الموضوعي في السورة القرآنية للدكتور محمد با زمول (١٢/١، ١٩-٢٠).

العلاقة بين التناسق الموضوعي والتفسير الموضوعي

التناسق الموضوعي يبحث عما يدل على انتظام وتناسق السورة الواحدة من القرآن العظيم أو مجموعة من السور، لفظاً ومعناً، بهدف إبراز التلاؤم والتوافق بين الموضوعات[١]، وهذا يتوافق مع أحد أقسام التفسير الموضوعي الثلاثة ويتباين مع القسمين الباقيين، فهو يتوافق مع التفسير الموضوعي في السورة القرآنية، ويتباين مع التفسير الموضوعي في أحد المواضيع القرآنية وكذلك التفسير الموضوعي في إحدى المفردات القرآنية.

فدراسة التفسير الموضوعي حينما يتعلق بأحد المواضيع أو بإحدى المفردات القرآنية يكون هدف الباحث فيها جمع كل ما يتعلق بهذا الموضوع وبهذه المفردة في سائر القرآن الكريم وترتيبها ترتيبا معينا يعين على استخلاص المعاني والفوائد والدروس والعبر.

وبعض أهل العلم لم يجعل بين التناسق الموضوعي في السورة القرآنية وبين التفسير الموضوعي أي علاقة، لأنه يرى أن التفسير الموضوعي للسورة القرآنية ليس دراسة موضوعية شاملة، بل يرى أنها في الحقيقة دراسة للوحدة الموضوعية في السورة، ويرى أن الوحدة الموضوعية للسورة لا تدخل في دائرة التفسير الموضوعي.[٢]

---

١) انظر: المرجع السابق (١٣/١).

٢) انظر: التناسق الموضوعي في السورة القرآنية للدكتور محمد با زمول (١٣/١).

١- أنه يبرز وجه بلاغة النظم وفصاحته، وهو وجه الإعجاز بالنظم.

٢- أن فيه اشتغالا بالقرآن الكريم وقراءته، فيحصل بذلك الأجر والثواب المذكور في الأحاديث الصحيحة.

٣- أن فيه تدبرا لمعاني القرآن الكريم، وإظهاراً لنفي الاختلاف عنه، وبهذا فإن فيه امتثالاً لقوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾ النساء:٨٢

٤- أن فيه لفتاً للنظر في مقاصد القرآن الكريم ومراعاتها.

٥- أن فيه إبرازاً لروعة القرآن الكريم وعظمته من هذه الجهة.

٦- أن فيه إبرازاً لوجه من أوجه إعجاز القرآن الكريم في النظم، ألا ترى أن القرآن نزل في عشرين سنة منجما، منه ما نزل ابتداء ومنه ما نزل بسب حوادث وأسباب، يختلف ترتيب نزوله عن ترتيبه في السور، ثم هو مع هذا مترابط النسيج، مترابط المعاني، متناسق الألفاظ والموضوعات، على درجة من تناسق المعاني وانتظام المباني، بل ولكل سورة ذات مواضيع متنوعة، معنى يجمع مواضيعها المتفرقة، ومحور تدور عليه!

٧- أنه يساعد على تفسير القرآن الكريم، وفهم معاني الآيات، بحيث يفهم المفسر المعنى المقصود مما قد تحتمله الآية، فيترجح له المراد بحسب دلالة مقاصد السورة، والغاية التي ترمي إليها.

٨- أن فيه بيان وجه التكرار في الآيات، إذ أضحى لكل سياق سورة من المعنى الدال على وجه الآية ما يناسبها ويميزها عن الموضع الآخر الذي وردت فيه، فكل محل يدل سياقه فيه على معنى يبين وجه تكراره.

٩- أن فيه توجيه المتشابه اللفظي وبيان وجهه ومعناه.

رابعا: تعريف علم المناسبات

علم المناسبات وثيق الصلة بالتفسير الموضوعي -وبخاصة التفسير الموضوعي للسورة أو الوحدة الموضوعية في السورة- وذلك لأننا نلحظ أن الآية أو مجموعة الآيات تنزل في أسباب مختلفة وحوادث متفرقة ثم توضع في سورة واحدة، وقد تكون بين الآيات التي وضعت في موضع ما من السورة والآيات التي وضعت عقبها فترة زمنية قصيرة لا تتعدى الأيام، وقد تكون فترة طويلة تتجاوز عدة سنوات، ولكننا عندما نقرؤها نجد أن وحدة الموضوع يجمعها، ومرمى الهدف والغاية من سياقها جميعها شيء واحد.[١]

*والمناسبة: لغة: أصل مادته "نسب"، وتعني الترابط والاتصال.

قال ابن فارس: "النُّونُ وَالسِّينُ وَالْبَاءُ كَلِمَةٌ وَاحِدَةٌ قِيَاسُهَا اتِّصَالُ شَيْءٍ بِشَيْءٍ. مِنْهُ النَّسَبُ، سُمِّيَ لِاتِّصَالِهِ وَلِلِاتِّصَالِ بِهِ"[٢].

فالمناسبة تعني كل تعلق أو اتصال أو تشاكل أو ترابط بين شيئين بأي وجه من الوجوه، وهي تشمل المشاكلة والمماثلة والمقاربة والملاءمة والترابط والتجانس، ويدخل فيها النظم والعلاقة.[٣]

قال الزركشي[٤]: المناسبة في اللغة: المقاربة، وفلان يناسب فلانا: أي يقرب منه ويشاكله، وقيل: إن المناسبة أمر معقول إذا عرض على العقول تلقته بالقبول، وكذلك المناسبة في فواتح الآي وخواتمها ومرجعها إلى معنى ما رابط بينهما عام أو خاص، عقلي أو حسي أو خيالي، وغير ذلك من أنواع العلاقات.[٥]

*والمناسبة: اصطلاحا: تعني في السور: ارتباط السورة بما قبلها وما بعدها.

وفي الآيات تعني: وجه الارتباط في كل آية بما قبلها وما بعدها، أو بين الجملة والجملة في الآية الواحدة.[٦]

---

١) انظر: مباحث في التفسير الموضوعي لمصطفى مسلم (١/٥٧).

٢) معجم مقاييس اللغة لابن فارس (٥/٤٢٣).

٣) انظر: المناسبات في القرآن للدكتور عبد الله القرني (١/١٥). والصحاح للجوهري (١/٢٢٤).

٤) هو محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي، أبو عبد الله، بدر الدين، عالم بفقه الشافعية والأصول وعلوم القرآن، تركي الأصل، مصري المولد والوفاة، ولد عام ٧٤٥هـ، وتوفي عام ٧٩٤هـ، -رحمه الله تعالى رحمة واسعة-. انظر: طبقات المفسرين للداوودي (٢/١٦٢-١٦٣). والأعلام للزركلي (٦/٦٠-٦١).

٥) انظر: البرهان في علوم القرآن للزركشي (١/٣٥).

٦) انظر: مباحث في علوم القرآن لمناع القطان (١/٩٦). ومباحث في التفسير الموضوعي لمصطفى مسلم (١/٥٨).

يقول البقاعي في تعريف علم المناسبات عموما: هو "علم تعرف منه علل الترتيب"، ثم يعرِّف علم مناسبات القرآن فيقول: هو "علم تعرف منه علل ترتيب أجزائه، وهو سر البلاغة لأدائه إلى تحقيق مطابقة المعاني لما اقتضاه الحال، وتتوقف الإجادة فيه على معرفة مقصود السورة المطلوب ذلك فيها، ويفيد ذلك معرفة المقصود من جميع جملها"[١].

ولمعرفة المناسبة فائدتها في إدراك اتساق المعاني، وإعجاز القرآن البلاغي، وإحكام بيانه، وانتظام كلامه، وروعة أسلوبه، قال الزركشي: "وفائدته جعل أجزاء الكلام بعضها آخذًا بأعناق بعض، فيقوى بذلك الارتباط، ويصير التأليف حاله حال البناء المحكم المتلائم الأجزاء"[٢].

وقد عبّر بعض العلماء عن المناسبة بـ "النظام"، نظام القرآن أو نظام الآيات والسور، ومعنى النظام: لغة: من النظم، وهو التأليف وضم شيء إلى شيء آخر.

قال ابن فارس: "النُّونُ وَالظَّاءُ وَالْمِيمُ: أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى تَأْلِيفِ شَيْءٍ وَتَأْلِيفِهِ، وَنَظَمْتُ الْخَرَزَ نَظْمًا، وَنَظَمْتُ الشِّعْرَ وَغَيْرَهُ. وَالنِّظَامُ: الْخَيْطُ يَجْمَعُ الْخَرَزَ"[٣].

ويراد بالنظام اصطلاحا: ارتباط آي القرآن بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة، متسقة المعاني منتظمة المباني.

يقول عبد الحميد الفراهي: "مرادنا بالنظام أن تكون السورة وحدة متكاملة، ثم تكون ذات مناسبة بالسورة السابقة واللاحقة، أو بالتي قبلها أو بعدها على بعدٍ ما كما قدمنا في نظم الآيات بعضها مع بعض، فكما أن الآيات ربما تكون كالجمل المعترضة، فكذلك السور قد تكون كالجمل المعترضة، وعلى هذا الأصل ترى القرآن كله كلاما واحدا ذا مناسبة وترتيب في أجزائه من الأول إلى الآخر"[٤].

---

١) نظم الدرر لبقاعي (١/٥-٦).

٢) البرهان في علوم القرآن للزركشي (١/٣٥). وانظر: مباحث في علوم القرآن لمناع القطان (١/٩٦).

٣) معجم مقاييس اللغة لابن فارس (٥/٤٤٣).

٤) دلائل النظام للفراهي (١/٧٥). وانظر: إمعان النظر في نظام الآي والسور للسبحاني (١/٢٣-٢٤).

فوائد وثمرات علم المناسبات

علم المناسبات علم جليل له مكانة رفيعة في تفسير القرآن الكريم بأنواعه وألوانه المتعددة، قال عنه الزركشي بأنه "علم شريف تحرز به العقول، ويعرف به قدر القائل فيما يقول"[١]، وقال عنه البقاعي: "تتوقف الإجادة فيه على معرفة مقصود السورة المطلوب ذلك فيها، ويفيد ذلك معرفة المقصود من جميع جملها؛ فلذلك كان هذا العلم في غاية النفاسة، وكانت نسبته من علم التفسير نسبة علم البيان من النحو"[٢].

ولما كان هذا العلم بهذه المنزلة طلبت فوائدها وثمراتها فوجدتها مبثوثة في كتب علوم القرآن، أذكر منها ما يلي:

١- معرفة وتحديد بعض الأهداف والمقاصد القرآنية الخفية.

٢- يعين على فهم الآيات، وحسن تأويل القرآن الكريم، ودقة فهمه، وتحديد المراد منه.

٣- إدراك اتساق المعاني، وإظهار إعجاز القرآن البلاغي، وإحكام بيانه، وانتظام كلامه، وروعة أسلوبه ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١﴾ هود: ١.

٤- إن المناسبة بين آيات السورة الواحدة يظهرها كبناء محكم متآلف متلائم الأجزاء.

٥- إن وجه المناسبة قد يكون تأكيدا لجملة ما قبلها، أو بيانا، أو تفسيرا، أو اعتراضا تذيليا، فيزداد الفهم، ويزول الشك المترتب عن عدم فهمه.

٦- يفيد في معرفة بعض أسرار التشريع وإدراك مدى التلازم التام بين أحكام الشريعة.

٧- يظهر سر تكرار سرد القصص القرآني في مواطن متعددة، لمناسبتها لذلك الموطن، فالاختلاف في ترتيب القصة ونظمها يأتي حسب المناسبة وإن كانت متحدة في أصل المعنى.

٨- إن أهمية إدراك المناسبات بين مقاطع السورة وافتتاحيتها وخاتمتها يعين على فهم السورة وتفسيرها تفسيرًا موضوعيا، وتلقي أضواء كاشفة على محورها وأهدافها ومقاصدها.

---

١) البرهان في علوم القرآن للزركشي (٣٥/١).

٢) نظم الدرر للبقاعي (٥/١-٦).

٩- إن تناسق المواضيع القرآنية في السورة الواحدة واتساق معانيها يبعد روح السآمة والملل عن نفس القارئ والسامع، مع تجديد النشاط بتعدد المنهج واختلاف الأسلوب، فأسلوب القرآن الجامع بين الفنون المتعددة في السورة الواحدة، والتناسق البديع يظهر حد الذروة القصوى في الإعجاز البلاغي والإحكام البياني.[١]

---

١) انظر: نظم الدرر للبقاعي (١/١٣). ومباحث في علوم القرآن لمناع القطان (١/٩٦-٩٧). ومباحث في التفسير الموضوعي لمصطفى مسلم (١/٩٠-٩١). والتناسق الموضوعي في سورة الجمعة لأحمد رشاد (١/٥-٦).

العلاقة بين التناسق الموضوعي وعلم المناسبات[1]

إن ارتباط آي القرآن بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة، يندرج تحته الفنون التالية: المناسبات، والتناسق الموضوعي، والوحدة الموضوعية.

ومناسبة موضوع مقطع من الآيات في السورة لمقطع آخر، وترتيب ذلك في السورة، هو المعبر عنه اليوم بـ(التناسق الموضوعي في السورة القرآنية).

ومعرفة وجه الربط بين هذه الموضوعات التي تضمنتها السورة يكون بأمور عدة منها المناسبة، فهي تنظر إلى الربط بين الآية والآية، ومناسبة ختمها لموضوعها، ومناسبة التقديم والتأخير فيها، ناظراً إلى الروابط المعنوية واللفظية بين الآية والآية، والمقطع والمقطع، أو مطلع السورة وختامها، أو بين السورة والسورة قبلها، أو بعدها، أو بين السورة ومجموعة السور.

وفي التناسق الموضوعي ينظر إلى السورة باعتبار موضوعاتها، كيف ارتبط بعضها ببعض، وما النظام الذي سارت عليه، وتتابعت فيه، حتى وصلت السورة إلى غايتها، ففي التناسق ينظر إلى موضوعات السورة، وفي المناسبات ينظر إلى الآيات والسور، ووجه الربط بينها، فالتناسب ترابط سور القرآن الكريم وآياته حتى يكون كالكلمة الواحدة، وهذا موضوع علم المناسبات، وهو ما يصح أن يطلق عليه: (الوحدة القرآنية).

فالتناسب يسعى إلى الكشف عن المناسبة بين الآيات المتجاورة، أو السور اللاحقة والسابقة، بينما التناسق والوحدة الموضوعية تنعم النظر للكشف عن المناسبة التي ينتظم بها الكلام من أوله إلى آخره فيصير شيئا واحدا، والبحث عن أمر عام شامل بكل ما تحتوي عليه الآية أو السورة.

ويلتقي التناسق الموضوعي مع المناسبات فيما يتعلق بالربط بين موضوعات الآيات في السورة أو بين السور، فالتناسب بين مقاطع السورة فيما يشكل موضوعاتها هو التناسق الموضوعي، والتناسب بين أجزاء الآية، والآية والآية هو المناسبات.

فالعلاقة بين التناسق الموضوعي والمناسبات عموم وخصوص، فكل تناسق موضوعي مناسبات، وليس كل مناسبات تناسق موضوعي.

---

١) المرجع السابق (١/١٤-٢٤).

والحق أن التناسق الموضوعي والوحدة الموضوعية والمناسبات بينهما تداخل، فالدائرة الكبرى هي للمناسبات، ويليها دائرة التناسق الموضوعي، ويليها دائرة الوحدة الموضوعية؛ فكل وحدة موضوعية تناسق موضوعي، وكل تناسق موضوعي مناسبات، وليس كل مناسبة وحدة موضوعية أو تناسق موضوعي.

قال البجائي[١]: الأمر الكلي المفيد لعرفان مناسبات الآيات في جميع القرآن هو أنك تنظر الغرض الذي سيقت له السورة، وتنظر إلى ما يحتاج إليه ذلك الغرض من المقدمات، وتنظر إلى مراتب تلك المقدمات في القرب والبعد من المطلوب، وتنظر عند انجرار الكلام في المقدمات إلى ما يستتبعه من استشراف نفس السامع إلى الأحكام واللوازم التابعة له، التي تقتضي البلاغة شفاء الغليل بدفع عناء الاستشراف إلى الوقوف عليها؛ فهذا هو الأمر الكلي المهيمن على حكم الربط بين جميع أجزاء القرآن، وإذا فعلته تبين لك إن شاء الله وجه النظم مفصلاً بين آية وآية، في كل سورة، والله الهادي.[٢]

١) هو محمد بن محمد المشدالي المغربي البجائي المالكي، أبو الفضل، الْعَلامَة. شيخ البقاعي، وأحد أذكياء الْعَالم، وأعجوبة الزَّمَان فِي الْحِفْظ والفهم وتوقد الذِّهْن، اشْتغل بالمغرب، وأقرأ بِمصْر وَغَيرهَا، وَأَبَان عَن تفنن فِي الْعُلُوم فقها وأصولا وكلاما ونحوا وَغير ذَلِك، وَأخذ عَنهُ غَالب طلبة الْعَصْر، ولد عام ٨٢٠هـ، وتوفي عام ٨٦٤هـ، -رحمه الله تعالى رحمة واسعة-. انظر: الضوء اللامع للسخاوي (٩/١٨٠-١٨٨). وبغية الوعاة (٢/٢٤٧)، ونظم العقيان للسيوطي (١/١٦٠).

٢) انظر: نظم الدرر للبقاعي (١/١٨).

العلاقة بين التفسير الموضوعي وعلم المناسبات[1]

إن التفسير الموضوعي يطلق ويراد به في أحد معانيه: بيان اتحاد سورة من القرآن الكريم في موضوع رئيس ترد إليه سائر الموضوعات الجزئية التي قد تتناولها بحيث تبدو السورة كلها وحدة واحدة، يرد عجزها إلى صدرها، وتتفق مقدمتها ومؤخرتها.

وفي الحقيقة أن ثمة علاقة وثيقة بين علم المناسبة وبين التفسير الموضوعي بهذا المعنى؛ إذ إنهما يجتمعان في بيان مناسبة آيات السورة الواحدة، وتلاحم فقراتها، وترابط أجزائها، حتى تظهر السورة ذات شخصية مستقلة، وذات موضوع رئيس تدور حوله، وذات نظام يرد إليه مختلف موضوعاتها.

---

١) مصابيح الدرر في تناسب آيات القرآن الكريم والسور لعادل أبو العلاء (١/٢٦-٢٧).

مواطن الافتراق والاتفاق بين علم المناسبة والتفسير الموضوعي[1]

حصل هناك خلط سائد بين التفسير الموضوعي وعلم المناسبات لدى بعض الباحثين فلا بد من التمييز بينهما:

أولا: مواطن الافتراق:

- التفسير الموضوعي: لون من ألوان التفسير لم يستعمل مصطلحه بكثرة إلاّ في العصور الأخيرة تلبيةً لحاجات المجتمع ومشكلاته، والتي لم تعالج إلاّ بإبراز آيات مترابطة متعلقة بها من وجهة النظر القرآنية، ثم تنوعت طرائق البحث فيه ليقف عند كل سورة من سور القرآن الكريم ويحدد أهدافها الرئيسة بغية تفسيرها وإجلاء وحدتها الموضوعية، وبذلك يتحدد مفهوم الوحدة الموضوعية بأنها نظرية نشأت عنها مدارس التفسير الموضوعي.
- علم المناسبة: بدأ شذرات على لسان السلف في معرفتهم المناسبات بين الآيات وانتهى علماً عند العلماء يكشف الروابط والصلات بين الآيات والسور، وهنا تكمن أهميته في كونه مبحثاً من مباحث إعجاز القرآن ودعامة من دعائم تفسيره يدعو إلى ارتباط آي القرآن وسوره بعضها بالبعض الآخر، والوقوف على ما بينها من مناسبات دقيقة لإثبات حكمة توقيفية الآيات والسور، وما يستتبع ذلك من استخراج المعاني والتماس لطائف النكات التي لا يتوصل إليها إلاّ بمعرفة الهدف العام للسورة ووجه مناسبتها لما قبلها وما بعدها.
- إنّ اقتران مصطلح "التفسير الموضوعي" بالتفسير الأدبي الفني جعل المصطلح ينصرف إلى مسميات عدة منها: "الوحدة الموضوعية" و "الوحدة العضوية" و "الوحدة البنائية".
- أما علم المناسبة: فقد استقر مصطلحه كعلم من علوم القرآن، جمع فيه العلماء ما استنبطوه من مناسبات الآيات ثم أضافوا إليه مناسبات السور، وهذا ما جعله أساساً وركناً للمنهج الأدبي في تفسير القرآن وهو (التفسير الموضوعي) القائم على مقصد السورة الأساسي ومراعاة وحدة موضوعها.
- كثير من المفسرين ممن وقف على معالم ارتباط الآيات والسور حمل تصنيفه مصطلحي (المناسبة والتناسب) كأبي جعفر ابن الزبير[2] في كتابه (البرهان في تناسب سور القرآن)، والعالم برهان الدين

---

١) هذا المبحث مقتبس من بحث بعنوان: بين علم المناسبة والتفسير الموضوعي للقرآن الكريم، دراسة منهجية مقارنة للدكتورة/ زهراء العبيدي (١/٩-١٢).

٢) هو أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي الغرناطي، أبو جعفر، شيخ القراء والمحدثين بالأندلس، من أبناء العرب الداخلين إلى الأندلس، انتهت إليه الرياسة بها في العربية ورواية الحديث والتفسير والأصول، ولد عام ٦٢٧هـ، وتوفي عام ٧٠٨هـ، -رحمه الله تعالى رحمة واسعة-. انظر: تذكرة الحفاظ للذهبي (١٨٣/٤).

البقاعي في كتابه (نظم الدرر في تناسب الآيات والسور)، والإمام جلال الدين السيوطي (ت:٩١١هـ) في مؤلفيه (تناسق الدرر في تناسب السور) و (مراصد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع)، والشيخ الغماري[1] صاحب (جواهر البيان في تناسب سور القرآن)، وغيرهم كثير ممن اهتم بهذا العلم في منهجه التفسيري فذكر بأنها (مناسبة) أو (تناسب).

- لم يظفر التفسير الموضوعي بمصنَف خاص عند المفسرين القُدامى والمحدثين حمل العنوان نفسه، بل ورد عندهم إشارات إلى بعض أهداف السورة وتوخي أوجه الربط بينها وبين الآيات في شروحاتهم التفسيرية، ثم انتهج جماعة من الباحثين المتأخرين منهجا يستند إلى استجلاء الوحدة الموضوعية للسورة والآيات، وبيان الوشائج العضوية التي تربط الآيات في موضوع واحد من السورة والسور، وإن كانت محاولاتهم لهذا اللون من التفسير امتدادا لمن سبقهم، فأفردت مؤلفاتهم ودراساتهم تحت عنوان (الوحدة الموضوعية)، و(التفسير الموضوعي) كالتفسير الموضوعي لجامعة الشارقة.

- علم المناسبة: تثبت به حكمة توقيفية الآيات والسور على وجه من التآلف والتعالق وأنها وحي من الله تعالى، فيتلاحم المكي مع المدني لإعجاز في الترتيب.

- التفسير الموضوعي: يمكن أن تفسر الموضوعات في ضوئه على طريقة الترتيب النزولي ولا يقف في بحثه على بيان مناسبة الآيات ببعضها وفق الترتيب المصحفي.

ثانيا: مواطن الاتفاق:

وبناءاً على ما تقدم نجد أنّ هناك نوعاً من التداخل بين علم المناسبة والتفسير الموضوعي من خلال مواطن الاتفاق الآتية:

- كلاهما ضابط من ضوابط التفسير؛ تثبت بهما الوحدة القرآنية، والإعجاز القرآني.

- علم المناسبة وثيق الصلة بالتفسير الموضوعي فكلاهما يقف على أهداف السورة وأغراضها.

- ارتباط علم المناسبة والتفسير الموضوعي بالأنواع الأخرى من التفاسير: كالتفسير التحليلي والمقارن والاجمالي، ويتعاضد الجميع في إثبات أهمية دراسة القرآن الكريم، والكشف عن مراد الله تعالى.

---

١) هو الشيخ عبد الله بن محمد بن الصديق الغماري الحسني الإدريسي، عالم علاَّمة، محدِّث حافظ، فقيه أصولي، باحث محقق، متكلم متفنن، ولد بطنجة سنة ١٣٢٨هـ، ودرس في فاس على شيوخها، ونال العالمية من الأزهر، وكتب مقالات أكثرها في الحديث الشريف، وتوفي سنة ١٤١٣هـ، -رحمه الله تعالى رحمة واسعة-. انظر: تكملة معجم المؤلفين لمحمد خير يوسف (٣٤٩/١).

- اتفاق منهجية كل منهما في تعيين أسباب النزول والوقوف على مقاصد الآيات ومعرفة مكيّها ومدنيّها ثم تناولها بطريقة تحكم الروابط بينها وبين أغراضها بما يحقق الانسجام فيها وضمن مواضعها من السورة.

- إتجاه كل من التفسيرين (التناسبي والموضوعي) في تحديد معالم السورة إلى تقسيمها مقاطع وفقرات، واستنباط مقاصد الآيات القرآنية في ضوئها.

- وينتهي بنا الأمر إلى القول إلى أنّ أغلب من بحث التفسير الموضوعي منذ انطلاقته الأولى وحتى نضوجه على أيدي المفسرين قد تناولها بأنها نظرية قرآنية تستجلي الوحدة الموضوعية للسورة في القرآن الكريم، وفاتهم أن يبرزوا الفرق بين التفسير الموضوعي للسورة القرآنية والمناسبات بين الآيات والسورة، إذ يتناول الأخير: الربط الجزئي بين كل آية وآية وسورة وسورة، أما التفسير الموضوعي فيقف على تحديد عناصر السورة القرآنية بحيث إنّ كل عنصر يناسبه مجموعة من الآيات قد تختلف في موضوعاتها الجزئية، لكنها تنتظم في سلك واحد تحت عنصر عام.

- وغاية الأمر أنّ بيان مقاصد السور قد بُحث سابقاً في علم التفسير ضمن علم المناسبات؛ ثم طرأ حديثاً على التفسير مصطلح (التفسير الموضوعي) ليشمل هذا المضمار.

خامسا: تعريف علم المقاصد

*المقاصد: لغة: أصل مادته (قَصَدَ)، وتعني التوجه نحو شيء وقصده، والنهوض نحوه على اعتدال كان ذلك أو جور.

قال ابن فارس: "الْقَافُ وَالصَّادُ وَالدَّالُ أُصُولٌ ثَلَاثَةٌ، يَدُلُّ أَحَدُهَا عَلَى إِتْيَانِ شَيْءٍ وَأَمِّهِ ... فَالْأَصْلُ: قَصَدْتُهُ قَصْدًا وَمَقْصَدًا"[1].

*والمقاصد: اصطلاحا: تعني الهدف أو الأهداف التي يقوم عليها شيء ما.

فإن كان المراد بها مقاصد الآية أو الآيات، أو مقاصد السورة القرآنية، فهي بمعنى التفسير الموضوعي والوحدة الموضوعية والتناسق الموضوعي والمناسبات، فكلها تدور في فلك المقاصد والأهداف الموضوعة والمستنبطة منها، وتعني الغاية أو الغايات المرادة من هذه الآية أو من تلك السورة.

بيان المقاصد القرآنية العظمى

أما إذا كان المراد بها مقاصد القرآن فهي تعني: الغايات التي نزل القرآن لتحقيقها، وهي الأهداف والقضايا التي تناولها القرآن في ثنايا سوره وآياته، وكررها وأورد عليها الأدلة الحسية والعقلية، وأشار إليها في جميع سوره وغالب قصصه وأمثاله، وهي أهداف متعددة، أهمها وأنفسها على الإطلاق وهي "سِرُّ القرآن، ولُبَابُه الأصفى، ومقصدُهُ الأقصى: دعوَةُ العباد إلى الجَبَّار الأعلى، ربِّ الآخرةِ والأولى، خالق السماوات العُلَى، والأرَضين السُفلى، وما بينهما وما تحت الثَّرَى، فلذلك انحصرت سُوَرُ القرآن وآياتُه في ستة أنواع:

ثلاثة منها: هي السوابق والأصول المهِمَّة. وثلاثة: هي الرَّوادف والتوابع المغْنِيَة المتِمَّة.

أما الثلاثة المهِمَّة فهي:

(١) تعريف المدعو إليه. (٢) وتعريف الصراط المستقيم الذي تجب ملازمته في السلوك إليه.
(٣) وتعريف الحال عند الوصول إليه.

وأما الثلاثة المغْنِيَة المتِمَّة:

---

[1] معجم مقاييس اللغة (٩٥/٥). وانظر: الصحاح للجوهري (٥٢٤/٢).

– فإحداها: تعريف أحوال المجيبين للدعوة ولطائف صُنع الله فيهم؛ وسِرُّهُ ومقصودُه: التشويقُ والترغيبُ. وتعريفُ أحوال النَّاكبين والنَّاكلين عن الإجابة وكيفيةُ قمعِ الله لهم وتنكيلِهِ لهم؛ وسِرُّهُ ومقصوده: الاعتبار والترهيب.

وثانيها: حكاية أحوال الجاحدين، وكَشْف فضائحهم وجهلهم بالمجادلة والمحاجَّة على الحق، وسِرُّه ومقصوده في جنب الباطل: الإفضاحُ والتَّنْفير، وفي جَنب الحق: الإيضاحُ والتَّثْبيتُ والتَّقهير.

وثالثها: تعريف عمارة منازل الطريق، وكيفية أخذ الزاد والأُهبة والاستعداد.

فهذه ستة أقسام"[1]، تدور حولها مقاصد القرآن الكريم.

وقال ابن قيم الجوزية (ت:٧٥١هـ): " ذكر الوجوه التي تنقسم إليها معاني ألفاظ القرآن وهي عشرة أقسام:

القسم الأول: تعريفه سبحانه نفسه لعباده بأسمائه، وصفات كماله، ونعوت جلاله، وأفعاله، وأنه واحد لا شريك له، وما يتبع ذلك.

القسم الثاني: ما استشهد به على ذلك من آيات قدرته وآثار حكمته فيما خلق وذرأ في العالم الأعلى والأسفل من أنواع بريته وأصناف خليقته، محتجا به على من ألحد في أسمائه وتوحيده، وعطله عن صفات كماله وعن أفعاله، وكذلك البراهين العقلية التي أقامها على ذلك، والأمثال المضروبة والأقيسة العقلية التي تقدمت الإشارة إلى الشيء اليسير منها.

القسم الثالث: ما اشتمل عليه بدء الخلق وإنشاؤه، ومادته وابتداعه له، وسبق بعضه على بعض، وعدد أيام التخليق، وخلق آدم وإسجاد الملائكة، وشأن إبليس وتمرده وعصيانه، وما يتبع ذلك.

القسم الرابع: ذكر المعاد والنشأة الأخرى، وكيفيته وصورته، وإحالة الخلق فيه من حال إلى حال، وإعادتهم خلقا جديدا.

القسم الخامس: ذكر أحوالهم في معادهم، وانقسامهم إلى شقي وسعيد، ومسرور بمنقلبه ومثبور به، وما يتبع ذلك.

---

١) جواهر القرآن لأبي حامد الغزالي (١/٢٣-٢٤). وانظر: إرشاد الثقات للشوكاني (١/٣-٤).

القسم السادس: ذكر القرون الماضية والأمم الخالية وما جرى عليهم، وذكر أحوالهم مع أنبيائهم وما نزل بأهل العناد والتكذيب منهم من المثلات، وما حل بهم من العقوبات، ليكون ما جرت عليه أحوال الماضين عبرة للمعاندين فيحذروا سلوك سبيلهم في التكذيب والعصيان.

القسم السابع: الأمثال التي ضربها لهم والمواعظ التي وعظهم بها، ينبههم بها على قدر الدنيا وقصر مدتها وآفاقها، ليزهدوا فيها ويتركوا الإخلاد إليها، ويرغبوا فيما أعد لهم في الآخرة من نعيمها المقيم وخيرها الدائم.

القسم الثامن: ما تضمنه من الأمر والنهي، والتحليل والتحريم، وبيان ما فيه طاعته ومعصيته، وما يحبه من الأعمال والأقوال والأخلاق وما يكرهه ويبغضه منها، وما يقرب إليه ويدني من ثوابه وما يبعد منه ويدني من عقابه، وقسم هذا القسم إلى فروض فرضها، وحدود حدها، وزواجر زجر عنها، وأخلاق وشيم رغب فيها.

القسم التاسع: ما عرّفهم إياه من شأن عدوهم ومداخله عليهم ومكايده لهم وما يريده بهم، وعرفهم إياه من طريق التحصن منه والاحتراز من بلوغ كيده منهم ،وما يتداركون به ما أصيبوا به في معركة الحرب بينهم وبينه، وما يتبع ذلك.

القسم العاشر: ما يختص بالسفير بينه وبين عباده عن أوامره ونواهيه، وما اختصه به من الإباحة والتحريم، وذكر حقوقه على أمته، وما يتعلق بذلك.

فهذه عشرة أقسام عليها مدار القرآن"[1].

وقال ولي الله الدهلوي[2]: "المعاني التي يشتمل عليها القرآن لا تخرج عن خمسة علوم:

١ - علم الأحكام: كالواجب والمندوب والمباح والمكروه والحرام، سواء كانت من قسم العبادات أو المعاملات، أو الاجتماع أو السياسة المدنية، ويرجع تفصيل هذا العلم وشرحه إلى الفقيه.

١) الصواعق المرسلة: (٢/٦٨٤-٦٨٦).

٢) هو أحمد بن عبد الرحيم الفاروقي الدهلوي الهندي، أبو عبد العزيز، الملقب شاه وَليُّ الله: فقيه حنفي من المحدّثين، أحيا الله به وبأولاده وأولاد بنته وتلاميذهم الحديث والسنة بالهند بعد مواتهما، وعلى كتبه وأسانيده المدار في تلك الديار، ولد سنة ١١١٠هـ، وتوفي سنة ١١٧٦هـ، -رحمه الله تعالى رحمة واسعة-. انظر: الأعلام للزركلي (١/١٤٩). ومعجم المؤلفين لعمر كحالة (١/٢٧٢).

٢ – علم الجدل: وهي المحاجة مع الفرق الأربع الباطلة، اليهود والنصارى والمشركين والمنافقين، ويرجع في شرح هذا العلم وتعريفه إلى المتكلم.

٣ – علم التذكير بآلاء الله: كبيان خلق السموات والأرض وإلهام العباد ما يحتاجون إليه، وبيان الصفات الإلهية.

٤ – علم التذكير بأيام الله: وهو بيان تلك الوقائع والحوادث التي أحدثها الله تعالى إنعاماً على المطيعين ونكالا للمجرمين (كقصص الأنبياء عليهم الصلوات والتسليمات ومواقف شعوبهم وأقوامهم معهم).

٥ – علم التذكير بالموت وما بعد الموت: كالحشر والنشر والحساب والميزان، والجنة والنار.

ويرجع تفصيل هذه العلوم وبيانها وذكر الأحاديث والآثار المتعلقة بها إلى الواعظ والمذكر"[١].

وقال ابن عاشور: وجب على الآخذ في هذا الفن أن يعلم المقاصد الأصلية التي جاء القرآن لتبيانها فلنلم بها الآن بحسب ما بلغ إليه استقراؤنا وهي ثمانية أمور:

الأول: إصلاح الاعتقاد وتعليم العقد الصحيح، وهذا أعظم سبب لإصلاح الخلق، لأنه يزيل عن النفس عادة الإذعان لغير ما قام عليه الدليل، ويطهر القلب من الأوهام الناشئة عن الإشراك والدهرية وما بينهما.

الثاني: تهذيب الأخلاق، وهذا المقصد قد فهمه عامة العرب بله خاصة الصحابة.

الثالث: التشريع، وهو الأحكام خاصة وعامة، ولقد جمع القرآن جميع الأحكام جمعا كليا في الغالب، وجزئيا في المهم.

الرابع: سياسة الأمة، وهو باب عظيم في القرآن القصد منه صلاح الأمة وحفظ نظامها كالإرشاد إلى تكوين الجامعة.

الخامس: القصص وأخبار الأمم السالفة للتأسي بصالح أحوالهم، وللتحذير من مساويهم، وفي خلالها تعليم.

---

١) الفوز الكبير في أصول التفسير (١/٢٩-٣٠).

السادس: التعليم بما يناسب حالة عصر المخاطبين، وما يؤهلهم إلى تلقي الشريعة ونشرها، وذلك علم الشرائع وعلم الأخبار، وكان ذلك مبلغ علم مخالطي العرب من أهل الكتاب، وقد زاد القرآن على ذلك تعليم حكمة ميزان العقول وصحة الاستدلال في أفانين مجادلاته للضالين وفي دعوته إلى النظر، ثم نوه بشأن الحكمة فقال: ﴿ يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ البقرة:٢٦٩، وهذا أوسع باب انبجست منه عيون المعارف، وانفتحت به عيون الأميين إلى العلم، وقد لحق به التنبيه المتكرر على فائدة العلم، وذلك شيء لم يطرق أسماع العرب من قبل، إنما قصارى علومهم أمور تجريبية، وكان حكماؤهم أفرادا اختصوا بفرط ذكاء تضم إليه تجربة وهم العرفاء.

السابع: المواعظ والإنذار والتحذير والتبشير، وهذا يجمع جميع آيات الوعد والوعيد، وكذلك المحاجّة والمجادلة للمعاندين، وهذا باب الترغيب والترهيب.

الثامن: الإعجاز بالقرآن ليكون آية دالة على صدق الرسول، إذ التصديق يتوقف على دلالة المعجزة بعد التحدي، والقرآن جمع كونه معجزة بلفظه ومتحدى لأجله بمعناه.[1]

وبعبارة أوجز: "مُعْظَمُ مَقَاصِدِ الْقُرْآنِ: الْأَمْرُ بِاكْتِسَابِ الْمَصَالِحِ وَأَسْبَابِهَا، وَالزَّجْرُ عَنْ اكْتِسَابِ الْمَفَاسِدِ وَأَسْبَابِهَا"[2].

١) انظر: التحرير والتنوير (١/٣٩-٤١).

٢) قواعد الأحكام في مصالح الأنام للعز بن عبد السلام (١/٨).

العلاقة بين التناسق الموضوعي والمقاصد الكلية للقرآن الكريم[1]

الوقوف على المقاصد الكلية للقرآن الكريم يتعلق بدراسة التناسق الموضوعي للسورة أو للقرآن العظيم عموماً، من جهات متعددة، وهي التالية:

١- فيه إبراز لتناسق القرآن الكريم سورة سورة، وإبراز لتناسق جميع سوره مع مقاصده الكلية، حيث يبرز النظام الذي يربط موضوعات السورة، كما يبرز كيفية اتساق هذه الموضوعات بنظامها مع المقاصد الكلية التي يهدف إليها القرآن العظيم.

٢- يعتبر الأساس إلى مشروعية النظر في المحور الأساس الذي تهدف إليه السورة الكريمة بموضوعاتها المتعددة؛ لأن معرفة هذا الغرض سيقود إلى المقصد الكلي للقرآن الكريم، وإذا كان لجميع القرآن بتعدد سوره وآياته وموضوعاته مقاصد كلية يعود إليها، فإنه من باب أولى أن يكون للسورة الواحدة ذات الموضوعات المتعددة محوراً وهدفاً وغرضاً تدل عليه، ويرتبط مع مقاصد القرآن الكريم الكلية.

٣- الربط بين تناسق السورة وبين باقي سور القرآن طريقه هو معرفة هذه المقاصد الكلية للقرآن الكريم، وبالتالي فإن المقاصد الكلية للقرآن طريق نظام القرآن الكريم، وهو الطريق إلى نظام السورة.

هذه أهم جهات العلاقة بين النظر في المقاصد الكلية للقرآن الكريم، والنظر في التناسق الموضوعي للسورة.

---

١) انظر: التناسق الموضوعي في السورة القرآنية للدكتور محمد با زمول (١/٣٣-٣٤).

سادسا: تعريف السورة القرآنية

*السورة: لغة: اختلفوا في مادته الأصلية، على قولين:

الأول: أنها مهموزة وجعلوها من (السُؤر)، وتعني بقية الشيء.

قال في تاج العروس: "السُّؤْرُ، بالضَّمّ: البَقِيّةُ من كلّ شيْءٍ، والفَضْلَةُ ... ومن المجاز: هذِه سُؤْرَةٌ من القُرآنِ وسُؤَرٌ مِنْهُ، أَي: بَقِيّة مِنْهُ وقِطْعَةٌ، لُغَةٌ فِي سُورَة"[1].

فتكون تسميتها على هذا نظرا إلى أنها قطعة من القرآن وبقية منه، ومن قال بهذا ربما ترك الهمز فيها تسهيلا لكثرتها في الكلام والقرآن.[2]

الثاني: أنها غير مهموزة وجعلوها من "السُور" أي: البناء المحيط المرتفع، أو المنزلة الرفيعة.

قال ابن فارس: "السِّينُ وَالْوَاوُ وَالرَّاءُ أَصْلٌ وَاحِدٌ يَدُلُّ عَلَى عُلُوٍّ وَارْتِفَاعٍ ... وَالسُّوَرُ: جَمْعُ سُورَةٍ، وَهِيَ كُلُّ مَنْزِلَةٍ مِنَ الْبِنَاءِ"[3].

فتكون تسميتها على هذا لأمور:

- نظرا إلى شرفها ومكانتها ومنزلتها العالية الرفيعة.
- أنها كسور المدينة؛ لأنها تحيط بآياتها، أو من وضع كلمة بجانب كلمة، وآية بجانب آية، كالسور توضع كل لبنة فيه بجانب لبنة، ويقام كل صف منه على صف، أو من العلو والرفعة المعنوية الشبيهة بعلو السور ورفعته الحسية.
- كونها منزلة من البناء؛ لأنّها منزلة بعد منزلة، مقطوعة عن الأخرى، أو لأنّها درجة إلى غيرها.
- أنها من التسوّر، بمعنى التصاعد والتركيب؛ لعلو شأنها وشأن قارئها.

---

١) تاج العروس للزبيدي (١١/٤٨٣-٤٨٥). وانظر: العين للفراهيدي (٧/٢٩٢).

٢) انظر: أساس البلاغة للزمخشري (١/٤٣١).

٣) معجم مقاييس اللغة (٣/١١٥).

وثبوت السورة بالهمزة بمعنى السورة يؤيد كون السورة منقلبة الواو عن الهمزة، وأكثر القراء على ترك الهمزة في لفظ السورة.[1]

*والسورة: اصطلاحا: هي طائفة مستقلة من آيات القرآن، مترجمة توقيفا، ذي فاتحة وخاتمة، وأقلها ثلاث آيات.[2]

وكان التنزيل الحكيم هو أول من أوجد هذا المعنى الاصطلاحي للفظة "سورة" في عشرة مواضع من مثل قوله تعالى: ﴿ سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝١ ﴾النور: ١، فنصّت الآية على أنها سورة منزّلة، وأنها تشتمل على آيات بينات، وهذا هو معنى "سورة" الاصطلاحي كما سبق.[3]

---

١) انظر: الكليات لأبي البقاء (١/٤٩٣-٤٩٤). والحديث في علوم القرآن والحديث لحسن أيوب (١/١٨). ودراسات في علوم القرآن لمحمد بكر إسماعيل (١/٥٦). والمقدمات الأساسية في علوم القرآن للجديع (١/١٣).

٢) انظر: الاتقان في علوم القرآن للسيوطي (١/١٨٦). ومناهل العرفان للزرقاني (١/٣٥٠).

٣) انظر: أسماء القرآن الكريم لآدم بمبا (١/٤٥-٤٧).

سابعا: تعريف الآية القرآنية

*الآية: لغة: أصلها (أَوَيَةٌ) بالتحريك، ولها معاني عديدة، أكثر أهل اللغة على أنها تعني العلامة، وهذه آية مَأْيَاةٌ، كقولك علامة معلمة، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾البقرة:٢٤٨.

وسميت (الآية) من القرآن بذلك؛ لأنها علامة لانقطاع كلام من كلام، أو لأنها بمنزلة أعلام الطريق المنصوبة للاهتداء بها، أو لأنها علامة على صدق من جاء به صلوات ربي وسلامه عليه.[1]

وتطلق الآية في اللغة على إطلاقات أخرى، هي:

- الآية: المعجزة، ومنه قوله تعالى: ﴿سَلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ﴾البقرة:٢١١، والآية القرآنية معجزة ولو بانضمام غيرها إليها.

- الآية: البرهان والدليل، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ﴾الروم:٢٢، والآية القرآنية فيها معنى البرهان والدليل على ما تضمنته من هداية وعلم، وعلى قدرة الله وعلمه وحكمته، وعلى صدق رسوله في رسالته.

- الآية: العبرة، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً﴾البقرة:٢٤٨، والآية القرآنية فيها عبرة لمن أراد أن يعتبر.

- الآية: الأمر العجيب، ومنه قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً﴾المؤمنون:٥٠، والآية القرآنية من الأمور العجيبة لمكانها من السمو والإعجاز.

- الآية: الجماعة، ومنه قولهم: خرج القوم بآيتهم أي بجماعتهم. والمعنى أنهم لم يدعوا وراءهم شيئا، والآية القرآنية مؤلفة من جملة وجماعة كلمات وحروف.[2]

*والآية: اصطلاحا: قرآن مركب من جُمل ولو تقديرا، ذو مبدأ ومقطع، مندرج في سورة.

---

١) انظر: العين للفراهيدي (٤٤١/٨). ومعجم مقاييس اللغة لابن فارس (١٦٧/١-١٦٨). والمقدمات الأساسية في علوم القرآن للجديع (١٤/١).

٢) انظر: الصحاح للجوهري (٢٢٧٥/٦-٢٢٧٦). ولسان العرب لابن منظور (٦١/١٤). ومناهل العرفان للزرقاني (٣٣٨/١-٣٣٩).

أو هي: طائفة من القرآن منقطعة عما قبلها وما بعدها ضمن سورة، ولا تعلم إلا بتوقيف من الشارع كمعرفة السور.[1]

يقول ابن عاشور: "الآية: هي مقدار من القرآن مركب ولو تقديرا أو إلحاقا.

فقولي: ولو تقديرا: لإدخال قوله تعالى: ﴿ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ ﴾ الرحمن:٦٤، إذ التقدير: هما مدهامتان، ونحو: ﴿ وَٱلْفَجْرِ ﴿١﴾ ﴾الفجر:١، إذ التقدير: أقسم بالفجر.

وقولي: أو إلحاقا: لإدخال بعض فواتح السور من الحروف المقطعة، فقد عدّ أكثرها في المصاحف آيات ما عدا: ﴿ الٓر ﴾يونس:١، و ﴿ الٓمٓر ﴾الرعد:١، و ﴿ طسٓ ﴾النمل:١، وذلك أمر توقيفي وسنة متبعة، ولا يظهر فرق بينها وبين غيرها.

وتسمية هذه الأجزاء آيات هو من مبتكرات القرآن، قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ ﴾آل عمران:٧، وقال: ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ ﴾هود:١".[2]

---

١) انظر: الاتقان في علوم القرآن للسيوطي (٢٣٠/١). وعلوم القرآن لنور الدين عتر (٣٩/١). ودراسات في علوم القرآن لمحمد بكر إسماعيل (٥٢/١-٥٣). ومناهل العرفان للزرقاني (٣٤٠/١).

٢) التحرير والتنوير (٧٤/١).

الباب الأول

التناسق الموضوعي في سورة غافر

وفيه تمهيد وثلاثة فصول:

التمهيد: عرض موجز للسورة الكريمة.

الفصل الأول

تعريف بسورة غافر، وفيه سبعة مباحث:

- **المبحث الأول:** اسم السورة الكريمة.
- **المبحث الثاني:** سبب التسمية.
- **المبحث الثالث:** معاني أسماء السورة.
- **المبحث الرابع:** آل حاميم.
- **المبحث الخامس:** فضائل السورة.
- **المبحث السادس:** فضائل آل حاميم.
- **المبحث السابع:** عدد آيات السورة وكلماتها وحروفها.

الفصل الثاني

خصائص السورة الزمانية والمكانية والتنزيلية والموضوعية، وفيه خمسة مباحث:

- **المبحث الأول:** تاريخ نزول السورة.
- **المبحث الثاني:** مكان نزول السورة والمكي والمدني فيها.
- **المبحث الثالث:** أسباب النزول الواردة في السورة، وفوائد معرفة سبب النزول وثمرته.
- **المبحث الرابع:** مناسبة السورة لما قبلها وما بعدها.
- **المبحث الخامس:** اختصاصات السورة.

الفصل الثالث:

جو السورة ومقاصدها ومناسباتها، وفيه ستة مباحث:

- **المبحث الأول:** الجو العام الذي نزلت فيه السورة.
- **المبحث الثاني:** الوحدة الموضوعية للسورة ومحورها الأساسي ومقصدها الأعظم.
- **المبحث الثالث:** مقاصد وأهداف السورة وموضوعاتها.
- **المبحث الرابع:** المناسبة بين اسم السورة وموضوعها الكلي.
- **المبحث الخامس:** مناسبة فاتحة السورة لموضوعاتها.
- **المبحث السادس:** مناسبة فاتحة السورة لخاتمتها.

التمهيد

عرض موجز للسورة الكريمة

- بدأت السورة الكريمة بالحروف المقطعة تحديا للمعاندين في صدق القرآن بإعجازهم عن معارضته بعد أن تحداهم لذلك فلم يفعلوا، واسترعاء لانتباه المخاطبين إلى عظمة الكتاب المنزل عليهم من ربهم المتفضل على عباده المؤمنين بالمغفرة والتوبة والإنعام، والمتوعد لمن أعرض بشديد العقاب، ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ٣ ﴾غافر: ٣.

- بعدها ذكرت جدال المعاندين في الله وآياته، وأنه لا يفعله إلا الكافرون، وبينت أن جدالهم غرور وهباء لمن نظر إلى مصارع الغابرين من المكذبين الذين حقت عليهم كلمة العذاب.

- ثم نوهت السورة الكريمة بعلو شأن المؤمنين الذين خصتهم ملائكة الرحمن المقربين –حملة العرش ومن حوله– والمسبحين بحمد ربهم بالاستغفار والدعاء لهم رحمة بهم ورجاء أن يفوزوا بالفوز العظيم.

- بعد ذلك بينت حال الخاسرين وموقف الملائكة منهم، وهم الذين أعرضوا عن تلبية النداء فانقلب حالهم إلى المقت الشديد من الله لهم ومنهم لأنفسهم، وندمهم وطمعهم في الخروج من العذاب، ولكن الله قد حكم وأنفذ قضاءه وهو العلي الكبير.

- ثم استرعت الآيات انتباه المخلوقين إلى النظر في آيات الله المتكاثرة الكافية للتذكر والاعتبار لمن أناب، ودعت عباد الله إلى التوجه إلى الله وحده بالدعاء مخلصا له الدين.

- عقب ذلك أكدت للمؤمنين المأمورين بالإخلاص بأنهم يدعون ربا عظيما رفيع الدرجات ومالك العرش، وهو سبحانه ينذرهم يوم التلاق حيث سيبرز الجميع مكشوفي الحال أمام الملك الواحد القهار الذي سيجازي الجميع بتمام العدل والإنصاف، وأما المعرضون فيتوجه لهم إنذار شديد بيوم الآزفة والقلوب تخفق في الحناجر لا شفيع ولا نصير، يومها يقضي الله بينهم بالحق إذ كانت آلهتهم المزعومة لا تقدر على أن تقضي بشيء.

- ثم دعتهم إلى السير في الأرض وأخذ الاعتبار ممن سبق وصار، وقد كانوا على أقوى هيئة وصفة فأوبقتهم ذنوبهم، وجاءتهم رسلهم بالبينات فكفروا ﴿ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ قَوِيٞ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٢٢ ﴾ غافر:٢٢ ، وإذا كان المعرضون قد نسوا أخبار السابقين ومصارع الغابرين، فقد قصّ الله عليهم قصة

موسى عليه السلام وقومه مع فرعون وجنوده، وكيف أن الآيات الباهرات التي جاء بها موسى عليه السلام ما زادت المتجبرين إلا استكبارا وافسادا في الأرض بالقتل والتشريد، لكن صوت الإيمان يعلو بين أوساط الطغاة المستكبرين على لسان مؤمن من آل فرعون قام فنصح فرعون وقومه بأسلوب حواري مقنع عسى أن يردع المفسدين عن إجرامهم، فلما أحرجت حجج مؤمنهم فرعون قام يشتت تركيز السامعين بطلبه بناء صرح شامخ يبلغ عنان السماء ليطّلع إلى إله موسى -عليه السلام- فيتأكد من صدقه وصدق رسالته، وهو في ذلك يحاول أن يظهر بمظهر الناقد المحايد، لكن الله جعل كيده في هلاك.

- عقب هذا تابع المؤمن حواره بكل قوة وحماس مذكرا قومه بفناء الدنيا وأن الآخرة هي دار القرار يجزى فيها الصالحون بالإحسان ويدخلون الجنان ﴿يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾﴾ غافر: ٤٠.

- ثم أكدّ لهم بأنه داعيهم إلى الجنة ورحمة العزيز الغفار، ويستنكر دعوتهم له إلى النار بالكفر والإشراك، ويختم موعظته بقوله: ﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٤٤﴾﴾غافر: ٤٤، فكانت أن ظهرت العاقبة عاجلا، بأن وقى الله هذا المؤمن شرّ فرعون في الدنيا، وأهلك فرعون وجنوده، فإذا هم في البرزخ يعرضون على مقاعدهم من النار غدوا وعشيا، وقد أكدّ الله أنهم في النار يوم القيامة.

- بعد هذا بيّنت الآيات حالهم وحال الكافرين في النار، والحوار بل الخصام والجدال محتدم بين الاتباع الضعفاء وأسيادهم المستكبرين يلومون ويطلبون تخفيف العذاب، فما يجد أسيادهم جوابا إلا التملص بأن مصيرنا واحد مشترك في النار والعذاب ﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴿٤٨﴾﴾غافر: ٤٨.

- ثم لما لم يجدوا خلاصا من العذاب عند أسيادهم هرعوا إلى خزنة جنهم يطلبون تخفيف يوم من العذاب، لكن أنّى لهم ذلك وقد جاءتهم رسلهم بالبيّنات فكفروا وأعرضوا، فاليوم سيكون الجزاء هو الإعراض عنهم وعن دعائهم ﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٥٠﴾﴾غافر: ٥٠.

- ويختم الله هذه القصة المعبّرة الصادقة الشاهدة على سنن الله في الأرض والسماء بأن عاقبة النصر كانت وستكون دوما لرسل الله وأتباعهم المؤمنين في الدنيا والآخرة، وستكون كذلك لرسول الله محمد ﷺ وأتباعه، لذا أمره الله بالصبر والاستغفار والتسبيح فإن وعد الله حق، أما جدال الكافرين في آيات الله فهو جدال عناد بلا دليل أو برهان بل في صدورهم كبر عظيم، فعلى الرسول ﷺ الاستعاذة من ذلك بربه السميع بمكرهم والبصير بكيدهم، فإن خلق السماوات أكبر من خلقهم وخلق الناس

ولكنهم لا يعلمون هذا الأمر البديهي، إذ لا يستوي الأعمى والبصير، ولا يستوي الذين ﴿ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ غافر: ٥٨.

- وفي ختام هذا البيان الشافي الكافي يدعو الله تعالى عباده إلى دعائه ليستجيب لهم، وتوعد من استكبر بدخول جهنم صاغرا حقيرا.

- ثم يعدّد الله سبحانه نعمه وآلاءه على خلقه من جعل الليل والنهار للسكن والمعاش، وخلق كل شيء وهو المتفضل على الجميع فأنّى يُصرف العباد؟! وقد خلقهم فأحسن خلقهم وهو الحي لا إله إلا هو، فالحريّ بخلقه أن يدعوه مخلصين له الدين، ومن لم يتبين هذا الأمر بداهة وفطرة فقد جاءت الرسل بالبيّنات وهم قد نُهوا عن عبادة غير الله وأمروا أن يسلموا لرب العالمين الذي خلق الإنسان ابتداء من تراب، ثم كان نسله يبتدئ خلقهم من نطفة ليخرج طفلا فيعمر في الأرض ما شاء الله ثم يتوفاه الله، فهو وحده الذي يحيي ويميت وإذا ﴿ قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾ ﴾غافر: ٦٨.

- وبعد كل هذا يعاود الله إنذار المكذبين وتخويفهم بالعذاب الشديد جزاء فرحهم ومرحهم في الدنيا بغير الحق، ويأمر نبيه ﷺ مجددا بالصبر فإن وعد الله ووعيده حق سواء أدرك بعضه في حياته وإلا فهو محقق أن يراه في الآخرة فالجميع إلى الله راجع، وفي رسل الله الذين سبقوه، ومنهم من قصّ الله عليه خبرهم ومنهم من لم يقصص عليه، في قصصهم تثبيت له ﷺ، فقد جاء المكذبين من أقوامهم أمر الله وقضي عليهم بالحق وخسر المبطلون دوما.

- وتختم السورة آياتها بتذكير الله عباده ببعض نعمه التي لا تعد ولا تحصى، وقد أراهم الكثير من آياته فأي آيات الله ينكرونها؟! وقد رأوا مصارع الغابرين وبلغهم حال السابقين الذين ما أغنت عنهم قوتهم شيئا إذ جاءتهم رسلهم بالبينات فكفروا واستهزؤوا وفرحوا بما عندهم من العلم، حتى إذا رأوا بأس الله هرعوا إلى الإيمان فما كان لينفعهم ذلك وقتئذ، وهذه سنة الله التي قد خلت في عباده، وقد خسر ﴿ هُنَالِكَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾ غافر: ٨٥.

الفصل الأول

تعريف بسورة غافر

وفيه سبعة مباحث

- المبحث الأول: اسم السورة الكريمة.
- المبحث الثاني: سبب التسمية.
- المبحث الثالث: معاني أسماء السورة.
- المبحث الرابع: آل حاميم.
- المبحث الخامس: فضائل السورة.
- المبحث السادس: فضائل آل حاميم.
- المبحث السابع: عدد آيات السورة وكلماتها وحروفها.

الفصل الأول: تعريف بسورة غافر

المبحث الأول: اسم السورة الكريمة

بعد البحث في أسماء القرآن الكريم تقرر أنها جميعها وردت في القرآن الكريم نفسه، أما أسماء السور فإنها ليست قرآنية كلها، ولذلك حدث الخلاف في كونها توقيفية أو اجتهادية، لكن المسلمين كافة يجمعون على عدم جواز وضع أسماء جديدة للسور بعد ثبوت الأسماء المعروفة وإجماع المسلمين عليها وتلقي الأمة لها بالقبول.[1]

والأصل في تسمية السور أن تتفرد كل سورة باسم يميزها عن غيرها -طبقا لمنطق تسمية الأشياء؛ لأن الاسم يوضع أصلا لتمييز المسمّى عن بقية المسمّيات- لكن قد تتعدد أسماء السورة الواحدة تبعا للآثار الواردة في ذلك، ويدل ذلك على شرفها؛ فإن كثرة الأسماء وتعددها دالّ على شرف المسمّى.[2]

والسورة التي بين يدي هذه الدراسة تعددت أسماؤها، وأشهر ما سميت به هي سورة (غافر)[3] أو (حم غافر)[4]، "وبهذا الاسم اشتهرت في مصاحف المغرب"[5].

واشتهرت كذلك بسورة (المؤمن)[6] أو (حم المؤمن)[7]، "وَبِذَلِكَ اشْتُهِرَتْ فِي مَصَاحِفِ الْمَشْرِقِ، وَبِذَلِكَ تَرْجَمَهَا الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ وَالتِّرْمِذِيُّ فِي الْجَامِعِ"[8].

وتسمى كذلك سورة (حم الأولى)[9]، أو (حم الأول)[10].

---

١) انظر: أسماء القرآن الكريم وأسماء سوره وآياته؛ معجم موسوعي ميسر، تأليف: د. آدم بمبا (١/٤٧-٥٠).

٢) انظر: المصدر السابق (١/٥١).

٣) انظر: لباب التأويل في معاني التنزيل للخازن (٤/٦٧). والتحرير والتنوير لابن عاشور (٢٤/٢٢٧). والموسوعة القرآنية، خصائص السور لجعفر شرف الدين (٨/٣).

٤) انظر: التحرير والتنوير لابن عاشور (٢٥/٣٢٣). وأسماء القرآن لآدم بمبا (١/٨٠).

٥) التحرير والتنوير لابن عاشور (٢٤/٧٥).

٦) انظر: صحيح البخاري (٦/١٢٦). وجامع الترمذي (٥/٢٢٧). وتفسير السمعاني (٥/٥). والإتقان في علوم القرآن للسيوطي (١/١٩٤). والجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٥/٢٨٨). والموسوعة القرآنية، خصائص السور لجعفر شرف الدين (٨/٣).

٧) انظر: أسماء القرآن لآدم بمبا (١/٨٠).

٨) التحرير والتنوير لابن عاشور (٢٤/٧٥).

٩) انظر: غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابوري (١/٤٠). وبصائر ذوي التمييز للفيروز آبادي (١/٤٠٩). وأسماء القرآن لآدم بمبا (١/٥٩، ٨٠). والموسوعة القرآنية، خصائص السور لجعفر شرف الدين (٨/٣).

١٠) عمل اليوم والليلة لابن السني، باب ما يقول إذا أصبح، برقم "٧٦" (١/٧٠).

وسُميت أيضا بسورة (الطّول)[1]، "وقد تُنوسي هذا الاسم"[2].

وقد وردت تسميتها في السنة بـ (حم المؤمن) في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّهِ ﷺ: ((من قَرَأَ حم الْمُؤْمِنَ إلى ﴿إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ غافر: ٣ ...))[3]، وفي رواية عند ابن السني: ((مَنْ قَرَأَ آيَةَ الْكُرْسِيِّ، وَحم الْأَوَّلَ ...))[4].

وفي حديث أُبي بن كعب رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: ((من قرأ حم المؤمن لم تبق روح نبي ...))[5]، وهو حديث موضوع[6].

كما وردت هذه التسمية في أثر عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (نزلت حم المؤمن بمكة)[7].

وعن ثابت البناني[8] قال: (... دخلت حائطا أصلي ركعتين فافتتحت حم المؤمن ...)[9].

---

١) انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٢٨٨/١٥). والإتقان في علوم القرآن للسيوطي (١٩٤/١). وأسماء القرآن لآدم بمبا (٥٩/١)، (٨٠/١). والموسوعة والموسوعة القرآنية، خصائص السور لجعفر شرف الدين (٣/٨).

٢) التحرير والتنوير لابن عاشور (٧٥/٢٤).

٣) أخرجه الترمذي في جامعه في كتاب فضائل القرآن الكريم، وباب ما جاء في فضل سورة البقرة وآية الكرسي، برقم "٢٨٧٩" (١٥٧/٥)، وقال حديث غريب، غريب، وضعفه الشيخ الألباني في ضعيف الترمذي.

وأخرجه الدارمي في سننه، في كتاب فضائل القرآن، وباب فضل أول سورة البقرة وآية الكرسي، برقم "٣٤٢٩" (٢١٣٢/٤).

٤) أخرجه ابن السني في عمل اليوم والليلة، باب ما يقول إذا أصبح، برقم "٧٦" (٧٠/١).

٥) أخرجه المستغفري في فضائل القرآن، برقم "١٢٠٧" (٧٨٣/٢). والكشف والبيان للثعلبي (٢٦٢/٨). والتفسير الوسيط للواحدي برقم "٨٠٧" (٣/٤).

٦) قال ابن الصلاح: "وهكذا حال الحديث الطويل الذي يروى عن أُبيّ بن كَعْب عن النبي ﷺ في فضل القرآن سورة فسورة، بحث باحث عن مخرجه حتى انتهى إلى من اعترف بأنه وجماعة وضعوه، وإن أثر الوضع لبيّن عليه، وقد أخطأ الواحدي المفسر ومن ذكره من المفسرين في إيداعه تفاسيرهم". المقدمة لابن الصلاح (١٠٠/١-١٠١). وعنه السيوطي في الإتقان (١٣٤/٤-١٣٥).

وممن نص على وضعه ابن المبارك وابن القيم. انظر: المنار المنيف لابن القيم، فصل "٣٢"، برقم "٢٢٥" (١١٣/١).

٧) الدر المنثور للسيوطي (٢٦٨/٧).

٨) هو ثابت بن أسلم البناني، صحب أنس بن مالك رضي الله عنه أربعين سنة، وكان من أعبد أهل البصرة وأكثرهم صبرا على كثرة الصلاة ليلا ونهارا مع الورع الشديد، ولد عام ٤١هـ، وتوفي عام ١٢٧هـ، -رحمه الله تعالى رحمة واسعة-. انظر: مشاهير علماء الأمصار لابن حبان (١٤٥/١).

٩) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره برقم "١٨٤١٧، ١٨٧٢٠" (٣٢٦٣/١٠-٣٢٦٤).

المبحث الثاني: سبب التسمية

تسمية سور القرآن الكريم تتبع عدة أنساق، يمكن ضبطها في أربعة أنساق كالآتي:

- النسق الأول: تسمية السورة بمطلعها، وذلك بذكر كلمة واردة في الآية الأولى، مثل سورة الأنفال وسورة القلم.

- النسق الثاني: تسمية السورة بكلمة مميزة فيها عن باقي السور، مثل سورة غافر وسورة المسد.

- النسق الثالث: تسمية السورة بموضوع مضمّن فيها يحتل مركز الصدارة والأهمية بين موضوعات السورة، مثل سورة مريم وسورة الجمعة.

- النسق الرابع: تسمية السورة بصفة بارزة فيها تميزها عن سائر السور، مثل الفاتحة والإخلاص.[١]

وقد أشار الزركشي إلى الأنساق السابقة في أساليب تسمية السور بقوله: "ولا شك أن العرب تراعي في الكثير من المسميات أخذ أسمائها من نادر أو مستغرب يكون في الشيء، من خلق أو صفة تخصه، أو تكون معه أحكم أو أكثر أو أسبق لإدراك الرائي للمسمى، ويسمون الجملة من الكلام أو القصيدة الطويلة بما هو أشهر فيها، وعلى ذلك جرت أسماء سور الكتاب العزيز"[٢].

وقال ابن عاشور: "وَاعْلَمْ أَنَّ أَسْمَاءَ السُّوَرِ إِمَّا أَنْ تَكُونَ بِأَوْصَافِهَا مِثْلَ الْفَاتِحَةِ وَسُورَةِ الْحَمْدِ، وَإِمَّا أَنْ تَكُونَ بِالْإِضَافَةِ لِشَيْءٍ اخْتُصَّتْ بِذِكْرِهِ نَحْوَ سُورَةِ لُقْمَانَ وَسُورَةِ يُوسُفَ وَسُورَةِ الْبَقَرَةِ، وَإِمَّا بِالْإِضَافَةِ لِمَا كَانَ ذِكْرُهُ فِيهَا أَوْفَى نَحْوَ سُورَةِ هُودٍ وَسُورَةِ إِبْرَاهِيمَ، وَإِمَّا بِالْإِضَافَةِ لِكَلِمَاتٍ تَقَعُ فِي السُّورَةِ نَحْوَ سُورَةِ بَرَاءَةَ، وَسُورَةِ حم عسق، وَسُورَةِ حم السَّجْدَةِ كَمَا سَمَّاهَا بَعْضُ السَّلَفِ، وَسُورَةِ فَاطِرٍ. وَقَدْ سَمَّوْا مَجْمُوعَ السُّوَرِ الْمُفْتَتَحَةِ بِكَلِمَةِ حم (آلَ حم)، وَرُبَّمَا سَمَّوْا السُّورَتَيْنِ بِوَصْفٍ وَاحِدٍ فَقَدْ سَمَّوْا سُورَةَ الْكَافِرُونَ وَسُورَةَ الْإِخْلَاصِ الْمُقَشْقِشَتَيْنِ"[٣].

وبالنظر إلى أسماء سورة غافر نجد أنها أخذت من الأنساق الثلاثة الأولى:

---

١) انظر: أسماء القرآن الكريم لآدم بمبا (٦٦/١-٦٧).

٢) البرهان في علوم القرآن للزركشي (٢٧٠/١).

٣) التحرير والتنوير لابن عاشور (٩١/١).

فسميت بـ (حم الأولى) لأنها مفتتحة بقوله تعالى: ﴿ حمٓ ۝١ ﴾غافر:١، ولأنها السورة الأولى في ترتيب المصحف الشريف بين سور الحواميم السبعة.

وسميت بسورة (غافر) أو (حم غافر) لورود اسم الله الغافر في مستهلها في قوله تعالى: ﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ ﴾غافر:٣، وهي كلمة مميزة فيها لا نظير لها في القرآن.

وسميت كذلك بسورة (الطّول) لورود كلمة الطّول في مستهلها أيضا في قوله تعالى: (ذي الطّول)، وهي كلمة لم ترد صفة لله تعالى إلا في هذا الموضع، وقد جاءت صفة للناس في سورة التوبة في قوله تعالى: ﴿ٱسۡتَـٔۡذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوۡلِ مِنۡهُمۡ ﴾التوبة: ٨٦.

وسميت كذلك بسورة (المؤمن) أو (حم المؤمن) لذكر قصة مؤمن آل فرعون فيها، والتي لم تذكر في سورة أخرى مطلقا،[١] أو لم تذكر بوجه صريح إلا هنا عند من يرى أن مؤمن آل فرعون هو نفسه الذي جاء من أقصى المدينة يسعى ليحذر موسى عليه السلام من محاولة قتله ونصحه له بالخروج والتي ذكرت في سورة القصص.[٢]

قال المهايميّ[٣]: "سميت به لاشتمالها على كلمات مؤمن آل فرعون، المتضمنة دلائل النبوة ورفع الشبه عنها، والمواعظ والنصائح وسلامته عن أعدائه. وعما أخذوا به، وهي من أعظم مقاصد القرآن"[٤].

١) انظر: بصائر ذوي التمييز للفيروز آبادي (٤٠٩/١). والتحرير والتنوير لابن عاشور (٧٥/٢٤). وأسماء سور القرآن الكريم لآدم بمبا (٥٩/١). والتفسير المنير للزحيلي (٦٨/٢٤). والموسوعة القرآنية، خصائص السور لجعفر شرف الدين (٣/٨).

٢) انظر: فتح القدير للشوكاني (١٩٠/٤).

والصحيح أن هذا الرجل غير مؤمن آل فرعون، فإن تلك القصة كانت قبيل خروج موسى من مصر، وهذه القصة في مبدأ دخوله مصر، ولم يوصف هنالك بأنه مؤمن ولا بأنه من آل فرعون بل كان من بني إسرائيل، انظر: التحرير والتنوير لابن عاشور (١٢٨/٢٤-١٢٩).

٣) علي بن أحمد بن إبراهيم بن إسماعيل المهايمي الهندي، أبو الحسن، علاء الدين، المعروف بالمخدوم، باحث مفسر، ولد سنة ٧٧٦هـ، وتوفي سنة ٨٣٥هـ، -رحمه الله تعالى رحمة واسعة-. انظر: نزهة الخواطر للطالبي (٢٦١/٣). والأعلام للزركلي (٢٥٧/٤-٢٥٨). ومعجم المؤلفين لكحالة (٩/٧).

٤) تبصير الرحمن (٢٢٢/٢). وانظر: محاسن التأويل للقاسمي (٣٠٠/٨).

المبحث الثالث: معاني أسماء السورة

هذه السورة الكريمة هي أولى السور السبع التي تبدأ بقوله تعالى: ﴿حمٓ﴾، فمن ثم أطلق على مجموع سورها الحواميم أو آل حاميم أو ذوات حاميم.

وقد سميت هذه السورة بـ (حم) أربع مرات:

(حم الأولى)، و (حم الأول)، و (حم غافر)، و (حم المؤمن)، فنبدأ ببيان –موجز– لمعنى (حم)، ثم لنا ثلاثة أسماء أخر سنقف على معانيها وهي (غافر) و (الطّول) و (المؤمن)، لنكشف عن جميع معاني ودلالات أسماء هذه السورة الكريمة.

- ﴿حمٓ﴾: هي الآية الأولى من هذه السورة، وقد قيل في معناها عدة أقوال، نجملها فيما يلي:

القول الأول: إنها من حروف الهجاء المقطعة وفواتح السور، والتي استأثر الله تعالى بعلمها، فهي سر الله في القرآن، ولله في كل كتاب من كتبه سر، فهي من المتشابه الذي انفرد الله بعلمه، ولا نحب أن نتكلم فيها ولكن نؤمن بها، وروي هذا القول عن أبي بكر الصديق وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما، وروي عن عمر وعثمان وابن مسعود رضي الله عنهم أنهم قالوا: الحروف المقطعة من المكتوم الذي لا يفسر، وهذا أصح الأقوال وأرجحها، وهو ما جرى عليه جمهور سلف الأمة.

القول الثاني: إنها إشارة إلى حروف الهجاء، أعلم الله بها العرب حين تحداهم بالقرآن أنه مؤتلف من حروف هي التي بناء كلامهم عليها، ليكون عجزهم عنه أبلغ في الحجة عليهم، إذ لم يخرج عن كلامهم، ودلالاتها في كونها لتنبيه السامعين و لبيان التحدي والإعجاز بها، وهذا قول حسن.

القول الثالث: إنها اسم من أسماء الله تعالى، أو اسم الله الأعظم، أو بعض حروف اسم الله الرحمن، أو بدء أسماء الله تعالى كحميد وحليم ومالك ومجيد، وأنها جاءت قسما أقسم الله به في بدايات هذه السور. وهذا تكلف لا موجب له، وهو ضعيف لكون أسماء الله توقيفية.

القول الرابع: إنها اسم من أسماء القرآن الكريم. وهذا ضعيف لكون أسماء القرآن الكريم توقيفية.

القول الخامس: إن معنى ﴿حمٓ﴾ قُضي ما هو كائن، إشارة إلى "حُمَّ" بضم الحاء وتشديد الميم، بمعنى قُضي ووقع[١]. وهذا ضعيف، حيث التكلف والتعسف فيه واضح.

القول السادس: وهو قول معاصر، لم أجد من قال به من السابقين، يستحق التأمل والنظر، قاله أ. إياس محمد حرب آل خطاب في كتابه (القول المعتبر في بيان الإعجاز للحروف المقطّعة من فواتح السور)، وهي دراسة في الإعجاز اللغوي والبياني للقرآن الكريم، حيث قال: "إن هذه الحروف نزلت كشعار لبعض السور، لتعظيم السطر بها ولتنظيم الكتابة في القرآن، وبها ستخلّد لغة العرب، وسيكون لها ما كان لغيرها من لغات الأمم الأخرى من الشهرة والعظمة، بل أكبر وأجل، بأن سيكون لهم كتاب كما للأمم قبلهم كتب، مكتوب بلغتهم الفصيحة التي يتغنون بها في أشعارهم، وهم أعرف الناس بما سيكون عليه هذا الكتاب إن تمّت العناية به، وعلى يقين بأن لغتهم هي الأجدر بين اللغات لتسطر بها الكتب، مع وضاعة علم الكتابة عندهم. فهي تمثل دعوة لهم ترغيباً في كتابة كلام الله، كما جاء ترغيبهم بالإيمان بكلام الله لنزوله بلغتهم ... هذا كله مع علمهم بأن الغاية من القرآن لم تكن لإبداع كتاب أو الحفاظ على لغة من بين اللغات، فلو طرح أحدهم في ذلك الزمان تأليف كتاب لتخليد لغة العرب وأشعارهم، لأجلوه أعظم إجلال، ورفعوا منزلته بينهم، وهذا ما يحصل في الأمم عموماً من تخليد أهل الكتب وأهل العلم، لكن الغاية من القرآن أعظم وأجل، وهي عبادة الله وحده وإنفاذ تشريعه بين الناس، والحفاظ على ما أنزل من أحكام، وبناءً على هذا الحفظ ألزم القرآن حفظ لغة الخطاب، بما فيها من لفظ وكتابة ومعنى، وقد علم المشركون أنهم إن آمنوا بالغاية تحصلت لهم الوسيلة، وهذا كله مع معرفتهم لرسول الله ﷺ وبأمّيّته، وبما أنه قال هذه الحروف بأسمائها دون ألفاظها والتعبير عن الحروف بأسمائها من رسوم أهل القراءة والكتابة، فهي دلالة على أنها ليست من نفسه، بل هي ليست مجالاً للنقاش معه، إذ هي بالمحصلة ليست لهم أو ليس لهم خيرها، إلا إن اتبعوا ناطقها، لكونها خاصة بمن سيكتب القرآن، وبها سيكون المتبعون لها أهل كتابة، وهم ليسوا كذلك في الأصل بل هم أميون، فكانت إعجازاً لهم عن الكلام فيها"[٢].

واستدل لقوله هذا بوجوه كثيرة ثم قال: "فهذه الوجوه تدلّ على أن في ذكر الحروف دلالات تخص الكتابة، بل تدلّ على أسس وقواعد الكتابة في القرآن"[٣].

---

١) انظر: جامع البيان للطبري (٢١/٣٤٥-٣٤٦). والجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٥/٢٨٩-٢٩٠). وزاد المسير لابن الجوزي (٤/٢٩-٣٠). وفتح القدير للشوكاني (١/ ٣٤-٣٨)، (٤/٥٥١). وفتح البيان في مقاصد القرآن لصديق بن حسن القنوجي (١٢/١٥٧).

٢) القول المعتبر في بيان الإعجاز للحروف المقطعة من فواتح السور لإياس حرب آل خطاب (١/١٣٢).

٣) المرجع السابق (١/١٥٣).

- ﴿ غَافِرِ ﴾: جاءت هنا اسما أو صفة لله تعالى، ومعناه: من اتّصف بالمغفرة والعفو والصَّفح على سبيل الإطلاق.

و (غافر) اسم فاعل من غَفَرَ، والمفعول مَغْفور.

وأصل الغفر من الستر والتغطية، غفر الشيء غفرا: ستره وغطّاه، وغفر الله له ذنبه غفرا، وغفرانا، ومغفرة: ستره، وعفا عنه، وَلم يَفْضَحهُ بهَا على رُؤُوس الْمَلأ.

فهو غافر، وللمبالغة: غفور، وغفّار، وَمَعْنَاهَا السِّتِّير لِذُنُوبِ عِبَادِهِ وَعُيُوبِهِمْ، المتَجاوِز عَن خَطَايَاهُم وَذُنُوبِهِمْ.[1]

قال ابن فارس: "الْغَيْنُ وَالْفَاءُ وَالرَّاءُ عُظْمُ بَابِهِ السَّتْرُ"[2].

وهو "يخرج على وجهين:

أحدهما: ﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ ﴾ أي: متجاوز الذنب، وهو في حق المؤمنين خاصة.

والثاني: ﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ ﴾ أي: ساتر الذنب، وهو يحتمل للكافر والمؤمن جميعًا؛ فإنه يستر كثيرًا على المؤمن والكافر جميعًا الذنب في الدنيا، ولم يفضحهما، ويتجاوز عن المؤمن خاصة في الآخرة"[3].

وقال شيخ المفسرين ابن جرير الطبري (ت: ٣١٠هـ): "وفي قوله: ﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ ﴾ وجهان؛ أحدهما: أن يكون بمعنى يغفر ذنوب العباد ... والآخر: أن يكون معناه: أن ذلك من صفته تعالى، إذ كان لم يزل لذنوب العباد غفورا من قبل نزول هذه الآية وفي حال نزولها، ومن بعد ذلك ... وقال: ﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ ﴾ ولم يقل الذنوب، لأنه أريد به الفعل"[4].

---

١) انظر: كتاب العين للفراهيدي الخليل بن أحمد، "غفر" (٤/٤٠٦-٤٠٧). وتهذيب اللغة للأزهري (٨/١١٢). والنهاية في غريب الحديث لابن الأثير (٣/٣٧٣). ولسان العرب لابن منظور (٥/٢٥). والمعجم الوسيط (٢/٦٥٦). والقاموس الفقهي لسعدي أبو حبيب (١/٢٧٥). ومعجم اللغة العربية المعاصرة لأحمد مختار، برقم "٣٥٨٨" (٢/١٦٢٨-١٦٢٩).

٢) معجم مقاييس اللغة (٤/٣٨٥).

٣) تأويلات أهل السنة للماتريدي (٩/٣).

٤) جامع البيان للطبري (٢١/٣٤٩-٣٥٠).

- ﴿ ٱلطَّوۡلِ ﴾: وتمامها كما وردت ﴿ ذِى ٱلطَّوۡلِ ﴾غافر:٣ ، وقد جاءت أيضا اسما أو صفة لله تعالى، ومعناه: صاحب الغنى واليسر والسعة والفضل والنعم المبسوطة على من يشاء من عباده، وذي القدرة المطلقة.[١] وذو حرف نسبة، فقوله: ذو الطَّوْل، معناه: أهْل الطّول والفضل.[٢]

قال ابن فارس: "الطَّاءُ وَالْوَاوُ وَاللَّامُ أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى فَضْلٍ وَامْتِدَادٍ فِي الشَّيْءِ"[٣].

وقال الزجاج[٤]: "وقوله: ﴿ ذِى ٱلطَّوۡلِ ﴾ معناه: ذي الغِنَى والفضل والقدرة، تقول: لفلان على فُلانٍ طَوْل إذا كان له عليه فضل"[٥]، "ومنه الطّول في الجسم لأنه زيادة فيه، قال تعالى: ﴿ وَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ مِنكُمۡ طَوۡلًا ﴾النساء: ٢٥، أي: غنى وسعة"[٦].

وقال الخازن[٧]: "وأصل الطول الإنعام الذي تطول مدته على صاحبه"[٨].

- (المؤمن): وتعني هنا الإشارة إلى مؤمن آل فرعون في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤۡمِنٌ مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَكۡتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقۡتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدۡ جَآءَكُم بِٱلۡبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمۡ ﴾ غافر:٢٨، الآية.

---

١) انظر: جامع البيان للطبري (٣٥١/٢١). وتفسير غريب القرآن للكواري (٣/٤٠). وكتاب العين للفراهيدي (٤٤٩/٧-٤٥٠). وتهذيب اللغة للأزهري (١٤/١٤-١٥). والقاموس المحيط للفيروز آبادي (١٠٢٧/١). والمعجم الوسيط لمجمع اللغة العربية (٥٧٢/٢). ومعجم اللغة العربية المعاصرة لأحمد مختار، برقم "٣٢٦١" (١٦٢٦/٢-١٦٢٧).

٢) انظر: زاد المسير (٣٠/٤).

٣) معجم مقاييس اللغة (٤٣٣/٣).

٤) هو إبراهيم بن السّري بن سهل، أبو إسحاق الزجاج، كان من أهل الفضل والدين حسن الاعتقاد، جميل المذهب له من التصانيف :معاني القرآن، والاشتقاق ومعاني القرآن وإعرابه، وغيرها، كان أول أمره يخرط الزجاج، فأحب علم النحو فذهب إلى المبرد، وكان يعطي المبرد كل يوم درهما، ثم استغنى الزجاج وكثر ماله ولم يقطع عن المبرد ذلك الدرهم حتى مات، توفي سنة ٣١١هـ، -رحمه الله تعالى رحمة واسعة-. انظر: البداية والنهاية لابن كثير (١٤٨/١١). وتاريخ الإسلام للذهبي (٤٠٧/٢٣).

٥) معاني القرآن وإعرابه (٣٦٦/٤).

٦) التفسير الوسيط لطنطاوي (٢٦٠/١٢).

٧) هو: علي بن محمد بن إبراهيم بن عمر بن خليل الشيحي نسبة إلى شيحة من أعمال حلب، البغدادي الصوفي، علاء الدين خازن الكتب بالسميساطية، ولد سنة ٦٧٨هـ ببغداد، ثم سكن دمشق مدة، واشتغل كثيرا وجمع تفسيرا كبيرا سماه لباب التأويل في معالم التنزيل، كان عالما بالحديث والتفسير، حسن السمت والبشر والتودد، مات بحلب في آخر شهر رجب أو مستهل شعبان سنة ٧٤١هـ، -رحمه الله تعالى رحمة واسعة-. انظر: الدرر الكامنة لابن حجر (١١٥/٤-١١٦). والأعلام للزركلي (٥/٥).

٨) لباب التأويل (٦٧/٤).

وقصة مؤمن آل فرعون وحواره الفريد مع فرعون وقومه من موضوعات هذه السورة الأساسية، وقد أخذت حيزا طويلا بين آياتها ابتدأت من الآية الثامنة والعشرين وانتهت بالآية الخامسة والأربعين.

واختلفوا في هذا المؤمن فقال بعضهم: كان من آل فرعون، غير أنه كان آمن بموسى عليه السلام، وكان يكتم إيمانه من فرعون وقومه خوفا على نفسه.

وقال آخرون: كان إسرائيليا، فيكون مجاز الآية بالتقديم والتأخير: وقال رجل مؤمن يكتم إيمانه من آل فرعون.[1]

١) انظر: الكشف والبيان للثعلبي (٨/٢٧٢-٢٧٣). والنكت والعيون للماوردي (٥/١٥٢). وزاد المسير لابن الجوزي (٤/٣٥). والجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٥/٣٠٦).

المبحث الرابع: آل حاميم

السُّوَرُ القرآنية الْمُفْتَتَحَةُ بـ﴿حمٓ﴾ سَبْعُ سُوَرٍ، وقد أتت كآية مستقلة في سورها كلها، وهي أكثر فواتح السور بالحروف المقطعة عددا، متتالية في النزول، ومرتبَة فِي الْمُصحف عَلَى تَرْتِيبِهَا فِي النُّزُولِ، أولاهن سورة غافر، فسورة فصلت، فسورة الشورى، فسورة الزخرف، فسورة الدخان، فسورة الجاثية، وخاتمتها سورة الأحقاف، وكلهن سور مكّيات.

تسمى مجموعة هذه السور: (آل حم) أو (ذوات حم) أو (الحواميم)، وقد نزلن عقب سورة الزمر.

وإنّ هذا البدء بالحاء والميم لسبع سور من القرآن يجعل منهن وحدة واحدة، في أسلوب النظم، وفي مضمونه، ثم إنّ الحواميم ترتّبت لاشتراكها في الافتتاح بـ ﴿حمٓ﴾، وبذكر الكتاب بعد ﴿حمٓ﴾، وأنها مكية، بل ورد أنها نزلت جملة واحدة لم يتخلّلها نزول غيرها، وتلك مناسبة جليّة واضحة في وضعها هكذا.[1]

وترتيب هذه السور في المصحف يبتدأ بالأربعين إلى السادس والأربعين، وقد خلت من الأحكام وقصرت عَلَى الْمَوَاعِظِ وَالزَّجْرِ وَطُرُقِ الْآخِرَةِ، واشتملت على ذكر صفات الله جل جلاله، وما أعده للمؤمنين، وما أوعد به الكافرين، وَهِيَ قِصَارٌ لَا تَلْحَقُ فِيهَا سَآمَةٌ.[2]

ومن أبرز الصفات التي تشترك فيها سور الحواميم -جميعها أو معظمها-:

١- كلها سور مكية.
٢- كلها افتتحت -بعد ﴿حمٓ﴾- بذكر الكتاب والتنويه بمكانته.
٣- كلها ذكرت موسى عليه السلام ودوره في دعوة قومه من بني اسرائيل إلى الله، وتحدثت عن انتقال الرسالة من بني اسرائيل إلى أمة محمد ﷺ.
٤- كلها ركزت على الوحدة وحذرت من خطورة الفرقة.
٥- كلها ركّزت على أهمية الصفح والإمهال.

---

١) انظر: البحر المحيط لأبي حيان (٢٣١/٩). وأسرار ترتيب القرآن للسيوطي (١٢٩/١-١٣٠). وروح المعاني للألوسي (٢٩٣/١٢). والتحرير والتنوير لابن عاشور (٧٦/٢٤-٧٧). والتفسير القرآني للقرآن لعبد الكريم الخطيب (١٢٠٣/١٢)، (١٤/١٣). والموسوعة القرآنية، خصائص السور لجعفر شرف الدين (١٣/٨-١٤).

٢) انظر: البحر المحيط لأبي حيان (٢٣٢/٩). والجواهر الحسان في تفسير القرآن للثعالبي (١٠٣/٥). ومعجم علوم القرآن للجرمي (١٩٧/١).

ويظهر الهدف الرئيسي الذي يجمع هذه السور السبعة وهو: تحميل أمة محمد ﷺ مسؤولية الرسالة مسؤولية نهائية، مع بيان الواجبات والمحاذير. وهذا الهدف مختلف عن هدف سورة البقرة، لأن في سورة البقرة كان الهدف عرض المنهج فقط بدون أية توصيات مفصلة. أما في الحواميم فكل سورة من السورة تأتي لتعرض جانبا من التوصيات للمنهج -كما سيتبين من طريقة الشيخ سعيد حوّى في تفسيره الأساس- وهي كلها عبارة عن تحذيرات وواجبات يجب أن يراعيها من سيتولى المسؤولية في الأرض على الرسالة وعلى المنهج الذي شرعه الله تعالى للاستخلاف في الأرض.

خلاصة الحواميم: إياكم والكبر والفرقة والانخداع بالمظاهر المادية، واحرصوا على الشورى حتى تقودوا الأرض بما عليها، وتطبقوا منهج الله تعالى كما أراده في كونه حتى تنعموا في الدنيا والآخرة.

وتسمية هذه المجموعة من السور بـ (آل حم) أو (ذوات حم) أو (الحواميم) وردت بها بعض الأحاديث والآثار، فمن ذلك:

قول النَّبِيِّ ﷺ للأعرابي: ((اقرأ ثلاثا من ذوات حم)).[1]

وما روي عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: (آل حم ديباج القرآن)[2]، وفي رواية: (الحواميم ديباج القرآن)[3].

وعن سَعْدِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ[4] قَالَ: (كُنَّ الْحَوَامِيمَ يُسَمَّيْنَ الْعَرَائِسَ)[5].

وأختلف أهل العلم في صحة جمع (حم) على (حواميم)، وقالوا بأن هذا من كلام العامة ولا تعرفه العرب وبأنه خطأ، وكرهه بعض السلف منهم محمد بن سيرين[6]، وقالوا بأن الصواب أن تجمع على (آل حم) أو (ذوات حم).

١) أخرجه النسائي في سننه الكبرى، في باب الفضل في قراءة تبارك الذي بيد الملك، برقم "١٠٤٨٤" (٢٦٤/٩). وابن حبان في صحيحه برقم "٧٧٣" (٥٠/٣). والحاكم في مستدركه، في تفسير سورة الزلزلة، برقم "٣٩٦٤" (٥٨٠/٢)، وصححه الذهبي في التلخيص.

٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٢٨٨/١٥).

٣) أخرجه الحاكم في مستدركه، باب تفسير سورة المؤمن، برقم "٣٦٣٤" (٤٧٤/٢)، وسكت عنه الذهبي في التلخيص.

٤) هو سَعْدُ بنُ إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف الزهري، وَأُمُّهُ أُمُّ كُلْثُومِ بِنْتُ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ، يُكْنَى أَبَا إِسْحَاقَ، وَقَدْ وَلِيَ قَضَاءَ الْمَدِينَةِ، وَكَانَ ثِقَةً كَثِيرَ الْحَدِيثِ، ولد عام ٥٥هـ، وتوفي عام ١٢٧هـ، -رحمه الله تعالى رحمة واسعة-. انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد (٢٠٣/١-٢٠٥).

٥) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه، في فضل الحواميم، برقم "٣٠٢٨٤" (١٥٣/٦). والدارمي في سننه، في باب فضل حم الدخان والحواميم والمسبحات، برقم "٣٤٦٥" (٢١٥٢/٤)، وعلق عليه محقق الكتاب حسين الداراني بقوله: "إسناده صحيح إلى سعد بن إبراهيم وهو موقوف عليه".

٦) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير (١٢٦/٧). ومصاعد النظر للبقاعي (٤٣٧/٢). والبرهان في علوم القرآن للزركشي (٤٤٤/١).

"قال الحريري[1]: يقولون: قرأت الحواميم، والطواسين. والصواب: قرأت آل حم، وآل طس. اهـ.

وقال الفراء[2]: وأما قول العامة: الحواميم فليس من كلام العرب. فالحواميم: جمع حم، كما يقولون في جمع طس: الطواسين. وهذان الجمعان لم يردا في كلام العرب ولا تعرفهما فليس من كلامها، وعليه: فينبغي دفع الخطأ عن آيات القرآن العظيم وأسماء سوره. والمسموع: ذوات حم، وذوات طس، وآل حم، وآل طس.

قال الكميت[3]:

وجدنا لكم في آل حم آية ... تأملها منا تقي ومعرب

هذا في تحرير صاحب: القاموس، والفراء وغيرهما.

وأما أبو عبيد[4] فقال: الحواميم سور في القرآن على غير قياس، والأولى أن تجمع على: ذوات حم"[5]، "وأنشد:

وبالطواسين التي قد ثلثت ... وبالحواميم التي قد سبعت"[6].

"فمن قال: وقع في آل حاميم، جعل حاميم اسما لكلّهنّ، ومن قال: وقع في الحواميم، جعل حم كأنه حرف واحد بمنزلة قابيل وهابيل"[7].

قال ابن عاشور: " وَرُبَّمَا جُمِعَتِ السُّوَرُ الْمُفْتَتَحَةُ بِكَلِمَةِ حم فَقِيلَ: الْحَوَامِيمَ، جَمْعَ تَكْسِيرٍ عَلَى زِنَةِ فَعَالِيلَ؛ لِأَنَّ مُفْرَدَهُ عَلَى وَزْنِ فَاعِيلٍ وَزْنًا عَرَضَ لَهُ مِنْ تَرْكِيبِ اسْمَيِ الْحَرْفَيْنِ: حَا، مِيمٍ، فَصَارَ كَالْأَوْزَانِ

---

١) هو القاسم بن علي بن محمد بن عثمان، أبو محمد الحريري البصري: الأديب الكبير، صاحب المقامات الحريرية، كان غاية في الذكاء والفطنة والفصاحة والبلاغة، ولد عام ٤٤٦هـ، وتوفي عام ٥١٦هـ، -رحمه الله تعالى رحمة واسعة-. انظر: تاريخ بغداد للخطيب (١٦٥/٢١-١٦٧).

٢) هو يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الأسدي مولاهم، أبو زكريا، الفرّاء، إمام أهل الكوفة في النحو، وهو صدوق، وكان يحب الكلام ويميل إلى الاعتزال، وكان أحمد بن حنبل ينكر على الفراء و أمثاله ما ينكره، ويقول: كنت أحسب الفراء رجلاً صالحاً حتى رأيت كتابه في معاني القرآن، توفي سنة ٢٠٧هـ وهو في طريق الحج وله من العمر ثلاث وستون سنة -رحمه الله تعالى رحمة واسعة-. انظر: اللباب في تهذيب الأنساب لابن الأثير (٤١٤/٢). وتذكرة الحفاظ للذهبي (٣٧٢/١).

٣) هو الكميت بن زيد بن خنيس بن مجالد الأسدي، شاعر الهاشميين، من أهل الكوفة، اشتهر في العصر الأموي، وكان عالماً بآداب العرب ولغاتها وأخبارها وأنسابها، ثقة في علمه، ولد سنة ٦٠هـ، وتوفي سنة ١٢٦هـ، -رحمه الله تعالى رحمة واسعة-. انظر: تاريخ دمشق لابن عساكر (٢٢٩/٥٠-٢٤٧).

٤) هو القاسم بن سلام، فقيه محدّث ونحويّ على مذهب الكوفيين، ومن علماء القراءات، ولد بهراة سنة ١٥٠هـ، وتوفي سنة ٢٢٤هـ، -رحمه الله تعالى رحمة واسعة-. انظر: تاريخ بغداد للخطيب (٤٠١/١٢-٤١٢).

٥) معجم المناهي اللفظية لبكر أبو زيد (٢٣٧/١-٢٣٨). وانظر: جامع البيان للطبري (٣٤٨/٢١). والجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٢٨٨/١٥).

٦) مجاز القرآن لأبي عبيدة (٧/١).

٧) زاد المسير لابن الجوزي (٢٩/٤). وانظر: تاج العروس للزبيدي (٢٥/٣٢-٢٦).

الْعَجَمِيَّةِ مثل (قابيل) و (راحيل) وَمَا هُوَ بِعَجَمِيٍّ؛ لِأَنَّهُ وَزْنٌ عَارِضٌ لَا يُعْتَدُّ بِهِ. وَجَمْعُ التَّكْسِيرِ عَلَى فَعَالِيلَ يَطَّرِدُ فِي مِثْلِهِ. وَقَدْ ثَبَتَ أَنَّهُمْ جَمَعُوا حم عَلَى حَوَامِيمَ فِي أَخْبَارٍ كَثِيرَةٍ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ، وَابْنِ عَبَّاسٍ، وَسَمُرَةَ بْنِ جُنْدَبٍ [رضي الله عنهم]، وَنُسِبَ فِي بَعْضِ الْأَخْبَارِ إِلَى النَّبِيءِ ﷺ وَلَمْ يَثْبُتْ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ. وَمِثْلُهُ السُّوَرُ الْمُفْتَتَحَةُ بِكَلِمَةِ طس أَوْ طسم جَمَعُوهَا عَلَى طَوَاسِينَ بِالنُّونِ تَغْلِيبًا ... .

وَعَنْ أَبِي عبيدة[1] وَالْفَرَّاءِ: أَنَّ قَوْلَ الْعَامَّةِ الْحَوَامِيمَ لَيْسَ مِنْ كَلَامِ الْعَرَبِ"[2].

"فَإِنْ صَحَّ مِنْ لَفْظِ الرَّسُولِ أَنَّهُ قَالَ: (الْحَوَامِيمُ) كَانَ حُجَّةً عَلَى مَنْ مَنَعَ ذَلِكَ، وَإِنْ كَانَ نُقِلَ بِالْمَعْنَى، أَمْكَنَ أَنْ يَكُونَ مِنْ تَحْرِيفِ الْأَعَاجِمِ، أَلَا تَرَى لَفْظَ ابْنِ مَسْعُودٍ: (إِذَا وَقَعْتَ فِي آلِ حَمِيمَ)، وَقَوْلُ الْكُمَيْتِ: وَجَدْنَا لَكُمْ فِي آلِ حَامِيمَ ..."[3].

وقد صحّ في البخاري عَنْ شَقِيقٍ، قَالَ: قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بن مسعود رضي الله عنه: (لَقَدْ تَعَلَّمْتُ النَّظَائِرَ الَّتِي كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقْرَؤُهُنَّ اثْنَيْنِ اثْنَيْنِ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ)، فَقَامَ عَبْدُ اللَّهِ رضي الله عنه وَدَخَلَ مَعَهُ عَلْقَمَةُ، وَخَرَجَ عَلْقَمَةُ فَسَأَلْنَاهُ، فَقَالَ: (عِشْرُونَ سُورَةً مِنْ أَوَّلِ المفَصَّلِ عَلَى تَأْلِيفِ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه، آخِرُهُنَّ الحَوَامِيمُ: حم الدُّخَانِ وَعَمَّ يَتَسَاءَلُونَ).[4]

قال الشهاب الخفاجي[5]: "وهو الصحيح لوروده في الحديث الصحيح، والشعر الفصيح ... فلا عبرة بقول بعض أهل اللغة أنه خطأ"[6].

يتلخص من هذا أن هذه السور السبع تسمى الحواميم، وتسمى آل حم، وتسمى ذوات حم، فلها جموع ثلاثة خلافا لمن أنكر الأول.

وقد ذكروا لها جمعا رابعا على (حاميمات)، قال الألوسي (ت:١٢٧٠هـ): "ويجمع على حواميم وحاميمات، أما الثاني فقد أنشد فيه ابن عساكر (ت:٥٧١هـ) في تاريخه:

---

١) هو معمر بن المثنّى التيمي البصري، النحوي اللغوي، وهو أول من صنّف في غريب الحديث، ولد في البصرة عام ١١٢هـ، وتوفي سنة ٢٠٨هـ أو بعدها على أقوال، –رحمه الله تعالى رحمة واسعة–. انظر: تاريخ بغداد للخطيب (١٣/٢٥٢–٢٥٧).

٢) التحرير والتنوير لابن عاشور (٢٤/٧٧). وانظر: زاد المسير لابن الجوزي (٤/٢٩).

٣) البحر المحيط لأبي حيان (٩/٢٣٢). وانظر: الدر المصون للسمين الحلبي (٩/٤٥٢). واللباب في علوم الكتاب لابن عادل (١٧/٤–٥). وإعراب القرآن وبيانه لمحيي الدين درويش (٨/٤٥٥).

٤) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، في كتاب فضائل القرآن، وباب تأليف القرآن، برقم "٤٩٩٦" (٦/١٨٦).

٥) هو شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي، المصري الحنفي، رئيس القضاة، وصاحب التصانيف في الأدب واللغة، ولد سنة ٩٧٧هـ، وتوفي سنة ١٠٦٩هـ، –رحمه الله تعالى رحمة واسعة–. انظر: فهرس الفهارس لعبد الحي الكتاني (١/٣٧٧–٣٧٨). والأعلام للزركلي (١/٢٣٨).

٦) عناية القاضي وكفاية الراضي، حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي (٥/٣٠٥).

هذا رسول الله في الخيرات ... جاء بياسين وحاميمات"[١].

وذكر العلماء في معنى (آل) من (آل حم) ثلاثة أقوال:

القول الأول: أنها آل النسبة، "قَالَ الْفَرَّاءُ: إِنَّمَا هُوَ كَقَوْلِكَ آلُ فُلَانٍ وَآلُ فُلَانٍ كَأَنَّهُ نَسَبَ السُّورَةَ كُلَّهَا إِلَى حم"[٢].

القول الثاني: أنها آل الجماعة، "فجَعَلُوا لَهَا اسْمَ (آلِ) لِتَآخِيهَا فِي فَوَاتِحِهَا. فَكَأَنَّهَا أُسْرَةٌ وَاحِدَةٌ ... وتُضَافُ إِلَى ذِي شَرَفٍ، وَيُقَالُ لِغَيْرِ الْمَقْصُودِ تَشْرِيفُهُ أَهْلُ فُلَانٍ"[٣].

القول الثالث: أنها آل بمعنى ذوات، ونفوا أن تكون آل بمعنى الأهل.

قال الألوسي: "لكن ينبغي أن يعلم أن آل في قولهم (آل حم) -كما قال الخفاجي- ليس بمعنى الآل المشهور وهو الأهل، بل هو لفظ يذكر قبل ما لا يصح تثنيته وجمعه من الأسماء المركبة ونحوها كتأبط شرا، فإذا أرادوا تثنيته أو جمعه -وهو جملة لا يتأتى فيها ذلك إذ لم يعهد مثله في كلام العرب- زادوا قبله لفظة آل أو ذوا فيقال: جاءني آل تأبط شرا أو ذوا تأبط شرا، أي الرجلان أو الرجال المسمون بهذا الاسم، فآل حم بمعنى الحواميم، وآل بمعنى ذو، والمراد به ما يطلق عليه ويستعمل فيه هذا اللفظ وهو مجاز عن الصحبة المعنوية"[٤].

---

١) روح المعاني (٢٩٥/١٢). وانظر: تاريخ دمشق لابن عساكر (٣٥٠/١٦).

والبيت منسوب لمالك بن مالك، مبعوث رسول الله ﷺ إلى أرض أهل نجدة كما في رواية عند الحاكم في مستدركه، برقم "٦٦٠٧" (٧٢٠/٣).

٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٢٨٨/١٥).

٣) التحرير والتنوير لابن عاشور (٧٦/٢٤).

٤) روح المعاني (٢٩٥/١٢).

المبحث الخامس: فضائل السورة

إن من أهم الأمور التي تعين على التلذذ بكلام الله تعالى، وتقرب إلى الاستفادة من الكتاب الكريم أمرين:

أحدهما: معرفة فضائل المتلو والمقروء، فإنها تزيد القارئ رغبة وحرصا، ولذلك وردت أحاديث كثيرة عن نبينا ﷺ في فضائل القرآن الكريم جملة وسورا وآيات.

والآخر: معرفة تفسيره وفقهه، ولأجل ذلك كتب العلماء مصنفات التفسير والتأويل والمعاني، وقال شيخ المفسرين وإمامهم ابن جرير الطبري: "إني لأعجب ممن يقرأ القرآن ولم يعلم تأويله كيف يلتذ بقراءته؟!"[١].

وفضائل "جمع فضيلة: وهي ما جاءت عن النبي ﷺ من ثواب في تعلم القرآن وتعليمه عموما، أو في بعض السور والآيات من الثواب الأخروي، أو ما يحصل لقارئه من الفوائد الدنيوية والأخروية"[٢].

وهذه السورة الكريمة من سور الحواميم، وقد وردت أحاديث وآثار عديدة في فضائل الحواميم أذكرها في المبحث اللاحق إن شاء الله.

أما سورة غافر فلم تثبت لها فضيلة بخصوصها، وقد ورد في فضيلتها حديثان –أحدهما ضعيف والآخر موضوع– نذكرهما لبيان حالهما، فإن فضائل السور إنما تثبت من خلال الأحاديث الصحيحة والحسنة، على خلاف في العمل بالأحاديث الضعيفة في الفضائل.

---

١) جامع البيان للطبري، مقدمة محمود شاكر (١٠/١). وانظر: معجم الأدباء لياقوت الحموي (٢٤٥٣/٦). ومقدمة الدكتور أحمد السلوم على فضائل القرآن للمستغفري (١٣/١-١٤).

٢) مقدمة الدكتور سليمان القرعاوي على قاعدة في فضائل القرآن لابن تيمية (١٠/١).

الحديث الأول: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّهِ ﷺ: ((مَنْ قَرَأَ حم المؤْمِنَ إِلَى ﴿إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ۝٣﴾ غافر:٣، وَآيَةَ الكُرْسِيِّ حِينَ يُصْبِحُ حُفِظَ بِهِمَا حَتَّى يُمْسِيَ، وَمَنْ قَرَأَهُمَا حِينَ يُمْسِي حُفِظَ بِهِمَا حَتَّى يُصْبِحَ))[1].

الحديث الثاني: عن أُبي بن كعب رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: ((مَنْ قَرَأَ سُورَةَ حم الْمُؤْمِنِ، لَو تبق رُوحُ نَبِيٍّ وَلَا صِدِّيقٍ وَلَا شَهِيدٍ وَلَا مُؤْمِنٍ إِلَّا صَلُّوا عَلَيْهِ وَاسْتَغْفَرُوا لَهُ))[2].

وكذلك روي أثران في مطلع سورة غافر:

الأثر الأول: ما روي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه استعان بمطلع هذه السورة على هداية شخص، فروي أنه كان رجل من أهل الشام ذو بأس، وكان يفد إلى عمر بن الخطاب، ففقده عمر فقال: (ما فعل فلان بن فلان؟) فقالوا: يا أمير المؤمنين يتابع في هذا الشراب، قال: فدعا عمر كاتبه فقال: (اكتب: من عمر بن الخطاب إلى فلان بن فلان سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِى ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ۝٣﴾ غافر:٣)، ثم قال لأصحابه: (ادعوا الله لأخيكم أن يُقبل بقلبه، وأن يتوب الله عليه)، فلما بلغ الرجل كتاب عمر جعل يقرؤه ويردده ويقول: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ﴾، قد حذرني عقوبته ووعدني أن يغفر لي. وفي رواية: فلم يزل يرددها على نفسه ثم بكى ثم نزع فأحسن النزع، فلما بلغ عمر خبره قال: (هكذا فاصنعوا،

---

١) أخرجه الترمذي في جامعه في كتاب فضائل القرآن الكريم، وباب ما جاء في فضل سورة البقرة وآية الكرسي، برقم "٢٨٧٩" (٧/٥)، وقال حديث غريب، وضعفه الشيخ الألباني في ضعيف الترمذي.

والدارمي في سننه، في كتاب فضائل القرآن، باب فضل أول سورة البقرة وآية الكرسي، برقم "٣٤٢٩" (٢١٣٢/٤)، وقال محققه الشيخ حسين أسد الداراني: إسناده ضعيف لضعف عبد الرحمن بن أبي بكر. وباقي رجاله ثقات.

وقال النووي عن الحديث: "وروينا في كتابي الترمذي وابن السني بإسناد ضعيف". الأذكار للنووي، برقم "٢٨٣" (٨٤/١).

وأخرجه البزار في مسنده، برقم "٨٥٧٣" (١٩٠/١٥).

٢) أخرجه المستغفري في فضائل القرآن، برقم "١٢٠٧" (٧٨٣/٢). والكشف والبيان للثعلبي (٢٦٢/٨). والتفسير الوسيط للواحدي برقم "٨٠٧" (٣/٤). وبصائر ذوي التمييز (٤١٢/١). وترتيب الأمالي الخميسية للشجري، برقم "٤٧٩" (١٣٢/١).

قال ابن الصلاح: "وهكذا حال الحديث الطويل الذي يروى عن أُبَيّ بن كَعْب عن النبي ﷺ في فضل القرآن سورة فسورة، بحث باحث عن مخرجه حتى انتهى إلى من اعترف بأنه وجماعة وضعوه، وإن أثر الوضع لبين عليه، وقد أخطأ الواحدي المفسر ومن ذكره من المفسرين في إيداعه تفاسيرهم".

المقدمة لابن الصلاح (١٠٠/١-١٠١). وعنه السيوطي في الإتقان (١٣٤/٤-١٣٥).

وممن نص على وضعه ابن المبارك وابن القيم والحافظ ابن حجر والحافظ المناوي والخطيب الشربيني. انظر: المنار المنيف لابن القيم، فصل "٣٢"، برقم "٢٢٥" (١١٣/١). وتأويل مختلف الحديث لابن قتيبة (١٢٩/١). والكافي الشافِ في تخريج أحاديث الكشاف لابن حجر، برقم "٢٤٦". والفتح السماوي للمناوي، برقم "٨٦٦" (٩٧٧/٣). والسراج المنير للخطيب الشربيني (٥٠١/٣).

إذا رأيتم أخاً لكم زل زلة فسددوه ووفقوه –أو: ووثقوه– وادعوا الله أن يتوب عليه، ولا تكونوا عونا للشيطان عليه)[1].

الأثر الثاني: ما روي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه –وفي رواية أنه عثمان بن عفان رضي الله عنه– استعان بمطلع هذه السورة على توبة قاتل، فروي أنه جاء رجل إلى عمر بن الخطاب فقال: يا أمير المؤمنين، إني قتلت فهل لي من توبة؟ فقرأ عليه ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ۝٢ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ﴾ غافر: ١ – ٣، وقال: (اعمل ولا تيأس)[2].

وهذا الأثران ليسا خاصين بصدر سورة غافر، وإنما استعملهما عمر رضي الله عنه على أن هذه الآيات ترغب في التوبة.

---

١) تفسير ابن أبي حاتم، برقم "١٨٤١٦" (٣٢٦٣/١٠). وانظر: حلية الأولياء لأبي نعيم (٩٧/٤-٩٨). وتفسير القرآن العظيم لابن كثير (١٢٨/٧). وأشار الكاتب بصحة هذا الأثر في التفسير الموضوعي لسور القرآن لجامعة الشارقة، بإشراف د. مصطفى مسلم، (٥٢٧/٦).

٢) جامع البيان للطبري (٣٥٠/٢١). وتفسير ابن أبي حاتم، برقم "١٨٤١٨" (٣٢٦٤/١٠).

ورواية عثمان بن عفان رضي الله عنه عند البيهقي في السنن الكبرى، باب أصل تحريم القتل في القرآن، برقم "١٥٨٣٤" (٣١/٨)، وقد رواها البيهقي وحده عن عثمان بنفس سند الرواية التي عن عمر، والأكثرون على أنها عن عمر، فإما أن القصة وقعت مرتين، أو أن نسبتها إلى عثمان خطأ، والله أعلم.

المبحث السادس: فضائل آل حاميم

أولا: الحواميم ديباج القرآن:

المدبج لغة: هو المزين، وفي المحكم: "الدبج: النقش والتزيين فارسي معرب ... وديباجة الوجه ... حسن بشرته ... ومنه تسمية ابن مسعود الحواميم ديباج القرآن"[1].

قال ابن عطية: "ومعنى هذه العبارة أنها خلت من الأحكام، وقصرت على المواعظ والزجر وطرق الآخرة محضا، وأيضا فهي قصار لا يلحق فيها قارئها سآمة"[2].

- قال ابن مسعود رضي الله عنه: (الحواميم ديباج القرآنُ) أو (آل حم ديباج القرآن).[3]
- وعن مجاهد (ت:١٠٤هـ) قال: (آل حاميم ديباج القرآن)[4].

ثانيا: الحواميم عرائس القرآن، وذلك لما فيها من الجمال والحِكم:

- عن سعد بن إبراهيم قال: (كنّ الحواميم يسمون العرائس)[5].
- قال مِسْعَر بْنُ كِدَام[6]: (كَانَ يُقَالُ لَهُنَّ: الْعَرَائِسُ)[7].

---

١) المحكم والمحيط الأعظم لابن سيده المرسي "د ب ج" (٣٤٧/٧).

٢) المحرر الوجيز لابن عطية (٥٤٥/٤).

٣) فضائل القرآن لأبي عبيد (٢٥٥/١). ومصنف ابن أبي شيبة، في فضل الحواميم، برقم "٣٠٢٨٣" (١٥٣/٦). وشعب الإيمان للبيهقي، برقم "٢٢٤٣" (١٠٠/٤-١٠١). والحاكم في مستدركه، برقم "٣٦٣٤" (٤٧٤/٢)، وسكت عنه الذهبي في التلخيص. وقال الألباني في سلسة الأحاديث الضعيفة (٣٢/٨): أخرج الحاكم بإسناد صحيح عن عبد الله بن مسعود قال: ... فذكره موقوفا عليه وهو الصواب. وفضائل القرآن للمستغفري، باب ما جاء في فضل آل حاميم، برقم "٨٨٥" (٦٠١/٢).

٤) مصنف عبد الرزاق الصنعاني، برقم "٦٠٣١" (٣٨١/٣). وفضائل القرآن للمستغفري، باب ما جاء في فضل آل حاميم، برقم "٨٨٦" (٦٠١/٢-٦٠٢)، وقال محقق الكتاب الدكتور/ أحمد السلوم: صحيح.

٥) مصنف ابن أبي شيبة، في فضل الحواميم، برقم "٣٠٢٨٤" (١٥٣/٦). وشعب الإيمان للبيهقي، برقم "٢٢٥٣" (١٠٦/٤). وأخرجه الدارمي في سننه، في فضل حم الدخان والحواميم والمسبحات، برقم "٣٤٦٥" (٢١٥٢/٤)، وقال المحقق حسين الداراني: إسناده صحيح إلى سعد بن إبراهيم وهو موقوف عليه.
وانظر: الكشف والبيان للثعلبي (٢٦١/٨). ومعالم التنزيل للبغوي (١٠٣/٤). والجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٢٨٨/١٥). ولباب التأويل للخازن (٦٧/٤). والدر المنثور للسيوطي (٢٦٩/٢).

٦) هو مسعر بن كدام بن ظهير الهلالي، أبو سلمة، الإمام الثبت، شيخ العراق الكوفي الأحول الحافظ، توفي سنة ١٥٥هـ، -رحمه الله تعالى رحمة واسعة-. انظر: الطبقات لابن سعد (٣٤٥/٦). وسير أعلام النبلاء للذهبي (٥٧٧/٦-٥٨٣).

٧) فضائل القرآن لأبي عبيد (٢٥٥/١). ويظهر أن هذه التسمية مروية عن بعض الصحابة بدليل قول مسعر وسعد بلغنا ذلك. والله أعلم.
وانظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير (١٢٦/٧).

- عن زر بن حبيش الأسدي[١] قال: قرأت على عليّ بن أبي طالب القرآن في المسجد الجامع بالكوفة فلما بلغت الحواميم قال: (يا زر بن حبيش [قد بلغت] عرائس القرآن ...).[٢]

ثالثا: الحواميم من روضات الجنات:

- عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بن مسعود قَالَ: (إِنَّ مَثَلَ الْقُرْآنِ كَمَثَلِ رَجُلٍ انْطَلَقَ يَرْتَادُ لِأَهْلِهِ مَنْزِلًا فَمَرَّ بِأَثَرِ غَيْثٍ فَبَيْنَمَا هُوَ يَسِيرُ فِيهِ وَيَتَعَجَّبُ مِنْهُ إِذْ هَبَطَ عَلَى رَوْضَاتٍ دَمِثَاتٍ، فَقَالَ: عَجِبْتُ مِنَ الْغَيْثِ الْأَوَّلِ فَهَذَا أَعْجَبُ مِنْهُ وَأَعْجَبُ، فَقِيلَ لَهُ: إِنَّ مَثَلَ الْغَيْثِ الْأَوَّلِ مَثَلُ عِظَمِ الْقُرْآنِ وَإِنَّ مَثَلَ هَؤُلَاءِ الرَّوْضَاتِ الدَّمِثَاتِ مَثَلُ آل حم فِي الْقُرْآنِ)[٣].
- قال ابن مسعود: (إذا وقعت في آل حم وقعت في روضات [دمثات] أتأنق فيهن)[٤].

رابعا: الحواميم لب القرآن وخلاصته:

- عن ابن عبّاس قال: (إِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ لُبَابًا، وَإِنَّ لُبَابَ الْقُرْآنِ آلُ حم -أَوْ قَالَ- الْحَوَامِيمُ)[٥].

---

١) هو زر بن حبيش بن حباشة بن أوس، الإمام، القدوة، مقرئ الكوفة مع السلمي، أبو مريم الأسدي، توفي سنة ٨٢هـ، -رحمه الله تعالى رحمة واسعة-. انظر: الطبقات لابن سعد (٦/١٦١-١٦٢). وسير اعلام النبلاء للذهبي (٥/٩١-٩٢).

٢) انظر: غرائب القرآن للنيسابوري (١/٣٣-٣٤). وجمال القراء للسخاوي (١/٨٩، ٧٧٦). وترتيب الأمالي الخميسية للشجري، برقم "٥٦٣" (١/١٥٢-١٥٣). والذي يظهر أن وصف الحواميم بالعرائس موقوف على عليّ رضي الله عنه.

٣) معالم التنزيل للبغوي، برقم "١٨٤١" (٤/١٠٣). قال المحقق عبد الرزاق المهدي: موقوف صحيح. إسناده صحيح، رجاله ثقات. وانظر: لباب التأويل للخازن للخازن (٤/٦٧). وتفسير القرآن العظيم لابن كثير (٧/١٢٦). والدر المنثور للسيوطي (٧/٢٦٨-٢٦٩)، وعزاه لمحمد بن نصر، وحميد زنجويه.

٤) مصنف ابن أبي شيبة، في فضل الحواميم، برقم "٣٠٢٨٥" (٦/١٥٣). وانظر: فضائل القرآن لأبي عبيد (١/٢٥٥). والكشف والبيان للثعلبي (٨/٢٦١). وتفسير السمعاني (٥/٥). ومعالم التنزيل للبغوي (٤/١٠٣). وغرائب التفسير وعجائب التأويل للكرماني (٢/١٠٢٥). وتفسير القرآن العظيم لابن كثير (٧/١٢٦). والدر المنثور للسيوطي (٧/٢٦٨)، وعزاه إلى محمد بن نصر، وابن المنذر.

٥) فضائل القرآن لأبي عبيد (١/٢٥٤). وفضائل القرآن للمستغفري، فضل ما جاء في آل حاميم، برقم "٨٨٧" (٢/٦٠٢)، قال المحقق الدكتور/ أحمد السلوم: السلوم: ضعيف، وعلة الخبر ابن لهيعة، وشأنه مشهور، ولكن على مذهب من يقبل رواية العبادلة عنه لكونها وقعت قبل اختلاطه يقبل رواية قتيبة عنه، فإن قتيبة ما روى إلا بما حدث به عبد الله بن وهب، فليس الخبر بشديد الضعف، والله أعلم.

وانظر: معالم التنزيل للبغوي، برقم "١٨٤٢" (٤/١٠٣). والكشف والبيان للثعلبي (٨/٢٦١). والهداية إلى بلوغ النهاية لمكي بن أبي طالب (١٠/٦٣٩٥). ولباب التأويل للخازن (٤/٦٧). وتفسير القرآن العظيم لابن كثير (٧/١٢٦). والدر المنثور للسيوطي (٧/٢٦٨).

خامسا: الرسول ﷺ يقرأ ببعض الحواميم في ورده، ويوجه بقراءته لبعض أصحابه:

- قَالَ رَجُلٌ عند ابن مسعود رضي الله عنه: قَرَأْتُ المفَصَّلَ البَارِحَةَ، فَقَالَ له: (هَذًّا كَهَذِّ الشِّعْرِ!! إِنَّا قَدْ سَمِعْنَا القِرَاءَةَ، وَإِنِّي لَأَحْفَظُ القُرَنَاءَ الَّتِي كَانَ يَقْرَأُ بِهِنَّ النَّبِيُّ ﷺ، ثَمَانِيَ عَشْرَةَ سُورَةً مِنَ المفَصَّلِ، وَسُورَتَيْنِ مِنْ آلِ حم)[1].
- عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: أَتَى رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: (أَقْرِئْنِي يَا رَسُولَ اللَّهِ)، قَالَ لَهُ: ((اقْرَأْ ثَلَاثًا من ذوات الراء))، فقال له الرجل: (كبر سني واشتد قلبي وغلظ لساني)، قال: ((فاقرأ ثلاثا من ذوات حم))، فَقَالَ مِثْلَ مَقَالَتِهِ الْأُولَى، فَقَالَ: ((اقْرَأْ ثَلَاثًا مِنَ الْمُسَبِّحَاتِ))، فَقَالَ مِثْلَ مَقَالَتِهِ، فَقَالَ الرَّجُلُ: (وَلَكِنْ أَقْرِئْنِي يَا رَسُولَ اللَّهِ سُورَةً جَامِعَةً)، فَأَقْرَأَهُ: إِذا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزالَها حَتَّى إِذَا فَرَغَ مِنْهَا، قَالَ الرَّجُلُ: (وَالَّذِي بَعَثَكَ بالحق نبيا لَا أَزِيدُ عَلَيْهَا أَبَدًا)، ثُمَّ أَدْبَرَ الرَّجُلُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((أَفْلَحَ الرُّوَيْجِلُ، أَفْلَحَ الرُّوَيْجِلُ))، ثُمَّ قَالَ: ((عَلَيَّ بِهِ))، فَجَاءَهُ، فَقَالَ لَهُ: ((أُمِرْتُ بِيَوْمِ الْأَضْحَى جَعَلَهُ اللَّهُ عِيدًا لِهَذِهِ الْأُمَّةِ))، فَقَالَ لَهُ الرَّجُلُ: (أَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ أَجِدْ إِلَّا مَنِيحَةً أُنْثَى فَأُضَحِّي بِهَا؟) قَالَ: ((لَا، وَلَكِنَّكَ تَأْخُذُ من شعرك وتقلم أظافرك وَتَقُصُّ شَارِبَكَ وَتَحْلِقُ عَانَتَكَ فَذَاكَ تَمَامُ أُضْحِيَتِكَ عِنْدَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ))[2].

سادسا: الحواميم لها شأن في البركة والنصر على الأعداء:

- قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِأَصْحَابِهِ فِي بَعْضِ الْغَزَوَاتِ: ((إِنْ بَيَّتم اللَّيْلَةَ فَقُولُوا: حم، لَا يُنْصَرُونَ)) وَفِي رِوَايَةٍ: ((لَا تُنْصَرُونَ)).[3]

١) متفق عليه: صحيح البخاري، في كتاب فضائل القرآن، وباب الترتيل في القراءة، برقم "٥٠٤٣" (١٩٥/٦).

وصحيح مسلم، في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، وباب تَرْتِيلِ الْقِرَاءَةِ وَاجْتِنَابِ الْهَذِّ وهو الْإِفْرَاطُ في السُّرْعَةِ وَإِبَاحَةِ سُورَتَيْنِ فَأَكْثَرَ في رَكْعَةٍ، برقم "٨٢٢" (٥٦٤/١).

والنسائي في السنن الكبرى، في كتاب الافتتاح، وباب قراءة سورتين في ركعة، برقم "١٠٠٦" (١٧٥/٢). ومسند الإمام أحمد، من حديث عبد الله بن مسعود، برقم "٣٩٩٩، ٤٤١٠" (١٠٣/٧-١٠٤، ٤١٥)، وإسناده صحيح على شرط الشيخين. والدر المنثور للسيوطي (٣٩٨/٧).

٢) مسند الإمام أحمد من حديث عبد الله بن عمرو، برقم "٦٥٧٥" (١٣٩/١١). وسنن النسائي الكبرى، في كتاب عمل اليوم والليلة، وباب الفضل في قراءة تبارك الذي بيده الملك، برقم "١٠٤٨٤" (٢٦٤/٩). ومسند البحر الزخار للبزار، برقم "٢٤٥٩" (٤٢٩/٦). والمستدرك للحاكم، برقم "٣٩٦٤" (٥٨٠/٢)، وقال: حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. فقال الذهبي في التلخيص: بل صحيح. وضعفه الألباني في المشكاة برقم "٢١٨٣"، وفي ضعيف أبي داوود، برقم "٢٤٧". وتعقبه الشيخ عبد المحسن العباد في شرحه لسنن أبي داوود (٢٦/١٦٩) بترقيم الشاملة، فقال: والحديث ضعفه الألباني، ولا أدري ما وجه تضعيفه، والإسناد كما هو واضح كله ثقات، وفيهم من هو صدوق، وقد صححه الحاكم ووافقه الذهبي، وقال: إنه صحيح.

٣) سنن الترمذي، في الجهاد، باب ما جاء في الشعار، برقم "١٦٨٢" (٢٤٩/٣). وسنن أبي داوود، في الجهاد، باب في الرجل ينادي بالشعار، برقم "٢٥٩٧" (٣٣/٣). في الجهاد، باب ما جاء في الشعار، وأبو داود رقم (٢٥٩٧). وفضائل القرآن لأبي عبيد (٢٥٤/١). وتفسير القرآن العظيم لابن كثير (١٢٦/٧). قال ابن كثير: وهذا إسناد صحيح. وصححه الألباني في صَحِيح الْجَامِع برقم "١٤١٤"، وفي السلسة الصَّحِيحَة برقم "٣٠٩٧".

- وعن مِسْعر بْن كِدَام عَمَّنْ حَدَّثَهُ: أَنَّ رَجُلًا رَأَى أَبَا الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَبْنِي مَسْجِدًا، فَقَالَ لَهُ: مَا هَذَا؟ فَقَالَ: (أَبْنِيهِ مِنْ أَجْلِ آلِ حم)[١].

<u>سابعا: قراءة الحواميم فيها العديد من الأجور:</u>

- عَنْ أَبِي رَافِعٍ[٢]، قَالَ: (مَنْ قَرَأَ حم فِي لَيْلَةِ الجُمُعَةِ، أَصْبَحَ مَغْفُورًا لَهُ، وَزُوِّجَ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ)[٣].

---

١) مصنف ابن أبي شيبة، في فضل الحواميم، برقم "٣٠٢٨٦" (١٥٤/٦). وانظر: فضائل القرآن لأبي عبيد (٢٥٥/١). وتفسير القرآن العظيم لابن كثير (١٢٦/٧). والدر المنثور للسيوطي (٢٦٩/٧)، وعزاه إلى ابن سعد ومحمد بن نصر والحاكم.

وَقَدْ يَكُونُ هَذَا الْمَسْجِدُ الَّذِي بَنَاهُ أَبُو الدَّرْدَاءِ هُوَ الْمَسْجِدُ الْمَنْسُوبُ إِلَيْهِ دَاخِلَ قَلْعَةِ دِمَشْقَ. وَقَدْ يَكُونُ صِيَانَتُهَا وَحِفْظُهَا بِبَرَكَتِهِ وَبَرَكَةِ مَا وُضع لَهُ، فَإِنَّ هَذَا الْكَلَامَ يَدُلُّ عَلَى النَّصْرِ عَلَى الْأَعْدَاءِ كما في حديث ((حم لا ينصرون)). انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير (١٢٦/٧-١٢٧).

٢) هو نفيع بن رافع، أبو رافع الصائغ المدني البصري، تابعي ثقة، مولى آل عمر، توفي ١٠٠هـ، -رحمه الله تعالى رحمة واسعة-. انظر: الطبقات لابن سعد (٨٧/٧-٨٩). وتاريخ الإسلام للذهبي (١١٩٥/٢).

٣) سنن الدارمي، في فضل حم الدخان والحواميم والمسبحات، برقم "٣٤٦٤" (٢١٥٢/٤)، وقال المحقق: إسناده صحيح إلى أبي رافع نفيع بن رافع وهو موقوف عليه.

المبحث السابع: عدد آيات السورة وكلماتها وحروفها

أولا: علم العدد القرآني:

اختلف العلماء في عدد آيات هذه السورة، واختلافهم في عدد آيات سور القرآن في الواقع خلاف شكلي صوري لا يؤثر على نص القرآن شيئا، فإن الصحابة رضوان الله عليهم أخذوا القرآن عن رسول الله ﷺ، وكان يرتل إذا قرأ ويقطِّع قراءته ويقف عند رؤوس الآيات، فكتب الصحابة رضوان الله عليهم القرآن في المصاحف على ما كانوا يسمعون من قراءة رسول الله ﷺ وتلاوته، لكنهم كتبوه مجردا خشية أن يدخل في القرآن ما ليس فيه، فلم يخطُّوا في المصاحف إلا ألفاظ الوحي، وبالتالي لم تكن في المصاحف الأولى أسماء السور ولا أرقام الآيات ولا علامات أخرى.

لكن العلماء والقرّاء من الصحابة والتابعين وتابعيهم اعتنوا بتعيين رؤوس الآيات وإن لم تكن مرسومة في المصحف، فكانوا يعلِّمون الناس القرآن ويوقفونهم على رؤوس الآيات، وقد وضعوا أول الأمر ثلاث نقط عند رأس الآية، ثم صارت دائرة، ثم كتب رقم الآية في داخل الدائرة في العصور اللاحقة.[1]

قال الأندرابي[2]: "لقد عُنِيَ صَدْر هذه الامة بالقرآن عناية أكيدة، حتى عدُّوا آيَهُ وكلماتِهِ وحروفَه، وقد وقع لهم في ذلك اختلاف ليس باختلاف على الحقيقة، وإن كان اختلافا في اللفظ، وذلك أنّ أهل الكوفة عدُّوا قوله: ﴿ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ۝١ ﴾ص:١، وعَدُّوا: ﴿ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ۝٨٤ ﴾ص:٨٤، وغيرهم يعدُّ تمام الآية: ﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ۝٢ ﴾ ص: ٢، وقوله: ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٨٥ ﴾ص:٨٥، ... فهذا ونحوه اختلاف في التسمية، وليس اختلافا في القرآن، وعلى حسب ذلك يخالف قول بعضهم بعضا، حتى أنّ الواحد منهم يقول: عدد آي القرآن كذا وكذا، وآخر يقول: بل هو كذا وكذا، من غير أن يكون أحد منهم ادعى في القرآن زيادة ينكرها الآخر.

وكذلك في الكلمات والحروف، فإنّ بعضهم عدّ ﴿ فِى خَلْقِ ﴾ البقرة:١٦٤، و ﴿ فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ البقرة:١٤٤، و ﴿ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾البقرة: ١١، وما أشبه ذلك كلمتين، وبعضهم عدَّها كلمة واحدة، فصار عدد

١) انظر: مقدمة د. غانم الحمد على البيان في عدّ آي القرآن للداني (١/٣-٤).

٢) أحمد بن أبي عمر المقرئ المعروف بأحمد الزاهد أبو عبد الله الأندرابي، سمع الحديث وأكثر من سماعه، توفي سنة ٤٧٠هـ، -رحمه الله تعالى رحمة واسعة-. انظر: معجم الأدباء لياقوت الحموي (١/٤٥٣).

من جَعَلها كلمتين أكثر، وبعضهم عدّ كل حرف مشدد حرفين، وبعضهم عدَّه حرفا واحدا، فصار عدد من عدَّه حرفين أكثر، فإلى مثل هذا ينصرف اختلافهم في ذلك"[١].

وكان قد ظهر في كل مصر من الأمصار الخمسة الرئيسية (المدينة، ومكة، والكوفة، والبصرة، والشام) علماء اشتهروا بمعرفة عدد الآيات، واعتنوا بإحصاء كلمات كل سورة وعدد حروفها، وجملة كل ذلك في القرآن كله.

قال الحافظ أبو عمرو الداني (ت:٤٤٤): "إن الْأَعْدَاد الَّتِي يتداولها النَّاس بِالنَّقْلِ ويعدون بهَا فِي الْآفَاق قَدِيما وحديثا سِتَّة: عدد أهل الْمَدِينَة الأول، والأخير، وَعدد أهل مَكَّة، وَعدد أهل الْكُوفَة، وَعدد أهل الْبَصْرَة، وَعدد أهل الشَّام".

ثم قال: فَأَما عدد أهل الْمَدِينَة الأول: فَرَوَاهُ أهل الْكُوفَة عَنْهُم وَلم ينسبوه إِلَى أحد مِنْهُم بِعَيْنِه وَلَا أسندوه إِلَيْهِ، بل أوقفوه على جَمَاعَتهمْ.

وَأما عدد أهل الْمَدِينَة الْأَخير: فرواه القراء موقوفا على أبي جَعْفَر[٢] وَشَيْبَة[٣] مَوْقُوفا عَلَيْهِمَا، وَهُوَ ينْسب إِلَى إِسْمَاعِيل بن جعفر[٤].

وأما عدد أهل مَكَّة: فرواه القراء موقوفا على أبي بن كَعْب رضي الله عنه.

وَأما عدد أهل الْكُوفَة: فَرَوَاهُ القراء عن عَليّ بن أبي طَالب رَضِي الله عَنهُ مَرْفُوعا.

وَأما عدد أهل الْبَصْرَة: فرواه القراء موقوفا على عَاصِم بن أبي الصَّباح الجحدري[٥].

---

١) الإيضاح في القراءات (١/٢٣٢)، (٥١ظ-٢٥و).

٢) هو أحمد بن فرح بن جبريل، أبو جعفر الضرير البغدادي، المفسر، مقرئ المدينة، ثقة كبير، انظر: غاية النهاية لابن الجزري (١/٩٥-٩٦).

٣) هو شيبة بن نصاح بن سرجس بن يعقوب إمام ثقة مقرئ المدينة وقاضيها ومولى أم سلمة رضى الله عنها، وهو أول من ألف في الوقوف وكتابه مشهور، مات سنة ١٣٠هـ، وقيل: سنة ١٣٨هـ، -رحمه الله تعالى رحمة واسعة-. انظر: غاية النهاية لابن الجزري (١/ ٣٢٩ - ٣٣١).

٤) هو إسماعيل بن جعفر بن أبي كثير الأنصاري مولاهم، أبو إسحاق، ويقال: أبو إبراهيم، المدني، جليل ثقة، ولد سنة ١٣٠هـ، وتوفي سنة ١٨٠هـ، وقيل ٢٠٠هـ، -رحمه الله تعالى رحمة واسعة-. انظر: غاية النهاية لابن الجزري (١/١٦٣).

٥) هو عاصم بن أبي الصباح العجاج، وقيل: ميمون، أبو المجشر الجحدري البصري، أخذ القراءة عرضًا عن سليمان بن قتة عن ابن عباس رضي الله عنهما، توفي سنة ١٢٨هـ، -رحمه الله تعالى رحمة واسعة-. انظر: غاية النهاية لابن الجزري (١/٣٤٩).

وَأما عدد أهل الشَّام: فَرَوَاهُ القراء موقوفا على يحيى بن الْحَارِث الذماري[1]، وبعضهم يوقفه على عبد الله بن عَامر الْيحصبِي[2] القارىء.

ثم قال الداني: "وَلأَهل حمص عدد سَابع كَانُوا يعدون بِهِ قَدِيما وافقوا فِي بعضه أهل دمشق وخالفوهم فِي بعضه وأوقفته جَمَاعَتهمْ على خَالِد بن معدان[3] رَحمَه الله، وَهُوَ من كبار تَابِعِيّ الشاميين ... وَقد ذكرت فِي كتابي هَذَا من عَددهمْ مَا انفردوا بعدِّه وإسقاطه خَاصَّة دون مَا وافقوا فِيهِ غَيرهم من أَئِمَّة أهل الْعدَد لدثور عَددهمْ وَعدم من يَتَوَلَّاهُ وَيَأْخُذ بِهِ من المتصدرين".

ثم قال: "وَهَذِه الْأَعْدَاد وَإِن كَانَت مَوْقُوفَة على هَؤُلَاءِ الْأَئِمَّة فَإِن لَهَا لَا شكّ مَادَّة تتصل بهَا وَإِن لم نعلمها من طَرِيق الرِّوَايَة والتوقيف كعلمنا بمادة الْحُرُوف وَالِاخْتِلَاف، إِذْ كَانَ كل وَاحِد مِنْهُم قد لَقِي غير وَاحِد من الصَّحَابَة وَشَاهده وَأخذ عَنهُ وَسمع مِنْهُ، أَو لَقِي من لَقِي الصَّحَابَة، مَعَ أَنهم لم يَكُونُوا أهل رَأْي واختراع، بل كَانُوا أهل تمسك وَاتِّبَاع"[4].

قال الأندرابي: "اعلم أنّ عدد أهل الكوفة أعلى الأعداد إسناداً، وأصحها في القياس تأويلاً، وذلك أنَّ عددهم مأخوذ عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، وعن أبي عبد الرحمن السلمي رضي الله عنه، ومع ذلك موافقته الأخبار عن النبيّ صلى الله عليه [وسلم]"[5].

وقد وردت أحاديث في عدّ آي القرآن، وهي تدل على أن هذا العلم ثابت بطريق النقل والسماع، فمن ذلك:

---

١) هو يحيى بن الحارث بن عمرو بن يحيى بن سليمان بن الحارث، أبو عمرو، الذماري ثم الدمشقي، إمام الجامع الأموي، وشيخ القراءة بدمشق بعد ابن عامر، يعدّ من التابعين، توفي سنة ١٤٥هـ، -رحمه الله تعالى رحمة واسعة-. انظر: غاية النهاية لابن الجزري (٣٦٧/٢-٣٦٨).

٢) هو عبد الله بن عامر بن يزيد بن تميم بن ربيعة بن عامر بن عبد الله بن عمران اليحصبي، إمام أهل الشام في القراءة والذي انتهت إليه مشيخة الإقراء بها، وكان إمام الجامع بدمشق وهو الذي كان ناظرًا على عمارته حتى فرغ، توفي سنة ١١٨هـ، -رحمه الله تعالى رحمة واسعة-. انظر: غاية النهاية لابن الجزري (٤٢٣/١-٤٢٥).

٣) هو خالد بن معدان بن أبي كرب، أبو عبد الله الكلاعي الحمصي، تابعي ثقة إمام كثير العبادة والجهاد، توفي صائما سنة ١٠٣هـ، وقيل بعدها، -رحمه الله تعالى رحمة واسعة-. انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد (٣١٦/٧-٣١٧). وتاريخ الإسلام للذهبي (٤١/٣).

٤) انظر: البيان في عدّ أي القرآن لأبي عمرو الداني (٦٧/١-٧٠). وجمال القراء لعلم الدين السخاوي (٢٧٤/١-٢٧٥).

٥) الإيضاح في القراءات (٢٣٨/١).

عن أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((مَنْ قَرَأَ بِالْآيَتَيْنِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ البَقَرَةِ فِي لَيْلَةٍ كَفَتَاهُ))[١].

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((مَنْ حَفِظَ عَشْرَ آيَاتٍ مِنْ أَوَّلِ سُورَةِ الْكَهْفِ عُصِمَ مِنَ الدَّجَّالِ))[٢].

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: ((من قام بعشر آيات لم يكتب من الغافلين، ومن قام بمائة آية كتب من القانتين، ومن قام بألف آية كتب من المقنطرين))[٣].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((سورة من القرآن ثلاثون آية تشفع لصاحبها حتى يغفر له: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾الملك: ١))[٤].

فهذه الأحاديث وأمثالها دليل قاطع على أن هذا العلم مأثور عن النبي ﷺ.

يقول الحافظ أبو عمرو الداني: "أَلا ترى أَنه غير مُمكن وَلَا جَائِز أَن يَقُول ذَلِك لأَصْحَابه الَّذين شهدوه وسمعوا ذَلِك مِنْهُ إِلَّا وَقد عُلِّمُوا للمقدار الَّذِي أَرَادَهُ وقصده واشار إِلَيْهِ، وَعرفُوا ابتداءه وأقصاه ومنتهاه وَذَلِكَ بإعلامه إيَّاهُم عِنْد التَّلْقِين والتعليم بِرَأْس الْآيَة وَمَوْضِع الْخمس ومنتهى الْعشْر، وَلَا سِيمَا أَن نزُول الْقُرْآن عَلَيْهِ كَانَ مفرقا خمْسا خمْسا وَآيَة وآيتين وَثَلَاثًا وأربعا وَأكْثر من ذَلِك ... وَقد أفْصح الصَّحَابَة رَضِي الله عَنْهُم بالتوقيف بقَوْلهمْ: (إِنّ رَسُول الله كَانَ يعلمهُمْ الْعشْر فَلَا يجاوزونها إِلَى عشر أُخْرَى حَتَّى

---

١) متفق عليه: صحيح البخاري، في كتاب فضائل القرآن، وباب فضل سورة البقرة، برقم "٥٠٠٩" (١٨٨/٦).
وصحيح مسلم، في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، وباب فَضْلِ الْفَاتِحَةِ، وَخَوَاتِيمِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، وَالْحَثِّ عَلَى قِرَاءَةِ الْآيَتَيْنِ مِنْ آخِرِ الْبَقَرَةِ، برقم "٨٠٧-٨٠٨" (٥٥٤/١-٥٥٥).

٢) صحيح مسلم، في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، وباب فضل سورة الكهف وآية الكرسي، برقم "٨٠٩" (٥٥٥/١).

٣) سنن أبي داوود، في أَبْوَابُ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ وَتَحْزِيبِهِ وَتَرْتِيلِهِ، وباب تحزيب القرآن، برقم "١٣٩٨" (٥٧/٢). وقال الألباني: صحيح، في صحيح أبي داوود (١٤٣/٥).

٤) سنن الترمذي، في أبواب فضائل القرآن، وباب ما جاء في فضل سورة الملك، برقم "٢٨٩١" (١٤/٥)، وقال: حديث حسن.
وسنن أبي داوود، في أبواب قراءة القرآن وتحزيبه وترتيله، وباب في عدّ الآي، برقم "١٤٠٠" (٥٧/٢). وقال الشيخ الألباني: حسن، في صحيح أبي داوود (١٤٤/٥).

يتعلموا مَا فِيهَا من الْعَمَل)[١]، وَجَائِز أَن يعلمهُمْ العشر كاملا فِي فَور وَاحِد ومفرقا فِي أَوْقَات، وَكَيف كَانَ ذَلِك فَعَنْهُ أخذُوا رُؤُوس الْآي آيَة آيَة"[٢].

وإنما كان سبب اختلاف العلماء في عدّ آيات السور والقرآن أن النبي ﷺ كان يقف على رؤوس الآي للتوقيف، فإذا علم محلها وصل، للأصالة والتمام، فهناك مواضع وقف عليها الرسول ﷺ ولم يصلها فهذه معدودة بالاتفاق لا يقع فيها خلاف، وهناك مواضع وصلها الرسول ﷺ دائما ولم يقف عليها فهي متروكة من العدّ بالاتفاق، وهناك مواضع وقف عليها مرة ووصلها أخرى فهذه محط اختلافهم وسبب اجتهادهم.[٣]

وعدّ الآيات لها فضل عظيم لاسيما في الآخرة، فإن درجات الجنة على قدر آيات القرآن، فيقرأ القارئ ويرقى في درج الجنة حتى يبلغ آخر آية يقرأها، قال ﷺ: ((يُقَال لصَاحب الْقُرْآن يَوْم الْقِيَامَة: اقْرَأ وارق ورتل كَمَا كنت ترتل فِي الدُّنْيَا فَإِن منزلتك عِنْد آخر آيَة تقرؤها))[٤].

ثانيا: فوائد معرفة عدد الآيات:

- الفائدة الأولى: العلم بأن كل ثلاث آيات قصار معجزة للنبي ﷺ، وفي حكمها الآية الطويلة التي تعدل بطولها تلك الثلاث القصار، ووجه ذلك أن الله تعالى أعلن التحدي بالسورة الواحدة فقال سبحانه: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ ﴾ البقرة: ٢٣، والسورة تصدق بأقصر سورة كما تصدق بأطول سورة، وأقصر سورة في القرآن هي سورة الكوثر وهي ثلاث آيات قصار، فثبت أن كل ثلاث آيات قصار معجزة، وفي قوتها الآية الواحدة الطويلة التي تكافئها.
- الفائدة الثانية: حسن الوقف على رؤوس الآي عند من يرى أن الوقف على الفواصل سنة.

١) مسند الإمام أحمد، من حديث أبي عبد الرحمن، برقم "٢٣٤٨٢" (٤٦٦/٣٨)، ونصه: (حَدَّثَنَا مَنْ كَانَ يُقْرِئُنَا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ، أَنَّهُمْ كَانُوا يَقْتَرِئُونَ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ عَشْرَ آيَاتٍ، فَلَا يَأْخُذُونَ فِي الْعَشْرِ الْأُخْرَى حَتَّى يَعْلَمُوا مَا فِي هَذِهِ مِنَ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ، قَالُوا: (فَعَلِمْنَا الْعِلْمَ وَالْعَمَلَ)، وهو حديث حسن كما قال محقق الكتاب شعيب الأرناؤوط.

٢) البيان في عدّ آي القرآن (٤٠/١).

٣) انظر: الإتقان في علوم القرآن للسيوطي (٢٣١/١). والمحرر الوجيز في عدّ آي الكتاب العزيز لعبد الرزاق موسى (٢٩/١). ودراسات في علوم القرآن لمحمد بكر إسماعيل (٥٤/١).

٤) مسند الإمام أحمد، من حديث عبد الله بن عمرو، برقم "٦٧٩٩" (٤٠٣/١١-٤٠٤).
وسنن الترمذي، في أبواب فضائل القرآن، برقم "٢٩١٤" (٢٧/٥)، وقال: حديث حسن صحيح.
وسنن أبي داوود، في باب استحباب الترتيل في القراءة، برقم "١٤٦٤" (٧٣/٢). وقال الشيخ الألباني: حسن صحيح، في صحيح أبي داوود (٢٠٥/٥).

- الفائدة الثالثة: اعتبار الآيات في الصلاة والخطبة، قال السيوطي: "يترتب على معرفة الآي وَعَدِّهَا وَفَوَاصِلِهَا أَحْكَامٌ فِقْهِيَّةٌ:

١- مِنْهَا: اعْتِبَارُهَا فِيمَنْ جَهِلَ الْفَاتِحَةَ، فَإِنَّهُ يَجِبُ عَلَيْهِ بَدَلَهَا سَبْعُ آيَاتٍ.

٢- وَمِنْهَا: اعْتِبَارُهَا فِي الْخُطْبَةِ، فَإِنَّهُ يَجِبُ فِيهَا قِرَاءَةُ آيَةٍ كَامِلَةٍ، وَلَا يَكْفِي شَطْرُهَا إِنْ لَمْ تَكُنْ طَوِيلَةً، وَكَذَا الطَّوِيلَةُ عَلَى ما أطلقه الجمهور ...

٣- وَمِنْهَا: اعْتِبَارُهَا فِي السُّورَةِ الَّتِي تُقْرَأُ فِي الصَّلَاةِ أَوْ مَا يَقُومُ مَقَامَهَا، فَفِي الصَّحِيحِ: أنه كَانَ يَقْرَأُ فِي الصُّبْحِ بِالسِّتِّينَ إِلَى الْمِائَةِ.

٤- وَمِنْهَا: اعْتِبَارُهَا فِي قِرَاءَةِ قِيَامِ اللَّيْلِ ..."[١]، كما في حديث: ((من قام بعشر آيات لم يكتب من الغافلين ...)) المتقدم ذكره.

ثالثا: عدد الآيات في سورة غافر:

في عدّ أهل البصرة هي: (٨٢) ثنتان وثمانون آية.

وفي عدّ أهل المدينة الأول والأخير، وعدّ أهل مكة، وعدّ أهل حمص هي: (٨٤) أربع وثمانون آية.

وفي عدّ أهل الكوفة هي: (٨٥) خمس وثمانون آية.

وفي عدّ أهل الشام هي: (٨٦) ست وثمانون آية.

ونظيرتها في عدد الآيات هي سورة ص في عدّ الشامي، ولا نظير لها في غيره.

- وتفصيل ذلك أن اختلافهم في تسع آيات:

﴿حمٓ ①﴾غافر: ١: عدّها الكوفي دون غيرهم.

﴿يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ ⑮﴾غافر: ١٥: لم يعدّها الشّامي وعدّها الْبَاقُونَ.

﴿بَٰرِزُونَ﴾غافر: ١٦: عدّهَا الشَّامي وَلم يعدّها الْبَاقُونَ.

﴿كَٰظِمِينَ﴾غافر: ١٨: لم يعدّها الْكُوفِي وعدّها الْبَاقُونَ.

١) الاتقان في علوم القرآن للسيوطي (١/٢٤٠). وانظر: مناهل العرفان للزرقاني (١/٣٤٤-٣٤٦).

﴿وَأَوۡرَثۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾غافر:٥٣: لم يعدّها الْمدنِي الْأَخير والبصري وعدّها الْبَاقُونَ.

﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ﴾غافر: ٥٨: عدّهَا الْمدنِي الْأَخير والشامي وَلم يعدّها الْبَاقُونَ.

﴿وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسۡحَبُونَ ٧١﴾غافر:٧١: عدّهَا الْمدنِي الْأَخير والكوفي والشامي وَلم يعدّها الْبَاقُونَ.

﴿فِي ٱلۡحَمِيمِ﴾ غافر: ٧٢: عدّهَا الْمدنِي الأول والمكي وَلم يعدّها الْبَاقُونَ.

﴿كُنتُمۡ تُشۡرِكُونَ ٧٣﴾غافر: ٧٣: عدّهَا الْكُوفِي والشامي وَلم يعدّها الْبَاقُونَ.

- وقاعدة فواصل السورة مجموعة في قولهم: (من علق برد).[1]

رابعا: عدد الكلمات في سورة غافر:

ذكر العلماء أن عدد كلمات سورة غافر هي: (١١٩٩)، ألف ومائة وتسع وتسعون كلمة.[2]

خامسا: عدد الحروف في سورة غافر:

ذكر العلماء أن عدد حروف سورة غافر هي: (٤٩٦٠)، أربعة آلاف وتسع مائة وستون حرفا،[3] وعلى هذا فإن لقارئ هذه السورة بفضل الله تعالى (٤٩٦٠٠) تسع وأربعون ألفا وست مائة حسنة، والله يضاعف لمن يشاء.

١) قاعدة الفواصل تعني أن كل آية في سورة غافر تختم بحرف من هذه الحروف.
انظر: البيان في عدّ آي القرآن لأبي عمرو الداني (٢١٨/١). وجمال القراء لعلم الدين السخاوي (٣٠٣/١-٣٠٤). وسعادة الدارين في بيان وعدّ آي معجز الثقلين لمحمد الحداد (٦٠/١-٦١). والقول الوجيز في فواصل الكتاب العزيز للمخللاتي (٢٧٩/١-٢٨٢). والفرائد الحسان في عدّ آي القرآن لعبد الفتاح القاضي (٥٧/١-٥٦). والمحرر الوجيز في عدّ آي الكتاب العزيز لعبد الرزاق موسى (١٤١/١-١٤٤). ومعجم علوم القرآن للجرمي (١٩٧/١).
٢) انظر: البيان في عدّ آي القرآن لأبي عمرو الداني (٢١٨/١). وبصائر ذوي التمييز لفيروز آبادي (٤٠٩/١). والقول الوجيز في فواصل الكتاب العزيز للمخللاتي (٢٧٩/١-٢٨٢).
٣) انظر: المراجع السابقة.

الفصل الثاني

خصائص السورة الزمانية والمكانية والتنزيلية والموضوعية

وفيه خمسة مباحث

- المبحث الأول: تاريخ نزول السورة.
- المبحث الثاني: مكان نزول السورة، والمكي والمدني فيها.
- المبحث الثالث: أسباب النزول الواردة في السورة، وفوائد معرفة سبب النزول وثمرته.
- المبحث الرابع: مناسبة السورة لما قبلها وما بعدها.
- المبحث الخامس: اختصاصات السورة.

المبحث الأول: تاريخ نزول السورة

نزلت سورة غافر في الفترة الأخيرة من العهد المكي، وقد جُعِلَتِ السِّتِّينَ[1] فِي عِدَادِ تَرْتِيبِ نُزُولِ السُّوَرِ، نَزَلَتْ بَعْدَ سُورَةِ الزُّمَرِ وَقَبْلَ سُورَةِ فُصِّلَتْ، وَهِيَ أَوَّلُ سُوَرِ (آلِ حم) نُزُولًا. وَقَدْ كَانَتْ هَذِهِ السُّورَةُ مَقْرُوءَةً عَقِبَ وَفَاةِ أَبِي طَالِبٍ، أَيْ ما يقرب من السنة الثامنة للبعثة، أو سَنَةَ ثَلَاثٍ قَبْلَ الْهِجْرَةِ تقريبا، لِمَا سَيَأْتِي أَنَّ أَبَا بَكْرٍ رضي الله عنه قَرَأَ آيَةَ: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾غافر:٢٨، حِينَ آذَى نَفَرٌ مِنْ قُرَيْشٍ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ حَوْلَ الْكَعْبَةِ، وَإِنَّمَا اشْتَدَّ أَذَى قُرَيْشٍ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَعْدَ وَفَاةِ أَبِي طَالِبٍ.[2]

وفي الموسوعة القرآنية: أنّ سورة غافر نزلت بعد سورة الزّمر، وقد نزلت سورة الزمر بعد الإسراء وقبيل الهجرة، فيكون نزول سورة غافر في ذلك التاريخ أيضا.[3]

---

١) لا يوجد دليل قطعي على أن سورة غافر هي السورة الستين من حيث النزول، وما قيل في ذلك فهو مبني على اجتهادات محتملة.

٢) انظر: التحرير والتنوير لابن عاشور (٧٦/٢٤). والتفسير الموضوعي لسور القرآن لجامعة الشارقة، بإشراف د. مصطفى مسلم (٥٢٦/٦).

٣) انظر: الموسوعة القرآنية، خصائص السور لجعفر شرف الدين (٩/٨).

المبحث الثاني: مكان نزول السورة، والمكي والمدني فيها

قضى النبي ﷺ حياته بعد البعثة على فترتين، الفترة المكية والتي امتدت نحوا من ثلاث عشرة سنة، والفترة المدنية واستمرت عشر سنوات، فعاش النبي ﷺ بمكة أو المدينة، سوى ما تخلل ذلك من أسفاره وغزواته وعمراته وحجه، وكان القرآن الكريم ينزل عليه في أمكان متفرقة وأوقات متعددة، لكن أهم ما ميّز هذا التنزيل المبارك هو انقسامه على الفترتين "المكية والمدنية" لما كان بين هاتين الفترتين من التغاير والتمايز الكبير، ولذا اعتنى الصحابة رضوان الله عليهم ومن بعدهم بمعرفة المكي والمدني من القرآن الكريم لما له من فوائد جمة منها:

١-الوقوف على تاريخ التشريع وتدرجه الحكيم بشكل عام، وما يترتب عليه من الإيمان بسمو السياسة الإسلامية في تربية الشعوب والأفراد وقيادتهم من الكفر إلى الإيمان ومن الظلمات إلى النور ومن الجاهلية إلى الحضارة.

٢-العلم بالمتقدم من المتأخر لمعرفة الناسخ والمنسوخ.

٣-الاستعانة به في تفسير القرآن الكريم، فإن معرفة مكان أو زمان نزول السورة أو الآية تعين على فهم المراد منها ومعرفة مدلولاتها.

٤-استخراج سيرة الرسول ﷺ، وذلك بمتابعة أحواله ومواقفه الدعوية بمكة، ثم أحواله وسيرته الدعوية بالمدينة.

٥-معرفة أسباب النزول، إذ أن معرفة مكان النزول توقفنا على الأحوال والملابسات التي احتفت بنزول السورة أو الآية.[1]

وقد ذكر العلماء في حدّ المكي والمدني ثلاثة اصطلاحات:

أحدها: وهو أشهرها، أن المكي ما نزل قبل الهجرة، والمدني ما نزل بعدها سواء نزل بمكة أم بالمدينة، عام الفتح أو عام حجة الوداع أم بسفر من الأسفار.

والثاني: أن المكي ما وقع خطابا لأهل مكة، والمدني ما وقع خطابا لأهل المدينة.

---

١) انظر: البرهان في علوم القرآن للزركشي (١٨٧/١)، والاتقان في علوم القرآن للسيوطي (٣٦/١)، والتناسق الموضوعي في سورة الأحزاب لمحمد القرشي (٦٨/١).

والثالث: أن المكي ما نزل بمكة ولو بعد الهجرة، والمدني ما نزل بالمدينة، وعلى هذا تثبت الواسطة، فما نزل بالأسفار لا يطلق عليه مكي ولا مدني.[1]

قال السيوطي: "ويدخل في مكة ضواحيها كالمنزل بمنى وعرفات والحديبية، وفي المدينة ضواحيها كالمنزل ببدر وأحد وسلع"[2].

وعلى هذه الاصطلاحات الثلاثة فإن سورة غافر مكية، وحكي الاتفاق والإجماع على هذا[3]، فإنها نزلت بمكة، ونزلت قبل الهجرة، ونزلت خطاباً لأهل مكة.

وقد روي عن ابن عباس، وسمرة بن جندب رضي الله عنهم، ومسروق بن عبد الرحمن: أن الحواميم كلها نزلت بمكة.

وروي هذا عن محمد بن الحنفية، والحسن البصري، وعطاء بن أبي رباح، وعكرمة مولى ابن عباس، ومجاهد بن جبر، وقتادة بن دعامة، وجابر بن عبد الله رضي الله عنهما.[4]

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: (نزلت حم الْمُؤمن بِمَكَّة)[5]، وأخرج ابن مردويه (ت: ٤١٠هـ) عن ابن الزبير رضي الله عنهما مثله[6].

فهي من السور المكية الخالصة.

وقيل: إنها مكية كلها إلا ثلاث آيات نزلت بالمدينة:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٥٥﴾ ﴾غافر: ٥٥.

---

١) انظر: البرهان في علوم القرآن للزركشي (١/١٨٧)، والاتقان في علوم القرآن للسيوطي (١/٣٧-٣٨).

٢) الإتقان في علوم القرآن (١/٣٨).

٣) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان (٣/٧٠٣). ومعاني القرآن للزجاج (٤/٣٦٥). وتفسير القرآن العزيز لابن أبي زمنين (٤/١٢٥). والمحرر الوجيز لابن عطية (٤/٥٤٥). والبحر المحيط لأبي حيان (٩/٢٣١). وتفسير القرآن العظيم لابن كثير (٧/١٢٦). وبصائر ذوي التمييز للفيروز آبادي (١/٤٠٩). ومصاعد النظر للبقاعي (٢/٤٣٢). والتحرير والتنوير لابن عاشور (٢٤/٧٥-٧٦).

٤) انظر: بحر العلوم للسمرقندي (٣/١٩٧). والنكت والعيون للماوردي (٥/١٤١). والكشاف للزمخشري (٤/١٤٨). وزاد المسير لابن الجوزي (٤/٢٩). والجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٥/٢٨٨). وفتح القدير للشوكاني (٤/٥٥٠).

٥) الدر المنثور للسيوطي (٧/٢٦٨)، وعزاه لابن مردويه.

٦) فتح القدير للشوكاني (٤/٥٥٠).

روي عن الحسن، وقال إن الصلوات نزلت بالمدينة، وأن الصلاة بمكة كانت ركعتين من غير توقيت.[1]

الثانية والثالثة: قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ غافر: ٥٦-٥٧.

روي هذا عن ابن عباس رضي الله عنهما، وقتادة، وأبي العالية الرياحي، وكعب الأحبار، وابن جريج.

وقالوا إنها نزلت في يهود من المدينة جادلوا النبي ﷺ في أمر الدجال وزعموا أنه منهم.[2]

قال السيوطي: أخرج عبد بن حميد (ت:٢٤٩هـ) وَابْن أبي حَاتِم (ت:٣٢٧هـ) بِسَنَد صَحِيح عَن أبي الْعَالِيَة قَالَ: إِن الْيَهُود أَتَوا النَّبِي ﷺ فَقَالُوا: إِن الدَّجَّال يكون منا فِي آخر الزَّمَان وَيكون من أمره، فَعَظمُوا أمره وَقَالُوا: يصنع كَذَا، فَأنْزل الله ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ﴾[3].

<u>والراجح</u>: أن القول بمدنية بعض آيات السورة لم تنهض له حجة يعتمد عليها، مع قيام الاحتمال في أسباب النزول، فإنها تحتمل أن يراد بها المشاركة في معنى الآية لا حقيقة نزول الآية عقب الحادثة.

والمحققون من أهل العلم ردّوا قول الحسن، وقد كان يرى أن قوله: ﴿ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ ﴾ غافر:٥٥، نزل في فرض الصلوات الخمس وأوقاتها، ويرى أن فرض الصلوات الخمس وأوقاتها ما وقع إلا في المدينة، وأنه ما فرض بمكة إلا ركعتين كل يوم من غير توقيت، قال ابن عاشور: "وَهُوَ مِنْ بِنَاءِ ضَعِيفٍ عَلَى ضَعِيفٍ، فَإِنَّ الْجُمْهُورَ عَلَى أَنَّ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ فُرِضَتْ بِمَكَّةَ فِي أَوْقَاتِهَا، عَلَى أَنَّهُ لَا يَتَعَيَّنُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِالتَّسْبِيحِ فِي تِلْكَ الْآيَةِ الصَّلَوَاتِ، بَلْ يُحْمَلُ عَلَى ظَاهِرِ لَفْظِهِ مِنْ كُلِّ قَوْلٍ يُنَزِّهُ بِهِ اللَّهُ تَعَالَى"[4].

---

١) انظر: الكشاف للزمخشري (١٤٨/٤). والجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٢٨٨/١٥). وفتح القدير للشوكاني (٥٥٠/٤). والتحرير والتنوير لابن عاشور (٧٥/٢٤).

٢) انظر: تفسير ابن أبي حاتم، برقم "١٨٤٤٠، ١٨٤٤١" (٣٢٦٨/١٠). والنكت والعيون للماوردي (١٤١/٥). وزاد المسير لابن الجوزي (٢٩/٤). والجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٢٨٨/١٥). وجمال القراء لعلم الدين السخاوي (١٣٧/١). وفتح القدير للشوكاني (٥٥٠/٤). والتحرير والتنوير لابن عاشور (٧٥/٢٤-٧٦).

٣) الدر المنثور للسيوطي (٢٩٤/٧).

٤) التحرير والتنوير (٧٥/٢٤). وانظر: روح المعاني للألوسي (٢٩٣/١٢).

وأيضا ردّوا قول أبي العالية وغيره في أن الآيتين نزلتا في اليهود، وقال ابن عاشور بشذوذ هذه الرواية، فقد جاء في أول السورة قوله تعالى: ﴿مَا يُجَـٰدِلُ فِىٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ غافر:٤ ، والمراد بهم: المشركون، فيكون المراد به في الآيتين المشركون كذلك، على أن قولهم بنزولها في اليهود ليس بنص على أنها نزلت بالمدينة، قال شيخ الإسلام ابن تيمية (ت:٧٢٨هـ): قولهم نزلت الآية في كذا، يراد به تارة سبب النزول، ويراد به تارة أن ذلك داخل في الآية وإن لم يكن السبب، كما تقول: عُني بهذه الآية كذا.[١]

قال ابن عطية: "هذه السورة مكية بإجماع، وقد روي في بعض آياتها أنها مدنية، وهذا ضعيف، والأول أصح"[٢].

١) انظر: روح المعاني للألوسي (٢٩٣/١٢). والتحرير والتنوير لابن عاشور (٧٥/٢٤-٧٦).

٢) المحرر الوجيز (٥٤٥/٤).

المبحث الثالث: أسباب النزول الواردة في السورة

وردت أسباب نزول لبعض آيات من سورة غافر وذلك في ثلاثة مواضع من السورة الكريمة:

- أولها: في قوله تعالى: ﴿ مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴾ غافر: ٤.
- ثانيها: في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ غافر: ٥٦-٥٧.
- ثالثها: في قوله تعالى: ﴿ ۞ قُلۡ إِنِّي نُهِيتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِيَ ٱلۡبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرۡتُ أَنۡ أُسۡلِمَ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ غافر: ٦٦.

وسيأتي الحديث عنها في مواضعها من الدراسة التطبيقية إن شاء الله تعالى.

ويكون الحديث في هذا المبحث عن أسباب النزول من حيث تعريفها وطريقة معرفتها وبيان أهميتها وفوائدها.

فإن نزول القرآن الكريم كان على قسمين:

١- قسم نزل ابتداء.
٢- وقسم عقب واقعة أو سؤال.

وسبب النزول: هو كل رواية تذكر واقعة عينية أو سؤالًا محددًا عند تنزل الوحي أو في أيامه القريبة[١]، فإما أن تحدث حادثة فينزل القرآن الكريم بشأنها، كما في سبب نزول سورة المسد، وإما أن يُسْأل الرسول ﷺ عن شيء فينزل القرآن ببيان الحكم فيه، كما في سبب نزول آيات اللعان.[٢]

١) انظر: الإتقان في علوم القرآن للسيوطي (١٠٧/١). ومناهل العرفان للزرقاني (١٠٦/١).
٢) انظر: الصحيح المسند من أسباب النزول لمقبل الوادعي (١٣/١).

وطريقة معرفته: العمدة فيه على الرواية عن رسول الله ﷺ أو عن الصحابة الذين شاهدوا وعايشوا التنزيل ووقفوا على الأسباب، وبحثوا عن علمها وجدّوا في طلبها، فإن إخبار الصحابي عن مثل هذا له حكم الرفع.[1]

ولا يخفى على الدارسين لعلم التفسير مقام سبب النزول في تفسير القرآن وعلومه، فمعرفته طريق قوي في فهم معاني القرآن الكريم، ويكفي في أهميته كلام الإمام الشاطبي فإنه يقول: "معرفة أسباب التنزيل لازمة لمن أراد علم القرآن، والدليل على ذلك أمران:

أحدهما: إن علم المعاني والبيان الذي يعرف به إعجاز نظم القرآن، فضلًا عن معرفة مقاصد كلام العرب، إنما مداره عن معرفة مقتضيات الأحوال: حال الخطاب من جهة نفس الخطاب، أو المخاطِب، أو المخاطَب، أو الجميع؛ إذ الكلام الواحد يختلف فهمه بحسب حالين، وبحسب مخاطبين، وبحسب غير ذلك، كالاستفهام، لفظه واحد ويدخله معانٍ أخر من تقرير وتوبيخ وغير ذلك، وكالأمر يدخله معنى الإباحة والتهديد والتعجيز وأشباهها. ولا يدل على معناها المراد إلا الأمور الخارجة، وعمدتها مقتضيات الأحوال: وليس كل حال يُنقل ولا كل قرينة تقترن بنفس الكلام المنقول، وإذا فات نقل بعض القرائن الدالة فات فهم الكلام جملة، أو فهم شيء منه، ومعرفة الأسباب رافعة لكل مشكل في هذا النمط، فهي من المهمات في فهم الكتاب ولا بد، ومعنى معرفة السبب هو معنى معرفة مقتضى الحال، وينشأ عن هذا الوجه.

الوجه الثاني: وهو أن الجهل بأسباب التنزيل موقع في الشبه والإشكالات، ومورد للنصوص الظاهرة مورد الإجمال حتى يقع الاختلاف، وذلك مظنة وقوع النزاع"[2].

---

١) المرجع السابق.

٢) الموافقات (٤/١٤٦).

فوائد معرفة سبب النزول وثمرته

تواردت كلمات العلماء والباحثين على فائدة هذا العلم وثمرته وأهميته، وهي باختصار:

١- معرفة وجه الحكمة الباعثة على تشريع بعض الأحكام.

٢- تخصيص الحكم به عند مَنْ يرى أن العبرة بخصوص السبب.

٣- الوقوف على المعنى.

٤- أنه قد يكون اللفظ عامًّا، ويقوم الدليل على التخصيص، فإن محل السبب لا يجوز إخراجه بالاجتهاد والإجماع؛ لأن دخول السبب قطعي.

٥- دفع توهم الحصر.

٦- إزالة الإشكال.

٧- معرفة اسم النازل فيه الآية وتعيين المبهم فيها.

٨- تيسير الحفظ، وتسهيل الفهم، وتثبيت الوحي، في ذهن كل مَنْ يسمع الآية إذا عرف سببها، وذلك لأن ربط الأسباب بالمسببات، والأحكام بالحوادث، والحوادث بالأشخاص والأزمنة والأمكنة، كل ذلك من دواعي تقرر الأشياء وانتقاشها في الذهن، وسهول استذكارها عند استذكار مقارناتها في الفكر، وذلك هو قانون تداعي المعاني المقرر في علم النفس.[1]

---

١) انظر: البرهان للزركشي (١/٢٢-٢٩). والإتقان للسيوطي (١/١١٠). ومناهل العرفان للزرقاني (١/١١٣). ومقدمة العجاب في بيان الأسباب لعبد الحكيم الأنيس (١/٩٤-٩٧).

المبحث الثالث: مناسبة السورة لما قبلها وما بعدها

المسألة الأولى: مناسبتها لسورة الزمر التي قبلها:

أولا: التناسب العام بين السورتين:

١- بين السورتين أوجه من المناسبة، "ويكفي فيها أنه ذكر في كلٍّ من أحوال يوم القيامة وأحوال الكفرة فيه وهم في المحشر وفي النار ما ذكر، وقد فصل في هذه من ذلك ما لم يفصل منه في تلك"[١].

٢- السورتان مكيتان متعاقبتان في النزول، يظهر فيهما بجلاء الطابع المكي في الأسلوب والموضوعات التي تعنى بأمور العقيدة.

ثانيا: المناسبة بين فاتحة السورتين:

١- تآخي مطالع السورتين بقوله: ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٢﴾ ﴾غافر: ٢.

٢- في بداية كل سورة ذكر لبعض أسماء الله الحسنى وصفاته العلى، كقوله تعالى في سورة الزمر: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ ﴾الزمر: ١، وقوله تعالى في سورة غافر: ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٢﴾ ﴾.

٣- في فاتحة كل منهما حديث عن الذين حقت عليهم كلمة العذاب، ففي سورة الزمر قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾ ﴾ الزمر: ٣، وفي سورة غافر قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٦﴾ ﴾غافر: ٦.

٤- تجلي الدعوة إلى عبادة الله وحده مخلصا له الدين في مطلع السورتين، فقوله تعالى في سورة الزمر: ﴿ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ﴾الزمر: ٢ - ٣، يتوحد مع قوله تعالى في سورة غافر: ﴿ فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ غافر: ١٤.

٥- في بداية السورتين حديث عن الآيات الكونية، ففي الزمر قوله تعالى: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ

---

١) روح المعاني للألوسي (٢٩٣/١٢). وانظر: التفسير المنير للزحيلي (٦٨/٢٤).

﴿ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ۝٥ ﴾ الزمر:٥، وفي غافر قوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ۝١٣ ﴾ غافر:١٣.

ثالثا: المناسبة بين خاتمة السورة الأولى وفاتحة السورة الثانية:

١- خاتمة الزمر تتحدث عن تصنيف الناس إلى فريقين، أحدهما يساق إلى النار بعدل الله، والآخر يساق إلى الجنة بفضل الله، فجاءت فاتحة سورة غافر بقوله تعالى: ﴿ غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ ﴾ غافر: ٣، ليطمع الفريق الأول بالرجوع عن الكفر واللحاق بالفريق الثاني، ويستدعيهم إلى الإيمان برجاء المغفرة والتوبة، وليحمل الفريق الثاني على المزيد من الثبات والاستزادة من الصالحات. ثم توعد من أصرّ من الفريق الأول بقوله: ﴿ شَدِيدِ الْعِقَابِ ﴾ غافر: ٣، ورجّى الفريق الثاني بمزيد من الأجر والنعم بقوله: ﴿ ذِي الطَّوْلِ ﴾ غافر: ٣، وختم بتذكير الفريقين بأنهم إليه راجعون لا محالة وسيتحقق سوقهم فريقا إلى الجنة وفريقا إلى السعير بقوله: ﴿ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ ۝٣ ﴾ غافر: ٣.

قال أبو حيان: "وَمُنَاسِبَةُ أَوَّلِ هَذِهِ السُّورَةِ لِآخِرِ الزُّمَرِ أَنَّهُ تَعَالَى لَمَّا ذَكَرَ مَا يَؤُولُ إِلَيْهِ حَالُ الْكَافِرِينَ وَحَالُ الْمُؤْمِنِينَ، ذَكَرَ هُنَا أَنَّهُ تَعَالَى غافِرِ الذَّنْبِ وَقابِلِ التَّوْبِ، لِيَكُونَ ذَلِكَ اسْتِدْعَاءً لِلْكَافِرِ إِلَى الْإِيمَانِ، وَإِلَى الْإِقْلَاعِ عَمَّا هُوَ فِيهِ، وَأَنَّ بَابَ التَّوْبَةِ مَفْتُوحٌ، وَذَكَرَ شِدَّةَ عِقَابِهِ وَصَيْرُورَةَ الْعَالَمِ كُلِّهِمْ فِيهِ لِيَرْتَدِعَ عَمَّا هُوَ فِيهِ، وَأَنَّ رُجُوعَهُ إِلَى رَبِّهِ فَيُجَازِيهِ بِمَا يَعْمَلُ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ"[1].

٢- أنّ من آمن فسيق إلى الجنة فقد غفرت ذنوبه، وقبلت توبته، وتطاولت عليه النّعم، ومن كفر فإنه ممن شددّ عقابه، وردت عليه محاسنه، فسيق إلى النّار.

٣- خاتمة الزمر فيها إثبات الكمال لله بصدقه في وعده ووعيده بإنزال كل فريق في داره التي أعدها له، فثبت أن الكتاب الذي فيه ذلك منه، وأنه تام العزة كامل العلم جامع لجميع صفات الكمال فقال: ﴿ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۝٢ ﴾ غافر:٢.

---

١) البحر المحيط (٩/٢٣٢).

٤- ذكر في الزمر عاقبة الذين كفروا في الآخرة بأن سيقوا إلى جهنم زمرا، وهنا في سورة غافر ذكر عاقبة المكذبين في الدنيا، فقال: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ ﴾ غافر: ٥.

٥- خاتمة الزمر تبين مشهدا ختاميا فيه الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم، فجاءت فاتحة غافر لتبين حال هؤلاء الملائكة الذين يحملون العرش ومن حوله وهم أيضا يسبحون بحمد ربهم، ومع تسبيحهم المستمر كانوا يستغفرون للمؤمنين ويدعون لهم في مشهد تكاملي بين ماضيهم وحاضرهم بقوله: ﴿ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾غافر: ٧.[١]

٦- ما بين مقدمة سورة غافر وبين آيات السورة السابقة الأخيرة هناك تساوق تأكيدي في صدد غفران الذنوب وقبول التوبة، وتقرير كون كلمة العذاب إنما حقت على الكافرين المكابرين على الله المكذبين بآياته، وأيضا يتبادر أن آيات سورة غافر الأولى جاءت معقبة على الآيات السابقة لتنوه بالمؤمنين المنيبين إلى الله المتبعين سبيله والملتفين حول رسوله، ولتبثّ فيهم الطمأنينة والغبطة والبشرى بما ينتظرهم من قرة العين وعظيم الفوز في الآخرة، وما بسبيل ذلك من استغفار الملائكة لهم والدعاء إلى الله من أجلهم، مقابلة لذكر مصير الكفار وما احتوته الآيات السابقة من التنديد بهم وإنذارهم.[٢]

---

١) انظر: البحر المحيط لأبي حيان (٢٣٢/٩). ومصاعد النظر للبقاعي (٤٣٥/٢). ونظم الدرر للبقاعي (٤٣٦/١٦)، (٢/١٧). وتناسق الدرر في مناسبات السور للسيوطي (١٦/١). وروح المعاني للألوسي (٢٩٣/١٢). والبحر المديد لابن عجيبة (١٠٩/٥). وتفسير المراغي (٤١/٢٤).

٢) انظر: التفسير الحديث لدروزة (٣٥٢/٤-٣٥٣).

المسألة الثانية: مناسبتها لسورة فصلت التي بعدها:

أولا: التناسب العام بين السورتين:

١- السورتان من ذوات حاميم، تتشاركان في الجو العام لآل حاميم، وفي كثير من الموضوعات.

٢- السورتان من السور المكية التي تعنى وتتناول جوانب العقيدة الإسلامية كوحدانية الله والرسالة والبعث والجزاء، وهي الأهداف الأساسية لسائر السور المكية التي تهتم بأركان الإيمان.[١]

٣- السورتان تتشاركان في الاحتفاء بالتنزيل، وخطاب المعرضين الكافرين ودعوتهم وإنذارهم وإقامة الحجج عليهم بأسلوب قوي.

ثانيا: المناسبة بين فاتحة السورتين:

١- اتحاد مطلع السورتين بقوله: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ﴾، فهما كبقية الحواميم، المفتتحة بالحروف المقطعة ﴿حمٓ﴾ وبعدها يذكر الكتاب.

٢- كل منهما نصّت على أن القرآن تنزيل من الله عز وجل وليس من غيره.

٣- فاتحة غافر تعرضت للمكذبين من الأمم السابقة، وفاتحة فصلت تعرضت للمكذبين من قريش في قوله تعالى: ﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝٤﴾ فصلت:٤، ثم المكذبين للرسل السابقين في قوله: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ۝١٣﴾ فصلت:١٣.

٤- كل من السورتين تحدثت عن آيات الله الكونية، ففي سورة غافر قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ۝١٣﴾ غافر:١٣، وفي سورة فصلت قوله تعالى: ﴿۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝٩﴾ فصلت:٩.

٥- كل من السورتين تعرضت لعقاب الأمم السابقة، ففي سورة غافر قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِن بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ

١) انظر: تحقيق جانب مشكلة الربط بين الآيات والسور في تفسير الطبري، رسالة دكتوراه لسرحان جوهر (٢٦٧/١).

﴿ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ فَأَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ ٥ ﴾ غافر:٥ ، وفي سورة فصلت قوله تعالى: ﴿ فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَقُلۡ أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةٗ مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٖ وَثَمُودَ ١٣ ﴾فصلت:١٣.

ثالثا: المناسبة بين خاتمة السورة الأولى وفاتحة السورة الثانية:

١- تضمنت خاتمة سورة غافر وعيدا وتهديدا وتقريعا لقريش، فأتبع ذلك التقريع والتوبيخ والتهديد بتوبيخ آخر، فذكر في بداية سورة فصلت "أَنَّهُ نَزَّلَ كِتَابًا مُفَصَّلًا آيَاتُهُ، بَشِيرًا لِمَنِ اتَّبَعَهُ، وَنَذِيرًا لِمَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ، وَأَنَّ أَكْثَرَ قُرَيْشٍ أَعْرَضُوا عَنْهُ، ثُمَّ ذَكَرَ قُدْرَةَ الْإِلَهِ عَلَى إِيجَادِ الْعَالَمِ الْعُلْوِيِّ وَالسُّفْلِيِّ، ثُمَّ قَالَ: ﴿ فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَقُلۡ أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةٗ ﴾فصلت:١٣، فَكَانَ هَذَا كُلُّهُ مُنَاسِبًا لِآخِرِ سُورَةِ الْمُؤْمِنِ مِنْ عَدَمِ انْتِفَاعِ مُكَذِّبِي الرُّسُلِ حِينَ الْتَبَسَ بِهِمُ الْعَذَابُ، وَكَذَلِكَ قُرَيْشٌ حَلَّ بِصَنَادِيدِهَا مِنَ الْقَتْلِ وَالْأَسْرِ وَالنَّهْبِ وَالسَّبْيِ، وَاسْتِئْصَالِ أَعْدَاءِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا حَلَّ بِعَادٍ وَثَمُودَ مِنَ اسْتِئْصَالِهِمْ"[١].

٢- لما ذكر في سورة غافر إرسال الرسول وقوله: ﴿ فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ قُضِيَ بِٱلۡحَقِّ ﴾غافر:٧٨، وقوله: ﴿ فَلَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا ﴾غافر:٨٤، الآيات، جاءت سورة فصلت وفيها الإنذار بصاعقة مثل صاعقة عاد وثمود لما كذبوا رسلهم، وكيفية إهلاكهم كما ذكر إهلاك فرعون وقومه وغيرهم فيما سبق.[٢]

٣- لما كان مما ختمت به سورة غافر عرض الآيات المذكرة بالله وتوحيده الممثلة في نعمه من الأنعام، وتلتها آيات أخرى، تذكر بآيات الله فيما أخذ به الظالمين المكذبين من نقم، جاءت سورة فصّلت لتصل هذا الحديث، الذي يذكر بآيات الله، وينذر المكذبين الضالين بعذاب شديد، فتبدأ السورة بذكر القرآن الكريم وما يحمل من آيات بينات، فصّلت بلسان عربي مبين، فإذا كان المشركون قد عموا عن أن ينظروا في هذه النعم التي بين أيديهم، والتي تتمثل في الأنعام، التي منها ركوبهم ومنها يأكلون، ثم عموا كذلك عن أن يروا ديار القوم الظالمين، وما نزل بها من نقم الله وأنها قد أصبحت ترابا يمشون عليه، وقد اختلط فيه الآدميون بالحيوان، والنبات والأثاث، إذا كان المشركون قد عميت أبصارهم عن أن ترى هذه الآيات أو تلك، فليسمعوا

---

١) البحر المحيط لأبي حيان (٢٨٣/٩).

٢) تناسق الدرر في مناسبات السور للسيوطي (١/١٦-١٧).

بآذانهم هذه الآيات، التي هي كلمات الله إليهم، تدعوهم إليه بلسان عربي مبين، وتكشف لهم معالم الطريق إلى الهدى ودين الحق.[1]

٤- لما ختمت سورة غافر بالكفرة الذين جادلوا في آيات الله بالباطل، وفرحوا بما عندهم من علم ظاهر الحياة الدنيا، وأنهم عند البأس انسلخوا عنه وتبرؤوا منه ورجعوا إلى ما جاءت به الرسل فلم يقبل منهم، وكان ذلك شاقاً على النبي ﷺ خوفاً من أن يكون آخر أمر أمته الهلاك، مع الإصرار على الكفر إلى مجيء البأس، وأن يكون أغلب أحواله ﷺ النذارة، افتتح سبحانه سورة فصلت ببيان أن هذا القرآن رحمة لمن كان له علم وله قوة توجب له القيام فيما ينفعه، وكرر الوصف بالرحمة في صفة العموم وصفة الخصوص إشارة إلى أن أكثر الأمة مرحوم، ثم أعلم أن الكتاب فصل تفصيلاً وبُيّن تبييناً لا يضره جدال مجادل، ولا كيد مماحك مماحل.[2]

٥- كعادة القرآن الكريم في قرنه الترغيب بالترهيب أو العكس، وفي بيان عاقبة الأخيار والأشرار، أتبعت الحديث عن المشركين وسوء عاقبتهم في سورة غافر، بالحديث عن المؤمنين وحسن مصيرهم في سورة فصلت ابتداء من قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ فصلت: ٣٠، الآيات.[3]

٦- أنه سبحانه ذكر قبل ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾غافر: ٨٢، إلخ، وكان ذلك متضمنا تهديدا وتقريعا لقريش، ذكر هنا جل شأنه نوعا آخر من التهديد والتقريع لهم وخصهم بالخطاب في قوله تعالى: ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ ﴾فصلت: ١٣، ثم بيّن سبحانه كيفية إهلاكهم، وفي هذا نوع بيان لما في قوله تعالى في سورة غافر: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ ﴾ الآية،[4] وهذا كله مناسب لآخر سورة غافر من عدم انتفاع مكذبي الرسل حين رؤية العذاب، كما أن قريشا لم ينتفعوا حينما حلّ بصناديدهم القتل والأسر والنهب والسبي، فاستؤصلوا مثلما حل بعاد وثمود من الاستئصال.[5]

---

١) انظر: التفسير القرآني للقرآن لعبد الكريم الخطيب (١٢/١٢٧٧-١٢٧٨).

٢) نظم الدرر للبقاعي (١٧/١٣٥).

٣) انظر: التفسير الوسيط لطنطاوي (١٢/٣٢٢).

٤) روح المعاني للألوسي (١٢/٣٤٧).

٥) انظر: التفسير المنير للزحيلي (٢٤/١٧٩-١٨٠).

المبحث الثالث: اختصاصات السورة

اختصت هذه السورة الكريمة من دون سور القرآن الكريم بالأمور الآتية:

١- ذكر فيها اسم الله (الغافر)، ولم يذكر في سورة غيرها، وذلك في قوله تعالى: ﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ ﴾ غافر:٣.

٢- ذكر فيها (قابل التوب) وهو اسم لله تعالى أو صفة، ولم تذكر إلا في قوله تعالى: ﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ ﴾غافر:٣.

٣- ذكر فيها اسم الله أو صفته (ذي الطول)، ولم تذكر في سورة غيرها، وذلك في قوله تعالى: ﴿ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾غافر: ٣.

٤- ذكر فيها اسم الله أو صفته (رفيع الدرجات)، ولم تذكر في سورة غيرها، وذلك في قوله تعالى: ﴿ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلۡعَرۡشِ ﴾غافر: ١٥.[١]

٥- وقع فيها -دون سائر القرآن- استثناء الكافرين بقوله تعالى: ﴿ مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ **إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ** ﴾ غافر:٤.[٢]

٦- تكرر فيها ذكر الجدال والمجادلة خمس مرات، ولم تتكرر بهذا العدد في سورة أخرى، وذلك في قوله تعالى: ﴿ مَا **يُجَٰدِلُ** فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴿٤﴾ ﴾غافر:٤، وقوله تعالى: ﴿ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۖ وَهَمَّتۡ كُلُّ أُمَّةِۭ بِرَسُولِهِمۡ لِيَأۡخُذُوهُۖ **وَجَٰدَلُواْ** بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ فَأَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ ﴾غافر:٥، وقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ **يُجَٰدِلُونَ** فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡۖ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ ﴿٣٥﴾ ﴾غافر:٣٥، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ **يُجَٰدِلُونَ** فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم

---

١) انظر: بيان المعاني لعبد القادر العاني (٥٧٣/٣).

٢) أفادني بهذا فضيلة المشرف الشيخ الأستاذ الدكتور/ جمال بن مصطفى عبد الحميد عبد الوهاب النجار -حفظه الله تعالى-.

بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ ﴾غافر:٥٦، وقوله تعالى: ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصۡرَفُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾غافر:٦٩.[1]

٧- ذكرت فيها قصة مؤمن آل فرعون، ابتداء من قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ رَجُلٞ مُّؤۡمِنٞ مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَكۡتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ ﴾غافر:٢٨، ولم يذكر مؤمن آل فرعون إلا في هذه السورة، أو لم يذكر صراحة إلا في هذه السورة في قول من يرى أنه هو المراد في قوله تعالى: ﴿ وَجَآءَ رَجُلٞ مِّنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلۡمَلَأَ يَأۡتَمِرُونَ بِكَ لِيَقۡتُلُوكَ فَٱخۡرُجۡ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ القصص:٢٠.

٨- ذكرت فيها رسالة يوسف ﷺ، في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ جَآءَكُمۡ يُوسُفُ مِن قَبۡلُ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلۡتُمۡ فِي شَكّٖ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلۡتُمۡ لَن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِهِۦ رَسُولٗاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ مُّرۡتَابٌ ﴿٣٤﴾ ﴾غافر: ٣٤، ولم تذكر رسالة يوسف ﷺ في سورة يوسف ولا في غيرها إلا في سورة غافر.

٩- ذكر فيها اسم من أسماء يوم القيامة وهو (يوم التلاق) لم يذكر في غيرها، وذلك في قوله: ﴿ لِيُنذِرَ يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ ﴾غافر:١٥.

١٠- ذكر فيها اسم من أسماء يوم القيامة وهو (يوم التناد) لم يذكر في غيرها، وذلك في قوله: ﴿ وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ ﴾غافر:٣٢.

١١- عند بعض المفسرين، أنه ليس في القرآن إشارة إلى الدجال إلا في هذه السورة في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ غافر:٥٦-٥٧، ففسروا المراد بآيات الله في الآية بالدجال، وفسروا الاستعاذة بالله أنه من الدجال، وفسروا (الناس) بأنه

١) انظر: التحرير والتنوير لابن عاشور (٢٤/٢٠٠).

الدجال، وهذا بناء على سبب نزول ذكروه في هذه الآية، والراجح خلاف هذا، وسيأتي بيانه في موضعه من الدراسة التطبيقية إن شاء الله.[1]

١٢- لم يذكر الفعل ﴿تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾﴾غافر: ٧٥، في القرآن إلا في هذه السورة، وجاء منه ﴿مَرَحًا ﴾ في سورتي الإسراء ولقمان.[2]

١٣- خُتمت فيه ثلاث آيات متعاقبات بجملة (رب العالمين)، ولا نظير لهذا في سائر القرآن، قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾ ۞ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّى وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٦﴾﴾ غافر: ٦٤ - ٦٦.[3]

---

١) انظر: الإكليل في استنباط التنزيل للسيوطي (١/٢٢٧).

٢) انظر: بيان المعاني لعبد القادر العاني (٣/٦٠١).

٣) انظر: البرهان في توجيه متشابه القرآن لبرهان الدين الكرماني (١/٢٢٠-٢٢١). وروح البيان لإسماعيل حقي (٨/٢٠٧).

الفصل الثالث

جو السورة ومقاصدها ومناسباتها

وفيه ستة مباحث

- المبحث الأول: الجو العام الذي نزلت فيه السورة.
- المبحث الثاني: الوحدة الموضوعية للسورة ومحورها الأساسي ومقصدها الأعظم.
- المبحث الثالث: مقاصد وأهداف السورة وموضوعاتها.
- المبحث الرابع: المناسبة بين اسم السورة وموضوعها الكلي.
- المبحث الخامس: مناسبة فاتحة السورة لموضوعاتها.
- المبحث السادس: مناسبة فاتحة السورة لخاتمتها.

الفصل الثالث: جو السورة ومقاصدها ومناسباتها

المبحث الأول: الجو العام الذي نزلت فيه السورة

نزلت هذه السورة الكريمة بعد خروج النبي ﷺ من حصار الشِعب، وبعد وفاة نَصِيرِيَه وسَنَدَيه في عام واحد، زوجته خديجة رضي الله عنها، وعمه أبي طالب، حتى سمي ذلك العام بعام الحزن[1]، وكانت تلك الفترة من أصعب الفترات على الرسول ﷺ ورسالته ومن معه من المؤمنين، حتى أنه قال: ((ما نالت قريش مني شيئا أكرهه حتى مات أبو طالب))[2]، وحين سئل أحد الصحابة عن أشد ما لقي النبي ﷺ من قومه أجاب بما تعرض له النبي ﷺ من الأذى في تلك الفترة من خنقه خنقا شديدا وهو يصلي في ظل الكعبة، ومن إلقاء سلا الجزور عليه وهو ساجد، وما فعل به أهل الطائف من الإيذاء الشديد، حتى كان الإسراء والمعارج هو السلوان الوحيد الذي ارتضاه الله تعالى لنبيه ﷺ بعد أن لاقى من قومه والمشركين ما لاقى، فكانت تلك الفترة بلا شك من أصعب الفترات على المؤمنين، وقد بلغت فيه شراسة المشركين حدا عظيما، فباتوا يجادلون بالباطل ليلا ونهارا بغية دحض الحق، وأصبحوا يمارسون الإيذاء الحسي والمعنوي جهارا نهارا دون أي رادع يردعهم، حتى انتهى بهم الأمر إلى التفكير صراحة وبجدية في قتل النبي ﷺ بعد أن مات من كان يمنعهم عن فعل ذلك وهو عمه أبو طالب، ففي هذا الجو الشديد العصيب نزلت هذه السورة الكريمة، وعليه فلا غرو أن تكون موقعة بإيقاع عنيف مرهوب مخيف حازم قوي شديد كأنما هي مطارق متتابعة تحكي معركة متلاحمة حمي وطيسها، وهي كذلك بلا شك، وسيتبين لنا فيما سيأتي تفاصيل ذلك.[3]

---

١) عام الحزن بهذا الاسم حكاه ثعلب عن ابن الأعرابي، وذكره صاعد بن عبيد البجلي من الطبقة العاشرة كما عند القسطلاني، وهو مذكور مشهور عند أصحاب السير دون أن يكون له سند متصل يعتمد عليه. انظر: المحكم والمحيط الأعظم لابن سيده (٣/٢٢٥). وشرح الزرقاني على المواهب اللدنية للقسطلاني (٢/٤٩)

٢) أخرجه ابن هشام في السيرة (١/٤١٦) عن هشام بن عروة عن أبيه مرسلًا، ورواه عن ابن اسحاق الطبري في تاريخه (٢/٣٤٤). والحافظ ابن كثير في البداية والنهاية (٣/ ١٥١). وابن حجر في فتح الباري (٧/١٩٤)

٣) انظر: البصائر والذخائر لأبي حيان (٤/١٧٩). وإمتاع الأسماع للمقريزي (١/٤٥-٤٧). ونور اليقين في سيرة سيد المرسلين للشيخ الخضري (١/٥٩-٦٠). والسيرة النبوية دروس وعبر لمصطفى السباعي (١/٥٣-٥٦). والسيرة النبوية على ضوء القرآن والسنة لمحمد أبو شهبة (١/٣٩٧). وفقه السيرة لمحمد الغزالي (١/١٣١-١٣٧).

المبحث الثاني: الوحدة الموضوعية للسورة ومحورها الأساسي ومقصدها الأعظم

هناك وسائل تعين على معرفة أعظم مقاصد السورة ومحورها الأساسي والوحدة الموضوعية فيها بعد دراسة آياتها والتدبر فيها، منها:

أولا: دراسة اسماء السورة والتأمل في مدلولاتها: فإن أسماء السور في جملتها ثبتت بالتوقيف على الصحيح، وهذا يقتضي أن في اسم السورة من الحكمة ما يلزم منه التناسب مع محتواها، ولعل أهم ذلك الإشارة إلى المحور الأساس فيها.[1]

قال الإمام البقاعي: "إن اسم كل سورة مترجم عن مقصودها؛ لأن اسم كل شيء تظهر المناسبة بينه وبين مسماه عنوانه الدال إجمالا على تفصيل ما فيه ... ومقصود كل سورة هاد إلى تناسبها"[2].

وقال أيضا: "أن من عرف المراد من اسم السور عرف مقصودها، ومن حقق المقصود منها، عرف تناسب آيها، وقصصها، وجميع أجزائها"[3].

ثانيا: حصر أسباب النزول ودراستها: فإن معرفة سبب نزول الآية أو الآيات أو السورة يعين على فهم معناها والإحاطة بجوها وما تكتنفها من الأحداث، وذلك يعين على معرفة المراد منها واكتشاف محورها ومقصودها الكلي.

ثالثا: الوقوف على وجه ترتيبها في نظم سور القرآن الكريم: وهو من المناسبات الخارجية، وكذا مع ما قبلها وما بعدها من السور -كما فعل سعيد حوّى في تفسيره الأساس- كما يعين في ذلك معرفة وجه الربط بين هذه الموضوعات التي تضمنتها السورة.

رابعا: معرفة تاريخ ومكان نزولها: فإن زمان نزول السورة يساعد على معرفة الظروف والأجواء التي اكتنفت التنزيل، فإن الآيات والسور ما كانت تنزل جزافا، بل تنزل وفق حاجة الرسالة والدعوة وبما تتطلبه المستجدات، فقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ①﴾المدثر:١، و ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ①﴾المزمل:١، و ﴿وَٱلضُّحَىٰ ① وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ② مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ③﴾ الضحى:١-٣ ، وغيرها كثير، نزلت وفق مقتضيات المرحلة وحاجات الرسول والرسالة.

---

١) انظر: الإتقان للسيوطي (١٨٦/١). وتحرير التفسير الموضوعي والوحدة لموضوعية للدكتور محمد با زمول (١١١/١).

٢) نظم الدرر للبقاعي (١٨/١-١٩).

٣) مصاعد النظر للبقاعي (١٤٩/١).

وكذلك معرفة مكان نزولها، فإن نزلت بمكة فإنها ولا شك تشتمل على معظم متطلبات المرحلة المكية للدعوة، وتتصف بصفات تميزها عن السور المدنية إن كان في البناء اللغوي أو الموضوعات.

وسورة غافر مكية، وإن أجملنا القول: فإن السور المكية سور دعوة لتكوين مجتمع جديد ليس له مثال في الواقع، فيلزم أن ترسم صورة ذهنية واضحة المعالم في عقل المدعو لذلك المجتمع المنشود، في بنائه الفكري، وفي عقيدته وأهدافه ومنهج حياة أفراده وعلاقتهم ببعضهم وبالآخرين.

كما أن السور المكية توجه خطابها للمشركين بغية هدايتهم، وتأخذ في اعتبارها أن منهم من يحتكمون للعقل والمنطق ومنهم من يخالفون كبرا وعنادا، فيجيء الخطاب بما يناسب كل فريق منهم، وتكون عبارة القرآن المكي قصيرة مركزة وتحمل معاني كبيرة ومهمة ومجملة، ولذا نجدها تؤكد على وحدانية الله ربا وإلها وخالقا، وأن هناك بعثا بعد الموت ونشورا وحسابا وجنة أو نارا، وأن لله رسلا يبلغون عن الله، فمن قَبِلَ وأطاع فله حسن الجزاء، ومن عصى وكفر فله شديد العقاب، وهذه أسس العقيدة الرئيسية.[1]

قال الشاطبي: "وغالب المكي أنه مقرر لثلاثة معان، أصلها معنى واحد وهو الدعاء إلى عبادة الله تعالى:

أحدها: تقرير الوحدانية لله الواحد الحق، غير أنه يأتي على وجوه: كنفي الشريك بإطلاق، أو نفيه بقيد ما ادعاه الكفار في وقائع مختلفة، من كونه مقربا إلى الله زلفى، أو كونه ولدا، أو غير ذلك من أنواع الدعاوى الفاسدة.

والثاني: تقرير النبوة للنبي محمد ﷺ، وأنه رسول الله إليهم جميعا، صادق فيما جاء به من عند الله؛ إلا أنه وارد على وجوه أيضا؛ كإثبات كونه رسولا حقا، ونفي ما ادعوه عليه من أنه كاذب، أو ساحر، أو مجنون، أو يعلمه بشر، أو ما أشبه ذلك من كفرهم وعنادهم.

والثالث: إثبات أمر البعث والدار الآخرة وأنه حق لا ريب فيه بالأدلة الواضحة، والرد على من أنكر ذلك بكل وجه يمكن الكافر إنكاره به؛ فرد بكل وجه يلزم الحجة، ويبكت الخصم، ويوضح الأمر.

---

١) انظر: التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم لجامعة الشارقة، بإشراف د. مصطفى مسلم (٦/٥٢٦).

فهذه المعاني الثلاثة هي التي اشتمل عليها المنزل من القرآن بمكة في عامة الأمر، وما ظهر ببادئ الرأي خروجه عنها؛ فراجع إليها في محصول الأمر، ويتبع ذلك الترغيب والترهيب، والأمثال والقصص، وذكر الجنة والنار ووصف يوم القيامة وأشباه ذلك"[1].

واستنادا إلى قول الشاطبي في ذكر المقاصد الكلية للسور المكية، ورجوعا إلى ما ذكرته سابقا من أقوال أهل العلم في بيان مقاصد القرآن الكريم الكلية، يتبين للقارئ والمتأمل أن سورة غافر تعالج أبرز ما تعالج: المقصد القرآني الكلي الذي عبّر عنه الغزالي بقوله: "حكاية أحوال الجاحدين، وكَشْفُ فضائحهم وجهلهم بالمجادلة والمحاجَّة على الحق، وسِرُّه ومقصوده في جنب الباطل: الإفضاحُ والتَّنْفير، وفي جَنب الحق: الإيضاحُ والتَّثْبيتُ والتَّقهير"[2].

وعبّر عنه ابن القيم بقوله: "ذكر القرون الماضية والأمم الخالية وما جرى عليهم وذكر أحوالهم مع أنبيائهم وما نزل بأهل العناد والتكذيب منهم من المثلات وما حل بهم من العقوبات ليكون ما جرت عليه أحوال الماضين عبرة للمعاندين فيحذروا سلوك سبيلهم في التكذيب والعصيان"[3].

وعبّر عنه الدهلوي بقوله: "علم الجدل: وهي المحاجة مع الفرق الأربع الباطلة، اليهود والنصارى والمشركين والمنافقين، ويرجع في شرح هذا العلم وتعريفه إلى المتكلم"[4].

وعبّر عنه ابن عاشور بقوله: "المواعظ والإنذار والتحذير والتبشير، وهذا يجمع جميع آيات الوعد والوعيد، وكذلك المحاجة والمجادلة للمعاندين، وهذا باب الترغيب والترهيب"[5].

فاتضح من هذا المقصود القرآني الكلي الأبرز والأظهر الذي تحاول آيات سورة غافر تقريره وإثباته وتحقيقه.

هذا فيما يتعلق بالمقصد القرآني الكلي الذي تعالجه السورة.

أما ما يتعلق بمقصد السورة الكريمة الأعظم ومحوره الأساسي، فينبغي أن يعلم أن لكل سورة مقصدا رئيسا واحدا، وترجع المقاصد والمواضيع الفرعية كلها إليه.

---

١) الموافقات (٤/٢٦٩-٢٧٠).

٢) جواهر القرآن (١/٢٣-٢٤). وانظر: إرشاد الثقات للشوكاني (١/٣-٤).

٣) الصواعق المرسلة: (٢/٦٨٤-٦٨٦).

٤) الفوز الكبير في أصول التفسير (١/٢٩-٣٠).

٥) التحرير والتنوير (١/٣٩-٤١).

قال البقاعي: "كلّ سورة لها مقصد واحدٌ يدار عليه أولها وآخرها، ويستدلّ عليها فيها، فترتب المقدمات الدَّالة عليه على أتقن وجه وأبدع نهجٍ وإذا كان فيها شيءٌ يحتاج إلى دليل استدلّ عليه، وهكذا في دليل الدليل، وهلمَّ جرّا، فإذا وصل الأمر إلى غايته ختم بما منه كان ابتداء، ثُمَّ انعطف الكلام إليه، وعاد النظر عليه، على نهج بديع ومرقى غير الأول منيع، فتكون السورة كالشجرة النضيرة العالية والدوحة البهيجة الأنيقة الحالِيةِ المزَيَّنَة بأنواع الزينة المنظومة بعد أنيق الورق بأفنان الدرّ وأفنانها منعطفة إلى تلك المقاطع كالدوائر، وكلّ دائرة منها لها شعبة متصلة بما قبلها، وشعبة ملتحمة بما بعدها، وآخر السورة قد واصل أولها كما لاحم انتهاؤها ما بعدها، وعانق ابتداؤها ما قبلها، فصارت كلّ سورة كدائرة كبرى مشتملة على دوائر الآيات الغرّ البديعة النظم العجيبة الضَمّ بلين تعاطفِ أفنانها وحسن تواصل ثمارها وأغصانها"[١].

وقبل أن يذكر الباحث وجهة نظره في مقصود سورة غافر ومحورها الأساسي، يحسن ذكر ما قاله بعض الأعلام في ذلك:

فقد قال ابن الزبير الغرناطي: "تضمنت سورة غافر بيان حال المعاندين وجاحدي الآيات، وأن ذلك ثمرة تكذيبهم وجدلهم، وكأن بناء السورة على هذا الغرض بدليل افتتاحها وختمها"[٢].

وقال الفيروز آبادي (ت:٨١٧هـ): "معظم مقصود السّورة: المِنَّة على الخَلْق بالغفران، وقبول التوبة، وخطبة التوحيد على جلال الحقّ، وتقلب الكفار بالكسب والتجارة، وبيان وظيفة حَمَلة العرش، وتضرّع الكفَّار في قَعْر الجحيم، وإظهار أَنوار العَدْل في القيامة، وذكر إِهلاك القرون الماضية، وإِنكار فرعون على موسى وهارون [عليهما السلام]، ومناظرة خربيل لقوم فرعون نائباً عن موسى[عليه السلام]، وعَرْض أَرواح الكفَّار على العقوبة، ووعد النَّصر للرّسل، وإِقامة أَنواع الحجّة والبرهان على أَهل الكفر والضَّلال، والوعد بإِجابة دعاءِ المؤمنين، وإِظهار أَنواع العجائب من صنع الله، وعجز المشركين في العذاب، وأَنَّ الإِيمان عند اليأْس غير نافع، والحكم بخسران الكافرين والمبطلين"[٣].

وذكر البقاعي أن السورة في بيان العزة التي هي نتيجة كمال العلم وشمول القدرة.[٤]

---

١) مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور (١٤٩/١).
٢) البرهان في تناسب سور القرآن (٢٩٤/١).
٣) بصائر ذوي التمييز للفيروز آبادي (٤٠٩/١-٤١٠).
٤) انظر: نظم الدرر (١٣٠/١٧).

وقال أيضا: "ذم الجدال بالباطل من أجلّ مقصود هذه السورة"[1].

وقال في موضع آخر: "مقصود السورة تصنيف الناس في الآخرة صنفين"[2].

وزاد في بيانه، فقال: "مقصودها الاستدلال على آخر التي قبلها من تصنيف الناس في الآخرة إلى صنفين، وتوفية كل ما يستحقه على سبيل العدل، بأن الفاعل ذلك له العزة الكاملة والعلم الشامل، وقد بيّن ما يغضبه وما يرضيه غاية البيان على وجه الحكمة، فمن لم يسلم أمره كله إليه وجادل في آياته الدالة على القيامة أو غيرها بقوله أو فعله فإنه يخزيه فيعذبه ويرديه.

وعلى ذلك دلّت تسميتها بغافر، إشارةً إلى الآية التي فيها هذه الصفة، فإنه لا يقدر على غفران ما يشاء، لكل من يشاء، إلا كامل العزة، ولا يعلم جميع الذنوب ليسمى غافراً لها إلا بالغ العلم.

وكذا في المتاب والعقاب، وكذا الدلالة بتسميتها بالطول بمثل ذلك.

وبالمؤمن، فإن قصته تدل على هذا المقصد، ولا سيما أمر القيامة، الذي هو جلّ المقصود والمدار الأعظم لمعرفة المعبود"[3].

فها أنت ترى أن البقاعي لمعرفة مقصود السورة استخدم وسليتين من الوسائل التي تعين على ذلك، وهما الوسيلة الأولى والثالثة، وهما دراسة اسماء السورة والتأمل في مدلولاتها، والوقوف على وجه ترتيبها في نظم سور القرآن الكريم.

وذكر سيد قطب أن السورة تمثل الصراع والمعركة بين الحق والباطل، والإيمان والكفر، والصلاح والطغيان، فقال: "هذه السورة تعالج قضية الحق والباطل، قضية الإيمان والكفر، قضية الدعوة والتكذيب، وأخيرا قضية العلو في الأرض والتجبر بغير الحق، وبأس الله الذي يأخذ العالين المتجبرين.. وفي ثنايا هذه القضية تلم بموقف المؤمنين المهتدين الطائعين ونصر الله إياهم، واستغفار الملائكة لهم، واستجابة الله لدعائهم، وما ينتظرهم في الآخرة من نعيم.

وجو السورة كله -من ثم- كأنه جو معركة، وهي المعركة بين الحق والباطل، وبين الإيمان والطغيان، وبين المتكبرين المتجبرين في الأرض وبأس الله الذي يأخذهم بالدمار والتنكيل، تنسم خلال هذا الجو

---

١) نظم الدرر (١١٢/١٧).

٢) نظم الدرر (٤٦/١٧).

٣) مصاعد النظر (٤٣٥/٢). وانظر: نظم الدرر للبقاعي (١/١٧-٢).

نسمات الرحمة والرضوان حين يجيء ذكر المؤمنين، ذلك الجو يتمثل في عرض مصارع الغابرين، كما يتمثل في عرض مشاهد القيامة -وهذه وتلك تتناثر في سياق السورة وتتكرر بشكل ظاهر- وتعرض في صورها العنيفة المرهوبة المخيفة متناسقة مع جو السورة كله، مشتركة في طبع هذا الجو بطابع العنف والشدة.

ولعله مما يتفق مع هذه السمة افتتاح السورة بإيقاعات ذات رنين خاص: ﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٣﴾ ﴾غافر: ٣، .. فكأنما هي مطارق منتظمة الجرس ثابتة الوقع، مستقرة المقاطع، ومعانيها كذلك مساندة لإيقاعها ... كذلك نجد كلمة البأس، وبأس الله، وبأسنا .. مكررة تتردد في مواضع متفرقة من السورة، وهناك غيرها من ألفاظ الشدة والعنف بلفظها أو بمعناها.

وعلى العموم فإن السورة كلها تبدو وكأنها مقارع ومطارق تقع على القلب البشري وتؤثر فيه بعنف وهي تعرض مشاهد القيامة ومصارع الغابرين، وقد ترق أحيانا فتتحول إلى لمسات وإيقاعات تمس هذا القلب برفق، وهي تعرض حملة العرش ومن حوله يدعون ربهم ليتكرم على عباده المؤمنين، أو وهي تعرض عليه الآيات الكونية والآيات الكامنة في النفس البشرية ... وهذه وتلك تصور جو السورة وترسم ظلها، وتتناسق مع موضوعها وطابعها"[١].

وقال الطاهر بن عاشور: "بنيت هذه السورة على إبطال جدل الذين يجادلون في آيات الله جدال التكذيب والتورك"[٢].

وقال محمد محمود حجازي: "سورة غافر تدور آياتها حول مناقشة المجادلين في آيات الله المشتملة على التوحيد وإثبات البعث والرسالة، ويتطرق الكلام إلى وصف حال المشركين والمجادلين يوم القيامة، ثم ذكر قصة فرعون وهامان وقارون للمشركين، وفي خلال ذلك سيقت آيات تثبت وصف الله بكل كمال وتنزيهه عن كل نقص"[٣].

وذكر سعيد حوّى أن افتتاح السورة وختمها بالكلام عن الكافرين يُشعر بأن السورة تفصّل بشكل أخصّ في قوله تعالى من مقدمة سورة البقرة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا

١) انظر: في ظلال القرآن (٣١٠٦٥/٥-٣١٦٦).
٢) التحرير والتنوير (٢٠٠/٢٤).
٣ التفسير الواضح (٢٨٨/٣).

﴿يُؤْمِنُونَ ۝٦ خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٧﴾ البقرة: ٦-٧، حتى لتكاد تكون هاتان الآيتان هما محور السورة.[١]

وقال الصابوني[٢]: "يكاد يكون موضوع السورة البارز، هو المعركة بين (الحق) و(الباطل) و(الهدى) و(الضلال) ولهذا جاء جو السورة مشحونا بطابع العنف والشدة، وكأنه جو معركة رهيبة، يكون فيها الطعن والنزال، ثم تسفر عن مصارع الطغاة، فإذا بهم حطام وركام"[٣].

وذكر في (التفسير الموضوعي) لجامعة الشارقة أنها تمثل الصراع العقلي بين الحق والباطل، فالسورة بها السند العقلي الذي يعتمده المسلمون في الدفاع عن عقيدتهم.[٤]

وقال الزحيلي[٥]: الغرض المهم منها هو: "الاعتبار بمصرع الظالمين المكذبين، وما يلقونه من أصناف العذاب، ومبادرتهم إلى الإيمان حين رؤية العذاب، ولكن لا ينفعهم ذلك، فإن سنة الله الثابتة ألا يقبل إيمان اليأس أو حال رؤية البأس"[٦].

وقال زغلول النجار[٧]: "يدور محور سورة غافر حول قضيتي الإيمان والكفر، وصراع أهليهما عبر التاريخ، ومحاولات أهل الباطل للعلو في الأرض، والتجبر على الخلق بغير الحق"[٨].

---

١) انظر: الأساس في التفسير لسعيد حوّى (٤٩٢٣/٩).

٢) هو محمد علي الصابوني، عالم معاصر، سوري الجنسية من مواليد مدينة حلب الشهباء، عام ١٩٣٠م، من أساتذة كلية الشريعة بمكة المكرمة، كان له نشاط في علوم القرآن والتفسير، وتعرض للانتقادات على بعض مختصراته في التفسير. انظر: موقع المكتبة الشاملة على الشبكة العنكبوتية.

٣) صفوة التفاسير لمحمد علي الصابوني (٩٢/٣).

٤) التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم لجامعة الشارقة، بإشراف د. مصطفى مسلم (٥٢٨/٦).

٥) هو وهبة بن مصطفى الزحيلي، ولد في بلدة دير عطية من نواحي دمشق عام ١٩٣٢م، وهو أحد أبرز علماء أهل السنة والجماعة من سوريا في العصر الحديث، عضو المجامع الفقهية بصفة خبير في مكة وجدة والهند وأمريكا والسودان، ورئيس قسم الفقه الإسلامي ومذاهبه بجامعة دمشق، كلية الشريعة. انظر: موقع المكتبة الشاملة على الشبكة العنكبوتية.

٦) التفسير المنير لوهبة الزحيلي (٧٠/٢٤).

٧) هو زغلول راغب محمد النجار، ولد في قرية مشاري، مركز بسيون بمحافظة الغربية في مصر ١٩٣٣م، عالم في الجيولوجيا، له مؤلفات ومشاركات دعوية وعلمية واسعة وخصوصا في مجال الإعجاز العلمي في الكتاب والسنة. انظر: موقع الموسوعة الحرة على الشبكة العنكبوتية.

٨) انظر: الحاوي في تفسير القرآن الكريم لعبد الرحمن القمّاش (٦٣/٦٧٧)، من بحث للدكتور زغلول النجار بعنوان: (من أسرار القرآن الإشارات الكونية في القرآن الكريم ومغزي دلالتها العلمية).

وقال عدنان عبد القادر[1]: "مقصد سورة غافر: تصفية القلب من الخصومات والجدال بالباطل ليصفو القلب صفاء خالصا لله تعالى"[2].

بناء على ما سبق وإضافة عليه، فإن الحديث عن مقصد سورة غافر وعن محورها الأساسي يقودني مباشرة إلى الوقوف على تاريخ نزولها، وكما تقدم أن نزولها كان بمكة عقب وفاة أبي طالب وقبل الهجرة بنحو ثلاث سنوات، وكانت هذه الفترة من أصعب الفترات على الرسول ﷺ ورسالته، حيث اشتد أذى المشركين كثيرا، وبات التفكير في قتل الرسول واغتيال رسالته قائما على قدم وساق، فمن ثم نجد أن سورة غافر كلها مبنية على أسلوب قوي عنيف شديد حازم فيه تهديد ووعيد وإنذار بليغ، مما يكشف بجلاء أن أعظم مقاصد هذه السورة هي:

ردع العدوان ودفعه عن الرسالة والرسول والمؤمنين ونصرتهم في خضم الصراع بين الحق والباطل في أشد مراحل الاستضعاف بالعهد المكي.

وهذا هو محور السورة الأساسي ووحدتها الموضوعية التي تدور جميع موضوعاتها حوله، ولما لم تكن المرحلة مرحلة جهاد بالسيف، كانت وسيلة الدفاع وردع العدوان هي المحاجّة العقلية القوية ودحض شبه المجادلين، وتوعدهم وإنذارهم بشدة، وتذكيرهم بهلاك الغابرين، وتطمين المؤمنين وتثبيتهم ووعدهم بالنصر والتمكين والدعاء لهم.

قال البقاعي: مضت الآيات تذكر وتنذر وتحذر في تلك الأساليب التي هي أمضى من السيوف، وأجلى من الشموس في الصحو دون الكسوف.[3]

وقال ابن عاشور: "أسلوبها أسلوب المحاجة والاستدلال على صدق القرآن وأنه منزل من عند الله، وإبطال ضلالة المكذبين وضرب مثلهم بالأمم المكذبة، وترهيبهم من التمادي في ضلالهم وترغيبهم في التبصر ليهتدوا"[4].

---

١) هو عدنان بن عبد القادر بن محمد القادري، داعية معاصر، ولد في الكويت سنة ١٩٦٠م، وقد ترعرع في الكويت و نشأ، درس وتخصص في علم الأحياء، فلما أتمه انصرف إلى علوم الشرع، . انظر: على الشبكة العنكبوتية: http://islam-call.com/authors/v/id/330

٢) اللمسات الحانية في مقاصد السور الغانية (٤١/١).

٣) انظر: نظم الدرر للبقاعي (١٣٠/١٧).

٤) التحرير والتنوير (٢٢٤/٢٤).

ويدلّ على ما ذهبت إليه بالتأمل في ترتيب سور الحواميم والتي تليها، نجد أنه بختام الحواميم ينتهي أسلوب الإمهال والترغيب والرهيب والصبر والصفح الذي جاءت به السور السبعة، وبعدها ننتقل مباشرة إلى سورة محمد ﷺ سورة القتال، والتي هي سورة مواجهة شديدة بعد أن انتهت فترة الإمهال، لتأتي بعدها مباشرة سورة الفتح التي فيها تمت المواجهة بفتح مكة وتحطيم الشرك ورموزه، فترتيب السور على هذا النسق البديع قد رسم لنا صورة واضحة لملامح المعركة القائمة بين الحق والباطل وكيفية إدارتها حتى نهايتها وظهور نتائجها، وكانت سورة غافر الأولى في سور الحواميم، فقامت بدور تلقي الضربة الأولى وامتصاص الصدمات الأولى لعدوان المعتدين.

شراسة المشركين في محاربة الدعوة وقت نزول السورة

ولنعلم مدى شراسة المشركين وأذيتهم للرسول ﷺ والمؤمنين وتربصهم الدوائر بهم وبالرسالة في وقت نزول هذه السورة الكريمة علينا أن نتأمل في آياتها، فماذا نجد؟!

نتأمل آياتها فنجد قوله تعالى: ﴿فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي ٱلْبِلَٰدِ ﴿٤﴾﴾غافر: ٤، وقوله تعالى: ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾غافر: ٥، وقوله تعالى: ﴿وَجَٰدَلُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾غافر: ٥، وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ ٱقْتُلُوٓاْ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُواْ نِسَآءَهُمْ﴾ غافر: ٢٥، وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾غافر: ٢٦، وكلها آيات تشير إلى أن تقلب المشركين في البلاد ارتفع وعلا، حتى همّوا بإخراج الرسول وطرده بل قتله، وملاحقتهم المؤمنين بالقتل والإيذاء والطرد، وتوسعهم في المجادلة بالباطل لدحض الحق، وقد تكرر ذكر المجادلين في آيات الله خمس مرات في هذه السورة، كأنما يستخدمون الآلة الإعلامية لكسر ما بقي من قوة المؤمنين المعنوية كما يفعل اليوم أهل الانحراف والزيغ بمجرد ما تبدأ قوة للحق تعلو وتنتشر.

وسائل ردع الله لكيدهم ودحض باطلهم

وفي مقابل شراسة المشركين وقت نزول السورة، نجد وسائل ردع الله تعالى لهم، فتارة بتهديد ووعيد شديد، وتارة بإبراز مآل من غبر من المكذبين الظالمين، وكيف أن كيدهم كان في ضلال، وتارة بالتأكيد أن مصير هؤلاء المتجبرين من المشركين سينقلب عما قليل إلى نفس مصائر السابقين من أمثالهم، يجد ذلك بوضوح من قرأ قوله تعالى: ﴿فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾﴾غافر:٥، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ

عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ﴾ غافر:١٦، وقوله تعالى: ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ ﴾غافر:١٨، وقوله تعالى: ﴿ ۞ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبْلِهِمْۚ كَانُواْ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُواْ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٢﴾ ﴾غافر:٢١-٢٢، وقوله تعالى: ﴿ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ﴾غافر:٤٥، وقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَاۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِيٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ ﴾ غافر:٧٠-٧١، وقوله تعالى: ﴿ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾غافر:٨٣، حتى أن السورة تختتم بهذا المعنى بقوله تعالى: ﴿ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَاۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِۦۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾ غافر:٨٥، وهذا كله موجه للمشركين لردعهم وكف أذاهم عن الرسول ورسالته والمؤمنين، واستمالتهم إلى الإيمان قبل فوات الأوان، وأنهم هم أحوج الناس إلى الرسول ورسالته لا أن الرسول ﷺ والمؤمنون بحاجة إلى نصرة المشركين وشفقتهم، هكذا يخاطبهم الله تعالى بكل هذا الاستعلاء رغم أن الظاهر على أرض الواقع أن المشركين في أعلى درجات علوهم واستكبارهم، لكن حالهم هذا زيف لا يلبث أن يصمد أمام الحق وقوته وأهله.

وهذه النصرة وهذا الدفاع عن الرسول والرسالة تجده مشتركا في سور آل حاميم كلها، ومن تتبع هذه السور السبعة "علم أنها نزلت كالحمم على رؤوس المشركين وقلوبهم، وكان بها نصراً معنوياً للرسول ﷺ وتأييداً له بفضح أسرارهم ... حتى أن الرسول ﷺ من تعظيمه لهن جعل من (حم) شعارا للنصر المعنوي في أحلك المواقف، بقوله ﷺ: ((إن بيّتكم العدو فليكن شعاركم: حم لا ينصرون))[1] ... إشارة لبعض الآيات التي ورد فيها (لا ينصرون) وأولها: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِيٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَخْزَىٰۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ ﴾فصلت: ١٦"[2].

---

١) سبق تخريجه.

٢) القول المعتبر في بيان الإعجاز للحروف المقطعة من فواتح السور لإياس آل خطاب (١٢٨/١).

تثبيت الله للمؤمنين وتقويتهم

لكن الحرب النفسية القائمة على المؤمنين لكسرهم وهزيمتهم داخليا تحتاج إلى علاج وتحتاج إلى تثبيت، فنجد الآيات تتوالي بأن المؤمنين في كنف ربهم الغافر لذنوبهم والقابل لتوبتهم والمتفضل عليهم بالنعم، وهو كذلك شديد العقاب بأعدائهم، وأنهم في معية مؤيدة علوية من ملائكة الرحمن المقربين وهم يستغفرون لهم باستمرار ويدعون الله لهم، وبوعدهم بأنهم منصورون لا محالة ودون أدنى شك فما عليهم سوى الصبر الجميل وسيرون كيف يهلك الله عدوهم ويرفع شأنهم، كل هذا يجده من تأمل قوله تعالى: ﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٣﴾ ﴾غافر:٣، وقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ... ﴾غافر:٧، وقوله تعالى: ﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْ ﴾ غافر:٤٥، ووقوله تعالى: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ﴿٥١﴾ ﴾غافر:٥١، وقوله تعالى: ﴿ فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ ﴾ غافر:٥٥، وقوله تعالى: ﴿ فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾ غافر:٧٧.

نموذج من أثر السورة على أرض الواقع

وقد استفاد المؤمنون عمليا من هذه السورة في دفع العدوان عنهم بقدر ما استطاعوا، فها هو ذا أبو بكر الصديق رضي الله عنه يصدح بقوله تعالى: ﴿ أَتَقۡتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدۡ جَآءَكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمۡ ﴾غافر:٢٨، متسلحا بها كقوة معنوية وحسية في ردع المعتدي وكف أذاه، فعنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ، قَالَ: سَأَلْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرٍو، عَنْ أَشَدِّ مَا صَنَعَ المشْرِكُونَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: رَأَيْتُ عُقْبَةَ بْنَ أَبِي مُعَيْطٍ، جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ يُصَلِّي، فَوَضَعَ رِدَاءَهُ فِي عُنُقِهِ فَخَنَقَهُ بِهِ خَنْقًا شَدِيدًا، فَجَاءَ أَبُو بَكْرٍ حَتَّى دَفَعَهُ عَنْهُ، فَقَالَ: ﴿ أَتَقۡتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدۡ جَآءَكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمۡ ﴾[١].

١) صحيح البخاري، كتاب أصحاب النبي ﷺ، باب قول النبي ﷺ: ((لو كنت متخذا خليلا))، برقم "٣٦٧٨" (٥/١٠).

بهذه النظرة التأملية -وبناء على ما تقدم- دارت جميع مواضيع السورة الكريمة ومقاطعها حول ما ذُكر، وتفاصيل ذلك سيأتي في صلب الرسالة -إن شاء الله تعالى-، وبيان هذه الأهداف والموضوعات بإيجاز في المبحث التالي.

المبحث الثالث: مقاصد وأهداف السورة وموضوعاتها

سورة غافر من السور المكية، ومقاصدها وأهدافها وموضوعاتها كباقي السور المكية بشكل عام –كما سبق ذكره–، ومجمل ما حوته السورة الكريمة هي:

(وصف الكتاب الكريم، والجدل بالباطل في آيات الله، والوقوف على مصارع الغابرين، ووصف الملائكة الذين يحملون العرش ومن حوله، وطلب أهل النار الخروج منها لشدة الهول ثم رفض هذا الطلب، وإقامة الأدلة على وجود الإله القادر، وإنذار المشركين بأهوال يوم القيامة، وقصص موسى عليه السلام مع فرعون وما دار من الحوار بين فرعون وقومه والمؤمن الذي يكتم إيمانه، وأمر الرسول ﷺ بالصبر على أذى قومه كما صبر أولو العزم من الرسل، ووعده بالفتح والنصر كما نصر المرسلين من قبله، وتعداد نعم الله على عباده في الآفاق والأنفس والبر والبحر، وبيان سنة الله الدائمة في الأخذ الشديد بعد البيان والإمهال وعدم قبول الإيمان عند رؤية العذاب).[1]

ومن أهم موضوعاتها ومقاصدها الفرعية ما يلي:

١–بيان أن القرآن الكريم منزل من عند الله تعالى الموصوف بصفات الكمال الدالة على الترغيب والترهيب والجامعة بين الوعد والوعيد، ليكون في ذلك تنشيط للعقول والقلوب إلى قبول الحق والكف عن الباطل، وذلك في قوله تعالى: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٢ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ۝٣﴾غافر: ١–٣.

٢–بيان حقيقة الجدال وحال المجادلين في آيات الله، مع بيان العقوبة التي يستحقونها في الدنيا والآخرة، وذلك زجر وترهيب للكافرين لعلهم أن يرتدعوا عن باطلهم ويكفوا عن غيهم، وذلك في قوله تعالى: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝٤ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ۝٥ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۝٦﴾غافر: ٤–٦، وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ

١) انظر: تفسير المراغي (٢٤/١٠١–١٠٢). ومنهجيات الإصلاح والتغيير في سور (الزمر، غافر، فصلت) لمحمد أحمد يحيى (١/٨٦–٨٨).

كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ ٣٥﴾غافر: ٣٥، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ٥٦﴾غافر: ٥٦، وقوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصۡرَفُونَ ٦٩ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِٱلۡكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرۡسَلۡنَا بِهِۦ رُسُلَنَاۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ٧٠ إِذِ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسۡحَبُونَ ٧١ فِي ٱلۡحَمِيمِ ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ يُسۡجَرُونَ ٧٢﴾غافر: ٦٩-٧٢.

٣-بيان منزلة أهل الإيمان وما يصيبهم من الخير العظيم ومنه دعاء المقربين من الملائكة الكرام لهم ونصرتهم، وفي ذلك تثبيت للمؤمنين وترغيب إلى الحق والإيمان، وذلك في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ٧ رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٨ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ٩﴾غافر: ٧-٩.

٤-بيان أحوال الكافرين وقد نزلوا بساحة العقاب وحلّ بهم العذاب من مقتهم لأنفسهم على ما اقترفوا من الكفر واجترحوا من السيئات، ومقت الله لهم إذ كره لهم الكفر فاقتحموه، ورضي لهم الإسلام فرفضوه، وقد أراهم من آياته وأغدق عليهم من رزقه، وكان في هذا كفاية لإقبال القلوب السليمة على ربها، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوۡنَ لَمَقۡتُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُ مِن مَّقۡتِكُمۡ أَنفُسَكُمۡ إِذۡ تُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلۡإِيمَٰنِ فَتَكۡفُرُونَ ١٠ قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ وَأَحۡيَيۡتَنَا ٱثۡنَتَيۡنِ فَٱعۡتَرَفۡنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ مِّن سَبِيلٖ ١١ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡ وَإِن يُشۡرَكۡ بِهِۦ تُؤۡمِنُواْۚ فَٱلۡحُكۡمُ لِلَّهِ ٱلۡعَلِيِّ ٱلۡكَبِيرِ ١٢ هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزۡقٗاۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ١٣﴾ غافر: ١٠-١٣.

٥-بيان ووصف لمشاهد وأحوال من يوم القيامة، وإنذار وتذكير بأهوال يوم الآزفة، رغبة في هداية الناس قبل فوات الأوان وفصل القضاء، وذلك في قوله تعالى: ﴿فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوۡ كَرِهَ

ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾
يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا
كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ
كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ
يَقْضِى بِٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾ ﴾ غافر: ١٤-٢٠.

٦-دعوة الكافرين إلى الاعتبار بعاقبة من هلك من قبلهم بسبب كفرهم، إذ في ذلك غاية العِبرة لمن أراد أن يتذكر ويعتبر، وذلك في قوله تعالى: ﴿ ۞ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُوا۟ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٢﴾ ﴾ غافر: ٢١ - ٢٢، وقوله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾ غافر: ٨٢-٨٣.

٧-تسلية النبي ﷺ بذكر المكذبين من قبله وشيء من أحوالهم وما حلّ بهم، وبذكر قصة موسى عليه الصلاة والسلام مع فرعون وهامان وقارون، والتي دلّت على أنه رغم قوة المعجزات الحسية الظاهرة التي أعطيت لموسى عليه الصلاة والسلام إلا أنهم كذبوه ورموه بالسحر، فكانت العاقبة أن انتصر عليهم، وفي هذا بشارة للنبي ﷺ وللمؤمنين بأن العاقبة والنصرة لهم في الدنيا والآخرة كما حدث لموسى عليه الصلاة والسلام، مع البيان والتأكيد بأن الله ناصر رسله في الدنيا والآخرة، وذلك في قوله تعالى: ﴿ مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٤﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ ﴾ غافر: ٤-٥، وقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟

مَعَهُۥ وَٱسۡتَحۡيُواْ نِسَآءَهُمۡۚ وَمَا كَيۡدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ ذَرُونِيٓ أَقۡتُلۡ مُوسَىٰ وَلۡيَدۡعُ رَبَّهُۥٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذۡتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٖ لَّا يُؤۡمِنُ بِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ ﴿٢٧﴾﴾ غافر:٢٣-٢٧، وقوله تعالى: ﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ غافر:٤٥-٤٦، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوۡمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعۡذِرَتُهُمۡۖ وَلَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡهُدَىٰ وَأَوۡرَثۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدٗى وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٥٤﴾﴾ غافر:٥١-٥٤، وقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا مِّن قَبۡلِكَ مِنۡهُم مَّن قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ وَمِنۡهُم مَّن لَّمۡ نَقۡصُصۡ عَلَيۡكَۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأۡتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ قُضِيَ بِٱلۡحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ﴿٧٨﴾﴾ غافر:٧٨.

٨-بيان نموذج من الدعاة إلى الله تعالى بذكر قصة مؤمن آل فرعون الذي رغّب قومه في الإيمان ورهّبهم من الكفر والعصيان أو الإقدام على قتل نبي الرحمن، مع ما كان يمتلكه من صفات ومقومات الداعية الناجح من محبته الصادقة لقومه وإظهاره لتلك المحبة، ومن انتمائه إليهم وخوفه عليهم وإظهاره الشفقة عليهم، ومن صبره في دعوته وعدم يأسه من هداية قومه، ومن قوته في الحوار وتجنبه للمجادلة المشتتة للهدف وتركيزه على مقصوده الأعظم، وغير ذلك من سمات الداعية الناضج المتميز، وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ رَجُلٞ مُّؤۡمِنٞ مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَكۡتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقۡتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدۡ جَآءَكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمۡۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبٗا فَعَلَيۡهِ كَذِبُهُۥۖ وَإِن يَكُ صَادِقٗا يُصِبۡكُم بَعۡضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ كَذَّابٞ ﴿٢٨﴾﴾ غافر:٢٨، إلى قوله تعالى: ﴿ فَسَتَذۡكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمۡۚ وَأُفَوِّضُ أَمۡرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴿٤٤﴾﴾ غافر:٤٤.

٩-بيان مشهد آخر من مشاهد الكافرين وهم في النار، إذ تقوم مناظرة بين الأتباع الضعفاء والرؤساء المستكبرين وقد ضاقت حيلهم وضاعت قوتهم، في مشهد يكشف بجلاء عن معاني الألم والحسرة والندامة، لعلها تدعو أتباع المستكبرين إلى استنقاذ أنفسهم من ذل العبودية قبل اجتماع الذل والعذاب

عليهم أجمعين، وقبل أن يحيط بهم اليأس فلا يجدوا سبيلا إلا الاستغاثة بخزنة جهنم من أجل تخفيف يوم من العذاب لا أكثر، فلا يفيدهم ذلك شيئا بعد أن حكم الله بين العباد، وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٥٠﴾ ﴾غافر: ٤٧-٥٠.

١٠-بيان دلائل وجود الله عز وجل وآياته وحكمته وقدرته وقربه من عبيده واجابته لدعائهم ورحمته بهم، لتكون آيات بينات واضحات داعيات للإيمان لكل من كان له قلب حي أو ألقى السمع وهو شهيد، وذلك في قوله تعالى: ﴿ لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٥﴾ ۞ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٦﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾ ﴾غافر: ٥٧-٦٨، وقوله تعالى: ﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ

لِتَرْكَبُواْ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُواْ عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَيَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾﴾ غافر: ٧٩-٨١.

١١-بيان أن نصر النبي ﷺ والمؤمنين كائن لا محالة، وأن وعد الله حق لا خلف فيه، ولكن النصر يستلزم الصبر والاستغفار وذكر الله كثيرا، وفي ذلك تثبيت لقلوب المؤمنين وإشغال لجوارحهم في أسباب النصر والتمكين، وذلك في قوله تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٥٥﴾﴾ غافر: ٥٥، وقوله تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾﴾ غافر: ٧٧.

١٢-بيان أنّ الإيمان ينفع في زمن الإمهال، فإذا نزل العذاب فلا تنفع نفس إيمانها لم تكن آمنت من قبل، وفي ذلك استدعاء لسرعة القبول والتعجيل بالتوبة، وذلك في قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ غافر: ٨٤-٨٥.

المبحث الرابع: المناسبة بين اسم السورة وموضوعها الكلي

مرّ معنا أن سيد قطب يرى أن السورة تمثل الصراع والمعركة بين الحق والباطل، والإيمان والكفر، والصلاح والطغيان.[١]

ورأى غيره إضافة إلى ما سبق أنها تمثل الصراع العقلي بين الحق والباطل، فالسورة بها السند العقلي الذي يعتمده المسلمون في الدفاع عن عقيدتهم.[٢]

والذي رآه الباحث أن أعظم مقاصد هذه السورة وموضوعها الكلي ومحورها الأساسي هو:

ردع العدوان ودفعه عن الرسالة والرسول والمؤمنين ونصرتهم في خضم الصراع بين الحق والباطل في أشد مراحل الاستضعاف بالعهد المكي، وبأنه لما لم تكن المرحلة مرحلة جهاد بالسيف، كانت وسيلة الدفاع وردع العدوان هي المحاجّة العقلية القوية ودحض شبه المجادلين وتوعدهم وإنذارهم بشدة وتذكيرهم بهلاك الغابرين، يتخلل ذلك بعض آيات الترغيب استمالة لمن آثر الحق ورغب إليه، وتطمينا للمؤمنين وتثبيتا لهم، مع وعدهم بالنصر والتمكين.

وإن أكثر أسماء هذه السورة شهرة وأظهرها توقيفية لورودها في السنة -كما سبق بيانه- هو اسم (المؤمن)، وقد سميت بذلك لاشتمالها على قصة مؤمن آل فرعون، وهي المتضمنة لدلائل النبوة ودفع الشبه عنها، والنصائح المرغِّبة، والمواعظ المبيِّنة، والزواجر المخوِّفة والمحذِّرة، والسلامة عن الأعداء وهلاكهم دونه، وهي من أعظم مقاصد القرآن، وهي كما ترى مناسبة بجلاء لموضوع السورة الكلي كما بيّنته.

وكذلك من أشهر أسماء هذه السورة (غافر)، وتظهر مناسبتها كذلك لموضوع السورة الكلي -إضافة إلى انفراد السورة بهذه اللفظة- أن المؤمن يتحرّى رضاء الله وغفرانه عنه في الدفاع عن عقيدته والدعوة إليها، فيحتاج إلى تثبيت قلبه وفؤاده ليأتي بالحجج والبراهين بقوة، ويحاجج ويخاصم في سبيل رضاء الله تعالى وابتغاء غفرانه.

وقال البقاعي في ربطه بين دلالة أسماء السورة وبين مقصودها -وقد سبق ذكر كلامه هذا-: "مقصودها الاستدلال على آخر التي قبلها من تصنيف الناس في الآخرة إلى صنفين، وتوفية كل ما يستحقه على سبيل العدل، بأن الفاعل ذلك له العزة الكاملة والعلم الشامل، وقد بين ما يغضبه وما يرضيه غاية

---

١) انظر: في ظلال القرآن (٥/٣١٠٢).

٢) التفسير الموضوعي لسور القرآن لجامعة الشارقة، بإشراف د. مصطفى مسلم (٦/٥٢٨).

البيان على وجه الحكمة، فمن لم يسلم أمره كله إليه وجادل في آياته الدالة على القيامة أو غيرها بقوله أو فعله فإنه يخزيه فيعذبه ويرديه، وعلى ذلك دلت تسميتها بغافر، فإنه لا يقدر على غفران ما يشاء لمن يشاء إلا كامل العزة، ولا يعلم جميع الذنوب ليسمى غافراً لها إلا بالغ العلم، وكذا في جميع الأوصاف التي في الآية من المثاب والعقاب، وكذا الطول فإنه لا يقدر على التطول المطلق إلا من كان كذلك ، فإن من كان ناقص العزة فهو قابل لأن يمنعه من بعض التطولات مانع، ولن يكون ذلك إلا بنقصان العلم، وكذا الدلالة بتسميتها بالمؤمن فإن قصته تدل على هذا المقصد، ولا سيما أمر القيامة الذي هو جل المقصود والمدار الأعظم لمعرفة المعبود"[1].

---

١) انظر: مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور للبقاعي (٢/٤٣٥). ونظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي (١٧/١-٢).

المبحث الخامس: مناسبة فاتحة السورة لموضوعاتها

تفتتح السورة بقوله تعالى: ﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٣﴾﴾غافر: ١ - ٣.

ومناسبة هذه الآيات لموضوعات السورة يظهر فيما يلي:

١- ابتدأت بما يقتضي تحدي المعاندين في صدق القرآن كما اقتضاه الحرفان المقطعان في فاتحتها ﴿حمٓ﴾، ففي حرفي الهجاء رمز إلى عجزهم عن معارضته بعد أن تحداهم لذلك فلم يفعلوا.

٢- أن هذه السورة تنزيل من الله تعالى الموصوف بصفات الجلال وسمات العظمة ما فيه تعريض بدعوتهم إلى الإقلاع عما هم فيه، ليصير ذلك حاملا على التشمير عن ساق الجد عند الاستماع، وزجره عن التهاون والتواني فيه، فبين أن المنزِّل هو الله العزيز العليم، ومعناه أن هذا الكتاب تنزيل من القادر المطلق، الغني المطلق، العالم المطلق، ومن كان كذلك كان عالما بوجوه المصالح والمفاسد، وكانت أفعاله حكمة وصوابا منزهة عن القبيح والباطل، ومتى كان الأمر كذلك لزم أن يكون هذا التنزيل حقا وصوابا، وأنه تكفل بحفظه وظهوره إلى قيام الساعة، وذلك لا يتم إلا بكونه عزيزا لا يغلب وبكونه عليما لا يخفى عليه شيء، وكل هذا أدعى لقبول دعوته، وأخوف للكف عن مجادلته بالباطل ومحاربته، وفي هذا تهديد للمشركين وبشارة للمؤمنين.

٣- وصف تعالى نفسه بما يجمع الوعد والوعيد والترغيب والترهيب؛ لأن مطامع العقلاء محصورة في أمرين، هما جلب النفع ودفع الضر فقال: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٣﴾﴾: فالوعد والترغيب أصالة للمؤمنين تثبيتا لهم وربطا على قلوبهم، وهو كذلك أنفع ما يكون لاستمالة بعض المعرضين، فإنك إذا آيست أحدا من فضلك وعفوك فإنك حملته على اخراج أقصى ما لديه من طاقة لمحاربتك وجدالك وقتالك، أما إذا فتحت له باب الرجاء ورغّبته في الخير فإن بعض النفوس تجد طريقها إلى قبول الحق وكف الأذى.

والوعيد والترهيب أصالة للكافرين المعرضين زجرا لهم ودفعا لفورة عدوانهم وكسرا لطيش غرورهم، وفي تنكير ﴿شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ﴾ وإبهامه دلالة على فرط الشدة وأنه لا شيء أدهى منه وأمرّ لزيادة

الإنذار، وهو أيضا تثبيت للمؤمنين وحجز لهم عن اتباع الهوى والزيغ بعد الهدى، فتقوى بذلك قلوبهم على التمسك بالحق وبذل أقصى الجهد في الدفاع عنه.

٤- ونجد خاتمة الآية تؤكد لهذه المعاني بقوله: ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٣﴾ ﴾، فلا مهرب من حسابه ولا مفر من لقائه وإليه الأوبة والمعاد، وهذه الصفة مما يقوي الرغبة في الإقرار بعبوديته، لأنه بتقدير أن يكون موصوفا بصفات الفضل والكرم وكان واحدا لا شريك له، إلا أن القول بالحشر والنشر إن كان باطلا لم يكن الخوف الشديد حاصلا من عصيانه، أما لما كان القول بالحشر والقيامة حاصلا كان الخوف أشد والحذر أكمل، وفي هذا كفّ لأيدي الباطشين المتكبرين، وبسط لأيدي الحاملين للواء الحق المبين.[١]

٥- قال سيد قطب: "العزة، والعلم، وغفران الذنب، وقبول التوبة، وشدة العقاب، والفضل والإنعام، ووحدانية الألوهية، ووحدانية المرجع والمصير.. وكل موضوعات السورة تتعلق بهذه المعاني، التي جاءت في مطلع السورة، والتي سيقت في إيقاعات ثابتة الجرس، قوية التركيب، توحي بالاستقرار والثبات والرسوخ. والله سبحانه يُعرف نفسه لعباده بصفاته، ذات الأثر في حياتهم ووجودهم، ويلمس بها مشاعرهم وقلوبهم فيثير رجاءهم وطمعهم كما يثير خوفهم وخشيتهم، ويشعرهم بأنهم في قبضته لا مهرب لهم من تصريفه"[٢].

٦- قال سعيد حوّى: نلاحظ أن سورة غافر بدأت بذكر ستة أسماء لله عز وجل هي: العزيز، العليم، غافر الذنب، قابل التوب، شديد العقاب، ذو الطول، ومن تأمل السورة وجد مظهر اسم الله العزيز في سياقها، سواء في نصرة الرسل، أو في تعذيب الكافرين، أو في عقوبة من يجادل في آياته، كما يجد فيها مظهر اسم الله العليم في سياقها عامة، سواء في ذكر أدق خفايا النفس البشرية، أو في عرضها ما لا يعلمه إلا الله، كما يجد فيها مظهر اسم الله غافر الذنب، نرى ذلك عندما تحدثنا عن دعاء الملائكة لأهل الإيمان بالغفران، وكذلك قابل التوب ﴿ فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ ﴾ غافر: ٧، كما تجد مظهر اسم الله ذي الطول في إنعامه على المؤمنين وعلى الرسل، كما نجد فيها مظهر اسم الله شديد العقاب، في الكلام عن معاقبة المكذبين للرسل، فالسورة مجلى لأسماء الله تعالى التي ذكرت في بدايتها، وفي كون السور القرآنية

---

١) انظر: مفاتيح الغيب للفخر الرازي (٢٧/٤٨٣-٤٨٥). وروح المعاني للألوسي (١٢/٢٩٦). وفتح البيان في مقاصد القرآن لصديق حسن القنوجي (١٢/١٥٨). وفي ظلال القرآن لسيد قطب (٥/٣٠٦٩). والتحرير والتنوير لابن عاشور (٢٤/٧٧).

٢) في ظلال القرآن (٥/٣٠٦٩).

تظهر فيها آثار أسماء الله عز وجل، وتعرفنا على هذه الأسماء، فذلك وحده دليل على أن هذا القرآن من عند الله، فالكلام صفة المتكلم.

لقد جعل الله الكون مجلى لأسمائه، وجعل كتابه مجلى لأسمائه، فمن لم ير الله في الكون، ولم يره في القرآن فإنه أعمى، ومن شك أن هذا الكون ليس من خلق الله، أو شك أن هذا القرآن ليس كلام الله، فإنه أعمى.[1]

---

١) انظر: الأساس في التفسير (٤٩٩١/٩).

المبحث السادس: مناسبة فاتحة السورة لخاتمتها

إن الآية المحورية لأول سورة غافر هي قوله تعالى: ﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ٣ ﴾غافر:٣.

وفي خاتمة السورة نجد قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥ وَكَفَرۡنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشۡرِكِينَ ٨٤ فَلَمۡ يَكُ يَنفَعُهُمۡ إِيمَٰنُهُمۡ لَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَاۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ فِي عِبَادِهِۦۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٨٥ ﴾ غافر: ٨٤ – ٨٥ ، ففيها يذكر الله عز وجل أنهم لما رأوا بأسه قالوا: آمنا، وهذه في الآخرة، والإيمان في الآخرة لا ينفع؛ لأن الله عز وجل جاءهم في الحياة الدنيا بكل ما يؤدي إلى الإيمان والتوبة ومغفرة الذنوب وحذرهم من شديد العقاب، لكنهم أصروا على كفرهم فكان مصيرهم إلى النار، ولا تنفعهم يومئذ توبة ولا إيمان، ولا تدركهم مغفرة ولا رضوان، فهنالك خسر المبطلون.

وكذلك نجد في أول السورة قوله تعالى: ﴿ ۞أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُواْ هُمۡ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَءَاثَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٖ ٢١ ﴾غافر:٢١ ، وفي آخرها قوله تعالى: ﴿ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِنۡهُمۡ وَأَشَدَّ قُوَّةٗ وَءَاثَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٨٢ ﴾غافر:٨٢.

ونجد أيضا في أول السورة قوله تعالى: ﴿ فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ١٤ ﴾ غافر:١٤، وفي آخرها قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ٦٠ ﴾غافر:٦٠ ، وقوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلۡحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۗ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦٥ ﴾غافر:٦٥.[١]

يقول البقاعي: "قد التف آخرها بما بُيِّن من كمال العزة وتمام القدرة وشمول العلم، مما رتب من أسباب الهداية والإضلال والإشقاء والإسعاد والنجاة والإهلاك بأولها أي التفاف، واكتنفت البداية والنهاية بيان ذلك مع ما اشتمل عليه الوسط أيضا منه أعظم اكتناف، فسبحان من هذا إنزاله، وتبارك اسمه وجل جلاله"[٢].

---

١) انظر: التفسير الموضوعي لسور القرآن، مصطفى مسلم (٦/٥٢٩). ومراصد المطالع للسيوطي (١/٦٢-٦٣).

٢) نظم الدرر للبقاعي (١٧/١٣٣).

الباب الثاني

التناسق الموضوعي في سورة غافر دراسة تطبيقية

ويشتمل على ثلاثة فصول

الفصل الأول

صفات منزل القرآن، ومشاهد الفريقين والدارين

ويشمل الآيات (١-٢٠)، وفيه ستة مباحث

- **المبحث الأول:** صفات منزل القرآن، ويشمل الآيات (١-٣).
- **المبحث الثاني:** بيان حال المجادلين في آيات الله، ويشمل الآيات (٤-٦).
- **المبحث الثالث:** إعانة قوية للمؤمنين في تصديهم للمشركين، ويشمل الآيات (٧-٩).
- **المبحث الرابع:** مشاهد من مصير الكافرين وندمهم الشديد، ويشمل الآيات (١٠-١٢).
- **المبحث الخامس:** بيان دلائل قدرة الله تعالى ووحدانيته وصفاته العلى وآثارها، ويشمل الآيات (١٣-١٧).
- **المبحث السادس:** الإنذار المباشر للمشركين بسوء العاقبة في الآخرة، ويشمل الآيات (١٨-٢٠).

الفصل الثاني

الاعتبار بمصارع الغابرين، وجهاد الرسل والمؤمنين مع أقوامهم بالكلمة

ويشمل الآيات (٢٠- ٥٥)، وفيه خمسة مباحث

- **المبحث الأول:** إنذار المشركين بسوء العاقبة في الدنيا بالنظر إلى مصارع الغابرين، ويشمل الآيات (٢١-٢٢).
- **المبحث الثاني:** ذكر نموذج للاعتبار من قصص الغابرين الهالكين، ويشمل الآيات (٢٣-٢٧).
- **المبحث الثالث:** قصة مؤمن آل فرعون في دعوته ودفاعه عن الحق، ويشمل الآيات (٢٨-٤٦).
- **المبحث الرابع:** مشهد الخصام بين أهل النار، ويشمل الآيات (٤٧-٥٠).
- **المبحث الخامس:** وعد الله الحق بنصر الرسل والمؤمنين، ويشمل الآيات (٥١-٥٥).

الفصل الثالث

بيان أحوال المجادلين، وعرض دلائل التوحيد ، والوعد بنصر المؤمنين وخسران الكافرين

ويشمل الآيات (٥٦-٨٥)، وفيه ستة مباحث

- **المبحث الأول:** كشف بواعث المجادلين، وإثبات الحجة عليهم، ويشمل الآيات (٥٦-٥٩).
- **المبحث الثاني:** بيان طريق النجاة ودلائل ربوبيته تعالى وألوهيته، ويشمل الآيات (٦٠-٦٥).
- **المبحث الثالث:** لا مصالحة في الإشراك بالله، ولا مساومة في عبادة الله بعد أن توالت البينات، ويشمل الآيات (٦٦-٦٨).
- **المبحث الرابع:** التعجيب من انحراف المجادلين وبيان لجزائهم الأخروي، ويشمل الآيات (٦٩-٧٦).
- **المبحث الخامس:** الأمر بالصبر والتأكيد على النصر والاعتبار بمزيد من الآيات، ويشمل الآيات (٧٧-٨١).
- **المبحث السادس:** ختم السورة بوعيد المجادلين وتحذيرهم بحتمية انقضاء زمن الإمهال، ويشمل الآيات (٨٢-٨٥).

تمهيد

إن افتتاح السورة الكريمة وختمها بالكلام عن الكافرين، وما تكرر من ذكر مجادلتهم في آيات الله، وما جاء بينها من الكلام عن نصر الله تعالى لرسله وللمؤمنين، يشعر بأن محور السورة –كما بينت سابقا– هو معالجة قضية كبرى وهي الصراع بين الحق وأهله مع الباطل وأهله، من أجل ردع العدوان ودفعه عن الرسالة والرسول والمؤمنين ونصرتهم.

وبعد القراءة والتأمل في السورة الكريمة لإبراز موضوعاتها وبيان جمال تناسقها واتحاد نظمها، قسمتها إلى ثلاثة فصول رئيسية تحت كل منها عدة مباحث، مراعيا في ذلك التناسق والتناسب، حيث تتألف سورة غافر من ثلاثة مقاطع رئيسية أو أشواط[1] تتناسق كلها لخدمة موضوع السورة الأساسي.

فالفصل الأول: في صفات منزل القرآن، ومشاهد للفريقين والدارين.

والفصل الثاني: في الاعتبار بمصارع الغابرين، وجهاد الرسل والمؤمنين مع أقوامهم بالكلمة.

والفصل الثالث: في بيان أحوال المجادلين، وعرض دلائل التوحيد، والوعد بنصر المؤمنين وخسران الكافرين.

١) كما يسميها سيد قطب –رحمه الله تعالى–.

<u>الفصل الأول</u>: صفات منزل القرآن، ومشاهد للفريقين والدارين

ويشمل الآيات (١-٢٠)

قال تعالى: ﴿ حمٓ (١) تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ (٢) غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ
ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ (٣) مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي
ٱلۡبِلَٰدِ (٤) كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۖ وَهَمَّتۡ كُلُّ أُمَّةِۭ بِرَسُولِهِمۡ لِيَأۡخُذُوهُۖ
وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ فَأَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ (٥) وَكَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ
كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ (٦) ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ
لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ
(٧) رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ
أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ (٨) وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ
ٱلۡعَظِيمُ (٩) إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوۡنَ لَمَقۡتُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُ مِن مَّقۡتِكُمۡ أَنفُسَكُمۡ إِذۡ تُدۡعَوۡنَ إِلَى
ٱلۡإِيمَٰنِ فَتَكۡفُرُونَ (١٠) قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ وَأَحۡيَيۡتَنَا ٱثۡنَتَيۡنِ فَٱعۡتَرَفۡنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ مِّن
سَبِيلٖ (١١) ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡ وَإِن يُشۡرَكۡ بِهِۦ تُؤۡمِنُواْۚ فَٱلۡحُكۡمُ لِلَّهِ ٱلۡعَلِيِّ ٱلۡكَبِيرِ
(١٢) هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزۡقٗاۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ (١٣) فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ
مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ (١٤) رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلۡعَرۡشِ يُلۡقِي ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ
عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ (١٥) يَوۡمَ هُم بَٰرِزُونَۖ لَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنۡهُمۡ شَيۡءٞۚ لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ (١٦) ٱلۡيَوۡمَ
تُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۚ لَا ظُلۡمَ ٱلۡيَوۡمَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ (١٧) وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡأٓزِفَةِ إِذِ ٱلۡقُلُوبُ
لَدَى ٱلۡحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ حَمِيمٖ وَلَا شَفِيعٖ يُطَاعُ (١٨) يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ
(١٩) وَٱللَّهُ يَقۡضِي بِٱلۡحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقۡضُونَ بِشَيۡءٍۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ (٢٠) ﴾
غافر: ١-٢٠.

(صفات منزل القرآن، ومشاهد للفريقين والدارين) هو عنوان المقطع الأول لهذه السورة، والذي يستهل بالأحرف المقطعة وأسماء الله تعالى وصفاته المعبرة عن معاني السورة -فالسورة كلها تدلل على اتصاف الله عز وجل بهذه الأسماء والصفات وتجليها-، ومقررة بأن الوجود كله مسلم مستسلم لله، وأنه لا يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا فيشذون عن سائر الوجود بهذا الجدال، ومن ثم فهم لا يستحقون أن يأبه لهم رسول الله ﷺ مهما تقلبوا في الخير والمتاع، فإنما هم صائرون إلى ما صارت إليه أحزاب المكذبين قبلهم وقد أخذهم الله أخذا بعقاب يستحق العجب والإعجاب! ومع الأخذ في الدنيا فإن عذاب الآخرة ينتظرهم هناك، ذلك بينما حملة العرش ومن حوله يعلنون إيمانهم بربهم، ويتوجهون إليه بالعبادة، ويستغفرون للذين آمنوا من أهل الأرض، ويدعون لهم بالمغفرة والنعيم والفلاح، وفي الوقت ذاته عرض لمشهد الكافرين يوم القيامة وهم ينادَون من أرجاء الوجود المؤمن المسلم المستسلم أنّ مقت الله لكم اليوم أعظم من مقتكم لأنفسكم إذ أعرضتم عن الإيمان، وهم في موقف الذلة والانكسار بعد الاستكبار، يقرون بذنبهم، ويعترفون بربهم، فلا ينفعهم الاعتراف والإقرار، إنما يذكرون بما كان منهم من شرك واستكبار، ومن هذا الموقف بين يدي الله في الآخرة يعود بالناس إلى الله في الدنيا وهو يريهم آياته ويرزقهم من سمائه، ليذكرهم وليعرض أمامهم مظاهر أنعم الله عليهم، ليأخذ بأيدهم إلى طريق الإيمان، فينيبوا إلى ربهم ويوحدوه مخلصين له الدين، ويشير إلى الوحي والإنذار بذلك اليوم العصيب، ويستطرد إلى مشهدهم يوم القيامة وهم بارزون لا يخفى منهم شيء وقد توارى الجبارون والمتكبرون والمجادلون، ليصعقهم السؤال: ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ﴾ غافر:١٦، ويستمر عرض صور من هذا اليوم الذي يتفرد الله جل جلاله فيه بالحكم والأمر والقضاء، ويتوارى فيه ويضمحل ما يعبدون من دونه، كما يتوارى الطغاة والفجار، ويعرض كذلك صورا من مضمونات الغيب، كما يتعرض لقضية الإيمان، وقضية تنزيل الكتاب من الله عز وجل، وأنه فوق الريب والشكوك والتهم، فلا يجادل في هذا الشأن إلا معاند، وأوصلتنا إلى أن نفهم من السياق أن الكافرين يرفضون الإيمان والإنذار، كل هذا في المقطع الأول للسورة ليوصلنا إلى ما بعده، وهو الذي يقيم الله به الحجة على الكافرين، وينذرهم ويخوفه، حتى كأن الآيات هي مراحل متتالية في الترهيب، الآخرة منها أشد من الأولى، وبأساليب متنوعة، حتى تقوم الحجة الكاملة عليهم.[1]

وتفصيل هذه الصفات وهذه المشاهد تأتي في ستة مباحث.

---

١) انظر: في ظلال القرآن لسيد قطب (٣٠٦٦/٥-٣٠٦٧). والأساس في التفسير لسعيد حوّى (٤٩٤٢/٩). وأهداف كل سورة ومقاصدها لعبد الله شحاتة (٣٤٣/١-٣٤٤).

المبحث الأول: مصدر القرآن الكريم

ويشمل الآيات (١-٣)

قال تعالى: ﴿ حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٣﴾ ﴾.

المطلب الأول: مقدمة السورة، وعلاقتها بالمحور الأساس للسورة:

سورة مكية، يظهر عليها بجلاء الطابع المكي في الأسلوب والموضوعات والخصائص، افتتحت بحرفين مقطعين هما (الحاء، والميم)، وتبعهما ذكر (الكتاب) على طريقة القرآن الكريم في الغالب عند الاستهلال بالحروف المقطعة.

آياتها الثلاث الأول قدمت براعة استهلال للسورة الكريمة بأتم المعاني، فجمعت بين التحدي والإعجاز بالحروف المقطعة تحديا للمعاندين في صدق القرآن، ثم بالتنبيه القوي الواضح على حقانية وحجية الكتاب وبيان مصدره بأنه تنزيل من الله العزيز العليم، وما في هذين الصفتين من تعريض بدعوتهم إلى الإقلاع عما هم فيه من الكفر والتكذيب، ثم لخصت موضوع السورة كله في الآية الثالثة، ليبدأ التفصيل بعد ذلك في محاوره المتناسقة، "فكانت فاتحة السورة مثل ديباجة الخطبة مشيرة إلى الغرض من تنزيل هذه السورة"[١].

فأما براعة استهلالها بـ ﴿ حمٓ ﴾ فلأجل أن تحدث وقفة وإيقاظا لدي المتلقي لعلها تحمله على التفكر والتأمل أو تردعه عن الغي والطغيان.

وأما براعة استهلالها بذكر تنزيل الكتاب فلأجل أن تحمل عقل السامع وقلبه إلى التوجه الكامل إلى هذا البيان القادم في الكتاب المنزل فيحصل له من ذلك الإيمان أو الاعتبار.

وأما براعة استهلالها بصفات الله تعالى فلأجل الترغيب الكامل في باب الرجاء، مع الترهيب الكامل في باب الخوف لينتفع المخاطبون بما يناسب أحوالهم فيطمعون في مغفرة الله أو يفرون من عقاب الله.

---

١) التحرير والتنوير لابن عاشور (٧٧/٢٤).

قال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي (ت:١٣٩٣هـ): "جمع جل وعلا في هذه الآية الكريمة بين الترغيب والترهيب والوعد والوعيد؛ لأن مطامع العقلاء محصورة في أمرين، هما جلب النفع ودفع الضر"[١].

وبهذا البيان نجد أن موضوع المقدمة يدعم محور السورة الأساسي دعما شاملا عاما يحقق مقاصده، فإن نُصرة الحق وأهله في معركته مع الباطل وأهله وردع عدوانهم عنه يتأكد أولا بتأسيس أصول الأدلة، مع بسط الرجاء والأمل لطائفة تريد الإيمان والتوبة، والجزم بشدة العقوبة جزاءً وتخويفا لمن أصرّ على الكفر واستكبر؛ ليكون هذا وذاك سبيلا للإقبال على الحق رغبة في النفع، أو طريقا لكف أيدي المعتدين رهبة من الضر.

قال سيد قطب -وقد سبق-: "العزة، والعلم، وغفران الذنب، وقبول التوبة، وشدة العقاب، والفضل والإنعام، ووحدانية الألوهية، ووحدانية المرجع والمصير.. وكل موضوعات السورة تتعلق بهذه المعاني، التي جاءت في مطلع السورة، والتي سيقت في إيقاعات ثابتة الجرس، قوية التركيب، توحي بالاستقرار والثبات والرسوخ.

والله سبحانه يُعرف نفسه لعباده بصفاته، ذات الأثر في حياتهم ووجودهم، ويلمس بها مشاعرهم وقلوبهم فيثير رجاءهم وطمعهم كما يثير خوفهم وخشيتهم، ويشعرهم بأنهم في قبضته لا مهرب لهم من تصريفه"[٢].

---

١) أضواء البيان (٦/٣٧٢).

٢) في ظلال القرآن (٥/٣٠٦٩).

المطلب الثاني: التناسب بين الآيات والجمل والكلمات:

ذكر الله تعالى في مستهل هذه السورة بأن أداة التبليغ لدى النبي ﷺ هو هذا الكتاب المنزل عليه من الله، وتبليغه يشتمل على ركنين أساسين هما: البشارة والنذارة، ولما كان هدف السورة هو دفع الباطل وردع أهله بالحق والبرهان، ذكر الله تعالى من صفاته ما فيه تعريض بدعوتهم إلى الإقلاع عما هم فيه.

١) قوله تعالى: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾: إن "السور التي افتتحت بالحروف المقطّعة يذكر فيها دائِما عقب الحروف المقطّعة، الانتصار للقرآن وبيان إعجازه، وأنه الحق الذي لا شك فيه، وذكر ذلك بعدها دائما دليل استقرائي على أن الحروف المقطعة قصد بها إظهار إعجاز القرآن، وأنه حق"[١]، وهذا المعنى في غاية التناسق مع مقاصد هذه السورة وموضوعاتها.

٢) قوله تعالى: ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾: ذكر أن هذا التنزيل من عند الله تعالى الموصوف "بصفات الجلال وسمات العظمة ليصير ذلك حاملا على التشمير عن ساق الجد عند الاستماع وزجره عن التهاون والتواني فيه"[٢]، فهو العزيز الذي لا يُغلب ولا يُضام ويمضي حكمه على من شاء، وهو العليم بكل ما يدور من أحداث وما يدبّر من مكايد، ومطلع على ما تكنه السرائر وتخفيه الصدور، فيكون في هذا لجام لأهل الباطل عن تماديهم في مكرهم وجدالهم بالباطل، وناسب هذا العلم "دعوة الناس إلى التوبة، والإقبال على الله بنية خالصة"[٣]، فهذا الكتاب تنزيل وليس تأليف، وهو كتاب مسطور زيادة في الحفظ، وقوة في التحدي، فلما ذكر أن ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ وجب بيان أن المنزل من هو؟ فذكر أن المنزِّل هو الله، وأن هذا الكتاب منزل من عنده تعالى لا من عند أحد غيره، فهو قوة وحق بلا مراء لأنه من عند العزيز العليم.

أو هو لبيان أن الآيات والسور والقرآن إنما هي تنزيل الكتاب من الله تعالى.

وفي اختيار مادة النزول للكلام عن مصدر القرآن الكريم تشريف وتكريم لهذا الكتاب وبيان علو منزلته، فالنزول لا يكون إلا من علو.

١) أضواء البيان للشنقيطي (١٦٧/٢).
٢) مفاتيح الغيب للفخر الرازي (٤٨٣/٢٧).
٣) انظر: التفسير القرآني للقرآن لعبد الكريم الخطيب (١٢٠٤/١٢).

وفي اختيار التنزيل دون الإنزال إشارة إلى التكثير والتكرار والتدريج، فالقرآن نزل نجوما شيئا فشيئا.[١]

وفي وصف الله تعالى نفسه بالعزة والعلم، "إشارة إلى بسطة سلطانه على الوجود، وتمكّنه من كل موجود، مع إحاطة علمه بكل شيء، فيعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور"، وهذا "يحمل السامع على التشمير عن ساق الجد للاستماع ويزجره عن التهاون والتواني فيه"[٢].

قال الفخر الرازي: "قوله: ﴿مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ يرجع معناه إلى أن هذا الكتاب تنزيل من القادر المطلق، الغني المطلق، العالم المطلق، ومن كان كذلك كان عالما بوجوه المصالح والمفاسد، ... فكأنه سبحانه إنما ذكر عقيب قوله: ﴿تَنزِيلُ﴾ هذه الأسماء الثلاثة لكونها دالة على أن أفعاله سبحانه حكمة وصواب، ومتى كان الأمر كذلك لزم أن يكون هذا التنزيل حقا وصوابا، وقيل: الفائدة في ذكر العزيز العليم أمران أحدهما: أنه بقدرته وعلمه أنزل القرآن على هذا الحد الذي يتضمن المصالح والإعجاز، ولولا كونه عزيزا عليما لما صح ذلك. والثاني: أنه تكفل بحفظه وبعموم التكليف فيه وظهوره إلى حين انقطاع التكليف، وذلك لا يتم إلا بكونه عزيزا لا يغلب، وبكونه عليما لا يخفى عليه شيء"[٣].

٣) قوله تعالى: ﴿ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾:

أولاً: اسم الله ﴿ٱلۡعَزِيزِ﴾ إذا جاء مقترنا باسم آخر لله تعالى، فإنه يأتي متقدما عليه في سائر القرآن، إلا مع اسم الله "القوي" فإنه يأتي متقدما عليه في سائر القرآن.

ثانياً: أسماء الله تعالى وصفاته كلها حسنى، وهذه الأسماء قد تأتي مفردة فتدل على كمال بعينه، وقد تأتي مقترنة بغيرها من الأسماء فتدل على زيادة في الكمال والمعنى، فاقتران أحد الاسمين والوصفين بالآخر قدر زائد على مفرديهما.

قال الشيخ محمد العثيمين (ت:١٤٢١هـ): "إن كل اسم من أسماء الله تعالى يتضمن صفة من صفاته سبحانه، وكل صفة من صفاته صفة كمال، فإذا اقترنت صفة كمال بصفة كمال أخرى نشأ عن ذلك كمال آخر غير الكمال الذي يدل عليه الاسم الواحد والصفة الواحدة، ومثال ذلك (الغفور الرحيم)،

---

١) انظر: نزول القرآن الكريم والعناية به في عهد الرسول ﷺ لمحمد بن عبد الرحمن الشايع، منشور في المحور الأول من الجزء الأول من ندوة عناية المملكة العربية السعودية بالقرآن الكريم وعلومه (١/١٠٥-١١٢).

٢) حاشية محيي الدين شيخ زاده على البيضاوي (٢٨٨/٧).

٣) مفاتيح الغيب (٤٨٣/٢٧).

فالمغفرة صفة كمال، والرحمة صفة كمال آخر، واقتران مغفرته برحمته كمال ثالث، فيستحق سبحانه الثناء على مغفرته والثناء على رحمته والثناء على اجتماعهما، أضف إلى ما سبق أن اقتران الصفات الإلهية ببعضها كمال عظيم ينشأ منه خير وفضل يحتاجه ويفيد منه العباد، كاقتران الغنى بالكرم مثلاً في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾النمل: ٤٠، إذ من المعلوم أنه ليس كل غني كريماً، وليس كل كريم غنياً، وإنك لن تفيد من الغني إذا كان بخيلاً، ولا من الكريم إذا كان فقيراً، وليس هناك من غني كريم غناه تام وكرمه تام إلا الله تعالى، الأمر الذي يدفع بالعبد إلى الاعتماد عليه سبحانه وحده ورجائه دون غيره"[1].

ثالثا: دلالة اقتران الاسمين ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾:

أ- تكرر الجمع بين هذين الاسمين في القرآن الكريم ست مرات، وكان أغلبه في سياق ذكره سبحانه وتعالى للأجرام العلوية وبيان قدرته في تسيير الأجرام الفضائية والكواكب الدرية، وما تضمنته من خلق الأسباب وفلق الإصباح وجعل الليل سكنا وإجراء الشمس والقمر بحساب لا يعدوانه وتزيين السماء الدنيا بالنجوم وحراستها، كقوله تعالى: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾﴾الأنعام: ٩٦، وقوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾﴾يس: ٣٨، وقوله تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾﴾ فصلت: ١٢، وقوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾﴾الزخرف: ٩، فأفاد هذا الجمع بين هذين الاسمين وختم هذه الآيات بها: أن هذا التقدير المحكم والخلق المتقن صادر عن عزة الله وعلمه، أي عن كمال القدرة وكمال العلم، وليس أمرا اتفاقيا لا يمدح به فاعله ولا يثنى به عليه كسائر الأمور الاتفاقية، وذلك ليعلم الجميع أن كل شيء موجود إنما هو بقدرته وعلمه ومشيئته، وليس أمرا تلقائيا عفويا دون عزة وحكمة.[2]

ب- جُمع بين هذين الاسمين في سياق ذكر القرآن الكريم في موضعين:

---

١) المجلى في شرح القواعد المثلى لابن عثيمين (٥٢/١).

٢) انظر: مفاتيح الغيب للفخر الرازي (٧٩/١٣). ونظم الدرر للبقاعي (١٣٠/١٦). وفقه الأسماء الحسنى لعبد الرزاق البدر (٥٢/١).

-الموضع الأول: في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ ﴾النمل: ٧٦-٧٨، فأفاد صدور القضاء والحكم النافذ والعادل من الله بما "تضمنه القرآن واشتمل عليه من إثابة المحق وتعذيب المبطل ... ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ فلا يرد حكمه سبحانه وقضاؤه جل جلاله، ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بجميع الأشياء التي من جملتها ما يقضي به"[1] وهذا كالزجر للكفار.

-الموضع الآخر: هو في الآية التي معنا: ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ والتعرض لوصفي العزة والعلم هنا "لأجل أن المقام لإثبات الصدق وعداً ووعيداً"[2]، وللإيذان بظهور أثريهما في الكتاب بجريان أحكامه ونفاذ أوامره ونواهيه من غير مدافع ولا ممانع وبابتناء جميع ما فيه على أساس العلم الكامل الشامل المستلزم للحكمة البالغة الباهرة،[3] وفي هذا "تعريض بأن منكري تنزيل الكتاب منه مغلوبون مقهورون، وبأن الله يعلم ما تكنه نفوسهم فهو محاسبهم على ذلك، ورمز إلى أن القرآن كلام العزيز العليم فلا يقدر غير الله على مثله ولا يعلم غير الله أن يأتي بمثله ... وفي ذكرهما رمز إلى أن الله أعلم حيث يجعل رسالته، وأنه لا يجاري أهواء الناس فيمن يرشحونه لذلك من كبرائهم ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾الزخرف: ٣١"[4].

٤) قوله تعالى: ﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ ﴾: لما وصف الله تعالى نفسه بالعزة والعلم أردفه بوصف نفسه بما يجمع الوعد والوعيد والترغيب والترهيب، فذكر من صفاته بأنه غافر للذنب وقابل للتوب لمن آمن واستغفر وأناب وأقلع عن غيه وكفره، فجعل لهم بهذا بابا للأمل والرجاء، وأطمعهم في رحمته قبل فوات الأوان.

ثم أنذرهم بأنه شديد العقاب لمن عصى وأذنب وكفر، وقد جاء آكدُ الوعيدِ هنا على التكذيب بالقرآن بقرينة مجيئه بعد قوله تعالى: ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ﴾[5]، فبيّن لهم بهذا أنه مع سعة عفوه ومغفرته

---

١) روح المعاني للألوسي (١٠/٢٣٠).

٢) نظم الدرر للبقاعي (٣/١٧).

٣) انظر: إرشاد العقل السليم لأبي السعود (٧/٢٤٠).

٤) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور (٢٤/٧٩-٨٠).

٥) انظر: التحرير والتنوير لابن عاشور (٢٤/٨٠).

ورحمته إلا أن ذلك لا يمنعه من أخذ المكذبين الظالمين بالعدل أخذا شديدا، فجعل لهم بهذا سوطا يسوقهم للحق أو يوقفهم عند حدودهم فلا يتمادون في تكذيبهم وظلمهم.

ثم ذكر تعالى أنه ذو الطول قادر أن ينال عبيده حيث كانوا، فينال المجرم عقابه الشديد، أو يطول عليهم بالفضل فيخفف عنهم أو يترك عقابهم المستحق، وينال المحسن الإنعام والتفضل الجزيل، ذلك أنه تعالى هو الإله الحق الواحد لا إله غيره، فهو المالك والمدبر وإليه سبحانه مرجع الجميع بلا استثناء، فخُتمت الآية بالصدع بالتوحيد والبعث والحشر والحساب، وفي هذا دعوة للناس كافة إلى الإيمان بالله تعالى الحق، فجمعت هذه الآية على وجازتها خمسة أمور هي: الفضل والوعد والوعيد والتوحيد والجزاء، "وفي مجموع هذا الحثّ على فعل المراد من تنزيل الكتاب وهو التوحيد والإيمان بالبعث والإخلاص لله في العمل والإقبال عليه، وقد جمع القرآن هذين الوصفين في مواضع كثيرة منه كقوله: ﴿ ۞ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ ﴾الحجر:٤٩-٥٠، ليبقى العبد بين الرجاء والخوف"[١].

فتبين بهذا أنه في إتباع الوصفين العظيمين ﴿الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ بأوصاف ﴿ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ﴾ ترشيح لما سبق من التعريض "كأنه يقول: إن كنتم أذنبتم بالكفر بالقرآن فإن تدارك ذنبكم في مكنتكم لأن الله مقرر اتصافه بقبول التوبة وبغفران الذنب فكما غفر لمن تابوا من الأمم فقبل إيمانهم يغفر لمن يتوب منكم"[٢].

والواو في قوله ﴿ وَقَابِلِ التَّوْبِ ﴾ أفادت نكتة جليلة، فقد جمعت "للمذنب التائب بين رحمتين: بين أن يقبل توبته فيكتبها له طاعة من الطاعات، وأن يجعلها محاءة للذنوب كأن لم يذنب، كأنه قال: جامع المغفرة والقبول"[٣]، أو كأنه قال: "الجامع بين المغفرة إن كانت بدون توبة وبين القبول إن كانت بتوبة، فقد جمع للمذنب بين رحمتين بحسب الحالتين، وقيل: غافر الذنب الصغير وقابل التوب عن الكبير، أو غافر الذنب بإسقاط العقاب وقابل التوب بإيجاب الثواب"[٤].

---

١) تفسير المراغي لأحمد مصطفى (٤٢/٢٤).
٢) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور (٧٩/٢٤-٨٠).
٣) الكشاف للزمخشري (١٤٩/٤).
٤) غرائب القرآن للنيسابوري (٢١/٦).

"وتقديم غافر على قابل التوب -مع أنه مرتب عليه في الحصول- للاهتمام بتعجيل الإعلام به لمن استعد لتدارك أمره، فوصف ﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ ﴾ تعريض بالترغيب، وصفتا ﴿ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِى ٱلطَّوۡلِ﴾ تعريض بالترهيب"[1]، ليشير وصف شديد العقاب إلى التخويف بعذاب الآخرة، ويشير وصف ذي الطول إلى التخويف بعذاب الدنيا كقوله تعالى: ﴿ أَوۡ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدۡنَٰهُمۡ فَإِنَّا عَلَيۡهِم مُّقۡتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ الزخرف:٤٢،[2] أو أن صفة ﴿ ذِى ٱلطَّوۡلِ ﴾ عود إلى التعريض بالترغيب والتشويق إلى الفضل، فيكون قد أعقب الوعيد بوعد ثان، فترتب في الآية وعيد بين وعدين، وهكذا رحمة الله تغلب غضبه،[3] ومجموع هذه الصفات "للحث على المقصود من تَنْزِيلُ الْكِتابِ وهو المذكور بعدُ من التوحيد والإيمان بالبعث المستلزم للإيمان بما سواهما والإقبال على الله تعالى"[4] في قوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ذِى ٱلطَّوۡلِ﴾ بمعنى الفضل المطلق فيه فائدة أخرى، إذ يحصل بالإنعام بالثواب، كما يحصل بترك العقاب، إلا أن حمل الفضل هاهنا على ترك العقاب الذي لله أن يفعله عدلا له قرينة تدل عليه، وذلك بذكره بعد أن وصف الله نفسه بكونه شديد العقاب، ومن هذا نستفيد دلالة على أنه تعالى قد يترك العقاب الذي يحسن منه عدلا، ودلالة على جواز العفو عن أصحاب الكبائر من غير توبة.[5]

٥) قوله تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾: لما وصف الله نفسه بصفات العزة والعدل، والرحمة والفضل، فلو كان معه إله آخر يشاركه ويساويه في الصفات لما كانت الحاجة إلى عبوديته شديدة، أما إذا كان واحدا وليس له شريك ولا شبيه كانت الحاجة إلى الإقرار بعبوديته شديدة، فكان الترغيب والترهيب الكاملان يحصلان بسبب هذا التوحيد، وأتبع هذا بجملة ﴿إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ إنذارا بالبعث والجزاء.[6]

٦) قوله تعالى: ﴿إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾: وهي أيضا مما تقوي الرغبة في الإقرار بعبوديته، لأنه بتقدير أن يكون موصوفا بصفات القدرة والعزة والعدل، وصفات الرحمة والكرم والفضل، وكان واحدا لا شريك له، إلا أنه لم يكن هناك بعث ولا حشر ولا حساب، لم يكن الخوف الشديد حاصلا من عصيانه، أما لما كان

---

١) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور (٧٩/٢٤-٨٠).

٢) انظر: التحرير والتنوير لابن عاشور (٨١/٢٤).

٣) انظر: المحرر الوجيز لابن عطية (٥٤٦/٤).

٤) روح المعاني للألوسي (٢٩٦/١٢).

٥) انظر: مفاتيح الغيب للفخر الرازي (٤٨٥/٢٧).

٦) انظر: مفاتيح الغيب للفخر الرازي (٤٨٥/٢٧). والتحرير والتنوير لابن عاشور (٨١/٢٤).

القول بالحشر والقيامة والمصير بين يديه سبحانه حاصلا كان الخوف أشد والحذر أكمل،[١] "فكان حقيقا بأن يشعروا بأن المصير إما إلى ثوابه وإما إلى عقابه فليزنوا أنفسهم ليضعوها حيث يلوح من حالهم"[٢]، ولهذا السبب ذكر الله تعالى هذه الصفات الإلهية الستة، وقد جاءت متناسبة ومتناسقة مع بعضها ومع موضوع السورة الكريمة، وكانت خير تمهيد لما بعدها.

٧) وبهذا "اشتملت فاتحة هذه السورة على ما يشير إلى جوامع أغراضها ويناسب الخوض في تكذيب المشركين بالقرآن ويشير إلى أنهم قد اعتزوا بقوتهم ومكانتهم وأن ذلك زائل عنهم كما زال عن أمم أشد منهم، فاستوفت هذه الفاتحة كمال ما يطلب في فواتح الأغراض مما يسمى براعة المطلع أو براعة الاستهلال"[٣]، فاشتملت هذه الآيات العظيمة على ست صفات من صفات الله تعالى ملزمة للإقرار بربوبيته واستحقاقه للعبادة، فيها الوعد والوعيد والترغيب والترهيب وهي وحدها كافية للإيمان به تعالى وبما جاء عنه من كتاب ورسول لمن كان له قلب واع وآذان صاغية.[٤]

قال السعدي[٥]: "وجه المناسبة بذكر نزول القرآن من الله الموصوف بهذه الأوصاف أن هذه الأوصاف مستلزمة لجميع ما يشتمل عليه القرآن من المعاني.

فإن القرآن: إما إخبار عن أسماء الله، وصفاته، وأفعاله، وهذه أسماء، وأوصاف، وأفعال.

وإما إخبار عن الغيوب الماضية والمستقبلة، فهي من تعليم العليم لعباده.

وإما إخبار عن نعمه العظيمة، وآلائه الجسيمة، وما يوصل إلى ذلك من الأوامر، فذلك يدل عليه قوله: ﴿ذِى ٱلطَّوْلِ﴾.

وإما إخبار عن نقمه الشديدة، وعما يوجبها ويقتضيها من المعاصي، فذلك يدل عليه قوله: ﴿شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾.

---

١) انظر: مفاتيح الغيب للفخر الرازي (٤٨٥/٢٧).

٢) التحرير والتنوير لابن عاشور (٨١/٢٤).

٣) التحرير والتنوير لابن عاشور (٨١/٢٤).

٤) انظر: بيان المعاني لعبد القادر العاني (٥٦٧/٣).

٥) هو عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن ناصر بن حمد آل سعدي، عالم ومفسّر، ومحدث، فقيه، اصولي، متكلم واعظ، ولد في القصيم سنة ١٣٠٧هـ. وطلب العلم وجدّ فيه فحفظ القرآن الكريم والمتون، فاشتهر أمره وعلت منزلته وكثر تلاميذه، ترك عدة كتب نافعة، أكثرها في تفسير القرآن وعلومه، وكتبه قيّمة محققة تخلو من الدخيل والغرائب، أسلوبها سهل ميسر، توفي سنة ١٣٧٦هـ، -رحمه الله تعالى رحمة واسعة-. انظر: الأعلام للزركلي (٣٤٠/٣).

وإما دعوة للمذنبين إلى التوبة والإنابة والاستغفار، فذلك يدل عليه قوله: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ﴾.

وإما إخبار بأنه وحده المألوه المعبود، وإقامة الأدلة العقلية والنقلية على ذلك، والحث عليه، والنهي عن عبادة ما سوى الله، وإقامة الأدلة العقلية والنقلية على فسادها والترهيب منها، فذلك يدل عليه قوله تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

وإما إخبار عن حكمه الجزائي العدل، وثواب المحسنين، وعقاب العاصين، فهذا يدل عليه قوله: ﴿إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾. فهذا جميع ما يشتمل عليه القرآن من المطالب العاليات"[١].

١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان لعبد الرحمن السعدي (١/٧٣١).

المطلب الثالث: التفسير الإجمالي للآيات:

بحروف هجائية مقطعة ابتدأ الباري سبحانه وتعالى كلامه للمخاطبين ملفتا أنظارهم وأسماعهم بقوة إلى حقانية كلامه، وصِدقِ الرسول ﷺ في رسالته، فهذا الكتاب المنزل والمتلو عليهم سورا وآيات هو من عند ربهم وإلههم الواحد وهو العزيز المنيع عن غيره والقاهر لعبيده، العليم بكل شيء سبق أم لحق، أحصى علمه الحسنات والسيئات كلها، فكان للمذنبين غفورا، وكان للتائبين مجيبا، وهذا وعده لمن أحسن واستغفر وتاب وأناب، ومن أعرض وتجرأ وعصى وكفر فإنه لهم بالمرصاد بعقابه الشديد الأليم، وفي هذا تهديد للمشركين وبشارة للمؤمنين، وهو في ثوابه وعقابه ذو فضل وإنعام على الجميع، فيحسن في الجزاء بالمزيد، ويحسن في العقاب بالعدل أولا، وبالتخفيف أو العفو لمن شاء، فهو الإله الواحد الحق لا إله غيره فيجب الإقبال الكلي على طاعته في أوامره ونواهيه، فإليه يرجع الخلق والأمر كله ليجزي كلا من المطيع والعاصي.

المطلب الرابع: بيان ما ترشد إليه الآيات[1]:

١- بيان أن تنزيل القرآن هو من عند الله ذي العزة والعلم، فهو ليس منقولا ولا مصنوعا ولا مما يصحّ أن يكذّب به، وبذلك تقررت نبوة الرسول محمد ﷺ.

٢- بيان عظمة الرب تعالى المتجلية في أسمائه وصفاته، إذ وصف تعالى نفسه بستّ صفات تجمع بين الترغيب والترهيب، وتفتح باب الأمل للعصاة والكفار للمبادرة إلى ساحة الإيمان والتزام جادة الاستقامة على أمر الله ومنهجه، وهذا لطف من الله عز وجل بعباده حيث لم يغلق في وجوههم باب الإيمان والطاعة إن تركوه فترة من حياتهم ثم عادوا إليه تائبين.

٣- قد يعفو الله تعالى عن الذنوب الصغائر بتوبة أو بغير توبة، وقد يعفو عن الكبائر بعد التوبة، وإطلاق الآية ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ﴾ يدل على كونه غافرا للذنوب الكبائر قبل التوبة إذا شاء وأراد.

٤- قبول التوبة من الذنب يقع على سبيل التفضل والإحسان من الله وليس بواجب على الله، لأنه تعالى ذكر كونه قابلا للتوب على سبيل المدح والثناء، ولو كان ذلك من الواجبات لم يبق فيه من معنى المدح إلا القليل.

٥- في الآية إيماء بترجيح جانب الرحمة والفضل على جانب الغضب والعدل، لأنه تعالى لما أراد أن يصف نفسه بأنه شَدِيدُ الْعِقابِ ذكر قبله أمرين، كل واحد منهما يقتضي زوال العقاب، وهو كونه غافِرُ الذَّنْبِ وَقابِلُ التَّوْبِ، وذكر بعده ما يدلّ على حصول الرحمة العظيمة، وهو قوله: ﴿ذِى ٱلطَّوۡلِ﴾، فجاءت شديد العقاب صفة واحدة مغمورة بصفات الرحمة.

٦- إثبات وتقرير أعظم حقائق الوجود، وهي الإيمان بالله واليوم الآخر، فلا إله إلا الله وحده، وإليه المرجع والمآب يوم القيامة.

٧- توصيف الله تعالى بالوحدانية أفاد وجوب الإقبال الكلي على عبادة الله رغبا ورهبا، وبه صلاح الدنيا والآخرة.

***

---

١) انظر: أيسر التفاسير لأبي بكر الجزائري (٥١٥/٤). والتفسير المنير للزحيلي (٢٤/٧٧-٧٨).

المبحث الثاني: بيان حال المجادلين في آيات الله

ويشمل الآيات (٤-٦)

قال تعالى: ﴿ مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ٤ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۖ وَهَمَّتۡ كُلُّ أُمَّةِۭ بِرَسُولِهِمۡ لِيَأۡخُذُوهُۖ وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ فَأَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ ٥ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ ٦ ﴾.

المطلب الأول: ربط الموضوع بالمحور الأساس للسورة:

شرعت الآيات في تمكين الترهيب من قلوب الكافرين، ومن تمكين الإيمان والثبات عليه في قلوب المؤمنين، وكلا الأمرين وثيق الصلة بمحور السورة؛ إذ بترهيب الكافرين بالهلاك الدنيوي والعذاب الأخروي مع التعريض بأدلتهم الباطلة القائمة على الخصام والجدل يتلقى فريق الكافرين أول ضربة رادعة في معركتها مع الحق، وفي المقابل يتلقى فريق المؤمنين أول نُصرة لهم بتثبيتهم وبيان حقيقة حال ومآل عدوهم ليكون هذا دعوة لهم على المصابرة والمجالدة حتى يتحقق وعد الله لهم بأخذ عدوهم والتمكين لهم من بعدهم.

المطلب الثاني: التناسق بين هذا الموضوع وسابقه:

لمّا حقق الله تعالى في الآيات السابقة أمر التنزيل، وقدم الدعم الواضح لحجية آياته، ولخص من أسمائه وصفاته ما يرغب في الإيمان به، وما يخوّف من الكفر به، مع تقرير الوحدانية، وانتهاء بحتمية الوقوف بين يديه، ظهر الكون كله مسلما لله تعالى مؤمنا بهذه الحقائق والآيات، إلا فريقا واحدا من الناس شذ وانحرف من بين هذا الوجود الهائل، فشرعت الآيات في بيان حال الكافرين الذين ردّوا آيات الله وجادلوا فيها بالباطل بقصد إبطالها وإطفاء نورها وإخفاء أمرها، وقد بيّن الله تعالى في هذه الآيات قاعدة ثابتة وهي أن الذين يتصدون لنقاش آيات الله ومحاولة تكذيبها والتشكيك بها هم الكفار أصلا، والذين أغلقوا قلوبهم وعقولهم وأصموا آذانهم عن الحق، وهؤلاء وأمثالهم ليسوا بدعا في البشر، فإن جميع الرسل واجهوا هذا النوع من البشر، ولكن العبرة ليس بتنعمهم المؤقت بل بالنظر في عاقبتهم التي كانت الهلاك والخسران والعذاب في النار.[1]

ووجه آخر: أنه بعد اكتمال الترغيب بالعفو والترهيب بالأخذ، وكان الناس فريقان مؤمن وكافر، جاءت هذه الآية لبيان حال الكافرين متعلقة بقوله تعالى: ﴿ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ﴾ غافر:٣، فـ"الشدة على المكابرين الذين هم وحدهم الذين يجادلون في آيات الله"[2].

ووجه ثالث: أنه استئناف بياني نشأ من قوله تعالى: ﴿ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ٢ ﴾ غافر:٢، المقتضي أن كون القرآن منزلاً من عند الله أمرٌ لا ريب فيه كما تقدم، فينشأ في نفوس السامعين أن يقولوا: فما بال هؤلاء المجادلين في صدق نسبة القرآن إلى الله لم تقنعهم دلائل نزول القرآن من الله؟ فأجيب: بأنه ما يجادل في صدق القرآن إلا الذين كفروا بالله.[3]

ووجه رابع: أن الله تعالى هوّن على نبيه ﷺ من شأن الكافرين، وأخبره بأنهم أتفه من أن يغتر بهم فقال: ﴿ مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ٤ ﴾غافر:٤.[4]

---

١) انظر: مفاتيح الغيب للفخر الرازي (٤٨٥/٢٧). والتفسير الموضوعي لجامعة الشارقة بإشراف د. مصطفى مسلم (٥٣٢/٦).

٢) التفسير الحديث لدروزة (٣٥١/٤).

٣) انظر: التحرير والتنوير لابن عاشور (٨١/٢٤).

٤) انظر: التفسير الوسيط لمحمد سيد طنطاوي (٢٦١/١٢).

وقال سعيد حوّى: "إذا تذكرنا أن محور سورة غافر هو قوله تعالى من سورة البقرة: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ۝٧ ﴾البقرة:٦-٧، نعرف سرّ مجيء قوله تعالى: ﴿ مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ... ﴾ وأنّ هؤلاء المتصفين بهذه الصفة هم الذين لا يفلح معهم الإنذار. وقد فصّلت الآيات الأخيرة نوعي العذاب الذي يستحقه هؤلاء في الدنيا والآخرة"[1].

---

١) الأساس في التفسير (٩/٤٩٣٤-٤٩٣٥).

المطلب الثالث: أسباب النزول الواردة:

خلت هذه السورة الكريمة وآياتها من ذكر أسباب نزول صحيحة ومعتمدة، وإنما روي في بعض آياتها أسباب نزول الراجح أنها كلها لم تثبت أو أنها ضعيفة، وقد رُوي في هذه الآية ﴿ مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ أنها نزلت في معينٍ من الناس، فقد روى ابن أبي حاتم عن أبي مالك رضي الله عنه أنها نزلت في الحارث بن قيس السلمي، وقيل: السهمي وهو أصح[1]، وكان أحد المستهزئين، وكثيرا ما كان يحاول رد دعوى المؤمنين، وقد نزلت فيه أكثر من آية إن صحت تلك الروايات الواردة في أسباب النزول، منها قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرۡهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾المؤمنون:١١٧، وقوله تعالى: ﴿ أَمۡ لَهُمۡ ءَالِهَةٞ ... ﴾الأنبياء: ٤٣، وقوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ ﴾الجاثية:٢٣، وقوله تعالى: ﴿ لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾ ﴾ الكافرون:٦،[2] وذُكر في بعض التفاسير عند قوله تعالى: ﴿ إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ﴾الحجر: ٩٥، أن جبريل عليه السلام لما أشتد استهزاء المشركين برسول الله ﷺ نزل فجعل يسأل الرسول ﷺ عن هؤلاء المستهزئين واحدا واحدا –وكانوا سبعة–، فيجيبه الرسول ﷺ بأنه بئس عبدالله هذا، فيضربه جبريل عليه السلام فيموت، ومنه أنه مرّ به الحارث بن قيس بن عمرو بن ربيعة بن سهم، فقال جبريل عليه السلام: كيف تجد هذا؟ فقال النبي ﷺ: ((بئس عبد الله هذا))، فأهوى جبريل عليه السلام إلى رأسه، فانتفخ رأسه فمات منها[3].

وإن صحت هذه الرواية فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فتكون الآية عامة تشمل الحارث بن قيس، والذين معه في الرواية، وتشمل غيرهم ممن هم على شاكلته.

---

١) تفسير ابن أبي حاتم، برقم "١٨٤٢١" (٣٢٦٤/١٠). وهو الحارث بن قيس بن عمرو بن ربيعة بن سهم. انظر: تفسير مقاتل بن سليمان (٧٠٥/٣). وقيل: هو الحارث بن قيس بن عدي بن سعد بن سهم. انظر: الطبقات، متمم الصحابة لابن سعد (٣٨٩/١). وقيل: هو الحارث بن قيس بن عدى السهمي، وهو صاحب الأوثان، وآخر من تولى الأموال المحجرة، وهي الأموال التي كانوا يسمونها لآلهتهم المزعومة من نقد وحلي، وكان إذا مر بحجر أحسن من الذي عنده أخذه وألقى الذي عنده، وسبب موته أنه أكل حوتا مالحا فأخذه العطش فلم يزل يشرب الماء حتى قدّ –وجع في البطن– فمات وهو يقول: قتلني رب محمد. انظر: المحبر لأبي جعفر البغدادي (١/١٥٨–١٥٩). والمنمق في أخبار قريش لأبي جعفر البغدادي (١/٣٨٦–٣٨٧). والتحرير والتنوير لابن عاشور (١٤٥/١٠). وتاريخ العرب القديم لتوفيق برو (١٨٣/١).

٢) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان (٨١/٣، ١٦٨، ٢٣٥، ٨٣٩). والكشف والبيان للثعلبي (٣١٥/١٠).

٣) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان (٤٣٨/٢–٤٤٠).

وقيل في قوله تعالى: ﴿فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي ٱلْبِلَـٰدِ﴾ إن أصحاب رسول الله ﷺ قالوا متوجعين: نحن فقراء وفي جهد، والكفار مياسير ذو أموال وسعة، فأنزل الله تعالى هذه الآية[١].

ويبعد أن يكون شطر الآية الأول نزل في شخص وأمر، والشطر الآخر نزل في أشخاص آخرين وأمر آخر، فكل هذا مما يضعف أسباب النزول المذكورة مع انعدام السند، والله تعالى أعلم.

١) انظر: تفسير السمعاني (٦/٥). وتفسير القرآن للعز بن عبد السلام (١٠٩/٣). والتفسير الموضوعي لجامعة الشارقة بإشراف د. مصطفى مسلم (٥٣٣/٦).

المطلب الرابع: التناسب بين الآيات والجمل والكلمات:

بعد الخطوة الأولى والأساسية في بيان الحق والدفاع عنه في جو المعركة القائمة على أشدها بين الحق والباطل كما في الآيات السابقة، جاءت الخطوة الثانية لبيان أن الجدال الشديد الحاصل تجاه آيات الله لا مستند له من دليل ولا برهان، ولا معتمد له من حوار ولا رأي ولا عقل، إنما هو فعل من شذ وكفر بإصرار وعناد، ومثل هذا الفعل لا يضر آيات الله الواضحات ودلائل الحق الظاهرات بشيء.

١) قوله تعالى: ﴿ مَا يُجَٰدِلُ ﴾: تسجيل على المجادلين في آيات الله بالكفر.

والجدال نوعان: جدال في تقرير الحق، وجدال في تقرير الباطل، أما الجدال في تقرير الحق لإيضاح ملتبسه، وحل مشكله، ومقادحة أهل العلم في استنباط معانيه، ورد أهل الزيغ به وعنه، فهو محمود، وهو أعظم جهاد في سبيل الله، وفيه ثواب جزيل، وهو حرفة الأنبياء عليهم السلام، قال تعالى لرسوله محمد ﷺ: ﴿ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ النحل:١٢٥، وقال حكاية عن الكفار أنهم قالوا لنوح عليه السلام: ﴿ قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا ﴾ هود:٣٢.

وأما الجدال في تقرير الباطل فهو المذموم، وهو المراد بهذه الآية حيث قال تعالى: ﴿ مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾، وقال: ﴿ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ الزخرف:٥٨، وقال تعالى: ﴿ وَجَٰدَلُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ ﴾، وقال ﷺ: ((جدال –وفي رواية: مراء– في القرآن كفر))[١]، وفي ذكر الجدال منكرا إيماء بالتنويع فأشعر أن نوعاً من الجدال كفر وضلال ونوعاً آخر ليس كذلك.[٢]

٢) قوله تعالى: ﴿ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾: المراد بالمجادلة هنا –كما سبق– هو المجادلة بالباطل "بقرينة السياق، فمعنى ﴿ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ في صدق آيات الله، بقرينة قوله تعالى: ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ

---

١) مسند الإمام أحمد من حديث أبي هريرة رضي الله عنه برقم "٧٥٠٨" (٤٧٦/١٢)، وبرقم "١٠١٤٣" (١٣٣/١٦).
وهو حديث صحيح، صححه الألباني –وغيره–، انظر: صحيح الجامع الصغير وزياداته للألباني برقم "٣١٠٦" (٥٩٦/١).

٢) انظر: الكشاف للزمخشري (١٥٠/٤). ومفاتيح الغيب للفخر الرازي (٤٨٥/٢٧–٤٨٦). والجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٢٩٢/١٥). وروح المعاني للألوسي (٢٩٧/١٢).

﴿ٱلْعَلِيمِ ۝٢﴾ غافر:٢، فتعين تقدير مضاف دلّ عليه المقام، كما دَلّ قوله تعالى عن إبراهيم عليه السلام: ﴿يُجَٰدِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ۝٧٤﴾ هود:٧٤، على تقدير: في إهلاك قوم لوط"[١].

و"لتعلق ﴿فِيٓ﴾ الظرفية بالجدال، ولدخوله على نفس الآيات دون أحوالها في قوله: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ موقعٌ عظيم من البلاغة؛ لأن الظرفية تحْوِي جميعَ أصناف الجدال، وجُعل مجرورُ الحرف نفسَ الآيات دون تعيين نحو صدقِها أو وقوعها أو صنفه، فكان قوله: ﴿فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ جامعاً للجدل بأنواعه، ولمتعلِّق الجدل باختلاف أحواله، والمعنى: ما يجادل في آيات الله أنها من عند الله، فإن القرآن تحدّاهم أن يأتوا بمثله فعجزوا، وإنما هو تلفيق وتستر عن عجزهم عن ذلك واعتصام بالمكابرة، فمجادلتهم بعد ما تقدم من التحدّي دالة على تمكن الكفر منهم، وأنهم معاندون، وبذلك حصل المقصود من فائدة هذا، وإلاّ فكونهم كفاراً معلوم"[٢].

و"إظهار اسم الجلالة في قوله: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ دون أن يقول: في آياته، لتفظيع أمرها بالصريح؛ لأن ذكر اسم الجلالة مؤذن بتفظيع جدالهم وكفرهم وللتصريح بزيادة التنويه بالقرآن"[٣].

٣) قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾: لما نفى الله تعالى وقوع الجدال في آيات الله لكون ذلك واقع الأسوياء من البشر، أردفه بيان حال الشواذ من البشر وهم الذين يكفرون بآيات الله، فالنفي والاستثناء يفيد الحصر والاختصاص، فإنه ما يدفع الحق ويجادل فيه بعد البيان وظهور البرهان إلا الكافرون، أما غيرهم فإنهم يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وأهل الإيمان لا يخطر ببالهم شائبة شبهة منها فضلا عن الطعن فيها، بل كانوا يفرحون بآيات الله ونزولها "ويزدادون بذلك إيمانًا؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ۖ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ﴾ الرعد:٣٦، وكقوله: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ الأنفال:٢، ونحو ذلك من الآيات، كانوا يستسلمون لها ويقبلونها، ويستقبلون لها بالتعظيم والتبجيل"[٤]، "وإذ قد كان كفر المكذبين بالقرآن أمراً معلوماً، كان الإخبار عنهم بأنهم كافرون غير مقصود

---

١) التحرير والتنوير لابن عاشور (٢٤/٨٢).

٢) التحرير والتنوير لابن عاشور (٢٤/٨٢-٨٣).

٣) التحرير والتنوير لابن عاشور (٢٤/٨٣).

٤) تأويلات أهل السنة للماتريدي (٩/٤). وانظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٧/١٢٩). وإرشاد العقل السليم لأبي السعود (٧/٢٦٦). والجدول في إعراب القرآن لمحمود صافي (٢٤/٢٢٠).

منه إفادة اتصافهم بالكفر، فتعين أن يكون الخبر غير مستعمل في فائدة الخبر لا بمنطوقه ولا بمفهومه، فإن مفهوم الحصر وهو: أن الذين آمنوا لا يجادلون في آيات الله كذلك أمر معلوم مقرر، فيجوز أن يجعل المراد بالذين كفروا: نفس المجادلين في آيات الله، وأن المراد بكفرهم كفرهم بوحدانية الله بسبب إشراكهم، فالمعنى: لا عجب في جدالهم بآيات الله فإنهم أتوا بما هو أعظم وهو الإشراك، على طريقة قوله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَـٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾النساء:١٥٣.

ويجوز أن يجعل المراد بالذين كفروا: جميع الكافرين بالله من السابقين والحاضرين، أي ما الجدل في آيات الله إلا من شأن أهل الكفر والإشراك، ومجادلة مشركي مكة شعبة من شعب مجادلة كل الكافرين، فيكون استدلالاً بالأعمّ على الخاص، وعلى كلا الوجهين تُرك عطف هذه الجملة على التي قبلها"[1].

٤) "في قوله تعالى: ﴿ فِىٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ ﴾ دون فيه بالضمير العائد إلى ﴿ ٱلْكِتَـٰبِ ﴾غافر:٢، دلالة على أن كل آية منه يكفي كفراً لمجادله فكيف بمن ينكره كله ويقول فيه ما يقول؟!، وفيه: أن كل آية منه آية أنه من الله تعالى الموصوف بتلك الصفات فيدل على شدة شكيمة المجادلة في الكفر وأنه جدال في الواضح الذي لا خفاء به، ومما ذُكر يظهر اتصال هذه الآية بما قبلها وارتباط قوله تعالى: ﴿ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴾ بها، أي: إذا علمت أن هؤلاء شديدو الشكائم في الكفر قد خسروا الدنيا والآخرة حيث جادلوا في آيات الله العزيز العليم وأصروا على ذلك فلا تلتفت لاستدراجهم بتوسعة الرزق عليهم وإمهالهم فإن عاقبتهم الهلاك كما فعل بمن قبلهم من أمثالهم مما أشير إليه بقوله سبحانه: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ ... ﴾"[2] الآية.

٥) قوله تعالى: ﴿ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴾: لما تبيّن أن الجدال في آيات الله فعل من شذّ عن الفطرة وكفر بالحق، أردفه ببيان أنه لم يتبقى مع أعداء الله وأعداء رسوله والمؤمنين من الحجة والبرهان شيئ إلا السطوة الظاهرية والسعة المالية والمراكز الاجتماعية، فقال تعالى مهونا على نبيه ومثبتا له وللمؤمنين: ﴿ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴾؛ لأنه مؤقت وزائل عنهم؛ ولأنه –وهو الأهم- ليس دليلا على أنهم على

---

١) التحرير والتنوير لابن عاشور (٢٤/٨٢).

٢) روح المعاني للألوسي (١٢/٢٩٧-٢٩٨).

شيء من الحق، بل هو مجرد إمهال واستدراج والعاقبة ستكون الهلاك، فالفاء سببية أي: لا يكن تقلبهم في بلاد الله متنعمين بالأموال والأرزاق سببا لاغترارك بهم، فتظن بهم ظنا حسنا؛ لأن ذلك التنعم تنعم استدراج، وهو زائل عن قريب، وهم صائرون إلى الهلاك والعذاب الدائم،[1] فـ"فُرّع قوله: ﴿ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي ٱلْبِلَـٰدِ ﴾ على مضمون ﴿ مَا يُجَـٰدِلُ فِيٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ لما علمت من أن مقتضى تلك الجملة أن المجادلين في آيات الله هم أهل الكفر، وذلك من شأنه أن يثير في نفس من يراهم في متعة ونعمة أن يتساءل في نفسه: كيف يتركهم الله على ذلك؟! ويظنَّ أنهم أمنوا من عذاب الله، ففرّع عليه الجواب ﴿ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي ٱلْبِلَـٰدِ ﴾ أي إنما هو استدراج ومقدار من حلم الله ورحمته بهم وقتاً مَّا، أو أن معناه: نحن نعلم أنهم يجادلون في آياتنا إصراراً على الكفر فلا يوهمْك تقلبهم في البلاد أنّا لا نؤاخذهم بذلك"[2]، أو أن الأمن والسعة ليس بدليل على كون صاحبه على الحق، ولا الضيق والشدة بدليل على كون صاحبه على الباطل، ولكنها محنة: امتحنهم مرة بالسعة والأمن، ومرة بالضيق والخوف؛ دليل ذلك: وجود الحالين جميعًا في كل فريق مع اختلاف مذاهبهم، وتضاد أقاويلهم،[3] وفي هذا تسلية له ﷺ ومن معه من المؤمنين، ووعيد للكافرين مهما كان ظاهر الحال.

والمخاطب بالنهي في قوله: ﴿ فَلَا يَغْرُرْكَ ﴾ يجوز أن يكون غيرَ معين فيعم كل مَن شأنه أن يغره تقلب الذين كفروا في البلاد، وعلى هذا يكون النهي جارياً على حقيقةِ بابه، أي موجهاً إلى من يتوقع منه الغرور. ويجوز أن يكون الخطاب موجهاً للنبي ﷺ والمراد به أمته، فمعلوم أنه ﷺ لا يغره تقلبهم في البلاد. أو أن يكون ﴿ يَغْرُرْكَ ﴾ بمعنى يحزنك ويهمّك، فيكون المخاطَبُ رسول الله ﷺ، أو أن تكون صيغة النهي تمثيلية بتمثيل حال النبي ﷺ في شدة حزنه وهمّه على دوام كفرهم ومعاودةِ أذاهم بحال من استبطأ عقاب الكافرين وغرّهُ تقلبهم في البلاد سالمين.[4] ويحتمل أن يكون ﴿ يَغْرُرْكَ ﴾ بمعنى تظن أن وراء تقلبهم وإمهالهم خيرا لهم فتقول: عسى أن لا يعذبوا.[5] ويحتمل أن يكون المراد من الخطاب أهل مكة، أي: لا يغررهم تقلبهم في البلاد وأمنهم وسعتهم بعد ما نزل بأهل الآفاق والنواحي ما نزل أنهم على الحق، وأن ذلك إنما

---

١) انظر: أضواء البيان للأمين الشنقيطي (٦/٣٧٣-٣٧٤).

٢) التحرير والتنوير لابن عاشور (٢٤/٨٣).

٣) تأويلات أهل السنة للماتريدي (٩/٤-٥).

٤) انظر: المحرر الوجيز لابن عطية (٤/٥٤٦-٥٤٧). ومفاتيح الغيب للفخر الرازي (٢٧/٤٨٦). والجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٥/٢٩٢). والتسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي (٢/٢٢٧). والتحرير والتنوير لابن عاشور (٢٤/-٨٣-٨٤).

٥) انظر: المحرر الوجيز لابن عطية (٤/٥٤٧).

يدفع عنهم لمكانهم، وإنما يدفع ذلك عنهم، ويكونون على أمن؛ لمكان كونهم بقرب من البيت؛ لحرمته وشرفه،[1] وما سبق أظهر، والله تعالى أعلم.

قال سيد قطب: "﴿ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي ٱلْبِلَـٰدِ ﴾ .. فمهما تقلبوا، وتحركوا، وملكوا، واستمتعوا، فهم إلى اندحار وهلاك وبوار، ونهاية المعركة معروفة، إن كان ثمت معركة يمكن أن تقوم بين قوة الوجود وخالقه، وقوة هؤلاء الضعاف المساكين! ولقد سبقتهم أقوام وأحزاب على شاكلتهم، توحي عاقبتهم بعاقبة كل من يقف في وجه القوة الطاحنة العارمة التي يتعرض لها من يعرض نفسه لبأس الله: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَـٰدَلُوا۟ بِٱلْبَـٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ۝٥ ﴾"[2].

٦) قوله تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ ﴾: بعد أن بيّن الله تعالى لنبيه ﷺ أن حال الكافرين لا يرقى إلى الانخداع ببريق الدنيا الظاهر، بيّن له بيان تسلية وتثبيت أن فعل قومه ومن حوله من التكذيب والجدال في آيات الله بالباطل هو ديدن الكافرين منذ فجر التاريخ من قوم نوح عليه السلام، وعبر الأجيال المتعاقبة من الأقوام اللاحقة، وأنهم لم يكتفوا بالتكذيب، ولم يقنعوا باللدد في الخصومة لإزالة الحق ودحضه، بل تمادوا حتى عزم كل قوم بإيذاء رسوله جسديا ليتمكنوا منه أسرا وقتلا فيقضوا على الرسول ورسالته بالكلية، ولكنهم لم يتمكنوا من شيء من ذلك، بل أوقع الله بهم عذابه وعقابه الشديد.

وكذلك لما كان جدال الكفار ناشئا عن تكذيب ما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام أخبر الله تعالى بأخبار المكذبين الغابرين مخوفا الكافرين المكذبين المعاصرين ليحذروا ويرتدعوا، ومسليا رسوله مرة أخرى على تكذيب من كذبه من قومه، بأن له أسوة في سلفه الأنبياء، فإن أقوامهم كذبوهم وما آمن منهم إلا قليل، فجملة ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ ﴾ وما بعدها بيان لجملة ﴿ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي ٱلْبِلَـٰدِ ﴾ باعتبار التفريع الواقع عقب هاته الجمل من قوله: ﴿فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾، فالمعنى: سبقتهم أمم بتكذيب الرسل كما كذبوك، وجادلوا بالباطل رسلهم كما جادلك هؤلاء، فأخذتهم فكيف رأيت عقابي إياهم؟! فكذلك مَثَلُ هؤلاء في إمهالهم إلى أن آخذهم، فلما نهى عن الاغترار بحالهم، علله بما يحقق معنى النهي من أن التقلب وما يثمره لا يصح أن يكون معتمداً ليزهد فيه كل من سمع هاتين الآيتين، فقال

---

١) انظر: تأويلات أهل السنة للماتريدي (٥/٩).

٢) في ظلال القرآن (٥/٣٠٦٩).

مشيراً بتأنيث الفعل إلى ضعفهم عن المقاومة، وتلاشيهم عند المصادمة، وإن كانوا في غاية القوة بالنسبة إلى أبناء جنسهم: ﴿كَذَّبَتْ﴾.[1] وقال النحاس: "﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾على تأنيث الجماعة، أي كذّبت الرسل"[2].

"ولما كان تكذيبهم عظيماً وكان زمانه قديماً وما قبله من الزمان قليلاً بالنسبة إلى ما بعده وطال البلاء بهم، جعل مستغرقاً بجميع الزمان، فقال من غير خافض: ﴿قَبْلَهُمْ﴾"[3].

"ولما كان الناس على زمن نوح عليه السلام حزباً واحداً مجتمعين على أمر واحد ولسان جامع، ويدينون بعبادة الأصنام: يغوث، ويعوق، ونسر، وودَ، وسُواع، وحدّهم فقال: ﴿قَوْمُ نُوحٍ﴾ أي وقد كانوا في غاية القوة والقدرة على القيام بما يحاولونه وكانوا حزباً واحداً لم يفرقهم شيء"[4]، وبدأ بقوم نوح؛ لأنه عليه الصلاة والسلام أول رسول في الأرض، أو لأنهم أول قوم كذبوا رسولهم بعد أن مكث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما، وعتوا عتواً شديداً، ولم يزدهم دعاؤه لهم إلا نفورا وفرارا.[5]

٧) قوله تعالى: ﴿وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾: لما كان الناس من بعد قوم نوح عليه السلام قد كثروا وفرقهم اختلاف الألسنة والأديان، وكان للإجمال من الروعة في بعض المواطن ما ليس للتفصيل قال: ﴿وَالْأَحْزَابُ﴾ أي الأمم المتفرقة الذين لا يحصون عدداً، ودل على قرب زمان الكفر من الإنجاء من الغرق بقوله: ﴿مِنْ بَعْدِهِمْ﴾،[6] والحِزْب: اسم للجماعة الذين هم سواء في شأن من اعتقادٍ أو عمل أو عادةٍ، والمراد بهم هنا الأمم الذين كانت كل أمة منهم متفقة في الدين، فكل أمة منهم حزب فيما اتفقت عليه، وكذلك كانت كل أمة من الأمم التي كذبت الرسل حزباً متفقين في الدين، فعادٌ حزب، وثمود حزب، وأصحاب الأيكة حزب، وقوم فرعون حزب، والمعنى: أنهم جميعاً اشتركوا في تكذيب الرسل وإن تخالف بعض الأمم مع بعضها في الأديان.[7]

---

١) انظر: بحر العلوم للسمرقندي (١٩٨/٣). ونظم الدرر للبقاعي (٨/١٧). وتفسير المراغي (٤٥/٢٤).

٢) إعراب القرآن (٢٠/٤).

٣) نظم الدرر للبقاعي (٨/١٧).

٤) نظم الدرر للبقاعي (٨/١٧-٩).

٥) انظر: البحر المحيط لأبي حيان (٢٣٦/٩). وروح المعاني للألوسي (٢٩٨/١٢). والتفسير الوسيط لمحمد سيد طنطاوي (٢٦٢/١٢).

٦) انظر: نظم الدرر للبقاعي (٩/١٧).

٧) انظر: التحرير والتنوير لابن عاشور (٨٤/٢٤-٨٥).

٨) قوله تعالى: ﴿ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ﴾: لما كان التكذيب وحده كافياً في الأذى، دلّت الآية على أنهم زادوا عليه بالمبالغة في العداوة والأذى، وقدم قصد الإهلاك؛ لأنه أول ما يريده العدو فإن عجز عنه نزل إلى ما دونه فقال: ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ﴾،[1] وكان حقه أن يقول برسولها، ولكنه أراد بالأمة الرجال فلذلك قال: ﴿بِرَسُولِهِمْ﴾.[2]

"ولما كان الأخذ يعبر عنه عن الغلبة والقهر والاستصغار مع الغضب قال: ﴿لِيَأْخُذُوهُ﴾"[3].

٩) قوله تعالى: ﴿ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ ﴾: لما عجزوا عن الأخذ؛ لأن الرسل عصمهم الله منهم أن يقتلوهم، ذكر أنهم بذلوا جهدهم في المغالبة بغيره، وهو الجدال بالباطل، فقال حاذفاً للمفعول تعميماً: ﴿ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ ﴾ أي الأمر الذي لا حقيقة له، وليس له من ذاته إلا الزوال، كما تفعل قريش ومن انضوى إليهم من العرب، ثم بين علة مجادلتهم فقال: ﴿لِيُدْحِضُوا﴾ أي ليزلقوا فيزيلوا ﴿بِهِ الْحَقَّ﴾ الثابت ثباتاً لا حيلة في إزالته، فهو لا يندحض وإن كثرت عليه الشُبه، والمقصود: من تعداد جرائم الأمم السابقة من تكذيب الرسل والهمّ بقتلهم والجدال بالباطل تنظير حال المشركين النازل فيهم قوله: ﴿ مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ بحال الأمم السابقين سواء، لينطبق الوعيد على حالهم أكمل انطباق في قوله: ﴿فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾.[4]

١٠) قوله تعالى: ﴿فَأَخَذْتُهُمْ﴾: لما كان البيان السابق غرضه تثبيت الرسول ﷺ وتسليته عما يلاقيه من شدة في التكذيب والجدال الباطل، زاد الله تعالى هذا المعنى تأكيدا للمؤمنين، وزاده كذلك إنذارا وتهديدا للكافرين المكذبين، فأخبر أنه أخذ من كفر أخذا شديدا، وأنتم تمرون على مساكنهم وتسمعون الديار الخاوية تحكي قصة ما نزل بهم من عذاب الله، فهل رأيتم كيف كان عقابي؟! فينبغي أن تثقوا في نصر الله تعالى لكم أيها المؤمنون كما نصر الله تعالى من سبقكم من رسل الله تعالى ومن معهم من المؤمنين، وكذلك ينبغي لكم أيها الكافرون أن تتعظوا وترتدعوا عما أنتم فيه من الكفر والعناد فإن سنة الله تعالى مع من سبق

---

١) انظر: نظم الدرر للبقاعي (٩/١٧).

٢) انظر: معاني القرآن للفراء (٥/٣). والكشف والبيان للثعلبي (٢٦٦/٨).

٣) نظم الدرر للبقاعي (٩/١٧).

٤) انظر: البحر المحيط لأبي حيان (٢٣٦/٩). ونظم الدرر للبقاعي (٩/١٧). ومحاسن التأويل للقاسمي (٣٠٢/٨). والتحرير والتنوير لابن عاشور (٨٦/٢٤).

ماضية فيكم، وكما حقت عليهم كلمة العذاب فإنه سيحق عليكم مثله قريبا، ثم مصيرهم ومصيركم جمعيا إلى النار.

وكذلك لما كان من المعلوم لكل ذي لب أن فاعل الأمور المذكورة -من التكذيب بالرسل والهم بأخذهم والجدال بالباطل لإدحاض الحق- مغلوب، وأن فعله مسبب لغضب المرسل عليه، قال صارفاً القول إلى المتكلم دفعاً للإلباس وإشارة إلى شدة الغضب، وجرده عن مظهر العظمة استصغاراً لهم: ﴿فَأَخَذْتُهُمْ﴾ أي أهلكتهم وهم صاغرون غضباً عليهم وإهانة لهم ونصرة لرسلهم، وفي ذلك آية من آيات الرسالة لهم حيث حفظهم عما هموا بهم وكادوا لهم بلا أعوان وأنصار كانوا للرسل مع كثرة أُولَئِكَ الكفرة، ويفهم من تفريع قوله: ﴿فَأَخَذْتُهُمْ﴾ على قوله: ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾ إنذارُ المشركين أن همهم بقتل الرسول ﷺ هو منتهى أمد الإمهال لهم، فإذا صمّموا العزم على ذلك أخذهم الله كما أخذ الأمم المكذبة قبلهم حين همّت كل أمة برسولهم ليأخذوه فإن قريشاً لما همّوا بقتل الرسول ﷺ أنجاه الله منهم بالهجرة ثم أمكنه من نواصيهم يوم بدر.[1]

١١) قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾: لما كان أخذه عظيماً، دلّ على عظمته بأنه أهل لأن يسأل عن حاله لزيادة عظمتها في قوة بطشها وسرعة إهلاكها وخرقها للعوائد، ومن نظر ديارهم وتقرى آثارهم وقف على بعض ما نزل بهم من العذاب.[2]

قال سيد قطب: "هي قصة قديمة من عهد نوح [عليه السلام]، ومعركة ذات مواقع متشابهة في كل زمان، وهذه الآية تصور هذه القصة: قصة الرسالة والتكذيب والطغيان على مدى القرون والأجيال، كما تصور العاقبة في كل حال: رسول يجيء، فيكذبه طغاة قومه، ولا يقفون عند مقارعة الحجة بالحجة، إنما هم يلجؤون إلى منطق الطغيان الغليظ، فيهمون أن يبطشوا بالرسول، ويموهون على الجماهير بالباطل ليغلبوا به الحق، هنا تتدخل يد القدرة الباطشة، فتأخذهم أخذا يعجب ويدهش، ويستحق التعجيب والاستعراض: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾؟! ولقد كان عقابا مدمرا قاضيا عنيفا شديدا، تشهد به مصارع القوم الباقية آثارها، وتنطق به الأحاديث والروايات.

١) انظر: تأويلات أهل السنة للماتريدي (٥/٩). ونظم الدرر للبقاعي (١٧/٩-١٠). والتحرير والتنوير لابن عاشور (٢٤/٨٦).
٢) انظر: نظم الدرر للبقاعي (١٧/١٠).

ولم تنته المعركة، فهي ممتدة الآثار في الآخرة: ﴿ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴾، ومتى حقت كلمة الله على أحد فقد وقعت، وقضي الأمر، وبطل كل جدال"[١].

١٢) قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴾: بيّن سبحانه وتعالى سنة من سننه التي لا تتخلف، فكما حقت كلمة ربك -أيها الرسول الكريم عليك الصلاة والسلام- ووجبت بإهلاك الأمم الماضية التي كذبت أنبياءها، وجعلهم وقودا للنار، فكذلك تكون سنتنا مع المكذبين لك من قومك، إذا ما استمروا في تكذيبهم لك، ولم يعودوا إلى طريق الحق؛ لأن السبب الداعي إليه واحد وهو ﴿أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴾ في الآخرة فضلا عن عذاب الدنيا الذي عجلناه لهم.[٢]

وقوله: ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ ﴾: صرف الكلام إلى صفة الإحسان تلطفاً به ﷺ وبشارة له بالرفق بقومه، فربك هو المحسن إليك بجميع أنواع الإحسان فهو لا يدع أعداءك.[٣]

"ولما كان السياق للمجادلة بالباطل وهي فتل الخصم من اعتقاده الحق، وذلك تغطية للدليل الحق وتلبيس، كان الحال أحق بالتعبير بالكفر الذي معناه التغطية، فلذا قال تعالى: ﴿ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ ﴾ أي أوقعوا الكفر وقتاً ما، كلهم سواء، هؤلاء العرب وغيرهم؛ لأن علة الإهلاك واحدة، وهي التكذيب الدال على أن من تلبس به مخلوق للنار، ثم أبدل من الكلمة فقال: ﴿أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴾ أي من كفر في حين من الأحيان فهو مستحق للنار في الأخرى كما أنه مستحق للأخذ في الدنيا لا يبالي الله به، فمن تداركته الرحمة بالتوبة، ومن أوبقته اللعنة بالإصرار هلك"[٤]، و"إذا انختم على عبدٍ حُكْمُ الله بشقاوته فلا تنفعه كَثْرَةُ ما يورَدُ عليه من النُّصح"[٥].

قال الزحيلي: "إن عدالة القرآن الكريم، وبيانه البديع، وقانونه الحق المبرم يتطلب كل ذلك الإذعان لدعوته وامتثال أمر الله وطاعته، والحذر من مخالفته وعصيانه، ولو لم يكن ذلك منهج القرآن الذي يسوّي

---

١) في ظلال القرآن (٥/٣٠٧٠).

٢) انظر: التحرير والتنوير لابن عاشور (٨٧/٢٤). وبيان المعاني لعبد القادر العاني (٥٦٩/٣). والتفسير الوسيط لطنطاوي (٢٦٢/١٢).

٣) انظر: نظم الدرر للبقاعي (١٠/١٧).

٤) نظم الدرر للبقاعي (١٠/١٧-١١).

٥) لطائف الإشارات للقشيري (٣٩٦/٣).

بين جميع البشر في الحساب والجزاء، لما أيقن أهل الإيمان بقدسيته، ولما جعلوه بمثابة الروح والقلب والدم في نفوسهم، بل الذي لا يعلوه شيء ولا يتقدم عليه شيء"[1].

١٣) بما سبق وجدنا أن آيات هذا المقطع جاءت قوية نافذة في صدد إنذار وتحذير الكفار العرب بعذاب الدنيا والآخرة إذا استمروا في غيهم، وتطمين النبي ﷺ وتثبيته وتسليته، ويلفت النظر إلى ما بين هذه الآيات وبين مقدمة السورة من تساوق تأكيدي في صدد شدة العذاب وتقرير كون كلمة العذاب إنما حقت على الكافرين المكابرين على الله المكذبين بآياته، وتضمنت تقرير كون الذين يجادلون في آيات الله وينكرونها هم الذين تعمدوا العناد وبيتوا الكفر والمكابرة فقط، وانطوى فيه تبعا لذلك تحميل الكافرين مسؤولية موقفهم الذي يقفونه عن عمد وباطل، وقد انطوى في هذا وذاك في الوقت نفسه تسلية وتطمين وتصبير للنبي ﷺ ومن معه، وتعنيف قارع للكفار، وكل هذا مما استهدفته الآيات، وفي سور أخرى آيات وعبارات انطوى فيها ذلك، مما يصح أن يعد من المبادئ القرآنية المحكمة،[2] وبهذا رأينا كيف أن هذا المقطع سار في تناسق تام مع محور السورة العام، وجاء ليؤدي وظيفة أساسية في معركة الحق والباطل.

فاشتمل هذا المقطع على بداية الصراع والمحاجة الباطلة من أعداء الرسالة، فقدم في آيات قليلة ثلاث تمهيدات في غاية القوة، وهي:

١- أن المجادلة المذمومة صنيع الكافرين في كل زمان ومكان.

٢- أن عاقبة هذا الصنف جميعا من الأولين والآخرين هو الهلاك المحتوم.

٣- أن قدرتهم الدنيوية الظاهرية هي سراب لن تغني عنهم من الله شيئا ولا ينبغي الاغترار بها.

قال سيد قطب: "وهكذا يصور القرآن الحقيقة الواقعة، حقيقة المعركة بين الإيمان والكفر، وبين الحق والباطل، وبين الدعاة إلى الله الواحد والطغاة الذين يستكبرون في الأرض بغير الحق، وهكذا نعلم أنها معركة قديمة بدأت منذ فجر البشرية، وأن ميدانها أوسع من الأرض كلها؛ لأن الوجود كله يقف مؤمنا بربه مسلما مستسلما، ويشذ منه الذين كفروا يجادلون في آيات الله وحدهم دون سائر هذا الكون الكبير، ونعلم كذلك نهاية المعركة -غير المتكافئة- بين صف الحق الطويل الضخم الهائل وشرذمة الباطل القليلة الضئيلة الهزيلة، مهما يكن تقلبها في البلاد، ومهما يكن مظهرها من القوة والسيطرة والمتاع! هذه الحقيقة -حقيقة

١) التفسير الوسيط للزحيلي (٢٢٥٩/٣).
٢) انظر: التفسير الحديث لدروزة (٣٥٢/٤).

المعركة والقوى البارزة فيها، وميدانها في الزمان والمكان- يصورها القرآن لتستقر في القلوب وليعرفها -على وجه خاص- أولئك الذين يحملون دعوة الحق والإيمان في كل زمان ومكان فلا تتعاظمهم قوة الباطل الظاهرة، في فترة محدودة من الزمان، ورقعة محدودة من المكان فهذه ليست الحقيقة، إنما الحقيقة هي التي يصورها لهم كتاب الله، وتنطق بها كلمة الله، وهو أصدق القائلين، وهو العزيز العليم"[1].

١) في ظلال القرآن (٥/٣٠٧٠).

المطلب الخامس: التفسير الإجمالي للآيات:

بعد أن بانت أصول دلائل الإيمان بالله تعالى وآياته، ظهر أنه ما يخاصم في حجج الله وأدلته بالإنكار لها، إلا الذين جحدوا توحيده وأعرضوا عن الحق مع وضوحه، فلا يخدعنك يا محمد صلى الله عليك وسلم سعتهم في الأرزاق وتصرفهم في البلاد وأسفارهم فيها ومجيئهم وذهابهم وبقاؤهم ومكثهم فيها، مع كفرهم بربهم، فتحسب أنهم إنما أمهلوا وتقلبوا وتصرّفوا في البلاد مع كفرهم بالله، ولم يعاجلوا بالنقمة والعذاب على كفرهم لأنهم على شيء من الحق، فإنا لم نمهلهم لذلك، ولكن ليبلغ الكتاب أجله، ولتحقّ عليهم كلمة العذاب، عذاب ربك.

ثم قصّ على رسول الله ﷺ قصص الأمم المكذّبة رسلها، وأخبره أنهم كانوا من جدالهم لرسله على مثل الذي عليه قومه الذين أرسل إليهم، وإنه أحلّ بهم من نقمته عند بلوغهم أمدهم بعد إعذار رسله إليهم، وإنذارهم بأسه ما قد ذكر في كتابه، إعلاما منه بذلك نبيه أن سنته في قومه الذين سلكوا سبيل أولئك في تكذيبه وجداله هو سنته من إحلال نقمته بهم وسطوته بهم، وكما حق على الأمم التي كذبت رسلها عذاب الله، وحل بهم عقابه بتكذيبهم رسلهم، وجدالهم إياهم بالباطل، ليدحضوا به الحق، كذلك وجبت كلمة ربك على الذين كفروا بالله من قومك، الذين يجادلون في آيات الله ﴿أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾.[1]

---

[1]) انظر: جامع البيان للطبري (٢١/٣٥٤).

المطلب السادس: بيان ما ترشد إليه الآيات[1]:

١- إن الجدال لتقرير الباطل ولدحض الحق وإبطال الإيمان، بالاعتماد على الشبهات، بعد البيان القرآني وظهور البرهان الإلهي: كفر وضلال وجحود لآيات الله وحججه وبراهينه، وما أكثر من يفعل ذلك في هذا الزمان، وفي كل زمان، فإنها تركيبة نفسية لها القدرة على مغالطة ذوات أصحابها والكذب على أنفسها.

أما الجدال لتوضيح الحق ورفع اللبس والرد إلى الحق، فهو من أعظم ما يتقرب به المتقربون، قال تعالى: ﴿ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ﴾العنكبوت: ٤٦.

٢- إن الصراع بين الحق والباطل، بين الصلاح والفساد محتدم منذ أن خلق الله الأرض وأنزل عليها آدم عليه السلام ونزل معه إبليس، وسيظل مستمرا إلى ما شاء الله، فلذا لا ييأس المؤمنون من حمل دعوتهم والدعوة إليها في صبر وثبات، والمجاهدة نمط حياة، والحياة معركة.

٣- تقرير مبدأ أن الله تعالى يمهل ولا يهمل، وأن بطشه شديد.

٤- المثال المتكرر في القرآن الكريم أن الله تعالى أهلك الأمم المكذبة برسلها، الذين جادلوا الأنبياء بالشرك ليبطلوا به الإيمان، ومثل الذي وجب على الأمم السالفة من العقاب، يجب على الذين كفروا في كل زمان ومكان، سواء من قريش أو غيرهم، فهم على وشك نزول العقاب بهم، وليستفيد أهل الإيمان في زماننا هذا أننا معنيون بهذه الآيات، وأنها تخدمنا كما خدمت أسلافنا، والعاقبة ستظل دوما لأهل الحق والتقوى.

***

١) انظر: التفسير المنير للزحيلي (٢٤/٧٨-٧٩). وأيسر التفاسير للجزائري (٤/٥١٥). والتفسير الموضوعي لجامعة الشارقة بإشراف د. مصطفى مسلم (٦/٥٣٤).

المبحث الثالث: إعانة قوية للمؤمنين في تصديهم للمشركين

ويشمل الآيات (٧-٩)

قال الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ٧ رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٨ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ٩ ﴾.

المطلب الأول: ربط الموضوع بالمحور الأساس للسورة:

نجد في هذه الآيات توجها كاملا إلى فريق المؤمنين من أجل تشريفهم وتطمينهم وإعانتهم ونصرتهم بمحبة الملائكة لهم ودعائهم لهم ولذويهم، وفي هذا عون بعد عونٍ لأهل الحق من أجل مساندتهم في معركتهم ضد الباطل وأهله، وبهذا المعنى ترتبط الآيات بمحور السورة الأساسي، إذ أن النصر في المعارك –بعد نصر الله وتأييده– يكون بأحد أمرين: إما بقوة أحد الفريقين أو بانخذال أحدهما، فنجد الآيات مرة ترهب الكافرين تخذيلا لهم، ومرة تدعم المؤمنين وتثبتهم تقوية لهم.

وكذلك فإنه رغم الترغيب والتشريف في هذه الآيات ورغم العطف والحنو الذي فيها، إلا أن أسلوبها يتماشى مع أسلوب سورة غافر القوي الشديد، فتتخلل هذه الآيات معاني الشدة والقوة، فهي تذكر مغفرة الذنوب ليستحضر الناس فداحتها وخطورتها، وتذكر أن علم الله وسع كل شيء فيستحضر الناس مراقبة الله والخوف والحياء منه، وتذكر الوقاية من عذاب الجحيم ليستحضر الناس جانب الخوف والخشية مقابل الرجاء والطمع، وتذكر أن الله عزيز حكيم ولا تذكر أنه غفور رحيم ليستحضر الناس شؤم المعصية التي قد تحرم الإنسان من مغفرة الله ورحمته، وربما فرقت بينه وبين أحبابه، ويستحضر كذلك هيبة الرحمة وجلال المغفرة فلا يستهين بهما، وتذكر الوقاية من السيئات ولا تذكر الإثابة على الحسنات ليستحضر الناس أن التخلي مقدم على التحلي، وأن النجاة من عواقب الشرك والمعاصي من أعظم الفوز، فيجتهد في ترك المحرمات، وبهذا تبين أن المحور الأساسي لسورة غافر ملازم لهذه الآيات حتى في ثنايا آيات الرحمة والمغفرة والترغيب، لتؤدي وظيفة ردع المؤمنين والكافرين عن الاقتراب من محارم الله تعالى.

المطلب الثاني: التناسق بين هذا الموضوع وسابقه:

تسير بنا آيات السورة الكريمة بتناسق واضح وتناسب عجيب لترسم لنا شيئا فشيئا المشهد الكلي للسورة كاملة، فالسورة ميدان معركة، الغلبة فيه ولا شك لآيات الله وكلماته، وهي الحق في مواجهة الباطل الذي لا آيات له ولا كلمات، إنما هو جدل قوم خَصِمِين، فبدأت السورة ترغبهم وترهبهم، ثم بينت جدالهم الباطل وكشفت عن عواره ومصيره، فلما أستقر أمر المجادلين أنهم هالكون وأنهم أصحاب النار، شرع تبارك وتعالى موجها خطابه إلى فريق المؤمنين الذين هم جنود الحق في هذه المعركة، وهم المدافعون عن عقيدتهم التي رسمها لهم القرآن الكريم، فبدأت بتشريفهم وإعانتهم ونصرتهم في حوارهم ومنافحتهم عن عقيدتهم وتطمينهم أشد التطمين وتثبيتهم وتعظيم الرجاء لهم، ذاك أن الباطل وجنوده في عزلة تامة عن الوجود الإيماني الهائل الذي يلف الكون بأسره، وأما المؤمنون فهم في انسجام ومعية تامة مع أصغر المخلوقات إلى أشرفها، وهم الملائكة المقربون حملة عرش الباري سبحانه وتعالى، فأي عون وأي نصرة تنتظرها قلوب المؤمنين بعد ذلك؟! ويكفي كرامة للمؤمن أنه نائم على فراشه والملائكة تستغفر الله له، وتدعو له بالنجاة من النار وبدخول الجنة.

ومما سبق تبين أنه بعدما ذكر الله تعالى جدل المشركين ودفاعهم عن باطلهم، طمأن المسلمين أن الملائكة الكرام تكون عونا لهم في تصديهم للباطل وتفنيده وأتباعه، وهؤلاء الملائكة هم المقربون المشرفون ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ﴾ وهم يسبحون بحمد ربهم، ويعلنون مشاركتهم للمؤمنين في الإيمان بالله تعالى، ويدعون لهم بالمغفرة ودخول الجنة والنجاة من النار.[1]

والجملة مستأنفة مسوقة لتسلية رسول الله ﷺ والمؤمنين، ببيان أن هذا الجنس من الملائكة الذين هم أعلى طبقاتهم، وأولهم وجوداً يضمون إلى تسبيحهم لله والإيمان به الاستغفار للذين آمنوا بالله ورسوله وصدقوا[2].

وعلى ما ذُكر فإن الآيات تكون "استئنافا بيانيا ناشئا عن وعيد المجادلين في آيات الله أن يسأل سائل عن حال الذين لا يجادلون في آيات الله فآمنوا بها"[3].

١) انظر: التفسير الموضوعي لجامعة الشارقة بإشراف د. مصطفى مسلم (٥٣٥/٦).

٢) انظر: فتح البيان لصديق حسن خان (١٦٣/١٢).

٣) التحرير والتنوير لابن عاشور (٨٩/٢٤).

قال محمد محمود حجازي: "هؤلاء الكفار تحزبوا ضد النبي والمؤمنين، وبالغوا في إظهار العداوة للنبي وصحبه وهم قلة بالنسبة لهم، فأراد ربك أن يطمئن خاطر المسلمين ويشد أزرهم ببيان أن معهم أشرف الخلق من الملائكة الأطهار، يدعون لهم ويستغفرون، وذلك بلا شك هو الفوز العظيم"[1].

ووجه آخر: أن الآيات "استئناف ابتدائي اقتضاه الانتقال من ذكر الوعيد المؤذن بذم الذين كفروا إلى ذكر الثناء على المؤمنين، فإن الكلام الجاري على ألسنة الملائكة مثل الكلام الجاري على ألسنة الرسل إذ الجميع من وحي الله، والمناسبة: المضادة بين الحالين والمقالين"[2].

قال الفخر الرازي: لما بيّن الله تعالى أن الكفار يبالغون في إظهار العداوة مع المؤمنين، بقوله: ﴿ مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾غافر:٤ ، وما بعده، وكان ذلك أمراً غائظاً محزناً موجعاً، وختم ذلك ببيان حقوق كلمة العذاب عليهم تسلية لمن عادوهم فيه سبحانه، بيّن تعالى أن أشرف طبقات المخلوقات هم الملائكة الذين هم حملة العرش والحافون حوله يبالغون في إظهار المحبة والنصرة للمؤمنين، زيادة في تسليتهم شرحاً لصدورهم وتثبيتاً لقلوبهم ببيان ولاية الملائكة المقربين لهم وبيان حقوق رحمته للذين آمنوا بدعاء أهل حضرته لهم، كأنه تعالى يقول إن كان هؤلاء الأراذل يبالغون في العداوة فلا تبالوا بهم ولا تلتفتوا إليهم ولا تقيموا لهم وزنا، فإن حملة العرش معكم والحافون من حول العرش معكم ينصرونكم.[3]

وقال دروزة[4]: "المتبادر أن الآيات جاءت معقبة على الآيات السابقة لتنوه بالمؤمنين المنيبين إلى الله المتبعين سبيله والملتفين حول رسوله، ولتبثّ فيهم الطمأنينة والغبطة والبشرى بما ينتظرهم من قرة العين وعظيم الفوز في الآخرة، وما بسبيل ذلك من استغفار الملائكة لهم والدعاء إلى الله من أجلهم مقابلة لذكر مصير الكفار وما احتوته الآيات السابقة من التنديد بهم وإنذارهم"[5].

ووجه ثالث: أنه تعالى لما ذكر جدال الكفار في آيات الله وعصيانهم، ومجادلتهم للرسل بالباطل لإطفاء نور دعوتهم، والمتعلقة بقوله تعالى: ﴿ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ﴾ غافر:٣ ، ذكر طاعة هؤلاء المصطفين من

---

١) التفسير الواضح (٣/٢٩٢).

٢) التحرير والتنوير لابن عاشور (٢٤/٨٩).

٣) انظر: مفاتيح الغيب للفخر الرازي (٢٧/٤٨٧). ونظم الدرر (١٧/١١-١٢). والسراج المنير للشربيني (٣/٤٦٩). وتفسير المراغي (٢٤/٤٦-٤٧).

٤) هو محمد عِزّت بن عبد الهادي دروزة، مفكر وكاتب موسوعي ومناضل قومي عربي فلسطيني، كان أديباً وباحثا ومؤرخاً وصحفياً ومترجماً ومفسراً للقرآن، ولد بنابلس في ولد عام ١٣٠٥هـ، وتوفي بدمشق عام ١٤٠٤هـ، -رحمه الله تعالى رحمة واسعة-. انظر: تكملة معجم المؤلفين لمحمد خير (١/٥٢٣-٥٢٦).

٥) التفسير الحديث (٤/٣٥٣).

خلقه، وهم حملة العرش ومن حوله، ودعاءهم واستغفارهم لمن آمن، والمتعلقة بقوله تعالى: ﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ ﴾غافر: ٣، فإنه بعد بيان حقوق كلمة العذاب، كأنه قيل: فكيف النجاة؟ قيل: بإيقاع الإيمان بالتوبة عن الكفران ليكون مُوقِعُهُ أهلاً للشفاعة فيه من أهل الحضرة العلية فيغفر له إن تاب ما قدم من الكفر، فقال مظهراً لشرف الإيمان وفضله: ﴿ ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ ﴾ الآية، وفيه إشارة إلى حث المؤمنين الموحدين على مواظبة الإيمان ومداومة الشكر على الإنعام.[1]

ووجه رابع: أن ذكر الملائكة الكرام بالصيغة الرائعة التي ذكروا بها من التسبيح والإيمان والدعاء قد قصد به الإشارة أولا إلى أن أكثر الملائكة قربا إلى الله هم أكثر المخلوقات خضوعا له واعترافا بعظمته، والإشارة ثانيا إلى أن شفاعتهم واستغفارهم إنما هما للمؤمنين المتقين، وفي هذا وذاك أسلوب من الرد القوي على المشركين العرب فيما يعتقدونه من كون الملائكة بنات الله وإشراكهم معه في العبادة على أمل شفاعتهم لهم عند الله، وفيهما كذلك أسلوب من التنويه القوي بالمؤمنين المستجيبين إلى دعوة النبي ﷺ.[2]

ووجه خامس: أنه اتصل هذا بذكر الكفار المجادلين؛ لأن المعنى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ ﴾ ينزهون الله عز وجل عما يقوله الكفار ﴿ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾.[3]

وكذلك فإن "الآيات السابقة عرضت أهل الكفر والضلال، وربطت بينهم بتلك الجامعة التي تجمعهم على الباطل، لمحاربة الحق، والوقوف في وجه دعاته، وأخذهم بالبأساء والضراء، فهم أحزاب متناصرة على الشر، متساندة في حجب الهدى عن أبصارهم وفى قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ ﴾ الآية، عرض لجبهة الخير، وأرباب الهدى، وأنهم أحزاب متناصرة على الحق، متعاونة على البر والتقوى، يأخذ بعضهم بيد بعضهم بيد بعض إلى ما يرضى الله، وينزلهم منازل رحمته ورضوانه"[4].

---

١) انظر: البحر المحيط لأبي حيان (٢٣٨/٩). ونظم الدرر للبقاعي (١٧/١١-١٢). والفواتح الإلهية للشيخ علوان (٢٥٦/٢). وتفسير المراغي (٢٤/٤٦-٤٧).

٢) انظر: التفسير الحديث لدروزة (٤/٣٥٣-٣٥٤).

٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٢٩٤/١٥).

٤) التفسير القرآني للقرآن لعبد الكريم الخطيب (١٢٠٨/١٢).

المطلب الثالث: التناسب بين الآيات والجمل والكلمات:

١) قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ ﴾: بدأ الله تعالى بالاحتفاء بالمؤمنين وتشريف مكانتهم ورفع معنوياتهم ونصرتهم وإعانتهم ليعرفوا الفرق الشاسع والبون الواسع بينهم وبين أعدائهم المجادلين للحق بالباطل، وليميزوا حقيقة شأنهم بدل الاغترار المحتمل من ظاهر حال عدوهم الذين يتقلبون في البلاد آمنين متنعمين، فأبان لهم أن مصيرهم الحقيقي الهلاك والنار، ثم أبان للمؤمنين بعد ذلك بأن مصيرهم الحقيقي النجاة والثواب والفوز العظيم، فبدأ كل هذه المعاني بذكر مجموعة شريفة من الملائكة الكرام الذين هم أفضل الملائكة وأقربهم عند الله تعالى منزلة ومكانة، وهم حملة عرشه العظيم سبحانه والمحتفون من حول عرشه الكريم سبحانه، وهذه المجموعة المباركة من الملائكة في حالة تنزيه وثناء مستمر لربهم.

وحملة العرش هم أشرف الملائكة وأفضلهم وأعلاهم منزلة؛ لشرف مقامهم ورفعة مراتبهم، والملائكة تستفيد علومها بالكائنات بعضهم من بعض إلا حملة العرش؛ فإنهم يستفيدون علومهم من الحق سبحانه وتعالى، فهم المبدوؤون بالإعلام أولا، بدليل قوله ﷺ: ((... وَلَكِنْ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى اسْمُهُ، إِذَا قَضَى أَمْرًا سَبَّحَ حَمَلَةُ الْعَرْشِ، ثُمَّ سَبَّحَ أَهْلُ السَّمَاءِ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، حَتَّى يَبْلُغَ التَّسْبِيحُ أَهْلَ هَذِهِ السَّمَاءِ الدُّنْيَا، ثُمَّ قَالَ: "الَّذِينَ يَلُونَ حَمَلَةَ الْعَرْشِ لِحَمَلَةِ الْعَرْشِ: مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟ فَيُخْبِرُونَهُمْ مَاذَا قَالَ: قَالَ فَيَسْتَخْبِرُ بَعْضُ أَهْلِ السَّمَاوَاتِ بَعْضًا، حَتَّى يَبْلُغَ الْخَبَرُ هَذِهِ السَّمَاءَ الدُّنْيَا ...))[١].

٢) ﴿ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ ﴾: وهم مجموعة أخرى من الملائكة الكرام الذي يحيطون بالعرش ويحفونه، كما قال تعالى: ﴿ وَتَرَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنۡ حَوۡلِ ٱلۡعَرۡشِ ﴾الزمر: ٧٥.

وقال البقاعي: "﴿ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ ﴾ وهم جميع الملائكة وغيرهم ممن ربما أراد الله كونه محيطاً به ... فأفادت هذه العبارة النص على الجميع مع تصوير العظمة"[٢].

فحملة العرش والحافيين بالعرش هم أقرب الملائكة إلى العرش، ولهم من المكانة والمنزلة والفضل والشرف والمكان الأعلى والأسمى.

---

١) صحيح مسلم، كتاب السلام، باب تحريم الكهانة وإتيان الكهان، برقم "٢٢٢٩" (١٧٥٠/٤).
وانظر: المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم لأبي العباس القرطبي (٦٣٨/٥).
٢) نظم الدرر (١٢/١٧).

٣) قوله تعالى: ﴿ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾: بيان لصنيع هؤلاء الملائكة الكرام الذين يسبحون بحمد ربهم فيقولون سبحان ربنا وبحمده، فينزهونه سبحانه عن كل شائبة نقص ملتبسين بثنائه وحمده على نعمائه التي لا تتناهى، وفي هذا تنزيه تام وثناء عام.[١]

ونبّه بالتسبيح هنا لأمرين: أحدها: أنه سبق ذكر أقوال الكفار، فكان تسبيح الملائكة الكرام تنزيها لله عز وجل عمّا يقوله الكفار.

والآخر: أنه ربما وقع في الوهم أنه سبحانه محتاج إلى حمل الملائكة لعرشه أو إلى عرشه أو إلى شيء، فكان تسبيحهم تنبيها على أنه سبحانه غنيّ عن كل شيء، وأن المراد بذكر حملة العرش ونحو ذلك هو إظهار عظمته لنا لطفاً منه بنا، فقال مخبراً عن المبتدأ وما عطف عليه: ﴿ يُسَبِّحُونَ ﴾.[٢]

وصرف القول إلى ضمير (هم) إعلاماً بأن الكل عبيده من العلويين والسفليين القريب والبعيد، وكائنون تحت تصرفه وقهره، وإحسانه وجبره، فقال: ﴿ رَبِّهِمْ ﴾ أي بإحاطة المحسن إليهم بأوصاف الكمال.[٣]

٤) قوله تعالى: ﴿ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ ﴾: هذه المجموعة المباركة من الملائكة تؤمن بربها وتقرّ بوحدانيته وجلاله وعظمته وهم الذين يشاهدون أعظم مخلوقاته سبحانه فإيمانهم قوي نقي لا يشوبه شيء، فهم يؤمنون بربهم إيمانا حقيقا بحالهم، وفائدة الإخبار والتصريح عنهم بأنهم يؤمنون مع إغناء ما قبله عن ذكره، ومع كونه معلوما في جانب الملائكة هو التنويه بشأن الإيمان وإظهار فضيلته وإبراز شرف أهله بأنه حال الملائكة، والتعريض بالمشركين أن لم يكونوا مثل أشرف أجناس المخلوقات، وقد قيل: أوصاف الأشراف أشراف الأوصاف.[٤]

٥) قوله تعالى: ﴿ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾: يقرر فيه سبحانه وتعالى استغفار الملائكة المقربين لأهل الإيمان، والإخبار عن صنفي الملائكة بأنهم يسبحون ويؤمنون به كان توطئة وتمهيدا للإخبار عنهم

---

١) انظر: نظم الدرر للبقاعي (١٢/١٧). والتحرير والتنوير لابن عاشور (٩٠/٢٤).
٢) انظر: إعراب القرآن للنحاس (٢٠/٤). ونظم الدرر للبقاعي (١٢/١٧).
٣) انظر: نظم الدرر للبقاعي (١٢/١٧).
٤) انظر: روح البيان لإسماعيل حقي (١٥٦/٨-١٥٧). والتحرير والتنوير لابن عاشور (٩٠/٢٤). وحدائق الروح والريحان للأمين الهرري (١٢٥/٢٥).

بأنهم يستغفرون للذين آمنوا فهذا هو المقصود من الخبر، ولكن قدّم له ما فيه تحقيق استجابة استغفارهم لصدوره ممن دأبهم التسبيح وصفتهم الإيمان.[1]

وكذلك لما ذكر إيمان الملائكة المقربين، ذكر أنهم يحبون من هم على شاكلتهم من أهل الإيمان ويشفقون عليهم، ولذا فهم يسألون ربهم أن يغفر ويتجاوز عن ذنوب المؤمنين فيسقط عنهم كل عقوبة عاجلة أو آجلة، وهذا من صدق محبتهم وشدة شفقتهم، وبذا روعي التناسب في قوله ﴿ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾، كأنه قيل: ويؤمنون ويستغفرون لمن في مثل حالهم وصفتهم، واستغفارهم: دعاؤهم وشفاعتهم وحملهم على التوبة، وإلهامهم ما يوجب المغفرة، وفيه إشعار بأنهم ربما يطلعون على ذنوب بني آدم، وفيه تنبيه على أن المشاركة في الإيمان توجب النصح والشفقة وإن كان الاشتراك المذكور بين سماوي وأرضي، وإن تباعدت الأماكن وتخالفت الأجناس في حقيقة التركيب؛ لأنها أقوى المناسبات وأتمها وأشد من الاتحاد في النسب، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ الحجرات:١٠.[2]

وصيغة المضارع في يسبحون ويؤمنون ويستغفرون مفيدة لتجدد ذلك وتكرره، وذلك مشعر بأن المراد أنهم يفعلون ذلك في الدنيا، ومعنى تجدد الإيمان المستفاد من قوله: ﴿ وَيُؤْمِنُونَ ﴾ تجدد ملاحظته في نفوس الملائكة، وإلا فإن الإيمان عقد ثابت في النفوس وإنما تجدده بتجدد دلائله وآثاره وزيادته بالطاعات.[3]

٦) قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا ﴾: يبيّن سبحانه وتعالى كيفية استغفار الملائكة للمؤمنين، وكل هذا زيادة منهم في النصح والشفقة على المؤمنين، فإنهم شرعوا يتوسلون إلى الله تعالى بالثناء الحسن بعنوان رحمة الله الشاملة التي أحاطت ووسعت علم الله الشامل أن يغفر لمن كان مشركا فتاب وأناب وأتبع الهدى ودخل في الإسلام، فرجوا ربهم أن يشمل بعفوه ومغفرته هؤلاء وأن يقيهم عذاب الجحيم الذي استوجبوه بكفرهم وشركهم السابق، "وفي قرن الرحمة بالعلم، إشارة إلى أن رحمة الله إنما تقع حيث علم الله موقعها من عباده"[4].

---

١) انظر: التحرير والتنوير لابن عاشور (٨٩/٢٤-٩٠).

٢) انظر: الكشاف للزمخشري (١٥٢/٤). ونظم الدرر للبقاعي (١٣/١٧). وروح البيان لإسماعيل حقي (١٥٧/٨). وحدائق الروح والريحان للأمين الهرري (١٢٦/٢٥).

٣) انظر: التحرير والتنوير لابن عاشور (٩٠/٢٤).

٤) التفسير القرآني للقرآن (١٢٠٩/١٢).

وفي تصدير الدعاء بربنا من الاستعطاف ما لا يخفى، ولذا كثر تصدير الدعاء به، وفي مواضع لا تحصى في القرآن نجد دعاء الأنبياء مبتدأ بقول (رب أو ربنا)، وهذا يدل على أن من أرضى الدعاء أن ينادي العبد ربه بقوله: يا رب.[1]

وكذلك لما كان المراد بيان اتساع رحمته سبحانه وعلمه، وكان ذلك أمراً لا يحتمله العقول، عدل إلى أسلوب التمييز تنبيهاً على ذلك، مع ما فيه من هز السامع وتشويقه بالإبهام إلى الإعلام فقال: ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾، ثم بين جهة التوسع بقوله تميزاً محولاً عن الفاعل لأجل المبالغة في وصفه بالرحمة والعلم، أي: وسعت رحمتك وعلمك كل شيء، كأن ذاته تعالى رحمة وعلم يسعان كل شيء، فوسعت رحمته المخلوقات بإيجادها من العدم فما فوق ذلك، وأحاط بهم علمه، فمن أكرمه فعن علم بما جلبه عليه مما يقتضي إهانة أو إكراماً، والمراد: أن رحمتك تسع ذنوبهم وخطاياهم، وعلمك يحيط بجميع أعمالهم وأقوالهم وحركاتهم وسكناتهم، وقدّم الرحمة على العلم؛ لأنها المقصودة بالذات ههنا، فسعة الرحمة مما يطمع باستجابة الغفران، وسعة العلم تتعلق بثبوت إيمان الذين آمنوا.[2]

ولما كان المعنى أن رحمتك وعلمك وسع كل شيء وتعلق بكل شيء، وفي الناس المؤمن والكافر، صحّ أن نقول بأن رحمة الله وسعت الكافر باعتبار الدنيا، فرحمة الدنيا يدخل فيها الكافر والمؤمن جميعًا، وأما رحمة الآخرة، فهي للمؤمنين خاصة، كما في قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾الأعراف:٣٢، كأنه يقول: قل هي للذين آمنوا والذين لم يؤمنوا، ثم هي خالصة للذين آمنوا يوم القيامة؛ فعلى ذلك قوله: ﴿ وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً ﴾، هي رحمة الدنيا: المؤمن والكافر جميعا في تلك، فأما رحمة الآخرة ليست إلا للذين آمنوا، واللَّه أعلم.[3] بل قال بعضهم: إنه دخل في عموم الآية الشيطان ونحوه؛ لأن كل موجود له رحمة دنيوية البتة، وأقلها الوجود، وللشيطان إنظار إلى يوم الدين، فيكون من الرحمة الدنيوية إلى غير ذلك[4].

---

١) انظر: مفاتيح الغيب للفخر الرازي (٤٩٠/٢٧). وإيجاز البيان للنيسابوري (٧٢٤/٢). وحاشية محيي الدين شيخ زاده على البيضاوي (٢٩٧/٧). ونظم الدرر للبقاعي (١٣/١٧). وروح المعاني للألوسي (٣٠١/١٢).

٢) انظر: الكشاف للزمخشري (١٥٣/٤). وحاشية محيي الدين شيخ زاده على البيضاوي (٢٩٧/٧). ومدارك التنزيل للنسفي (٢٠٠/٣-٢٠١). ونظم الدرر للبقاعي (١٤/١٧). والتحرير والتنوير (٩٠/٢٤). وحدائق الروح والريحان للأمين الهرري (١٢٦/٢٥).

٣) انظر: تأويلات أهل السنة للماتريدي (٧/٩).

٤) انظر: روح البيان لإسماعيل حقي (١٥٧/٨). والتحرير والتنوير لابن عاشور (٩٠/٢٤-٩١). وحدائق الروح والريحان للأمين الهرري (١٢٦/٢٥).

٧) قوله تعالى: ﴿ فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ ﴾: "تلتقي هذه الإشارة إلى المغفرة والتوبة بمطلع السورة، وبصفة الله هناك: ﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ ﴾غافر: ٣ ، كما تلتقي الإشارة إلى عذاب الجحيم، بصفة الله: ﴿ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ﴾ غافر: ٣ ،[1] والفاء لترتيب الدعاء على ما قبلها من سعة الرحمة والعلم، فما بعد الفاء مسبب عن كل واحد من الرحمة والعلم، إذ المعنى: فاغفر برحمتك الواسعة للذين علمت منهم التوبة واتباع سبيلك.

وفيه إشارة إلى أن الملائكة لا يستغفرون إلا لمن تاب ورجع واتبع سبيل الحق والهدى.

قال البقاعي: ولما كان له سبحانه أن يفعل ما يشاء ﴿ فَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ﴾ البقرة:٢٨٤ ، قالوا منبهين على ذلك: ﴿ فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ ﴾غافر:٧، أي رجعوا إليك عن ذنوبهم برحمتك لهم بأن تمحوا أعيانها وآثارها، فلا عقاب ولا عتاب ولا ذكر لها ﴿ وَٱتَّبَعُواْ ﴾ أي كلفوا أنفسهم على ما لها من العوج أن لزموا ﴿ سَبِيلَكَ ﴾ المستقيم الذي لا لبس فيه[2].

٨) قوله تعالى: ﴿ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ﴾: وهذا تصريح بعد إشعار للمبالغة والتأكيد؛ وذلك لأن معنى الغفران إسقاط العذاب، لكن لما كان الغفران قد يكون لبعض الذنوب، وأنه بمجرد التوبة قد لا تحصل النجاة، بل لابد من الثبات عليها، وتخليص العمل من شوائب الرياء والسمعة والنفاق، وتصفية القلب من البدع والأهواء قالوا: ﴿ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ﴾ أي اجعل بينهم وبينه وقاية بأن تلزمهم الاستقامة وتتم نعمتك عليهم، فإنك وعدت من كان كذلك بذلك، ولا يبدل القول لديك، وإن كان يجوز أن تفعل ما تشاء.[3]

٩) قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ﴾ : لما سألت الملائكة الكرام إزالة العقاب، زادت فسألت اتصال الثواب، فهذه زيادة على الزيادة، ومبالغة من الملائكة الكرام في المحبة والنصرة والشفقة، وارتقاء في الطلب من وقايتهم العذاب إلى طلب إدخالهم مكان النعيم، وقد شمل دعاؤهم المؤمنين، وشمل دعاؤهم التائبين المسلمين، والآن يزيدونهم بأن يكرمهم الله وجميع من آمن وصلح من أحبابهم بدخولهم

١) في ظلال القرآن لسيد قطب (٣٠٧١/٥).

٢) انظر: نظم الدرر (١٤/١٧).

٣) انظر: البحر المحيط لأبي حيان (٢٣٩/٩). ونظم الدرر للبقاعي (١٤/١٧). وروح البيان لإسماعيل حقي (١٥٨/٨). وحدائق الروح والريحان للأمين الهرري (١٢٧/٢٥).

جنات عدن، ويتوسلون إلى الله بوعده الذي وعد به من تاب وآمن بأن يدخله الجنة ويعيذه من النار، ويتوسلون مجددا بأسماء ربهم الحسنى وصفاته العلى أنه العزيز الفعال لما يريد والحكيم المدبر لكل الأمور فليُمضِ فيهم رحمته وليدبر لهم الخير بأحسن تدبير.

وكذلك توسيط النداء بـ ﴿ رَبَّنَا ﴾ بينهما وتكراره للتأكيد وزيادة الاستعطاف والاسترحام والمبالغة في الجؤار والتضرع والاستغاثة.[1]

قال البقاعي: لما كانت النجاة من العذاب لا تستلزم الثواب، قالوا مكررين صفة الإحسان زيادة في الرقة في طلب الامتنان: ﴿ رَبَّنَا ﴾ أي أيها المحسن إلينا بتوفيق أحبابنا الذين شاركونا في عبادتك بالجنان واللسان والأركان أدخلهم ﴿ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ﴾ أي إقامة وخلود.[2]

١٠) قوله تعالى: ﴿ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ ﴾: لما كانوا عالمين بأن سبحانه لا يجب عليه لأحد شيء ولا يقبح منه شيء، نبهوا على ذلك بقولهم: ﴿ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ ﴾ مع الزيادة في التملق واللطافة في الحث وإدخالهم لأجل استعمالك إياهم الصالحات، وكل أهل الإيمان موعودون بالجنة وإن كانوا من أهل الكبائر؛ غاية ذلك أنهم يعذبون بالنار مدّة إن لم يكن عفوا وشفاعة ثم يخرجون إلى الجنة.[3]

ولم يذكر هنا الآية المتضمنة لوعدهم بالجنات، هم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم، ولكنه جل وعلا أوضح وعده إياهم بذلك في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ﴿٢٣﴾ ﴾الرعد: ٢٢ - ٢٣، الآية.[4]

١١) قوله تعالى: ﴿ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡ ﴾: عطفا على الضمير في ﴿ وَأَدۡخِلۡهُمۡ ﴾ أي معهم ليتم سرورهم، أو عطفا على الضمير في ﴿ وَعَدتَّهُمۡ ﴾ لبيان عموم الوعد، وحيث

---

١) انظر: البحر المحيط لأبي حيان (٢٣٩/٩). وروح البيان لإسماعيل حقي (١٥٨/٨). وروح المعاني للألوسي (٣٠١/١٢). والجدول في إعراب القرآن لمحمود صافي (٢٢٤/٢٤).

٢) انظر: نظم الدرر (١٤/١٧-١٥).

٣) انظر: غرائب القرآن للنيسابوري (٢٤/٦). ونظم الدرر للبقاعي (١٥/١٧).

٤) انظر: أضواء البيان للشنقيطي (٣٧٤/٦).

كان الإنسان لا يطيب له نعيم دون أن يشاركه فيه أحبابه الذين كانوا يشاركونه في العبادة، قالوا مقدمين أحق الناس بالإجلال: ﴿ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ ﴾ ثم أتبعوهم ألصقهم بالبال فقالوا: ﴿ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ﴾، والمعنى: وأدخل معهم في مساكن متقاربة ورتب متساوية من صلح من هؤلاء صلاحا مصححا لدخول الجنة في الجملة، وإن كان دون صلاح أصولهم، وذلك ليتم سرورهم ويتضاعف ابتهاجهم وتقر بهم أعينهم؛ فإن الاجتماع بالأهل والعشيرة في موضع السرور يكون أكمل للبهجة وأتم للأنس والسعادة، وفيه إشارة إلى أن بركة الرجل التائب تصل إلى آبائه وأزواجه وذرياته، لينالوا بها الجنة ونعيمها ويترقوا في درجاتها.[1]

١٢) قوله تعالى: ﴿ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾: لما كان فاعل هذا مِنّا ربما نُسب إلى ذل أو سفه، وربما عجز عن الغفران لشخص لكثرة المعارضين، عللوا بقولهم مؤكدين ﴿إِنَّكَ أَنتَ ﴾ أي وحدك يا ربنا ﴿ ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب الذي لا يمتنع عليك مقدور ما، فأنت تغفر لمن شئت غير منسوب إلى وهن ﴿ٱلْحَكِيمُ ﴾ الذي يضع الأشياء مواضعها التي تليق بها، والذي لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة الباهرة من الأمور التي من جملتها إنجاز الوعد والوفاء به، فكل فعل لك في أتم مواضعه فلذلك لا يتهيأ لأحد نقضه ولا نقصه، فالجملة تعليل لما قبلها من الاسترحام والدعاء، والتعقيب بهما على هذه الفقرة من الدعاء يشير إلى القوة والحكمة، وبها يكون الحكم في أمر العباد.[2]

قال الفخر الرازي: وإنما ذكروا في دعائهم هذين الوصفين؛ لأنه لو لم يكن عزيزا غالبا على الكل بل كان بحيث يُغلب ويُمنع لما صح وقوع المطلوب منه كما يراد، ولو لم يكن حكيما لأمكن منه وضع الشيء في غير موضعه، ولما حصل المطلوب على وفق الحكمة والمصلحة.[3]

وقال السعدي: "﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ﴾ القاهر لكل شيء، فبعزتك تغفر ذنوبهم، وتكشف عنهم المحذور، وتوصلهم بها إلى كل خير، ﴿ٱلْحَكِيمُ ﴾ الذي يضع الأشياء مواضعها، فلا نسألك يا ربنا أمرا

---

١) انظر: التبيان في إعراب القرآن للعكبري (١١١٦/٢). وحاشية محيي الدين شيخ زاده على البيضاوي (٢٩٨/٧). وروح البيان لإسماعيل حقي (١٥٨/٨). والتحرير والتنوير لابن عاشور (٩٣/٢٤).

٢) انظر: البحر المحيط لأبي حيان (٢٣٩/٩). وروح البيان لإسماعيل حقي (١٥٩/٨). وروح المعاني للألوسي (٣٠١/١٢). والجدول في إعراب القرآن لمحمود صافي (٢٢٤/٢٤). وفي ظلال القرآن لسيد قطب (٣٠٧١/٥).

٣) انظر: مفاتيح الغيب (٤٩٣/٢٤). وغرائب القرآن للنيسابوري (٢٤/٦).

تقتضي حكمتك خلافه، بل من حكمتك التي أخبرت بها على ألسنة رسلك، واقتضاها فضلك: المغفرة للمؤمنين"[1].

١٣) قوله تعالى: ﴿ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ﴾: لما كان أخوف ما يُخاف من تبعاته هو الذنوب والمعاصي والآثام، وعلى رأسها الكفر والشرك بالله تعالى، ختم الملائكة الكرام دعاؤهم بأن ينجيهم الله تعالى من سيئات أعمالهم ومن عقوبات أعمالهم، فإن من نجى يوم القيامة من عذاب النار وزحزح عنها إلى الجنة فقد فاز فوزا عظيما.

وتبين من هذا أن الملائكة الكرام لم تترك مجالا لخير المؤمنين إلا سألوا الله أن يكرموهم بها، ولم تجد ثغرة للهلاك إلا ودعت الله أن يجنب المؤمنين شرها، حتى يضمنوا لهم سلامة الوصول إلى رضوان الله تعالى في الجنة تحت عرش الرحمن، وهم حملة عرش الرحمن والحافيين من حوله، فاكتمل المشهد البديع أنهم ما تركوا أولياء الله المؤمنين حتى أوصلوهم إلى مقامهم الرفيع بجوار العرش الكريم، فأي محبة وأي شفقة وأي نصح بعد هذا؟! وأي دعم ونصرة وتأييد وتشريف للمؤمنين على الكافرين بعد هذا؟!

وكذلك لما كان الإنسان قد يُغفر له ويكرم، وفيه من الأخلاق ما ربما حمله على بعض الأفعال الناقصة دعوا لهم بالكمال فقالوا: ﴿ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ﴾ أي العقوبات أو جزاء السيئات أو المعاصي في الدنيا، والمعنى: احفظهم عما يسوؤهم يوم القيامة وادفع عنهم العقوبات؛ لأن جزاء السيئة سيئة فتسميتها، سيئة إما لأن السيئة اسم للملزوم وهو الأعمال السيئة فاطلق على اللازم وهو جزاؤها، أو المعنى قهم جزاء السيئات على حذف المضاف على أن السيئات بمعنى الأعمال السيئة، فالتعريف في السيئات للجنس وهو صالح لإفادة الاستغراق، أي قهم من كل سوء، وهو تعميم بعد التخصيص في قوله: ﴿وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ فيكون الأول دعاء بالحفظ من عذاب الجحيم خاصة، ويكون الثاني دعاء بالحفظ من جميع العقوبات من عذاب الجحيم وعذاب القبر وموقف القيامة والحساب والسؤال والصراط ونحوها، أو أن يكون الدعاء في قوله ﴿ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ﴾ مخصوصا بمن صلح من الاتباع، والأول دعاء للأصول.[2]

---

١) تيسير الكريم الرحمن (٧٣٢/١).

٢) انظر: حاشية محيي الدين شيخ زاده على البيضاوي (٢٩٨/٧). ونظم الدرر للبقاعي (١٥/١٧-١٦). وروح المعاني لإسماعيل حقي (١٥٩/٨). والتحرير والتنوير لابن عاشور (٩٣/٢٤).

قال أبو حيان: "﴿ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ﴾: أي امنعهم من الوقوع فيها حتى لا يترتب عليها جزاؤها، أو وقهم جزاء السيئات التي اجترحوها، فحذف المضاف"[1].

١٤) قوله تعالى: ﴿ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴾: أي من تق السيئات يوم القيامة فَقَدْ رَحِمْتَهُ؛ لأن المعافى من العذاب مرحوم، ويجوز أن يكون المراد بالسيئات الأول المعاصي في الدنيا، وبالسيئات الثاني عقوبتها، فإذا وقي من عقوبة سيئات الدنيا فقد رحمه الله في الآخرة، كأنهم طلبوا لهم السبب بعد ما سألوا المسبب، ويجوز أن تكون ﴿ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ﴾ أي بعد أن تابوا لئلا يرجعوا الى المعاصي والذنوب وينتكسوا وتزيغ قلوبهم بعد الإيمان والهداية، ﴿ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ ﴾ يحيلون الأمر فيه على رحمته، وبرحمته لم يسلط على المؤمن أراذل خلقه وهم الشياطين، وبرحمته قد قيض لشفاعته أفاضل من خلقه وهم الملائكة المقربون.[2]

قال البقاعي: ﴿ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ﴾ أي بأن يجعل الله بينهم وبينها وقاية بأن يطهرهم من الأخلاق الحاملة عليها بتطهير القلوب بنزع كل ما يكره منها، أو بأن يغفرها لهم ولا يجازيهم عليها، وعظّموا هذه الطهارة ترغيباً في حمل النفس في هذه الدار على لزومها بقمع النفوس وإماتة الحظوظ بقولهم: ﴿ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ أي جزاءها كلها ﴿ يَوۡمَئِذٖ ﴾ أي يوم إذ تدخل فريقاً الجنة وفريقاً النار المسببة عن السيئات، أو إذ تزلف الجنة للمتقين وتبرز الجحيم للغاوين: ﴿ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ ﴾ أي الرحمة الكاملة التي لا يستحق غيرها أن يسمى معها رحمة، فإن تمام النعيم لا يكون إلا بها لزوال التحاسد والتباغض والنجاة من النار باجتناب السيئات ولذلك قالوا: ﴿ وَذَٰلِكَ ﴾ أي الأمر العظيم جداً المذكور من الرحمة والوقاية ﴿ هُوَ ﴾ أي وحده ﴿ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴾ الذي لا فوز أجمل منه، والظفر الجسيم الذي لا مطمع وراءه لطامع؛ إذ وجدوا بأعمال منقطعة نعيما لا ينقطع، وبأفعال قليلة ملكا لا تصل العقول إلى كنه جلاله، فالآية من الاحتباك: ذكر إدخال الجنات أولاً دليلاً على حذف النجاة من النار ثانياً، ووقاية السيئات ثانياً دليلاً على التوفيق للصالحات أولاً، وسر ذلك التشويق إلى المحبوب -وهو الجنان- بعمل المحبوب -وهو الصالح-

١) البحر المحيط (٩/٢٣٩).

٢) انظر: روح المعاني لإسماعيل حقي (٨/١٥٩).

والتنفير من النيران باجتناب الممقوت من الأعمال، وهو السيء فذكر المسبب أولاً وحذف السبب؛ لأنه لا سبب في الحقيقة إلا الرحمة، وذكر السبب ثانياً في إدخال النار وحذف المسبب.[1]

١٥) وبالتأمل في الآيات نجد التناسق والتناسب واضحا بين كل كلمة وكل جملة وكل مقطع، إذ يمهد الأول لما بعده، ويترتب الثاني على ما قبله، ليفيد المعاني المقصودة من الآيات، بلا تكرار ولا انتشار، وكخلاصة على حسن التناسق بين الموضوعات وروعة التناسب بين المعاني فيما سبق نجد أن الملائكة طلبوا من الله تعالى أولا أن يغفر للمؤمنين التائبين المتبعين، فهم عبيده الذين كلفهم بالدعوة إلى دينه وإعلاء كلمته، فلابد للعامل من الخطأ، فطلبوا لهم المغفرة وأن يقيهم عذاب الجحيم، ثم طلبوا أن يتفضل عليهم بالمثوبات فقالوا: ﴿ وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ﴾، ثم طلبوا أن يصونهم في الدنيا عن العقائد الباطلة والأعمال الفاسدة، ثم عللوا طلب هذه الصيانة بأن الصيانة عنها في الدنيا سبب للرحمة في الآخرة بالوقاية من عذاب الجحيم والفوز بجنات النعيم فقالوا: ﴿ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ ﴾ فجعلوا وقاية السيئات شرطا للفوز بالرحمة التي هي نعمة غير منقطعة بإزاء الأعمال المنقطعة وملك عظيم بمقابلة الأعمال الحقيرة،[2] وقد تم بهذا ما يدل على فضل الإيمان وتعظيم أهله ونصرتهم وإعانتهم، وهذا ما كان هو المقصود من مجيء آيات هذا المقطع، لتنتقل الآيات إلى مقطع آخر متناسق تماما مع ما سبق في مراحل نحو تناسق موضوعي كامل للسورة الكريمة.

١) انظر: نظم الدرر للبقاعي (١٧/١٦-١٧). وحدائق الروح والريحان للأمين الهرري (١٢٩/٢٥).

٢) انظر: حاشية محي الدين شيخ زاده على البيضاوي (٢٩٨/٧-٢٩٩).

المطلب الرابع: التفسير الإجمالي للآيات:

بدأت الآيات بتشريف المؤمنين ونصرتهم، فيخبر تعالى عن كمال لطفه بعباده المؤمنين، وما قيض لأسباب سعادتهم من الأسباب الخارجة عن قدرهم، من استغفار الملائكة المقربين لهم، ودعائهم لهم بما فيه صلاح دينهم وآخرتهم، فبيّن تعالى أن أشرف الملائكة وهم حملة العرش ومن يحف بالعرش مستغرقون في تنزيه الباري سبحانه عن كل عيب ونقص، والثناء عليه سبحانه بكل جلال وكمال، والاعتراف له بالفضل والإنعام المطلق، وهؤلاء الملائكة يؤمنون بالله تعالى ولا يستكبرون عن عبادته ويقرون ويشهدون له بالتوحيد توحيدا كاملا لا يشوبه شيء، وهم مع التسبيح بحمد ربهم والإيمان به يدعون للمؤمنين ويسألون ربهم أن يغفر لمن أقرّ بمثل إقرارهم من توحيد الله، ويتوسلون إلى ربهم بالثناء عليه أن يا ربنا قد وسعت رحمتك وعلمك كل شيء من خلقك فاغفر واصفح عن جرم من تاب من الشرك والمعاصي وأناب إلى توحيدك وطاعتك وأتبع طريق الإسلام، واكتب لهم النجاة من عذاب النار، وأدخلهم يا ربنا جنات عدن وبساتين إقامة دائمة التي وعدت بها من تاب وأطاع، هم ومن صلح وعمل الطاعات من أحبابهم من الآباء والأزواج والذريات، فتدعو الملائكة بأن يدخلهم الله جميعا هذه الجنات برحمته فهو سبحانه العزيز الذي يفعل ما يشاء، والحكيم الذي يدبر الأمور على أحسن الوجوه. ولشدة خطر الكفر والشرك والمعاصي، تعود الملائكة فتسأل ربها أن تقي هؤلاء الذين آمنوا وتابوا وأنابوا وأتبعوا سبيل الإسلام، أن تقيهم تبعات أعمالهم وعذاب النار، ومن زحزح يوم القيامة من النار فقد نجح وفاز فوزا عظيما.[1]

١) انظر: جامع البيان للطبري (٢١/٣٥٤-٣٥٨). وتيسير الكريم الرحمن للسعدي (١/٧٣٢).

المطلب الخامس: بيان ما ترشد إليه الآيات[1]:

١- إن كمال السعادة بأمرين: أحدِهِمَا: التعظيم لأمر الله، والثاني: الشفقة على خلق الله، ويجب أن يكون التعظيم لأمر الله مقدماً على الشفقة على خلق الله، فقوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ مشعر بالتعظيم لأمر الله، وقوله ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ مشعرٌ بالشفقة على خلق الله.

٢- تقدم التسبيح والتحميد على الاستغفار، يدل على أن تعظيم أمر الله مقدم على الشفقة على خلق الله.

٣- وحدة المؤمنين واتحاد مشاعرهم ودفاع بعضهم عن بعض واعتبار ذلك من دواعي الإيمان ودلائله، مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾التوبة: ٧١، وقوله ﷺ: ((مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ، وَتَرَاحُمِهِمْ، وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى))[2].

٤- في الآيات دليل على فضل المؤمنين، وبيانه أن الملائكة مشتغلون بالدعاء لهم، وفي هذا بشارة لهم، واستدعاء لقوة اليقين، وعون على اتباع الطريق السليم وتجنب ما نهى الله عنه.

٥- وفيها حث على الدعاء للمؤمنين بظهر الغيب، والاستغفار لهم، وهو من شأن أهل الرّحمة بعباد الله، اقتداءً بالملأ الأعلى، قال مطرف[3]: وجدنا أغشّ عباد الله لعباد الله الشياطين، ووجدنا أنصح عباد الله لعباد الله الملائكة، ثم تلا قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ﴾ الآيات.[4]

٦- احتج بعض العلماء بهذه الآية: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ...﴾ في إثبات أن الملَكَ أفضل من البشر، لأن الملائكة لما فرغوا من الثناء على الله والتقديس، اشتغلوا بالاستغفار لغيرهم، وهم المؤمنون، وهذا يدل على أنهم مستغنون عن الاستغفار لأنفسهم، وإلا لبدؤوا بأنفسهم قبل غيرهم بدليل

---

١) انظر: مفاتيح الغيب للفخر الرازي (٤٨٨/٢٧). وتفسير الجلالين (٦١٨/١). وبحر العلوم للسمرقندي (١٩٨/٣). وتفسير ابن عرفة (٣٩٣/٣). وإرشاد العقل السليم لأبي السعود (٢٦٧/٧). وروح البيان لإسماعيل حقي (١٥٧/٨). والبحر المديد لابن عجيبة (١١٦/٥). وأوضح التفاسير لمحمد ابن الخطيب (٥٧١/١). وأيسر التفاسير لأبي بكر الجزائري (٥١٨/٤). وصفوة التفاسير للصابوني (٨٧/٣). والتفسير المنير للزحيلي (٢٤/٨٣-٨٥). والتفسير الموضوعي لجامعة الشارقة بإشراف د. مصطفى مسلم (٦/٥٣٦-٥٣٧).

٢) صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، برقم "٢٥٨٦" (١٩٩٩/٤).

٣) هو أبو مصعب، مطرف بن عبد الله بن مطرف بن سليمان بن يسار الأصم الهلالي المدني، مولى أم المؤمنين ميمونة، صحب مالكا عشرين سنة، وتوفي بالمدينة سنة ٢٢٠هـ، -رحمه الله رحمة واسعة-. انظر: طبقات الفقهاء للشيرازي (١٥٣/١). وتاريخ الإسلام للذهبي (٤٠٦/١٥).

٤) انظر: البحر المحيط لأبي حيان (٢٣٨/٩).

قوله تعالى: ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ ﴾ محمد: ١٩، فقد أمر نبيه ﷺ أن يستغفر لنفسه ثم لغيره. وهذا قد يصح بالنسبة الى عوام المؤمنين، وأما خواصهم وهم الرسل فهم أفضل منهم على الإطلاق وإنما يصلّون عليهم بدل الاستغفار لهم تعظيما لشأنهم كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ ﴾ الأحزاب: ٥٦.

٧- بيان عظم الرب تعالى، وبيان فضل الإيمان وأهله، وبيان فضل التسبيح بقول: سبحان الله وبحمده، وقد صح أن من قالها مائة مرة في يوم غفرت ذنوبه ولو كانت مثل زبد البحر[١].

٨- في الآية دلالة على حصول الشفاعة من الملائكة للمذنبين؛ لأن الاستغفار طلب المغفرة، والمغفرة لا تذكر إلا في إسقاط العقاب، أما طلب النفع الزائد وهو زيادة الثواب للمؤمنين، فإنه لا يسمى استغفارا.

٩- قوله تعالى: ﴿ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ هي من أرجى الآيات للمؤمنين، ومثلها الآيات التي فيها استغفار الرسل للمؤمنين من نحو قول نوح عليه السلام: ﴿ رَّبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيۡتِيَ مُؤۡمِنٗا وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ﴾ نوح: ٢٨، وقول إبراهيم عليه السلام: ﴿ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ ٤١ ﴾ إبراهيم: ٤١، وما أمر الله تعالى به نبيه ﷺ في قوله: ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ ﴾. وقال: يحي بن معاذ[٢] لأصحابه في هذه الآية: افهموها فما في العالم جنة أرجى منها، إن ملكا واحدا لو سأل الله أن يغفر لجميع المؤمنين لغفر لهم، كيف وجميع الملائكة وحملة العرش يستغفرون للمؤمنين![٣].

١٠- في نظم استغفار الملائكة للمؤمنين في سلك وظائفهم المفروضة عليهم من تسبيحهم وتحميدهم وإيمانهم إيذان بكمال اعتنائهم به وإشعار بوقوعه عند الله تعالى في موقع القبول.

١١- في قوله تعالى: ﴿ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ مع أن المناسب (الغفور الرحيم) إشارة أن هذه النعمة محض تفضل من الله ولا يجب عليه شيء.

---

١) صحيح البخاري، كتاب الدعوات، باب فضل التسبيح، برقم "٦٤٠٥" (٨٦/٨).

٢) هو يحيى بن معاذ الرازي، أبو زكريا، العارف المشهور، واعظ زاهد، لم يكن له نظير في وقته، كان حكيم أهل زمانه، دوّن الناس كلامه، وجمعوا ألفاظه، وله كلمات سائرة، من أهل الري، وأقام ببلخ، ومات في نيسابور سنة ٢٥٨هـ، -رحمه الله تعالى رحمة واسعة-. انظر: المتفق والمفترق للخطيب البغدادي (٢٠٤٩/٣). وتاريخ بغداد للخطيب (٣٠٦/١٦). وتاريخ الإسلام للذهبي (٢٣١/٦).

٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٢٩٥/١٥).

١٢- السنة في الدعاء: أن يبدأ فيه بالثناء على الله تعالى، ثم يذكر الدعاء عقيبه، بدليل هذه الآية، وقوله ﷺ: ((إِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ فَلْيَبْدَأْ بِتَحْمِيدِ اللَّهِ وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ))[١]، والعقل والأدب يدلان أيضا على هذا الترتيب، وفي وصف الله تعالى بالرحمة والعلم -وهو ثناءٌ- قبل الدعاء تعليمُ العباد أدب السؤال والدعاء، فهم يبدؤون دعاءهم بأدبٍ ويستمطرون إحسانه وفضله وإنعامه.

١٣- أكمل الدعاء: ما طلب فيه ثواب الجنة، والنجاة من النار، وقد اشتمل دعاء الملائكة على الخير كله، وعلى أشياء كثيرة للمؤمنين وهي:

أ- طلب الغفران للتائبين من الشرك والمعاصي، الذين اتبعوا دين الإسلام.

ب- الوقاية من عذاب جهنم حتى لا يصل إليهم.

ج- إدخالهم جنات عدن، وإدخال أقاربهم معهم أيضا من الآباء والأزواج والذريات، وفي هذا بشرى للمؤمنين بأن الله تعالى يجمعهم بآبائهم وأزواجهم وذرياتهم في الجنة، وقد استجاب الله للملائكة، وأخبر عن ذلك بقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ ﴾ الطور: ٢١.

د- إن صونهم من السيئات وجزائها، أي وقايتهم في الدنيا من العقائد الفاسدة والأعمال الفاسدة، ووقايتهم في الآخرة من عذاب السيئات دليل على رحمة الله بدخول الجنة، والنجاة من النار، وتلك هي النجاة الكبيرة.

قال الشيخ علوان[٢]: ومن تحفظه يا رب بمقتضى لطفك وتوفيقك عن المعاصي في النشأة الأولى ﴿ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥ ﴾ البتة في النشأة الاخرى، ﴿ وَذَٰلِكَ ﴾ أي وقايتك وحفظك إياهم عن أسباب الخذلان والحرمان ﴿ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴾ والكرم العميم واللطف الجسيم[٣].

***

---

١) سنن الترمذي، أبواب الدعوات، باب جامع الدعوات عن النبي ﷺ، برقم "٣٤٧٧" (٥/٥١٧)، وقال الترمذي: "هذا حديث حسن صحيح"، وصححه الألباني، انظر: صحيح وضعيف سنن الترمذي برقم الحديث.

٢) هو نعمة الله بن أبي الْفضل محمود النخجواني، الشهير بِابْن علوان الرُّومِي أو بالشيخ علوان: متصوف، من أهل (آقشهر) بولاية قرمان، نسبته إلى نخجوان من بلاد القفقاس، رحل إلى الأناضول، واشتهر وتوفي بآقشهر، له (الفواتح الإلهية والمفاتح الغيبية) في التفسير، قال صاحب الشقائق النعمانية: "كتبه بلا مراجعة للتفاسير، وأدرج فيه من الحقائق والدقائق ما يعجز عن إدراكه كثير من الناس، مع الفصاحة في عبارته"، توفي سنة ٩٢٠هـ، -رحمه الله تعالى رحمة واسعة-. انظر: طبقات المفسرين للأدنه وي (١/٣٦٠). والأعلام للزركلي (٨/٣٩).

٣) انظر: الفواتح الإلهية (٢/٢٥٧).

المبحث الرابع: مشاهد من مصير الكافرين وندمهم الشديد

ويشمل الآيات (١٠-١٢)

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ
إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن
سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُواْ ۚ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ
﴿١٢﴾﴾.

المطلب الأول: ربط الموضوع بالمحور الأساس للسورة:

نجد في هذا المقطع تكملة لما سبق من ترهيب الكافرين، ولكنّ هاهنا زيادة في تمكين ذلك الترهيب من النفوس، إذ يصور لهم المشهد الحالي أحوالهم وقد قُضي الأمر وحلّ أجل العقاب وتحقق الوعيد، فلا هم على تحمل العذاب قادرون، ولا هم على الرجوع والخروج من العذاب مقتدرون، فلم يتبق لهم إلا الحسرة والندامة وتحمل العذاب، جزاء وفاقا على كفرهم وتكذيبهم بالله وآياته ورسله، وصلة الموضوع بمحور السورة الأساسي بارزة بإيصال الترهيب إلى أعماق قلوب الأعداء فيرتدعوا عن كفرهم أو يذعنوا للحق ويكونوا من جملة جنوده.

قال دروزة: "واضح أن في الآيات عودا على بدء في صدد ذكر ما أعد للكفار يوم القيامة، وهي متصلة بالسياق، وقد استهدفت فيما استهدفته إنذار الكفار وإثارة الرعب والندم في نفوسهم، مع واجب الإيمان بالمشهد الأخروي الذي أخبرت به"[١].

---

١) التفسير الحديث (٣٥٨/٤).

المطلب الثاني: التناسق بين هذا الموضوع وسابقه:

بعد ثلاثة مقاطع قدمت الأولى فيها مقدمة عامة تحتوي على مقاصد السورة الرئيسية القائمة على الترغيب والترهيب، ثم جاء المقطع الثاني والثالث لبيان أحوال الفريقين في الدنيا وصولا إلى مصائرهم في الآخرة، ثم جاء هذا المقطع الرابع –"كعادة القرآن الكريم في قرن الترغيب بالترهيب أو العكس"[1]– ليبين حال الكافرين وقد نزل بهم ما كانوا يوعدون في مشهد يجر المستقبل القادم ليجعله في حكم الماضي المفروغ منه لحتمية وقوعه وشدة اليقين في حدوثه، وتأكيدا على أن وعد الله ووعيده حق ثابتٌ وواقع آتٍ، وليس أماني وأحلام، ولا ظنون وأوهام.

وكما كان المقطع السابق فيه ملائكة مقربون يستغفرون ويدعون للمؤمنين، جاء المقطع الحالي بمشهد لملائكة العذاب وهي توبخ وتستنكر على الكافرين صنيعهم وتستبشع كفرهم يوم أن كانوا يدعون إلى الإيمان، فيلقونهم بما يسوؤهم ويضاعف آلامهم.

ومن أجمل ما قيل في هذا المعنى ما قاله سيد قطب مصورا المشهد المتناسق بين هذا المقطع وما قبله قائلا: "وبينما أن حملة العرش ومن حوله يتجهون إلى ربهم بهذا الدعاء لإخوانهم المؤمنين، نجد الذين كفروا في الموقف الذي تتطلع كل نفس فيه إلى المعين وقد عز المعين، نجد الذين كفروا هؤلاء وقد انبّتت العلاقات بينهم وبين كل أحد وكل شيء في الوجود، وإذا هم ينادون من كل مكان بالترذيل والمقت والتأنيب، وإذا هم في موقف الذلة بعد الاستكبار، وفي موقف الرجاء ولات حين رجاء"[2].

وقد ذكر الله فيما سبق أحوالهم وهم يجادلون في آيات الله، وأن كلمة العذاب حقت عليهم، وأنهم أصحاب النار، فناسب أن يردف ذلك –عقب ذكر حال المؤمنين بيانا للفرق وإظهاراً للتمايز بين الفريقين، وقد "تشوفت النفس إلى معرفة ما لأضدادهم"[3]– ببيان حالهم ومقالهم يوم القيامة بعد دخولهم النار وهم نادمون متحسرون يعترفون بذنوبهم وباستحقاقهم ما حلّ بهم من العذاب والنكال والوبال، ويسألون فرصة للرجوع إلى الدنيا لتلافي ما فرط منهم، وقد استهدفت الآيات تهديد و"إنذار الكفار وإثارة الرعب والندم في نفوسهم"[4]، وفي هذا زيادة اكتمال لمعنى الوعيد الشديد –في جو المعركة القائمة بين الفريقين– لعله يحمل

١) التفسير الوسيط لطنطاوي (٢٦٥/١٢).

٢) في ظلال القرآن (٣٠٧١/٥).

٣) نظم الدرر للبقاعي (١٧/١٧). وانظر: المحرر الوجيز لابن عطية (٥٤٨/٤).

٤) التفسير الحديث لدروزة (٣٥٨/٤).

الكافرين على أحد أمرين: قبول الإيمان أو كف الأذى عن المؤمنين، وكلاهما من أهم مقاصد هذه السورة -بل جميع سور القرآن الذي أنزل هداية للناس-.

قال المظهري[1]: "﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ إلى آخره متصل بقوله: ﴿ مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ وما بينهما معترضات في مدح الملائكة الموصوفين بالإيمان المستغفرين للمؤمنين الذين هم أعداء الكافرين"[2].

وقال ابن عاشور: "مقابلة سؤال الملائكة للمؤمنين بالنعيم الخالص يوم القيامة بما يخاطب به المشركون يومئذ من التوبيخ والتنديم، وما يراجعون به من طلب العفو مؤذنة بتقدير معنى الوعد باستجابة دعاء الملائكة للمؤمنين ... والانتقال منه إلى بيان ما سيحل بالمشركين يومئذ ضرب من الأسلوب الحكيم؛ لأن قوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوْنَ ﴾ الآيات مستأنف استئنافا بيانيا؛ كأن سائلا سأل عن تقبل دعاء الملائكة للمؤمنين، فأجيب بأن الأهم أن يسأل عن ضد ذلك، وفي هذا الأسلوب إيماء ورمز إلى أن المهم من هذه الآيات كلها هو موعظة أهل الشرك"[3].

ومما يستحق التأمل؛ المناسبة البليغة بين حالة الندم والتحسر والاعتراف في الآخرة مع حالة المجادلة في آيات الله بالباطل والتكذيب بها والمكابرة في الدنيا، إذ ينتقل الحال من النقيض إلى النقيض تماما، فأين جدالهم وحججهم التي كانوا يدفعون بها الحق؟! وكيف انقلبوا لا يجدون جوابا ولا دفاعا إلا الاستسلام والاعتراف والندم؟!

---

١) هو القاضي مولوي محمد ثناء الله الهندي الفان فتي الحنفي العثماني المظهري، من تلامذة الشاه ولي الله الدهلوي، كان الشاه عبد العزيز يسميه (بيهقي العصر) ولد في حدود عام ١١٤٣هـ، وتوفي سنة ١٢٢٥هـ، -رحمه الله تعالى رحمة واسعة-. انظر: معجم المؤلفين لكحالة (١٤٤/٩).

٢) التفسير المظهري (٢٤٦/٨).

٣) التحرير والتنوير (٢٤/٩٤-٩٥).

المطلب الثالث: التناسب بين الآيات والجمل والكلمات:

بعد بيان مشهد من أحوال أهل الإيمان، رجع إلى بيان مشهد لأهل الكفر وهم في عرصات يوم القيامة بعد أن عاينوا العذاب واطلعوا على صحائف أعمالهم السيئة، أو وهم في العذاب بعد انقضاء الحساب ونفاذ الأحكام، فكان من حالهم البئيس أن ملائكة العذاب تناديهم توبيخا واستنكارا بأن مقت الله لكم أكبر وأعظم وأشد من مقتكم لأنفسكم -مهما بلغ مقتكم وكراهيتكم لها- ومن مقت بعضكم لبعض بعد أن ذقتم وبال كفركم، "وما أوجع هذا التذكير وهذا التأنيب في ذلك الموقف المرهوب العصيب!"[١].

١) قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾: بدأت الآيات بتصوير مشهد يؤثر في أعماق القلوب، فشدة مقت النفس وكراهيتها والحنق عليها، وشدة الحسرة والندامة، وشدة الرجاء مع الذل والاعتراف والاقرار، كلها أمور تبيّن الكيفية العميقة والحالة النفسية للكافرين بعد أن حلّ بهم العقاب وأحاط بهم العذاب، فهؤلاء الكفار إذا كان يوم القيامة وقد عاينوا عذاب النار قبل أن يدخلوها، أو بعد دخولهم فيها -وهو الأظهر كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿ فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴾- ينادون نداء توبيخ وتقريع وملامة، ينادون من قِبَلِ الملائكة -ابتداءً أو تبليغا عن رب العزة- بأن مقت الله لهم أكبر وأعظم وأشد من مقتهم أنفسهم، ينادون من مكان بعيد كما قال تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٍ ﴾فصلت:٤٤، تنبيها إلى بعدهم عن الحق وبعدهم عن مرتبة الجلال.[٢]

وأطلق ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ ليشمل أنواع الكفر كلها، من الكفر بالله، أو بكتبه، أو برسله، أو باليوم الآخر.[٣]

٢) قوله تعالى: ﴿ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾: "وإنما كان مقت الله أكبر من مقت العبد؛ لأن مقت العبد مأخوذ من مقت الله، إذ لو لم يأخذه الله بجريمته لما وقع في مقت نفسه، ولأن أشد العقوبات آثار سخط الله وغضبه على العباد، كما أن أجلّ النعم آثار رضاه عنهم، فإذا عرف الكافر

---

١) في ظلال القرآن لسيد قطب (٣٠٧٢/٥). وانظر: النكت والعيون للماوردي (١٤٥/٥). والتفسير الوسيط لطنطاوي (٢٦٦/١٢).

٢) انظر: روح البيان لإسماعيل حقي (١٦٠/٨). والتحرير والتنوير لابن عاشور (٩٥/٢٤). وحدائق الروح والريحان لمحمد الأمين الهرري (١٢٩/٢٥).

٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن للسعدي (٧٣٣/١).

في الآخرة أن ربه عليه غضبان فلا شيء أصعب على قلبه منه، على أنه لا بكاء ينفعه ولا غناء يزيل عنه ما هو فيه ويدفعه، ولا يسمع منه تضرع ولا يرجى له حيلة"[1]، -نسأل الله السلامة والعافية-.

ومقت الله لهم فيه وجهان:

الأول: أنه حاصل في الآخرة، والمعنى: لمقت الله لكم في هذا الوقت أشد من مقتكم أنفسكم في هذا الوقت.

والثاني: -وعليه الأكثرون- أن التقدير: لمقت الله لكم في الدنيا إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون، أكبر من مقتكم أنفسكم الآن يوم القيامة حين عاينتم وذقتم العذاب ورأيتم أعمالكم الخبيثة، قاله قتادة ومجاهد والسدي والحسن البصري وابن جرير.[2]

و"جائز أن يقال لهم: إن الواجب عليكم أن تروا مقت الله إياكم وقت ارتكابكم العصيان وعند تعاطيكم ما تعاطيتم أكبر وأشد من مقتكم العذاب ودخولكم النار؛ لأنكم إن رأيتم مقت الله إياكم عند ارتكابكم ما ارتكبتم أنه ينزل بكم، لزجركم ومنعكم عن ارتكاب ذلك وتعاطيه، وحملكم على إيثار ما دعيتم إليه من التوحيد لله تعالى والإيمان به"[3].

وأما مقت الكافرين أنفسهم فإنه لا نزاع في أنه يحصل يوم القيامة.

وفي تفسير مقتهم أنفسهم وجوه:

الأول: أنهم إذا شاهدوا القيامة والجنة والنار، وأعطوا كتابهم فنظروا في سيئاتهم، مقتوا ولاموا أنفسهم إذ تركوا الإيمان وعملوا الموبقات وأصروا على التكذيب بهذه الأمور في الدنيا. و"قد يمقتون أنفسهم حين تظهر لهم هيئاتها المظلمة وصفاتها المؤلمة، وسواد الوجه الموحش وقبح المنظر المنفّر"[4].

---

١) روح البيان لإسماعيل حقي (١٦١/٨).

٢) انظر: تفسير مجاهد (٥٨٢/١). وغريب القرآن لابن قتيبة (٣٣٢/١). وجامع البيان للطبري (٣٥٨/٢١-٣٥٩). ومفاتيح الغيب للفخر الرازي (٤٩٤/٢٧). وحدائق الروح والريحان لمحمد الأمين الهرري (١٣٠/٢٥).

٣) تأويلات أهل السنة للماتريدي (٩/٩).

٤) محاسن التأويل للقاسمي (٣٠٣/٨).

الثاني: أن الأتباع يشتد مقتهم للرؤساء الذين دعوهم إلى الكفر في الدنيا، والرؤساء أيضا يشتد مقتهم للأتباع، فعبر عن مقت بعضهم بعضا بأنهم مقتوا أنفسهم، كما قال تعالى: ﴿ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا ﴾.

الثالث: إذا خطبهم إبليس وهم في النار بقوله: ﴿ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَـٰنٍ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم ﴾ ففي هذه الحالة مقتوا أنفسهم.[1]

وقال ابن عاشور: "ومعنى: مقتهم أنفسهم حينئذٍ أنهم فعلوا لأنفسهم ما يشبه المقت إذ حرموها من فضيلة الإيمان ومحاسن شرائعه ورضوا لأنفسهم دين الكفر بعد أن أوقظوا على ما فيه من ضلال ومغبة سوء، فكان فعلهم ذلك شبيها بفعل المرء لبغيضه من الضر والكيد، وهذا كما يقال: فلان عدو نفسه ... فالمقت مستعار لقلة التدبر فيما يضر. وقد أشار إلى وجه هذه الاستعارة قوله: ﴿ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَـٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴾ فمناط الكلام هو: ﴿ فَتَكْفُرُونَ ﴾"[2].

٣) قوله تعالى: ﴿ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَـٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴾: لما أخبر تعالى ببعض أحوال الكافرين في الآخرة من المقت والعذاب أردفه ببيان سبب ذلك -لتكتمل صورة التوبيخ-، وهو كفرهم بالإيمان وتكذيبهم لداعيه -مع تكراره الدعوة عليهم- وهم في زمن الاختيار والإمهال، فإنهم كانوا يُدعون إلى الإيمان بالله الذي تنشرح له الصدور السليمة وتُقبل عليه الفِطَرُ النقية وتشهد له السنن الإلهية والقوانين الكونية، فيأبون ذلك بلا برهان ولا دليل إلا كبرا وجحودا وعنادا.

قال ابن عاشور: "ولما كان مقتهم أنفسهم حرمهم من الإيمان الذي هو سبب النجاة والصلاح وكان غضب الله عليهم أوقعهم في العذاب، كان مقت الله إياهم أشد وأنكى من مقتهم أنفسهم؛ لأن شدة الإيلام أقوى من الحرمان من الخير. والمقت الأول قريب من قوله: ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَـٰلَةَ

---

١) انظر: معاني القرآن للفراء (٦/٣). والهداية إلى بلوغ النهاية لمكي بن أبي طالب (٦٤٠٦/١٠). ومفاتيح الغيب للفخر الرازي (٤٩٤/٢٧). وغرائب القرآن للنيسابوري (٢٥/٦).

٢) التحرير والتنوير (٩٥/٢٤).

﴿ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ ﴾البقرة: ١٦، والمقت الثاني قريب من قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ﴾فاطر: ٣٩، وهو مقت العذاب، هذا هو الوجه في تفسير الآية الملاقي لتناسق نظمها"[١].

وذكر ظرف مقتهم العائد ووباله عليهم بقوله: ﴿ إِذْ ﴾ وهو ظرف للزمن الماضي، -يؤكد صدور هذا الفعل منهم يقينا- أي حين كنتم تدعون إلى الإيمان على لسان الرسول ﷺ وذلك في الدنيا، بقرينة ﴿ تُدْعَوْنَ ﴾، وأشار إلى أن الإيمان لظهور دلائله ينبغي أن يقبل من أي داع كان، فبنى الفعل لما لم يسم فاعله فقال: ﴿ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ ﴾، أو لظهور أن الداعي هو الرسول ﷺ أو الرسل عليهم السلام.[٢]

"وجيء بالمضارع في ﴿ تُدْعَوْنَ ﴾ و ﴿ فَتَكْفُرُونَ ﴾ للدلالة على تكرر دعوتهم إلى الإيمان وتكرر كفرهم، أي تجدده"[٣].

وتفريع ﴿ فَتَكْفُرُونَ ﴾ بالفاء على ﴿ تُدْعَوْنَ ﴾ يفيد أنهم أعقبوا الدعوة بالكفر، أي بتجديد كفرهم السابق وبإعلانه، دون أن يتمهلوا مهلة النظر والتدبر فيما دعوا إليه، فأوقعوا الكفر الذي هو تغطية الآيات موضع إظهارها والإذعان بها اتباعا لأنفسهم الأمارة ومسارعة إلى هواها، أو اقتداء بأخلائهم المضلين واستحبابا لآرائهم.[٤]

٤) قوله تعالى: ﴿ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴾: لما عرف الخاسرون أن الذي كانوا عليه في الدنيا كان فاسدا باطلا، وتبين لهم حقيقة المآل وعاينوا الإيمان وقد سقط عنهم غشاء الخداع والضلال وعرفوا أن المتجه لله وحده، توجهوا إليه برجاء المستضعفين الأذلاء و ﴿ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴾، فشرعوا بعد أن اكتمل مشهد التوبيخ والتحقير والتنديم وبعد ما سمعوا النداء الهائل المهول بالدفاع والجواب على نداء الملائكة بالإقرار والاعتراف متخذين ذلك سبيلا لأن يدركهم عفو الله ومغفرته، فاتجهوا إليه في تمام العجز والندامة والحسرة يعترفون بأخطائهم وذنوبهم، وطمعوا أن يكون اعترافهم بذنوبهم

---

١) التحرير والتنوير (٩٦/٢٤).

٢) انظر: نظم الدرر للبقاعي (١٧/١٧). والتحرير والتنوير لابن عاشور (٩٥/٢٤-٩٦).

٣) التحرير والتنوير لابن عاشور (٩٥/٢٤).

٤) انظر: نظم الدرر للبقاعي (١٧/١٧). وإرشاد العقل السليم لأبي السعود (٢٦٨/٧). والتحرير والتنوير لابن عاشور (٩٦/٢٤).

وسيلة إلى منحهم خروجا من العذاب خروجا نهائيا أو مؤقتا ليستريحوا منه ولو جزءاً من الزمن، متوسلين بتكرر الإماتة والإحياء -الدالة على قدرة الله تعالى المطلقة- لعلهم أن يمحنوا فرصة أخيرة ليستدركوا ما فاتهم ويؤمنوا بالله العظيم، ويشتغلوا عند الرجوع إليها بالأعمال الصالحة، وقد أطمعهم إلى هذا القول وهذه الأماني النداء الموجه إليهم من قِبل الله والذي أوهمهم أن فيه نوع إقبال عليهم.[١]

ومع توسلهم بالاعتراف بذنوبهم والإقرار على أنفسهم توسلوا كذلك بمخاطبة قدرة الله تعالى المطلقة وإظهارهم إيمانهم الحالي، ويظهر هذا في قولهم: ﴿قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ وَأَحۡيَيۡتَنَا ٱثۡنَتَيۡنِ﴾، إشارة إلى الأدوار التي مر بها الإنسان، ويمكن أن يفهم هذا على وجوه:

الأول: لما كان من أعظم ذنوبهم إنكار البعث قالوا ذلك اعترافا منهم بالحياة الثانية؛ لأنهم كانوا ينكرونها، وأما الموتتان فذكرا لترتيبهما عليهما ذكرا حسب ترتيبهما عليهما وجودا، والحياة الأولى ذكرت إدماجا للاستدلال في صلب الاعتراف تزلفا منهم، أي أيقنا أن الحياة الثانية حق، وذلك تعريض بأن إقرارهم صدق لا مواربة فيه ولا تصنع؛ لأنه حاصل عن دليل؛ ولذلك جُعل مسببا على هذا الكلام بعطفه بفاء السببية في قوله: ﴿فَٱعۡتَرَفۡنَا بِذُنُوبِنَا﴾[٢].

"والحاصل: أنهم أجابوا: بأن الأنبياء دعوهم إلى الإيمان بالله واليوم الآخر، وكانوا يعتقدون ما يعتقده الدهرية: ألاَّ حياة بعد الموت، فلم يلتفتوا إلى دعوتهم، وداموا على الإنكار، فلمّا رأوا الأمر عياناً، اعترفوا"[٣].

الثاني: إشارة منهم أن الذي أحيا ثم أمات ثم أحيا، لقادر أن يمنحهم فرصة أخرى فيردهم إلى الدنيا ليؤمنوا ويعملوا صالحا ثم يميتهم ثم يحيهم من جديد، فتكون لهم موتة ثالثة وإحياءة ثالثة إلى الجنة، إذ لما رأوا أنّ الإماتة والإحياء قد تكررا عليهم علموا أنّ الله قادر على الإعادة، كما هو قادر على الإنشاء، فاعترفوا بذنوبهم التي اقترفوها من إنكار البعث وما تبعه من المعاصي، وهم يزعمون إن أعطوا فرصة أنهم لن يعودوا

١) انظر: الفواتح الإلهية للشيخ علوان (٢/٢٥٨). وفي ظلال القرآن لسيد قطب (٥/٣٠٧٢). والتحرير والتنوير لابن عاشور (٢٤/٩٧).
٢) انظر: نظم الدرر للبقاعي (١٧/١٨). وإرشاد العقل السليم لأبي السعود (٧/٢٦٩). والتفسير القرآني للقرآن لعبد الكريم الخطيب (١٢/١٢١١). والتحرير والتنوير لابن عاشور (٢٤/٩٧).
٣) البحر المديد لابن عجيبة (٥/١١٧).

إلى ما نهوا عنه أبدا، وقد كذّب الله دعواهم هذه في آية أخرى بقوله: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾الأنعام: ٢٨.[١]

قال ابن عطية: "وهذه الآية يظهر منها أن معناها منقطع من معنى قوله تعالى: ﴿إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾، وليس الأمر كذلك، بل الآيتان متصلتا المعنى، وذلك أن كفرهم في الدنيا كان أيضا بإنكارهم البعث واعتقادهم أنه لا حشر ولا عذاب، ومقتهم أنفسهم إنما عظمه؛ لأن هذا المعتقد كذبهم، فلما تقرر مقتهم لأنفسهم ورأوا خزيا طويلا عريضا رجعوا إلى المعنى الذي كان كفرهم به وهو البعث، وخرج الوجود مقترنا بعذابهم فأقروا به على أتم وجوهه، أي قد كنا كفرنا بإنكارنا البعث ونحن اليوم نقر أنك أحييتنا اثنتين وأمتنا اثنتين، كأنهم قصدوا تعظيم قدرته تعالى واسترضاءه بذلك، ثم قالوا عقب هذا الإقرار طمعا منهم، فها نحن معترفون ﴿بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ﴾؟ وهذا كما تكلف إنسانا أن يقر لك بحق وهو ينكرك، فإذا رأى الغلبة وضرع أقرّ بذلك الأمر متمما أوفى مما كنت تطلب به أولا"[٢].

وإتماما للفائدة أذكر أقوال أهل العلم في المراد بالموتتين والحياتين، وقد جاءت على ثلاثة أقوال:

القول الأول: الموتة الأولى: هي الحالة التي يكون بها الجنين نطفة لا حياة فيه في أول تكوينه قبل أن ينفخ فيه الروح، ووجهه أن الموت قد يطلق على عادم الحياة من الأصل.

والحياة الأولى: هي ما يحصل عند نفخ الروح في الجسد بعد مبدأ تكوينه في بطون الأمهات.

والموتة الثانية: هي الموتة المتعارفة عند انتهاء الآجال الدنيوية بقبض الأرواح.

والحياة الثانية: هي التي تحصل عند البعث من القبور يوم القيامة، وقد ذهب إلى هذا المعنى جمهور السلف وجمهور المفسرين وأهل التحقيق منهم، ونقله ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس

---

١) انظر: الكشف والبيان للثعلبي (٢٦٩/٨). وتفسير القرآن العظيم لابن كثير (١٣٣/٧). ونظم الدرر للبقاعي (١٨/١٧). والتفسير الحديث لدروزة (٣٥٩/٤). والأساس في التفسير لسعيد حوّى (٤٩٣٧/٩-٤٩٣٨).

٢) المحرر الوجيز (٥٤٩/٤). وانظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي (٢٢٨/٢). والبحر المحيط لأبي حيان (٢٤١/٩).

وابن مسعود –رضي الله عنهم– وجعلوه نظير قوله تعالى: ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾البقرة: ٢٨.[1]

القول الثاني: الموتة الأولى: هي الموتة المعروفة بقبض الأرواح عند انتهاء أجل الحياة الدنيا.

والحياة الأولى: هي ما يحصل في القبر وحياة البرزخ.

والموتة الثانية: هي الإماتة بعد الحياة في القبر وسؤال منكر ونكير.

والحياة الثانية: هي التي تحصل عند البعث والنشور من القبور، وهو قول السدي، وقيل إن هذا أنسب بحالهم، فإن مقصودهم تعديد أوقات البلاء عليهم، وهي أربعة: الموتة الأولى، والحياة في القبر، والموتة الثانية، والحياة في القيامة، فهذه الأربعة أوقات محنتهم، فأما الحياة في الدنيا فليست من أوقات البلاء، فلهذا السبب لم يذكروها.[2]

القول الثالث: الموتة الأولى: لما استخرج الله ذرية آدم من ظهره وأخذ عليهم الميثاق كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ الأعراف:١٧٢، الآية، ثم أماتهم بالرد إلى الأصلاب. والحياة الأولى: هي ما يحصل عند إخراجهم من ظهر آدم عليه السلام يوم أخذ الميثاق عليهم.

والموتة الثانية: لما أماتهم بقبض أرواحهم بعد حياتهم الدنيا.

والحياة الثانية: هي ما يحصل عند نفخ الروح في الأجنة. عبد الرحمن بن زيد.[3]

---

١) انظر: جامع البيان للطبري (٣٦٠/٢١). ومعاني القرآن للزجاج (٣٦٨/٤). وتفسير ابن أبي حاتم (٣٢٦٤/١٠–٣٢٦٥). والهداية إلى بلوغ النهاية لمكي بن أبي طالب (٦٤٠٦/١٠). وتفسير القرآن للسمعاني (٩/٥). ومفاتيح الغيب للفخر الرازي (٤٩٥/٢٧). والتحرير والتنوير لابن عاشور (٩٧/٢٤). وأضواء البيان لمحمد الأمين الشنقيطي (٣٧٤/٦). وحدائق الروح والريحان لمحمد الأمين الهرري (١٣١/٢٥).

٢) انظر: جامع البيان للطبري (٣٦٠/٢١). ومعاني القرآن للزجاج (٣٦٨/٤). وتفسير ابن أبي حاتم (٣٢٦٤/١٠–٣٢٦٥). والهداية إلى بلوغ النهاية لمكي بن أبي طالب (٦٤٠٦/١٠). وتفسير القرآن للسمعاني (٩/٥). ومفاتيح الغيب للفخر الرازي (٤٩٥/٢٧). والتحرير والتنوير لابن عاشور (٩٧/٢٤). وحدائق الروح والريحان لمحمد الأمين الهرري (١٣١/٢٥).

٣) انظر: جامع البيان للطبري (٣٦٠/٢١). ومعاني القرآن للزجاج (٣٦٨/٤). والهداية إلى بلوغ النهاية لمكي بن أبي طالب (٦٤٠٧/١٠–٦٤٠٨). وتفسير القرآن للسمعاني (٩/٥). ومفاتيح الغيب للفخر الرازي (٤٩٥/٢٧). والتحرير والتنوير لابن عاشور (٩٧/٢٤–٩٨). وحدائق الروح والريحان لمحمد الأمين الهرري (١٣١/٢٥).

وعبد الرحمن هو عبد الرحمن بن زيد بن أسلم العدوي العُمَري المدني، كان صاحب قرآن وتفسير، وهو ضعيف في الحديث، جمع تفسيراً في مجلد، وكتاباً في الناسخ والمنسوخ، توفي سنة ١٨٢هـ، –رحمه الله رحمة واسعة–. أنظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (٣٤٩/٨). وشذرات الذهب لابن العماد (٢٩٧/١).

وهذان القولان -من السدي وابن زيد-ضعيفان؛ لأنه يلزمهما على ما قالا ثلاث إحياءات، "وهو خلاف ما في القرآن، إلا أن يتمحل فيجعل إحداها غير معتد بها"[١]، كما فعل السمعاني فقال: "فإن قيل: فأين الحياة في الآخرة؟ قلنا: المراد على هذا القول حياتان وموتتان في الدنيا سوى الحياة في الآخرة"[٢]، والصحيح قول ابن مسعود وابن عباس ومن تابعهما.[٣]

٥) قوله تعالى: ﴿فَٱعۡتَرَفۡنَا بِذُنُوبِنَا﴾: لما قالوا: ﴿وَأَحۡيَيۡتَنَا ٱثۡنَتَيۡنِ﴾ فرّعوا عليه قولهم: ﴿فَٱعۡتَرَفۡنَا بِذُنُوبِنَا﴾، فالفاء هنا رابطة معناها التسبب، ويكون قولهم ﴿أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ وَأَحۡيَيۡتَنَا ٱثۡنَتَيۡنِ﴾ سببا لاعترافهم بالذنوب باعتبار أنهم كانوا كافرين بالبعث، فلمّا رأوا الإماتة والإحياء قد تكرر عليهم، علموا أن الله قادر على البعث فاعترفوا بذنوبهم، وهي إنكار البعث، وما أوجب لهم إنكاره من المعاصي، فإن من لم يؤمن بالآخرة لا يبالي بالوقوع في المعاصي، فكانت إحدى الإحياءتين السبب في تحقق ذنوبهم، ولما رأوا البعث رأي العين أيقنوا بأنهم مذنبون إذ أنكروه ومذنبون بما استكثروه من الذنوب، فجملة ﴿فَٱعۡتَرَفۡنَا بِذُنُوبِنَا﴾ إنشاء إقرار بالذنوب، ولذلك جيء فيه بالفعل الماضي -كما هو غالب صيغ الخبر المستعمل في الإنشاء مثل صيغ العقود نحو: بعت-، والمعنى: نعترف بذنوبنا.[٤]

٦) قوله تعالى: ﴿فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ مِّن سَبِيلٖ﴾: لما اعترفوا، جعلوا هذا الاعتراف ضربا من التوبة توهما منهم أن التوبة تنفع يومئذ، فلذلك فرعوا عليه: ﴿فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ مِّن سَبِيلٖ﴾، فالاستفهام مستعمل في العرض والاستعطاف كليا لرفع العذاب، وقد تكرر في القرآن حكاية سؤال أهل النار الخروج أو التخفيف ولو يوما.

وتنكير ﴿خُرُوجٖ﴾ للنوعية تلطفا في السؤال، أي إلى شيء من الخروج قليل أو كثير، سريع أو بطيء؛ لأن كل خروج ينتفعون به راحة من العذاب كقولهم: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ يُخَفِّفۡ عَنَّا يَوۡمٗا مِّنَ ٱلۡعَذَابِ﴾غافر:٤٩.

---

١) الكشاف للزمخشري (١٥٥/٤).

٢) تفسير القرآن للسمعاني (٩/٥).

٣) انظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي (٢٢٨/٢). وتفسير القرآن العظيم لابن كثير (١٣٣/٧). وأضواء البيان لمحمد الأمين الشنقيطي (٣٧٤/٦).

٤) انظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي (٢٢٨/٢). والتحرير والتنوير لابن عاشور (٩٨/٢٤).

وتنكير ﴿سَبِيلٍ﴾ كتنكير ﴿خُرُوجٍ﴾ أي من أي وسيلة كيفما كانت، بحق، أو بعفو، أو بتخفيف، أو غير ذلك، وإنما يقولون ذلك تعللا وتحيرا.[1]

قال الزمخشري: "وهذا كلام من غلب عليه اليأس والقنوط"[2]، يريد أن في اقتناعهم بحصول أي نوع من الخروج دلالة على أنهم يستبعدون حصول الخروج الكلي.

٧) قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡ﴾: لما تقدم المشركون بالاستعطاف والاسترحام وهم في غاية القنوط واليأس ترقبوا نوع إجابة لدعائهم، فكان أن أعرض الله عنهم وعدل عن جوابهم بالحرمان من الخروج إلى ذكر سبب وقوعهم في العذاب، وإذ قد كانوا عالمين به حين قالوا: ﴿فَٱعۡتَرَفۡنَا بِذُنُوبِنَا﴾، كانت إعادة التوقيف عليه بعد سؤال الصفح عنه كناية عن استدامته وعدم استجابة سؤالهم الخروج منه على وجه يشعر بتحقيرهم، وزيد ذلك تحقيقا بقوله: ﴿فَٱلۡحُكۡمُ لِلَّهِ ٱلۡعَلِيِّ ٱلۡكَبِيرِ﴾، فبيّن تعالى أنّ ما حلّ بهم ليس لأن دلائل الإيمان خفيت عليهم، فهم كانوا يؤمنون بأن الله وحده هو من خلقهم، ولكن أبت نفوسهم المريضة إلا الشرك بربهم تعالى، واليوم يجدون أن الشركاء قد اختفوا وتفرد الله تعالى العلي الكبير بالحكم والقضاء، فالحكم اليوم لله تعالى وحده لا لما يعبدونه من الأصنام والأنداد والشركاء، وحكمه تعالى فيهم كله عدل جزاءً وفاقا.

٨) قوله تعالى: ﴿وَإِن يُشۡرَكۡ بِهِۦ تُؤۡمِنُواْ﴾: تأكيد للمعنى السابق، وبيان أن كفرهم كفر إشراك لا كفر إلحاد، فهم يؤمنون بالله تعالى ربا وخالقا، ولكنه يشركون معه غيره في الدعاء والعبادة والقصد والتوجه، وهم موقنون بشركائهم غاية الإيقان ومنكرون للتوحيد غاية الإنكار، فجاءت الآية بنقيض إيمانهم ويقينهم الباطل، إذ جيء في الشرط الأول بـ ﴿إِذَا﴾ التي الغالب في شرطها تحقق وقوعه، وذلك إشارة إلى أن دعاء الله وحده أمر محقق بين المؤمنين لا تخلو عنه أيامهم ولا مجامعهم، مع ما تفيد ﴿إِذَا﴾ من الرغبة في حصول مضمون شرطها.

وجيء في الشرط الثاني بـ ﴿وَإِن﴾ التي أصلها عدم الجزم بوقوع شرطها، أو أن شرطها أمر مفروض -مع أنّ الإشراك محقق- تنزيلا للمحقق منزلة المشكوك المفروض، للتنبيه على أن دلائل بطلان الشرك

---

١) انظر: التحرير والتنوير لابن عاشور (٩٩/٢٤).
٢) الكشاف (١٥٥/٤).

واضحة بأدنى تأمل وتدبر، فنزّل إشراكهم المحقق منزلة المفروض؛ لأن المقام مشتمل على ما يقلع مضمون الشرط من أصله فلا يصلح إلا لفرضه، على نحو ما يفرض المعدوم موجودا أو المحال ممكنا.

٩) قوله تعالى: ﴿فَٱلۡحُكۡمُ لِلَّهِ ٱلۡعَلِيِّ ٱلۡكَبِيرِ﴾: لما كانت النفوس لا تنقاد غاية الانقياد للحاكم إلا مع العظمة الزائدة والقدم في المجد ختم الآيات بصفتي العلي والكبير، وهما صفتان تناسبان موقف الحكم، والاستعلاء على كل شيء، والكبر فوق كل شيء، في موقف الفصل الأخير، وإيثارهما بالذكر هنا متناسق مع مضمون آيات المقطع؛ لأن معناهما مناسب لحرمانهم من الخروج من النار، أي لعدم نقض حكم الله عليهم بالخلود في النار، لأن العلو في الذات والصفات وشرف القدر ومراتب الكمالات، يقتضي تمام العلم وتمام العدل، فلذلك لا يحكم إلا بما تقتضيه الحكمة والعدل.

وكذلك وصف الكبير في الذات والصفات المقتضي للقوة والكمال، والغنى المطلق، وهذا يقتضي الغنى عن الجور والظلم، فتخرّجَ من هذا أن حكم الله فيهم حكم عادل حكيم ليس فيه ظلم ولا جور، وما كان كذلك فهو ثابت غير منقوض ولا منقوص.[١]

١٠) نجد أن المقطع يحرك في النفوس أن تنظر وتتفكر بالعقل وتفتح القلب لما أرسلت به الرسل، فيعرضوها على المنطق الحق ولا يقفوا منها موقف المعاند المغالط الذي تعمي بصيرته شهواته، وتحجر عقله مكانته الاجتماعية، فلا يسمع إلا نداء المركز والجاه والنفوذ ودوافع الشهوات والملذات الجسدية، فبيّنت له هذه الآيات والآيات السابقة مصيره في الحالتين، في حالة الإيمان ثم في حالة الكفر؛ ليختار العاقل حالة الإيمان قبل فوات الأوان.[٢] فالمقطع قدّم لنا صورة عميقة لمآل المجادلين في آيات الله، والمكذبين بها، المشركين بالله والكافرين باليوم الآخر، كل ذلك في تناسق موضوعي مع ما قبله من المقاطع والآيات، إذ كان الترغيب والترهيب متساويان في البداية، ثم زيد في الترغيب وزيد في الترهيب، ليصل الأثر إلى أعماق النفوس فتقف عن غيها أو تُقبل على ربها طائعة منيبة، وفي الآيات إشارة إلى الترغيب في التوبة ولو في الشيب وقرب الموت قبل فوات الأوان، وهذا يتناسق مع محور السورة الأساسي في نسق تصاعدي، وسيتبعه نسق تنوعي في المقطع الآتي -إن شاء الله تعالى-.

---

١) نظم الدرر للبقاعي (٢٠/١٧). وفي ظلال القرآن لسيد قطب (٣٠٧٢/٥). والتحرير والتنوير لابن عاشور (١٠٢/٢٤).

٢) انظر: التفسير الموضوعي لجامعة الشارقة، بإشراف د. مصطفى مسلم (٥٣٨/٦).

المطلب الرابع: التفسير الإجمالي للآيات:

بدأت الآيات الكريمات في هذا المقطع ببيان أحوال يقينية للكافرين، فجاءت بصيغة الماضي إشارة إلى حتمية الأمر وانقضاء الحكم، وحكى عن حالهم ومقالهم على طريقة حكاية المحاورات في ثلاثة مشاهد:

المشهد الأول: للكافرين والمشركين من أهل مكة وغيرهم ينادَون يوم القيامة من قِبل الملائكة ابتداء منهم أو تبليغا عن الله تعالى، ينادَون وهم في عذاب جهنم –وقد تحقق وعيد الله فيهم– أن بغض الله تعالى وكرهه ومقته العظيم لكم على كفركم وإعراضكم عن الإيمان وهو يُعرَضُ عليكم في الدنيا وداعي الله يدعوكم أشد وأكبر من بغضكم وكرهم ومقتكم ولومكم لأنفسكم ولبعضكم اليوم على ما سبق من كفركم وتفريطكم واغتراركم وعلى ما أنتم فيه من الألم الشديد والعذاب المهين بسبب ما قدمتم من الأعمال الخبيثة.

المشهد الثاني: جواب هؤلاء المشركين في صورة اعتذار واستعطاف بقولهم ربنا إنا كنا أمواتا في أرحام أمهاتنا قبل أن تنفخ فينا الروح، فأحييتنا بنفخ الروح وبث الحياة فينا، حتى قضينا أعمارنا وجاء أجلنا فأمتنا ثانية، حتى جاء البعث ويوم القيامة فأحييتنا ثانية وأخرجتنا من الأجداث، فيا ربنا نحن نؤمن بكل ذلك، ونعترف بكل ما تقدم من ذنوبنا، وقد أقررنا بشركنا، وظهر لنا أن البعث حق، فهل من طريق أو وسيلة إلى خلاصنا مما نحن فيه من العذاب، وهل من سبيل إلى خروجنا من النار أي خروج كان، قليلا أم كثيرا، عاجلا أم آجلا، دائما أم مؤقتا.

المشهد الثالث: جواب الله تعالى لهم بأمرين:

- الأول: إعراضه عن إجابة دعائهم إعراضا تاما بقصد المنع والزجر والإهانة، كأنما أجيبوا أن لا سبيل إلى ذلك، وما لكم إلا هذا العذاب.
  أو أن في الكلام متروك استغنى بدلالة الظاهر عليه، تقديره: فأجيبوا أن لا سبيل إلى ذلك.
- الثاني: ذكره الأمر الذي بسببه نالهم وأصابهم ما أصابهم بأنه من عند أنفسهم مما قدموه من كفرهم بالله تعالى وبتوحيده إذا دُعي ونودي وقُصد وحده، وقولهم: ﴿ أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ ﴾ص:٥، وإذا دُعي مع الله غيره آمنوا بالشركاء وجددوا قصدهم لها.

فكان قضاء الله تعالى فيهم هو ما هم فيه قضاء عدلا حكيما لا ظلم فيه ولا جور، جزاء وفاقا، صادرا ممن له الحكم والقضاء بين العباد، وهو سبحانه العلي الكبير القاهر لخلقه، والمتعالي بعظمته وقدره، الذي لا يتردد ولا يظلم أحدا، ومن علو قدره كمال عدله تعالى، وأنه يضع الأشياء مواضعها، ولا يساوي بين المتقين والفجار، وله الكبرياء والعظمة والمجد، فإذا حكم بين العباد، فحكمه لا يغير ولا يبدل، وقد حكم على الكافرين بالخلود الدائم في النار -نسأل الله السلامة والعافية-.

المطلب السابع: بيان ما ترشد إليه الآيات[1]:

١-أن الله تعالى يحب الإيمان والخير لعباده ويكره لهم الكفر والشر، ولذا كان هو أشد فرحا بإيمان العبد من العبد نفسه، وفي الحديث المتفق عليه: ((لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم ...))[2]، وكان مقته وبغضه للكفار في وقت تعذيبهم بالنار أشد من بغضهم أنفسهم في ذلك الوقت، لأنها أوبقتهم في المعاصي، وهذا مما يستدعي المبادرة إلى التوبة قبل أن يأتي يوم لا تنفع فيه التوبة، وأن الله يقبل توبة المرء ما لم يغرغر؛ لأن إيمانه عندئذ يكون إيمان مشاهدة، وليس إيمان غيب، فليبادر قبل أن يقول: أرجعوني أعمل صالحا فيما تركت.

٢-يعترف الكفار بذنوبهم واستحقاقهم العقاب يوم القيامة، ويندمون على ذلك، لكن لا ينفعهم الندم والاعتراف، ويطلبون الرجوع إلى الدنيا للإيمان والطاعة، ولكن لا رجعة لهم.

٣-سبب هلاك الكفار وعذابهم هو إعراضهم عن الإيمان بالله وبالبعث وبالرسل في دار التكليف والعمل واختيارهم الشرك والمعاصي، وتركهم وتكذيبهم بالتوحيد.

٤-كما بينت الآيات سبب هلاك الكفار، بينت سبيل النجاة، وذلك بأنه إذا دُعي العبد إلى الإيمان آمن، وإذا دُعي الله وحده آمن وصدّق واتبع، وإن يشرك به كفر بذلك وكذّب.

***

١) انظر: التفسير الموضوعي لجامعة الشارقة، بإشراف د. مصطفى مسلم (٥٣٩/٦). وأيسر التفاسير للجزائري (٥٢٢/٤). والتفسير المنير للزحيلي (٩٣/٢٤-٩٤).
٢) متفق عليه: صحيح البخاري، كتاب الدعوات، وباب التوبة، برقم "٦٣٠٩" (٦٨/٨).
وصحيح مسلم، كتاب التوبة، وباب في الحض على التوبة والفرح بها، برقم "٢٦٧٥" (٢١٠٢/٤).

المبحث الخامس: بيان دلائل قدرة الله تعالى ووحدانيته وصفاته العلى وآثارها

ويشمل الآيات (١٣-١٧):

قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾ ﴾.

المطلب الأول: ربط الموضوع بالمحور الأساس للسورة:

إن الآيات الكريمات في المقاطع السابقة كانت تتناسق مع محور السورة الأساسي بنسق تصاعدي في الترغيب والترهيب حتى يتمكن الخوف والإنذار من قلوب المخاطَبين، فيزجرهم ذلك عن كفرهم وعداوتهم للنبي ﷺ ورسالته والمؤمنين، أو يعطف بقلوبهم نحو الدين الجديد ورسالة الحق المبين.

وفي هذا المقطع -الخامس- جاءت الآيات الكريمات لتتناسق مع محور السورة الأساسي ولكن بنسق تنوعي، فبعد ذِكر ما يوجب التهديد الشديد للمشركين وتمكين الترهيب العميق من قلوب الكافرين، بدأ تعالى بذكر ما يدل على كمال قدرته وحكمته بإظهار البينات والآيات، وإنزال الرزق من السماء، وإلقاء الوحي على من يشاء من عباده لإنذار الناس بيوم الحساب، الذي يكون فيه الحساب شاملا وسريعا، ويكون فيه الجزاء عدلا وتاما، فيزداد الذين آمنوا إيمانا، وتظهر الحجة للكافرين، فيؤمنوا أو يكفوا أيديهم، وهذا متعلق بغرض السورة الأساسي.

ونجد أن أغلب آيات هذا المقطع أخبار، فقوله تعالى: ﴿ يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾، وقوله تعالى: ﴿ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ ﴾غافر: ١٣، وقوله تعالى: ﴿ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ﴾، وقوله تعالى: ﴿ ذُو ٱلْعَرْشِ ﴾، وقوله تعالى: ﴿ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾، وقوله تعالى: ﴿ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ... ﴾، وقوله تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾، كلها أخبار، وهي امتداد لقوله تعالى في أول السورة: ﴿ حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ

﴿ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ۝٣﴾ غافر: ١-٣، وندرك من هذا أن الله عز وجل عرّفنا على ذاته في مستهل السورة، ثم في هذا المقطع زادنا تعريفا بذاته: أنه منزل الوحي والقرآن، ومرسل الرسل، والحاكم بين العباد بالحق والعدل، وأنه هو الذي أمر رسوله محمدا ﷺ بالإنذار.[١]

قال دروزة: "الآيات كما هو المتبادر استمرار وتعقيب للآيات السابقة في إنذار الكفار والتنويه بالمؤمنين وبيان أهوال يوم القيامة ومهمة الرسول في تنبيه الناس وإنذارهم. وقد احتوت تنويها بمشاهد قدرة الله وعظمته ونعمته بسبيل التدليل على قدرته على تحقيق وعده ووعيده. وأسلوبها قوي رائع، وعبارتها واضحة لا تحتاج إلى بيان آخر"[٢].

ووجه آخر: أن الآيات في المقطع تشير إلى أن الله تعالى بيّن جميع البراهين التي يحتاجها المؤمنون في الدفاع عن عقيدتهم وإفحام المشركين المخاصمين كما قال: ﴿ سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ ﴾ فصلت:٥٣.[٣]

---

١) انظر: الأساس في التفسير لسعيد حوّى (٤٩٤١/٩).

٢) التفسير الحديث (٣٥٩/٤).

٣) انظر: التفسير الموضوعي لسور القرآن لجامعة الشارقة بإشراف د. مصطفى مسلم (٥٤٣/٦).

المطلب الثاني: التناسق بين هذا الموضوع وسابقه:

في المقطع السابق[1] وقفت الآيات على مشهد عظيم من مشاهد يوم القيامة كشف الله تعالى فيه عن مآل الكافرين يوم القيامة وقد تبين لهم صدق الله تعالى في وعيده وحاق بهم أليم عذابه، فتفطرت قلوبهم حسرة وندامة، ونطقت ألسنهم ذلا وسؤالا، ولكن مضى فيهم قضاء الله تعالى بالحق والعدل وهو العلي الكبير.

فلما قصر سبحانه الحكم على نفسه دلّ على ذلك ذاكراً من آيات الآفاق العلوية ما يرد الموفق عن غيه[2]، وحتى لا يقع الناس في هذا المصير المهلك، وحتى يتجنب العذاب والخسران من أراد ذلك، ذكر تعالى -لكمال رحمته وشفقته بالخلق- ما يدل على عظمته وجلاله وقدرته وحكمته، وأبرز لهم بعض دلائل توحيده، وذكر لهم من صفاته العالية، وبيّن لهم بعض صفات يوم القيامة، وأنه لا يعذب أحدا إلا بعد أن يبين له الحق فيخالفه ويصرّ على الكفر؛ فإنه تعالى لا يظلم نفسا ولا يجازيها إلا بما قدمت، كل ذلك حتى يؤمن ويتذكر من يخاف الإنذار والوعيد، من عباد الله الخاشعين المنيبين الرجّاعين للحق المبين.

قال الألوسي: "﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ الدالة على شؤونه العظيمة الموجبة لتفرده بالألوهية لتستدلوا بها على ذلك وتعملوا بموجبها، فإذا دعي سبحانه وحده تؤمنوا وإن يشرك به تكفروا"[3].

قال سيد قطب: "وفي ظل هذا المشهد يستطرد إلى شيء من صفة الله تناسب موقف الاستعلاء ويوجه المؤمنين في هذا المقام إلى التوجه إليه بالدعاء، موحدين، مخلصين له الدين كما يشير إلى الوحي للإنذار بيوم التلاقي والفصل والجزاء، يوم يتفرد الله بالملك والقهر والاستعلاء"[4].

وعلى هذا تكون الآيات استئنافا ابتدائيا، يتوجه فيه الخطاب للنبي ﷺ والمؤمنين بعد ما تم الجواب لأهل النار، وانقضى وصف ما يلاقي المشركون من العذاب، وما يدعون من دعاء لا يستجاب، فصيغة المضارع في ﴿يُرِيكُمْ﴾ و ﴿وَيُنَزِّلُ﴾ تدل على أن المراد إراءة متجددة وتنزيل متجدد وإنما يكون ذلك في

---

١) إشارة إلى الآيات من قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوْنَ ... ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِيِّ ٱلْكَبِيرِ ﴾.

٢) انظر: نظم الدرر للبقاعي (١٧/٢٠-٢١).

٣) روح المعاني (١٢/٣٠٧).

٤) في ظلال القرآن (٥/٣٠٧٢).

الدنيا، فتبيّن أن الخطاب مستأنف مراد به المؤمنون وليس من بقية خطاب المشركين في جهنم، ويزيد ذلك تأييدا قوله تعالى: ﴿فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾غافر: ١٤.[١]

ويجوز أن يكون الخطاب يعم المؤمنين والكافرين لسبق ذكرهما، ولرجاء الاعتبار بالآيات من غير المؤمنين.[٢]

قال أبو بكر الجزائري[٣]: "قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ هذا خطاب للناس في هذه الحياة الدنيا، خطاب لمشركي قريش بعد أن عرض عليهم صورة صادقة حية لحالهم في جهنم يوم القيامة عاد يخاطبهم داعيا لهم إلى الإيمان"[٤]، و "هو لقاء مع الناس، بهذا العرض الكاشف لقدرة الله، وتفرده بالخلق والأمر، بعد أن شهدوا صورا من مشاهد القيامة، وما يلقى المؤمنون من إحسان ورضوان، وما يلقى الكافرون من خزى وعذاب، فمن كان من المؤمنين ازداد بهذا اللقاء إيمانا، وتمسكا بما هو فيه، من طاعة وهدى، ومن كان من أهل الكفر والضلال، فليطلب لنفسه النجاة والسلامة، وليعد إلى الله من قريب، فهذه هي الفرصة التي كان يتمناها أهل النار، ولا يجدون سبيلا إليها"[٥].

ثم "إنه تعالى لما بيّن للكافرين القانطين من الخروج من النار ما هم عليه من الخلود والعذاب السرمد بسبب إعراضهم عن التوحيد وتصديقهم بالإشراك به بيّن أن الإشراك من أعظم الذنوب لكونه معاندة للبرهان الساطع مبنيا على محض التقليد واتباع الهوى"[٦].

وقد تكون الآيات متممة لما سبق من وقوع الكافرين في العذاب الشديد مع عدم إمكانية خروجهم منها وذلك لإعذار الله تعالى لهم تمام الإعذار في الحياة الدنيا بأن أراهم من الآيات الواضحات والبراهين القاطعات ما على مثله آمن من آمن، فهو الذي كان يرزقهم ويرسل إليهم رسله تباعا بالنور والرحمة والهدايات، فما خفيت عليهم الآيات ولا شرد عنهم الحق ولكن لا يتذكر إلا من ينيب. ولكن الراجح ما ذكرته أولا، والله تعالى أعلم.

---

١) انظر: التفسير المظهري (٢٤٧/٨). والتحرير والتنوير لابن عاشور (١٠٢/٢٤-١٠٣).

٢) انظر: روح المعاني للألوسي (٣٠٨/١٢).

٣) هو جابر بن موسى بن عبد القادر بن جابر، أبو بكر الجزائري، نزيل المدينة المنورة، أحد العلماء المعاصرين، له كرسي للتدريس في مسجد رسول الله ﷺ، وما زال الشيخ يعطي دروسه –حفظه الله تعالى ونفع به–.

٤) أيسر التفاسير (٥٢١/٤).

٥) التفسير القرآني للقرآن لعبد الكريم الخطيب (١٢١٣/١٢).

٦) حاشية محيي الدين شيخ زاده على البيضاوي (٣٠٣/٧).

المطلب الثالث: التناسب بين الآيات والجمل والكلمات:

بعد أن ذكر الله تعالى ما يصيب الكافرين يوم القيامة، وبيّن مشهدا لواقعهم وهم في النار الأليم وما كان من حالهم البئيس من الحسرة والندامة والاعتراف بالذنوب، توجه بالخطاب للحاضرين من أهل مكة -وغيرهم- فعظّم تعالى نفسه، وبيّن كمال عظمته وقدرته وأنه سبحانه هو الذي يظهر دلائل توحيده، وعلامات قدرته في آيات الكون العظيمة، الدالة على مبدعها وخالقها، ويتفضل عليهم بتدبير أرزاقهم بإنزال الغيث وإدرار المطر الذي يكون سببا في الرزق والنماء، ونتاج الزروع والثمار، ولا ينازعه في هذا أحد.[1]

١) قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴾: هذا ابتداء مخاطبة في معنى توحيد الله تعالى وتبيين علامات ذلك، فلما ذكر تعالى ما يوجب التهديد الشديد في حق المشركين أردفه بذكر ما يدل على كمال قدرته وحكمته، تربية وتكميلا لنفوس عباده، ليصير ذلك بمنزلة البرهان والدليل على أنه لا يجوز جعل هذه الأحجار المنحوتة والخُشب المصورة شركاء لله تعالى في المعبودية، وربنا تبارك وتعالى ينّوع في كلامه الحكيم ردعا للكافرين عن غيهم وكفا لأذاهم، ونصرة للمؤمنين وتمكينا لهم، فيذكّر الكافرين بالترهيب حتى تتقطع قلوبهم، ويرغّب المؤمنين حتى تثبت قلوبهم، فانتقل بكلامه عن الكافرين وهم في العذاب وقد حكم عليهم العلي الكبير، إلى المؤمنين ومن يستمعون للخطاب ليكشف لهم عن آياته ويذكّرهم بنعمه وآلائه، "ومناسبة الانتقال هي وصفا ﴿ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴾ غافر:١٢؛ لأن جملة ﴿ يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ تناسب وصف العلو، وجملة ﴿ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ ﴾ تناسب وصف الكبير بمعنى الغني المطلق"[2]، فيذكّر الجميع بصفاته العالية الجليلة، وآلائه المتوافرة المتتالية، ليزداد الذين آمنوا إيمانا، وليتفكر المعرضون ولو لبرهة.

والآيات: هي دلائل وجوده ووحدانيته وقدرته وحكمته وتفرده بالكمال، وهي المظاهر العظيمة التي تبدو للناس في هذا العالم مما يشاهدونه في خلقه العلوي والسفلي من الآيات العظيمة الدالة على كمال خالقها ومبدعها ومنشئها، كقوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ الرعد:١٢، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾آل عمران:١٩٠.

---

١) انظر: بحر العلوم للسمرقندي (٢٠٠/٣). والتفسير الوسيط للزحيلي (٢٢٦٤/٣).

٢) التحرير والتنوير لابن عاشور (١٠٢/٢٤).

وتنزيل الرزق من السماء: هو نزول المطر؛ لأن المطر سبب الرزق، فامتنّ الله بذلك على عباده، وهو في نفسه آية، يُخرج به من الزروع والثمار ما هو مشاهد بالحس، من اختلاف ألوانه وطعومه، وروائحه وأشكاله وألوانه، وهو ماء واحد، فبالقدرة العظيمة فاوت بين هذه الأشياء. وكذلك يحيي بالمطر الأرض بعد موتها بإعادة ما تحطم وتفتت فيها من الحبوب حتى صارت تراباً لا تميز له عن ترابها، فيتذكر ببعث ما انمحق فصار تراباً وضل في تراب الأرض حتى لا تميز له عنه بعث الآخرة كما في قوله تعالى: ﴿وَيُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَاۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ الروم:١٩، ولذلك عقب الأمران بقوله: ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾، أي: "من طبعه الإنابة، وهو الرجوع عما هو عليه من الجهل إلى الدليل بما ركز في فطرته من العلم"[١].

وبذكر هذين الأمرين اعلم الله تعالى "أن أهم المهمات رعاية مصالح الأديان، ومصالح الأبدان، فهو سبحانه وتعالى راعى مصالح أديان العباد بإظهار البينات والآيات، وراعى مصالح أبدانهم بإنزال الرزق من السماء، فموقع الآيات من الأديان كموقع الأرزاق من الأبدان، فالآيات لحياة الأديان، والأرزاق لحياة الأبدان، وعند حصولهما يحصل الإنعام على أقوى الاعتبارات وأكمل الجهات"[٢]، "ولما تفرد سبحانه وتعالى في حصولهما لعباده فقد أسبغ عليهم نعمه ظاهرة وباطنة من غير أن يشاركه في ذلك أحد مما اتخذه المشركون شركاء، فبان أن من أشرك به شيئا من ذلك فقد ضلّ ضلالا مبينا واستحق عذابا مهينا"[٣].

ولما كانت هذه الآيات وهذه الأرزاق شاملة لعموم الزمان والمكان، جاءت بصيغة المضارع في الفعلين (يري، وينزل) للدلالة على تجدد الإراءة والتنزيل واستمرارهما.

فآياته تعالى ظاهرة في البر والبحر والسماء، ومركوزة في الأنفس والفطر السليمة، ولو أنابوا ورجعوا إلى أنفسهم لعلموا أن الله هو الحق المبين، لكن المعاند لا سبيل إلى تذكره واتعاظه.

وتقديم ﴿لَكُم﴾ على مفعول ﴿وَيُنَزِّلُ﴾ وهو ﴿رِزْقًاۚ﴾ لكمال الامتنان بأن جعل تنزيل الرزق لأجل الناس ولو أخر المجرور لصار صفة لـ ﴿رِزْقًاۚ﴾ فلا يفيد أن التنزيل لأجل المخاطبين بل يفيد أن الرزق صالح للمخاطبين، وبين المعنيين بون بعيد.

---

١) نظم الدرر للبقاعي (٢١/١٧).

٢) مفاتيح الغيب للفخر الرازي (٤٩٧/٢٧).

٣ حاشية محيي الدين شيخ زاده على البيضاوي (٣٠٣/٧).

وجعل تنزيل الرزق لأجل المخاطبين وهم المؤمنون إشارة إلى أن الله أراد كرامتهم ابتداء وأن انتفاع غيرهم بالرزق انتفاع بالتبع لهم لأنهم هم وحدهم الذين بمحل الرضى من الله تعالى.

وعدي فعلا (يري، وينزل) إلى ضمير المخاطبين وهم المؤمنون أصالة؛ لأنهم الذين انتفعوا بالآيات فآمنوا، وانتفعوا بالرزق فشكروا بالعمل بالطاعات، فجعل غيرهم بمنزلة غير المقصودين بالآيات؛ لأنهم لم ينتفعوا بها كما قال تعالى: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾ العنكبوت:٤٣، فجعل غير العالمين كمن لا يعقل ولا يفقه.

ولذلك ذيلت إراءة الآيات وإنزال الرزق لهم بقوله: ﴿ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴾ أي من آمن ونبذ الشرك؛ لأن الشرك يصدّ أهله عن الإنصاف وإعمال النظر في الأدلة، فبالرغم من ظهور دلائل ربوبيته وألوهيته وتواتر إنعامه وإحسانه إلا أنه لا يعتبر ولا يتعظ ولا يتأمل تلك الآيات المستقرة في الفطر والعقول إلا من يرجع إلى الله تعالى في جميع أموره ويقبل عليه بالتوحيد والتوبة والإخلاص والخشوع والطاعة، ويرجع عن الإنكار بالإقبال على الآيات والتفكر فيها، فإن الجازم بشيء لا ينظر فيما ينافيه.[1]

قال ابن عطية: "وقوله تعالى: ﴿ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴾ معناه: وما يتذكر تذكرا يعتد به وينفع صاحبه، لأنا نجد من لا ينيب يتذكر، لكن لما كان ذلك غير نافع عُدَّ كأنه لم يكن"[2].

وقال أبو حيان: "وجعله تذكرا؛ لأنه مركوز في العقول دلائل التوحيد، ثم قد يعرض الاشتغال بعبادة غير الله فيمنع من تجلي نور العقل، فإذا تاب إلى الله تذكر"[3].

والإنابة: التوبة، وفي صيغة المضارع إشارة إلى أن الإنابة المحصلة للمطلوب هي الإنابة المتجددة المتكررة، وهي تكون ممن له أهلية التجديد في كل وقت للرجوع إلى الدليل بأن يكون حنيفاً ميالاً للطافته مع الدليل حيثما مال.[4]

---

١) انظر: تفسير القرآن للسمعاني (١٠/٥). وأنوار التنزيل للبيضاوي (٥٣/٥). والتفسير الوسيط للزحيلي (٢٢٦٤/٣).

٢) المحرر الوجيز (٥٥٠/٤).

٣) البحر المحيط (٢٤٣/٩).

٤) انظر: الكشاف للزمخشري (١٥٦/٤). والمحرر الوجيز لابن عطية (٥٥٠/٤). ومفاتيح الغيب للفخر الرازي (٤٩٦/٢٧-٤٩٧). وتفسير القرآن العظيم لابن كثير (١٣٤/٧). ونظم الدرر للبقاعي (٢١/١٧-٢٢). والفواتح الإلهية للشيخ علوان (٢٥٨/٢). وإرشاد العقل السليم لأبي السعود (٢٧٠/٧). والتحرير والتنوير لابن عاشور (١٠٢/٢٤-١٠٤).

قال الشوكاني: "﴿ مَن يُنِيبُ ﴾ أي: يرجع إلى طاعة الله بما يستفيده من النظر في آيات الله"[1].

وقد ذكر بعض أهل العلم أن التحقيق في قوله تعالى: ﴿ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴾، أنها جملة معترضة، وفائدة الاعتراض: أن هذه الآيات ودلالتها على اختصاصه سبحانه وحده بالعبادة بالنسبة إلى من ينيب لا المعاند.[2]

ونجد أن جملة ﴿ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴾ جاءت في مقابلة جملة ﴿ مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ غافر: ٤، وجمعت الآيتان الصفات الباعثة والداعية والمسببة لكل من الإيمان والكفر.

٢) قوله تعالى: ﴿ فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾: هذا خطاب للمنيبين، وفيه التفات من الغيبة إلى المخاطَب، والأصل: فليدع ذلك المنيب، وقد جاء الأمر تفريعا على ما شاهدوا من الآيات وما أفيض عليهم من الرزق، وعلى أنهم المرجون للتذكر، أي: إن كنتم بهذه الدرجة وأردتم رضى الله فادعوه مخلصين، والمعنى: أن الله أراكم آياته وأنزل لكم الرزق وما يتذكر بذلك إلا المنيبون وأنتم منهم فادعوا الله مخلصين لتوفر دواعي تلك العبادة.

فلما قرر الله تعالى ما يوجب توحيده، صرح بالمطلوب وهو الإقبال بالكلية على الله تعالى، والإعراض عن غير الله، ولما كانت الآيات تثمر التذكر، والتذكر يوجب الإخلاص لله، رتب الأمر على ذلك بالفاء الدالة على السببية فقال: ﴿ فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾، أي فأخلصوا لله وحده العبادة والدعاء، وخالفوا المشركين في مسلكهم ومذهبهم، ولو كره الكافرون منهجكم ذلك، فلا تلتفتوا إلى كراهتهم، ودعوهم يموتوا بغيظهم.[3]

أو يقال: لمّا ذكر أحوال المشركين، وأراد أن يشفع بأضدادهم، جعل قوله: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ ... ﴾ إلخ، توطئة لقوله: ﴿ فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ ﴾ أي: اعبدوه مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ من الشرك الجلي والخفي، بموجب إنابتكم إليه تعالى وإيمانكم.

---

١) فتح القدير للشوكاني (٥٥٥/٤).

٢) انظر: روح المعاني للألوسي (٣٠٨/١٢). والجدول في إعراب القرآن لمحمود صافي (٢٢٩/٢٤).

٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن للسعدي (٧٣٤/١). والتفسير المنير للزحيلي (٩٠/٢٤).

وكأن الآية صلة ما تقدم في سورة الزمر من قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ ﴾ الزمر:٤٥ ، الآية، وصلة قوله: ﴿ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ﴾غافر:١٢، يقول تعالى: فادعوا الله يا أصحاب محمد -ﷺ- وأيها المؤمنون مخلصين له الدين، ولو كره الكافرون ذلك، ووحدوه، ولا تشركوا به شيئا على ما يشرك به أهل مكة.

والأمر مستعمل في طلب الدوام، أي: دوموا على ذلك ولو كره الكافرون؛ لأن كراهية الكافرين ذلك من المؤمنين تكون سببا لمحاولتهم صرفهم عن ذلك بكل وسيلة يجدون إليها سبيلا فيخشى ذلك أن يفتن فريقا من المؤمنين.

﴿ وَلَوْ ﴾ وصلية تفيد أن شرطها أقصى ما يكون من الأحوال التي يراد تقييد عامل الحال بها، أي: اعبدوه في كل حال حتى في حال كراهية الكافرين ذلك؛ لأن كراهية الكافرين ذلك والمؤمنون بين ظهرانيهم وفي بلاد فيه سلطان الكافرين مظنة لأن يصدهم ذلك عن دعاء الله مخلصين له الدين.[1]

قال سيد قطب: "ولن يرضى الكافرون من المؤمنين أن يخلصوا دينهم لله، وأن يدعوه وحده دون سواه، ولا أمل في أن يرضوا عن هذا مهما لاطفهم المؤمنون أو هادنوهم أو تلمسوا رضاهم بشتى الأساليب، فليمض المؤمنون في وجهتهم، يدعون ربهم وحده، ويخلصون له عقيدتهم، ويصغون له قلوبهم، ولا عليهم رضي الكافرون أم سخطوا، وما هم يوما براضين!"[2].

٣) قوله تعالى: ﴿ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ﴾: لما دعا الله تعالى إلى دعائه بإخلاص أعقبه بما يحمل النفس على الإقبال التام إليه سبحانه، فذكر ثلاثة صفات أخرى من صفات الجلال والعظمة ما تقتضي إخلاص العبادة له وتشويق النفس لها، فأخبرهم بأنه هو الذي يريهم آياته، وهو الذي ينزل من السماء رزقا، وهو رفيع الصفات، منزه عن مشابهة المخلوقات، ورفيع السماوات طبقا فوق طبق، ورفيع منازل المؤمنين في الآخرة، وهو صاحب العرش والسلطان المطلق، وهو ينزل الوحي على من يريد من عباده ويصطفيه، فالثلاثة كلها اخبار لـ ﴿ هُوَ ﴾ دالة على توحيده وعلو صمديته وتمهيدا للنبوة.

---

١) انظر: تأويلات أهل السنة للماتريدي (١٢/٩). والكشاف للزمخشري (١٥٦/٤).والبحر المديد لابن عجيبة (١١٩/٥). وروح المعاني للألوسي (٣٠٨/١٢). والجدول في إعراب القرآن لمحمود صافي (٢٢٩/٢٤). والتحرير والتنوير لابن عاشور (١٠٤/٢٤-١٠٥).

٢) في ظلال القرآن (٣٠٧٣/٥).

وكذلك لما كان الإخلاص لا يكون إلا لأرفع ذات، وكان لا يتأتى إلا ممن رفعه الله نبّه سبحانه على ذلك حثاً عليه وتشويقاً إليه، فقال: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ﴾.

ويصح أن يؤول ﴿رَفِيعُ﴾ إلى صفة ذاته سبحانه، بمعنى مرتفع الدرجات، فتكون الدرجات مستعارة للمجد والعظمة، وجمعها إيذان بكثرة العظمات باعتبار صفات مجد الله التي لا تحصر، والمعنى: أنه حقيق بإخلاص الدعاء إليه.

ويصح أن يكون ﴿رَفِيعُ﴾ من أمثلة المبالغة بمعنى رافع، فعيل بمعنى فاعل، أي: كثير رفع الدرجات لمن يشاء، وهو معنى قوله تعالى: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ يوسف:٧٦، وتكون إضافته إلى الدرجات من الإضافة إلى المفعول فيكون راجعا إلى صفات أفعال الله تعالى، والمقصود: تثبيتهم على عبادة الله مخلصين له الدين بالترغيب بالتعرض إلى رفع الله درجاتهم، فهو يُكرم مثواهم، ويرفع درجاتهم، كقوله تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ المجادلة:١١.[١]

"أو: رفيع السماوات التي هي مصاعد الملائكة، ومهابطها، للسفارة بين المرسِل والمرسَل إليه، وهو كالمقدمة لقوله: ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ ...﴾"[٢].

قال الفخر الرازي: الرفيع إن فسرناه بالمرتفع كان معناه: أنه تعالى أرفع الموجودات وأعلاها في جميع صفات الجلال والإكرام، وإن فسرناه بالرافع كان معناه: أن كل درجة وفضيلة ورحمة ومنقبة حصلت لشيء سواه، فإنما حصلت بإيجاده تعالى وتكوينه وفضله ورحمته.[٣]

٤) قوله تعالى: ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ﴾: خبر ثان فيه ذكر للصفة الثانية من صفات جلاله وعظمته سبحانه وتعالى وهو أنه صاحب العرش ومالكه، وفيه إشارة إلى أن رفع الدرجات منه متفاوت، فكما أن مخلوقاته العليا متفاوتة في العظم والشرف إلى أن تنتهي إلى العرش وهو أعلى المخلوقات، فكذا مخلوقاته

---

١) انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٢٩٩/١٥). والتسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي (٢٢٩/٢). ونظم الدرر للبقاعي (٢٣/١٧-٢٤). والبحر المديد لابن عجيبة (١١٩/٥). والتفسير القرآني للقرآن لعبد الكريم الخطيب (١٢١٤/١٢). والتحرير والتنوير لابن عاشور (١٠٦/٢٤-١٠٧).

٢) البحر المديد لابن عجيبة (١١٩/٥-١٢٠).

٣) انظر: مفاتيح الغيب (٤٩٨/٢٧).

الأخرى، كأنه قيل: إن الذي رفع السماوات ورفع العرش ماذا تُقَدِّرُون رفعه درجات عابديه على مراتب عبادتهم وإخلاصهم؟!.[1]

٥) قوله تعالى: ﴿ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾: هذه الصفة الثالثة من صفات الجلال والعظمة المذكورة في الآية، وهو أنه يصطفي رسله ويوحي إليه، وفيه بيان لانزال وحيه الذي هو روح وحياة للبشرية من الجانب العلوي، وهذا يتناسق مع صفة الله ﴿ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴾غافر:١٢، المتقدمة، وكذا يتناسق مع صفة الله ﴿ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ﴾، فإن من رفع الدرجات له أن يرفع بعض عباده إلى درجة النبوة، وذلك أعظم رفع للدرجات بالنسبة إلى العباد.

وقد ضرب العرش والأنبياء مثلين لرفع الدرجات في العوالم والعقلاء، وفيه تعريض بتسفيه المشركين الذين يقولون: ﴿ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥ ﴾القمر:٢٤، ويقولون: ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾الزخرف:٣١، ويقولون: ﴿ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ﴾الأنعام: ١٢٤.

والإلقاء: حقيقته رمي الشيء من اليد إلى الأرض، ويستعار للإعطاء إذا كان غير مترقب، واستعير هنا للوحي؛ لأنه يجيء فجأة على غير ترقب كإلقاء الشيء إلى الأرض.

والتعبير بالمضارع في ﴿ يُلْقِى ﴾ يفيد استمرار الوحي من لدن آدم عليه الصلاة والسلام إلى زمن سيدنا محمد ﷺ، ثم اتصاله إلى قيام يوم التنادي، بإقامة مَن يقوم بالدعوة.[2]

٦) ﴿ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴾: لما ذكر تعالى النبوة تخلص منها إلى بيان ثمرة الرسالة، وهي النذارة بيوم الجزاء ليعود وصف يوم الجزاء الذي انقطع الكلام عليه من قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ﴾غافر:١٢.

ونلاحظ "أنه في معرض كلام الله عز وجل عن صفاته أعلمنا أن من صفاته إلقاء الوحي على رسله لينذروا يوم القيامة، وإذ تقرر ذلك يصدر الله عز وجل أمرا لرسوله عليه الصلاة والسلام بالإنذار، فمن

١) انظر: التحرير والتنوير لابن عاشور (١٠٧/٢٤).

٢) انظر: الجواهر الحسان للثعالبي (١٠٨/٥). وروح البيان لإسماعيل حقي (١٦٦/٨). والبحر المديد لابن عجيبة (١٢٠/٥). وفي ظلال القرآن لسيد قطب (٣٠٧٣/٥). والتحرير والتنوير لابن عاشور (١٠٧/٢٤).

السياق يتبين أن نبينا محمدا ﷺ قد أنزل عليه الروح، ومن ثم فإنه يؤمر بالإنذار، وكأنّ أمر نذارته بديهي"[1]، وهي الفائدة من إرسال الرسل، فأعظم مهمة لهؤلاء لرسل الذين يلقى عليهم الروح من أمر الله أن ينذروا بهذا الوحي الناس من العذاب، ويحذروهم من يوم اجتماع الخلائق للحساب في محشر القيامة.

واللام للتعليل، والضمير المستتر في ﴿لِيُنذِرَ﴾ يجوز أن يعود إلى اسم الجلالة من قوله: ﴿فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ﴾، والمعنى: لينذر الله يوم التلاق. ويجوز أن يعود على الروح. ويجوز أن يعود على (من) الموصولة من قوله تعالى: ﴿يُلۡقِي ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾، والمعنى: لينذر من ألقى عليه الروح قومه، وهذا أحسن؛ لأن فيه تخلصا إلى ذكر الرسول الأعظم ﷺ الذي هو بصدد الإنذار دون الرسل الذين سبقوا إذ لا تلائمهم صيغة المضارع، ولأنه مرجح لإظهار اسم الجلالة في قوله: ﴿لَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنۡهُمۡ شَيۡءٞ﴾، كما سيأتي.[2]

وفي اختيار مسمى يوم التلاق من بين أسماء يوم القيامة يقول البقاعي: "﴿يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ أي الذي لا يستحق أن يوصف بالتلاقي على الحقيقة غيره لكونه يلتقي فيه الأولون والآخرون وأهل السماوات والأرض، ولا حيلة لأحد منهم في فراق غريمه بغير فصل على وجه العدل"[3].

٧) قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ هُم بَٰرِزُونَۖ﴾: لما ذكر تعالى بعض صفاته العالية، وبيّن سبب إرساله للرسل، شرع يذكر شيئا من صفات يوم القيامة المُنذَر به، وهو يوم التلاق واجتماع الناس للحساب، فأخذ يكشف عن بعض تفاصيل يوم التلاق ليكون أعمق في التأثير والترهيب، فهو اليوم الذي سيكون فيه الكافرون ظاهرين للعيان، مرئيين بالعين المجردة، لا يسترهم شيء لاستواء الأرض وهم خارجون من قبورهم،[4] وضمير الغيبة ﴿هُم﴾ عائد إلى الكافرين في قوله: ﴿وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾.[5]

٨) قوله تعالى: ﴿لَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنۡهُمۡ شَيۡءٞ﴾: بيان لجملة ﴿هُم بَٰرِزُونَ﴾ وتكملة لشرح أحوال يوم التلاق بما يحمل على خوفه والحذر من الخسارة والفضيحة فيه، والمعنى: أنهم واضحة ظواهرهم وبواطنهم فإن

---

١) الأساس في تفسير القرآن لسعيد حوّى (٤٩٤٠/٩). وانظر: التفسير الوسيط للزحيلي (٢٢٦٤/٣).

٢) انظر: المحرر الوجيز لابن عطية (٥٥١/٤). والتحرير والتنوير لابن عاشور (١٠٨/٢٤-١٠٩). وإعراب القرآن وبيانه لمحيي الدين درويش (٤٦٨/٨).

٣) نظم الدرر (٢٦/١٧).

٤) انظر: التفسير الوسيط للزحيلي (٢٢٦٤/٣). والتفسير المنير للزحيلي (٩٢/٢٤).

٥) انظر: التحرير والتنوير لابن عاشور (١٠٩/٢٤).

ذلك مقتضى قوله: ﴿ مِنْهُمْ شَيْءٌ ﴾، فلا يخفى على الله تعالى من أعمالهم وأحوالهم شيء، ثم إذا رفع الله الستر عن أحدهم فحينها لا يخفى على أحد من الخلق من أحواله شيء، وتكون فضيحة له على رؤوس الخلائق –نسأل الله السلامة والعافية–.

وإظهار اسم الجلالة؛ لأن إظهاره أصرح لبعد معاده بما عقبه من قوله: ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾؛ ولأن الأظهر أن ضمير لينذر عائد إلى ﴿مَن يَشَآءُ﴾.

ومعنى ﴿ مِنْهُمْ ﴾ من مجموعهم، أي: من مجموع أحوالهم وشؤونهم، ولهذا أوثر ضمير الجمع لما فيه من الإجمال الصالح لتقدير مضاف مناسب للمقام، وأوثر أيضا لفظ (شيء) لتوغله في العموم، ولم يقل لا يخفى على الله منهم أحد، أو لا يخفى على الله من أحد شيء، أي من أجزاء جسمه، فالمعنى: لا يخفى عليه عز شأنه شيء ما من أعيانهم وأعمالهم وأحوالهم الظاهرة والباطنة الجلية والخفية السابقة واللاحقة.[١]

قال الزمخشري: " فإن قلت: قوله: ﴿ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ ﴾ بيان وتقرير لبروزهم، والله تعالى لا يخفى عليه منهم شيء برزوا أو لم يبرزوا، فما معناه؟ قلت: معناه أنهم كانوا يتوهمون في الدنيا إذا استتروا بالحيطان والحجب: أن الله لا يراهم ويخفى عليه أعمالهم، فهم اليوم صائرون من البروز والانكشاف إلى حال لا يتوهمون فيها مثل ما كانوا يتوهمونه، قال الله تعالى: ﴿ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ فصلت:٢٢، وقال تعالى: ﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ ﴾ النساء: ١٠٨، وذلك لعلمهم أن الناس يبصرونهم، وظنهم أن الله لا يبصرهم، وهو معنى قوله: ﴿ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ إبراهيم: ٤٨ "[٢].

وقال ابن الجوزي: "فإن قيل: فهل يَخْفَى عليه منهم اليوم شيء؟ فالجواب: أنْ لا، غير أن معنى الكلام التهديد بالجزاء"[٣].

٩) قوله تعالى: ﴿ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ﴾: حكاية لما يقع حينئذ من السؤال والجواب، وهو بتقدير قول معطوف على ما قبله من الجملة المنفية، أي: يقول الله أو الـمَلَك: ﴿ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ﴾؟ وهذا امتداد لذكر

---

١) انظر: روح المعاني للألوسي (١٢/٣٠٩). والتحرير والتنوير لابن عاشور (٢٤/١٠٩-١١٠).
٢) الكشاف (٤/١٥٦-١٥٧).
٣) زاد المسير (٤/٣٣).

تفاصيل عن أحداث يوم التلاق، ففيه يكون المُلك المطلق والسلطان الشامل لله تعالى الواحد القهار الغالب، الذي قهر عباده بالموت، ثم قهرهم بالبعث الشامل، وقد أورد هذا المعنى لتقريره في الأذهان بصورة سؤال يسأل فيه الرب تعالى، يقول: لمن الملك اليوم؟ أي يوم القيامة، فلا يجيبه أحد خشية ومهابة، فيجيب تعالى نفسه، فيقول: لله الواحد القهار.

أو مستأنف استئنافا بيانيا جوابا عن سؤال سائل عن ماذا يقع بعد بروزهم بين يدي الله.

والقائل يجوز أن يكون هو الله تعالى، ويجوز أن يكون من الملائكة، والسياق يحتمل الأمرين، والرواية قد جاءت بالأمرين.

وعامة أهل التأويل على أن الرب تعالى يسأل فيقول: لمن السلطان اليوم؟ وذلك يوم القيامة، فيسكت العالم هيبة وجزعا.

أو أنه يكون بين النفختين فلا يجيبه أحد لفنائهم، فيجيب نفسه فيقول: لله الواحد القهار.

وقال بعضهم: إن الله تعالى بعد أن يبعث الخلائق يوم القيامة يسألهم فيقول: لمن الملك والسلطان اليوم؟ فيقول الخلائق له بأجمعهم مؤمنهم وكافرهم: ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾، يقرون له جميعا يومئذ بالملك والربوبية وإن كان بعض الخلائق في الدنيا قد نازعوه في الملك فيها وادعوه لأنفسهم، فيقرون يومئذ أن الملك في الدنيا والآخرة لله تعالى.

وقيل: إنه يجيب المنادي بهذا الجواب أهل الجنة دون أهل النار.

وقيل: ينادي بالتقرير مَلَكٌ فيجيب الناس.[1]

والاستفهام في قوله تعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ إما تقريري ليشهد الطغاة من أهل المحشر على أنفسهم أنهم كانوا في الدنيا مخطئين فيما يزعمونه لأنفسهم من ملك لأصنامهم حين يضيفون إليها التصرف في ممالك من الأرض والسماء، وكذلك ما يزعمونه لأنفسهم من سلطان على الناس لا يشاركهم فيه غيرهم كقول فرعون: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾القصص:٣٨، وقوله: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ﴾الزخرف:٥١، وتلقيب أكاسرة الفرس أنفسهم بلقب: ملك الملوك،

---

١) انظر: جامع البيان للطبري (٣٦٦/٢١). وتأويلات أهل السنة للماتريدي (١٤/٩). وبحر العلوم للسمرقندي (٢٠١/٣). والمحرر الوجيز لابن عطية (٥٥١/٤). وفتح القدير للشوكاني (٥٥٧/٤).

وتلقيب ملوك الهند أنفسهم بلقب ملك الدنيا، ويفسر هذا المعنى ما في الحديث في صفة يوم الحشر ((ثم يقول الله: أنا الملك أين ملوك الأرض؟))[1]، استفهاما مرادا منه تخويفهم من الظهور يومئذ، أي أين هم اليوم لماذا لم يظهروا بعظمتهم وخيلائهم؟!

ويجوز أيضا أن يكون الاستفهام كناية عن التشويق إلى ما يرد بعده من الجواب؛ لأن الشأن أن الذي يسمع استفهاما يترقب جوابه فيتمكن من نفسه الجواب عند سماعه فضل تمكن، على أن حصول التشويق لا يفوت على اعتبار الاستفهام للتقرير، وقريب منه: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ البقرة:١٨٦.

و﴿ الْيَوْمَ ﴾ المعرف باللام هو اليوم الحاضر، وحضوره بالنسبة إلى القول المحكي أنه يقال فيه، أي اليوم الذي وقع فيه هذا القول، كما هو شأن أسماء الزمان الظروف إذا عرفت باللام.

وجملة ﴿ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ يجوز أن تكون من بقية القول المقدر الصادر من جانب الله تعالى بأن يصدر من ذلك الجانب استفهام ويصدر منه جوابه؛ لأنه لما كان الاستفهام مستعملا في التقرير أو التشويق كان من الشأن أن يتولى الناطق به الجواب عنه، ونظيره قوله تعالى: ﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ (١) عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ (٢) ﴾ النبأ:١-٢. ويجوز أن تكون مقول قول آخر محذوف، أي فيقول المسؤولون: لله الواحد القهار إقرارا منهم بذلك، والتقدير: فيقول البارزون لله الواحد القهار، فتكون جملة معترضة.

وذكر الصفتين الواحد القهار دون غيرهما من الصفات العلى؛ لأن لمعنييهما مزيد مناسبة بقوله: ﴿ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ﴾ حيث شوهدت دلائل الوحدانية لله وقهره جميع الطغاة والجبارين، وقد تصاغر كل سلطان، وخفت كل صوت، وذلّ كل جبار، وقد قهروا بالموت أولا، وبالبعث قسرا للحساب والجزاء ثانيا.[2]

---

١) متفق عليه: صحيح البخاري، في كتاب تفسير القرآن، وباب قوله: ﴿ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ﴾، برقم "٤٨١٢" (١٢٦/٦).

وصحيح مسلم، في كتاب صفة القيامة والجنة والنار، برقم "٢٧٨٧" (٢١٤٨/٤).

٢) انظر: الكشاف للزمخشري (١٥٧/٤). والتفسير المظهري (٢٤٩/٨). وروح المعاني للألوسي (٣١٠/١٢). والجدول في إعراب القرآن لمحمود صافي (٢٣١/٢٤). والتفسير القرآني للقرآن لعبد الكريم الخطيب (١٢١٦/١٢). والتحرير والتنوير لابن عاشور (١١٠/٢٤-١١١). وبيان المعاني لعبد القادر العاني (٥٧٤/٣). وإعراب القرآن وبيانه لمحيي الدين درويش (٤٦٩/٨).

وفي قوله ﴿ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ﴾ ترتيب أنيق، فإن الذات الأحدية تدفع بوحدتها الكثرة، وبقهرها الآثار، فيضمحل الكل ويتلاشى، ولا يبقى سوى الله تعالى، قاضيا حكما قائما بملكه فعالا لما يريد.[1]

١٠) قوله تعالى: ﴿ ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۚ لَا ظُلۡمَ ٱلۡيَوۡمَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴾:
لما بيّن مصير العباد بين يدي الملك الواحد القهار الغالب، أعلم أهل الموقف بأنه يوم المجازاة بالأعمال صالحها وسيئها، وهذه الآية نص في أن الثواب والعقاب معلق باكتساب العبيد، وأنه يوم لا يوضع فيه أمر غير موضعه الحق، وأن ثواب الله وعقابه سيكون بالحق والعدل، فلا ظلم على أحد كائنا من كان، وأن حسابه العادل سيكون سريعا بخلاف ما يحتاجه ملوك الدنيا لإقامة الحق وتحري العدل، وأيضا فإن يوم الحساب قريب فلا تستبطؤوه، فإن كل آت قريب.

وكذلك لما شرح صفات القهر في ذلك اليوم أردفه ببيان صفات العدل والفضل في ذلك اليوم، ولما أخبر عن إذعان كل نفس بانقطاع الأسباب، أخبرهم بما يزيد رعبهم، ويبعث رغبهم ورهبهم، وهو نتيجة تفرده سبحانه وتعالى بالملك.

ولا ريب في أن هذه الجمل الثلاث متصلة بالمقول الصادر من جانب الله تعالى، سواء كان مجموع الجملتين السابقتين مقولا واحدا أم كانت الثانية منهما من مقول أهل المحشر، فتكون من تمام الجواب على القول بأن المجيب هو الله سبحانه، وعلى القول بأن المجيب هم العباد كلهم، أو بعضهم، فهو مستأنف لبيان ما يقوله الله سبحانه بعد جوابهم.

وترتيب هذه الجمل الخمس هو أنه لما تقرر أن الملك لله وحده في ذلك اليوم بمجموع الجملتين السابقتين، عدّدت آثار التصرف بذلك الملك: وهي الحكم على العباد بنتائج أعمالهم ،وأنه حكم عادل لا يشوبه ظلم، وأنه عاجل لا يبطئ؛ لأن الله لا يشغله عن إقامة الحق شاغل ولا هو بحاجة إلى التدبر والتأمل في طرق قضائه، وعلى هذه النتائج جاء ترتيب ﴿ ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۚ ﴾، ثم ﴿ لَا ظُلۡمَ ٱلۡيَوۡمَۚ ﴾، ثم ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴾.[2]

---

١) روح البيان لإسماعيل حقي (١٦٨/٨).

٢) انظر: الكشاف للزمخشري (١٥٧/٤). ومفاتيح الغيب للفخر الرازي (٥٠١/٢٧). ونظم الدرر للبقاعي (٢٨/١٧). وإرشاد العقل السليم لأبي السعود (٢٧١/٧). وفتح البيان لصديق حسن خان (١٧٢/١٢). والتحرير والتنوير لابن عاشور (١١٠/٢٤-١١١).

قال الفخر الرازي: "هذا الكلام اشتمل على أمور ثلاثة: أولها: إثبات الكسب للإنسان. والثاني: أن كسبه يوجب الجزاء. والثالث: أن ذلك الجزاء إنما يستوفى في ذلك اليوم. فهذه الكلمة على اختصارها مشتملة على هذه الأصول الثلاثة في هذا الكتاب، وهي أصول عظيمة الموقع في الدين ...

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴾ وذِكر هذا الكلام في هذا الموضع لائق جدا، لأنه تعالى لما بيّن أنه لا ظلم بيّن أنه سريع الحساب، وذلك يدل على أنه يصل إليهم ما يستحقونه في الحال"[١]، دون استبطاء، فإن كون ذلك اليوم بعينه هو يوم التلاق ويوم البروز ويوم الجزاء العادل ربما أوهم استبعاد وقوع الكل فيه.[٢]

قال سيد قطب: "اليوم يوم الجزاء الحق، اليوم يوم العدل، اليوم يوم القضاء الفصل، بلا إمهال ولا إبطاء. ويخيم الجلال والصمت، ويغمر الموقف رهبة وخشوع، وتسمع الخلائق وتخشع، ويقضى الأمر، وتطوى صحائف الحساب.

ويتسق هذا الظل مع قوله عن الذين يجادلون في آيات الله -في مطلع السورة-: ﴿فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَـٰدِ ﴾ ... فهذه نهاية التقلب في الأرض، والاستعلاء بغير الحق، والتجبر والتكبر والثراء والمتاع"[٣].

١١) وبهذه الآية انتهى خطاب الله تعالى لخلقه الذي سيخاطبهم به في الآخرة، وقد أعلمهم به الآن ليكونوا على بصيرة من أمرهم فيتقوه ويحذروه ويخافوه، ثم يلتفت الخطاب في الآيات القادمة إلى النبي ﷺ، وقد وجدنا أن هذا المقطع يحث النفس على السير إلى الإيمان ونبذ الجحود والكفران، فدلائل الحق كثيرة لا تخفى، ونذير رب العالمين بينهم ينطق بالحق ويخبر بالصدق مبشرا ومنذرا، وهذا كاف لحمل النفوس على الإقبال على الله تعالى لمن كان قلبه رجاعا إلى الحق مقبلا على الطاعة والإنابة ممن يعتبر ويتعظ بالآيات والنذر.

١) مفاتيح الغيب للفخر الرازي (٢٧/٥٠١-٥٠٢).

٢) انظر: روح البيان لإسماعيل حقي (٨/١٦٩).

٣) في ظلال القرآن (٥/٣٠٧٤).

المطلب الرابع: التفسير الإجمالي للآيات:

بعد إتمام الكلام عن بعض أحوال أهل النار، يخاطب الله تعالى نبيه ﷺ والمؤمنين أصالة –فهم المنتفعون بآياته والشاكرون لنعمه وآلائه– وغيرهم بالتبع رجاء حصول الإنابة والتوبة منهم، فيقول لهم بأنه سبحانه هو الذي يريهم ويظهر لهم دلائل قدرته وعظمته وجلاله وحكمته، وهو الذي ينزّل عليهم من السماء ماء فيرزقهم بسببه من كل شيء قياما لحياة أبدانهم ودوام معاشهم، ورغم وضوح كل هذه الدلائل وهذه النعم التي لا نزاع فيها فهي صوت العقل ومكنون الفطرة إلا أنه لا يعتبر ولا يتعظ بها إلا الرجّاعون إلى الحق والطاعة التائبون من الباطل والمعصية المتفكرون في خلق الله وآياته.

ثم بعد أن قرر الله تعالى ما يدل على الحق، طلب منهم أعظم مطلوب وهو أن يفردوا ربهم تبارك وتعالى بالعبادة خالصا من شوائب الشرك صغيرها وكبيرها ولو كره هذا وسخطه واغتاظ منه أعداء الدين من الكافرين المشركين.

وبعد أن طلب منهم إخلاص العبادة شرع في ذكر ما يقوي داعي الإقبال على الله تعالى بذكر صفات جليلة لمعبودهم الحق، فهو رفيع الصفات في ذاته، ورفيع درجات مخلوقاته العظيمة كالسموات طبقا فوق طبق، ورفيع درجات عباده في الدنيا بالنبوة والولاية، وفي الآخرة بدرجات الجنان العالية.

وهو سبحانه خالق العرش العظيم ومالكها، والعرش قد أحاط كل المخلوقات سعة وعظمة، فلا شيء من العرش فما دونه إلا خاضع عابد لله تعالى طوعا أو كرها.

وهو سبحانه ينزل الوحي على من يصطفي من عباده من الرسل والأنبياء ليقوموا بأعظم مهمة وهو التحذير والإنذار من يوم القيامة وحسابه وعذابه ليستعد له كل مكلف قبل فوات الأوان والتقاء أهل السماوات والأرضين واجتماع الأولين والآخرين، وهو أمر لن يتفق قط قبل ذلك اليوم، بعد خروجهم من قبورهم ظاهرين للجميع في أرض مستوية منبسطة، ولا يخفى على الله تبارك وتعالى من أعمالهم وأفعالهم من شيء.

وحينها يسأل ربنا سؤال تقرير وتبهيت ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ﴾؟، فيأتي الجواب منه ﴿لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾ وذلك في يوم أقرّ الجميع بوحدانيته، وخضع الجميع لقهره وغلبته.

ورغم سلطانه المطلق وغلبته التامة فإن الله تعالى يقرر لعبيده بأن ذلك اليوم يوم جزاء، صفته العدل التام ثوابا كان أم عقابا، دون أدنى شائبة ظلم، وفي سرعة تامة، فهو سبحانه لا يشغله شيء عن شيء، ولا تخفى عليه خافية من أهل السماء والأرض.

المطلب الخامس: بيان ما ترشد إليه الآيات[1]:

١- بيان إفضال الله على العباد إذ أقام لهم آيات وأدلة كثيرة على وجوده وتوحيده وقدرته وحكمته لهدايتهم، ويلاحظ أنه جمع في قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمۡ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزۡقٗاۚ ﴾ بين رعاية مصالح الأديان ومصالح الأبدان، لأن بإظهار الآيات قوام الأديان، وبإنزال الرزق من السماء قوام الأبدان.

٢- لكن لا يتعظ بهذه الآيات، فيوحد الله إلا من ينيب ويرجع إلى طاعة الله، والمعنى: إن لمس وإدراك دلائل توحيد الله كالشيء المستقر في العقول، والاشتغال بالشرك وبعبادة غير الله مانع يحجب أنوار العقل والفكر، فإذا تخلى العبد عن الشرك، وأناب إلى الله، زال الغطاء، واستنار القلب، فيحصل الفوز التام، ويظهر سبيل النجاة.

٣- في قوله تعالى: ﴿يُرِيكُمۡ ﴾ إشارة إلى أنه ليس للإنسان أن يرى ببصيرته حقائق الأشياء إلا بإراءة الله تعالى له إياها.

٤- في قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمۡ ءَايَـٰتِهِۦ ﴾ إشارة إلى هذه الآيات التي كشفت عن أحوال الناس، وبيّنت لهم ما هم فيه من استقامة وعوج، فيعرف كلٌ ما يأخذ وما يدع، مما هو خير له وأصلح لشأنه.

٥- وجوب إخلاص الدعاء وسائر العبادات لله وحد ولو كره ذلك من كره من المشركين أو غيرهم.

٦- قال البقاعي: "الإخلاص أن يفعل العباد لربهم مثل ما فعل لهم، فلا يفعلوا فعلاً من أمر أو نهي إلا لوجهه خاصة من غير غرض لأنفسهم بجلب شيء من نفع أو ضر، وذلك لأنه سبحانه فعل لهم كل إحسان من الخلق والرزق ولأنفسهم خاصة لا لغرض يعود عليه -سبحانه وما أعز شأنه- بنفع ولا ضر، فلا يكون شكرهم له إلا بما تقدم، لكنه لما علم سبحانه بأن أباح لهم العمل لأجل الرجاء في ثوابه والخوف من عقابه، ولم يجعل ذلك قادحاً في الإخلاص، قال الاستاذ أبو القاسم القشيري[2]: ولولا إذنه في ذلك لما كان في العالم مخلص"[3].

---

١) انظر: روح المعاني لإسماعيل حقي (١٦٣/٨). والتفسير القرآني للقرآن لعبد الكريم الخطيب (١٢١٤/١٢). والتحرير والتنوير لابن عاشور (١٠٧/٢٤-١٠٨). وأيسر التفاسير للجزائري (٥٢٢/٤). والتفسير المنير للزحيلي (٩٤/٤-٩٦).

٢) هو أبو القاسم، عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك بن طلحة القشيري، أحد مشاهير الدنيا بالفضل والعلم والزهد، ولد سنة ٣٧٦هـ، وربي يتيما، وتوفي في ربيع الآخر سنة ٤٦٥هـ، -رحمه الله رحمة واسعة-، انظر: اللباب في تهذيب الأنساب لابن الأثير (٣٨/٣). وطبقات المفسرين للداوودي (١٢٥/١).

٣) نظم الدرر للبقاعي (٢٢/١٧-٢٣).

٧- إنما يبعث الله الرسل لإنذار يوم البعث، يوم تلاقي الخلائق جميعهم في أرض المحشر، وهو اليوم الذي يظهر فيه السلطان المطلق والملك التام لله الواحد القهار، ويقول سبحانه بعد فناء الخلق وهلاك كل من في السماوات ومن في الأرض: لمن الملك في هذا اليوم؟ فلا يجيبه أحد، فيجيب نفسه: لله الواحد القهار. وفي تفسير آخر: أن السائل غير الله، والمجيب هم أهل المحشر، ورجّح هذا القرطبي (ت:٦٧١هـ)، فقال: أصح ما قيل فيه: ما جاء عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: (يحشر الناس على أرض بيضاء مثل الفضة، لم يعص الله جل وعز عليها، فيؤمر مناد ينادي: لمن الملك اليوم؟ فيقول العباد مؤمنهم وكافرهم: لله الواحد القهار)[١]، فيقول المؤمنون هذا الجواب سرورا وتلذذا، ويقوله الكافرون غما وانقيادا، ثم أردف القرطبي قائلا: والقول الأول ظاهر جدا، لأن المقصود إظهار انفراده تعالى بالملك عند انقطاع دعاوى المدعين وانتساب المنتسبين، إذ قد ذهب كل مَلِكٍ ومُلكُهُ، ومتكبر وملكه، وانقطعت نسبهم ودعاويهم. ودلّ على هذا قوله الحق عند قبض الأرض والأرواح وطي السماء: ((أنا الملك، أين ملوك الأرض))[٢]؟!.

٨- فيه تقرير النبوة المحمدية بإثبات الوحي الإلهي لمن يشاء من عباده، فبعد تقرير البعث والتوحيد قرر النبوة المحمدية، وهذه أصول الدين التي عليها مدار الحياة الإيمانية.

٩- في الآيات بيان أن النبوة اصطفاء من الله تعالى ولا تكون بالكسب؛ لأنها ابتدأت بقوله: ﴿فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ ثم أعقب بقوله: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ﴾ فأشار إلى أن عبادة الله بإخلاص سبب لرفع الدرجات، ثم أعقب بقوله: ﴿يُلۡقِي ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ﴾ فجيء بفعل الإلقاء، وبكون الروح من أمره، وبصلة من يشاء من عباده، فآذن بأن ذلك بمحض اختياره وعلمه.

١٠- الخلاصة: ذكر الله تعالى ست صفات ليوم القيامة: وهي كونه يوم التلاق، وكون الخلق بارزين ظاهرين فيه، ولا يخفى على الله منهم شيء، ويظهر فيه الملك التام لله الواحد القهار، وتجزى فيه كل نفس بما كسبت من خير أو شر، ولا ظلم في الحساب الذي هو سريع الإجراء والتنفيذ وتحقيق المطلوب، وهذا العرض لأحوال يوم القيامة المقصود منه التذكير به والدعوة إلى تقوية الإيمان به إذ هو عامل إصلاح النفوس، مع بيان عظمة الله وعدله وهي موجبات توحيده وطاعته وطاعة رسوله ﷺ.

***

---

١) الزهد لابن المبارك، باب صفة النار (١١٥/٢). والأهوال لابن أبي الدنيا في ذكر البعث والنشور، برقم "١٤٦" (١٠٥/١)، وفي ذكر الحشر، برقم "٢٦٠" (٢١٧/١). والدر المنثور للسيوطي عن عبد بن حميد (٢٨٠/٧).

٢) صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، وباب قوله: ﴿وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ﴾، برقم "٤٨١٢" (١٢٦/٦).

المبحث السادس: الإنذار المباشر للمشركين بسوء العاقبة في الآخرة ويشمل الآيات (١٨-٢٠):

قوله تعالى: ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ ۖ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ ۗ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾ ﴾.

المطلب الأول: ربط الموضوع بالمحور الأساس للسورة:

تستمر الآيات وهي تقطع مراحلها في تمكين الترهيب من قلوب المشركين، كل مرحلة أشد مما قبلها، مصّدرا خطابه هاهنا بالإنذار والتهويل والترهيب والتحذير من يوم قريب يبلغ فيه الهول بالقلوب أن تبلغ الحناجر خوفا وغما وكربا في انتظار مجهول مخيف، وهم فرادى ليس لأحدهم حبيب يؤنسه ولا نصير أو شفيع مجاب يؤازره ويشفع له.[١]

وقد كانت الآيات الكريمات فيما سبق تنذر وتحذر بأسلوب خبري، وهنا أنشأ الله تعالى أمره إلى رسوله الكريم ﷺ ليقوم بمهمة الإنذار مباشرة، فلهم في آيات الله تعالى إذا تليت عليهم ترغيب وترهيب، ولهم في تبليغ رسول الله ﷺ وإنذاره دعوةٌ للحق وزجرٌ عن الباطل، فالآيات في سيرها الرئيسي تصبّ في الكلام عن الكافرين، وتذكرهم بالمعنى الواعظ مرة بعد مرة، مرة بصيغة التقرير، ومرة بصيغة الطلب، وتخبرهم بالعذاب الأخروي في مشاهد متعددة، فهي يوم التلاق وآثاره الهائلة، وهي يوم الآزفة وأحداثه الرهيبة، وسنرى في المقطع القادم أن الله يذكرهم بالعذاب الدنيوي عبر نماذج من أحوال السابقين ومصارع الأمم الغابرة، وهذا متعلق تمام التعلق بمحور السورة الأساسي القائم على نصرة الرسالة ودفع العدوان عنها وردع المخالفين ترهيبا.

قال الزحيلي: موضوع الآيات: التخويف من عذاب الآخرة، وقد ذكر الله تعالى ثمانية أسباب موجبة للخوف وهي:

١- أنه سمى ذلك اليوم يوم الآزفة، أي يوم القرب من العذاب لمن أذنب.

---

١) انظر: التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم لجامعة الشارقة بإشراف د. مصطفى مسلم (٦/٥٤٤).

٢- أنه بلغ ذلك الخوف إلى أن زال القلب من الصدر وارتفع إلى الحنجرة.

٣- لا يمكنهم أن ينطقوا لشدة ما اعتراهم من الحزن والخوف، وذلك يوجب القلق والاضطراب.

٤- ليس لهم قريب ينفعهم، ولا شفيع يطاع فيهم، فتقبل شفاعته.

٥- أنه سبحانه عالم بكل شيء صغير أو كبير، دقيق أو جليل، وهذا يوجب شدة الخوف.

٦- الله يقضي بالحق المطلق والعدل التام، وهذا أيضا يوجب عظم الخوف.

٧- لا فائدة مما عوّل عليه المشركون من شفاعة الأصنام، فهم لا يقضون بشيء.

٨- إن الله يسمع من الكفار ثناءهم على الأصنام ونحوها من المعبودات الباطلة، ويبصر خضوعهم وسجودهم لها.[١]

وقال أيضا: "حرص الحق سبحانه وتعالى في قرآنه على تقويم الإنسان وضمان حياة السعادة والنجاة له، فقدّم له الإنذارات المتتالية، والتحذيرات المتعاقبة، ولا سيما من أهوال القيامة ومخاطرها، وهو يوم الآزفة، ليبادر الناس جميعا للإيمان، ويتجنبوا الشرك والعصيان، فإن فعلوا حققوا الخير لأنفسهم، وإن تمردوا وعصوا، جلبوا الدمار والهلاك لذواتهم، ولا يغنيهم أي شيء قدموه أو يقدمونه عن الجزاء العادل، والحساب الرهيب عن سوء أعمالهم، وفحش منكراتهم"[٢].

ووجه آخر: بيّن الله تعالى في هذه الآيات أن دفاع المشركين عن أنفسهم وجدالهم غير مجد فإن الحاكم يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، وأنه أنذرهم وحذرهم، فلو أنهم حكّموا عقولهم واستقبلوا حجج الله تعالى وبلاغ رسوله ﷺ بصدر رحب، لأنقذوا أنفسهم مما هم فيه ﴿يَوْمَ الْآزِفَةِ﴾.[٣]

ولو تأملنا إلى الضمائر في الآيات لوجدناها تعود إلى مذكور معين تتحدث عنها الآيات من أول السورة، فالضمائر التي في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾غافر: ١٦، وفي قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ﴾ إذ قلوبهم لدى حناجرهم، ظاهرها أنها ضمائر تعود على الكفار الذين يجادلون في آيات الله، والذين ينادون يوم القيامة بأن يقال لهم: ﴿لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾

١) انظر: التفسير المنير "بتصرف" (٢٤/١٠١-١٠٢).

٢) التفسير الوسيط (٣/٢٢٦٥).

٣) انظر: التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، لجامعة الشارقة بإشراف د. مصطفى مسلم (٦/٥٤٦-٥٤٧).

غافر:١٠، ويكون قوله تعالى: ﴿ مَا لِلظَّـٰلِمِينَ ﴾ موضوعا موضع ضمير الكفّار المعهودين لتحكم عليهم الآية بأنهم لا حميم لهم ولا شفيع مجاب،[١] وهكذا نرى الآيات تتوالى من أول السورة للحديث عن الكفار ترغبهم وتهددهم وتنوع في ترهيبهم بغية كفهم عن غيهم وردعهم عن ظلمهم ودعوتهم إلى النجاة من مصير الهلاك والخسران، وكل هذا يوحّد وجهة الآيات مع محور السورة الأساسي.

١) انظر: حاشية شيخ زاده على البيضاوي (٣٠٩/٧).

المطلب الثاني: التناسق بين هذا الموضوع وسابقه:

تستمر الآيات ويستطرد السياق ليوجه الرسولَ ﷺ إلى إنذار المشركين بذلك اليوم، في مشهد من مشاهد القيامة يتفرد فيه الله بالحكم والقضاء، بعد ما عرضه عليهم في صورة حكاية لم يوجه لهم فيها الخطاب.[١]

وبعد بيان كون الأنبياء ينذرون الناس يوم التلاق في الآيات السابقة، أمر الله تعالى نبيه محمدا ﷺ بالإنذار مباشرة، وأتى بأوصاف هائلة رهيبة أخرى ليوم القيامة، لتخويف الكفار بعذاب الآخرة.

قال دروزة: "واضح أن هذه الآيات هي أيضا استمرار للآيات السابقة وأنها استهدفت فيما استهدفته إثارة الخوف والرعب واليأس في قلوب المشركين وحملهم على الارعواء"[٢].

١) انظر: في ظلال القرآن لسيد قطب (٥/٣٠٧٤).

٢) التفسير الحديث (٤/٣٦٢).

المطلب الثالث: التناسب بين الآيات والجمل والكلمات:

بيّن الله تعالى في الآيات السابقة أن من صفاته الجليلة إلقاء الروح من أمره على رسله من أجل غاية سامية وهي إنذار الناس بيوم التلاق، ليستعد له كل واحد بالإيمان والعمل الصالح، فإنه سيكون يوم هائلا عظيما تظهر فيه أجساد الخلائق وأعمالهم فلا تخفى منهم خافية، في يوم تفرد فيه الله الواحد القهار بالملك والسلطان، ليجزي كل نفس جزاءها الأوفى دون شائبة ظلم وفي سرعة تامة، فريق في الجنة وفريق في السعير. بعد هذا توجه الخطاب من العموم إلى الخصوص لمزيد التأكيد والتنبيه والمبالغة في الإنذار والتحذير، فتوجه الخطاب من رسل الله أجمعين عليهم السلام إلى رسول الله محمد ﷺ لينذر الناس -وخصوصا أهل مكة الذين يجادلون في آيات الله بالباطل- بعذاب يوم الآزفة القريب، وشرع في وصف يوم القيامة بأنواع أخرى من الصفات الهائلة المهيبة.

١) قوله تعالى: ﴿ وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡأٓزِفَةِ ﴾: يتجدد خطاب الإنذار مرة بعد مرة، ليعقله العاقلون، ويحذره أشد الحذر المخالفون، ويأتي الإنذار والتخويف هذه المرة بمباشرة النبي ﷺ له بأمر من الله تعالى، والإنذار يكون بليغا ومؤثرا حين يأتي على لسان داعي الله وهو يباشر الناس ويخالطهم ويمارس معهم واجب الدعوة والبلاغ، وهكذا كان بلاغ القرآن الكريم، تنزل الآيات بالأخبار الصادقة، ثم تأتي الأوامر بالدعوة المباشرة بين الناس، فلا يبقى بعدها على الضلال إلا المعاندون والجاحدون.

وجاء الإنذار هنا بيوم الآزفة وهو يوم القيامة التي قد أزفت وقربت، وآن الوصول إلى أهوالها وقلاقلها وزلازلها، ليخوف الناس "بما إليه مرجع عاقبتهم ومصيرهم؛ لأن أهل العقل والتمييز إنما يعملون ويسعون للعاقبة وما إليه يرجع أمورهم وهو ذلك اليوم"[١].

ويوم الآزفة فيه ثلاثة أقوال: الأشهر والأظهر وهو قول الجمهور: أنه يوم القيامة، سميت بذلك لدنوها وقربها، وإن استبعد الناس مداها.[٢]

وقال بعضهم: يوم الآزفة: هو يوم حضور المنية.[٣]

---

١) تأويلات أهل السنة للماتريدي (١٥/٩). وانظر: تيسير الكريم الرحمن للسعدي (٧٣٥/١).

٢) انظر: غريب القرآن لابن قتيبة (٣٣٣/١). ومعاني القرآن وإعرابه للزجاج (٣٦٩/٤). والجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٣٠٢/١٥).

٣) انظر: النكت والعيون للماوردي (١٤٩/٥).

وقال آخرون: يوم الآزفة: هو وقت الآزفة، وهي مسارعة الكافرين إلى دخول النار، فإنه عند ذلك ترتفع قلوبهم عن مقارها من شدة الخوف.[1]

٢) قوله تعالى: ﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ﴾: لما صار الناس إلى يوم الآزفة أخبر الله تعالى عن شدة حالهم في ذلك اليوم وفزعهم وكثرة خوفهم وضيق صدورهم وانقطاع حديثهم، في هلع تام، ووجوم عام، وهذا المشهد يجعل العاقل يتخذ كل سبيل ويركب كل سبب حتى لا يقع فيه ولا يصير إليه.

فشرع الله تعالى يذكر حال الكافرين في هذا اليوم القريب المرتقب، بمشهد قوي الوقع على القلوب المعتبرة، إذ أنه كان من حال الخوف الشديد الذي سيصيبهم أن قلوبهم تصعد حتى تخفق في الحناجر لا تزهق فيموتوا ولا تنزل فيستريحوا، بل لا يزالون يزدادون غما حتى يصيروا في حالة كظم شديدة ساكتون مغمومون ممسكون بحلوقهم مطبقون بأفواههم.

"ومعنى كون القلوب لدى الحناجر في ذلك الوقت، فيه لعلماء التفسير وجهان معروفان:

أحدهما: ما قاله قتادة وغيره؛ من أن قلوبهم يومئذ ترتفع من أماكنها في الصدور، حتى تلتصق بالحلوق، فتكون لدى الحناجر، فلا هي تخرج من أفواههم فيموتوا، ولا هي ترجع إلى أماكنها في الصدور فيتنفسوا ويستريحوا. وهذا القول هو ظاهر القرآن.

والوجه الثاني: هو أن المراد بكون القلوب لدى الحناجر، بيان شدة الهول، وفظاعة الأمر، وعليه فالآية كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾ الأحزاب: ١٠-١١، وهو زلزالُ خوف وفزع لا زلزال حركة الأرض".[2]

و"المقصود من الآية تقرير أمرين: أحدهما: الخوف الشديد، وهو المراد من قوله: ﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ﴾، والثاني: العجز عن الكلام، وهو المراد من قوله: ﴿كَٰظِمِينَ﴾، فإن الملهوف إذا قدر على

١) انظر: مفاتيح الغيب للفخر الرازي (٥٠٣/٢٧).
٢) أضواء البيان للشنقيطي (٣٨١/٦).

الكلام حصلت له خفة وسكون، أما إذا لم يقدر على الكلام وبث الشكوى عظم قلقه وقوي خوفه"[1] واشتد غمه وكربه.

٣) قوله تعالى: ﴿ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ حَمِيمٖ وَلَا شَفِيعٖ يُطَاعُ ﴾: ثم يزيدهم الله تعالى كشفا لهول مقامهم ومكملا وصف أحوالهم البئيسة أن كل وسيلة للنصرة والمساندة والإغاثة والإنقاذ ستكون منقطعة عنهم، فرغم هلعهم وجزعهم وخوفهم وفزعهم وعجزهم عن الكلام والبيان، فإنهم لا يجدون من يتكلم بالنيابة عنهم، فلا قريب مشفق صادق في مودته أو صديق محب يشفق عليهم ويهتم لأمرهم ويجادل عنهم ويسترحم لهم ويسعى لنجدتهم أو يقدر عليها أو يحمل عَنْهُمْ من ذنوبهم شَيْئًا، ولا شفيع يدافع عنهم ويتوسط لأجلهم فتلقى شفاعته إجابة، بل قضي الأمر وفات الأوان على تدارك عواقب الأعمال السيئة من كفر وشرك وظلم وعصيان، وانقطعت أسباب النجاة من العذاب، وانقطع الرجاء من القلوب.

"والضمائر المذكورة من قوله تعالى: ﴿ وَأَنذِرۡهُمۡ ﴾ إلى هنا إن كانت للكفار -كما هو الظاهر- فوضع الظالمين موضع ضميرهم للتسجيل عليهم بالظلم وتعليل الحكم، وإن كانت عامة لهم ولغيرهم فليس هذا من باب وضع الظاهر موضع الضمير وإنما هو بيان حكم للظالمين بخصوصهم، والمراد بهم الكاملون في الظلم وهم الكافرون لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ﴾لقمان: ١٣"[2].

٤) قوله تعالى: ﴿ يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ ﴾: يذكر الله تعالى بعض صفاته العلى، التي تقطع كل رجاء من قلوب المجرمين، فإن عِلْم الله تعالى محيط بكل شيء من أعمالهم، ولو كانت طرفة عين آثمة، أو نية شر كامنة في الصدر، فإنها في علم الله ظاهرة وفي صحائف الأعمال ثابتة.

فلما أعلمهم بهول الموقف وانتفاء أسباب النجاة، بيّن لهم أن الحساب لن يكون على بعض الذنوب دون بعض، بل سيجدون كتابا لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، وسيجدون ما عملوا حاضرا، فإن الله تعالى ما كان ليخفى عليه خيانة عين في لمحة عابرة، وما كان ليخفى عليه شيء من متمنيات النفوس ومستحسنات القلوب ومرغوبات الذوات ومكنونات الصدور ومقصوداتها حتى لو لم يتحدث بها صاحبها أو يعمل بها، فالله مطّلع على كل الأشياء، جليلها وحقيرها، صغيرها وكبيرها، دقيقها ولطيفها، وقد أحصى كل شيء عددا، وهذا أدعى "ليحذر الناس علمه فيهم، فيستحيوا من الله حق الحياء، ويتقوه حق تقواه،

١) مفاتيح الغيب للفخر الرازي (٥٠٣/٢٧).
٢) روح المعاني للألوسي (٣١٣/١٢).

ويراقبوه مراقبة من يعلم أنه يراه، فإنه تعالى يعلم العين الخائنة وإن أبدت أمانة، ويعلم ما تنطوي عليه خبايا الصدور من الضمائر والسرائر"[1].

قال أبو حيان: "والظاهر أن قوله: ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ ﴾ الآية متصل بما قبله، لما أمر بإنذاره يوم الآزفة، وما يعرض فيه من شدة الكرب والغم، وأن الظالم لا يجد من يحميه من ذلك، ولا من يشفع له.

ذكر اطلاعه تعالى على جميع ما يصدر من العبد، وأنه مجازى بما عمل، ليكون على حذر من ذلك اليوم إذا علم إن الله مطلع على أعماله"[2].

وهذا سبب اتصال هذه الآية بما قبلها، ولكن الزمخشري يرى أنها خبر تابع لقوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ ﴾غافر:١٣، فيقول: "فإن قلت: بم اتصل قوله ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ ﴾؟

قلت: هو خبر من أخبار (هو) في قوله: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ﴾، مثل ﴿ يُلْقِى ٱلرُّوحَ ﴾ غافر:١٥، ولكن ﴿ يُلْقِى ٱلرُّوحَ ﴾ قد علل بقوله: ﴿ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴾ غافر:١٥، ثم استطرد ذكر أحوال يوم التلاق إلى قوله: ﴿ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾، فبعد لذلك عن أخواته"[3].

ويرى ابن عطية رأيا آخر، أن قوله: ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْأَزِفَةِ ... ﴾ الآية وقعت اعتراضية، وأن قوله تعالى: ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ ... ﴾ الآية، متصل بقوله: ﴿ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾غافر:١٧؛ لأن سرعة حسابه تعالى للخلق إنما هي بعلمه الذي لا يحتاج معه إلى روية وفكرة ولا لشيء مما يحتاجه الحاسبون.[4]

وذكر ابن عطية رأيا آخر، فقال: "وقالت فرقة: ﴿ يَعْلَمُ ﴾ متصل بقوله: ﴿ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ﴾ غافر:١٦، وهذا قول حسن، يقويه تناسب المعنيين، ويضعفه بعد الآية وكثرة الحائل"[5].

١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (١٣٧/٧). وانظر: روح البيان لإسماعيل حقي (١٧١/٨).

٢) البحر المحيط (٢٤٧/٩).

٣) الكشاف (١٥٩/٤).

٤) انظر: المحرر الوجيز (٥٥٢/٤-٥٥٣).

٥) المحرر الوجيز (٥٥٣/٤).

"وجعلها بعض متصلة بنفي قبول الشفاعة الذي تضمنه قوله تعالى: ﴿ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ فإن (يطاع) المنفي بمعنى تقبل شفاعته على أنها تعليل لذلك، أي لا تقبل شفاعة شفيع لهم؛ لأن الله تعالى يعلم منه الخيانة سرا وعلانية"[١].

وكل ما ذكر محتمل في اتصال هذه الآية بما سبقها من الآيات، وما ذكرته أولا أرجح هذه الأقوال؛ لأنها تؤدي غرضا قويا في التخويف والتهديد أكثر من غيره، والله تعالى أعلم.

قال ابن عاشور: "إذا ذكروا بأن الله يعلم الخفايا كان إنذارا بالغا يقتضي الحذر من كل اعتقاد أو عمل نهاهم الرسول ﷺ عنه، فبعد أن أيأسهم من شفيع يسعى لهم في عدم المؤاخذة بذنوبهم أيأسهم من أن يتوهموا أنهم يستطيعون إخفاء شيء من نواياهم أو أدنى حركات أعمالهم على ربهم"[٢].

وإتماما للفائدة أذكر أقوال أهل العلم في خائنة الأعين وما تخفيه الصدور، ففي تفسير خائنة الأعين خمسة أوجه:

أحدها: أنه الرمز والغمز والهمز والإغماض والإشارة بالعين أحدهما أو كلاهما فيما لا يحب الله.

الثاني: هي النظرة بعد النظرة، فأما الأولى فليس فيها شيء، وأما الثانية فعليه مأثمها.

الثالث: مسارقة النظر، فينتظر غفلة الناس، فإذا غفلوا عنه سارع فنظر إلى ما يهواه ويحبه، ومنه الرجُل يكون في القوم فتمرُّ به المرأة فيُريهم أنه يغُضُّ بصره، فإذا رأى منهم غفلةً لَحَظَ إليها، فإن خاف أن يَفْطنُوا له غَضَّ بصره.

الرابع: نظر الأعين إلى ما نهى الله عنه.

الخامس: هو قول الإنسان ما رأيت وقد رأى، أو رأيت وما رأى.

وفي تسميتها خائنة الأعين وجهان:

أحدهما: لأنها أخفى الإشارات فصارت بالاستخفاء كالخيانة.

١) روح المعاني للألوسي (٣١٤/١٢).
٢) التحرير والتنوير (١١٥/٢٤).

الثاني: لأنها باستراق النظر إلى المحظور خيانة.[1]

وما تخفيه الصدور فيه ثلاثة تأويلات:

أحدها: الوسوسة. قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾ق:١٦.

الثاني: ما تضمره النفس عندما ترى امرأة إذا قدرت عليها أتزني بها أم لا؟!.

الثالث: ما يسره الإنسان من أمانة أو خيانة.

وعبّر عن القلوب بالصدور لأنها مواضع القلوب.

والمعنى: أن الله تعالى لا يخفى عليه شيء من أمور العباد، حتى ما يحدّث به أحدهم نفسه، ويضمره في قلبه، ولو كانت لمح بصر فما فوقه، فيعلم إذا نظر العبد ماذا يريد بنظره، وما ينوي ذلك بقلبه، سبحانه وتعالى، فيجازي على كل ذلك بالعدل والحق.[2]

قال الفراء: "﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ ﴾ يعني: اللَّه عزَّ وجلَّ، يُقال: إنّ للرجل نظرتين: فالأولى مباحة لَهُ، والثانية محرمة عَلَيْهِ، فقوله: ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ ﴾ الأعين في النظرة الثانية، وما تخفى الصدور فِي النظرة الأولى. فإن كانت النظرة الأولى تعمُّدًا كَانَ فيها الإثْمُ أيضًا، وإن لم يكن تَعَمَّدَها فهي مغفور"[3].

٥) قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ ﴾: لما أخبر أنه تعالى بكل شيء عليم ولو كان خيانة عين عابرة أو فكرة نفس كامنة، أخبر أنّ لعلمه الشامل هذا آثارا أنتجتها قدرته الكاملة، فهو الحاكم بالحق، يعفو ويعاقب بالحق، ولا يقدر على ذلك إلا هو سبحانه.

وكذلك لما شمل علم الله تعالى لكل صغيرة وكبيرة، وكانت بعض صفاته وشؤونه ما سبق ذكره، أعلمهم تعالى أنه مع علمه المحيط قادر على كل شيء خلقا وأمرا وحكما وقضاء وثوابا وعقابا، فهو وحده الذي يفصل بين عباده ويحكم فيهم، وحكمه فيهم لا يكون إلا بالحق والعدل دون ظلم أو خطأ، وهو قد

---

١) انظر: تفسير مجاهد (٥٨٣/١). وغريب القرآن لابن قتيبة (٣٣٣/١). والنكت والعيون للماوردي (١٤٩/٥-١٥٠). وزاد المسير لابن الجوزي (٣٣/٤).

٢) انظر: جامع البيان للطبري (٣٦٩/٢١). والنكت والعيون للماوردي (١٥٠/٥).

٣) معاني القرآن (٧/٣).

حكم بالحق في الدنيا بالآيات والحجج ما عرف كل أحد أنها حجج وآيات وبراهين، وسيحكم بالحق في الآخرة على أتم الوجوه علما وقدرة.

قال ابن عاشور: "والجملة من تمام الغرض الذي سيقت إليه جملة ﴿ يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ ﴾ ...، وكلتاهما ناظرة إلى قوله: ﴿ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ حَمِيمٖ وَلَا شَفِيعٖ يُطَاعُ ﴾ أي أن ذلك من القضاء بالحق"[1].

٦) قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقۡضُونَ بِشَيۡءٍۗ ﴾: فكل ما سوى الله من معبودات باطلة فإنها لا تقضي بشيء؛ لأنه لا علم لها ولا قدرة، ولا طاقة لها على حكم أو جزاء، كأن الآية في طيها تقول: اعبدوا الذي يقدر على كل شيء، ولا يخفى عليه شيء من أعمالكم، فيجزي محسنكم بالإحسان، والمسيء بالإساءة، لا ما لا يقدر على شيء ولا يعلم شيئا ولا يحكم في شيء، فإن هذه الأصنام المعبودة من دون الله تعالى عاجزة لا حياة لها ولا علم ولا قدرة، فكيف تعبد من دون الله تعالى؟! وهذا تهكم بالمشركين، وتذكير بعجز الذين يدعونهم وأنهم غير أهل للإلهية؛ "لأن ما لا يوصف بالقدرة لا يقال فيه: يقضي، أو لا يقضي"[2].

٧) قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴾: ختمَ الآيات بصفتين عظمتين أيد بهما علمه التام، فهو السميع لما تنطق به ألسنة المشركين، البصير بما يفعلون من أفعال، محيط بكل ذلك محصيه عليهم، ليجازي جميعهم جزاءه الأوفى يوم الجزاء، فالجملة "تقرير لقوله: ﴿ يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ ﴾ ووعيد لهم بأنه يسمع ما يقولون ويبصر ما يعملون، وأنه يعاقبهم عليه، وتعريض بما يدعون من دون الله، وأنها لا تسمع ولا تبصر"[3]، وكان الأحرى أن يتوجهوا إلى الله وحده بالعبادة فهو الحي كامل الحياة، والعالم كامل العلم، سميع بكل شيء، وبصير بكل شيء، وسع كل شيء علما.

٩) وبهذا تصبح أدوات العقاب والحساب محكمة لا ثغرة فيها ولا منجى منها، فكان الإنذار بهذه الأمور كافية لصدع القلوب وردع النفوس المتكبرة المتجبرة، حتى تعلم أن الله محكم في حكمه إن كانوا هم محكمون في كفرهم، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون.

قال الفخر الرازي: إنه تعالى ذكر في هذه الآية جميع الأسباب الموجبة للخوف:

---

١) التحرير والتنوير (١١٧/٢٤).

٢) الكشاف للزمخشري (١٥٩/٤).

٣) الكشاف للزمخشري (١٥٩/٤).

فأولها: أنه سمى ذلك اليوم يوم الآزفة، أي يوم القرب من عذابه لمن ابتلي بالذنب العظيم، لأنه إذا قرب زمان عقوبته كان في أقصى غايات الخوف، حتى قيل إن تلك الغموم والهموم أعظم في الإيحاش من عين تلك العقوبة.

والثاني: قوله: ﴿ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ ﴾ والمعنى أنه بلغ ذلك الخوف إلى أن انقلع القلب من الصدر وارتفع إلى الحنجرة والتصق بها وصار مانعا من دخول النفس.

والثالث: قوله: ﴿ كَٰظِمِينَ ﴾ والمعنى أنه لا يمكنهم أن ينطقوا وأن يشرحوا ما عندهم من الحزن والخوف، وذلك يوجب مزيد القلق والاضطراب.

والرابع: قوله: ﴿ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ فبين أنه ليس لهم قريب ينفعهم، ولا شفيع يطاع فيهم فتقبل شفاعته.

والخامس: قوله: ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴾ والمعنى أنه سبحانه عالم لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض، والحاكم إذا بلغ في العلم إلى هذا الحد كان خوف المذنب منه شديدا جدا.

والأفعال قسمان: أفعال الجوارح وأفعال القلوب، أما أفعال الجوارح، فأخفاها خائنة الأعين والله أعلم بها، فكيف الحال في سائر الأعمال. وأما أفعال القلوب، فهي معلومة لله تعالى لقوله: ﴿ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴾ فدلّ هذا على كونه تعالى عالما بجميع أفعالهم.

السادس: قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ ﴾ وهذا أيضا يوجب عظم الخوف، لأن الحاكم إذا كان عالما بجميع الأحوال، وثبت منه أنه لا يقضي إلا بالحق في كل ما دقّ وجلّ، كان خوف المذنب منه في الغاية القصوى.

السابع: أن الكفار إنما عولوا في دفع العقاب عن أنفسهم على شفاعة هذه الأصنام، وقد بيّن الله تعالى أنه لا فائدة فيها البتة، فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ ﴾.

الثامن: قوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ أي يسمع من الكفار ثناءهم على الأصنام، ولا يسمع منهم ثناءهم على الله، ويبصر خضوعهم وسجودهم لهم، ولا يبصر خضوعهم وتواضعهم لله.

فهذه الأحوال الثمانية إذا اجتمعت في حق المذنب الذي عَظُم ذنبه كان بالغا في التخويف إلى الحد الذي لا تعقل الزيادة عليه. اهـ.[1]

وسنرى في الآيات القادمة كيف أن الله تعالى لما بالغ في تخويف الكفار بعذاب الآخرة أردفه ببيان تخويفهم بأحوال الدنيا فقال: ﴿ ۞أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِى ٱلۡأَرۡضِ ... ﴾غافر: ٢١، الآيات.

وبذا وجدنا أن الآيات الكريمات على وجازتها أدت رسالتها من الإنذار والتحذير على أكمل وجه، فتوجيه الرسول ﷺ ليقوم بالإنذار بين ظهرانيهم، وذِكر الآيات لبعضٍ من أجلِّ صفات يوم القيامة وأشد أحوال أهل النار ألما، وإثبات صفات جليلة للإله الحق الحاكم بالحق من علم شامل وقدرة كاملة، ليقرر أنه قادر على إنفاذ وعيده دون أدنى شك أو ريبة، كما أن الآلهة المزعومة عاجزة عن فعل أي شيء دون أدنى شك أو ريبة، فثبت الحق المطلق لله تعالى، وكل هذا يعطى رسالة واضحة للمخاطبين ترغبهم في قبول الحق وترهبهم أشد الترهيب من الاستمرار على أوهام باطلة.

---

١) مفاتيح الغيب (٢٧/٥٠٥).

المطلب الرابع: التفسير الإجمالي للآيات:

يأمر الله تعالى نبيه محمدا ﷺ أن ينذر قومه –أملا في هدايتهم– موافاتهم ليوم القيامة القريبة بأعمالهم الباطلة وعقائدهم الشركية، فإن ذلك اليوم القريب سيكشف عن خوف عظيم وهول جسيم تطير منه القلوب من الصدور إلى الحناجر، في حالة شديدة من الغم والسكوت الطويل، دون قدرة منهم على الكلام أو الدفاع عن أنفسهم، ودون أن يكون لهم محب أو قريب مشفق يهتم لأمرهم، أو شفيع مطاع يشفع لهم ويدافع عنهم.

ويزيد هذا الكرب شدة وهذا الهول قوة أن الله تعالى مطّلع على ظواهر العباد وبواطنهم، يعلم كل صغيرة وكبيرة، ولا تخفى عليه خافية من شيء، لا من خيانة عين تسارق النظر إلى محرم ولا ما في الضمائر من نوايا آثمة حتى لو لم يتحدث بها أو يعملها.

وعلى هذا فهو الله العالم القادر الذي يحكم بالحق ويمضيه، وأما ما دونه من المعبودات الباطلة فإنها عاجزة عن فعل شيء، ولا تملك علما ولا قدرة على شيء، فكان الحريّ أن يعبد الله وحده الذي يقدر على النفع والضر لا ما سواه مما لا يملكون سمعا ولا بصرا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا، فالله وحده هو السميع لكل شيء والبصير بكل شيء ولا يشغله سمع عن سمع ولا بصر عن بصر، وسيجازي عباده على أعمالهم بالحق.

المطلب الخامس: بيان ما ترشد إليه الآيات[1]:

١- قال في أول هذه الآيات ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ ﴾ ثم وصفها بهذه الأوصاف المقتضية للاستعداد لذلك اليوم العظيم، لاشتمالها على الترغيب والترهيب.

٢- بيان هول يوم القيامة وصعوبة الموقف فيه.

٣- انعدام الحميم والشفيع للظالمين يوم القيامة.

٤- بيان سعة علم الله تعالى حتى إنه ليعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، فعلى العبد أن يستحيي من الله أكثر من الناس، وأن يعلم أن الله يرى فعله الخير وفعله الشر، فليحسب حسابه في كل شيء، فإن من ﴿ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾ ﴾ الزلزلة:٧-٨.

٥- وهذه الآيات تحمل النفس على المراقبة، وهي من أعظم مراتب الإحسان، وأساس الاستقامة على الدين القويم والصراط المستقيم.

٦- قضاء الله عدل وحكمه نافذ وذلك لكمال علمه وقدرته.

***

١) انظر: أيسر التفاسير للجزائري (٥٢٣/٤-٥٢٤). وتيسير الكريم الرحمن للسعدي (٧٣٥/١). والتفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، لجامعة الشارقة بإشراف د. مصطفى مسلم (٥٤٧/٦).

الفصل الثاني: الاعتبار بمصارع الغابرين، وجهاد الرسل والمؤمنين مع أقوامهم بالكلمة ويشمل الآيات (٢١-٥٥)

قال تعالى: ﴿ ۞أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ
مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت
تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ ۚ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا
وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ
مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي
ضَلَالٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ۖ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي
الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٢٧﴾
وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم
بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ
اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ
اللَّهِ إِن جَاءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي
أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ
﴿٣١﴾ وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ
هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن
يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي
آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ
مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ
إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ
فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَا قَوْمِ

إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ
وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ
﴿٤٠﴾ ۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ
بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا
وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ
وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ
سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ
ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا
فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ
حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾
قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۚ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ ۗ وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى
ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ
مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ
﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٤﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ
رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٥٥﴾ ﴾ غافر: ٢١-٥٥.

تحت عنوان (الاعتبار بمصارع الغابرين، وجهاد الرسل والمؤمنين مع أقوامهم بالكلمة) يتكون المقطع الرئيسي الثاني للسورة، والذي يبدأ من الآية (٢١) وحتى نهاية الآية (٥٥)، وهو يبدأ بلفتة إلى مصارع الغابرين السابقين، ومقدمة لعرض جانب من قصة موسى عليه السلام مع فرعون وهامان وقارون، والتي تمثل موقف الطغيان من دعوة الحق، وتعرض فيها حلقة جديدة لم تعرض في قصة موسى عليه السلام من قبل، ولا تُعرض إلا في هذه السورة، وهي حلقة ظهور رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه، يدفع عن موسى عليه السلام ما همّوا بقتله، ويصدع بكلمة الحق والإيمان في تلطف وحذر في أول الأمر، ثم في صراحة ووضوح آخر الأمر، ويعرض في جدله مع فرعون حجج الحق وبراهينه قوية ناصعة، ويحذرهم يوم القيامة، ويمثل لهم بعض

مشاهده في أسلوب مؤثر، ويذّكرهم موقفهم وموقف الأجيال قبلهم من يوسف عليه السلام ورسالته، ويستطرد السياق بالقصة حتى يصلَ طرفها بالآخرة، فإذا هم هناك، وإذا هم يتحاجون في النار، وإذا حوار بين الضعفاء والذين استكبروا، وحوار لهم جميعا مع خزنة جهنم يطلبون فيه الخلاص، ولات حين خلاص! وفي ظل هذا المشهد يوضّح الحق سبحانه أن العاقبة للمرسلين في الدنيا والآخرة، فقد نصر الله موسى عليه السلام رغم جبروت فرعون، ثم يوجه الله رسوله الأمين ﷺ إلى الصبر والثقة بوعد الله الحق، والتوجه إلى ربه تعالى بالتسبيح والحمد والاستغفار.[1]

وقبل الاستعراض التفصيلي نلاحظ أن هذا المقطع من السورة يأتي هنا متمشيا بموضوعه مع موضوع السورة، ومتمشيا بطريقة التعبير فيه -وأحيانا بعباراته ذاتها- مع طريقة التعبير في السورة كذلك، وتكرر بعض عباراته.. وعلى لسان الرجل المؤمن من آل فرعون ترد معان وتعبيرات وردت من قبل في السورة. فهو يُذكّر فرعون وهامان وقارون بأنهم يتقلبون في البلاد، ويحذرهم يوما مثل يوم الأحزاب، كما يحذرهم يوم القيامة الذي عرضت مشاهده في مطالع السورة كذلك.

ويتحدث عن الذين يجادلون في آيات الله ومقت الله لهم ومقت المؤمنين كما جاء ذلك في المقطع الأول، ثم يعرض السياق مشهدهم في النار أذلاء ضارعين يدعون فلا يستجاب لهم، كما عرض مشهد أمثالهم من قبل في السورة.

وهكذا وهكذا مما يوحي بأن منطق الإيمان ومنطق المؤمنين واحد، لأنه يستمد من الحق الواحد، ومما ينسق جو السورة، ويجعل لها (شخصية) موحدة الملامح، وهي الظاهرة الملحوظة في كل سور القرآن الكريم.[2]

وتفصيل هذه المحاورات وهذه المشاهد والأخبار تأتي في خمسة مباحث.

---

١) انظر: في ظلال القرآن لسيد قطب (٥/٣٠٦٧). وأهداف كل سورة ومقاصدها لعبد الله شحاتة (١/٣٤٤-٣٤٥).

٢) انظر: في ظلال القرآن لسيد قطب (٥/٣٠٧٦).

المبحث الأول: إنذار المشركين بسوء العاقبة في الدنيا بالنظر إلى مصارع الغابرين، ويشمل الآيات (٢١-٢٢)

قال تعالى: ﴿ ۞أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ ۚ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٢﴾ ﴾.

المطلب الأول: ربط الموضوع بالمحور الأساس للسورة:

تستمر السورة وتستمر الآيات بالإنذار والترهيب والوعظ والتذكير بعذاب الله تعالى للظالمين الكافرين المشركين المجادلين في آيات الله تعالى بالباطل، ليحملهم على قبول الحق أو يردعهم عن التمادي في الباطل، في خضم المعركة القائمة بين الفريقين، وفي مرحلة استضعاف المشركين لأهل الحق والإيمان، وهذا هو محور السورة الأساسي، وعليه تدور آياتها، وهنا تأتي الآيات لتنذر بعقاب الدنيا وتذكر بسوء العاقبة في العاجلة، فإن كانوا ممن يتأثرون بالإنذارات والمواعظ فسينتفعون بإنذارات الله الأخروية والدنيوية معا، وإن كانوا ممن لا يقيمون للآخرة وزنا ولا يصدقونها فلا شك أن كل ذي لب منهم سيحرص على حاله ومآله ومصيره في الدنيا التي لا يطيقون خسرانا فيها ولا يؤمنون بغيرها، وبذا تكتمل أركان الإنذار لتهز قلوب الجميع وتجبرهم على التراجع والمراجعة، ولا يتخلف عن هذا التأثر إلا عتاة المشركين وأكابر المجرمين وأئمة الكفر الذين مردوا على الجحود والعناد وامتلأت قلوبهم كبرا وغلظة.

قال سعيد حوّى: بعد آيات عديدة في الإنذار والتخويف أتى قوله تعالى مباشرة: ﴿ ۞أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا ... ﴾ مما يشير أنه لمّا أمر الله رسوله ﷺ بالإنذار رفض الكافرون هذا الإنذار، ومن ثم خاطبهم ولف نظرهم إلى ما فعله في المكذبين السابقين، فإذا أدركنا هذه النقطة نعرف أن محور السورة الرئيسي هو قوله تعالى من سورة البقرة: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ البقرة:٦، ولكن كما أن سورة البقرة قدّمت لهذا بذكر معان، فقد قدمت سورة غافر للوصول إلى هذا بمعان هي تفصيل للمعاني التي قدمتها سورة البقرة، ومن ثم عرضت لنا سورة غافر صورا عن اليوم الآخر، وصورا من مضمونات الغيب، وعرضت لقضية الإيمان، وعرضت لقضية تنزيل الكتاب من الله عز وجل، وأنه فوق الريب والشكوك، فلا يجادل في هذا الشأن إلا معاند، وأوصلتنا إلى أن نفهم من السياق أن هناك دائما ثلة

من الكافرين يرفضون الإيمان والإنذار، وتستمر آيات السورة لتقيم المزيد من الحجة على الكافرين، وتنذرهم وتخوفهم، حتى تقوم الحجة الكاملة عليهم.[1]

وقال: نلاحظ أن هناك صلة بين الآيات التي تتحدث عن الكافرين: ﴿ مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ۝٤ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۖ وَهَمَّتۡ كُلُّ أُمَّةِۭ بِرَسُولِهِمۡ لِيَأۡخُذُوهُۖ وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ فَأَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ ۝٥ ﴾غافر:٤-٥، وقوله: ﴿ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٖ ﴾ فالسورة إذن تصب في الكلام عن الكافرين في سيرها الرئيسي ... والسير العام للسورة يفصل قوله تعالى من سورة البقرة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ۝٧ ﴾البقرة:٦-٧.

والسورة تبين لنا نوعية هؤلاء الكافرين الذين لا ينفعهم الإنذار، وهم الذين يجادلون في آيات الله، تكذيبا وعنادا مع وضوحها. ونلاحظ أن السورة مع تبيانها عدم استفادة الكافرين من الإنذار فإن الله عز وجل يأمر رسوله ﷺ بالإنذار؛ لأن الكافرين الذين حكم الله عليهم بالموت على الكفر لا يعلمهم إلا الله ومن أعلمه الله بشأنهم، وإذا كان الأمر غيبا فإن على الرسول الإنذار، ثم إنه مع كفر الكافرين لابد من إقامة الحجة عليهم، هذا مع ملاحظة أن الكافرين الذين ختم الله على قلوبهم هم الذين اجتمعت بهم صفات معينة استكملوا بها صفات لم يعد ينفع معها إنذار ... ولاحتمال أن هناك كافرا لم يصل إلى هذا الحد فإنّ على الرسول ﷺ الإنذار لعل أحدا يهتدي.[2]

---

١) انظر: الأساس في تفسير القرآن (٩/٤٩٤١-٤٩٤٢).

٢) انظر: المرجع السابق (٩/٤٩٥٢-٤٩٥٣).

المطلب الثاني: التناسق بين هذا الموضوع وسابقه:

جاءت الآيات هنا لتُكمِل ركني الإنذار والتخويف، فلما أنذر الرسول ﷺ بعذاب الآخرة أشد ما يكون التحذير في تصوير بديع لما يكون عليه الناس في يوم الآزفة من فزع شديد، وكرب عظيم، وخوف ليس بعده خوف، أتم الإنذار بالتحذير والتخويف من عذاب الدنيا وعقاب العاجلة بما حل بالأمم الغابرة، بأسلوب فيه توبيخ وتقريع يناسب حال من يرى آثار هلاك من سبقه بعينيه ثم لا يعتبر بها ولا يتعظ حتى يكون هو العبرة والعظة لغيره.

والآيات هنا تكملة لما قبلها من الآيات وليس استئناف، فهو تكملة لما سبق من الإنذار بيوم الآزفة بإنذار آخر ليوم آزف يكون في الدنيا قبل يوم القيامة، وهو عذاب حاصد لمن كفر بالله وآياته ورسله يأخذهم في العاجل فيقطع عليهم شهواتهم ويقضي على آمالهم ويسوقهم إلى عذاب الآخرة بغتة، فيخسرون كل شيء، ولن يغني عنهم بعد ذلك أي شيء.

بل نجد هذه الآية تكملة لما في أول هذه السورة من الموعظة بالأخبار الصادقة عن قوم نوح عليه السلام ومن تبعهم من الأحزاب من بعدهم، وكيف أن الله أخذهم، فجاءت الموعظة هنا مجددا بالنظر في الآثار وتتبع الديار والاعتبار بما كان لهم فيها من عجائب الآثار، من الحصون والقصور وسائر الأبنية الصغار والكبار، فقال موبخاً ومقرراً عاطفاً على ما تقديره: ألم يتعظوا بما أخبرناهم به من الظالمين الأولين ومن تبعهم من الإهلاك في الدنيا المتصل بالشقاء في الأخرى.[1]

والآيات كذلك جاءت لتكون المعبر بين قصة موسى عليه السلام وموضوع السورة قبلها، ليذكر المجادلين في آيات الله من مشركي العرب بعبرة التاريخ قبلهم، ويوجههم إلى السير في الأرض، ورؤية مصارع الغابرين، الذين وقفوا موقفهم.[2]

قال دروزة: "والآيات كما هو المتبادر متصلة بالآيات السابقة اتصال تعقيب وتذكير وإنذار واستطراد، وروحها ومضمونها يلهمان أن العرب كانوا يشاهدون آثار الأمم السابقة المدمرة ويتداولون فيما بينهم أنها دمرت ببلاء رباني، مما تكرر تقريره في آيات عديدة أخرى مرّت أمثلة منها في السور السابقة، وهذا ما يقوي الآيات في إنذارها وتنديدها"[3].

---

١) انظر: نظم الدرر للبقاعي (٤٤/١٧).

٢) انظر: في ظلال القرآن لسيد قطب (٣٠٧٦/٥-٣٠٧٧).

٣) التفسير الحديث (٣٦٢/٤).

وقال الزحيلي: موضوع الآيات التحذير من عذاب الدنيا، فأمام هؤلاء الكفار المكذبين لرسول الله محمد ﷺ نماذج وألوان من عذاب الأمم القديمة المكذبة رسلها، وقد نزل بهم العذاب لأجل أنهم كفروا وكذبوا الرسل، وهؤلاء الحاضرون يشاهدون آثار دمارهم وهلاكهم، والله يحذر الكفار قوم الرسول ﷺ من مثل أفعال أولئك الماضين، وقد ختم الكلام بقوله: ﴿إِنَّهُۥ قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ مبالغة في التحذير والتخويف.[1]

ووجه آخر: أن الآيات جاءت تسلية للنبي ﷺ ومن معه من المؤمنين بأن عاقبة من كذبه الهلاك والعذاب، وعاقبته ومن معه النصر والفلاح.

---

١) انظر: التفسير المنير (٢٤/١٠١-١٠٢).

المطلب الثالث: التناسب بين الآيات والجمل والكلمات:

بعد أن توالت التحذيرات في الآيات السابقة بعذاب الله في الآخرة، والتي كشف لهم عن مشاهد منها تظهر أحوال الحسرة والندامة والذلة والألم والخوف والفزع والغم واليأس، شرعت الآيات للحديث عن عقاب الله الدنيوي والتحذير منه، وبيان أن أخذه أليم شديد، ولم يستدل لهم بدليل على ثبوت العذاب الدنيوي سوى أثار الأمم السابقة الهالكة، وفي هذا غاية الكفاية لمن أراد أن يعتبر ويتعظ وينجو بنفسه أن يكون عبرة لغيره.

١) قوله تعالى: ﴿ ۞أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ ﴾: "أحال قريشا على الاعتبار بالسير"[١] في الأرض، وتُفهم الآية على ثلاثة وجوه:

أحدها: باعتبار أنهم لو ساروا فنظروا في آثار من كان قبلهم من مكذبي الرسل، لكان لهم في ذلك اعتبار وزجر ومنع عن مثل صنيع أولئك.

والثاني: أنه خبر، بمعنى: أنهم قد صاروا في الأرض، ونظروا في آثار من تقدمهم، لكنهم لم ينظروا نظر اعتبار في أنه لماذا أصابهم ما أصابهم.

والثالث: أنه أمر وإيجاب وإلزام، بمعنى: سيروا في الأرض وانظروا في آثار أولئك الذين كانوا من قبل هؤلاء؛ كقوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا ﴾النمل: ٦٩.

وعموما تَحمل الآية دعوة وإرشادا لهم بالتفكر والاعتبار في آثار من سبق، وإلى ماذا صار عاقبة مكذبي الرسل ومصدقيهم؟! لينزجروا عن مثل صنيع مكذبيهم، ويرغبوا في مثل صنيع مصدقيهم.[٢]

والكلمات الأربعة (سيروا، والأرض، وانظروا، وكيف) بينها تناسب كبير، فالسير في الأرض سبب للنظر والاعتبار، والسير يشمل جنس الأرض، فأي أرض ساروا فيها فإنها تعظهم بما حوت من الأعلام والآثار الباقية، ولما كان الاعتبار يكون أولى وأدعى عند النظر إلى الأمور العجيبة والمستغربة نبه عليها بكيف؟! فإنها أهل لأن يسأل عنها.[٣]

---

١) البحر المحيط لأبي حيان (٩/٢٤٨).

٢) انظر: تأويلات أهل السنة للماتريدي (٩/١٨).

٣) انظر: نظم الدرر للبقاعي (١٧/٤٤).

٢) قوله تعالى: ﴿كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي الْأَرْضِ﴾: استئناف بياني فائدته أنه لما كان هلاك الأضعف قد لا يؤثر في الأقوى، فيظن أنه قادر ومتمكن على النجاة من عذاب الله بقوته وبطشه ومنعته وشدة بأسه وسعة أسبابه وقوة حصونه وبنيانه -إذ كانت القوة والمكنة سبباً للعُجب والكِبر-، وأن هلاك غيره إنما كان بسبب ضعفه وعجزه وقلة حيلته ووهن أسبابه ورداءة بنيانه، أراد الله أن ينفي هذه الشبهة عن عقولهم، فأثبت لهم أن من أهلكوا كانوا أشد وأقوى أبدانا وأنفسا وأسبابا، فلم يمتنعوا بشيء من عذاب الله إذ جاءهم، "فأنتم -يا أهل مكة- دونهم في البطش والقوة، فكيف تمنعون عذاب الله إذا نزل بكم؟!"[١]، ليعلم المشركون أن هلاك الغابرين كان لأن عذاب الله كان شديدا، وأخذه كان أليما، وإلا فإنهم كانوا في غاية القوة والمنعة، وقوة الآثار تدل على قوة المؤثر فيها وعلى تمنّعه بها، لكن لم ينفعهم ذلك، فكيف بحال من هو أضعف منهم قوة وأقل منهم عددا؟! وفي هذا مزيد دعوة إلى التفكر والاعتبار وترك الجحود والعناد، فإن ذلك لن يغني عنهم من الله شيئا.

٣) قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ﴾: لما كان هلاك الأمم وخراب البلدان والديار ممكنا أن يكون بسبب حادثة أو آفة أو جائحة أرضية أو سماوية، أو بسبب أمراض وأوبئة قاتلة، فيظن ظان أن هلاك من سبق كان بسبب طبيعي أو وباء عرضي، نفى الله تعالى هذا الوهم عنهم، وأثبت أنهم ما هلكوا إلا بأخذ شديد مقصود من الله تعالى لهم بأمر رباني، وفعل إلهي، قضى عليهم بالعذاب، وأنزل بهم العقاب، فكان أخذا مقصودا لا يمنعه مانع ولا يقيهم منه دون الله واق -بسبب ذنوبهم أو في حالة ملابستهم لها غير تائبين عنها-، وأنهم ما كانوا قادرين على أن يتقوا من عقابه بأحد -دون الله- أدنى وقاية، وقد اتخذوا الأصنام آلهة وشفعاء، فلم ينتفعوا منها بشيء، ولم تقدر على خلاصهم من عذاب الدنيا فضلا عن عذاب الآخرة، وهذا النفي مستمر إلى الأبد، فلا أحد يمكن أن يقي نفسه من عقاب الله بشيء.

٤) قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ﴾: هذا بيان لإجمال الذنوب في قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾، فبيّن الله للناس ما هي تلك الذنوب التي أُخذوا عليها، وذكر سبب وعلة إهلاكه للأقوام والأمم، وأنه كان لكفرهم بالله وآياته، وأنه ما كان ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون، بل أهلكهم بعدله بعد أن أظهر لهم الدلائل الواضحات والآيات البينات على لسان رسلهم الذين يعرفونهم حق المعرفة، وأيدهم بالمعجزات التي يستحيل معها الاستمرار في التكذيب، لكنهم أبوا

١) تأويلات أهل السنة للماتريدي (١٨/٩). وانظر: الجدول في إعراب القرآن الكريم لمحمود صافي (٢٣٦/٢٤).

إلا الكفر والتكذيب، فأصابهم جزاء الله العادل، ومضت سنة الله التي لا تتبدل ولا تتغير فيهم، فأُهلكوا وصاروا أثرا بعد عين، وحقت عليهم كلمة العذاب، ونزل بساحتهم العقاب.

وقد "أفاد المضارع في قوله: ﴿ تَّأۡتِيهِمۡ ﴾ تجدد الإتيان مرة بعد مرة لمجموع تلك الأمم، أي يأتي لكل أمة منهم رسول، ... ولم يؤت بالمضارع في قوله: ﴿ فَكَفَرُواْ ﴾ لأن كفر أولئك الأمم واحد وهو الإشراك وتكذيب الرسل"[١]، وفي هذا تحذير وتذكير لقومه ﷺ أن يشابهوا من قبلهم فيكذبوا رسولهم ويجحدوا آيات ربهم، إذن ليصيبنهم ما أصابهم.

٥) قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴾: ختم الكلام به "مبالغة في التحذير والتخويف"[٢]، فهو ذو قهر لا يقهره شيء، ولا يغلبه شيء، ولا يعجزه شيء، ولا يمتنع عنه أحد بقوته، ولا ينجو من عذابه أحد، فهو القوي الذي لا يلحقه ضعف في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله، متمكن مما يريد غاية التمكُّن، وعقابه شديد، يقطع به دابر الذين ظلموا، ويبقى الحمد له سبحانه، وهذا من الخطاب المتضمن لفن التعريض المرتكز على التلميح دون التصريح، فقوله تعالى: ﴿ ... إِنَّهُۥ قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴾ فيه تعريض وتحذير مبطن لمشركي قريش، يقول لهم بأن الذي أهلك أولئك قادر على إهلاككم ومعاقبتكم.

وكذلك ختم الله الآيات بهما ليؤكد على صفتين جليلتين تليقان به سبحانه وتعالى، وتبعدان كل وهم قوة في نفوس من ظن بنفسه قوة، ونفخه الكبر حتى ظن أنه في مأرز أمين وحصن شديد، فليعلم الجميع أن القوة لله جميعا، وأنه شديد العقاب، ولا يمكن الانفلات من عذابه بقوة أو خلسة، وفي هذا تمام التحذير للمخاطَبين رجاء أن ينتفعوا به.

٦) تبين لنا أن الآيات تسعى إلى تمكين التحذير من العذاب الدنيوي في قلوب المشركين من قوم النبي ﷺ، ومصارع الغابرين تخبرهم بلا شك أن العذاب الدنيوي أمر مشاهد محسوس معلوم إن كان عذاب الآخرة أمر غيبي، وأنهم إن آمنوا بعذاب الدنيا وحذروه فإن هذا طريق لهم أن يؤمنوا بعذاب الآخرة ويحذروه، وإن أبوا إلا الكفر والعناد فليس على الله بعزيز أن يهلكم بعذاب قريب ويستبدل بهم غيرهم، وهذا ما حصل بأئمة الكفر يوم بدر، وكان في هذا عبرة بعد عبرة لمن بقي منهم، فأسلم لله تعالى جُلهم إلا قليلا، ﴿ لِّيُدۡخِلَ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ ﴾ الفتح: ٢٥.

---

١) التحرير والتنوير لابن عاشور (١٢١/٢٤).

٢) مفاتيح الغيب للفخر الرازي (٥٠٥/٢٧).

المطلب الرابع: التفسير الإجمالي للآيات:

بعد أن وعظ الله الكافرين بعذاب الآخرة، وعظهم بعقاب الدنيا، بصيغة استفهام تقريري استنكاري يحمل معني إثبات السير لهم في الأرض وتوبيخهم على غفلتهم وعدم اتعاظهم بغيرهم وقد ساروا في الأرض ونظروا فيما تبقى من آثار الهالكين قبلهم، وقد كانوا أشد منهم قوة وبطشا ومنعة، وأبقى منهم آثارا من حصون وقصور وبنايات صامدة تشهد بضلوعهم في القوة والقدرة أكثر بكثير من هؤلاء المعاصرين، فما كان إلا أن أخذهم الله فاستأصلهم به وبقيت بيوتهم خاوية من بعدهم، ولم تنفعهم قوتهم وشدتهم وكثرة آثارهم، كل ذلك بسبب ذنوبهم، ولم يجدوا لهم من دون الله وقاية تقيهم ولا حفيظا يحفظهم من عقاب الله إذ حلّ بهم، وهؤلاء أولى بهم وأحرى أن يحذروا عاقبة تشبه عاقبة من سبق إذ شابهوهم في أسبابها، وما كان ذلك العذاب إلا عقوبة الله لهم أنزله عليهم بعد كفرهم بآيات الله الواضحات ومعجزاته الظاهرات الدالات على صدق الرسول وحقانية رسالته، لكنهم أبوا إلا الكفر جحودا وعنادا فأخذهم الله أخذا شديدا، وبطش بهم بطشا شاملا صادرا من قوته الكاملة المطلقة، وشديدِ عقابه الذي لا يعادله عقابُ مَن دونه، فيقضي به على مَن استحقه مِن الكافرين.

المطلب الخامس: بيان ما ترشد إليه الآيات[1]:

١- تقرير الحكمة القائلة: العاقل من اعتبر بغيره.

٢- الأخذ بالذنوب سنة من سنن الله في الأرض لا تتبدل ولا تتحول.

٣- من أراد الله عقابه فلا يوجد له واق يقيه، ولا حام يحميه، ومن تاب تاب الله عليه.

٤- على الأمم والطغاة أن يعتبروا بمن سبقهم، فمهما بلغت قوة الأمة وجبروت الأفراد فإنهم لا يفلتون من عقاب الله.

٥- من عرف أن الله تعالى هو القوي رجع إليه عن حوله وقوته.

٦- قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ إشارة إلى أن قوة هؤلاء الأقوياء، هي ضعف وخذلان أمام قوة الله التي لا تُدفع، وأن عذابه شديد لا يعد هذا العذاب الذي يسوقه الظالمون إلى ظالميهم شيئا بالنسبة إلى عذاب الله الذي يسوقه إليهم.

***

١) انظر: روح البيان لإسماعيل حقي (١٧٣/٨). والتفسير القرآني للقرآن لعبد الكريم الخطيب (١٢٢٠/١٢). وأيسر التفاسير للجزائري (٥٢٥/٤). والتفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم لجامعة الشارقة، بإشراف د. مصطفى مسلم (٥٤٧/٦).

المبحث الثاني: ذكر نموذج من قصص الغابرين الهالكين

ويشمل الآيات (٢٣-٢٧)

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ۖ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٢٧﴾﴾.

المطلب الأول: ربط الموضوع بالمحور الأساس للسورة:

بعد لفتة إلى مصارع الغابرين للاعتبار بها، شرعت الآيات في ذكر قصة من قصص الغابرين الهالكين لتكون شاهدة على وعد الله الحق للمؤمنين، ووعيده الحق للكافرين، فذكرت قصة موسى عليه السلام مع فرعون، وفيها تتضح جليا صورة من صور المعركة والصراع الفكري بين الحق والباطل، ويظهر موقف المؤمنين وحججهم وموقف المشركين وحججهم، فيدَّعِي فرعون أنه يدعوهم إلى الحق وأن موسى -عليه السلام- يريد أن يبدل دينهم ويفسد عليهم حياتهم ومعاشهم، ويرد المؤمنون أن الواقع الذي يعيشه الناس في ظل فرعون وجنوده هو الفساد بعينه، وأن موسى عليه السلام والمؤمنون ما يريدون إلا رفع هذا الظلم والفساد عنهم وهدايتهم إلى سبيل الرشاد، وكل هذا يحقق اكتمال محور السورة الأساسي في مقاصده وأغراضه وأهدافه.[1]

قال ابن عاشور: في هذه القصة زيادة على ما أجمل من قصص أمم أخرى، فإن فيها عبرتين: عبرة بكيد المكذبين وعنادهم ثم هلاكهم، وعبرة بصبر المؤمنين وثباتهم ثم نصرهم، وفي كلتا العبرتين وعيد ووعد.[2]

١) انظر: التفسير الموضوعي لسور القرآن لجامعة الشارقة، بإشراف د. مصطفى مسلم (٦/٥٥١).

٢) انظر: التحرير والتنوير (٢٤/١٢٢).

المطلب الثاني: التناسق بين هذا الموضوع وسابقه:

في الآيات السابقة دعا الله المشركين من قوم النبي ﷺ إلى تدبر ما حصل لمن سبقهم من الأمم، وفي هذه الآيات أورد نموذجا من هذه الأمم، فلما كفروا بكل الأدلة والبراهين أورد لهم نموذجا وصورة لأمة كفرت برسولهم حتى إذا أعجزهم البرهان وسقطت حجتهم لجؤوا إلى المغالطة والمجادلة التي ليس لها دليل، واعتمدوا على القوة والنفوذ فقرروا قتل الدعاة ونبيهم، فماذا كانت النتيجة؟!

قال سعيد حوى: بعدما قال تعالى: ﴿ ۞أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ... ﴾غافر:٢١، إلى قوله: ﴿ ... إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ غافر:٢٢، يقص الله تعالى علينا قصة من قصص السابقين كيف كانوا أشد قوة وآثارا، وكيف كذبوا رسل الله، وكيف كانت عاقبتهم، وكيف كان عقابهم شديدا، هذه القصة هي قصة فرعون، وذِكر قصة فرعون في هذا السياق له دلالته، إذ الفراعنة كانوا أشد قوة وآثارا في الأرض كما هو مشهور، وسنرى أن القصة تخدم سياق السورة بأكثر من وجه.

فإن قصة موسى عليه السلام في سياق هذه السورة تعرض لنا قصة كفرة يجادلون في آيات الله، ولا ينفع معهم الإنذار، ويكذبون الرسل، فيعاقبون في الدنيا والآخرة، والآيات التي معنا ترينا من طبيعة هؤلاء الكافرين اتهامهم موسى رسول الله ﷺ بالسحر والكذب، ومحاولتهم إيذاء قوم موسى عليه السلام، ومحاولتهم قتل موسى عليه السلام، واتهامهم موسى عليه السلام بالإفساد في الأرض وتغيير النظام، واتصافهم بالكبر والكفر باليوم الآخر، وفي هذا دروس كثيرة في فقه الدعوة، سواء للنذير، أو لأهل الإيمان، أو في معرفة مواقف الكافرين من المؤمنين، ومن أهم ما ينبغي أن نعرفه مما له علاقة بسياق السورة العام: أن الكبر والكفر باليوم الآخر هما أفظع وأسوأ الأخلاق، وعنهما ينبع كل شر، وبوجودهما لا ينفع الإنذار.[١]

قال سيد قطب: بعد الإشارة الكلية المجملة في الآيات السابقة تبدأ الآيات في عرض نموذج من نماذج الذين كانوا من قبلهم، وكانوا أشد منهم قوة وآثارا في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم، وهم فرعون وهامان وقارون، ومن معهم من المتجبرين الطغاة.[٢]

ووجه آخر: أن الله تعالى لما سلّى رسوله ﷺ بذكر عاقبة الكفار الذين كذبوا الأنبياء قبله وبمشاهدة آثارهم، ذكر له قصة فرعون تعزية وأسوة وتسلية له عما كان يلقاه من مشركي قومه من قريش، بإعلامه ما

---

١) انظر: الأساس في تفسير القرآن لسعيد حوّى (٤٩٥٣/٩).

٢) انظر: في ظلال القرآن (٣٠٧٧/٥).

لقي موسى عليه السلام -مع قوة معجزاته- من التكذيب ممن أرسل إليهم، ومخبره أنه معليه عليهم، وجاعل دائرة السَّوْء على من حادّه وشاقَّه، كسنته في موسى صلوات الله وسلامه عليه، إذ أعلاه ونصره، وأهلك عدوه فرعون، وتلك بشارة لنبينا ﷺ بأن العاقبة والنصرة له في الدنيا والآخرة،[1] "وفيها لقريش والكفار به وعيد [وعبرة] ومثال يخافون منه أن يحل بهم ما حل بأولئك من النقمة، وفيها للمؤمنين وعد ورجاء في النصر والظفر وحمد عاقبة الصبر"[2]، "والقرآن الكريم يجمع كثيرا في قصصه، بين المشركين من قريش، وبين فرعون، لما بينهم وبينه من مشابة كثيرة، من كبر، وأنفة، وجاهلية مغرورة حمقاء"[3].

قال النيسابوري[4]: "لما وبخ الكفار بعدم السير في الأرض للنظر والاعتبار أو بعدم النظر في أحوال الماضين مع السير في الأقطار، وقد وصف الماضين بكثرة العدد والآثار الباقية، أراد أن يصرح بقصة واحدة من قصصهم تسلية للنبي ﷺ وزيادة توبيخ وتذكير لهم، وكان في قصة موسى [عليه السلام] وفرعون من العجائب ما فيها، فلا جرم أوردها هاهنا"[5].

وقال أبو بكر الجزائري: "بعد تلك الدعوة الربانية لقريش إلى الإيمان والتوحيد والتصديق بالبعث والجزاء، وما فيها من مظاهر لقدرة الله وعلمه وحكمته وعدله، وبعد ذلك العرض لأحوال القيامة، وبيان الجزاء لكل من الكافرين والمؤمنين فيها كأنه يرى رأي العين، وبعد ذلك الترغيب والترهيب مما في الدنيا والآخرة والمشركون لا يزدادون إلا عتوا وطغيانا بعد كل ذلك قصّ الله تعالى على رسوله قصة موسى [عليه السلام] مع فرعون ليسليه بها ويصبره وليعلمه أن البلاء مهما اشتد يعقبه الفرج، وأن الله ناصره على قومه كما نصر موسى [عليه السلام] على فرعون وقومه"[6].

---

١) انظر: جامع البيان للطبري (٣٧٢/٢١). والهداية إلى بلوغ النهاية لمكي بن أبي طالب (٦٤١٩/١٠). والتفسير المنير للزحيلي (١٠٤/٢٤).

٢) المحرر الوجيز لابن عطية (٥٥٤/٤). وانظر: فتح القدير للشوكاني (٥٥٩/٤).

٣) التفسير القرآني للقرآن لعبد الكريم الخطيب (١٢٢٠/١٢).

٤) هو حسن بن محمد بن حسين، الشهير بابن القمي، النيسابوري، العالم الفاضل العلامة الشيخ نظام الدين، وكان يعرف بنظام الأعرج، صنف (غرائب القرآن ورغائب الفرقان) في التفسير، وهو مؤلف جليل القدر والشأن، توفي بعد ٨٥٠هـ، -رحمه الله تعالى رحمة واسعة-. انظر: بغية الوعاة للسيوطي (٥٢٥/١). وطبقات المفسرين للأدنه وي (٤٢٠/١).

٥) غرائب القرآن للنيسابوري (٣٢/٦).

٦) أيسر التفاسير (٥٢٧/٤).

المطلب الثالث: التناسب بين الآيات والجمل والكلمات:

هذه الآيات مفتتح النص الممهد للمشهد الحواري بين دعوة الايمان ودعوة الكفر، بين التوحيد والشرك، بين معسكري: الايمان والكفر، معسكر الإيمان وفيه الداعي الحدب الحريص على تبليغ الدعوة ونجاة المدعوين، ومعسكر الكفر وفيه الطاغي بجبروته وتكذيبه، المعجب بسلطانه، المغتر بزخرف الملك وأبهة السلطان، فبهذه الآيات انتقل الخطاب إلى بيان قصة من أعظم قصص الأنبياء والرسل ذكرا في القرآن، وأكثرها تكرارا فيه، وفيها من الشواهد والعبر والفوائد الدعوية الشيء الكثير، فكان أن أرسل الله تعالى موسى ﷺ مؤيدا بآيات الله ومعجزاته البينة القاطعة لكل ريب أو شك.

١) قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾: هذا بداية خبر يقيني حقيقي مؤكد من الله تعالى بإرساله موسى ﷺ بالعلامات الدالة على صحة نبوته، والحجج الظاهرة القاهرة العظيمة التي لا حيلة لأحد في مدافعة شيء منها، والتي على مثلها آمن البشر، ليست معقدة تكلّف المدعو مشقة فهم دلالتها واستنباطها، بل هي آيات واضحات في ذاتها تعلن عن نفسها، كل آية أكبر من أختها، وهي التي كانت تمنع فرعون من الوصول إلى أذاه مع ما له من قوة وسلطان، فلم تكن رسالة موسى ﷺ موعظة وكلاما مرسلا ولا حججا هزيلة، بل كانت تسع آيات بينات في نفسها، ومعجزات باهرات مناديات بالإيمان، ثم كانت غلبة ظاهرة على سحر السحرة أجمعين يوم الزينة، والتي آمن على إثرها أكابر السحرة وأمهرهم فضلا عن غيرهم.[1]

٢) قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ﴾: لما ذكر الرسولَ أردفه بذكر المرسَل إليهم، وأخبر أن رسالة موسى ﷺ كانت مرسلة إلى أعتى أهل الأرض في زمانه، بل عبر التاريخ حتى صار مضرب المثل في العتو والطغيان والبغي في الأرض بغير الحق، وهو فرعون، ومعه أكابر مجرمي قومه هامان وقارون، فذكر الثلاثة ليُعْلم أنه كان مبعوثا إلى الكل ولم يبعث إلى بعض دون بعض، وأن رسالة موسى ﷺ كانت عامة لفرعون وقومه وبني إسرائيل أجمعين، وإنما خصّ فرعون ومن معه بالذكر؛ لأنهم رؤساء المكذبين بموسى ﷺ، ولأن الإرسال إليهما إرسال الى القوم كلهم لكونهم تحت تصرف الملكِ والوزيرِ تابعين لهما، والناس على دين ملوكهم، وكذلك خصّ الله تعالى هامان وقارون بالذكر دون غيرهما تنبيها على مكانهما من الكفر، ولأن مدار التدبير في عداوة موسى ﷺ كان عليهما، ولكونهما أشهر رجال فرعون،

---

١) انظر: معاني القرآن للزجاج (٣٧٠/٤). وبحر العلوم للسمرقندي (٢٠٢/٣). ونظم الدرر للبقاعي (٤٨/١٧). ومؤمن آل فرعون ودروس في الدعوة لمحمود عمارة (٦/١-٧).

ففرعون هو ملك القبط بالديار المصرية، وهامان وزيره في مملكته، وقارون كان أكثر الناس في زمانه مالا وثراء وكنوزا وتجارة، فبعث الله تعالى إليهم أخصّ عباده وهم أخسّ عباده، فقابلوه بالتكذيب، ونسبوه إلى السحر، ولكن الله أمهلهم وحلم عنهم حتى أعذر إليهم غاية الإعذار.[1]

٣) قوله تعالى: ﴿ فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴾: لما جاءهم موسى عليه السلام بالنبوة والحق الواضح وأظهر لهم الآيات والمعجزات الباهرة على نحو كاشف عن وجه الحق لكل ذي بصر وبصيرة، والتي من شأنها أن تدعوهم إلى الحق وتردهم إليه ردا جميلا، إذا بهم يستكبرون ويجحدون، ويجعلون أمر الآيات التي يعجز عنها المخلوقون سِحْراً، ويتهمونه بالكذب ليبطلوا بذلك تأثير الآيات على الناس، وتصبح لغوا لا قيمة لها، كأنما يحاولون أن يلقموه حجرا ليحجم عن دعوته أو ينصرف الناس عنه، فحكى الله تعالى ما صدر عنهم من الجهالات، كان أولها: أنهم لجأوا إلى الجدال بالباطل ليدحضوا به الحق، ووصفوه بكونه ساحر كذاب، فقالُوا لموسى عليه السلام فيما أظهره من المعجزات الفعلية: هذا ساحِرٌ، وقالوا له فيما ادعاه من رسالة رب العالمين بالحجة القولية: هذا كَذَّابٌ، فلم يصدقوا موسى عليه السلام وآياته، بل جحدوها ظلما وعلوا، ولعب الغرور برؤوس الكفر، وإلا فإن إنكارها في غاية البعد، فإن تلك المعجزات كانت قد بلغت في القوة والظهور إلى حيث يشهد كل ذي عقل سليم بأنه ليس من السحر البتة، لكنهم بلا مبالاة وبلا تردد وتأمل فيما سمعوا وشاهدوا منه قالُوا ما هو إلا ساحِرٌ في عموم بيّناته، وكَذَّابٌ في جميع دعوته، ويشهد لتهورهم هذا حذف المبتدأ (هو) من قوله: ﴿فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴾، والأصل أن يقولوا (هو ساحر كذاب)، وما حملهم على ذلك إلا عتوهم وطغيانهم واستكبارهم في الأرض بغير الحق. وهكذا كانت نتيجة أول لقاء بين موسى عليه السلام وبين هؤلاء الطغاة الظالمين.[2]

ودلّ قولهم: ﴿سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ على أنهم عجزوا عن الإتيان بمثل آيات موسى عليه السلام وحججه والمقابلة لها؛ فخافوا أن يتبعه الناس لذلك، فموهوا على سائر الناس؛ لئلا يتبعوا دعوته.

وجائز أن يكون قولهم: إنه كذّاب؛ لأنهم اعتادوا عبادة الأصنام دون الله تعالى، فلما جاء موسى عليه السلام بما يمنعهم عن عبادة ما اعتادوا من العدد والكثرة، ودعاهم إلى عبادة الواحد قالوا: إنه كذّاب، كما

---

١) انظر: لطائف الإشارات للقشيري (٣٠٤/٣). والمحرر الوجيز لابن عطية (٥٥٤/٤). وتفسير القرآن العظيم لابن كثير (١٣٩/٧). وروح البيان لإسماعيل حقي (١٧٣/٨). وفتح القدير للشوكاني (٥٥٩/٤). وفتح البيان لصديق حسن خان (١٧٨/١٢).

٢) مفاتيح الغيب للفخر الرازي (٥٠٦/٢٧). وتبصير الرحمن للمهايمي (٣٢٦/٢). والفواتح الإلهية للشيخ علوان (٢٦٠/٢). ومراح لبيد لمحمد الجاوي (٣٤٦/٢). وفي ظلال القرآن لسيد قطب (٣٠٧٧/٥). والتفسير الوسيط لمحمد طنطاوي (٢٧٨/١٢). ومؤمن آل فرعون ودروس في الدعوة لمحمود عمارة (٧/١).

قالها أهل مكة لرسولنا ﷺ في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ۝٤ أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ﴾ ص:٤-٥.[١]

ومن بلاغة تخيّر المفردات مجيء الوصف على صيغة المبالغة في ﴿ كَذَّابٌ ﴾ إمعانا منهم في تكذيب رسولهم وردّ ما جاء به فـ"الكذّاب: الذي عادته الكذب بأن يكذب مرة بعد أخرى، ولم يقولوا سحّار، لأنهم كانوا يزعمون أنه ساحر، وأنّ سحرتهم أسحرُ منه"[٢]، كما قالوا في سورة الشعراء: ﴿ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴾الشعراء:٣٧.

ثم يجمل السياق تفصيل ما حدث بعد هذا الجدال والرمي بالسحر والكذب، ويطوي موقف المباراة مع السحرة، وإيمانهم بالحق الذي غلب باطلهم ولقف ما كانوا يأفكون، وينتقل لعرض الموقف الذي تلا هذه الأحداث.[٣]

٤) قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا ﴾: يتضح منه أن موسى عليه السلام لم يعبأ بقولهم السابق، وظل يقوم بدعوته، وكان الحق الذي معه أقوى من أن يحجم عنه، وأقوى من يُرد بقيل وقال، وكلما تقدم موسى عليه السلام في دعوته تقدموا في تكذيبيهم له، فإنهم لما جاءهم موسى عليه السلام بالآيات والمعجزات نعتوه بالسحر والكذب، ثم لما بدأ بدعوته وآمن به الناس، أمروا بالقتل والاستحياء، ثم لما ذهب كيدهم في ضلال وتأكد خوف فرعون على ملكه أراد أن يتخلص من رأس الدعوة موسى عليه السلام بقتله كما سيأتي.

وهنا لما جاءهم موسى عليه السلام بالبرهان القاطع الدال على أنه نبي الله وأن الله تعالى أرسله إليهم وبدأ بدعوته وغلب السحرة وآمن به الناس، عجزوا عن مقارعة الحجة بالحجة، وبدؤوا في التهديد والتخويف للصد عن سبيل الحق، ولجؤوا إلى استعمال القوة كما هو دأب المحجوج المغلوب على أمره.

وفي حذف المبتدأ والاقتصار على الخبر الذي هو محط الفائدة: ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم ﴾ إشارة إلى مباردتهم إلى العناد من غير توقف أصلاً.[٤]

---

١) انظر: تأويلات أهل السنة للماتريدي (١٩/٩-٢٠).

٢) روح البيان لإسماعيل حقي (١٧٣/٨).

٣) انظر: في ظلال القرآن لسيد قطب (٣٠٧٧/٥).

٤) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير (١٣٩/٧). ونظم الدرر للبقاعي (٤٩/١٧). وتفسير المراغي (٦٠/٢٤). والتفسير الواضح لمحمد حجازي (٣٠٠/٣).

قال ابن عرفة: "إنه أولا لم يدعهم إلى الإيمان، بل أتى بالمعجزات فقط، ثم لما دعاهم إلى الإيمان، قالوا ذلك"[١].

وقوله تعالى: ﴿مِنْ عِندِنَا﴾ "وصف للحق لإفادة أنه حق خارق للعادة لا يكون إلا من تسخير الله وتأييده، وهو آيات نبوته التسع"[٢].

٥) قوله تعالى: ﴿قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ﴾غافر:٢٥: وهذه حكاية لثاني وثالث جهالاتهم أنهم أمروا بقتل أبناء من آمن منهم واستحياء نسائهم للخدمة؛ معاقبة لمن آمن، وزجرا عن متابعة موسى عليه السلام لما رأوا أن التمويهات والحيل لم تمنعهم عن اتباعه، ومحاولة لإهانة الشعب، ولكي يتشاءموا بموسى عليه السلام، وهكذا يفعل أهل الباطل إذا علموا أن خصمهم على الحق، وأنهم على الباطل، فمهما توالت انتصارات الحق، ومهما ازدادت آيات الحق ظهورا وبيانا، فإنهم يزدادون خصومة وعداوة، لأن باطلهم قائم على الكبر والجحود والعناد والظلم، وهكذا أمرَ فرعون ومن معه بقتل المؤمنين وسبي نسائهم تنكيلا بهم وإخافة لمن خلفهم.

ويلاحظ أنه أوعدهم بقتل الأبناء خاصة؛ وذلك لئلا ينشئوا على دين موسى عليه السلام فيقوى بهم، وهذه العلة مختصة بالبنين دون البنات، فلهذا السبب أمر بقتل الأبناء واستبقاء النساء.[٣]

والصحيح أن هذا الأمر بقتل أبناء الذين آمنوا مع موسى عليه السلام واستحياء نسائهم، كان أمرا ثانيا من فرعون وملئه من بعد الأمر الأول الذي كان من فرعون قبل مولد موسى عليه السلام.[٤]

ومن دقائق النظم المعجز قوله سبحانه: ﴿آمَنُوا مَعَهُ﴾ ولم يقل: آمنوا به إشارة إلى معيتهم لموسى عليه السلام ومظاهرتهم له في دعوته ومناصرته، وليس الاكتفاء بمجرد الإيمان بصدق رسالته فحسب.

٦) قوله تعالى: ﴿وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾: لبيان أن الإيمان إذا خالط بشاشة القلوب فهيهات هيهات أن يرجع عنه صاحبه مهما حصل، ومن ثم فقد ثبت أهل الإيمان ثباتا كاملا،

---

١) تفسير ابن عرفة (٣/٣٩٥).

٢) التحرير والتنوير لابن عاشور (٢٤/١٢٢).

٣) انظر: تأويلات أهل السنة للماتريدي (٩/٢٠). ومفاتيح الغيب للفخر الرازي (٢٧/٥٠٦).

٤) انظر: جامع البيان للطبري (٢١/٣٧٣). ومفاتيح الغيب للفخر الرازي (٢٧/٥٠٦).

وانقلب كيد فرعون وجنوده عليهم؛ لأنهم يكيدون دون بصيرة فيسقطون في التيه والعمى، ويذهب مكرهم باطلا، وتكون الدائرة عليهم.

وكذلك أتى هذا التعقيب الرباني على الطغيان الفرعوني السابق، ليكون محل اعتبار لقريش بأن كيد أمثالهم كان مضاعا فكذلك يكون كيدهم، فجاءت الجملة تعقيبا على الآية قبل اكتمالها لبيان أنه لما لم يكن من توجه فرعون وملئه تجاه دعوة موسى عليه السلام سوى التكذيب والجحود والتهديد والوعيد والمبالغة في الطغيان ذكر الله تعالى أن كل ذلك منهم يذهب هباء وضياعا ولا يجديهم نفعا ولا ينجيهم من عذاب الله شيئا، فكيدهم ضلال في الآخرة بلا شك، وكذلك كيدهم في الدنيا سيظهر أنه ضلال؛ حيث لم يمنعهم كيد فرعون وملئه وحيلهم وتمويهاتهم عن اتباع موسى عليه السلام،[1] وكانوا قد "باشروا قتلهم أولا فما أغنى عنهم، ونفذ قضاء الله بإظهار من خافوه، فما يغنى عنهم هذا القتل الثاني"[2]، فكيدهم ضائع في الكرتين جمعيا؛ لأنه ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ﴾ فاطر: ٢.

وسمي هذا الرأي كيدا لأنهم تشاوروا فيه فيما بينهم دون أن يعلم بذلك موسى عليه السلام والذين آمنوا معه، وأنهم أضمروه ولم يعلنوه حتى شغلهم عن إنفاذه ما أنزل الله عليهم من أنواع العذاب، كالضفادع والقمل والدم والطوفان إلى أن خرجوا من مصر فأغرقهم الله في اليم.[3]

قال الثعالبي[4]: "قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴾ عبارة وجيزة تعطي قوتها أن هؤلاء الثلاثة لم يقدرهم الله تعالى على قتل أحد من بني إسرائيل، ولا نجحت لهم فيهم سعاية"[5].

وفي هذه الآية فائدة جليلة ذكرها السعدي فقال: "تدبر هذه النكتة التي يكثر مرورها بكتاب الله تعالى: إذا كان السياق في قصة معينة أو على شيء معين، وأراد الله أن يحكم على ذلك المعين بحكم، لا يختص به ذكر الحكم، علقه على الوصف العام ليكون أعم، وتندرج فيه الصورة التي سيق الكلام لأجلها،

---

١) انظر: تأويلات أهل السنة للماتريدي (٢٠/٩). ومفاتيح الغيب للفخر الرازي (٥٠٦/٢٧). وفي ظلال القرآن لسيد قطب (٣٠٧٧/٥). والتحرير والتنوير لابن عاشور (١٢٣/٢٤).

٢) الكشاف للزمخشري (١٦٠/٤).

٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٣٠٥/١٥). والتحرير والتنوير لابن عاشور (١٢٣/٢٤-١٢٤).

٤) هو أبو زيد، عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي الجزائري المغربي، من مصنفاته: الجواهر الحسان في تفسير القرآن، ولد سنة ٧٨٦هـ، وتوفي سنة ٨٧٦هـ، عن نحو تسعين سنة -رحمه الله تعالى رحمة واسعة-. انظر: الضوء اللامع للسخاوي (١٥٢/٤). والأعلام للزركلي (٣٣١/٣).

٤) الجواهر الحسان (١١١/٥).

٥) الجواهر الحسان (١١١/٥).

وليندفع الإيهام باختصاص الحكم بذلك المعين. فلهذا لم يقل: (وما كيدهم إلا في ضلال)، بل قال: ﴿وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾"[1].

٧) قوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى﴾: يظهر مشهد التكذيب والعناد ورفض الدعوة، والتهديد بقتل الداعية، ووأد الدعوة، فلما أخبر تعالى بقول فرعون وملئه فيمن تابع موسى عليه السلام فيما سبق، أخبر هاهنا عن قول فرعون في موسى عليه السلام لما رأى أنه لم يمنعهم عن اتباع موسى عليه السلام ما ذُكر من قتل الأبناء واستحياء النساء، وأنه قد عجز عن إيقاع وعيده بهم، وخاف على نفسه وملكه من الزوال، أراد قتل موسى عليه السلام ليضمن وأد الدعوة في مهدها، كأنما يستجمع الشر قواه مجددا ليفتك برأس الإيمان، وقد عجز فرعون عن ذلك وموسى عليه السلام أمامه وفي حضرته، فلما علا شأن موسى عليه السلام بدى كالمستأذن وزراءه أن يسمحوا له بقتل موسى عليه السلام، وكأنه يريد أن يحمل الناس على رأيه حتى يتقوى بذلك وهو فرعون، وهذا يدل على أن الطاغية ضعيف من داخله وإن أظهر القوة والجبروت.

لكن الآيات تدلنا على أنه كان ضعيفا ومترددا، أو خائفا وعاجزا عن إيقاع القتل بموسى عليه السلام أيضا، فإن قوله: ﴿ذَرُونِي﴾ ليست من ألفاظ الجبابرة المتمكنين من إنفاذ أوامرهم،[2] وقد تخير الله كلمة (ذروني) كناية عن خطر ذلك العمل وصعوبة تحصيله؛ لأن مثله مما يمنع المستشار مستشيره من الإقدام عليه، ولذلك عطف عليه ﴿وَلْيَدْعُ﴾؛ لأن موسى عليه السلام خوفهم عذاب الله وتحداهم بالآيات التسع.[3]

ولعله قال: ﴿ذَرُونِي﴾ يطلب من ملئه المشورة، أو يريد منهم ترك ملامته إن هو أقدم على القتل، أو وجد في قومه من يمنعه من ذلك إما إيمانا بموسى عليه السلام أو خوفا على فساد ملك فرعون.[4]

ومن الملاحظ أن تهديدات فرعون وملئه لم تأت هذه المرة في هذه السورة إلا بالأقوال، فأولا قالوا بأنه ساحر كذاب، ثم قالوا اقتلوا ابناء المؤمنين، ثم قال فرعون ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى﴾، وكأنهم لقوة الحق الذي جاء به موسى عليه السلام انهد ركنهم واضطربت عقائدهم وخافوا وأيقنوا في أنفسهم أنهم عاجزون عن

---

١) تيسير الكريم الرحمن (٧٦٣/١).

٢) البحر المحيط لأبي حيان (٢٥٠/٩).

٣) انظر: التحرير والتنوير لابن عاشور (١٢٥/٢٤).

٤) انظر: تأويلات أهل السنة للماتريدي (٢٠/٩). وبحر العلوم للسمرقندي (٢٠٣/٣). وتفسير السمعاني (١٥/٥).

صده، بخلاف حالهم قبل ولادة موسى عليه السلام فإن فرعون كان في أوج قوته وجبروته، يذكر الله عنه خبرا يقينيا بأنه كان يذّبح أبناء بني إسرائيل ويستحيي نساءهم بالفعل لا بمجرد القول والتمني.

٨) قوله تعالى: ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾: وفيه يظهر فرعون تماديه في الطغيان، فإنه لا يأبه بأحد بشرا كان أو إلها -تعالى الله علوا كبيرا-، ويتحدى موسى عليه السلام في ربه، بأن يدعوه ويستنصره فإنه غالب على موسى عليه السلام ومن معه.

وهذا القول في حقيقته يحكي أمرين: خوف فرعون وكبره، فهو يخاف منه ظاهرا ويخاف من دعائه لربه باطنا، ولكنه يتجلّد ويظهر عدم المبالاة بدعائه، وإلا فما له يقيم له وزنا ويتكلم بذلك؟! فهو يخفي خوفه تحت هذا القول ليظهر أنه غير مبال ولا مكترث برب موسى عليه السلام، مستهزئا مستهينا مستهترا متبجحا مستخفا ومستبعدا أن يصيبه أذى.

وهو كذلك لكبره يقول لقومه: "لا يهولنكم ما يذكر من ربه فإنه لا حقيقة له وأنا ربكم الأعلى"[1].

لقد بلغ فرعون بالتهديد إلى منتهاه حين هدد بقتل الرسول، وبالوقاحة درجة التشبع لما قال: ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾.

٩) قوله تعالى: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾: لما أظهر فرعون عزمه قتل موسى عليه السلام، ذكر لملئه حججه وأسبابه -الفاسدة- الموجبة لذلك، مبررا ومسوغا فعلته بذلك، وظاهرا بمظهر الحكيم الناصح، حتى يقنع الجميع بجدوى فعله، ويحرضهم على رسولهم، وكذلك الظالمون لابد وأن يبرروا لأفعالهم ليكسبوا ولاء الآخرين، فذكر لقومه أنه يخشى من سطوة موسى عليه السلام على دينهم بالتحريف والتبديل والإبطال، فيضلوا عن عقيدة آبائهم وأسلافهم، أو أن يتسبب بزرع الفرقة والاختلاف بينهم فتسفد معيشتهم وتبور تجارتهم وتنقلب أحوالهم.

---

١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٣٠٥/١٥). وانظر: تفسير السمعاني (١٥/٥). ومفاتيح الغيب للفخر الرازي (٥٠٧/٢٧). وروح البيان لإسماعيل حقي (١٧٥/٨). والبحر المديد لابن عجيبة (١٢٧/٥). وتفسير المراغي (٦١/٢٤). وفي ظلال القرآن لسيد قطب (٣٠٧٨/٥). والتفسير القرآني للقرآن لعبدالكريم الخطيب (١٢٢٣/١٢). والتحرير والتنوير لابن عاشور (١٢٥/٢٤).

قال ابن كثير: "وهذا كما يقال في المثل: (صار فرعون مذكرا) يعني: واعظا، يشفق على الناس من موسى عليه السلام"[1].

ولما كان الناس شديدو التعلق بأديانهم وأمور معاشهم، وكانت العقيدة جزء من كيان الإنسان، وكل نفس تحب الصلاح وتكره الفساد، خوفهم فرعون بحدوث الفساد في الدين أو الدنيا، أما فساد الدين فلأن القوم اعتقدوا أن الدين الصحيح هو الذي كانوا عليه، من عبادة فرعون وعبادة الأصنام كما قال تعالى: ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾ الأعراف:١٢٧، فلما كان موسى عليه السلام ساعيا في تغييره إلى التوحيد وعبادة الله، كان في زعمه الفاسد أنه ساع في إفساد الدين الحق. وأما فساد الدنيا فهو أنه لابد وأن يجتمع عليه قوم ويقومون بتغيير أحكامنا ويصير ذلك سببا لوقوع الخصومات وإثارة الفتن والتهارج الذي يذهب معه الأمن وتتعطل المزارع والمكاسب والمعايش، ويهلك الناس قتلا وضياعا، أو أن يقوم موسى عليه السلام بقتلهم وسبي نسائهم مجازاة لهم على صنيعهم الأول بقتل أبنائهم وانتقاما منهم.[2]

ولما كان حب الناس لأديانهم فوق حبهم لأموالهم لا جرم بدأ فرعون بذكر الدين ثم أتبعه بذكر فساد الدنيا، وقال لهم: ﴿دِينَكُمْ﴾ بضمير المخاطب تعريضا بأنهم أولى بالذب عن الدين وإن كان هو دينه أيضا، لكنه تجرد في مشاورتهم عن أن يكون فيه مراعاة لحظ نفسه، وذلك كله إلهاب وتحضيض.[3]

قال سيد قطب: "من الطريف أن نقف أمام حجة فرعون في قتل موسى عليه السلام: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ ..

فهل هناك أطرف من أن يقول فرعون الضال الوثني، عن موسى رسول الله عليه السلام ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾؟!! أليست هي بعينها كلمة كل طاغية مفسد عن كل داعية مصلح؟! أليست هي بعينها كلمة الباطل الكالح في وجه الحق الجميل؟! أليست هي بعينها كلمة الخدّاع الخبيث لإثارة الخواطر في وجه الإيمان الهادئ؟!

---

١) تفسير القرآن العظيم (١٣٩/٧).

٢) انظر: بحر العلوم للسمرقندي (٢٠٣/٣). وتفسير القرآن العزيز لابن أبي زمنين (١٣١/٤). والكشاف للزمخشري (١٦١/٤). وزاد المسير لابن الجوزي (٣٥/٤). ومفاتيح الغيب للفخر الرازي (٥٠٧/٢٧).

٣) انظر: مفاتيح الغيب للفخر الرازي (٥٠٧/٢٧). والتحرير والتنوير لابن عاشور (١٢٥/٢٤).

إنه منطق واحد، يتكرر كلما التقى الحق والباطل، والإيمان والكفر، والصلاح والطغيان على توالي الزمان واختلاف المكان، والقصة قديمة مكررة تعرض بين الحين والحين"[1].

١٠) قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴾: انتهى موقف المدعو، وبدأ دور الداعية، فلما سمع موسى عليه السلام مقالة فرعون وعزمه على قتله لم يأت في دفع شر فرعون إلا بأن دعا ربه مستعينا مستعيذا مستجيرا به وحده أن ينجيه من بطش كل بطِرٍ أشرٍ منكرٍ ليوم البعث والجزاء، فإن موسى عليه السلام عَلِمَ أن العاصم الحق هو الله تعالى، وأن الأمر له سبحانه من قبل ومن بعد، وأن أسباب فرعون العظيمة تغدو هباء إن دخل في حصن ربه وحرزه، فلم يلتفت إلى عدد ولا عُدة، بل سار بقومه موقنا بأن ربه سيهديه وينجيه ومن معه.

وقد صدّر كلامه بـ (إنّ) تأكيدا وإشعارا على أن السبب المؤكد في دفع الشر هو العياذ بالله، وخص اسم الرب لأن المطلوب هو الحفظ والتربية والعناية، فمنعه الله تعالى بلطفه من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب، وقيض له من الأسباب ما اندفع به عنه شر فرعون وملئه.[2]

وفي قوله ﴿ بِرَبِّي وَرَبِّكُم ﴾ فوائد:

أحدها: أن حفظ موسى عليه السلام متضمن ومتكفل لحفظهم أجمعين.

ثانيها: بعث لهم على أن يقتدوا به فيعوذوا بالله عياذه ويعتصموا بالتوكل عليه اعتصامه، فإن اجتماع النفوس له تأثير قوي في استجلاب الإجابة،[3] "وهو السبب الأصلي في اجتماع الناس لأداء الصلوات الخمس والجمعة والأعياد والاستسقاء ونحوها"[4].

ثالثها: احتراز عن أن يظن ظان أنه يريد بالرب فرعون لأنه رباه في صغره، كما في قوله: ﴿ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا ﴾الشعراء:١٨.

---

١) في ظلال القرآن (٣٠٧٨/٥).

٢) انظر: المحرر الوجيز لابن عطية (٥٥٥/٤). وأنوار التنزيل للبيضاوي (٥٥/٥). وفتح البيان لصديق حسن خان (١٨٠/١٢). وتيسير الكريم الرحمن للسعدي (٧٣٦/١).

٣) انظر: مدارك التنزيل للنسفي (٢٠٧/٣-٢٠٨). وغرائب القرآن للنيسابوري (٣٣/٦).

٤) روح البيان لإسماعيل حقي (١٧٥/٨).

رابعها: تنبيه على التوحيد وإنكار على إشراكهم.[1]

وقال: ﴿مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ﴾ لتشمل استعاذته فرعون وغيره من الجبابرة، وليكون على طريقة التعريض فيكون أبلغ في التأثير، وأراد بالتكبر الاستكبار عن الاذعان للحق، وهو أقبح استكبار وأدل على دناءة صاحبه وعلى فرط ظلمه.[2]

وقد خصّ موسى صلوات الله وسلامه عليه الاستعاذة بالله ممن لا يؤمن بيوم الحساب، وجعلها صفة مغنية عن صفة الكفر أو الإشراك لأنها تتضمن الإشراك وزيادة، فإن الموجب لإيذاء الناس أمران: أحدهما قسوة القلب. والثاني: عدم اعتقاده بالجزاء والحساب. ولا ريب أنه إذا اجتمع الأمران كان الخطب أفظع لاجتماع المقتضي وارتفاع المانع، فمن لم يكن للثواب على الإحسان راجيا، ولا للعقاب على الإساءة وقبيح ما يأتي من الأفعال خائفا، كان خطره أعظم وجرأته أشد، وكفره أظهر وشركه أوسع، ولذلك كانت استجارته من هذا الصنف من الناس خاصة.[3]

١١) يقدم المقطع لنا مثالا على المعركة القائمة بين الحق والباطل، والكفر والإيمان، ويؤكد على حتمية هذا الصراع حتى ينتصر الحق أو يأذن الله بقيام الساعة، ويرينا كذلك سبل الدفاع عن النفس والعقيدة، وسبل النجاة بالأمة من براثن الطغيان والوصول بها إلى بر الأمان، وهذا كله يتناسق مع مقصود السورة الأعظم، ويشهد لمحورها الأساسي، لتمضي بنا الآيات في مراحل أخرى تعزز من نفس الهدف وتقويه حتى بلوغ الغاية في أداء السورة لرسالتها.

قال سيد قطب: "تنقسم هذه الحلقة من قصة موسى عليه السلام إلى مواقف ومناظر، تبدأ من موقف عرض الرسالة على فرعون وملئه، وتنتهي هنالك في الآخرة، وهم يتحاجون في النار، وهي رحلة مديدة، ولكن السياق يختار (لقطات) معينة من هذه الرحلة، هي التي تؤدي الغرض من هذه الحلقة في هذه السورة بالذات"[4].

---

١) انظر: غرائب القرآن للنيسابوري (٣٣/٦). والتفسير المظهري لمحمد ثناء الله (٢٥٢/٨).

٢) انظر: مدارك التنزيل للنسفي (٢٠٧/٣-٢٠٨). وغرائب القرآن للنيسابوري (٣٤/٦).

٣) انظر: جامع البيان للطبري (٣٧٥/٢١). وغرائب القرآن للنيسابوري (٣٤/٦). والتحرير والتنوير لابن عاشور (١٢٧/٢٤).

٤) في ظلال القرآن (٣٠٧٧/٥).

المطلب الرابع: التفسير الإجمالي للآيات:

للقصة مكانتها في القرآن الكريم، ولقصة موسى عليه السلام مقامها وأهميتها في القرآن الكريم، وقد ذكر الله تعالى هاهنا جانبا من قصة موسى عليه السلام مع فرعون وملئه ليعرض مثلا من قصص الغابرين والأمم الهالكين، لغرض أخذ العبرة والعظة، وتبديل الكفر بالإيمان قبل فوات الأوان، ومن قصة موسى عليه السلام أنّ الله قد بعثه رسولا إلى فرعون وملئه وأيده بالحجج الباهرة والمعجزات الواضحة ليؤمنوا بالله ربهم ويكفوا عن تعذيب بني إسرائيل ويرسلهم معه، فلما بلغت الرسالة فرعون وملأه وعلى رأسهم هامان وقارون، وعجزوا عن مجاراة موسى عليه السلام في آياته ومعجزاته أشاعوا بين الناس -خوفا من أن يتأثروا ويتبعوا موسى عليه السلام- أنه ليس إلا ساحر كذاب يريد أن يذهب بالناس بمكره وحيله.

لكن أهل الحيل من السحرة أيقنوا بأن موسى عليه السلام جاء بالحق الظاهر وأبطل سحرهم فأمنوا جميعا، فهددهم فرعون أشد التهديد بقتل الأبناء وسبي النساء للخدمة، لكن كيده هذا وتهديده ذهب باطلا ولم يؤثِّر في أحد من المؤمنين.

وحينها يأمر فرعون بقتل رأس الدعوة موسى عليه السلام، يأمر بذلك في صورة المستشير المستأذن، ويظهر أنه لا يبالي بإله موسى عليه السلام ولا يخاف من دعائه، وقد برر لملئه عذره في قتل موسى عليه السلام بأنه أصبح تهديدا لعقيدة الأمة وأمنها، فهو يخشى أن يبدل دين أمته كليا أو جزئيا، أو أن يبدل وحدتهم فرقة فيظهر الفساد بينهم في المبدأ والمعاش، وينتقل حالهم من الاستقرار إلى الاضطراب.

وعندها يستجير موسى عليه السلام ويلوذ بربه وربهم من شر كل ذي كبر وغطرسة لا يقيم لليوم الآخر وزنا في قلبه، فإن من أمن العقوبة والجزاء أوغل في الإجرام والفساد.

المطلب الخامس: بيان ما ترشد إليه الآيات[1]:

١- يشترك الأنبياء في أمور كثيرة منها: تأييدهم بالمعجزات الدالة على صدقهم، وإعراض أقوامهم عنهم، واتهامهم بالكذب والتمويه والسحر، وتهديدهم بالطرد والتشريد أو القتل والتعذيب، ولكن النّصر في النهاية للأنبياء والمؤمنين.

٢- عارض فرعون الدعوة وكفر بها بقوة الملك، وهامان بقوة العسكر، وقارون بقوة المال، فما أغنى عنهم ملكهم ولا عسكرهم ولا مالهم من عذاب الله شيئا لما جاءهم.

٣- في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ توهين لشأن الكافرين في كل زمان ومكان، وتشجيع للمؤمنين على أن يسيروا في طريق الحق دون أن يرهبهم وعد أو وعيد، فإن النصر سيكون في النهاية لهم.

٤- ثمان فوائد استنبطها الفخر الرازي من كلمات موسى عليه السلام ودعائه، وهي بإيجاز:

الأولى: إن قول موسى عليه السلام: ﴿إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم﴾ مستخدما لفظة ﴿إِنِّى﴾ الدالة على التأكيد، للدلالة على أن الطريق المؤكد المفيد في دفع الشرور والآفات عن النفس، الاعتماد على الله، والتوكل على عصمة الله تعالى.

الثانية: الاستعاذة بالله تصون الإنسان من شياطين الإنس والجن، فإذا قال المسلم: (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم) فالله تعالى يصون دينه وإخلاصه عن وساوس شياطين الجن، فكذلك إذا قال المسلم: أعوذ بالله، فالله يصونه عن كل الآفات والمخافات.

الثالثة: قوله: ﴿بِرَبِّى وَرَبِّكُم﴾: لما كان المولى ليس إلا الله، وجب ألا يرجع العاقل في دفع كل الآفات إلا إلى حفظ الله تعالى، فهو المربي والحافظ.

الرابعة: قوله: ﴿وَرَبِّكُم﴾ فيه بعث وحث لقوم موسى عليه السلام على أن يقتدوا به في الاستعاذة بالله.

١) انظر: مفاتيح الغيب للفخر الرازي (٢٧/٥٠٧-٥٠٨). وتبصير الرحمن للمهايمي (٢/٣٢٦). ومراح لبيد لمحمد الجاوي (٢/٣٤٧). والتفسير الوسيط لطنطاوي (١٢/٢٧٩). والتفسير الموضوعي لسور القرآن لجامعة الشارقة، بإشراف د. مصطفى مسلم (٦/٥٥١-٥٥٢). والتفسير المنير للزحيلي (٢٤/١٠٦-١٠٩).

الخامسة: لم يذكر موسى عليه السلام فرعون في دعائه، رعاية لحق تربيته له في الصغر.[1]

السادسة: بالرغم من عزم فرعون على قتل موسى عليه السلام، فلا فائدة في الدعاء عليه بعينه، بل الأولى الاستعاذة بالله في دفع كل من كان موصوفا بصفة التكبر والكفر بالبعث، حتى يشمل كل من كان عدوا ظاهرا أو خفيا.

السابعة: إن الجرأة على إيذاء الناس أمران: أحدهما: كون الإنسان متكبرا قاسي القلب، والثاني: كونه منكرا للبعث والقيامة، وقد اتصف فرعون بالأمرين.

الثامنة: أجاب موسى عليه السلام عن استهزاء فرعون بقوله: ﴿ وَلۡيَدۡعُ رَبَّهُۥٓ ﴾: بأن ما ذكرته يا فرعون بطريق الاستهزاء هو الدين الحق، وأنا أدعو ربي، وأطلب منه أن يدفع شرك عني، وسترى كيف أن ربي يقهرك، وكيف يسلطني عليك، وهو رد قولي وفعلي.

الخلاصة من هذا الدعاء: أن طريق دفع كيد الأعداء وإبطال مكرهم هو الاستعاذة بالله، والرجوع إلى حفظ الله تعالى.

٥- إن جميع الطغاة يعتقدون أن الله تعالى لم يخلق أذكى منهم وأفضل منهم، وأن كل ما يفعلونه صلاح، وأن كل من عارضهم هو موتور مفسد يريد للأمة الفتن والفساد، ولسان حال ومقال جميع الطغاة: ﴿ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ ﴾، مع أنه لا فساد بعد الطغيان، ولا سوء بعد القهر والاستبداد وكَمِّ أفواه العباد لمنعهم من قول الحقيقة التي تزعج الطاغية، ولذا قال ﷺ: ((سيد الشهداء حمزة، ورجل قام إلى ظالم فأمره ونهاه فقتله))[2].

٦- يجب على الداعية إلى الحق أن يلجأ إلى الله تعالى ويستعيذ به من الطغاة بعد أن يؤدي واجبه تجاههم، فإن موسى عليه السلام لم يأت في دفع شر فرعون إلّا بأن استعاذ بالله واعتمد على فضل الله، فصانه الله عن كل بلية وأوصله إلى كل أمنية.

***

---

١) وهذا يشكل عليه قوله تعالى: ﴿ قَالَ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرۡعَوۡنُ مَثۡبُورٗا ١٠٢ ﴾ الإسراء: ١٠٢.

٢) المستدرك للحاكم، برقم "٤٨٨٤" (٢١٥/٣)، وقال صحيح الإسناد، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم "٣٧٤" (٧١٦/١-٧١٨).

المبحث الثالث: قصة مؤمن آل فرعون في دعوته ودفاعه عن الحق

ويشمل الآيات (٢٨-٤٦)

قال تعالى: ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ
وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى
يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ (٢٨) يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا
مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ (٢٩) وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ
يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ (٣٠) مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ
ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ (٣١) وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ (٣٢) يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ
ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ (٣٣) وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا
هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ (٣٤) ٱلَّذِينَ
يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ
كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ (٣٥) وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ (٣٦) أَسْبَٰبَ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ
ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ (٣٧) وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ
ٱلرَّشَادِ (٣٨) يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ (٣٩) مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً
فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ
فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ (٤٠) ۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ (٤١) تَدْعُونَنِى
لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ (٤٢) لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ
إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ (٤٣)
فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ (٤٤) فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ

مَا مَكَرُواْۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾.

المطلب الأول: ربط الموضوع بالمحور الأساس للسورة:

قد رأينا كيف أن آيات سورة غافر التي مضت دراستها تتنوع وتتحد، فهي تتحد في غاية معينة مؤسسة على إدارة الصراع –العقدي والفكري- بين الحق والباطل، ومبنية –في الغالب- على التذكير بالترغيب والترهيب لردع عدوان المشركين وكف أذاهم عن المؤمنين، وصدع قلوبهم بالحق بغية ردهم إليه كليا أو بعض الشيء. وهي تتنوع في أساليبها بين غيب وشهادة، وخبر وأمر، وعذاب ونعيم، وتعميم وتخصيص، ودنيا وآخرة، وتفريق وجمع، ومباشرة وتعريض، ومشابهة ونقيض، ومبالغة وتخفيف.

ثم جاءت بعدَ ذلكَ الآياتُ التي معنا لتكمل المسيرة متحدة ومتسقة مع ما قبلها في الغاية والهدف، ومختلفة عما قبلها بأسلوب جديد من أساليب الوعظ والتذكير، والإقناع والتأثير، وهو القصة القرآنية.

والقصة لها في حياة الناس دورها المرموق في أخذهم إلى الفضيلة، والفرار بهم من الرذيلة، بما تلبي فيهم من أشواقهم إلى المعرفة، وما تسوقه إليهم من صور تتراءى بين أيديهم كأنها حية ترى، وعلى أرض الواقع بعيدا عن النسج والخيال، فإذا هم يفتحون بصائرهم على نماذج تاريخية تخاطب فيهم العقل ليصحو، والضمير ليحيى، والإرادة لتنشط، ليمضوا على ذات الطريق إلى نفس الغاية.

والقصة القرآنية تنفرد بخصائص تجعلها أقدر على الأخذ بزمام الناس إلى الحق بما تحمله من خصائص القرآن المجيد والكتاب العزيز.

وقصة مؤمن آل فرعون إحدى قصص القرآن الرائدة، والتي تلخص قضية الصراع بين الحق والباطل، الباطل الذي يحاصره الحق بسلطان الحجة فإذا به يفرط ويطغى، وهي قصة مليئة بدروس الدعوة وفقهها ومنهجها.[1]

وهي قصة كاملة مكتملة الأركان يذكرها القرآن منذ لحظة ابتدائها، وينتقل بين أحداثها، إلى أن ينهيها بنهايتها، مع ذكر نتائجها، دون أن يترك منها جزء تتشوف النفس لمعرفتها، ولذا لم أرَ من المناسب تقسيم آياتها بين المباحث رغم طول المقطع؛ لكونها تمثل وحدة واحدة وموضوعا واحدا.

١) انظر: مؤمن آل فرعون ودروس في الدعوة، لمحمود محمد عمارة (١/٥-٦).

وهذه هي المرة الأولى التي يحدثنا القرآن عن قصة هذا المؤمن من آل فرعون، مع أن قصة موسى عليه السلام تكررت كثيرا في القرآن الكريم، ووجود هذه الجزئية من القصّة هنا يخدم هدف السورة تماما، فهذا الرجل المؤمن جادل فرعون وقومه بأساليب متعددة، منها: استخدام المنطق، واستخدام العاطفة، واستخدام الحب والخوف عليهم والحرص على نجاتهم، واستخدام التاريخ للتذكير بتاريخ من سبق وصنيعهم مع رسولهم للعبرة والاتعاظ، ثم التذكير بيوم القيامة وبلقاء الله تعالى؛ لأنها من أهم الأسباب التي ترقق القلب، ثم عاد إلى استخدام العقل، وختم بالتفويض بعد أن جادلهم بكل الوسائل الممكنة.

وقد ذكر الشيخ سعيد حوّى في تفسيرها شيئا من التناسق بينها وبين الآيات السابقة في سورة غافر ليبين مدى ترابط المعاني والمباني بمحور السورة الأساسي من عدة وجوه، فقال:

"- يلاحظ أنه ورد في أول السورة قوله تعالى: ﴿ مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴾غافر:٤، وأنه ورد على لسان مؤمن آل فرعون هنا قوله: ﴿ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡۖ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ ﴾ وفي ذلك دليل على أن قصة موسى عليه السلام وما ورد فيها تمثيلٌ واقعي للمعاني التي ذكرت من قبل في السورة، كما أن في الآية دليلا على أن علامة الطبع على القلب الجدال في آيات الله، وبإدراكنا لهذه القضية ندرك مفتاح السورة، ونعرف محورها ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٧ ﴾البقرة:٦-٧، فالختم على القلب سببه الجدال في آيات الله، وهي علامته، ومن ثم فإن السورة عندما بدأت في الكلام عن الجدال في آيات الله إنما تفصل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ...﴾ من سورة البقرة.

- ورد في كلام مؤمن آل فرعون هذان القولان: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ كَذَّابٞ ﴾، ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ مُّرۡتَابٌ ٣٤ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ...﴾ وهذا يدل على أن الله عز وجل إذا حكم على إنسان بالكفر، وختم على قلبه فما ذلك إلا لاتصافه بصفات: منها الإسراف، ومنها الكذب، ومنها الارتياب الذي يرافقه جدال في آيات الله بغير حق، وردٌّ لها ودفع، أما إذا كان ريب يرافقه رغبة في الإيمان، وتسليم للحجة، فهذا يرجى من صاحبه خير.

-إذا اعتبرنا كلام مؤمن آل فرعون تفصيلا لمحور السورة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ البقرة:٦ ، فإننا ندرك ههنا قضية مهمة: وهي أنه إذا كان الإنذار لأمثال هؤلاء الكافرين لا ينفعهم بحيث يؤمنون، فإن الكلام معهم قد يفيد في شيء آخر، فإننا لاحظنا أن كلام مؤمن آل فرعون أثّر في صرف فرعون عن قتل موسى عليه السلام، ومن ثم فلابد من إنذار، فإنه إن لم ينفع في تحقيق قضية الإيمان، فإنه ينفع في شؤون أخرى، فلا يقولن إنسان لا ينفع الإنذار أبدا، فليس هناك طاغية كفرعون، ومع ذلك تزحزح عن موقف من مواقفه بسبب الإنذار البليغ.

- نلاحظ أنه في أول السورة وعظ الله الكافرين بقوله: ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۖ وَهَمَّتۡ كُلُّ أُمَّةِۭ بِرَسُولِهِمۡ لِيَأۡخُذُوهُۖ ...﴾غافر:٥، ونلاحظ أن مؤمن آل فرعون وعظ قومه بهذا: ﴿يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ ٣٠ مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ ...﴾ فالله عز وجل يعظ هذه الأمة من خلال الخطاب المباشر، ومن خلال العرض، ومن خلال القصة.

ومن كل ما ذكرناه ندرك أن السورة تسير في اتجاه واحد، وتؤلف وحدة متكاملة ومحورا محددا"[1].

ومع طول هذا المقطع وامتداد آياتها عبر أجزاء متعددة من الكلام، إلا أننا سنجد أنها لم تفارق في أي جزء من أجزائها وحيثيتها محور السورة الذي هو ردع عدوان المعتدين، وإدارة الصراع العقلي بين الحق الباطل وأن الذين يجادلون في آيات الله ليردوها حجتهم داحضة، فالبداية كانت بعرض صورة صادقة لقولة الحق وحجة المؤمنين التي تمثلت في جدل مؤمن آل فرعون مع قومه، ليعلمنا الله عز وجل من خلال قصته أدب الحوار والأسلوب المقنع الذي يقتضي اتباعه من قبل الدعاة ليكون سبيلا لنصرة الدعوة وجذب اهتمام الناس وشحذ عقولهم وايقاظ قلوبهم لتتقبل الحق الذي عرضه الداعية.

ثم نجد أن مؤمن آل فرعون يأتي بجميع الحجج التي تدل على صحة دعوة موسى عليه السلام وصدقه ويبين لهم ذلك من الواقع الذي عاشته الأمم.

ثم تظهر الآيات صورة من صور الجدل العقيم الذي يتبعه المشركين في دحض حجج المؤمنين، ليتبعه مؤمن آل فرعون بعرض الحجج وطرح الدلائل على صحة رأيه، ويذكر طرفا من توجه المشركين وتفنيد حجتهم في هذا التوجه.

١) الأساس في التفسير (٤٩٥٩/٩-٤٩٦٠).

ويستمر أسلوب النقاش والمحاججة حتى يتولى الله عز وجل الدفاع عن أوليائه، فيبين أنه عز وجل وقى المؤمن ما يدبر له من الأذى، وأهلك خصومه وعذبهم في الدنيا والآخرة وفي القبر، ليستمر بعد ذلك النقاش والخصام بين المشركين أنفسهم وهم النار، ويبقى الطابع الغالب في السورة هو الصراع الفكري بين الحق والباطل.[١]

قال سيد قطب: "إن هذه الحلقة من القصة تجيء هنا متمشية بموضوعها مع موضوع السورة، ومتمشية بطريقة التعبير فيها -وأحيانا بعباراتها ذاتها- مع طريقة التعبير في السورة كذلك، وتكرر بعض عباراتها.. وعلى لسان الرجل المؤمن من آل فرعون ترد معان وتعبيرات وردت من قبل في السورة، فهو يذكر فرعون وهامان وقارون بأنهم يتقلبون في البلاد، ويحذرهم يوما مثل يوم الأحزاب، كما يحذرهم يوم القيامة الذي عرضت مشاهده في مطالع السورة كذلك.

ويتحدث عن الذين يجادلون في آيات الله ومقت الله لهم ومقت المؤمنين كما جاء ذلك في الشوط الأول. ثم يعرض السياق مشهدهم في النار أذلاء ضارعين يدعون فلا يستجاب لهم، كما عرض مشهد أمثالهم من قبل في السورة.

وهكذا وهكذا مما يوحي بأن منطق الإيمان ومنطق المؤمنين واحد، لأنه يستمد من الحق الواحد، ومما ينسق جو السورة، ويجعل لها (شخصية) موحدة الملامح، وهي الظاهرة الملحوظة في كل سور القرآن"[٢].

ويؤيد هذا الكلام ما قاله دروزة: "وفي آيات القصة حكاية لأقوال عديدة من أقوال مؤمن آل فرعون مشابهة لجمل قرآنية عديدة وجهت مباشرة إلى كفار العرب: منها إنذار مؤمن آل فرعون لقومه بمصير الأمم السابقة المكذبة مثل قوم نوح وعاد وثمود، ومنها تنبيه المؤمن قومه إلى أن الحياة الدنيا متاع وأن الآخرة هي دار القرار، وأن من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها ومن عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب. ففي كل هذا يظهر هدف العظة والزجر والدعوة والتأسي والتسلية والتثبيت والتنديد في آيات القصة قويا بارزا، كما ينطوي فيه تلقينات مستمرة المدى. وهذا بالإضافة إلى ما في موقف هذا المؤمن الجريء المندد بفرعون وقومه والداعي إلى الله والمنذر بعذابه للمصرّين على الكفر رغم كونه وحيدا من تلقين في إيجاب المواقف المماثلة على المؤمنين المخلصين دون خوف ورهبة من الظالمين.

١) انظر: التفسير الموضوعي لسور القرآن، جامعة الشارقة بإشراف د. مصطفى مسلم (٥٥٦/٦-٥٧١).
٢) في ظلال القرآن (٣٠٧٦/٥).

ولقد روى أصحاب السنن حديثا عن النبي ﷺ جاء فيه: ((أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر أو أمير جائر))[١]، حيث يتساوق التلقين النبوي مع ما استلهمناه من التلقين القرآني.

ولقد جاء في آيات هذه السورة والسورة السابقة لها فضلا عما قبلهما أوامر قرآنية مباشرة للنبي ﷺ بعبادة الله وحده وإخلاص الدين له ورفض دعوة المشركين إلى مشاركتهم في عبادتهم وتقاليدهم، وبين هذا وبين ما جاء في القصة من كلام الرجل المؤمن لقومه تماثل.

ولقد جاءت في آيات هذه القصة مقاطع فيها تعليقات وتنبيهات وعظية بليغة جريا على الأسلوب القرآني البديع، منها ما هو تعليقات وتنبيهات مباشرة، ومنها ما جاء على لسان مؤمن آل فرعون، فالله لا يسعد ولا يوفق البغاة الكذابين، والله لا يريد ظلما لعباده، ولذلك جرى على سنة إرسال رسله لإنذارهم ودعوتهم، والله إنما يضل البغاة المرتابين الذين يجادلون في آيات الله بالباطل والذين استوجبوا مقت الله وإنما يطبع على قلوب المتكبرين الجبارين.

وإنه من عجيب أمرهم أنه بينما يدعوهم إلى النجاة يدعونه إلى النار، ويريدون أن يكفر بالله ويشرك به غيره الذي لا يملك من الأمر شيئا، وإن مرد الناس جميعهم إلى الله، وأن المسرفين في الانحراف هم وحدهم أصحاب النار، ولسوف يذكرون ما يقوله لهم في يوم ما ويندمون على مواقفهم، وأنه يفوض أمره إلى الله البصير بأمور عباده.

وبين هذه التعليقات ما جاء في كثير من التقريرات القرآنية المباشرة التي مرت أمثلة منها في السور السابقة تماثل كذلك. وواضح أن هذا التماثل مما يبرز قصد القصة الوعظي والتذكيري والتمثيلي"[٢].

---

١) سنن أبي داوود، كتاب الملاحم، وباب الأمر والنهي، برقم "٤٣٤٤" (١٢٤/٤)، وصححه الألباني، انظر: السلسلة الصحيحة، برقم "٤٩١" (٨٨٦/١).
٢) التفسير الحديث (٣٦٧/٤-٣٦٨).

المطلب الثاني: التناسق بين هذا الموضوع وسابقه:

بعد أن شرعت الآيات في ذكر بعض جوانب من قصة موسى ﷺ مع فرعون لأجل أخذ العبرة والعظة من وعيد الله وعذابه، ولتمكين السلوان واليقين في قلوب المؤمنين بوعد الله ونصره، جاءت قصة مؤمن آل فرعون -الذي شرّفه الله بالذكر وخلد ثناءه في الأمم مدى الدهر- تتمة لأحداث قصة موسى ﷺ، فالسياق ما زال "في الحديث عما دار في قصر فرعون الذي أبدى رغبته في إعدام موسى معللا ذلك بأمرين: أنه سيبدل دين الدولة والشعب، وأنه سيظهر الشغب في البلاد والتعب للدولة والمواطنين معا"[1].

فلما حكى الله تعالى عن موسى ﷺ أنه ما زاد في دفع مكر فرعون وشره على الاستعاذة بالله، وقد ترقبت النفوس لمعرفة نتيجة لجوئه إلى الله تعالى، أبان الله تعالى عن ذلك، وأنه استجاب له فصانه من كل بلية وأوصله الى كل أمنية، وسخر وهيأ له بلطفه وكرمه من الأسباب ما اندفع به شر كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب، وقيض إنسانا أجنبيا من آل فرعون من بيت المملكة وقع الحق في قلبه فانتدب يذب عنه ويدافع على أحسن الوجوه وأكملها، ويبالغ في تسكين تلك الفتنة ويجتهد في إزالة ذلك الشر، وهكذا الدعوة إلى الله تعالى لا تذهب سدى، بل لابد من وجود من يدافع ويرد كيد الكائدين عنها ولو في مجتمع أعدائها.[2]

وقد انتهى في المقطع السابق حوار الرؤساء موسى ﷺ وفرعون، ليبدأ مشهد آخر هو حوار الأتباع، وأولى جولاته أن المؤمن يحاور قومه بما فيهم فرعون كاتما إيمانه ومبتعدا عن القطع بصدق موسى ﷺ، وجامعا بين التذكير بنعمة الملك والظهور والتخويف بالعذاب وبأس الله.

قال الزحيلي: "اشتمل دفاعه [-أي المؤمن-] على أمور ثلاثة كبرى هي:

الأول: استنكار قتل موسى [ﷺ] المؤمن بربه، المستضعف مع قومه في مواجهة قوم فرعون.

الثاني: تحذيرهم بأس الله في الدنيا والآخرة في المكذبين للرسل وهم جماعات الأحزاب كقوم نوح وعاد وثمود.

الثالث: تذكيرهم بما فعل آباؤهم الأولون مع يوسف ﷺ من تكذيب رسالته ورسالة من بعده"[3].

---

١) أيسر التفاسير للجزائري (٥٢٩/٤).

٢) انظر: مفاتيح الغيب للفخر الرازي (٥٠٨/٢٧). ونظم الدرر للبقاعي (٥٢/١٧-٥٣). وروح البيان لإسماعيل حقي (١٧٦/٨). وتفسير المراغي (٦٣/٢٤). وتيسير الكريم الرحمن للسعدي (٧٣٦/١). وفي ظلال القرآن لسيد قطب (٣٠٧٨/٥-٣٠٧٩). وأيسر التفاسير للجزائري (٥٢٩/٤). والتفسير الواضح لمحمد حجازي (٣٠١/٣). والتفسير المنير للزحيلي (١١٢/٢٤). ومؤمن آل فرعون ودروس في الدعوة لمحمود عمارة (١٢/١).

٣) التفسير المنير (١١٢/٢٤).

المطلب الثالث: التناسب بين الآيات والجمل والكلمات:

١) قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥ ﴾: يستهل المشهد بحوار دعوي بين المؤمن وقومه وفيهم فرعون، كاتما إيمانه ومبتعدا عن الجزم بصدق موسى ﵇، وجامعا بين التذكير بنعمة الملك والظهور والتخويف بالعذاب وبأس الله، لكن فرعون الجبار يحاول أن يفسد عليه الأمر بغطرسته زاعما أن الحق والرشد فيما يراه وحده.

ومن خلال تصرفات المؤمن نجد أنفسنا أمام داعية حصيف ينال باللين أضعاف ما ينال بالشدة، وبالذكاء فوق ما ينال بالدهاء، فهو داعية يدخل المعركة بسلمية ووعي عميق، وتصرف دقيق، لا يقطع حبل الرجاء أبدا؛ لأنه ينطلق من القاعدة الراسخة وهي الإيمان بالله تعالى.[1]

وقد ذكر الله تعالى لهذا الرجل ثلاث صفات: أنه مؤمن، وأنه من آل فرعون، وأنه يكتم إيمانه عن الجميع، أو يكتمه عن فرعون وقومه، ثم الذي يظهر أن "عطف قول هذا الرجل يقتضي أنه قال قوله هذا في غير مجلس شورى فرعون، لأنه لو كان قوله جاريا مجرى المحاورة مع فرعون في مجلس استشارته، أو كان أجاب به عن قول فرعون: ﴿ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ ﴾غافر:٢٦، لكانت حكاية قوله بدون عطف على طريقة المحاورات"[2]، وكلا الأمرين محتمل، والحاصل أن دعوة هذا المؤمن كان أول مظهر لتحقيق الله تعالى لاستعاذة موسى ﵇ به، فانتدب هذا الرجل يدفع عن موسى ﵇، "ويحتال لدفع القوم عنه، ويسلك في خطابه لفرعون وملئه مسالك شتى، ويتدسس إلى قلوبهم بالنصيحة ويثير حساسيتها بالتخويف والإقناع"[3].

وفي تقديم ذكر الإيمان على ذكر الرجل إشارة إلى التقديم للتشريف، فقدم الإيمان لكونه أشرف الأوصاف، وكون المؤمن من آل فرعون صريح في أنه من القبط، وربما كان من المقربين من فرعون ومن وجهاء القوم ورؤسائهم الذين لا يتهمهم فرعون على ملكه وعرشه[4]، وهذا ما جعله يستمع له ويكف بطشه عنه وينزل على رأيه بعض الشيء، وقد قوّى هذا المعنى تقديم أنه من آل فرعون على كتمان الإيمان،

---

١) مؤمن آل فرعون ودروس في الدعوة لمحمود عمارة (١٣/١).

٢) التحرير والتنوير لابن عاشور (١٢٧/٢٤-١٢٨).

٣) في ظلال القرآن لسيد قطب (٣٠٧٨/٥-٣٠٧٩).

٤) انظر: جامع البيان لطبري (٣٧٥/٢١-٣٧٦). والكشف والبيان للثعلبي (٢٧٣/٨). والهداية إلى بلوغ النهاية لمكي بن أبي طالب (٦٤٢٢/١٠).

"لأنه لو أُخر عن ﴿ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ ﴾ لتوهم أن ﴿ مِّنْ ﴾ صلته، فلم يفهم أن ذلك الرجل كان من آل فرعون"[1].

وكونه كان يكتم إيمانه فدوافعه معقولة، لأنه علم أن إظهاره لإيمانه قد يضره ولا ينفع غيره، "ولما كان للإنسان، إذا عمّ الطغيان، أن يسكن بين أهل العدوان، إذا نصح بحسب الإمكان"[2]، ظل المؤمن بين ظهرانيهم مستمرا على كتم إيمانه إشفاقا على نفسه وتقية من فرعون وقومه، إلى أن ظهرت الحاجة الأكيدة لإظهار إيمانه للدفاع عن نبيه موسى عليه السلام، فنطق مجاهدا في سبيل الله بلسانه و "أظهر ما كان يكتمه وإن كان في إظهار ذلك إهلاك نفسه بعد أن يرجو نجاة نبي من الأنبياء عليهم السلام"[3]، فجال هذا المؤمن جولة ضخمة "مع المتآمرين من فرعون وملئه، وإنه منطق الفطرة المؤمنة في حذر ومهارة وقوة كذلك"[4].

وفي كتمانه لإيمانه فائدة أخرى أيضا، فالمؤمن لم يكن يريد الإيمان لنفسه وحسب، بل إنه كان يريد أن يكون داعية لفرعون وقومه جميعا إلى الإيمان بالله، ولو أنه أعلن إيمانه وجاء إلى فرعون يدعوه إلى الإيمان، أكان شأنه معه إلا كشأنه من موسى وهارون -عليهما السلام-؟! بل إن موسى وهارون عليهما السلام معهما من آيات الله المعجزة القاهرة ما يؤيد دعوتهما، وأما المؤمن فلم يكن معه إلا منطق العقل، وحجة الكلمة، لذا نراه قد وظّف كتمانه لإيمانه من أجل خدمة الحق والدعوة إليه.[5]

٢) قوله تعالى: ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ ﴾: شرع المؤمن في دعوته بأسلوب حكيم، جمع فيه بين الحديث مباشرة وبقوة عما يوقفهم عن الإقدام على قتل موسى عليه السلام، وبين التدرج في إظهار إيمانه بحسب الحاجة إلى ذلك، فخَيَّلَ لهم في البداية فداحة وفظاعة قتل موسى عليه السلام وقبحه، وأنكر عليهم ذلك أشد الإنكار، وأشار لهم أنه لا حاجة بكم إلى قتله فتسخطوا ربكم سخطين: سخطا على الكفر، وسخطا على قتل رسوله، وقد فعل المؤمن ذلك دون أن يصرِّح بإيمانه؛ لئلا يشتت تركيزهم عن الهدف الأهم إلى مسألة جانبية تتعلق بإيمانه الذاتي من عدمه، وقد أتبع استفهامه الإنكاري عليهم بما يدل على حسن هذا

---

١) روح البيان لإسماعيل حقي (١٧٦/٨).

٢) نظم الدرر للبقاعي (٥٣/١٧).

٣) تأويلات أهل السنة للماتريدي (٢٢/٩). وانظر: غرائب القرآن للنيسابوري (٣٥/٦).

٤) في ظلال القرآن لسيد قطب (٣٠٧٩/٥).

٥) انظر: التفسير القرآني للقرآن لعبد الكريم الخطيب (١٢٢٦/١٢-١٢٢٧).

الاستنكار، وذلك أن قتلهم إياه باعثه ليس إلا قول موسى عليه السلام ﴿رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾، وقد جاء بالبينات على ذلك، وهذا لا يوجب قتله البتة، فلا ينبغي أن يُقتل بغير حجة ولا برهان.[1]

قال الزمخشري: "وهذا إنكار منه عظيم وتبكيت شديد، كأنه قال: أترتكبون الفعلة الشنعاء التي هي قتل نفس محرمة، وما لكم علة قط في ارتكابها إلا كلمة الحق التي نطق بها وهي قوله ﴿رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾، مع أنه لم يحضر لتصحيح قوله بينة واحدة، ولكن بينات عدة من عند من نسب إليه الربوبية، وهو ربكم لا ربه وحده ... ولك أن تقدر مضافا محذوفا، أي: وقت أن تقول. والمعنى: أتقتلونه ساعة سمعتم منه هذا القول من غير روية ولا فكر في أمره"[2].

وأيضا ذكر المؤمن موسى عليه السلام بصيغة التنكير ﴿رَجُلًا﴾ من غير تسمية أو توصيف ليوهمهم بأنه لا يعرفه، وأنه إنما يدافع عن مبدأ لا عن شخص بعينه، ولو قال أنه مؤمن أو نبي لعلموا أنه متعصب له، ولما قبلوا قوله.[3]

ثم لما ذكر لهم علة قتلهم موسى عليه السلام قال: ﴿أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ ولم يقل رجلا مؤمنا بربه أو هو رسول من رسل الله، بل هو رجل يدّعي أن ربه الله، لئلا يتوهموا أنه متعصب له فلا يقبلوا قوله، وسعى لحفظ موسى عليه السلام من القتل بفتح باب المجادلة في شأنه لتشكيك فرعون في تكذيبه بموسى عليه السلام، ومن بلاغة تخير المفردات أن المؤمن اختص اسم (الله) بالذكر؛ "لأنه الذي ذكره موسى [عليه السلام] ولم يكن من أسماء آلهة القبط"[4].

قال ابن عاشور: "الاستفهام في ﴿أَتَقۡتُلُونَ﴾ استفهام إنكار، أي يقبح بكم أن تقتلوا نفسا لأنه يقول ربي الله، أي ولم يجبركم على أن تؤمنوا به، ولكنه قال لكم قولا فاقبلوه أو ارفضوه، فهذا محمل قوله: ﴿أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ وهو الذي يمكن الجمع بينه وبين كون هذا الرجل يكتم إيمانه"[5].

---

١) انظر: مفاتيح الغيب للفخر الرازي (٢٧/٥٠٩). وتفسير المراغي (٢٤/٦٥).

٢) الكشاف (٤/١٦٢).

٣) انظر: البحر المحيط لأبي حيان (٩/٢٥٣).

٤) التحرير والتنوير لابن عاشور (٢٤/١٢٩). وانظر: تأويلات أهل السنة للماتريدي (٩/٢٢).

٥) التحرير والتنوير (٢٤/١٢٩).

وقال عبد الكريم الخطيب[1]: "لقد كان من تدبير الرجل المؤمن -وهو رجل سياسة وملك- أن يجلس إلى فرعون المجلس الذي اعتاده منه، مجلس إبداء الرأي، وعرض النصيحة، في معرض تبادل الآراء، وتقليب وجوهها لا أكثر ولا أقل، ومن هنا يكون للرجل أن يقول ما يشاء من آراء، ويبدى ما يرى من حجج، وأن يجد لذلك من فرعون أذنا تسمع، وعقلا يعقل، وإنه لا بأس على فرعون أن يأخذ بالرأي الذي يخلص به من بين تلك الآراء، إنه حينئذ يكون هو الذي يعطى الرأي ولا يأخذه، ويصدر الحكم، ولا يتلقاه!! ومن هنا نجد الرجل المؤمن -بهذا التدبير الحكيم- قد استطاع أن يعرض قضية الإيمان بالله، في وضوح وجلاء، وأن يقدمها إلى فرعون في جو هادئ، لا تعكر صفوه الأعاصير المحملة برجوم الردع والتحدي"[2].

٣) قوله تعالى: ﴿وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾: وهذا ارتقاء في الحجاج بعد أن استأنس في خطاب قومه بالكلام الموجه فارتقى إلى التصريح بتصديق موسى عليه السلام بعلة أنه جاء بالبينات، أي الحجج الواضحة بصدقه، وإلى التصريح بأن الذي سماه (الله) في قوله: ﴿أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ﴾ هو رب المخاطبين فقال: ﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾، ونرى فيه أن المؤمن يعمد إلى أسلوب الاستدراج حين يستشهد على صدق رسالة موسى عليه السلام فيقول: (البينات) بصيغة الجمع فهي عدة بينات لا بينة واحدة، وأتى بها مُعرَّفة، أي: البينات العظيمة التي شهدتموها وعرفتموها على ذلك، ويقول أيضا: ﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾، وهو استدراج لهم إلى الاعتراف به، واستنزال لهم عن رتبة المكابرة، وليلين بذلك جماحهم، ويكسر من سورتهم[3].

قال الألوسي: "وفي ﴿أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ﴾ إلى ﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾ نكتة جليلة، وهي أن من يقولُ ربي الله أو فلان لا يقتضي أن يقابل بالقتل كما لا تقابلون بالقتل إذا قلتم: ربنا فرعون، كيف وقد جعل ربه من هو ربكم، فكان عليكم بأن تعزروه وتوقروه لا أن تخذلوه وتقتلوه"[4].

---

١) هو عبد الكريم محمود يونس أحمد حسن الخطيب، ولد بصعيد مصر عام ١٣٢٨هـ، شارك في إخراج مجموعة من المؤلفات الدينية والأدبية تربو على الخمسين كتاباً، وفرغ من كتابه (التفسير القرآني للقرآن) في عام ١٣٩٠هـ، وكتب المئات من المقالات في الصحف المصرية والعربية، والمئات من الأحاديث الدينية في الإذاعات المسموعة والمرئية في مصر، وفي السعودية حيث أتيح له أن يعمل أستاذاً للدراسات العليا بكلية الشريعة في الرياض في عام ١٣٩٤هـ والعام الذي بعده، توفي سنة ١٤٠٦هـ، -رحمه الله تعالى رحمة واسعة-. انظر: تكملة معجم المؤلفين لمحمد خير يوسف (١/٣٢٠-٣٢١).

٢) التفسير القرآني للقرآن (١٢/١٢٢٧).

٣ انظر: الكشاف للزمخشري (٤/١٦٢). وإرشاد العقل السليم لأبي السعود (٧/٢٧٤). والتحرير والتنوير لابن عاشور (٢٤/١٢٩). والإعجاز البياني في قصة مؤمن آل فرعون لماجد الماجد (١/١-٤٠).

٤) روح المعاني (١٢/٣١٧).

والحقيقة أنه كان لهذه الجملة ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾ تأثيرا كبيرا على فرعون حمله على أقل تقدير للتريث في قتل موسى عليه السلام، وقد ذكرها أبو بكر رضي الله عنها في دفاعه عن النبي ﷺ، فموقفه رضي الله عنه مشابه أو مقتبس من موقف المؤمن إلى حد بعيد، كأنما استفاده من آيات قصته، وتمثل بها لفقهه وقوة فهمه لآيات الكتاب الحكيم، ففي الحديث الصحيح عن عروة بن الزبير، قال: سألت عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، عن أشد ما صنع المشركون برسول الله ﷺ، قال: (رأيت عقبة بن أبي معيط، جاء إلى النبي ﷺ وهو يصلي، فوضع رداءه في عنقه فخنقه به خنقا شديدا، فجاء أبو بكر حتى دفعه عنه، فقال: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾).[1]

٤) قوله تعالى: ﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾: لما كانت الجملة السابقة ارتقاء في الحجاج مع الاستدراج، أتى بهذه المقولة لخفض تصريح المؤمن بإيمانه، لأنه لما كاد كلامه يفصح عن إيمانه الصريح، وصله بما يشككهم في أمره ويوقفهم عن ضره، فأخذهم بالاحتجاج من باب الاحتياط بطريق التقسيم، وفرض لهم أسوأ الفروض، وجعل الأمر محتملا، ورجع إلى ضرب من إيهام الشك في صدق موسى عليه السلام ليكون كلامه مشتملا على احتمالي تصديق وتكذيب يتداولهما في كلامه، فلا يؤخذ عليه أنه مصدق لموسى عليه السلام بل يخيل إليهم أنه في حالة نظر وتأمل ليسوق فرعون وملأه إلى أدلة صدق موسى عليه السلام بوجه لا يثير نفورهم، ويستنزلهم للنظر في آياته وأن لا يتعجلوا بقتله ولا باتباعه إلا بعد أن يتبينوا وينظروا فيما تحداهم به وأنذرهم منه، وهذا من حسن عقله، ولطف دفعه عن موسى عليه السلام، حيث أتى بهذا الجواب الذي لا تشويش فيه عليهم، وهذه حجة ثانية ذكرها المؤمن في أن الإقدام على قتل موسى عليه السلام غير جائز، وهي حجة مذكورة على طريقة التقسيم، ومقالة عقلية تقنع كل عاقل بأي حالة قدرت، فإنه لا يخلو من أن يكون كاذبا أو صادقا، فسلك معهم طريق الإنصاف والملاطفة في القول، وأتاهم من جهة المناصحة ليكون أدعى إلى سكونهم إليه.[2]

وقدّم احتمال كذبه على احتمال صدقه زيادة في التباعد عن ظنهم به الانتصار لموسى عليه السلام ونفيا لتهمة الإيمان عنه، فأراد أن يظهر في مظهر المهتم بأمر قومه ابتداء، والمهون لأمر موسى عليه السلام ثانيا، والمحذر

---

١) صحيح البخاري، كتاب أصحاب النبي ﷺ، وباب قول النبي ﷺ: ((لو كنت متخذا خليلا))، برقم "٣٦٧٨" (١٠/٥).

٢) انظر: مفاتيح الغيب للفخر الرازي (٥٠٩/٢٧). وأنوار التنزيل للبيضاوي (٥٦/٥). ونظم الدرر للبقاعي (٥٤/١٧). وتيسير الكريم الرحمن للسعدي (٧٣٦/١). والتحرير والتنوير لابن عاشور (١٣٠/٢٤).

من الإسراع بالكفر بموسى عليه السلام ثالثا، فهوّن الأمر بأن فرض لهم كذبه في آياته ووعيده، فحينئذ لن يقع شيء مما يتوعد به، ولن يقدر على ضرهم بشيء، بل سيعود كذبه عليه بأن يوسم بالكاذب، ولن يهتدي لوجه يخلصه. ثم حذرهم بأن فرض لهم صدقه في آياته ووعيده، فحينئذ لابد وأن يصيبهم بعض الذي يعدهم به، ولن يهتدوا حينها لما ينجيهم، فيحسن احتياطهم لهذا الاحتمال، وعدم التعرض لنتائجه.

وتقديم الكاذب على الصادق هنا، متناسب والأسلوب القرآني في تقديم ما يسر به المخاطب، ويميل إليه، كما في قوله تعالى حين قدم احتمال أن تكون امرأة العزيز صادقة على احتمال صدق يوسف عليه السلام: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾﴾ يوسف:٢٦-٢٧، فكذب يوسف عليه السلام المحتمل أقرب إلى نفس المخاطَب عزيز مصر، كما أن كذب موسى عليه السلام أقرب إلى نفس فرعون، ولذا "قدم الشاهد أمارة صدقها على أمارة صدق يوسف [عليه السلام]، وإن كان الصادق هو يوسف [عليه السلام] دونها، لرفع التهمة وإبعاد الظن، وإدلالاً بأن الحق معه، ولا يضره التأخير لهذه الفائدة، وقريب من هذا التصرف لإبعاد التهمة، ما في قصة يوسف [عليه السلام] مع أخيه، إذ بدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه"[١].

وقوله: ﴿بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾ وهذا ترقيق للكلام في الوعظ، فـ (بعض) قد يستعمل في موضع (كل) تلطفاً في الخطاب وتوسعاً في الكلام، كما قال الشاعر:

قد يُدرِكُ المتأني بَعضَ حاجَتِهِ ... وقد يكونُ مع المستَعجِلِ الزَّلَلُ[٢]

وقد سلك بهذا المؤمن معهم طريق المناصحة لهم والمداراة، فجاء بما هو أقرب إلى تسليمهم، وأدخل في تصديقهم له، وأدعى إلى قبول نصحه، ليسمعوا منه ولا يردوا عليه نصيحته، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾ سبأ:٢٤، فقال لهم كلام المنصف في مقابلة المشتط، وذلك أنه حين فرض صدق موسى عليه السلام فقد أثبت أنه صادق في جميع ما يعد به، لكنه أردف بقوله:

١) انظر: نظم الدرر للبقاعي (١٧/٥٦-٥٧). ومحاسن التأويل للقاسمي (٨/٣٠٧). والتحرير والتنوير لابن عاشور (٢٤/١٣٠). والإعجاز البياني في قصة مؤمن آل فرعون لماجد الماجد (١/١-٤٠).

٢) انظر: النكت والعيون للماوردي (٥/١٥٣). والجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٥/٣٠٧).

والبيت للشاعر القطامي عمرو بن شييم، انظر: جمهرة أشعار العرب للخطاب القرشي (١/٧٣). والمحرر الوجيز لابن عطية (٤/٥٥٦).

﴿بَعۡضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمۡ﴾ ليهضمه بعض حقه في ظاهر الكلام، فيريهم أنه ليس بكلام من أعطاه حقه وافيا، فضلا عن أن يتعصب له.[1]

وفي قوله: ﴿بَعۡضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمۡ﴾ مسألة لطيفة، وهي أن الرسل عليهم الصلاة والسلام إذا وعدوا وعْداً وقع الوعدُ بأسره لا بعضه، والوجه في ذلك على أقوال:

- الأول: أن بعض بمعنى كل، أي يصبكم كل الذي يعدكم به، باعتبار أن بعض ما لا يتجزأ يشمل جميعه، إذ لا وجود له بدون سائره.[2]

- الثاني: أن هذا باب من النظَرِ يذهب فيه المناظرِ إلى الزام الحجة بأيْسَرِ ما في الأمر، وليس في هذا نفي إصابة الكل، وكأن مُؤمِنَ آل فرعونَ قال لهم: أقل مَا يكون في صدقه أن يُصِيبَكُمْ بعضُ الذي يعدكم، وفي بعض ذَلِك هَلَاكُكُمْ، وهذا تأكيد لإلزام الحجة عليهم والتخويف، لأن البعض إذا كان فيه هلاكهم فالكل أعظم ضررا، وأشد هلاكا.[3]

- الثالث: أنه بمعنى يصبكم بوارقه وبداياته لتعلموا صدقه فتتبعوه، فإن استمررتم على العناد يصبكم جميع ما توعدكم به.[4]

- الرابع: أنه كان وعده إياهم أن يصيبهم العذاب في الدنيا والآخرة، فقال: ﴿يُصِبۡكُم بَعۡضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمۡ﴾، ومراده ما وعد لهم أن يصيبهم في الدنيا، وأما ما وعد لهم في الآخرة، فهو يصيبهم في وقت آخر وهو في الآخرة، فما أصابهم في الدنيا فهو بعض ما جرى الوعيد منه لهم؛ لأن الوعيد كان منه في الدنيا والآخرة.[5]

- الخامس: أنه كان ﷺ وعدهم بأنواع من العذاب، وقد أصابهم بعض ذلك من الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ونحو ذلك، وفي بعض ما وعدهم به هلاكهم؛ فكأنه يقول لهم: إنكم قد أصابكم

---

١) انظر: الكشاف للزمخشري (١٦٣/٤). ومفاتيح الغيب للفخر الرازي (٥٠٩/٢٧-٥١٠). والإعجاز البياني في قصة مؤمن آل فرعون لماجد الماجد (١/١-٤٠).

٢) انظر: بحر العلوم للسمرقندي (٢٠٤/٣). والكشف والبيان للثعلبي (٢٧٣/٨). وتفسير السمعاني (١٦/٥). ومعالم التنزيل للبغوي (١١٠/٤).

٣) انظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٣٧٢/٤). والهداية إلى بلوغ النهاية لمكي بن أبي طالب (٦٤٢٣/١٠). وتفسير السمعاني (١٧/٥). والمحرر الوجيز لابن عطية (٥٥٦/٤).

٤) انظر: التحرير والتنوير لابن عاشور (١٣٠/٢٤).

٥) انظر: بحر العلوم للسمرقندي (٢٠٤/٣). وتفسير القرآن العزيز لابن أبي زمنين (١٣١/٤). وتفسير السمعاني (١٧/٥). والمحرر الوجيز لابن عطية (٥٥٦/٤).

كثير من ذلك، فيصيبكم بعض ما يعدكم الذي فيه هلاككم مبالغة في الزجر؛ لما قد أصابهم ما وعد لهم من أنواع العذاب، ولم يكن وعده كذبا، فبعض ما يعدكم -وهو الهلاك- كيف يكون كذبا؟!.[1]

- السادس: أنه كان وعدهم بالعقاب إن كفروا وأنكروا، والثواب إن صدقوا وآمنوا، وعلى هذا فسيصيبهم بعض الوعد وهو أحد قسميه: إما العقاب وإما الثواب.[2]

وفي قوله: ﴿يَعِدُكُمْ﴾ من الوعد دون أن يقول: (يوعدكم) من الوعيد نكتة جليلة، وهي أنها تصلح للثواب والعقاب، فيصيبكم إن كان صادقا فآمنتم به ما يعدكم به من الخير والثواب الدنيوي والأخروي، ويصيبكم إن كان صادقا وكفرتم به ما يتوعدكم به من الشر والعقاب الدنيوي والأخروي، فاشتملت الكلمة على جانبي الترغيب والترهيب على وجازتها.

قال البقاعي: "والآية من الاحتباك: ذكر اختصاصه بضر الكذب أولاً دليلاً على ضده وهو اختصاصه بنفع الصدق ثانياً، وإصابتهم ثانياً دليلاً على إصابته أولاً، وسره أنه ذكر الضار في الموضعين، لأنه أنفع في الوعظ، لأن من شأن النفس الإسراع في الهرب منه"[3].

وخلاصة مراد المؤمن من كلامه هذا أن يقول لقومه: لا حاجة بكم في دفع شر موسى أن تقتلوه بل يكفيكم أن تمنعوه عن إظهار هذه المقالة ثم تتركوا قتله، فإن كان كاذباً فحينئذ لا يعود ضرره إلا إليه، وإن يك صادقاً انتفعتم بوعده أو تضررتم من وعيده، فالمؤمن يستدرج قومه ويتنزل لهم في المخاصمة بالاكتفاء على أيسر التقادير وأقلها، "ولم يكن ذلك لشكٍ منه في رسالته وصدقه، ولكنْ تلطفاً في الاستكفاف، واستنزالاً عن الأذى"[4].

٥) قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾: ختمت الآية بهذا التعقيب، وهي حجة ثالثة في أنه لا يجوز إيذاء موسى عليه السلام، ولكنه محتمل لأمرين:

الأمر الأول: أن يكون من بقية كلام المؤمن، وهو صالح لأن يراد به ثلاثة (موسى عليه السلام، وفرعون، وقوم فرعون):

١) انظر: تأويلات أهل السنة للماتريدي (٢٣/٩).

٢) انظر: تفسير السمعاني (١٧/٥). والمحرر الوجيز لابن عطية (٥٥٦/٤).

٣) نظم الدرر (٥٥/١٧).

٤) النكت والعيون للماوردي (١٥٣/٥). وانظر: مفاتيح الغيب للفخر الرازي (٥١٠/٢٧). والإعجاز البياني في قصة مؤمن آل فرعون لماجد الماجد (٤٠-١/١).

- فيصح أن المؤمن أراد التعريض بفرعون، لكونه مسرف متجاوز للحد في الكفر والإفساد، وكذاب بالحيل والتمويهات، وهذا سبب بارز في حرمانه من الهداية للحق والتوفيق للصواب، فالله يهدي ويرشد ويوفق من كان مقتصدا صادقا، وعليه فإن الخير لقومه في أن يفكروا بعقولهم ويتدبروا لا أن يتبعوا فرعون الضال المحروم من الهداية، والهادي إلى الضلالة، المدعي للألوهية والربوبية.

- ويصح أنه أراد موسى عليه السلام وأشار إلى علو شأنه وعلل به قوله تعالى: ﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيۡهِ كَذِبُهُۥۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبۡكُم بَعۡضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمۡۖ﴾ أي هو على الهدى، ولو كان مسرفا كذابا لما هداه الله إلى النبوة، ولما عضده بالبينات. وإن كان مسرفا كذابا فإن الله لا يقره على كذبه، ولا يلبث أن يفضح أمره أو يهلكه فتتخلصون منه، كما قال تعالى: ﴿وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ ﴿٤٦﴾﴾ الحاقة: ٤٤-٤٦، لأن الله لا يمهل الكاذب عليه، ولأنه إذا جاءكم بخوارق العادات فقد تبين صدقه، لأن الله لا يخرق العادة بعد تحدي المتحدي بها إلا ليجعلها أمارة على أنه مرسل منه، فتصديق الكاذب محال على الله تعالى.

-ويصح أنه أراد به المخاطَبين من قومه، فإنهم إذا تبين لهم الحق بالبرهان والبينات، فلا سبيل لهم إلى الكفر بها إلا أن يسرفوا على أنفسهم بالكفر جحودا واستكبارا، وينكروا آيات الله كذبا وبهتانا، فحينئذ لا يهديهم ولا يرشدهم الله، فعليهم ألا يفعلوا ذلك إن أرادوا الخير لأنفسهم، فإن شر الناس من يعرف الحق ويأباه.

الأمر الثاني: أن تكون جملة اعتراضية بين كلاميّ مؤمن آل فرعون وليست من حكاية كلامه وإنما هي قول من جانب الله في قرآنه، والمقصود بها: تزكية هذا الرجل المؤمن إذ هداه الله وأرشده ووفقه للحق، وأنه تقي صادق، فيكون نفي الهداية عن المسرف الكذاب كناية عن تقوى هذا الرجل وصدقه لأنه نطق عن هدى، والله لا يعطي الهدى من هو مسرف كذاب.[1]

٦) قوله تعالى: ﴿يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَاۚ﴾: بعد أن أقام المؤمن أنواع الدلائل على أنه لا يجوز الإقدام على قتل موسى عليه السلام، بدأ يخوفهم في ذلك بعذاب الله، ويمضي في موعظته لما توسم نهوض حجته بينهم وأنها داخلت نفوسهم إظهاراً للنصيحة لهم

١) انظر: بحر العلوم للسمرقندي (٢٠٤/٣). والكشاف للزمخشري (١٦٣/٤). ومفاتيح الغيب للفخر الرازي (٥١٠/٢٧). والتحرير والتنوير لابن عاشور (١٣٠/٢٤-١٣١).

والتحسر عليهم، فيقول مذكراً لهم بنعمة الله عليهم بملك مصر، ومحذراً لهم من سلبها، مستعطفاً بذكر أنه منهم، مناديا لهم بعنوان أنهم قومه، وهذا لا يخفى ما فيه من الاستصغاء لنصحه وترقيق قلوبهم لقوله، وتقريبهم إلى قبول وعظه.

قال ابن عطية: "قول هذا المؤمن: ﴿ يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ ﴾ استنزال لهم ووعظ لهم من جهة شهواتهم، وتحذير من زوال ترفتهم، ونصيحة لهم في أمر دنياهم"[1]، فإن الملك أعظم مراتب الدنيا وأجلها، وزواله من أشد أمور الدنيا وأقساها.

وسيتكرر نداء المؤمن لقومه لما يتضمنه التكرار من إظهار حدبه وحرصه على قومه، ولما فيه من التنبيه والإيقاظ من الغفلة.

قال ابن عاشور: "أدخل قومه في الخطاب فناداهم ليستهويهم إلى تعضيده أمام فرعون فلا يجد فرعون بدا من الانصياع إلى اتفاقهم وتظاهرهم، وأيضا فإن تشريك قومه في الموعظة أدخل في باب النصيحة، فابتدأ بنصح فرعون لأنه الذي بيده الأمر والنهي، وثنّى بنصيحة الحاضرين من قومه تحذيرا لهم من مصائب تصيبهم من جراء امتثالهم أمر فرعون بقتل موسى [عليه السلام] فإن ذلك يهمهم كما يهم فرعون"[2].

وعبّر بأسلوب الخطاب ﴿ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ﴾ دون التكلم تصريحاً بالمقصود وهو التذكير بنعمة الله عليهم، والتمهيد لتخويفهم من غضب الله، يعني: لا تغرنكم عظمتكم وملككم واستعلاؤكم فإنها معرضة للزوال إن غضب الله عليكم، ولن تجدوا من يعصمكم من عذابه، فلا تفسدوا أمركم وملككم على أنفسكم بأيديكم، والمقصود: تخويف فرعون من زوال ملكه، ولكنه جعل الملك لقومه لتجنب مواجهة فرعون بفرض زوال ملكه، فأعلمهم أن لهم الملك في حال ظهورهم على جميع الناس بأرض مصر، ثم أعلمهم أن بأس اللّه لا يدفعه دافع ولا ينصر منه ناصر، ونبههم على ما يعرفونه من تقلبات الدهر بقوله: ﴿ٱلۡيَوۡمَ ﴾ وما زال أهل البلاء يتوقعون الرخاء، وأهل الرخاء يتوقعون البلاء.

ولما علموا أنهم يملكون أرض مصر وحدها، ولا يملكون جميع الكون، تسبب عنه أن للكل مالكا هو الإله الحق والملك المطلق الذي لا مانع لما يريد، فلا ينبغي لأحد من عبيده أن يتعرض إلى ما لا قبل له به من سخطه، فلذلك قال: ﴿ فَمَن يَنصُرُنَا ﴾ أي أنا وأنتم، أدرج نفسه فيهم عند ذكر الشر بعد إفراده لهم

---

١) المحرر الوجيز (٥٥٧/٤).

٢) التحرير والتنوير (١٣٢/٢٤).

بالملك تطييبا لقلوبهم وإيذانا بأنه ناصح لهم، ساع في تحصيل ما يجديهم ودفع ما يرديهم سعيه في حق نفسه، ليريهم أنه يحب لقومه ما يحبه لنفسه، وأنه يأبى لهم ما يأباه لنفسه، وأن المصيبة إن حلت لا تصيبهم دونه، إبعاداً للتهمة، وحثاً على قبول النصيحة، ورجاء أن ينظروا إلى تحذيره باهتمام، ويأخذوه مأخذ البراءة والإخلاص. ونبه بأداة الشك ﴿إِن﴾ على أن عذابه لهم أمر ممكن، والعاقل من يجوّز الجائز ويسعى في التحرز منه فقال: ﴿إِن جَآءَنَا﴾ أي غضباً لهذا الذي يدّعي أنه أرسله، ويجوز أن يكون صادقاً، بل يجب اعتقاد ذلك لما أظهره من الدلائل، فإن كنتم قادرين على قتل موسى -عليه السلام- فالله قادر على إهلاككم، وفي قوله هذا تسجيل عليهم بأنهم يعرفون أن الله ملك الملوك ورب الأرباب، وكذا قول موسى عليه السلام لفرعون: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الإسراء:١٠٢، وأن ادعاء فرعون الإلهية إنما هو محض عناد.[١]

٧) قوله تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾: لما استمرت موعظة المؤمن والجميع في إنصات له واستماع مما يدل على نوع نفوذ لهذه الموعظة مهما كانت درجتها، وكان لسكوت فرعون إعطاء مزيد من الفرصة للمخاطبين في التأثر والاقتناع، وقد سمع فرعون ما لا طعن له فيه، وتفطن إلى أنه المعرض به في خطاب الرجل المؤمن قومه، وخاف من قومه أن ينزلوا عند رأيه، وخاف كذلك من قومه إن هو تعرض للمؤمن بأي أذى، وكانت الأقوال السابقة تقتضي زوال هيبته، حينها قاطع فرعون كلامه، وأخذته العزة بالإثم، ورأى في النصح الخالص افتياتا على سلطانه، ونقصا من نفوذه، فجاء بمراوغة يوهم بها قومه أنه لهم من النصيحة والرعاية بمكان مكين، وأنه لا يسلك بهم إلا مسلكا يكون فيه جلب النفع لهم ودفع الضر عنهم، وبيّن سبب عزمه على قتل موسى -عليه السلام-، وبأنه صاحب أجود الآراء في مملكته بدليل حنكته في إدارة سلطانه، وأنه لا يشير على قومه إلا بما يراه الصواب في حقه وحقهم، ولا يرى لهم نفعا في غيره، فقتله راحة، وحسم وقطع لمادة الفتنة، ودفع لتبديل دينكم وإظهار الفساد في أرضكم بإظهار موسى -عليه السلام- لدينه وأحكامه، والبأس السماوي من أجل قتله أمر متوهم فاتباعه غلط، وهذا ما يظهره ويبطنه لهم دون غش أو دسيسة، ولا يدلهم بذلك إلا إلى طريق السلامة والصواب والرشاد،

---

١) انظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٣٧٢/٤). وبحر العلوم للسمرقندي (٢٠٤/٣). والكشف والبيان للثعلبي (٢٧٤/٨). ومفاتيح الغيب للفخر الرازي (٥١١/٢٧). ونظم الدرر للبقاعي (٥٧/١٧-٥٨). وروح المعاني للألوسي (٣١٨/١٢). وفي ظلال القرآن لسيد قطب (٣٠٨٠/٥). والتحرير والتنوير لابن عاشور (١٣١/٢٤-١٣٢).

وكأنه يعرِّض بأن كلام مؤمنهم سفاهة رأي، مع أنّ الدافع الحقيقي لقوله هذا، هو التخلص من موسى –عليه السلام– حتى يخلو له الجو في تأليه نفسه على جهلة قومه.

ولما كان كلام فرعون قد صدر مصدر المقاطعة لكلام المؤمن جاء فعلُ قولِ فرعونَ مفصولا غير معطوف، وهي طريقة حكاية المقاولات والمحاورة.[1]

قال الزمخشري: "﴿ مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ ﴾ أي: ما أشير عليكم برأي إلا بما أرى من قتله، يعني: لا أستصوب إلا قتله، وهذا الذي تقولونه غير صواب، وما أهديكم بهذا الرأي إلا سبيل الرشاد، يريد: سبيل الصواب والصلاح. أو ما أعلمكم إلا ما أعلم من الصواب، ولا أدخر منه شيئا، ولا أسر عنكم خلاف ما أظهر، يعني أن لسانه وقلبه متواطئان على ما يقول، وقد كذب، فقد كان مستشعرا للخوف الشديد من جهة موسى [عليه السلام]، ولكنه كان يتجلد، ولولا استشعاره لم يستشر أحدا، ولم يقف الأمر على الإشارة"[2]، وقد كان سفَّاكاً جبّاراً، فما منعه إلا خوف الهلاك إن مدّ يده إليه، فقوله قول من لا تحكم له ولا تماسك في الحقيقة.

٨) قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ ﴾: لما كان منطق الفراعنة والجبابرة الاستبداد والعناد والطغيان، رضخ أكثر الناس لحكمهم وأذعنوا واستسلموا، "لكنّ الرجل المؤمن يجد من إيمانه غير هذا، ويجد أن عليه واجبا أن يحذر وينصح ويبدي من الرأي ما يراه [الصواب]، ويرى من الواجب عليه أن يقف إلى جوار الحق الذي يعتقده كائنا ما كان رأي الطغاة، [و]يطرق قلوبهم بإيقاعٍ آخرَ لعلها تحس وتستيقظ وترتعش وتلين، يطرق قلوبهم بلفتها على مصارع الأحزاب قبلهم وهي شاهدة ببأس الله في أخذ المكذبين والطغاة"[3]، فبعد أن كذّب فرعون وأعرض عن نصيحة المؤمن، يزيدهم المؤمن في الوعظ، ويلجأ إلى معان أخرى مغايرة لما استهل به كلامه، فلا ذكر للمُلْك وسلطانه، بل هو التذكير بعقاب الأمم المكذبة وفق ترتيبها الزمني، ضاما إليه التخويف بعقاب الآخرة، مستشهدا بتاريخ قومه ودعوة يوسف عليه السلام من قبل.

---

١) انظر: المحرر الوجيز لابن عطية (٥٥٧/٤). ومفاتيح الغيب للفخر الرازي (٥١١/٢٧). ونظم الدرر للبقاعي (٥٩/١٧). وروح البيان لإسماعيل حقي (١٧٨/٨). ومحاسن التأويل للقاسمي (٣٠٨/٨). وتفسير المراغي (٦٥/٢٤). وفي ظلال القرآن لسيد قطب (٣٠٨٠/٥). والتحرير والتنوير لابن عاشور (١٣٢/٢٤). والتفسير الوسيط لطنطاوي (٢٨٧/١٢).

٢) الكشاف (١٦٤/٤).

٣) في ظلال القرآن لسيد قطب (٣٠٨٠/٥).

قال أبو حيان: " لما رأى ما لحق فرعون من الخور والخوف، أتى بنوع آخر من التهديد، وخوفهم أن يصيبهم ما أصاب الأمم السابقة من استئصال الهلاك حين كذبوا رسلهم، وقويت نفسه حتى سرد عليه ما سرد، ولم يهب فرعون"[١].

ولما كان هذا تكملة لكلام الذي آمن ولم يكن فيه تعريج على كلام فرعون عطف فعل قوله بالواو ليتصل كلامه بالكلام الذي قبله، ولئلا يتوهم أنه قصد به مراجعة فرعون ولكنه قصد إكمال خطابه، ولما كان قول فرعون فيه مقاطعة لكلام المؤمن ومحاولة لصرف الحوار عن الوجهة المرادة، لم يعلق المؤمن على كلام فرعون أدنى تعليق، واسترسل يكمل كلامه وموعظته، بل قد أحسّ من مقاطعة فرعون له بأنه قد ذلّ وتزلل وعجز عن مواجهته ومصارحته، فارتفع إلى أصرح من الأسلوب الأول، وترك أسلوب الاحتمالات وانتقل إلى الاحتمال الواحد، ومضى في التذكير بالآيات منصرفاً عن موسى عليه السلام ودعوته كأنها لا تقبل الجدل لصحتها، والأجدى منه ذكر المعاقبين الغابرين، قوم نوح -عليه السلام- وعاد وثمود، وفق سرد يتناسب والترتب الزمني بادئا بالأقدم فالأقرب، وهو ما يتضمن إشارة جلية إلى ثقافة تاريخية سائدة بين تلك الأمم الغابرة رغم تباعدهم زمانا ومكانا، ذلك أن المؤمن لن يخاطب قومه إلا بما يعرفون ليتم المقصود.

فقال المؤمن -بعد قول فرعون لكلام بارد يدل على ذلّه وخوفه وعجزه وجهله- موجها خطابه كالعادة إلى قومه، مظهرا خوفه عليهم أن ينزل بهم من العذاب العاجل ما نزل على من سبقهم من الأمم المتحزبة ضد أنبيائهم كبرا وجحودا، برغم الآيات البينات التي أتوا بها لأقوامهم من مثل قوم نوح -عليه السلام- وعاد وثمود وغيرهم، وفي ذكر الأقوام الهالكة تفسير للإبهام والإجمال في قوله ﴿ٱلۡأَحۡزَابِ﴾.

وفي الآية أيضا إلماح إلى التناسب المعنوي بين قوم نوح عليه السلام وقوم فرعون لاتحادهما في العذاب المنزّل بهم وهو الإغراق، قال البقاعي: "ولما أجمل فصَّل وبيَّن، أو بدَّل بعد أن هوَّل، فقال بادئاً بمن كان عذابهم مثل عذابهم، ودأبهم شبيهاً بدأبهم: ﴿مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ ...﴾"[٢].

---

١) البحر المحيط (٩/٢٥٥).

٢) نظم الدرر للبقاعي (١٧/٦٠). وانظر: الإعجاز البياني في قصة مؤمن آل فرعون لماجد الماجد (١/١-٤٠).

وإفراد قوله تعالى: ﴿يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ﴾ أخف في اللفظ وأخصر وأروع وأقوى في التخويف وأفظع للإشارة إلى قوة الله تعالى، وأنه قادر على إهلاكهم في أقل زمان. والمراد بيوم الأحزاب يوم إهلاكهم وعذابهم، والعرب يطلقون اليوم على يوم الغالب ويوم المغلوب.[١]

ولما كان هؤلاء -قوم نوح عليه السلام وعاد وثمود- أقوى الأمم، اكتفى بهم وأجمل من بعدهم فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾.[٢]

وفي هذا التحذير بعاقبة الأمم الهالكة إشارة بليغة إلى خطورة قتل موسى عليه السلام، ذلك أن تلك الأمم من مثل قوم نوح -عليه السلام- وعاد وثمود ما هلكت وعذّبت عذابا شديدا إلا لأجل كفرهم وتكذيبهم برسل الله عليهم السلام دون قتلهم لهم، فكيف ستكون معاقبة الله لمن قتل رسوله؟! لا شك أنها ستكون أشد وأفظع. وهذا من الترهيب والوعيد الموغل العميق؛ وأثره ظاهر ولابد فيمن يفهم الخطاب من السامعين.

٩) قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾: الظاهر أنه من بقية كلام المؤمن، لئلا يربط أحد بين إهلاك الأمم والقرى وبين ظلمهم بذلك، فأخبر أنه أهلكهم الله وما ظلمهم بذلك، فلا هو عاقب أحدا بذنب غيره، ولا أخذ مجرما بجريمة آخر، ولا زاد أحدا على قدر ما يستحق من العذاب، ولا أنقص أحدا شيئا من ثواب حسناته، ولا ترك ظالما من غير قصاص وانتقام، فكان تدميرهم عدلا وقسطا؛ لأنهم استوجبوه بأعمالهم بعد علمهم وبيان الحق لهم.

قال البقاعي: "ولما كان في مقام الوعظ لهم، ومراده ردهم عن غيهم بكل حال، علق الأمر بالإرادة لأنها متى ارتفعت انتفى الظلم، ونكّر تعميماً فقال: ﴿يُرِيدُ ظُلْمًا﴾ أي يتجدد منه أن يعلق إرادته وقتاً ما بنوع ظلم ﴿لِّلْعِبَادِ﴾ لأن أحدا لا يتوجه أبداً إلى أنه يظلم عبيده الذين هم تحت قهره، وطوع مشيئته وأمره، ومتى لم يعرفوا حقه وأرادوا البغي على من يعرف حقه عاقبهم ولابد، وإلا كان كفه ظلماً للمبغي عليهم"[٣].

وفي تنكير ﴿ظُلْمًا﴾ دلالة بليغة تفيد العموم والشمول لكل ظلم كبر أو صغر، ونفي النكرة أشمل ليدل على تمام تنزيه الباري سبحانه عن جنس الظلم ونوعه وآحاده.

---

١) انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٣١٠/١٥). ونظم الدرر للبقاعي (٥٩/١٧-٦٠). وتفسير السمعاني (١٨/٥). والتحرير والتنوير لابن عاشور (١٣٣/٢٤-١٣٤).

٢) انظر: نظم الدرر للبقاعي (٦٠/١٧). والإعجاز البياني في قصة مؤمن آل فرعون لماجد الماجد (١/١-٤٠).

٣) نظم الدرر (٦٠/١٧). وانظر: الكشاف للزمخشري (١٦٥/٤).

١٠) قوله تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾﴾: لما حذرهم المؤمن أن يحل بهم في الدنيا ما حل بالأحزاب، حذرهم أمر الآخرة، فزادهم في الوعظ والتخويف، وأفصح عن إيمانه إما مستسلما موطنا نفسه على القتل، أو واثقا بأنهم لا يقصدونه بسوء، وكرر نداء قومه تعطفا لهم، لكنه في هذه المرة اتجه نحو المستقبل، إلى يوم القيامة في حركة مضادة لاتجاهه الأول الماضي (التاريخ) ليتم التقابل الخفي بين النداءين: نداء الماضي، ونداء المستقبل، فيتم بلاغ التحذير بما قد وقع وبما سيقع، فلما وعظهم بالعذاب العاجل والعقاب الدنيوي الحاصل بكل من كفر وأسرف ولم يؤمن بآيات ربه، وما نزل بأسلافهم وأوائلهم بصنيعهم مثل صنيعهم، وعظهم أيضا بعذاب الآجلة وعقاب الآخرة، وذكّرهم ببعض مشاهدها من هول التنادي الذي فيه مشقة على الكفار والعصاة والفرار بحثا عن النجاة، وما يكون منهم من الحسرة والندامة.[1]

وقد مضى في السورة ذكر لبعض أسماء يوم القيامة، وهي يوم التلاقي، ويوم الآزفة، وهنا أنذرهم المؤمن وخاف عليهم من يوم التناد، والخلق فيه وجلون خائفون ولكثرة الجمع ينادُون وينادَون للرفعة أو الضعة، وغير ذلك من الأمور المتنوعة التي مجموعها يدل على ظهور الجبروت وذلّ الخلق لما يظهر لهم من كبرياء الله وعظمته.[2]

والتنادي يوم القيامة يقع على صور متعددة، قال البقاعي: "فينادي الجبّار سبحانه بقوله: ﴿۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ يس: ٦٠، وينادونه (بلى يا ربنا)، وتنادي الملائكة بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب (يا فلان ابن فلان أقبل لفصل النزاع) وينادي ذلك العبد (ألا سمعاً وطاعة)، وينادي الفائز (ألا نعم أجر العاملين) وينادي الخائب (ألا بئس منقلب الظالمين)، وينادي أصحاب الأعراف وأهل الجنة أهل النار، وأهل النار أهل الجنة، وينادى الكل حين يذبح الموت، ويدعى كل أناس بإمامهم، وتتنادى الملائكة وقد أحاطوا بالثقلين صفوفاً مترتبة ترتب السماوات التي كانوا بها بالتسبيح والتقديس، وترتفع الأصوات بالضجيج، بعضهم بالسرور وبعضهم بالويل والثبور، وتنادي ألسن

١) انظر: المحرر الوجيز لابن عطية (٥٥٨/٤). والجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٣١٠/١٥). والبحر المحيط لأبي حيان (٢٥٥/٩). والإعجاز البياني في قصة مؤمن آل فرعون لماجد الماجد (١/١-٤٠).

٢) انظر: نظم الدرر للبقاعي (٦١/١٧).

النيران: أين الجبارون أين المتكبرون؟ وتنادي الجنة: أين المشمرون في مرضاة الله والصابرون؟ فيا له يوماً يذل فيه العصاة العتاة، ويعز المنكسرة قلوبهم من أجل الله"[1].

ولما كان مشهد القيامة وما فيها من هول التنادي ورهبة التقاضي تطيش لها العقول، فلا يلبثون أدنى برهة للتفكر واستيعاب ما يجرى، بل يفرون مدبرين لا يعقبون ولا يلوون على شيء، ويبحثون عن ملجأ أو مُدّخَلٍ أو مغارات ليتحصنوا بها قال تعالى: ﴿ يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ ﴾، فزاد الترهيب بيوم التناد بهول التولي والفرار، ثم أكده بنفي العاصم والمجير، ليمثل لهم مشهد الترهيب والتخويف أمامهم بكل تفاصيله ردعا لهم عن كفرهم وزجرا لهم عن بغيهم وظلمهم.

وذهب بعض أهل العلم إلى أن ﴿ ٱلتَّنَادِ ﴾ مشددة الدال من الندّ وهو الشرود والهروب، من ندّ يند البعير، أي يفرون من هول العذاب، ويفر بعضهم من بعض كما في قوله تعالى: ﴿ يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ٣٤ ﴾ عبس:٣٤، الآيات، وهذا المعنى موافق لما بعده ﴿ يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ ﴾ أي هاربين.

ولما كان المدبر إنما يقصد في إدباره معقلاً يمنعه ويستره أو فئة تحميه وتنصره، قال مبيناً حالهم: ﴿ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۗ ﴾ أي مانع يمنعكم مما يراد، فما لكم من عاصم أصلاً، فإنه سبحانه يجير ولا يجار عليه.[2]

وتتناسب خاتمة الآية مع مضمونها، "وجملة ﴿ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ﴾ عطف على جملة ﴿ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ ﴾ لتضمنها معنى: إني أرشدتكم إلى الحذر من يوم التنادي، وفي الكلام إيجاز بحذف جمل تدل عليها الجملة المعطوفة، والتقدير: هذا إرشاد لكم فإن هداكم الله عملتم به، وإن أعرضتم عنه فذلك لأن الله أضلكم، ومن يضلل الله فما له من هاد، وفي هذه الجملة معنى التذييل"[3].

ومن وجوه التناسب الخفي بين كلام المؤمن وكلام فرعون، أن المؤمن لا يفتأ ينقض كلام فرعون ويرد على ضلالاته، ففي قول المؤمن: ﴿ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ﴾ إشارة خفية إلى قول فرعون: ﴿ وَمَآ

---

١) نظم الدرر (١٧/٦١-٦٢). وانظر: بحر العلوم للسمرقندي (٣/٢٠٥). وتفسير القرآن العزيز لابن أبي زمنين (٤/١٣٢). والكشف والبيان للثعلبي (٨/٢٧٤).

٢) انظر: بحر العلوم للسمرقندي (٣/٢٠٥). والكشاف للزمخشري (٤/١٦٥). ونظم الدرر للبقاعي (١٧/٦٣).

٣) التحرير والتنوير لابن عاشور (٢٤/١٣٧).

﴿أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾، وتلميح بأن الهدى هدى الله، وأن من أضله الله فلا هادي له، والله يعلم من حالة الناس وحقيقتهم من يستحق الهدى ومن يستحق الضلال.[1]

ومن تناسب المعاني في كلام المؤمن، تناسب الحكم ودليله، فحين قال: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ﴾ ذكر لهذا مثلاً، وهو أن يوسف عليه السلام لما جاءهم بالبينات الباهرة، أصروا على الشك والشبهة، ولم ينتفعوا بتلك الدلائل.[2]

١١) قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَكُمۡ يُوسُفُ مِن قَبۡلُ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلۡتُمۡ فِي شَكّٖ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلۡتُمۡ لَن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِهِۦ رَسُولٗاۚ﴾: لما كان الإنسان لا يقبل الجديد فورا، بل يكثر من التأمل فيه والتشكيك حوله، وقد كان حاصل ما مضى من حالهم في أمر موسى عليه السلام أنه جاءهم بالبينات فشكّوا فيها وارتابوا، فوبخهم المؤمن على تكذيب الرسل، وذكر لهم أن قضية الرسل ورسالتها ليست بدعا من الأمر، وأن لهم فيمن مضى من أنبيائهم عبرة وآية ودعوة للهداية، وسنة الله فيمن مضى أنه يبعث الرسل والأنبياء مؤيدين بالآيات البيّنات والمعجزات الكاشفات إلى أقوام الأرض، وكان عليهم بعد ظهور البيّنات وتحققها عندهم بحكم العقل السليم أن يتبعوا آياته ويستهدوا طريق الهدى والنجاة، لكن كانت سنة كثير من الأقوام المرسَل إليها التشكيك والتكذيب، فذكّرهم المؤمن –حين توسم فيهم قلة جدوى النصح فيهم وأنهم مصممون على تكذيب موسى عليه السلام– بقديم عتوهم وصنيع أسلافهم وأوائلهم مع أحد أنبيائهم، فارتقى في موعظتهم إلى اللوم على ما مضى، وتذكيرهم بأنهم من ذرية قوم كذبوا يوسف عليه السلام لما جاءهم بالبيّنات، فتكذيب المرشدين إلى الحق شنشنة معروفة في أسلافهم فتكون سجية فيهم.

وفي الآية تناسب للمعاني في كلام المؤمن وهو أنه اختص يوسف عليه السلام بالذكر بعد التحذير؛ للمناسبة بينه وبين موسى عليه السلام، فمن التناسب بين يوسف وموسى عليهما السلام: وحدة المُرسِل جل جلاله، ووحدة الرسالة، ووحدة الأرض (مِصْر). ثم توسع فجعل مجيء يوسف عليه السلام إلى الآباء مجيئاً إلى الأبناء بوجه من الوجوه.[3]

---

١) انظر: في ظلال القرآن لسيد قطب (٣٠٨٠/٥). والإعجاز البياني في قصة مؤمن آل فرعون لماجد الماجد (١/١–٤٠).
٢) انظر: مفاتيح الغيب للفخر الرازي (٥١٢/٢٧). والإعجاز البياني في قصة مؤمن آل فرعون لماجد الماجد (١/١–٤٠).
٣) انظر: فتح القدير للشوكاني (٥٦٣/٤). والإعجاز البياني في قصة مؤمن آل فرعون لماجد الماجد (١/١–٤٠).

وبيّنات يوسف عليه السلام كانت كثيرة وواضحة، وقد رأى القوم من آياته ما سمّوه من أجلها صدّيقا، منها إخباره بما هو مغيب عنهم من أحوالهم بطريق الوحي في تعبير الرؤى، وقوله: ﴿ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ٣٩ ﴾يوسف:٣٩، وكذلك آية العصمة التي انفرد بها من بينهم وشهدت له بها امرأة العزيز وشاهِدُ أهلها عند شق القميص، حتى قال الملك: ﴿ ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ ﴾ يوسف:٥٤، وبراعته في تدبير خزائن الأرض حتى قال له الملك: ﴿ إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ ٥٤ ﴾يوسف:٥٤، فكانت دلائل نبوءة يوسف واضحة ولكنهم لم يستخلصوا منها استدلالا يقتفون به أثره في صلاح آخرتهم، وحرصوا على الانتفاع به في تدبير أمور دنياهم فأودعوه خزائن أموالهم وتدبير مملكتهم، ولم يخطر ببالهم أو لم يشاؤوا أن يسترشدوا به في سلوكهم الديني.[1]

وأشار بقوله: ﴿ فَمَا زِلۡتُمۡ فِي شَكّٖ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦۖ ﴾ إلى أنها لم تزل عادتكم وعادة أوائلكم، وقد عاتب الله في كتابه في غير ما آية الأبناء بصنيع الآباء والأجداد، والمعاصرين بصنيع أسلافهم الماضين، كقوله: ﴿ فَلِمَ تَقۡتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبۡلُ ﴾البقرة:٩١، وقوله: ﴿ ثُمَّ ٱتَّخَذۡتُمُ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ ﴾البقرة:٥١، وهؤلاء لم يقتلوا الأنبياء ولا اتخذوا العجل، وإنما فعل ذلك آباؤهم وأوائلهم، وإنما يعاتبهم بصنيع غيرهم قصدا لحمل تبعة أسلافهم عليهم، وتسجيلا عليهم بأن التكذيب للناصحين واضطراب عقولهم في الانتفاع بدلائل الصدق قد ورثوه عن أسلافهم في جبلتهم وتقرر في نفوسهم، فانتقاله إليهم جيلا بعد جيل، وليحذرهم عن مثل صنيع أولئك من التكذيب لرسلهم والرد لأدلتهم، والتقوّل كذبا على الله بعد رحيلهم من بينهم أنه لم يبعث رسولا، فيقول المؤمن لقومه: إياكم أن تكذّبوا بموسى عليه السلام وتردوا آياته وحججه، ثم تقولوا إذا مات ﴿ لَن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِهِۦ رَسُولٗاۚ ﴾ كما قال أوائلكم حين مات يوسف عليه السلام إنه لن يكون من بعده رسول. وهذا قول جرى منهم على عادة المعاندين الحاسدين والمقاومين لأهل الإصلاح والفضل، أن يعترفوا ويقروا بفضلهم بعد الموت تندما على ما فاتهم من خير كانوا يدعونهم إليه. أو قالوه من عند أنفسهم بغير دليلٍ كراهةً لما جاء به وتضجرا منه وجهلاً بالله، ولسان حالهم: أنّا كنا مترددين في الإيمان بيوسف فقد استرحنا من التردد، فإنه لا يجيء من يدّعي الرسالة عن الله من بعده، ولن يجدد الله علينا الحجة بعد اليوم. وربما لنفوذ يوسف عليه السلام الدنيوي صانعوه ولم يجاهروا بتكذيبه وهو على عرشه، فلما

١) انظر: معالم التنزيل للبغوي (١١٢/٤). وزاد المسير لابن الجوزي (٣٧/٤). والجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٣١٢/١٥). والبحر المحيط لأبي حيان (٢٥٦/٩). والفواتح الإلهية للشيخ علوان (٢٦٢/٢). والتفسير القرآني للقرآن لعبد الكريم الخطيب (١٢٣٢/١٢). والتحرير والتنوير لابن عاشور (١٣٩/٢٤).

مات قالوا مقولة من استراح لموته، أو "أرادوا بقولهم: ﴿لَن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِهِۦ رَسُولٗاۚ﴾ تكذيب رسالته ورسالة غيره، أي لا رسول فيبعث، فهم بعد الشك بتّوا بهذا التكذيب فيكون ذلك ترقيا، ويجوز أن يكون الشك في رسالته على حاله وبتّهُم إنما هو بتكذيب رسالة غيره من بعده"[1].

قال الزمخشري: "وبخهم بأن يوسف [عليه السلام] أتاكم بالمعجزات فشككتم فيها، ولم تزالوا شاكين كافرين حتى إذا قُبض قلتم ﴿لَن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِهِۦ رَسُولٗاۚ﴾ حُكْمَاً من عند أنفسكم من غير برهان، وتقدمة عزم منكم على تكذيب الرسل، فإذا جاءكم رسول جحدتم وكذبتم بناء على حكمكم الباطل الذي أسستموه. وليس قولهم ﴿لَن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِهِۦ رَسُولٗاۚ﴾ بتصديق لرسالة يوسف، وكيف وقد شكّوا فيها وكفروا بها، وإنما هو تكذيب لرسالة من بعده مضموم إلى تكذيب رسالته"[2].

وقال البقاعي: "ولما كان مرادهم استغراق النفي حتى لا يقع البعث في زمن من الأزمان وإن قل، أدخل الجار فقال: ﴿مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ أي يوسف عليه السلام ﴿رَسُولٗاۚ﴾ وهذا ليس إقراراً منهم برسالته، بل هو ضم منهم إلى الشك في رسالته التكذيب برسالة من بعده، والحجر على المَلِكِ الأعظم في عباده وبلاده، والإخبار عنه بما ينافي كماله"[3].

وعبّر المؤمن بالهلاك في قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ﴾ إيهاماً لقومه أنه غير معظم له، وأنه إنما يقول ما يشعر بالتعظيم لأجل محض النصيحة والنظر في العاقبة.[4]

١٢) قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ مُّرۡتَابٌ﴾: تعقيب من المؤمن، وجائز أن يكون من الله تعالى، مقصوده الإنذار من إضلال الله الذي ينتظر كل مسرف مرتاب في عقيدته بعد إذ جاءته البيّنات، والتنبيه إلى كيفية إضلال الله لهم ولمن سبقهم بسبب إسرافهم الباطل وشكهم الفاحش بلا دليل أو برهان، "والإشارة في قوله ﴿كَذَٰلِكَ﴾: إلى الضلال المأخوذ من قوله: ﴿يُضِلُّ ٱللَّهُ﴾ أي مثل ذلك الضلال يضل الله المسرفين المرتابين، أي أن ضلال المشركين في تكذيبهم محمدا ﷺ مثل ضلال قوم

---

١) روح المعاني للألوسي (١٢/٣٢٠-٣٢١). وانظر: تأويلات أهل السنة للماتريدي (٩/٢٧). ومعالم التنزيل للبغوي (٤/١١٢). وفي ظلال القرآن لسيد قطب (٥/٣٠٨١). والتحرير والتنوير لابن عاشور (١٧/١٤٠-١٤١).

٢) الكشاف (٤/١٦٦).

٣) نظم الدرر (١٧/٦٥).

٤) انظر: نظم الدرر للبقاعي (١٧/٦٤-٦٥).

فرعون في تكذيبهم موسى عليه السلام، والخطاب بالكاف المقترنة باسم الإشارة خطاب للمسلمين"[1]، "ولما كان السياق للشك في الرسالة والقول بالظن الذي يلزم منه اتهام القادر سبحانه بالعجز أو مجانبة الحكمة قال: ﴿ مُّرۡتَابٌ ﴾ أي يشك فيما لا يقبل الشك، ويتهم غيره بما لا حظّ للتهمة فيه، أي ديدنه التذبذب في الأمور الدينية، فلا يكاد يحقق أمراً من الأمور، ولا إسراف ولا ارتياب أعظم من حال المشرك، فإنه منع الحق أهله وبذله لمن لا يستحقه بوجهٍ"[2]، لكنّ من كان طبعه وعادته غير هذا -وإنما لجهل جهل ذلك، أو لما يتحقق عنده لظنه وقلة تأمله، أو لاشتغاله بأمور الدنيا، أو لمعنى من المعاني- فيجوز أن يهديه الله تعالى ويرشده.[3]

ويلاحظ أنه ختم هذه الآية بقوله: ﴿ مُسۡرِفٌ مُّرۡتَابٌ ﴾، وقبلها بعدة آيات ختم بقوله: ﴿ مُسۡرِفٌ كَذَّابٌ ﴾، وهذا التغيير بين الكذاب والمرتاب لأجل أنه لما قال تعالى في الأولى: ﴿ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيۡهِ كَذِبُهُۥ ﴾ ناسبه قوله: ﴿ مُسۡرِفٌ كَذَّابٌ ﴾، ولما قال تعالى في الثانية: ﴿ فَمَا زِلۡتُمۡ فِي شَكّٖ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ﴾ ناسبه قوله: ﴿ مُسۡرِفٌ مُّرۡتَابٌ ﴾[4]، ليتم التأكيد على ذم الإسراف في الآيتين، ويزيدهما ذم خصلتين قبيحتين هما الكذب والشك بلا داع أو سبب.

١٣) قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ ﴾: بعدما بيّن المؤمن حججه في الآيات السابقة لم يبق للمشركين سوى المغالطات، فتُبيِّن هذه الآية وما بعدها أن جدل هؤلاء عبارة عن مغالطات؛ لأنهم لا يملكون دليلا على صدق دعواهم في تكذيب موسى عليه السلام وتكذيب رسل الله.[5]

وهذه الآية هي الآية الوسطى التي ذكرت المجادلين في هذه السورة، فقد تكرر ذكرهم في خمس آيات هذه الثالثة منها، ومع تكرراها فهي تضيف معنى جديدا في كل مرة، وهنا أضافت أن المجادلين في آيات الله إنما يتخرصون كلاما ليس فيه أدنى نسبة من حجة أو برهان.

وهذه الآية يجوز أن يكون استمرارا لكلام المؤمن، ويجوز أن يكون من كلام الله تعالى جاء معترضا بين كلام المؤمن وموعظته، وأكثر المفسرين على أن هذه الآية من كلام المؤمن، والذي أميل إليه -مقتنعا بما

١) التحرير والتنوير لابن عاشور (١٤٢/٢٤).
٢) نظم الدرر للبقاعي (٦٦/١٧).
٣) انظر: تأويلات أهل السنة للماتريدي (٢٨/٩).
٤) انظر: كشف المعاني في المتشابه من المثاني لابن جماعة (٣١٩/١-٣٢٠).
٥) التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم لجامعة الشارقة، بإشراف د. مصطفى مسلم (٥٦١/٦).

ذهب إليه ابن عاشور- أنه من قوله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ "كله من كلام الله تعالى معترض بين كلام المؤمن وكلام فرعون، فإن هذا من المعاني الإسلامية قصد منه العبرة بحال المكذبين بموسى [عليه السلام] تعريضا بمشركي قريش، أي كضلال قوم فرعون يضل الله من هو مسرف مرتاب أمثالكم، فكذلك يكون جزاؤكم، ويؤيد هذا الوجه قوله في آخرها: ﴿ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ فإن مؤمن آل فرعون لم يكن معه مؤمن بموسى وهارون [عليهما السلام] غيره، وهذا من باب تذكر الشيء بضده، ومما يزيد يقينا بهذا: أن وصف الذين يجادلون في آيات الله تكرر أربع مرات من أول هذه السورة، ثم كان هنا وسطا في قوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ۚ ﴾غافر:٥٦، ثم كان خاتمة في قوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾غافر: ٦٩"[١].

وقال أبو حيان: "الأولى في إعراب هذا الكلام أن يكون ﴿ ٱلَّذِينَ ﴾ مبتدأ وخبره ﴿ كَبُرَ ﴾، والفاعل ضمير المصدر المفهوم من ﴿ يُجَٰدِلُونَ ﴾، وهذه الصفة موجودة في فرعون وقومه، ويكون الواعظ لهم قد عدل عن مخاطبتهم إلى الاسم الغائب، لحسن محاورته لهم واستجلاب قلوبهم، وإبراز ذلك في صورة تذكيرهم، ولا يفجأهم بالخطاب"[٢].

"واختيار المضارع في يجادلون لإفادة تجدد مجادلتهم وتكررها وأنهم لا ينفكون عنها. وهذا صريح في ذمهم، وكناية عن ذم جدالهم الذي أوجب ضلالهم ... وقد حصل بهذا الاستئناف تقرير فظاعة جدالهم بطريقي الكناية والتصريح"، وأنه لا أساس له من دليل أو حجة وبرهان، وإنما بناء على التقليد المجرد، أو بناء على شبهات خسيسة.[٣]

١٤) قوله تعالى: ﴿ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾: فيه ذم وضرب من التعجب والاستعظام لجدالهم والشهادة على خروجه من حدِّ أمثاله من الكبائر، فيمقتهم الله تعالى، لأن جدالهم تضمن التكذيب بالحق والتصديق بالباطل ونسبته إليه، وهذه أمور يشتد بغض الله لها ولمن اتصف بها،

١) التحرير والتنوير لابن عاشور (١٤١/٢٤-١٤٢). وانظر: التبيان في إعراب القرآن للعكبري (١١١٩/٢).
٢) البحر المحيط (٢٥٧/٩-٢٥٨).
٣) التحرير والتنوير لابن عاشور (١٤٢/٢٤-١٤٣). وانظر: مفاتيح الغيب للفخر الرازي (٥١٣/٢٧).

وكذلك يمقتهم الملائكة والأنبياء، ويمقتهم المؤمنون[1]، وفائدة عطفه على ما سبق: أن المقت عند الله هو موجب الإضلال، وأما المقت عند المؤمنين فلكونهم المظاهر التي يظهر ويصدق فيها ظهور الحق، فإن كونه مقتا عند الله لا يحصل في علم الناس إلا بالخبر، فزيد الخبر تأييدا بالمشاهدة، فإن الذين آمنوا على قلتهم يومئذ يظهر بينهم بغض مجادلة المشركين، ومن آثاره هجرهم إياهم، والاحتراس من التعامل معهم، وعدم الركون إليهم في الدين والدنيا، وهذا حاصل قول المهايمي، وأظهر من هذا المعنى أن الله أراد التنويه بالمؤمنين ولم يرد إقناع المشركين، فإنهم لا يعبأون ببغض المؤمنين ولا يصدّقون ببغض الله إياهم، فالمقصود الثناء على المؤمنين بأنهم يكرهون الباطل، كما قال: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ التوبة:٧١، مع الإشارة إلى تبجيل مكانتهم بأن ضمت عنديتهم إلى عندية الله تعالى على نحو قوله تعالى: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ ﴾آل عمران:١٨، وقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ الأنفال:٦٤، وقوله: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ ﴾الأنفال:٦٢، وهذا قول ابن عاشور، وهكذا فالواجب على أهل الإيمان أن يمقتوا من الأعمال ما مقتها الله تعالى، أو يمقتوا من مقته الله من أعدائه.[2]

١٥) قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾: لما كان فاعل ما سبق لا يكون إلا مظلم القلب، كان التقدير: أولئك ختم الله على قلوبهم، فوصل به استئنافاً قوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي مثل هذا الطبع العظيم ﴿يَطْبَعُ ٱللَّهُ﴾ أي يختم ختماً فيه العطب ﴿عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ﴾ فإن فعل كل ذي روح إنما هو بقلبه، فنسب الفعل إليه؛ لأنه المركز والمنبع، ووصفه بقوله: ﴿مُتَكَبِّرٍ﴾ أي متطاول متكلفٌ ما ليس له ﴿ جَبَّارٍ﴾ أي ظاهر الكبر في قوة وقهر متعظم عن قبول الحق، فكل من كانت عادته وطبيعته التمويه والتلبيس والمجادلة في دفع الآيات بلا حجة والتكبر عليها فلا يهديه الله تعالى ويطبع على قلبه.[3]

وقدم ﴿كُلِّ﴾ على ﴿قَلْبِ﴾ من أجل استغراق أفراد القلوب ممن اتصف بهذا الوصف.[4]

---

١) انظر: تفسير السمعاني (٢٠/٥). والكشاف للزمخشري (١٦٧/٤). وتيسير الكريم الرحمن للسعدي (٧٣٧/١).

٢) انظر: تأويلات أهل السنة للماتريدي (٢٨/٩). والدر المصون للسمين الحلبي (٤٧٩/٩). وغرائب القرآن للنيسابوري (٣٦/٦). وتبصير الرحمن للمهايمي (٣٢٨/٢). وتفسير المراغي (٦٩/٢٤). والتحرير والتنوير لابن عاشور (١٤٤/٢٤).

٣) انظر: الهداية إلى بلوغ النهاية لمكي بن أبي طالب (٦٤٣٢/١٠). والكشاف للزمخشري (١٦٧/٤). ونظم الدرر للبقاعي (٦٧/١٧).

٤) انظر: نظم الدرر للبقاعي (٦٨/١٧). والإعجاز البياني في قصة مؤمن آل فرعون لماجد الماجد (١/١-٤٠).

ومن بلاغة التناسب بين المفردات أن ترد لفظتي: (متكبر، وجبار) مقترنتين؛ لتشمل قسمي المضادة للخالق والخلق، فالتكبر كالمضاد للتعظيم لأمر الله، والجبروت كالمضاد للشفقة على خلق الله.[1]

١٦) قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰهَـٰمَـٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَـٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَـٰبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَـٰذِبًا ﴾: هذه حيدة عن المحاجَّة، ورجوع إلى أشياء لا تصح، وذلك كله لما خامر فرعون من الجزع والخوف وعدم المقاومة، والتعرف أن هلاكه وهلاك قومه على يد موسى -عليه السلام-، وأن قدرته عجزت عن التأثير على كثرة سفكه الدماء، فلما بدى أن منطق الرجل المؤمن وحجته كانت من شدة الوقع بحيث لم يستطع فرعون ومن معه تجاهلها، وظهر لجميع المشاهدين أن ما يدعو إليه موسى عليه السلام من عبادة إله السماء حق، ومالت النفوس إليه حسب فطرتها الاصلية لوضوح براهينه وسطوع معجزاته، وأن فرعون قد أعيته الحيل في مقاومة موسى عليه السلام بحجةٍ، وخاف فرعون أن يتمكن كلام هذا المؤمن في قلوب القوم، حينها اتخذ لنفسه مهرباً جديداً، وبدأ جولة ثانية من مجادلاته الباطلة محاولة لدحض الحق وكسب المعركة لصالحه بزعزعة جميع منطوقات ومفهومات المؤمن في موعظته البليغة لفرعون وقومه، فأراد في هذه الأزمة الجدلية أن يتصدى لذلك بنفسه، فيحيد عن الحوار هروبا من مواجهة الحق مباشرة، ويتدرع ويتوارى خلف قوة السلطة وبهرج المُلك وخيلائه ليجعل قولَه هو الفصل في نفي وجود إله آخر، تضليلا لدهماء أمته؛ لأنه أراد التوطئة للإخبار بنفي إله آخر غيره كما في قوله تعالى: ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَـٰهَـٰمَـٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا ﴾القصص:٣٨، فأراد أن يتولى وسائل النفي بنفسه، فشرع يطرق باب الحسّ ليبرهن على جدوى كلامه وصواب رأيه في قتل موسى عليه السلام، فإن الناس شديدو التعلق بالمحسوسات، ويؤمنون بها أشد وأسرع من المعلومات الأخرى، ولما علم فرعون أن ما كان يصنعه سلفا من التمويهات والتلبيسات على أتباعه في أمر موسى عليه السلام أنها ليست بقادحة في الآيات والحجج التي أتاهم بها موسى عليه السلام، أراد أن يموه ويلبّس على قومه بطريق الحسّ لعله يحسم القضية لصالحه، فأوهم أنه يمتحن ما جاء به موسى -عليه السلام- من التوحيد، فإن تبيّن له صوابه لم يخف ذلك عنهم، وإن لم يصح ثبتهم على دينهم، فأمر وزيره والناظر في أموره هامان بأن يرفع له بناء يصعد به ويبلغ طرائق السماء وأبوابها ومنازلها وما يؤدي إليها من سماء إلى سماء، متوصلا متوسلا أن يكتشف إله موسى -عليه السلام- الذي يزعم أنه قد أرسله، وهو بهذا يموّه ويلبّس على قومه مجددا، فإن بلوغ أسباب السماوات غير ممكن؛ ولكنه يبرز لهم ما لا يمكن في صورة الممكن إيهاما وتمويهاً على سامعيه، وليس هذا بأبدع من ادعائه الربوبية وهو

١) انظر: مفاتيح الغيب للفخر الرازي (٥١٤/٢٧). والإعجاز البياني في قصة مؤمن آل فرعون لماجد الماجد (١/١-٤٠).

يعرف حال نفسه ويشاهدها، ولكن الجهل في الدنيا كثير، كما قال تعالى: ﴿ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ﴾ الزخرف: ٥٤، وبهذا يحاول فرعون أن يُظهِرُ لقومه أنه يبذل غاية وسعه ويتكلف تكاليف باهظة لمعرفة صدق موسى -عليه السلام- وحقانيته، وأنه يفعل ذلك بناء على دعوى موسى -عليه السلام- مع أنه بمقتضى عقله ورأيه وفراسته على يقين بأنه كاذب في دعاويه، فإظهاره لهذا اليقين -في وسط كلامه- بكذب موسى -عليه السلام- من أجل أن لا يظن هامان وقومه أن دعوة موسى عليه السلام قد أوهنت من فرعون يقينه بدينه وآلهته بل بنفسه، وأنه إنما يروم أن يبحث بحث متأمل ناظر في أدلة المعرفة، فحقق لهم أنه ما أراد بذلك إلا نفي ما ادعاه موسى -عليه السلام- بدليل الحسّ، ولأجل أن يظهر كذب موسى -عليه السلام-.[1]

أو أنه لما قال فرعون بمحضر من ملئه ﴿ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ ﴾ اقتضى كلامه الاقرار بإله موسى -عليه السلام-، فاستدرك ذلك استدراكا قلقا بقوله: ﴿ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ﴾.[2]

وقال هاهنا ﴿ كَٰذِبًا ﴾ ولم يقل كذّابا كما قالوه أول الأمر عند إرساله إليهم ﴿ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴾؛ "لأن القائل هنا هو فرعون وحده، وحيث قال كذّاب رجع المبالغة الى فرعون وهارون وقارون"[3].

وورود التكرار بين ﴿ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴾ و ﴿ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ دون عطف مضيا على أسلوب الفصل بين الجملتين، وقد حسن الفصل هنا، لأن الجملة الثانية بيان وشرح للجملة الأولى، فأبهم أولا ما أمل بلوغه من الأسباب ثم أوضحه تفخيما لشأنه؛ "لأنه لما كان بلوغها أمرا عجيبا أراد أن يورده على نفس متشوفة إليه، ليعطيه السامع حقه من التعجب، فأبهمه ليشوف إليه نفس هامان، ثم أوضحه"[4].

---

١) انظر: جامع البيان للطبري (٣٨٦/٢١). ومعاني القرآن وإعرابه للزجاج (٣٧٥/٤). وبحر العلوم للسمرقندي (٢٠٦/٣). وتفسير القرآن العزيز لابن أبي زمنين (١٣٢/٤). وتفسير السمعاني (٢١/٥). ومعالم التنزيل للبغوي (١١٢/٤). والمحرر الوجيز لابن عطية (٥٦٠/٤). والجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٣١٤/١٥). والبحر المحيط لأبي حيان (٢٥٨/٩). والفواتح الإلهية للشيخ علوان (٢٦٣/٢). والتحرير والتنوير لابن عاشور (١٤٥/٢٤، ١٤٧). والتفسير الواضح لمحمد حجازي (٣٠٤/٣). والتفسير الوسيط للزحيلي (٢٢٧٣/٣).

٢) انظر: المحرر الوجيز (٥٦٠/٤).

٣) روح البيان لإسماعيل حقي (١٨٣/٨).

٤) الكشاف للزمخشري (١٦٧/٤).

ومن لطائف البيان أن يرد أمر فرعون ببناء الصرح أثناء محاجاته للذي آمن وبعد انصرافه عن قتل موسى ﷺ، ولذلك وقع ذكره بين مواعظ الذي آمن واحتجاجاته[1].

١٧) قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴾: لما كان فرعون يرى قبيح ما يأتي حسنا تيهاً منه وحماقة وتكبراً وتجبراً لكثافة قلبه وفساد لبه، لأجل ما زُين له من سوء عمله فقصد ما لا مطمع في نيله أبدا، جاءت جملة ﴿ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ ﴾ عطفا على جملة ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ... ﴾ لبيان الحال التي انتهى إليها أمر فرعون، وأنه مضى في طريق الضلال إلى غايته، ولبيان حال اعتقاده وعمله بعد بيان حال أقواله، والمعنى: أنه قال قولا منبعثا عن ضلال اعتقاد ومغريا بفساد الأعمال، وبه صُد وأبعد عن السبيل الكامل الصالح، والطريق القويم سبيل الله والخير والهدى، ومُنِع عن الإيمان؛ لأنه مَنَع عقله عن التدبر، وقلبه عن التبصر؛ وحارب ربه، وقاتل رسوله، وقتل عبيده، وادعى الربوبية، فحق عليه غضب الله تعالى، فأصمّه عن الاستماع، وصده عن سبيل الإيمان؛ عقوبة له على غيه وبغيه، وهذه أحوال تكشف عن ضعف في العقل والقلب والفكر والروح، فلا جرم أنه ينتج كيدا ضعيفا هزيلا يذهب ويضيع في خسارة وهلاك، فلذا عطف بقوله: ﴿ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴾ فإن كيده لا يصلح للإضرار بأحد كما لم يصلح من قبل في إقناع أحد. والمراد بكيده محاولته إبطال آيات موسى ﷺ بما أمر به من بناء الصرح والغاية منه، وسمي كيدا؛ لأنه عمل ليس المراد به ظاهره بل أريد به الإفضاء إلى إيهام قومه كذب موسى ﷺ، فالخاتمة مناسبة لمضمون الآية قبلها، ومؤكدة لمعناها.[2]

قال ابن عطية: "و (تبُّ) فرعون ظاهر، لأنه خسر ماله في الصرح وغيره، وخسر ملكه، وخسر نفسه، وخلّد في جهنم"[3].

والمزين والصاد لفرعون يحتمل أن يكون الله عز وجل كقوله تعالى: ﴿ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾ ﴾النمل:٤، ويحتمل أن يكون الشيطان بوسوسته، كقوله تعالى: ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ

---

١) انظر: الإعجاز البياني في قصة مؤمن آل فرعون لماجد الماجد (١/١-٤٠).

٢) انظر: الهداية إلى بلوغ النهاية لمكي بن أبي طالب (٦٤٣٤/١٠). وزاد المسير لابن الجوزي (٣٨/٤). والتفسير القرآني للقرآن لعبد الكريم الخطيب (١٢٣٦/١٢). والتحرير والتنوير لابن عاشور (١٤٨/٢٤). وأوضح التفاسير لمحمد بن الخطيب (٥٧٦/١).

٣) المحرر الوجيز (٥٦٠/٤).

عَنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ النمل:٢٤، وعلى كلا الحالين فالفاعل في الحقيقة هو الله، ويكون الشيطان فاعلا بالتوسط والتسبب، وهذا عند أهل السنة.[1]

قال ابن قيم الجوزية: "أما الشدّ على القلب ففي قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا ﴾ يونس:٨٨-٨٩، فهذا الشدّ على القلب: هو الصدّ والمنع، ولهذا قال ابن عباس: يريد منعها، والمعنى قسِّها واطبع عليها، حتى لا تلين، ولا تنشرح للإيمان ... وهذا الشدّ والتقسية، من كمال عدل الرب سبحانه في أعدائه، فإنه جعله عقوبة لهم على كفرهم وإعراضهم، كعقوبته لهم بالمصائب، ولهذا كان محمودا، فهو حسن منه، وأقبح شيء منهم، فإنه عدل منه وحكمة، وهو ظلم منهم وسفه، فالقضاء والقدر فعلُ عادل حكيم غني عليم، يضع الخير والشر في أليق المواضع لهما، والمقضي المقدر يكون من العبد ظلما وجورا وسفها، وهو فعل جاهل ظالم سفيه"[2].

١٨) قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾: يجوز أن تكون هذه المقولات التي يقولها المؤمن وما بعدها خارج المجلس الذي ضمّه وفرعون والملأ من قبل، فهو امتداد إلى خارج إلى هذا المجلس، حيث يلقاه الناس في كل مجتمع وناد، وأيا كان المكان، فإن المؤمن يكرر وعظه -إثر كلام فرعون- بندائه لقومه مرتين، متبعا كل نداء بما فيه زجر واتعاظ لو وجد من يقبل الحق. ونرى المؤمن يحافظ على منهجه الدعوي، ويستمر في تكملة كلامه مجددا من دون أن يعلّق أو يعقّب على كلام فرعون وترهاته بشيء، لأن فساد ما قاله فرعون أظهر من أن يحتاج إلى بيان، ولأن له غرضا وهدفا يريد أن يصيبه ويصل إليه، لذا لا ينحرف عنه ولا يتشتت دونه أبدا، فنراه مرة يخوفهم بما نزل بأوائلهم بتكذيبهم الرسل وترك اتباعهم، ومرة يبيّن سفههم في أنفسهم بسوء صنيعهم، وهنا يبتدأ موعظته بندائهم ليلفت إليه أذهانهم ويستصغي أسماعهم، وبعنوان أنهم قومه لتصغي إليه أفئدتهم، ورتب خطبته على أسلوب تقديم الإجمال ثم تعقيبه بالتفصيل والتفسير، فاستأنف يعظهم وينصحهم ويدعوهم على الإجمال إلى اتباعه ليبيّن لهم سبيل الهدى والرشاد ويهديهم إليه، لأنه مع سهولته واتساعه موصل ولا بد إلى المقصود، وأما ما

---

١) انظر: الكشاف للزمخشري (١٦٧/٤). وروح البيان لإسماعيل حقي (١٨٤/٨). وروح المعاني للألوسي (٣٢٣/١٢).

٢) التفسير القيم لابن القيم (٤٦٣/١-٤٦٤).

قال فرعون مدعياً أنه سبيل الرشاد لا يوصل إلا إلى الخسار، فهو تعريض به شبيه بالتصريح، فإن فرعون كان منذ لحظات يقول: ﴿وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ فهذا هو التحدي الصريح الواضح بكلمة الحق لا يخشى فيها المؤمن سلطان فرعون الجبار، ولا ملأه المتآمرين معه.[1]

قال ابن عاشور: "ابتدأ بقوله: ﴿ٱتَّبِعُونِ أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾، وسبيل الرشاد مجمل، وهو على إجماله مما تتوق إليه النفوس، فربط حصوله باتباعهم إياه مما يقبل بهم على تلقي ما يفسر هذا السبيل، ويسترعي أسماعهم إلى ما يقوله إذ لعله سيأتيهم بما ترغبه أنفسهم، إذ قد يظنون أنه نقّح رأيه ونخل مقاله، وأنه سيأتي بما هو الحق الملائم لهم"[2].

فـ"أبهم ﴿سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾، ولم يبين أي سبيل هو، ثم فسر ذلك فافتتح كلامه بذم الدنيا وتصغير شأنها، ثم ثنى ذلك بتعظيم الآخرة، والاطلاع على حقيقتها، ثم ثلّث بذكر الأعمال سيئها، وحسنها وعاقبة كل منهما، ليثبط عما يتلف، وينشط لما يزلف، كأنه قال: سبيل الرشاد هو الإعراض عن الدنيا والرغبة في الآخرة، والامتناع من الأعمال السيئة خوف المقابلة عليها، والمسارعة إلى الأعمال الصالحة رجاء المجازاة عليها"[3].

١٩) قوله تعالى: ﴿يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ﴾: أعاد النداء تأكيدا لإقبالهم إذ لاحت بوارقه، فأكمل مقدمته بتفصيلِ وتفسيرِ ما أجمله يذّكرهم بأن الحياة الدنيا محدودة بأجل غير طويل، وأن وراءها حياة أبدية، وهذا ترغيب في النعيم الدائم وترهيب عن العذاب الدائم وهو من أقوى وجوه الترغيب والترهيب، فافتتح كلامه بذم الدنيا وتصغير شأنها، ثم ثنّى بمدح الآخرة وتعظيم أمرها والاطلاع على حقيقتها، فهي الوطن والمستقر؛ لأنه علم أن أشد دفاعهم عن دينهم منبعث عن محبة السيادة والرفاهية، وذلك من متاع الدنيا الزائل، والإقبال على الفاني هو الداء، والدواء كله في الإقدام على الباقي والعدول إليها عن الفاني، فالإخلاد إليها أصل الشر كله، ومنه يتشعب ما يؤدي إلى سخط الله، والخير كله في العمل للسعادة الأبدية الباقية، الدائم كل شيء من ثوابها وعقابها.[4]

---

١) انظر: الكشاف للزمخشري (١٦٨/٤). ومدارك التنزيل للنسفي (٢١٢/٣). والبحر المحيط لأبي حيان (٢٥٩/٩). ونظم الدرر للبقاعي (٧١/١٧-٧٢). وفي ظلال القرآن لسيد قطب (٣٠٨٢/٥). والتفسير القرآني للقرآن لعبد الكريم الخطيب (١٢٣٧/١٢). والتحرير والتنوير لابن عاشور (١٤٨/٢٤).

٢) التحرير والتنوير (١٤٩/٢٤).

٣) المثل السائر لابن الأثير (١٦١/٢-١٦٢).

٤) انظر: الكشاف للزمخشري (١٦٨/٤). ومفاتيح الغيب للفخر الرازي (٥١٨/٢٧). ونظم الدرر للبقاعي (٧٢/١٧-٧٣). والتحرير والتنوير لابن عاشور (١٤٩/٢٤).

قال البقاعي: "كما أنّ النعيم فيها دائم فكذلك العذاب، فكان الترغيب في نعيم الجنان، والترهيب من عذاب النيران، من أعظم وجوه الترغيب والترهيب، فالآية من الاحتباك: ذكر المتاع أولاً دليلاً على حذف التوسع ثانياً، والقرار ثانياً دليلاً على حذف الارتحال أولاً"[1].

وقد بنى هذه المقدمة على ما كانوا عليه من معرفة أن وراء هذه الحياة حياة أبدية فيها حقيقة السعادة والشقاء، وفيها الجزاء على الحسنات والسيئات بالنعيم أو العذاب، إذ كانت ديانتهم تثبت حياة أخرى بعد الحياة الدنيا، ولكنها حرفت معظم وسائل السعادة والشقاوة، فهذه حقائق مسلمة عندهم على إجمالها، وهي من نوع الأصول الموضوعة في صناعة الجدل، وبذلك تمت مقدمة خطبته، وتهيأت نفوسهم لبيان مقصده المفسر لإجمال مقدمته، فجملة ﴿ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ ... ﴾ مبينة لجملة ﴿أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾[2].

٢٠) قوله تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾: هذه الآية بيان لجملة ﴿ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ ﴾غافر:٣٩، لمّا حرك الهمم إلى الإعراض عن دار الأنكاد والأمراض، والإقبال على دار الجلال والجمال، أخبرهم أنه يكون بالإقبال على محاسن الأعمال، وترك السيء من الخلال، مخبرا عن عدل الله في أعدائه وفضله في أوليائه، فيعاقب بالمثل، والمثل هو ما يقابل السيئة في الاستحقاق جزاء وفاقا، ويثيب بالمزيد عطاء بلا حساب، فذكر الأعمال سيئها وحسنها وعاقبة كل منهما ليثبطهم عما يضر ويتلف، وينشطهم إلى ما ينفع ويزلف، فبيّن كيف تحصل المجازاة في الآخرة، وأشار إلى أن جانب الرحمة فيها غالب على جانب العقاب.[3]

ومن الدلالات البليغة في الآية أنه جعل الجزاء للمؤمنين جملة اسمية مصدّرة باسم الإشارة، تأكيدا وتثبيتا، وجزاء المسيئين بالفعل المبني للمجهول محتملا التغير والتخفيف.[4]

---

١) نظم الدرر (٧٣/١٧).

٢) انظر: نظم الدرر للبقاعي (٧٢/١٧-٧٣). والتحرير والتنوير لابن عاشور (١٤٩/٢٤).

٣) انظر: الكشاف للزمخشري (١٦٨/٤). ومفاتيح الغيب للفخر الرازي (٥١٨/٢٧). ونظم الدرر للبقاعي (١٧،٧٣). وتفسير المراغي (٧٤/٢٤).

٤) انظر: نظم الدرر للبقاعي (٧٧/١٧). والإعجاز البياني في قصة مؤمن آل فرعون لماجد الماجد (١/١-٤٠).

قال الألوسي: "قسّم العمال إلى ذكر وأنثى للاهتمام والاحتياط في الشمول لاحتمال نقص الإناث، وجعل الجزاء في جزاء أعمالهم جملة اسمية مصدّرة باسم الإشارة مع تفضيل الثواب وتفصيله تغليبا للرحمة وترغيبا فيما عند الله عز وجل، وجعل العمل عمدة وركنا من القضية الشرطية والإيمان حالا للدلالة على أن الإيمان شرط في اعتبار العمل والاعتداد به والثواب عليه، لأن الأحوال قيود وشروط للحكم التي وقعت فيه، ويتضمن ذلك الإشارة إلى عظيم شرفه ومزيد ثوابه"[١].

وقال البقاعي: "الآية من الاحتباك: ذِكر المساواة أولاً عدلاً يدل على المضاعفة ثانياً فضلاً، وذِكر إدخال الجنة ثانياً يدل على إدخال النار أولاً، وسره أنه ذكر فضله في كلٍّ من الشقين"[٢].

٢١) قوله تعالى: ﴿ ۞ وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾: أعاد نداءهم ودعاءهم إلى الله تعالى، وصرّح هنا بإيمانه ولم يسلك المسالك المتقدمة من إيهامهم أنه منهم، وانتقل إلى إنكار ما جرى منهم نحوه، وهو أنهم أعقبوا موعظته إياهم بدعوته إلى الكفّ عن ذلك والتمسك بدينهم، فوازن لهم بين الدعوتين: دعوته إلى دين الله الذي ثمرته النجاة، ودعوتهم إلى اتخاذ الأنداد الذي عاقبته النار، وحذّر، وأنذر، واجتهد في ذلك واحتشد، فقال باستفهام توبيخي تعجبي: يا قوم، ما لي أدعوكم إلى ما به نجاتكم وأنصح لكم، وتدعونني أنتم إلى ما به هلاكي، فكيف يصح هذا؟! ومتى سيكون بيننا موالاة واجتماع؟! فيوبخهم ويتعجب من دعوتهم إياه لدينهم مع ما رأوا من حرصه على نصحهم ودعوتهم إلى النجاة، وما آتاهم به من الدلائل على صحة دعوته وبطلان دعوتهم، وهذا شيء مطوي في خلال القصة دلّت عليه حكاية إنكاره عليهم، وهو كلام آيسٍ من استجابتهم لقوله فيهم: ﴿ فَسَتَذۡكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمۡۚ ﴾، ومتوقع أذاهم لقوله: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمۡرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ ﴾، ولقوله تعالى آخر القصة: ﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْۖ ﴾ فصرّح هنا وبيّن بأنه لم يزل يدعوهم إلى اتباع ما جاء به موسى ﷺ، وأن في اتباعه النجاة من عذاب الآخرة، فهو يدعوهم إلى النجاة حقيقة.[٣]

٢٢) قوله تعالى: ﴿ تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ ﴾: لما أخبر بقلة إنصافهم إجمالاً، بيّنه وفصّله بهذا، فجملة ﴿ تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ ﴾

---

١) روح المعاني (١٢/٣٢٣).

٢) نظم الدرر (١٧/٧٤).

٣) انظر: الكشاف للزمخشري (٤/١٦٨). وفتح القدير للشوكاني (٤/٥٦٦). والتحرير والتنوير لابن عاشور (٢٤/١٢١-١٥٣).

بيان لجملة ﴿وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ﴾؛ وهي جملة فعلية لا تقتضي توكيدا، إذ دعوتهم باطلة لا ثبوت لها فتؤكد، والدعوة إلى النار أمر مجمل مستغرب، فبيّنه ببيان أنهم يدعونه إلى التلبس بالأسباب الموجبة لعذاب النار وهي الكفر بالله وإشراك ما لا علم لهم به مع الله في الإلهية، فـ "بيّن عليهم ما بين الدعوتين من البون في أن الواحدة شرك وكفر، والأخرى دعوة إلى الإسناد إلى عزة الله وغفرانه"[1].

ولما كان كل ما عداه سبحانه ليس له من ذاته إلا العدم، أشار إلى حقارته بالتعبير بأداة (ما) لغير العاقل، ومعنى ﴿مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ﴾ ما ليس له حقيقة في الوجود حتى أعلم به، فنفي العلم هنا كناية عن نفى المعلوم. أو ما ليس لي بصحته أو بوجوده علم أو نوع علم بصلاحيته لشيء من الشركة، والكلام كناية عن كونه يعلم أنها ليست آلهة بطريق الكناية بنفي اللازم عن نفي الملزوم.

وعطف عليه ﴿وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ﴾ الموصوف بكل كمال، المنزه عن كل نقص، فكان بيانا لمجمل جملة ﴿أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ﴾.

وعدل عن اسم الجلالة إلى الصفتين ﴿ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ﴾ لإدماج الاستدلال على استحقاقه الإفراد بالإلهية والعبادة، بوصفه العزيز الذي لا تناله الناس، بخلاف أصنامهم فإنها ذليلة توضع على الأرض ويلتصق بها القتام وتلوثها الطيور بذرقها، ولإدماج ترغيبهم في الإقلاع عن الشرك بأن الموحد بالإلهية يغفر لهم ما سلف من شركهم به حتى لا ييأسوا من عفوه بعد أن أساءوا إليه، وفي تقديم ﴿ٱلۡعَزِيزِ﴾ على ﴿ٱلۡغَفَّٰرِ﴾ نكتة بليغة، فإن العفو إنما يُمدح به بعد القدرة.[2]

ومن بلاغة الفواصل القرآنية وتناسبها مع معاني الآي الكريمات، أن تختتم الآية بـ﴿ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ﴾ إشارة إلى كونه كامل القدرة، وفيه تنبيه على أن الإله هو الذي يكون كامل القدرة، وأما فرعون فهو غاية في العجز، فكيف يكون إلهاً؟! وهو الغفار إشارة إلى أنه لا يجب أن يكونوا آيسين من رحمة الله بسبب إصرارهم على الكفر مدة مديدة، فإن إله العالم وإن كان عزيزا لا يغلب قادرا لا يغالب، لكنه غفّار يغفر كفر سبعين سنة بإيمان ساعة واحدة.[3]

---

١) المحرر الوجيز لابن عطية (٥٦١/٤). وانظر: البحر المحيط لأبي حيان (٢٦٠/٩).

٢) انظر: نظم الدرر للبقاعي (٧٦/١٧-٧٧). والتحرير والتنوير لابن عاشور (١٥٣/٢٤-١٥٤). والتفسير الواضح لمحمد حجازي (٣٠٧/٣).

٣) انظر: مفاتيح الغيب للفخر الرازي (٥١٩/٢٧).

قال الألوسي: "خص هذان الوصفان بالذكر وإن كانا كناية عن جميع الصفات ... لما فيهما من الدلالة على الخوف والرجاء المناسب لحاله وحالهم"[1].

٢٣) قوله تعالى: ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ﴾: جملة ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ... ﴾ بيان لجملة ﴿ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ ... ﴾، لبيان عجز ما يعبدون من دون الله من الأصنام وغيرها.

و (لا جرم) ردّ للكلام بمعنى وجب وثبت وحقا ولابد، فمعنى ثبوته أن الشيء الذي لا ينقطع هو باق، وكل ذلك يؤول إلى معنى حق، والتقدير: وجب ولا شك في أن ما تدعونني إليه ليس له دعوة بوجه من الوجوه، ووجب أن مرجعنا إلى الله، ووجب أن المسرفين في النار.

وقوله: ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ﴾ إلى قوله: ﴿ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ﴾ بيان لتفنيد دعوتهم وفساد منهجهم، وهو واقع موقع التعليل لجملتي ﴿ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾؛ لأنه إذا تحقق ألا قدرة ولا دعوة ولا استجابة دعوة تنفع لهذه الأصنام في الدنيا بدليل المشاهدة، ولا في الآخرة بدلالة الفحوى، كما قال تعالى: ﴿ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ ﴾فاطر:١٤، فهي لا تتأتى منها الدعوة ولا الهداية ولا الإرشاد، وهي ما ادعت الربوبية، ولا دعت بأنفسها إلى عبادتكم لها، وهي لا تملك دعاء وشفاعة لكم في شيء، فلا ينفذ لها أمر ولا نهي، وهي لا دعوة لها توجب لها الألوهة في الدنيا وفي الآخرة، بل تتبرأ من عابديها، وهي لا تستحق من الدعوة إليها، والحث على اللجأ إليها، لعجزها ونقصها، وأنها لا تملك نفعا ولا ضرا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا، فقد تحقق أنها لا تنجي أتباعها في الدنيا ولا في الآخرة ولا يفيدهم دعاؤها ولا نداؤها، وتحقق إذن أن المرجو للإنعام في الدنيا والآخرة هو الرب الذي يدعوهم هو إليه.

وعطفت على الجملة السابقة جملة ﴿ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ عطف اللازم على ملزومه؛ إذ كيف يستقيم الدعاء إلى ما لا غناء له وبين أيدينا خطب جليل من الرد إلى الله، فإذا تبين أن رب موسى عليه السلام المسمى (الله) هو الذي له الدعوة والقدرة والاستجابة، تبين أن المرد والمصير إلى الله، في الدنيا بالالتجاء والاستنصار، وفي الآخرة بالحكم والجزاء. ولو عطف مضمون هذه الجملة بالفاء المفيدة للتفريع لكانت

---

١) روح المعاني للألوسي (١٢/٣٢٤).

حقيقة بها، ولكن عدل عن ذلك إلى عطفها بالواو اهتماما بشأنها لتكون مستقلة الدلالة بنفسها غير باحث سامعها على ما ترتبط به، لأن الشيء المتفرع على شيء يعتبر تابعا له.

وكذلك جملة ﴿ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴾ بالنسبة إلى تفرع مضمونها على مضمون جملة ﴿ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ ﴾؛ لأنه إذا كان المصير إليه كان الحكم والجزاء بين الصائرين إليه من مثاب ومعاقب، فيتعين أن المعاقب هم الكافرون بالله، فالإسراف هنا: إفراط الكفر، ويشمل ما قيل: إنه أريد هنا سفك الدم بغير حق ليصرف فرعون عن قتل موسى عليه السلام، والوجه أن يعم أصحاب الجرائم والآثام المجاوزين للحدود العريقين في هذا الوصف، ولا شك في أن هؤلاء هم الذين يخلدون في النار لا يفارقونها كما يقتضيه معنى الصحبة؛ لأن إسرافهم اقتضى ذلك.

قال الألوسي: "فسّر ابن مسعود ومجاهد المسرفين هنا بالسفّاكين للدماء بغير حِلها، فيكون المؤمن قد ختم تعريضا بما افتتح به تصريحا في قوله: ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا ﴾"[1]، ولله در الألوسي -رحمه الله تعالى رحمة واسعة- في استنباطه هذا الذي يدل على التناسب التام في موعظة مؤمن آل فرعون.

وبهذا صدر الدليل الإقناعي الختامي لهذا المؤمن وقد بلغت الموعظة غايتها وانتهت إلى نهايتها، ولما لم تنجع فيهم قال بعدها جملة الفصال الآتية أشبه بقوله تعالى: ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾ ﴾ الكافرون:٦، وقوله تعالى: ﴿ لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ... ﴾ يونس:٤١، فمضى وهو يستحفظهم دليله؛ لأنهم سيظهر لهم قريبا أن رب موسى عليه السلام له دعوة في الدنيا، ثقة منه بأنهم سيرون انتصار موسى عليه السلام على فرعون، ويرون صرف فرعون عن قتله بعد عزمه عليه، فيعلمون أن الذي دعا إليه موسى عليه السلام هو المتصرف في الدنيا فيكون هو المتصرف في الآخرة.[2]

قال سيد قطب: "وماذا يبقى بعد هذا البيان الواضح الشامل للحقائق الرئيسية في العقيدة؟ وقد جهر بها الرجل في مواجهة فرعون وملئه بلا تردد ولا تلعثم، بعد ما كان يكتم إيمانه، فأعلن عنه هذا

---

١) روح المعاني (٣٢٥/١٢).

٢) انظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٣٧٦/٤). وإعراب القرآن للنحاس (٢٦/٤). وبحر العلوم للسمرقندي (٢٠٧/٣). والهداية إلى بلوغ النهاية لمكي بن أبي طالب (٦٤٣٦/١٠). ومعالم التنزيل للبغوي (١١٣/٤). والمحرر الوجيز لابن عطية (٥٦١/٤). ونظم الدرر للبقاعي (٧٨/١٧). والفواتح الإلهية للشيخ علوان (٢٦٤/٢). وتيسير الكريم الرحمن للسعدي (٧٣٨/١-٧٣٩). والتحرير والتنوير لابن عاشور (١٥٤/٢٤-١٥٥).

الإعلان؟ لا يبقى إلا أن يفوّض أمره إلى الله، وقد قال كلمة وأراح ضميره، مهددا إياهم بأنهم سيذكرون كلمته هذه في موقف لا تنفع فيه الذكرى، والأمر كله إلى الله"[1].

٢٤) قوله تعالى: ﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ﴾: هذا موقف المفارقة، وكلام المتاركة، متاركته لقومه وتنهيته لخطابه إياهم، وقد أخرج الخبر من معنى الإخبار إلى معنى التهديد، ولعله استشعر من ملامحهم أو من مقاطعتهم كلامه بعبارات الإنكار، ما أيأسه من تأثرهم بكلامه، فتحداهم بأنهم إن أعرضوا عن الانتصاح لنصحه سيندمون حين يرون العذاب، إما في الدنيا كما اقتضاه تهديده لهم بقوله: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴾، أو في الآخرة كما اقتضاه قوله: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴾، فالفاء تفريع على جملة ﴿مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾.

وفعل (ستذكرون) من الذكر ضد النسيان، أي ستذكرون ما أقوله لكم الآن فإنه سيحضر نصب بصائركم يوم تحققه، فستذكرون إذا عاينتم ما أعد لكم وأعد لنا: أنّ ما كنتم عليه ودعوتموني إليه كان دعاء إلى الهلاك، وما دعوتكم إليه كان دعاء إلى الجنة، والمعنى: سيحل بكم من العذاب ما يذكركم بمقولتي (إنه سيحل عليكم عذاب من ربكم).[2]

٢٥) قوله تعالى: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾: وهذه الجملة عطف على جملة ﴿مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾، ومساق هذه الجملة مساق الانتصاف منهم لما أظهروه له من الشر وأوعدوه بأنواع الوعيد والتخويف، فقال عند ذلك مظهرا حاجته لربه: إني أتوكل على الله، وهو الكافي، فيحفظني ويدفع عني شركم وما تقصدون بي، وأكل شأني وشأنكم معي إلى الله فهو يجزي كل فاعل بما فعل، وهذا كلام المنصف.[3]

ومن التناسب في حديث المؤمن أن المتمعن في قوله: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ يلمح التشابه بين كلامه وكلام موسى عليه السلام، الذي عاذ بربه حين توعده فرعون فقال: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي

١) في ظلال القرآن (٥/٣٠٨٣).
٢) انظر: بحر العلوم للسمرقندي (٣/٢٠٧). والتحرير والتنوير لابن عاشور (٢٤/١٥٦).
٣) انظر: التحرير والتنوير لابن عاشور (٢٤/١٥٦).

﴿وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٢٧﴾﴾غافر:٢٧، فمضى المؤمن على طريقة موسى عليه السلام في العياذ بربه وتفويض أمره إليه.[١]

٢٦) قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾: عقّب بهذه الجملة ليدل على معنى الانتصاف، معللا تفويض أمره معهم إلى الله بأن الله عليم بأحوال جميع العباد ومصائرهم، فعموم العباد شمله وشمل خصومه.[٢]

ونرى أن الآيات السابقة من كلام المؤمن تعبّر عن الحقائق التي تقررت من قبل في صدر السورة، يعود المؤمن فيقررها في مواجهة فرعون وملئه.[٣]

٢٧) قوله تعالى: ﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا﴾: لما بيّن الله تعالى أن المؤمن "لم يقصّر في تقرير الدين الحق، وفي الذب عنه فالله تعالى ردّ عنه كيد الكافرين وقصد القاصدين"[٤]، وهذا ذكر لمشهد النهاية ومآل المؤمن، فلما انتهت قصة مؤمن آل فرعون، وقد ابتدأ بما كان من كتمان هذا المؤمن لإيمانه، ثم إظهاره له شيئا فشيئا من أجل الدفاع عن نبي الله موسى عليه السلام والنصح لقومه، ثم كان آخر أمره أنه أظهر إيمانه واستكفى بالله وتوكل عليه، أخبر الله هنا نتيجة صنيعه، وكيف كانت عاقبة إظهاره لإيمانه ومبادرته لمعارضة فرعون واستعانته بالله، فأخبر الله تعالى أنه أصدق ظن عبده به ووقاه سيئات مكر فرعون وقومه، وكانت الخلاصة: أنه كان قد بذل نفسه لله تعالى فحفظه.

وتفريع هذه الآية على ما قبلها "مؤذن بأنهم أضمروا مكرا به، وتسميته مكرا مؤذن بأنهم لم يُشعِرُوه به، وأن الله تكفل بوقايته؛ لأنه فوض أمره إليه"[٥].

قال دروزة: "في الآيات تعقيب على الفصل القصصي كما هو الظاهر، واحتوت تقرير وقاية الله للمؤمن، وحكاية ما سوف يكون من أمر فرعون وقومه بعد الموت ويوم القيامة، وما سوف يذوقونه من شديد العذاب، ومحاورة التابعين والمتبوعين، وإلقاء هؤلاء التبعة على أولئك، وندم الجميع وحسرتهم ويأسهم من النجاة، وتأنيب خزنة النار لهم حينما طلبوا منهم دعاء الله بالتخفيف عنهم.

---

١) انظر: الإعجاز البياني في قصة مؤمن آل فرعون لماجد الماجد (١/١-٤٠).
٢) انظر: النكت والعيون للماوردي (١٥٨/٥). والتحرير والتنوير لابن عاشور (١٥٧/٢٤).
٣) انظر: في ظلال القرآن لسيد قطب (٣٠٨٢/٥).
٤) مفاتيح الغيب للفخر الرازي (٥٢١/٢٧).
٥) التحرير والتنوير لابن عاشور (١٥٨/٢٤).

وأسلوبها قوي نافذ، والهدف الذي استهدفه الفصل القصصي وهو الزجر والعبرة والتذكير والموعظة والإنذار والتنديد قد انطوى في هذا التعقيب أيضا"[1].

٢٨) قوله تعالى: ﴿ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ ﴾: وهذا مشهد لمآل فرعون وقومه، فكانت خاتمة مؤسفة، وأودى التكذيب والكفر بهم إلى النار التي حذّر منها، وتلك عاقبة من اتبع فرعون الذي هداهم إلى الغي، فأوردهم العذاب البرزخي والأخروي، ولما كان المكر السيء لا يحيق إلا بأهله، أخبر الله أنه قد أحاط بفرعون ومن معه جميعا -بسبب إصرارهم على الكفر ومكرهم السيء- أشدَ العذاب وأسوأه ابتداء بالغرق والهلاك ومرورا بعذاب البرزخ وانتهاء بالنزول في دركات النار.

قال ابن عاشور: "إنما كان الغرق سوء عذاب؛ لأن الغريق يعذب باحتباس النفس مدة وهو يطفو على الماء ويغوص فيه، ويرعبه هول الأمواج وهو موقن بالهلاك، ثم يكون عرضة لأكل الحيتان حيا وميتا، وذلك ألم في الحياة وخزي بعد الممات يذكرون به بين الناس"[2].

٢٩) قوله تعالى: ﴿ ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗا ﴾: "جملة مستأنفة مسوقة لبيان كيفية سوء العذاب، أو ﴿ ٱلنَّارُ ﴾ خبر مبتدأ محذوف، كأن قائلا قال: ما سوء العذاب؟ فقيل: هو النار"[3]، وعلى كلٌ فهذا بيان لكيفية عذابهم في عالم البرزخ بعد موتهم وفراقهم لهذه الدنيا وقبل بعثهم وحشرهم إلى جهنم، فذكر الله تعالى أنهم يعرضون على النار صباحا ومساء، يقال لهم: "هذه منازلكم، توبيخا ونقمة وصغارا لهم"[4]، ويستمر هذا بهم ويتجدد عليهم كل يوم إلى قيام الساعة، وفي هذا إثارة للرعب في الكفار من مثل هذا المصير الرهيب.[5]

وهذه الآية دليل راجح في إثبات عذاب القبر كما قال كثير من أهل العلم.[6]

والعرض حقيقته: إظهار شيء لمن يراه لترغيب أو لتحذير، ومعنى عرضهم على النار أن يشاهدوا المواضع التي أعدت لها في جهنم، وهو ما يبينه حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول

---

١) التفسير الحديث (٣٧٢/٤).

٢) التحرير والتنوير (١٥٧/٢٤).

٣) إرشاد العقل السليم لأبي السعود (٢٧٨/٧).

٤) الهداية إلى بلوغ النهاية لمكي بن أبي طالب (٦٤٤١/١٠).

٥) انظر: التفسير الحديث لدروزة (٣٧٤/٤).

٦) انظر: بحر العلوم للسمرقندي (٢٠٨/٣). والكشف والبيان للثعلبي (٢٧٨/٨). ولطائف الإشارات للقشيري (٣٠٨/٣). وتفسير السمعاني (٢٣/٥-٢٤). والجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٣١٨/١٥-٣١٩). وتفسير القرآن العظيم لابن كثير (١٤٦/٧). ونظم الدرر للبقاعي (٨٢/١٧).

الله ﷺ: ((إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار فيقال: هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة))[١].

وقوله: ﴿غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ يجوز أن يراد به حقيقة هذين الزمانين بوجه من الوجوه، ويجوز أن تكون كناية عن الدوام؛ لأن الزمان لا يخلو عن هاذين الوقتين.[٢]

٣٠) قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾: هذا بيان لمصيرهم يوم القيامة وذِكرٌ لعذابهم الخالد، بأن الأوامر الربانية تصدر بزج فرعون وآله المؤمنين به والمتبعين له والكافرين بموسى عليه السلام ورسالته أشدّ أحوال العذاب ودرجاتها، فإنهم قد اتبعوا فرعون بما ادعى لنفسه من الألوهية بلا حجة ولا برهان، ولا طالبوه بدليل أو آية، وتركوا اتباع موسى عليه السلام رغم ما أقام لهم من البينات والحجج والبراهين.

وفي ختام هذا البيان لهذا المقطع الأهم في السورة، فإن طوله يستلزم وضع خلاصة جامعة لإبراز ما فيها من تناسق موضوعي وما بين آياتها وجملها من تناسب وتتابع حسن بصورة مركزة، فأقول:

– قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ﴾: وهذه بداية عرض لقصة تامة من قصص القرآن الكريم، وهي لرجل مؤمن من آل فرعون المقربين، عرف الحق فاتبعه، ولم يحتج لإظهار إيمانه خوفا من فرعون وملئه فكتمه عن الجميع، فلمّا أبدى فرعون رغبته بقتل موسى عليه السلام، ظهرت الحاجة لهذا المؤمن أن يتحرك دفاعا عن الحق، ونصرةً لموسى عليه السلام، ودعوةً لقومه، ولو أدى ذلك إلى إظهاره لإيمانه وما يترتب على ذلك من تبعات قطعية كانت أو محتملة.

– ثم قال تعالى: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾: أول ما بدأ المؤمن خطابه توجه مباشرة وبقوة وثبات إلى المقصود الأعظم من موعظته وهو حماية موسى عليه السلام ودفع القتل عنه، فدخل عليهم بأسلوب استفهام يستنكر من خلاله أن يقتلوا رجلا لأجل أنه يقول بأن ربه الله، مع أنه قد أيدّ مقالته بالآيات والمعجزات الواضحات من ربه وربهم بما لا يدع مجالا للشك فيه أو تكذيبه، فهذا الأمر لا يستقيم في ميزان الحق والعدل، ولا في ميزان العقل والمنطق.

---

١) متفق عليه، صحيح البخاري، كتاب الجنائز، وباب الميت يعرض عليه مقعده بالغداة والعشي، برقم "١٣٧٩" (٢/٩٩).
وصحيح مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، وباب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه، وإثبات عذاب القبر والتعوذ منه، برقم "٢٨٦٦" (٤/٢١٩٩).
٢) انظر: التحرير والتنوير لابن عاشور (٢٤/١٥٨-١٥٩).

- ثم قال تعالى: ﴿ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيۡهِ كَذِبُهُۥۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبۡكُم بَعۡضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ كَذَّابٞ ﴾: بدأ المؤمن ينوّع في أساليب دعوته لأجل أن يستميل قلوب القوم ويحملهم على التفكر في الكلام دون التفكر في شخص المؤمن وإيمانه، فرجع المؤمن من أسلوب القوة والمباشرة إلى أسلوب المحايدة بأن جعل قول موسى عليه السلام محتملا للصدق والكذب، فبين ذلك لهم وبيّن ما يترتب على كل احتمال، فإن يك كاذبا فوزر كذبه وضرره يعود عليه وحده دون غيره، فمم تخافون؟! فإن ادعاء نبوة كاذبة ستكون مجردة من أي توفيق ونصرة وعون من الله تعالى، فالله لا ينصر إلا رسله وأولياءه، وإن يك صادقا فقد علمتم أن من أرسله ما كان ليدعه وحده، وبالتالي إن كفرتم به أو قتلتموه فسيصيبكم مما توعدكم به قليل أو كثير، عاجلا أو بعد حين، فاختاروا لأنفسكم ما ترونه الأسلم، وتجنبوا الطغيان في القول والعمل، فإن الله تعالى بلا شك لا يعين ولا يوفق من هو مسرف في اعتقاده بالشرك والكفر، وفي أفعاله بسفك الدماء، وفي أقواله بالكذب والمغالطة المتعمدة.

- ثم قال تعالى: ﴿ يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَاۚ ﴾: بدأ ينتقل إلى أسلوب آخر، من المحايدة إلى الترهيب، فلما بيّن لهم ضلال المسرف الكذّاب، ذكر أسباب ذلك وهي أن الإسراف والكذب من أقوى دعائمه ودوافعه الاغترار بالملك والسلطان والقوة، فأخبرهم بأن الملك لهم اليوم على الناس، وهم ظاهرون على موسى عليه السلام وبني إسرائيل والمؤمنين، لكنّ الأيام دول، وزوال الملك وذهاب السلطان أمر محتمل، فمن ينقذهم وينصرهم من أخذ الله وعقابه لهم على كفرهم وإسرافهم في القتل والمعاصي إن جاءهم وحقَّ عليهم؟!

- ثم قال تعالى: ﴿ قَالَ فِرۡعَوۡنُ مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾: لما بدأت الموعظة تلامس عقول السامعين، تكلم فرعون ليشتتهم عن المؤمن ويقنعهم برأيه، فاتبع أسلوب الاستعطاف بأنه ما يريهم من الرأي إلا ما يراه صالحا لنفسه، شبّه نفسه بمن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، وأنه ما يرشدهم برأيه قتلَ موسى -عليه السلام- إلا إلى طريق الفلاح والنجاة، فيريهم أن المصلحة في ذلك للجميع وليس له وحده، ليستعطفهم فيلتفوا حوله.

- ثم قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ ٣٠ مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ ٣١ ﴾: وفيه نرى المؤمن يتبع أسلوبا دعويا فذا، فهو

يُعرض عن جواب فرعون ويستمر في إكمال موعظته مركزا في هدفه دون أن يسمح لأحد بتشتيت أفكاره، وهذا الأسلوب من أقوى الأساليب الدعوية، لأن الإنجرار إلى النقاشات الجانبية تفتت الفكرة الأصلية وتضعف من قوتها فيتسلل الخصم من خلالها ليهدم بنيانها ويكسب الجولة.

وكذلك نجد المؤمن يتبع أسلوبا آخر يستميل به قلوب قومه وهو إظهاره لحرصه وشفقته وخوفه عليهم، فهو بحق يكره لهم ما يكره لنفسه، وليس كفرعون الذي يدّعي بأنه يحب لهم ما يحبه لنفسه.

ونجد أيضا أن المؤمن قد أضاف إلى أسلوب الترهيب أسلوبا آخر وهو التذكير بسنن الله في الأمم الغابرة، ليعتبروا بها فيسعدوا بالنجاة ولا يكونوا عبرة لغيرهم، فخوّفهم وذكّرهم بأيام الأحزاب التي تحزبت ضد رسلها فأهلكهم الله، من مثل قوم نوح -عليه السلام- وعاد وثمود، ومن بعدهم كثير، فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون.

- ثم قال تعالى: ﴿وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ﴿٣٣﴾﴾: وبعد أن ذكّرهم بأيام الله في الأمم الغابرة، بدأ يذكّرهم بيوم الحساب، فإن من نجا من عذاب الدنيا فإنه لن ينجو من عذاب الآخرة حتما، فخاف عليهم وذكّرهم بيوم التناد وهو يوم القيامة، في مشاهد تجمع بين الغبطة والندامة، والسرور والحسرة، واللذة والألم.

ثم يذكّرهم بأن لانكشاف الحقائق ومعاينة العذاب هولا وفزعا يجعلهم يفرّون مدبرين حيث لا مهرب ولا ملجأ ولا عاصم إلا الله تعالى، وكل هذا التذكير كاف في إيقاظ الضمائر وإحياء القلوب، لكن من يكتب الله عليه الضلالة فمحال أن يجد له هاديا إلى الحق ومرشدا إلى الإيمان.

- ثم قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَكُمۡ يُوسُفُ مِن قَبۡلُ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلۡتُمۡ فِي شَكّٖ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلۡتُمۡ لَن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِهِۦ رَسُولٗاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ مُّرۡتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡۖ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ ﴿٣٥﴾﴾: ويستمر المؤمن في موعظته يستميلهم ويقنعهم، وهنا يذكّرهم بصنيع أسلافهم مع رسول أُرسل إليهم من قبل بالآيات البينات والمعجزات الواضحات وهو يوسف عليه السلام، فكان صنيعهم الشك والارتياب فيما جاءهم به من عند الله حال وجوده بينهم، حتى إذا مات نبيهم قالوا حينها متحسرين لن يبعث الله إلينا من بعده رسولا يهدينا ويرشدنا، أو قالوا مستريحين لن يبعث الله رسولا آخر

يقيم علينا الحجة، وهكذا يكتب الله الضلالة على كل مسرف في الكفر والعصيان ومرتاب في الإيمان بلا برهان، الذين يخاصمون في حجج الله وآياته البينات بغير دليل قاطع ولا برهان ساطع، قد عَظُمَ صنيعهم هذا عند الله سخطا وكرها، وعند المؤمنين كذلك فإنهم لا يحبون التقول على الله بغير علم فضلا عن الكفر به وبآياته بغير دليل يحملهم على ذلك، وهكذا يختم الله على كل قلب متكبر على الحق وجبار متعاظم في الخلق.

- ثم قال تعالى: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ ﴾: وهذه جولة ثانية من فرعون لكسر تأثير موعظة المؤمن وتشتيت الناس عنها، فنادى مباشرة وزيره هامان آمرا إياه بأن يبني له بناء ذاهبا في السماء يكشف له طرقها وأبوابها ومنازلها ليلقي نظرة على إله موسى -عليه السلام- فيتحقق من صدق وجوده، ومن صدق دعوة رسوله، موحيا في نفس الوقت بأنه يرجح مسبقا بأنه كاذب، فما ثَمَّ إله في السماء ولا ثَمَّ رسول له في الأرض، وهكذا حُسِّنَ لفرعون كفره وسوء فكره وصنيعه فرآه حسنا، وصُدّ عن الصواب فلم يهتدِ إليه، وما مكره وكيده إلا في خسار وهلاك.

- ثم قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ ﴾: مجددا نرى المؤمن يثبت على أسلوبه الدعوي الفذ، فيمضي في موعظته دون أن يسمح لأحد بتشتيت أفكاره وبعثرة كلامه، مؤكدا لقومه بأنه ما يدلهم ولا يدعوهم إلا إلى طريق الفلاح والصواب فعليهم أن يتبعوه ويطيعوه فهو لهم ناصح أمين.

- ثم قال تعالى: ﴿ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ ﴾: ينتقل المؤمن إلى أسلوب آخر وهو الترغيب، فيبين لهم ضآلة الدنيا وأيامها، ويؤكد لهم بقاء الآخرة وقرارها، وفيها جزاء السيئة بمثلها، وجزاء الحسنات الصادرة من المؤمنين والمؤمنات جناتٌ لهم فيها نعيم مقيم، ورزق وفير بلا كيل ولا وزن.

- ثم قال تعالى: ﴿ ۞ وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ لَيۡسَ لَهُۥ دَعۡوَةٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَلَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ ﴾: ينتقل المؤمن إلى أسلوب آخر وهو المقارنة بين الحسن والسيء، والمعقول والمستهجن، فبضدها تعرف الأشياء، فكيف يدعوهم إلى النجاة من النار وهم يدعونه إلى الوقوع فيها؟! وكيف يدعونه إلى الكفر والشرك بالله بلا علم ولا بينة وهو يدعوهم إلى الإيمان بالعزيز الغالب والعفو الغافر؟! كيف يفعلون ذلك ومن المؤكد أن ما يدعونه إليه من عبادة الأوثان والأصنام ليس لها دعاء ورجاء لا في الدنيا ولا في الأخرة فهي جماد لا تملك نفعا ولا ضرا ولا حياة ولا موتا ولا نشورا، ومن المؤكد كذلك أن مرجعنا إلى الله جميعا، ومن المؤكد كذلك أن أهل الإسراف في الكفر والشرك والقتل هم أهل النار.

- ثم قال تعالى: ﴿ فَسَتَذۡكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمۡۚ وَأُفَوِّضُ أَمۡرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴿٤٤﴾ ﴾: لتكون ديباجة الكلام ومسك الختام في دعوة المؤمن وموعظته، فقد بيّن لهم الحق بطرائق شتى، والآن ينصرف عنهم وهو يؤكد أن ما قاله حق سيرونه واقعا يوم ما، فحينها سيذكرون جميع ما قاله لهم، وأما هو فإنه يتوكل على الله ويولّيه أمره، فالله بصير وخبير به وبعباده، يعاقب بعدله ويثيب برحمته.

- ثم قال تعالى: ﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۖ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٦﴾ ﴾: لتكتمل القصة ببيان نتائجها وعواقبها، فالمؤمن نجا، والكافر ومن معه هلك في الدنيا، وعّذب في القبر، وسيدخل أشد العذاب يوم القيامة.

وبهذه الآية تنتهي قصة مؤمن آل فرعون، وقد رأينا فيها فصولا من الدعوة إلى الحق والنهي عن الباطل في صورة معركة قائمة سلاحها الحجة والبيان، والجهاد باللسان، في صورة تجسد مشهد كلمة حق عند سلطان جائر، وقد اشتملت نصائح المؤمن على أتم درجات الترغيب والترهيب لأجل صدّ فرعون عن قتل موسى عليه السلام، ولدعوة قومه ونصحهم محبة لهم وشفقة عليهم، وهذه كلها مواقف ومشاهد وكلمات تتماشى مع سياق السورة البياني، وتتناسق مع موضوعات السورة، وتتناسب فيما بينها لتكّون وحدة معنوية تؤدي غرض الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كفا لأذى المشركين ونشرا لدعوة المرسلين في أشد مراحل

الدعوة صعوبة ومشقة، حين يقل ناصر الحق ويضعف ساعد المؤمنين، ويكثر أعوان الباطل ويقوى كيد الظالمين، وحين تتلى هذه الآيات في أروقة المشركين وأفنيتهم ونواديهم بمكة، فلربما قام بينهم من يقول كلمة الحق عند سادات قريش الجائرين الظالمين، ليردعهم عن قتل المؤمنين والتنكيل بهم، ولربما كان من بعض ثمار هذه السورة وأمثالها ما جرى من كسر الحصار عن بني هاشم وتمزيق الصحيفة الباطلة المعلقة في جوف الكعبة، وقد تبين من آيات السورة عموما، ومن قصة مؤمن آل فرعون خصوصا ما للحق وكلمته من قوة رادعة لأعتى آلات القمع وأدوات الكبر والاستبداد، حيث استطاع فرد أن يؤثر في قرار فرعون، وحمله إلى التقهقر عن قتل موسى عليه السلام حينا من الزمان، مما أعطى فرصة كافية له ولمن آمن معه من تدبير أسباب النجاة والخلاص، والخروج من بين يدي سلطان الطغاة إلى ساحل الأمان، وكذا حصل مع النبي محمد ﷺ حين تآمرت قريش على قتله، فأخرجه الله من بين أيديهم سالما حتى هاجر إلى المدينة ووصل إليها سالما، "وأسلوب آيات القصة ومضمونها يؤكدان أن هدفها هو إنذار الكفار العرب وتخويفهم، وتطمين النبي ﷺ والمؤمنين بأن ما يلقونه هو ما كان يلقاه الرسل والمؤمنون السابقون الذين أيدهم الله ونصرهم وأهلك أعداءهم"[١]، وسورة غافر قد أدّت دورا مركزيا في ردع عدوان قريش الصائل، وصرف أذى الكافرين، وتمكين الأسباب للرسول ﷺ، وتقوية شوكة المؤمنين في أصعب جولات المعركة القائمة بين الحق والباطل، وأصعب فترات المحنة على الدعوة الإسلامية.

"ولقد ذكرت الروايات بعض مواقف لبعض المؤمنين استنكروا ما كان يبدو من بغاة قريش من عدوان وطغيان ضد النبي ﷺ، ومنهم من كان هذا سببا لإيمانه وإعلانه مناصرة النبي ﷺ، مثل حمزة عمه الذي ثار غضبه على أبي جهل حينما علم بموقف شديد بذيء له مع النبي ﷺ حيث ضربه فشجه، ثم أعلن إسلامه أمام ملأ من قريش في فناء مكة، ولقد وجد أبو بكر يوما بعض بغاة قريش محدقين بالنبي ﷺ وأحدهم يشد رداءه على عنقه فأخذ يصرخ باكيا: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ حتى تعرض هو نفسه للأذى والشر، ولقد ذكرت الروايات فيما ذكرت أن بعض زعماء قريش المعتدلين كانوا ينصحون قومهم بترك النبي ﷺ وشأنه فإن نجح كان في نجاحه عزهم وقوتهم، ومنهم من كان يبدي دهشته من بلاغة القرآن وروحانيته وينكر أن يكون شعر شاعر وسجع كاهن وتخييل ساحر.

ففي قصة الرجل المؤمن مماثلة لبعض هذه الصور وتذكير بمواقف مماثلة في سياق قصة رسول من رسل الله السابقين"[٢].

---

١) التفسير الحديث لدروزة (٣٦٦/٤).

٢) التفسير الحديث لدروزة (٣٦٦/٤-٣٦٧).

المطلب الرابع: التفسير الإجمالي للآيات[1]:

تحكي الآيات الكريمات عن قصة رجل مؤمن ينتمي لآل فرعون وهو يُسِرُّ إيمانه عنهم، وقد انبرى لدفع القتل عن موسى عليه السلام ودعوة قومه للإيمان، فأصغى فرعون لكلامه، وتوقف عن قتل موسى عليه السلام عند نهيه له عن قتله، وقد اشتملت دعوته وخطابه وحواره مع فرعون وقومه ما يلي:

١-قام مستنكرا مستبشعا قتل رجل بسبب مقالته أن ربه الله، وقد أتاهم على صحة دعواه بحجج واضحات من عند ربهم منها يده وعصاه، فذكر لهم أن هذا لا يستقيم في عقل ولا عاطفة، وأنه إن كان كاذبا في مقالته فكذبه يعود عليه ويأثم به ولا يضر غيره، ولكن إن يك صادقا فإصابتكم بشيء مما يتوعدكم به قائم، فخذوا حذركم ولا تتهوروا في بطشكم، فلا حاجة بكم إلى قتله، فتزيدوا ربكم بذلك إلى سخطه عليكم بكفركم سخطا، فإن الله تعالى لا يرشد ولا يوفق للحق من تجاوز حدوده في الأفعال وجانب الصدق في الأقوال.

٢-ثم أخذ يذكّر قومه ومقصوده الأول من كلامه فرعون، بأنه مازال الملك والحكم والسلطان بأيدكم ظاهرين على بني إسرائيل في أرض مصر، لكن أنّى لكم الأمان من شدة الله وسطوته إن نزل بكم، ومن يدفع عنكم عقوبته إن حلّ بكم؟!

٣-فأجاب فرعون بأنه لا يُغَرِرُ بهم، بل لا يريهم في الرأي إلا ما يراه لنفسه ولقومه صلاحا وصوابا، ولا يدلهم ويوجههم إلا إلى طريق الحق والنجاة والفلاح في أمر موسى -عليه السلام- وقتله، فإنهم إن لم يقتلوه بدل دينهم، وأظهر في أرضهم الفساد.

٤-أعرض المؤمن عن جواب فرعون وركز في هدفه ودعوته وقال مناديا قومه ومحذرا إياهم إن هم قتلوا موسى عليه السلام مصيرا كمصير الأحزاب التي اجتمعت ضد أنبيائها من قبل، من مثل حال قوم نوح وعاد وثمود ومن جاؤوا بعدهم، وسنة الله الثابتة فيهم وفي أمثالهم، أن أهلكهم بتجرّئهم على أنبيائهم، فيُهلك هؤلاء كما أهلك أولائك، وما أهلك أولائك الأحزاب ظلما منه لهم بغير جرم اجترموه بينهم وبينه، فإنه لا يريد ظلم عباده، ولكنه أهلكهم بإجرامهم وكفرهم به وخلافهم لأمره.

٥-ثم حذّر قومه مجددا إن هم قتلوا موسى عليه السلام بعقاب الله وعذابه الأخروي في يوم التناد الذي ينادي فيه الناس بعضهم بعضا من فزع نفخة الفزع، وهول ما قد عاينوا من عظيم سلطان الله، وفظاعة ما

[1] انظر: جامع البيان للطبري (٢١/٣٧٥-٣٩٨).

غشيهم من كرب ذلك اليوم، وينادون على أنفسهم باللوم والويل والثبور، وينادى فيه كل أناس بإمامهم، وينادي فيه أهل الجنة وأهل النار بعضهم بعضا، هؤلاء لتذكير أهل النار بإنجاز الله إياهم الوعد بالجنة، وأولائك استغاثة بأهل الجنة مما لقوا من البلاء العظيم والعذاب الشديد، ويوم هذا حاله ستولون فيه هاربين وفارين حذار عذاب الله وعقابه عند معاينة جهنم، ما لكم من الله مانع يمنعكم، ولا ناصر ينصركم، وهذا المصير المؤلم مصير من خذله الله فلم يوفقه لرشده، ومن يخذل الله فما له من موفق يوفقه إلى الحق والصواب.

٦-وتابع نصيحته لقومه مذكرا إياهم برسالة يوسف -عليه السلام- الذي كان قد جاءهم بالبراهين والآيات الواضحات، فما آمنوا بها، وظلوا مرتابين فيما أتاهم به من عند ربهم غير موقني القلوب بحقيقته، حتى إذا مات يوسف -عليه السلام- قالوا يا أيها القوم: لن يبعث الله من بعد يوسف -عليه السلام- إليكم رسولا بدعوة التوحيد، وهكذا يصد الله عن إصابة الحق وقصد السبيل من هو كافر به مرتاب، شاك في حقيقة رسله وأخبارهم، الذي يجادل ويخاصم ويماري في آيات الله ومعجزاته ليدحض بباطله الحق من غير أن يكون معه حجة ولا برهان في دفع حجج الأنبياء وبراهينهم، وهذا الجدال والخصام والمراء من أفظع الأمور التي عظمت عند الله سخطا وكرها وعند أهل الإيمان لكونها مغالطات في مغالطات، وهكذا يطبع الله ويختم على كل قلب متكبر على الله أن يوحده ويصدق رسله، وجبار متعظم عن اتباع الحق.

٧-وهنا ثقلت موعظة المؤمن على فرعون، فتهرب منها داعيا وزيره هامان بأن يشيد له بنيانا عظيما ممتدا في السماء علوا حتى يبلغ بها طرق السماء وأبوابها ومنازلها بغية أن يطلع على إله موسى -عليه السلام- ويتمكن من رؤيته ويقف على حقيقته، مغلبا ومرجحا كذب موسى -عليه السلام- فيما يقول ويدعي من أن له في السماء ربا أرسله إليه، ويُعقّب الله تعالى على كلام فرعون بأنه هكذا يُحسّنُ ويزينُ لمن عتا على ربه وتمرد قبيحُ عمله فيراه حسنا جميلا، ومنطقيا معقولا، وبهذا يُصرفُ ويُصدُّ عن الطريق الحق والصراط المستقيم، وما احتيال فرعون الذي احتاله للاطلاع إلى إله موسى -عليه السلام-، إلا في خسارة وضلال، وغبن وضياع مال في بناء صرح لن ينال من نفقته عليها شيئا مما يبتغي ويريد.

٨-ومجددا يستكمل المؤمن دعوته ولا يلتفت لترهات فرعون وتفاهاته، فيدعو قومه لاتباعه -بعد أن رأوا من سخف أفكار فرعون ما رأوا- ولزوم طريقته وقبول كلامه فإنه سيبين لهم ويدلهم ويرشدهم إلى طريق الصواب والحق الذي به يَرشدون ويفلحون.

٩-ويواصل المؤمن دعوة قومه بتذكيرهم حقيقة هذه الحياة الدنيا العاجلة، وأنها مجرد متاع سرعان ما يزول ويفنى، وأن الدوام والاستقرار الذي ينشده كل عاقل ويعمل لأجله إنما في الدار الآخرة، التي يجزى فيها عامل السيئة والمعصية بسيئة مثلها يعاقب بها، وعامل الحسنة والطاعة والخير -سواء كان ذكرا أو أنثى بشرط أن يكون مؤمنا مصدقا بالله ورسالاته- يجزى بأن يدخل الجنة دار الثواب التي يرزق فيها من كل شيء بغير مسآءلة ولا عدّ ولا حدّ.

١٠-ثم يذكر قومه أنه يسير بهم ويدعوهم إلى أسباب النجاة من العقوبة والعذاب والفوز بالجنان، مستغربا أن تكون دعوتهم له دعوة إلى الهلاك والنار وعمل أهل النار، فكيف يدعوهم للإيمان ويدعونه للكفر بالله وإنكاره والإشراك به في عبادته أوثانا وغيرها؟! كيف وهو لا يعلم أنها تصلح عبادتها وإشراكها في عبادة الله، فإن الله لم يأذن له في ذلك بخبر ولا عقل؟! كيف يفعلون ذلك وهو يدلّهم ويدعوهم إلى عبادة العزيز في انتقامه ممن كفر به لا يمنعه أحد ولا يعجزه شيء، والغفار لمن تاب إليه بعد معصيته إياه وعفوه عنه، فلا يضره شيء مع عفوه عنه، فهذا أحق بالعبادة، لا ما لا ضرّ عنده ولا نفع، وحقا إن الذي يدعونه إليه من الأوثان، ليس له دعاء في هذه الدنيا ولا في الآخرة القادمة، لأنه جماد لا ينطق، ولا يفهم شيئا، ولا يضر ولا ينفع، وسيكون مرجع الجميع إلى الله تعالى، ومن تجاوز حدوده فطغى وبغى وأشرك بالله وسفك الدم الحرام فستكون عاقبته النار يصحبونها وتصحبهم.

١١-ثم يختم المؤمن موعظته فيقول لقومه بأنهم سيذكرون إذا عاينوا عقاب الله وقد حلّ بهم، ولقوا من العذاب ما لقوا صِدق ما يقول، وحقيقة ما يخبرهم به من أن المسرفين هم أصحاب النار، وهو يُسلم أمره إلى الله، ويجعله إليه ويتوكل عليه، فإنه الكافي لمن توكل عليه، وهو العالم بأمور عباده، يعلم المطيع منهم والعاصي، والمستحق لجميل الثواب، والمستوجب لسيئ العقاب.

١٢-وتنتهي قصة مؤمن آل فرعون ودعوته لفرعون وقومه، ليخبرنا الله تعالى عن مصير الفريقين، أما مصير المؤمن فقد كفاه الله ووقاه وأنجاه ودفع عنه مكروه ما كان ينال به فرعون وملؤه أهل الخلاف عليهم من العذاب والبلاء، فأنجاه الله منهم بإيمانه وتصديق رسوله موسى عليه السلام. وأما مصير فرعون وقومه المكذبين فقد أحاط بهم وحلّ بهم ما أساءهم من عقاب الله وعذابه من الغرق وعذاب النار، فهي تعرض عليهم في حياة البرزخ مرتين في اليوم صبحا ومساء، وهذا دأبهم إلى قيام الساعة، فإذا قامت الساعة قال الله تعالى: ﴿أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ في جهنم وبئس المصير -نسأل الله السلامة والعافية-.

المطلب الخامس: بيان ما ترشد إليه الآيات[1]:

١- قصة مؤمن آل فرعون في جُلِّ محاورها دروس في الدعوة، ومن أهم هذه الدروس:

أ- أهمية الإيمان العميق في قلب الداعية إلى الله، وأثر ذلك في قلوب المدعوين، ففضل الإيمان وفضل صاحبه أمر ظاهر في القصة، وما فصاحة مؤمن آل فرعون إلا ثمرة إيمانه وبركته العاجلة، فكانت لكلماته وقع كبير في النفوس، فقوة الإيمان تفجّر في قلب المؤمن أنواعا من المعرفة والحكمة لا حدود لها، ومدار التوفيق والقبول عليها.

ب- على الداعية ألا يتقاعس عن قول الحقيقة والنصح للحكام والدعوة إلى الله تعالى بالأسلوب الذي يقبله الناس ويجدي نفعا في جلبهم إلى الحق أو جلب أكثرهم، وأن الداعية عليه أن يعرض الدعوة بأسلوب غير متشنج ولا نزق، وإنما ينتقي الألفاظ والحجج التي يرضاها الحاضرون ويقنع بها أغلب السامعين، فالآيات تعلمنا أدب الحوار وأسلوب الداعية الذي يجب أن يستخدمه الدعاة إلى الله تعالى.

ت- وترشدنا الآيات أن أفضل طريقة للدعوة هي الترغيب والترهيب بأسلوب يبدو فيه الداعية حريصا على من يدعوهم وحريصا على هدايتهم ونجاتهم من سوء العاقبة، وهذه حقيقة الداعية فعلا.

ث- ومن أفضل وسائل الاعتبار التذكير بالأمم الهالكة إذ العاقل من اعتبر بغيره.

ج- كما أن الداعية يجب أن يتحلى بالخوف على مجتمعه وأمنه، وأن يكون منشغلا بإصلاحهم وإنقاذهم من المصير الأسود الذي ينتظرهم إن بقوا على ضلالهم وكفرهم.

٢- تشير الآيات إلى إفلاس فرعون وجميع الطغاة أمام الحقائق الواضحة والدين الحق، فيقوم بالتوسل بأشياء خارج المنطق والعقل وقَبُولِ الناس.

٣- ومن المستغرب حقا أن يخشى أصحاب السلطان والقهر -المعتمدين على الجند والجيش والعسكر المدجج بأنواع الأسلحة الفتاكة- من الأنبياء والرسل والقادة المصلحين الذين

---

١) انظر: أيسر التفاسير للجزائري (٥٣٠/٤-٥٣٨). والتفسير المنير (١١٨/٢٤-١٣٤). والتفسير الموضوعي لسور القرآن، جامعة الشارقة بإشراف د. مصطفى مسلم (٥٥٦/٦-٥٦٨).

ليس لهم إلا البيان القوي، والحجة الهادفة، والكلمة المؤثرة، والموعظة النافذة. وما ذاك إلا لأن الحق فوق القوة المادية وأثبت منها وأنفذ، لذا تهتز العروش بصوت الحق، ولا يتأثر أصحابها ببأس الأقوياء، وقوة الشجعان.

٤- التنديد بالإسراف في كل شيء، والكذب والافتراء والارتياب وعدم اليقين في كل شيء وعلى أي شيء، والله تعالى لا يهدي أبدا إلى الحق أهل الإسراف في المعاصي والكذب.

٥- الجدال بغير علم، والتقول على الله بغير برهان من أسباب الحرمان من الإيمان والتعرض لمقت المؤمنين بعد مقت الله تعالى، والمتكبر الجبار عرضة للطبع على قلبه ويومها يحرم الهداية فلا يهدى أبدا.

٦- التحذير من تزيين الأعمال القبيحة نتيجة الإدمان عليها والاستمرار على فعلها، فإن من زينت له أعماله السيئة فأصبح يراها حسنة هلك والعياذ بالله.

٧- التحذير من الاغترار بالدنيا والغفلة من الآخرة، إذ الأولى زائلة والآخرة باقية، واختيار الباقي على الفاني من شأن العقلاء.

٨- بيان الفرق الكبير بين من يدعو إلى النجاة وبين من يدعو إلى النار، بين من يدعو إلى العزيز الغفار ليؤمن به ويعبد وبين من يدعو إلى أوثان لا تسمع ولا تبصر وهي أحقر شيء وأذله في الحياة، بين من يدعو من لا يستجيب له في الدنيا والآخرة وبين من يدعو من يستجيب له في الدنيا والآخرة.

٩- نِعم ما ختم به مؤمن آل فرعون وعظه ونصحه لقومه وهي قوله: ﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ ﴾.

١٠- في الآيات دلالة على إثبات عذاب القبر ونعيمه إذ آل فرعون تعرض أرواحهم على النار صباح ومساء، وهذا في عالم البرزخ، وحين تقوم الساعة يدخلون أشد العذاب.

***

المبحث الرابع: مشهد الخصام بين أهل النار

ويشمل الآيات (٤٧-٥٠)

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓاْ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ بَلَىٰ قَالُواْ فَٱدْعُواْ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾ ﴾.

المطلب الأول: ربط الموضوع بالمحور الأساس للسورة:

بعد أن خدمت القصة محور السورة كما رأينا في آيات قصة مؤمن آل فرعون السابقة، والتي بدأت بالدفاع عن الحق ورسوله، وانتهت ببيان مصير المبطلين المسرفين من فرعون وآله، وكانت قصة فرعون نموذجا لأعلى مستويات الصراع بين قوى الخير والشر، جاءت آيات هذا المقطع لتبين عمومية هذا الصراع بين أهل الإيمان وأهل الكفر، ولتنقل لنا مشاهد ممتدة من هذا الصراع ولكن بوجه آخر، فبعد أن ينتهي الصراع بين أهل الحق وأهل الباطل إما بهلاك الظالمين أو بقيام الساعة ورحيل الفريقين، يبدأ صراع آخر ومخاصمة أخرى -مستقرها ومكانها بطن جهنم- بين أهل الباطل مع بعضهم البعض، فتلفت الآيات النظر إلى المحاورة الخصامية الجدلية المحكمية بين عموم الضعفاء والمستكبرين من سائر الأقوام والأمم، ليصلح درسا باقيا يأخذ منه العبرة من أراد إلى قيام الساعة، وقد ورد مثلها على لسان المستضعفين والمستكبرين العرب أيضا في سورة سبأ السابقة عند قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ سبأ: ٣١، الآيات، والقصد من هذا الإنذار والزجر للسامعين الحاضرين بالأساس، ردعا لعدوانهم عن الحق وأهله وهم في حالة الاستضعاف، ونصرة وتشجيعا للمؤمنين في مواجهة كيد الظالمين المستكبرين في الأرض بغير الحق، مبينا أن عاقبة المخاصمة والمجادلة بالباطل ستكون من جنسه مخاصمةً ومجادلةً لأنفسهم وفيما بينهم وهم في النار يكابدون ألم العذاب، جزاء وفاقا على ما كانوا يعملون، وكل هذه المشاهد تبين لنا أن الطابع الغالب في

السورة هو إدارة الصراع بين الحق والباطل بالفكر والحجة والترغيب والترهيب تمهيدا لمرحلة الصراع المادي بالقتال والجهاد لدفع الظلم والعدوان في المرحلة المدنية القادمة.[1]

تبين من هذا أن ذكر موقف المشركين والكافرين وهم في النار يتخاصمون وبخزنة جهنم يستغيثون ما هو إلا مرحلة جديدة ومشهد آخر لتمكين الترهيب الشديد في قلوب المعتدين، زجرا لهم عن التمادي في سلم الجرائم، ودعوة لهم بالانضمام لسلك المهتدين نجاة من الوقوع في المصير المؤلم والمنظر القاتم للواقعين في جهنم، لا يفتر عنهم العذاب ولا تنقطع عنهم الحسرات، وهذا متوافق مع محور السورة الأساسي توافقا تاما.

---

١) انظر: التفسير الحديث لدروزة (٣٧٢/٤).

المطلب الثاني: التناسق بين هذا الموضوع وسابقه:

يبادر الإنسان حينما يقع في فخ الحقيقة المرة والجزاء المؤلم إلى تقاذف المسؤولية ولوم الآخرين، وينسى نفسه وتقصيره، وذلك في الدنيا، لكن الكافرين يفعلون ذلك حتى وهم الآخرة، وهم في حال العذاب في النار، فهذا واقع قائم بين السادة والأتباع، حيث يشتد الجدل بينهم في ذلك المستقر، ويحاول كل فريق إلصاق التهمة بغيره والتملص من المؤاخذة، ولكن لا جدوى ولا فائدة من هذا الجدال، ولا يقبل عذر من المقصرين والظلمة، وفي الآيات التالية يصف الله تعالى لنا هذا اللون من الجدال الذي سيحدث بين أهل النار[1]، وقد ذكر أهل التفسير لهذه الآيات عدة مناسبات مع ما قبلها:

-فأولها: أنها ابتداء قصة جديدة لا تختص بآل فرعون، والضمير في قوله: ﴿يَتَحَآجُّونَ﴾ لجميع كفار الأمم، فبعد أن أوضح الله تعالى أحوال النار في عظة مؤمن آل فرعون، ذكر تعالى عقيبها قصة الجدل والنزاع والخصام والمناظرة التي تجري بين الرؤساء والأتباع من أهل النار، واستغاثة المجرمين، وهم في عذاب الجحيم يصلون سعيرها فلا يجابون، وهذه أرجح المناسبات لعموم دلالات الألفاظ.[2]

-ثانيها: أنها معطوفة على ما قبلها، والضمير عائد إلى فرعون وآله وهم يتخاصمون في النار، قاله أبو حيان[3]، لكونه الظاهر، وهذا مرجوح لعدم الحاجة إلى هذا التقدير، و"لأن ذلك يأباه قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ﴾، وقوله: ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ ولم يأت آل فرعون [الذين أهلكوا بالغرق] إلا رسول واحد هو موسى عليه السلام، فيعود ضمير يتحاجون إلى معلوم من المقام وهم أهل النار"[4]، وقيل: إنها معطوفة على قوله: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾غافر:٤٦، ويكون قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾غافر:٤٦، وهذا خلاف الظاهر وقليل الفائدة.[5]

---

١) انظر: التفسير الوسيط للزحيلي (٣/٢٢٧٦-٢٢٧٧).

٢) انظر: المحرر الوجيز لابن عطية (٤/٥٦٣). ومفاتيح الغيب للفخر الرازي (٢٧/٥٢٢). والبحر المحيط لأبي حيان (٩/٢٦٢). وصفوة التفاسير للصابوني (٣/٩٧). والتفسير المنير للزحيلي (٢٤/١٦٣).

٣) انظر: البحر المحيط لأبي حيان (٩/٢٦٢).

٤) التحرير والتنوير لابن عاشور (٢٤/١٦٠).

٥) انظر: روح المعاني للألوسي (١٢/٣٢٦-٣٢٧).

قال سيد قطب: "... ثم إذا كان يوم القيامة أُدخلوا أشد العذاب! فأما في الآية التالية فقد كانت القيامة فعلا، والسياق يلتقط لهم موقفا في النار! وهم يتحاجون فيها: ﴿ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَـٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا نَصِيبٗا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴾؟!"[1].

وقال ابن عاشور: "يجوز أن تكون ﴿ وَإِذۡ يَتَحَآجُّونَ ﴾ عطفا على جملة ﴿ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ٤٦ ﴾ لأن (إذ) و (يوم) كليهما ظرف بمعنى (حين) ، فيكون المعنى: وحين تقوم الساعة يقال: أدخلوا آل فرعون أشد العذاب، وحين يتحاج أهل النار فيقول الضعفاء إلخ ... وضمير ﴿ يَتَحَآجُّونَ ﴾ على هذا الوجه عائد إلى آل فرعون، ويفيد مع ذلك تعريضا بوعيد المشركين كما هو مقتضى المماثلة المسوقة"[2].

-ثالثها: أنها معطوفة على قوله: ﴿ إِذِ ٱلۡقُلُوبُ لَدَى ٱلۡحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَۚ ﴾ غافر:١٨، والمعنى: إذ قلوب -الذين أمر الرسول صلى الله عليهم وسلم بإنذارهم من مشركي قومه فكفروا- لدى الحناجر كاظمين وإذ هم يتخاصمون في النار، قاله الطبري، واستبعده غير واحد من أهل العلم لطول الفاصلة ولعدم الحاجة إلى هذا التقدير.[3]

قال ابن عاشور: "جوز أن يكون (إذ) معمولا لـ (اذكر) محذوف، فيكون عطفا على جملة ﴿ وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡأٓزِفَةِ ﴾ غافر:١٨، والضمير عائدا إلى ﴿ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ ﴾ غافر:٣٥، وما بين هذا وذاك اعتراض واستطراد؛ لأنها قصد منها عظة المشركين بمن سبقهم من الأمم المكذبين، فلما استوفي ذلك عاد الكلام إليهم، ويفيد ذلك صريح الوعيد للمشركين بعد أن ضربت لهم الأمثال كما قال تعالى: ﴿ وَلِلۡكَٰفِرِينَ أَمۡثَٰلُهَا ١٠ ﴾ محمد:١٠، وقد تكرر في القرآن موعظة المشركين بمثل هذا كقوله تعالى: ﴿ إِذۡ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ ﴾ البقرة:١٦٦، ... وقوله: ﴿ قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابٗا ضِعۡفٗا مِّنَ ٱلنَّارِۖ ﴾ الأعراف:٣٨"[4].

١) في ظلال القرآن (٥/٣٠٨٤).

٢) التحرير والتنوير (٢٤/١٦٠).

٣) انظر: جامع البيان للطبري (٢١/٣٩٨). والهداية إلى بلوغ النهاية لمكي بن أبي طالب (١٠/٦٤٤٣). والبحر المحيط لأبي حيان (٩/٢٦٢). والدر المصون للسمين الحلبي (٩/٤٨٦). وروح المعاني للألوسي (١٢/٣٢٧).

٤) التحرير والتنوير (٢٤/١٥٩-١٦٠).

-رابعها: أنها معطوفة على قوله تعالى: ﴿ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ ﴿٤﴾ ﴾غافر:٤ ، والمعنى: فلا يغررك تقلب قومك من المشركين في البلاد في الدنيا فإنهم سيتحاجون في النار في الآخرة، وهذا ضعيف لبعد المعطوف عليه ولا حاجة لعود إليه.[1]

١) انظر: روح المعاني للألوسي (١٢/٣٢٦-٣٢٧).

المطلب الثالث: التناسب بين الآيات والجمل والكلمات:

بعد أن أطالوا في الدنيا الجدال مع أنبياء الله ورسله، ومع أئمة الحق ودعاته، وبعد أن استمروا يجادلون الحق بالباطل بغية أن يُضعفوه أو يُزيلوه ويُزهقوه، ها هي ذي عادتهم في الجدال والخصام لا تنقضي، ولكنه خصام حسرة وتوجع، وجدال ندم وألم وتحسر، فيذكر الله تعالى حالة الحِجاج والخصام التي تقع بين أهل النار بعد أن ذكر مصير طائفة من أعتى أعداء الرسل والرسالات وهم فرعون وجنوده، فلما ذكر لنا عذابهم العاجل بالغرق، والذي نقلهم وأحالهم إلى عذاب شديد مستمر إلى قيام الساعة وهم في قبورهم في عالم البرزخ يعذبون غدوا وعشيا بالعرض على النار، والذي سينتهي بهم إلى دخول أشد درجات العذاب يوم القيامة في دركات جهنم -والعياذ بالله-، لما ذكر الله ذلك أعقبه بذكر جانب من حالهم وحال غيرهم من المشركين والكافرين السابقين واللاحقين وهم يتخاصمون في النار فيما بينهم، فحين فنيت خصومهم وخصوماتهم اتخذوا من بعضهم خصوما لبعض، وهكذا الباطل لا يمكن أن يعيش بلا اضطراب.

١) قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ﴾: هذا بداية لمشهد جديد من مشاهد عذاب أهل النار، يخبر الله فيه عن بعض أحوال أهلها، وفيه نجد حالة من الملاحاة والمخاصمة والمجادلة والتحاور بالحجة. وبين من؟ بين أهل النار وبعضهم. وفيم؟ في تخفيف شيء من العذاب.

٢) قوله تعالى: ﴿ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ ﴾: لما كان الناس طائفتان تابع ومتبوع، وآمر ومأمور، ولم يجدوا في النار قسيما لأنفسهم إلا هذه النسبة وهذه التفرقة، فحينها يتخذ التابع متبوعه خصما، ويتخذ المأمور آمره عدوا، وتبدأ جولات المحاجة والمخاصمة، فهذا شرح وبيان وتفصيل لخصومتهم، وهو قول ناشئ عن تحاجهم وتخاصمهم في النار، فابتدأت بالفاء لإفادة هذا المعنى، ومحاجة بعضهم لبعض تزيد في غيظ قلوبهم، فكما يعذبون بنفوسهم يعذبون بضيق صدورهم وببغض بعضهم لبعض.[1]

١) انظر: لطائف الإشارات للقشيري (٣/٣٠٩). والمحرر الوجيز لابن عطية (٤/٥٦٣). ومفاتيح الغيب للفخر الرازي (٢٧/٥٢٢). وأنوار التنزيل للبيضاوي (٥/٦٠). والتحرير والتنوير لابن عاشور (٢٤/١٦٠).

والضعفاء: أي في القدر والمنزلة في الدنيا، وهم عامة الناس الذين لا تصرف لهم في أمور الأمة. والذين استكبروا: هم أشراف الكفار وكبراؤهم وسادة القوم، أي الذين تكبروا كبرا شديدا، فاستكبروا على العباد، فكانوا رؤساءهم في الضلال، أو استكبروا على الله فكفروا به، فالسين والتاء فيه للمبالغة.[1]

٣) قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ﴾: لما كان الجميع في العذاب خالدون، لم يكن للمخاصمة بينهم مجال ولا معنى غير العذاب والنكال الذي هم فيه، فيكون باعثهم على الخصام إما لوعات الندم ومشاعر القهر، أو رغبات الانتقام وثورات الغضب، أو شدة العذاب وأحاسيس الألم، حينها يصيح أحد القسمين بقسيمها الآخر، طمعا في تقليل حسرةٍ، أو تنفيس غضبةٍ، أو تخفيف ألمٍ، فيقول الضعفاء التابعون للمستكبرين المتبوعين إنا كنا تحت أمركم وطوع مرادكم عمرنا كله، وكنتم أصحاب الكلمة علينا في الدنيا، فهلا كافأتمونا على ذلك بتحملّ جزء من العذاب وحصة من الألم، أم أنكم ستنكرون الجميل وتكفرون المعروف؟!، فقدم الضعفاء لطلبهم بمقدمة، "لقصد توجيهه وتعليله وتذكيرهم بالولاء الذي بينهم في الدنيا"[2]، وهي أنهم كانوا أتباعا لهم يطيعونهم في الأمر كله، ويدفعون عنهم المؤونة، وبهم كانوا يتكبرون على الناس، ولم تكن تبعية عادية، بل دعوهم إلى الضلالة وأغووهم وزينوا لهم الشرك والشر فأطاعوهم[3].

قال سيد قطب: "إن الضعفاء إذن في النار مع الذين استكبروا، لم يشفع لهم أنهم كانوا ذيولا وإمعات! ولم يخفف عنهم أنهم كانوا غنما تساق! لا رأي لهم ولا إرادة ولا اختيار! لقد منحهم الله الكرامة، كرامة الإنسانية، وكرامة التبعة الفردية، وكرامة الاختيار والحرية، ولكنهم هم تنازلوا عن هذا جميعا، تنازلوا وانساقوا وراء الكبراء والطغاة والملأ والحاشية، لم يقولوا لهم: لا، بل لم يفكروا أن يقولوها، بل لم يفكروا أن يتدبروا ما يقولونه لهم وما يقودونهم إليه من ضلال، وما كان تنازلهم عما وهبهم الله واتباعهم الكبراء ليكون شفيعا لهم عند الله، فهم في النار، ساقهم إليها قادتهم كما كانوا يسوقونهم في الحياة، سوق الشياه!"[4].

وقول الضعفاء للكبراء يتوسلون منهم تحمل حصة وجزء من عذابهم يحتمل أمرين:

---

١) انظر: بحر العلوم للسمرقندي (٢٠٨/٣). والمحرر الوجيز لابن عطية (٥٦٣/٤). والتحرير والتنوير لابن عاشور (١٦٠/٢٤).

٢) التحرير والتنوير لابن عاشور (١٦١/٢٤).

٣) انظر: بحر العلوم للسمرقندي (٢٠٨/٣). وتفسير القرآن العزيز لابن أبي زمنين (١٣٦/٤). وفتح البيان لصديق حسن خان (١٩٨/١٢). وتيسير الكريم الرحمن للسعدي (٧٣٩/١).

٤) في ظلال القرآن (٣٠٨٤/٥).

الأول: أنه على حقيقته، فهو ناشئ عما اعتادوه من اللجأ إليهم في مهمهم حين كانوا في الدنيا، فخالوا أنهم سيتولون تدبير أمورهم في ذلك المكان أيضا، ويكون الاستفهام بمعنى الأمر والطلب، ولهذا أجاب الذين استكبروا بما يفيد أنهم اليوم سواء في العجز وعدم الحيلة فقالوا: ﴿إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ﴾ أي لا يغني أحد عن أحد، ولو أغنينا عنكم لأغنينا عن أنفسنا. فيكون بهذا القول افتضاح عجز المستكبرين أن ينفعوا أتباعهم تحقيرا لهم جزاء على تعاظمهم الذي كانوا يتعاظمون به في الدنيا.

الثاني: أن قول الضعفاء ليس مستعملا في حقيقة الحث على التخفيف عنهم، فهم يعلمون أن أولئك الرؤساء لا قدرة لهم على ذلك التخفيف، ولكنه مستعمل في التوبيخ والإلزام بالحجة، أي: كنتم تدعوننا إلى دين الشرك فكانت عاقبة ذلك أنا صرنا في هذا العذاب، ولولا أنتم لكنا مؤمنين فنسلم من هذا العذاب، فهل تستطيعون الدفع عنا؟! فالاستفهام مقصوده المبالغة في تخجيل أولئك الرؤساء وإيلام قلوبهم، لأنهم هم الذين سعوا في إيقاع هؤلاء الأتباع في أنواع الضلالات ثم خذلوهم وتركوا الاهتمام بما هم فيه من العذاب، ويكون جواب الزعماء اعترافا بالغلط، أي دعوا لومنا وتوبيخنا فقد كفانا أنا معكم في النار.[1]

٤) قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ﴾: لما ذكر استغاثة الضعفاء أردفه بجواب السادة والكبراء، ولما كان المتكبر لا يجيب بإحسان وهو في حال السعة والرخاء فكيف سيجيب بالحسنى وهو في حال الكرب والألم، فنراهم يجيبون ملؤهم الضجر والضيق والتبرم والملل بإجابة مقتضبة أنه ما ثَمَّ هنالك أخذ وعطاء، فالجميع يصطلي العذاب، والكل في هذه النار، وقد قضى الله بين العباد بالعدل، فلا مجال لأي تغيير أو استئناف، فانصرفوا عنا فليس عندنا حيلة لأنفسنا ولا لغيرنا.

ولما كان جواب الذين استكبروا للذين استضعفوا جاريا في مجرى المحاورة جرد فعل قال من حرف العطف على طريقة المحاورة.[2]

---

١) انظر: الهداية إلى بلوغ النهاية لمكي بن أبي طالب (٦٤٤٣/١٠). ومفاتيح الغيب للفخر الرازي (٥٢٢/٢٧). ومدارك التنزيل للنسفي (٢١٥/٣). والتفسير المظهري لمحمد ثناء الله (٢٦٢/٨). والتحرير والتنوير لابن عاشور (١٦٠/٢٤-١٦٢). والتفسير الوسيط للزحيلي (٢٢٧٨/٣).

٢) انظر: التحرير والتنوير لابن عاشور (١٦٢/٢٤).

وقال ابن عرفة: "في الآية لف ونشر، فقوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ﴾ راجع لقوله: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ أي: إنا قد حصلنا جميعاً في النار، فَجُوزي كلّ على قدر عمله، أنتم على ضلالكم، ونحن على إضلالنا إياكم"[1].

٥) قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ﴾: بدل اشتمال من جملة ﴿إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ﴾ فكلتا الجملتين جواب لهم مؤيس من حصول التخفيف عنهم. والمعنى: إن الله قدّر لكل منا ومنكم عذابا، لا يزاد ولا ينقص ولا يدفع عنه ولا يتحمله عنه غيره، وقد قضى علينا وعليكم، وحكمه نفذ فينا وفيكم، فنحن مشتركون في العذاب وخالدون فيه، والله يوصل إلى كل أحد مقدار حقه من النعيم أو من العذاب، وهذا حكم الله فلا مطمع في التفصي من حكمه، فقد جوزي كل فريق بما يستحق، وأسكن أهل الجنة الجنة على تفاوتهم في الدرجات، وأهل النار النار على طبقاتهم في الدركات، فلا نحن من هذا البلاء خارجون، ولا هم مما هم فيه من النعيم منتقلون.

وما في هذه الجملة الثانية من عمومِ تعلقِ فعلِ الحكمِ بين العبادِ ما يجعلُ هذا البدلَ بمنزلة التذييل، أي أن الله حكم بين العباد كلهم بجزاء أعمالهم فكان قسطنا من الحكم هذا العذاب، وقد حكم بينهم ألا يؤاخذ أحدا بذنب غيره.[2]

٦) قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ﴾: لما تخاصموا فيما بينهم، ويئسوا من بعضهم، ولم يستطيعوا صبرا على ألم العذاب وشدة العقاب، ولم يجدوا مجالا لتخفيف ما هم فيه من جانب كبرائهم، وتنصل كبراؤهم من ذلك، أو اعترفوا بغلطهم وتوريطهم لقومهم وأنفسهم، وبعد أن ذاقوا شدة العذاب وضاقت حيلهم وأعيتهم عللهم وآلامهم، تمالأ الجميع، الأتباع والمتبوعون، وتوجهوا لمحاولة تخفيف العذاب عنهم إلى أقرب سلطة في جهنم وهم خزنتها، فيرفعون إليهم حاجتهم ودعائهم لعلهم يتحصلون بدعوة من خزنة جهنم على شيء ما ولو كان يسيرا. فلذلك أسند القول إلى ﴿ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ﴾، أي جميع من فيها من الضعفاء والمستكبرين.[3]

---

١) البحر المديد لابن عجيبة (١٤٠/٥).

٢) انظر: إعراب القرآن للنحاس (٢٧/٤). والهداية إلى بلوغ النهاية لمكي بن أبي طالب (٦٤٤٣/١٠-٦٤٤٤). ومفاتيح الغيب للفخر الرازي (٥٢٢/٢٧). ولباب التأويل للخازن (٧٥/٤). والبحر المحيط لأبي حيان (٢٦٣/٩). وتفسير القرآن العظيم لابن كثير (١٤٩/٧). وروح البيان لإسماعيل حقي (١٩١/٨). وروح المعاني للألوسي (٣٢٩/١٢). والتحرير والتنوير لابن عاشور (١٦٢/٢٤-١٦٣).

٣) انظر: إرشاد العقل السليم لأبي السعود (٢٨٠/٧). وروح البيان لإسماعيل حقي (١٩١/٨). والتحرير والتنوير لابن عاشور (١٦٣/٢٤-١٦٤).

وقال الفخر الرازي: "قيل لم لم يقل: (وقال الذين في النار لخزنتها) بل قال: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ﴾؟ قلنا فيه وجهان:

الأول: أن يكون المقصود من ذكر جهنم التهويل والتفظيع.

والثاني: أن يكون جهنم اسما لموضع هو أبعد النار قعرا، من قولهم بئرٌ جهنام أي بعيدة القعر، وفيها أعظم أقسام الكفار عقوبة، وخزنة ذلك الموضع تكون أعظم خزنة جهنم عند الله درجة، فإذا عرف الكفار أن الأمر كذلك استغاثوا بهم"[1].

٧) قوله تعالى: ﴿ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴾: لما ظن أهل النار أن الملائكة أرجى للاستجابة سألوا خزنة جهنم تخفيف يوم من أزمنة العذاب، يوم فحسب فإن شدة العذاب قد فاقت كل طاقة لهم على التجلد والتحمل، لعلهم في هذا اليوم يستطيعون التقاط بعض أنفاسهم التي مزقها العذاب الدائم، وهذا أنفع لهم من تخفيف قوة النار الذي سألوه من مستكبريهم بقولهم: ﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴾.

قال سيد قطب: "يوما. يوما فقط. يوما يلقطون فيه أنفاسهم ويستريحون، فيوم واحد يستحق الشفاعة واللهفة والدعاء.

ولكن خزنة جهنم لا يستجيبون لهذه الضراعة البائسة الذليلة الملهوفة، فهم يعرفون الأصول، ويعرفون سنة الله، ويعرفون أن الأوان قد فات، وهم لهذا يزيدون المعذبين عذابا بتأنيبهم وتذكيرهم بسبب هذا العذاب"[2].

وفي إضافة (رب) إلى ضمير المخاطبين ضرب من الإغراء بالدعاء، أي لأنكم يا خزنة جهنم أقرب إلى استجابة ربكم لكم فادعوه لأجلنا.

واليوم كناية عن القلة، أي يخفف عنا ولو زمنا قليلا.

---

١) مفاتيح الغيب (٥٢٢/٢٧). وانظر: أنوار التنزيل للبيضاوي (٦٠/٥). ومدارك التنزيل للنسفي (٢١٥/٣).
٢) في ظلال القرآن (٣٠٨٥/٥).

و ﴿مِّنَ ٱلۡعَذَابِ﴾ بيان لـ ﴿يَوۡمٗا﴾ لأنه أريد به المقدار فاحتاج إلى البيان على نحو التمييز.[1]

٨) قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ تَكُ تَأۡتِيكُمۡ رُسُلُكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ﴾: لما كان الإشفاق لحال المعاقَب يكون لأحد أمرين: إما لجور في القضاء والمحاسبة، أو غفلة وبعد عن حجة الرسالة، فيقررهم خزنة جهنم بالأمر الثاني دون الأول، لأنهم متيقنون أن الله قضى عليهم وحاسبهم حسابا عدلا لا ظلم فيه أبدا، فيقررونهم بحجة رسلهم أقامت عليهم أم لا؟ فكان "هذا جواب خزنة جهنم لهم بطريق الاستفهام التقريري المراد به: إظهار سوء صنيعهم بأنفسهم إذ لم يتبعوا الرسل حتى وقعوا في هذا العذاب، وتنديمهم على ما أضاعوه في حياتهم الدنيا من أوقات الدعاء ووسائل النجاة من العقاب، وما عطلوه من أسباب الإجابة، وهو كلام جامع يتضمن التوبيخ، والتنديم، والتحسير، وبيان سبب تجنب الدعاء لهم، وتذكيرهم بأن الرسل كانت تحذرهم من الخلود في العذاب.

والواو في قوله: ﴿أَوَلَمۡ تَكُ تَأۡتِيكُمۡ رُسُلُكُم﴾ هي واو العطف، عطف بها (خزنة جهنم) كلامهم على كلام الذين في النار من قبيل طريقة عطف المتكلم كلاما على كلام صدر من المخاطب إيماء إلى أن حقه أن يكون من بقية كلامه وأن لا يغفله، وهو ما يلقب بعطف التلقين، كقوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ﴾البقرة:١٢٤، فإن أهل النار إذا تذكروا ذلك علموا وجاهة تنصل خزنة جهنم من الشفاعة لهم، وتفريعُ ﴿فَٱدۡعُواْۗ﴾ على ذلك ظاهر على كلا التقديرين.[2]

قال الفخر الرازي: "أولئك الملائكة يقولون لهم: ﴿أَوَلَمۡ تَكُ تَأۡتِيكُمۡ رُسُلُكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ﴾ والمقصود أنه قبل إرسال الرسل كان للقوم أن يقولوا إنه ﴿مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖۖ﴾المائدة:١٩، أما بعد مجيء الرسل فلم يبق عذر ولا علة كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا ١٥﴾الإسراء:١٥، وهذه الآية تدل على أن الواجب لا يتحقق إلا بعد مجيء الشرع"[3].

٩) قوله تعالى: ﴿قَالُواْ بَلَىٰۚ قَالُواْ فَٱدۡعُواْۗ﴾: لما أجاب أهل النار بالإيجاب، وأقروا أن الحجة قامت عليهم بلا لبس ولا اشتباه، فحينئذ لا تجد الملائكة إلا حسم الأمر بأسلوب صارم وتهكمي: أن ادعوا ما

---

١) انظر: التحرير والتنوير لابن عاشور (١٦٤/٢٤-١٥٦).

٢) انظر: بحر العلوم للسمرقندي (٢٠٩/٣). وأنوار التنزيل للبيضاوي (٦٠/٥). والتحرير والتنوير لابن عاشور (١٦٥/٢٤).

٣) مفاتيح الغيب (٥٢٢/٢٧).

شئتم، واجهدوا أنفسكم بالدعاء ما شئتم، فلن تجدوا عليها جوابا، ولن تنالوا شيئا من مطالبكم، فقد أُعذرتم تمام الإعذار، وهذا جزاء صنيعكم فتحملوه.

وكذلك لما لم يسع أهل النار إلا الاعتراف بمجيء الرسل إليهم بالبينات قالوا: ﴿بَلَىٰ﴾ قد جاءنا النذير فكذبنا وقلنا ما نزّل الله من شيء، فرد عليهم خزنة جهنم بالتنصل من أن يدعوا الله بذلك، وأنهم لا يتجرؤون على ذلك لعلمهم أن الله لا يأذن به ولا يستجيب له، فأوكلوا أمرهم إلى أنفسهم بقولهم: ﴿فَادْعُوا﴾ تفريعا على اعترافهم بمجيء الرسل إليهم بالبينات وإقامة الحجة عليهم، أي كما توليتم الإعراض عن الرسل استبدادا بآرائكم فتولوا اليوم أمر أنفسكم فادعوا أنتم، ويكون الأمر في قوله: ﴿فَادْعُوا﴾ على معنى التهكم والهزء بهم، وإقناطهم عن الإجابة، وربما استعمل في الإباحة، أو في التسوية أي سواء دعوتم أو تركتم لا يستجاب لكم، وفيه تنبيه على خطأ السائلين في سؤالهم.[1]

١٠) ﴿وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾: لما كان الدعاء أصلا في الإجابة لم يتخلف أبدا، وكان يستجاب للمؤمن وللكافر –على خلاف في هذا بين أهل العلم–، أفادتهم الملائكة أو أخبرهم الله تعالى أن هذا الحال كان في الحياة الدنيا، أما اليوم فإن القاعدة قد تبدلت، وأصبح الأصل في دعاء الكافرين ضياعها عن الإجابة فلا تجاب أبدا.

وهذه الجملة من كلام خزنة جهنم يجوز أن تكون تذييلا لكلامهم يبين أن قولهم: ﴿فَادْعُوا﴾ مستعمل في التنبيه على الخطأ، أي دعاؤكم لن ينفعكم؛ لأن دعاء الكافرين المصرّين على كفرهم في النشأة الاولى التي هي دار الاختبار في ضلال وضياع، والواو اعتراضية، ويجوز أن تكون من كلام الله تعالى وقع تذييلا واعتراضا، اخبارا منه سبحانه لرسوله محمد ﷺ، وهذا أنسب بما بعده.[2]

وقد جاءت الأفعال في هذه الآيات على صيغة الماضي؛ لأنها وصف حال متيقنة الوقوع فحسن ذلك فيها.[3]

---

١) انظر: المحرر الوجيز لابن عطية (٥٦٣/٤). وأنوار التنزيل للبيضاوي (٦٠/٥). والتحرير والتنوير لابن عاشور (١٦٥/٢٤).

٢) انظر: مدارك التنزيل للنسفي (٢١٥/٣). والفواتح الإلهية للشيخ علوان (٢٦٥/٢). وروح المعاني للألوسي (٣٢٩/١٢). وفتح البيان لصديق حسن خان (١٩٩/١٢). والتحرير والتنوير لابن عاشور (١٦٥/٢٤).

٣) انظر: المحرر الوجيز لابن عطية (٥٦٣/٤).

١١) وجدنا أن هذا المقطع يعالج قضية مركزية في الصراع بين البشر، وهي قضية الأتباع، فإن كل طاغية وكل مستبد وظالم إنما يستمد قوته وجبروته من أتباعه وجنوده، وكلما كان أولائك الأتباع إمعات يسمعون ويطيعون ببلاهة عقل وبلادة حس كان طغاتهم أكثر جرأة وأعظم فسادا وإفسادا في الأرض، وهكذا يصوّر لنا القرآن الكريم مشهدا بئيسا لحال الأتباع حين استفاقوا في النار فرأوا شدة العذاب وتبين لهم خسة الرؤساء والكبراء، فحينها يتجرعون غصص العذاب والحسرات معا، ويقدم الله هذا المشهد في هذه السورة ليخاطب الأتباع المستضعفين من المشركين علّهم يتداركون أنفسهم وينفضوا أيديهم عن أئمة الكفر وأكابر المجرمين، فإنهم إن فعلوا ذلك اليوم نجوا بأنفسهم، ومنحوا الحق قوة في معركته مع الباطل، فتنكسر شوكة المبطلين وتخور عزيمة الظالمين، وهذا يتوافق مع محور السورة الأساسي القائم على نصرة المؤمنين وردع الكافرين عنهم.

ولم يكتف المقطع بمخاطبة الأتباع، بل وجه بعدها رسالة عامة لأهل النار أيا كانوا بأن عذابها لا يطاق، ولأجل دفعها أو رفعها فإن دعاؤهم لا يجاب، وفي هذا تحذير وترهيب عظيم من حالة تجمع بين العجز عن الصبر على العذاب الأليم وعدم القدرة على الخروج أو الهروب من دوامة العذاب -نسأل الله السلامة والعافية-.

المطلب الرابع: التفسير الإجمالي للآيات:

يقول الله تعالى لنبيه محمد ﷺ: واذكر لقومك من المشركين المكذبين -ليعتبروا ويتعظوا- مصيرا لأهل النار من السابقين واللاحقين وهم يتخاصمون فيها، فيصيح الضعفاء والتابعون منهم بأسيادهم، والمطيعون بكبرائهم، يتمننون عليهم بما سلف منهم من الخدمة والطاعة والنصرة والتبعية لهم في كل شيء حتى في الكفر والضلال والإشراك بالله تعالى، ويسألونهم -مكافأة على ذلك- هل يا سادتنا وكبرائنا أنتم اليوم متحملون ومخففون عنا شيئا وحظا من العذاب؟!

لكن أهل النار تساوى حال أدناهم بأعلاهم في أصل العذاب، فردوا عليهم بأنا وإن كنا أئمتكم في الكفر والضلالة فقد أصبحنا جميعا في النار مصيرنا المشترك، خالدين فيها وأن تفاوتت درجات عذابنا، فإن الله قد قضى بين العباد بالعدل، وأسكن أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، وقد قضى أن لا يعذب أحدا بذنب غيره، فذقوا جزاء أعمالكم ونحن نذوق جزاء أعمالنا وما من محيص ومخرج عن هذا البلاء.

ومن شدة العذاب وهولها وعظيم بلائها لا يطيق أهل النار صبرا فيبحثون عن ملاذ آخر لعلهم يجدون فيه مخرجا ومهربا من هذا العذاب، فينادون ويستغيثون بالملائكة خزنة جهنم وقُوَّامُها رجاء أن يجدوا من عندهم فرجا، أن يا ملائك ارفعوا الدعاء لربكم أن يكشف أو يخفف العذاب عنا ولو بمقدار يوم واحد، ولو كان هذا اليوم بقدر أيام الدنيا، فالحال فوق التحمل والتجلد.

لكن ملائكة العذاب قد علمت أنهم ما دخلوا النار إلا بحساب عادل، فيقررونهم هل جاءهم رسول من أنفسهم بآيات الله وبيناته على وحدانيته فأقام عليهم حجة الحق أم لا؟! فيجيبون بلى، قد قامت علينا حجة الحق بلا ريب، فيُقال لهم: ففيم دعاؤكم الآن، وفيم دعاؤكم لنا، ادعوا ربكم الذي دلّكم عليه رسلكم، ادعوا ما شئتم لكن لا مجيب لكم، فدعاء من كفر بالله وجحد الحق في ضياع لا يسمع ولا يستجاب أبدا.

المطلب الخامس: بيان ما ترشد إليه الآيات[1]:

١- بيان لتخاصم أهل النار وهو ما يتم من خصومة بين الأتباع الضعفاء والمتبوعين الرؤساء الذين استكبروا عن الانقياد لرسل الله عليهم الصلاة والسلام.

٢- التنديد بالكبر والاستكبار إذ الكبر عائق عن الطاعة والاستقامة.

٣- عدم استجابة دعاء الكافر في الآخرة، وعدم قبول المعذرة يوم القيامة، وعدم استجابة الدعاء في النار.

٤- قالت الخزنة: ألم تأتكم الرسل بالبينات الدالة على طريق النجاة، والحيلولة بينكم وبين سوء العاقبة؟! وفي هذا دليل على أن الواجب لا يتحقق إلا بعد مجيء الشرع، فلا تكليف قبل إرسال الرسل وإنزال الشرائع، ولا عقاب أيضا، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾الإسراء: ١٥.

٥- في الآيات بيان لقضية مركزية في حياة الناس، وهي التبعية للغير، فإنه ما من أحد من البشر إلا وهو تابع لغيره بشكل من الأشكال، وما من أحد إلا وهو متبوع بوقت من الأوقات، وفي الحديث: ((كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته))[2]، ولضبط العلاقة بين التابع والمتبوع وفق منهج رباني سليم، لابد أن لا يطيع التابع إلا في خير وحق، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة، وكذلك المتبوع والراعي يلزمه أن لا يأمر إلا بخير وحق، وألا يأمر بمعصية، وبذا تستقيم الحياة وتتوازن بين الفريقين، ويسلم كل فريق من وزر الآخر وذنبه، وقد قال النبي ﷺ: ((لا تكونوا إمعة، تقولون: إن أحسن الناس أحسنا، وإن ظلموا ظلمنا، ولكن وطِّنوا أنفسكم، إن أحسن الناس أن تحسنوا، وإن أساءوا فلا تظلموا))[3].

***

١) انظر: أيسر التفاسير لأبي بكر الجزائري (٥٤١/٤). والتفسير المنير للزحيلي (١٣٨/٢٤-١٣٩).

٢) متفق عليه: صحيح البخاري، كتاب الجمعة، وباب الجمعة في القرى والمدن، برقم "٨٩٣" (٥/٢).

وصحيح مسلم، كتاب الإمارة، وباب فضيلة الإمام العادل، وعقوبة الجائر، برقم "١٨٢٩" (١٤٥٩/٣).

٣) سنن الترمذي، أبواب البر والصلة، وباب ما جاء في الإحسان والعفو، برقم "٢٠٠٧" (٤٣٢/٣)، وقال الترمذي: حديث حسن غريب. وقال التبريزي في مشكاة المصابيح: يصح وقفه على ابن مسعود رضي الله عنه، وقال الشيخ الألباني: ضعيف. انظر: مشكاة المصابيح بتحقيق الألباني برقم "٥١٢٩" (١٤١٨/٣).

المبحث الخامس: وعد الله الحق بنصر الرسل والمؤمنين

ويشمل الآيات (٥١-٥٥)

قال تعالى: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٤﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٥٥﴾ ﴾.

المطلب الأول: ربط الموضوع بالمحور الأساس للسورة:

جاءت هذه الآيات كالنتيجة لكل ما سبق في السورة من قوله تعالى: ﴿ مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ غافر:٤، فجميع تلك المواقف والمشاهد والمواعظ في الدنيا والآخرة عبرتها المستخلصة منها هي في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا ﴾ الآية، ففيها تأكيد بحتمية غلبة الحق في معركتها هذه على الباطل، وهي كذلك تسلية للرسول ﷺ وبشرى يقينية له ولأتباعه المؤمنين بالنصر والأجر، وقد جاءت بعد جولات عديدة من المحاجة العقلية التي بذل فيها المؤمنون ما يعرفون من حجج وما يستطيعون من وسائل ليقرر الله عز وجل حقيقة طالما أكدها الله في كتابه وهي: أن النصر كائن للرسل والمؤمنين على مجادليهم، وأن السعادة كائنة لهم في الدنيا والآخرة، فلا تغيظهم مغالطة المجادلين وعنادهم، ولا يغرنهن تقلب الذين كفروا في البلاد.[1]

قال ابن عاشور: قوله تعالى: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا ... ﴾ "كلام مستأنف وهو استخلاص للعبرة من القصص الماضية مسوق لتسلية الرسول ﷺ ووعده بحسن العاقبة، وتسلية المؤمنين ووعدهم بالنصر وحسن العاقبة في الدنيا والآخرة.

وذلك أن الكلام من ابتداء السورة كان بذكر مجادلة المشركين في القرآن بقوله تعالى: ﴿ مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ غافر:٤، وأومأ إلى الرسول ﷺ بأن شيعهم آيلة إلى خسار بقوله: ﴿ فَلَا يَغْرُرْكَ

١) انظر: أيسر التفاسير لأبي بكر الجزائري (٥٤١/٤)، والتفسير الموضوعي لسور القرآن لجامعة الشارقة، بإشراف د. مصطفى مسلم (٥٧٦/٦).

﴿تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ ﴾غافر:٤، وامتد الكلام في الردّ على المجادلين وتمثيل حالهم بحال أمثالهم من الأمم التي آل أمرها إلى خيبة واضمحلال في الدنيا، وإلى عذاب دائم في الآخرة، ولما استوفى الغرض مقتضاه من إطناب البيان بيّن الله لرسوله ﷺ عقبه أنه ينصر رسله والذين آمنوا في الدنيا كما دلّ عليه قوله في آخر الكلام ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾"[1].

وبهذا نجد أن هذا المقطع هو واسطة العقد، ومركز الموضوعات ومربطها، ومحور المحور الأساسي للسورة الكريمة.

ولما كان هذا المقطع خاتمة هذا الفصل، يحسن أن نرى خلاصة موضوعاته، فنجد أن هذا الفصل قد بدأ بقوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٢﴾ ﴾غافر:٢١-٢٢، ثم جاءت قصة موسى عليه السلام نموذجا على تعذيب الله لمن كذّب الرسل، حتى إذا استقر هذا المعنى توجّه الخطاب لرسول الله ﷺ واعدا إياه بالنصر، وآمرا إياه بالصبر والاستغفار والتسبيح بحمد ربه، وبعد أن قرر الله عز وجل ما رأينا وأتى بقوله تعالى: ﴿ فَاصْبِرْ ... ﴾، سيتكرر الأمر مجددا بالصبر بعد آيات كثيرة بقوله: ﴿ فَاصْبِرْ ﴾غافر:٧٧، فإذا تذكّرنا أنه قبيل بداية هذا الفصل ورد قوله تعالى: ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ ... ﴾ غافر:١٨، سنعلم أنّ السورة وجّهت الرسول ﷺ نحو الإنذار، ثم بدأ في هذا الفصل تُوجّهه نحو الصبر أمام المواقف المتعنتة المستكبرة، مطمئنا قلبه بأنه منصور يقينا آخر الأمر، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾القصص:٨٥.

وإذا اتضح ما مر سندرك كيف تسير السورة في تفصيل المحور ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾ ﴾البقرة:٦-٧، فالسورة ترينا أنّ هناك كافرين لا يؤثر فيهم الإنذار، وترينا مظاهر من العذاب

١) التحرير والتنوير (١٦٧/٢٤).

العظيم للكافرين، وترينا علامة الكافرين الذين يستأهلون الطبع على القلوب، كما ترينا ضرورة الإنذار، وها هي ذي تصل إلى الحديث عما ينبغي أن يكون عليه النذير من الصفات.[1]

وإذا كانت هذه خلاصة هذا الفصل، فإن خلاصة السورة من أولها وحتى نهاية هذا الفصل تخبرنا أن السورة بدأت بتبيان أن هذا القرآن من عند الله، ثم تحدثت عن كون الكافرين يجادلون في آيات الله، وأمرت رسول الله ﷺ بألا يُغرّ بتقلبهم في البلاد، ثم ذكرت موقف الأمم السابقة من رسلها، وما عوقبوا به، ثم حدثتنا عن دعاء الملأ الأعلى للمؤمنين، وتأنيب الملائكة للكافرين يوم القيامة، ثم عرّفتنا على الله عز وجل، آمرة لنا بعبادته، والإخلاص فيها ولو كره الكافرون، ثم عرّفتنا على الله وإرساله الرسل، وأمرت الرسول ﷺ بالإنذار، ثم خاطب الله الكافرين بأن يعتبروا بمشاهداتهم لفعل الله لرسله وللمؤمنين، وذلك بشارة للمؤمنين وتثبيت لقلب رسول الله ﷺ، حتى إذا وضحت الأمور هذا الوضوح أتى في آخر الفصل الثاني توجيه الرسول ﷺ وأمره بالصبر والاستغفار والذكر كما سيأتي.[2]

١) انظر: الأساس في التفسير لسعيد حوّى (٤٩٧١/٩-٤٩٧٢).

٢) انظر: المرجع السابق (٤٩٧٢/٩).

المطلب الثاني: التناسق بين هذا الموضوع وسابقه:

بعد أن بيّن الله تعالى هزيمة الكفر في ميادين الدنيا والآخرة، وبيّن نتائج هذه الهزيمة من هلاك واستئصال في الدنيا بالغرق وغيره، وعذاب أليم في الآخرة بالنار وغيرها، وأن الكافرين لا يُنصرون في الآخرة البتة، بعد هذا استأنفت الآيات بكلام من جهته تعالى لبيان أن هزيمة الكافرين وخسارتهم تلك يقابلها عهد من الله تعالى بنصر رسل الله والمؤمنين في الدنيا والآخرة، وأن من نتائج هذا النصر الغلبة على الباطل وأهله، والفوز بالقصاص من الأعداء الظالمين والثواب بجنان رب العالمين، "وفي هذا حث وتثبيت للمؤمنين على تصديق رسل الله تعالى وكتبه، وبيان أن ما أصاب الكفرة من العذاب المحكي آنفا هو من فروع حكم كلي تقتضيه الحكمة، وهو أن شأن الله المستمر أنه ينصر رسله وأتباعهم في الدنيا والآخرة حتى يصل كل فريق إلى مستقره ومثواه الختامي الأبدي.[1]

قال سعيد حوّى: "ذكر الله عز وجل ثلاثة أنواع من العذاب يسلطه على الكافرين به وبرسله: عذاب الدنيا، وعذاب البرزخ، وعذاب النار، وبعد أن ذكر الله سبحانه أنواع العذاب هذه بيّن أن ذلك كله إنما يفعله نصرة لرسله وللمؤمنين [في الدنيا والآخرة]"[2].

ومناسبة أخرى: أنه لـمّا ذكر قصة موسى عليه السلام وانتصاره وقومه على فرعون وملئه، وذكر حالهم من العذاب في البرزخ وفي الآخرة، واستطرد من هذا إلى ذكر شيء من أحوال الكفار في الآخرة وهم في النار الفظيعة بما نابذوا رسل الله وحاربوهم، أعقبه بذكر ما استحقه الرسل والمؤمنون من النصر عموما، وما منحه لرسوله موسى عليه السلام ولقومه من الهدى والكتاب، وفي هذا تأنيس لنبينا محمد ﷺ وأن عاقبة أمره إلى نصر وخير في العاجل والآجل.[3]

قال سيد قطب: "هذا التعقيب الجازم، يناسب ذلك الموقف الحاسم، ولقد اطلعت منه البشرية على مثل من نهاية الحق والباطل، نهايتهما في هذه الأرض، ونهايتهما كذلك في الآخرة، ورأت كيف كان مصير فرعون وملئه في الحياة الدنيا، كما رأوهم يتحاجون في النار، وينتهون إلى إهمال وصغار، وذلك هو الشأن في كل قضية كما يقرر القرآن"[4].

---

١) انظر: مفاتيح الغيب للفخر الرازي (٥٢٣/٢٧). والفواتح الإلهية للشيخ علوان (٢٦٥/٢). وإرشاد العقل السليم لأبي السعود (٢٨٠/٧).
٢) الأساس في التفسير (٤٩٦٦/٩).
٣) انظر: مفاتيح الغيب للفخر الرازي (٥٢٣/٢٧). والتفسير المظهري لمحمد ثناء الله (٢٦٣/٨). وتيسير الكريم الرحمن للسعدي (٧٣٩/١).
٤) في ظلال القرآن (٣٠٨٥/٥).

ومناسبة أخرى: أن هذا من تمام قصة موسى عليه السلام وعود إلى مقام انجر الكلام منه، وذلك أنه لما قيل: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ﴾ غافر:٤٥، وكان المؤمن من أمة موسى عليه السلام، علم منه ومما سلف مرارا أن موسى عليه السلام وسائر قومه قد نجوا وغلبوا على فرعون وقومه، فلا جرم صرح بذلك فقال: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾ الآية.[1]

قال عبد الكريم الخطيب: "هو استكمال لقصة موسى [عليه السلام]، ولرسالته كرسول من عند الله، فقد ذكرت الآيات السابقة رسالة موسى [عليه السلام] إلى فرعون وهامان وقارون، وهي جزء من رسالته إلى بني إسرائيل، فلما انتهت قصة موسى [عليه السلام] مع فرعون، اقتضى المقام الإشارة إلى رسالة موسى [عليه السلام]، وهي أنها لبني إسرائيل في عمومها"[2].

ومناسبة أخرى: أنه لما بيّن من قبل تَخَاصُم أهلِ النار، وأنهم عند الفزع إلى خزنة جهنم يقولون لهم: ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ غافر:٥٠، أتبع ذلك بذكر هؤلاء الرسل الذين أتوا قومهم بالبينات وأن الله نصرهم في الدنيا والآخرة، وكذلك لما ذكر أن دعاء الكافرين في ضلال لا يسمع ولا يجاب لأنه عبث وباطل ولغو دعوا أو لم يدعوا، أخبرهم بسبب ضياع دعائهم وهو أنه مسلوب الحجة، وذكر لهم ما يغيظهم ليزدادوا غما، فقال: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ بإعلاء كلمتهم على مجادليهم وتوفيقهم إلى الحجج الظاهرة والبراهين القاهرة والدلائل الباهرة مع النصر الفعلي على أعدائهم في الدين.[3]

---

١) انظر: غرائب القرآن للنيسابوري (٦/٤٠).

٢) التفسير القرآني للقرآن (١٢/١٢٤٧).

٣) انظر: مفاتيح الغيب للفخر الرازي (٢٧/٥٢٣). واللباب لابن عادل (١٧/٦٩). وبيان المعاني لعبد القادر العاني (٣/٥٨٨). وإعراب القرآن وبيانه لمحيي الدين درويش (٨/٤٩٨).

المطلب الثالث: التناسب بين الآيات والجمل والكلمات:

بدأ هذا المقطع بآية تجمع موضوعات السورة جميعها ليتبين لنا بجلاء التناسق التام بينها، وتحدد محور السورة الأساسي في صورة قاعدة كلية لتدور حولها المعاني والمناسبات، فما فهمناه من الآيات السابقات بالمعنى والإيحاء والتقريب والتمثيل والتكرار والتأكيد، نفهمه من هذه الآية بالقطع واليقين، فنجدها في وسط جولات المعركة بين الحق والباطل تحسم القضية لصالح الحق بوعد من الله حق بالنصر العاجل والآجل للحق وأهله، وأولهم رسل الله عليهم الصلاة والسلام والمؤمنين بهم ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴾.

فتقرر الآية قاعدة كلية بحتمية نصر الله –وبمؤكدات عدة– لرسله والمؤمنين في هذه الحياة الدنيا، وفي تلك الحياة الأخرى القادمة.

وفي الآيات السابقة رأينا الكافرين يلقون الخذلان في جهنم، فلم يقبل منهم قول، ولم يستجب لهم دعاء، نرى هنا أن شأن رسل الله، والمؤمنين بالله، غير هذا، فإنهم أهل كرامة على الله في الدنيا وفي الآخرة، وهو سبحانه وليهم في الدنيا وفي الآخرة، ففي الدنيا يؤيدهم بنصره، وفى الآخرة يؤمنهم من فزع هذا اليوم، وينزلهم منازل رحمته ورضوانه في جنات لهم فيها نعيم مقيم.[١]

قال دروزة: "الآيات استمرار للتعقيب على الفصل القصصي كما هو واضح، وقد استهدفت تطمين النبي والمؤمنين وتثبيتهم وبعث الأمل والوثوق في نفوسهم إزاء ما يلقونه من عنت الكفار وبغيهم، ولقد سبق تطمين قوي مثل هذا التطمين في سورة الصافات التي نزلت قبل قليل من هذه السورة حيث يمكن القول إن ظروف السيرة في مكة كانت تقتضي مواصلة ذلك، وإنه كان من عوامل ما كان يبدو من النبي ﷺ وصحبه الأولين من قوة وثبات وجرأة ويقين واستغراق في الله ودينه ودعوته، ونكرر هنا ما قلناه قبل من أن الله تعالى قد حقق وعده للنبي والمؤمنين فعلا فنصرهم الله وصارت كلمته هي العليا وتحققت بذلك المعجزة القرآنية.

١) انظر: التفسير القرآني للقرآن لعبد الكريم الخطيب (١٢/١٢٤٦).

ومع خصوصية هذا التطمين وصلته بسيرة النبي ﷺ فإن في إطلاق العبارة القرآنية تلقينا جليلا مستمر المدى يستمد منه كل مؤمن يدعو إلى الله ودينه ومبادئه السامية ويناضل في سبيلها اليقين والقوة والجرأة ويجعله يستبشر بنصر الله وتأييده إذا ما كانت دعوته ونضاله بصدق وإخلاص"[1].

١) قوله تعالى: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾: لما ذكر الله قصة موسى عليه السلام وقومه مع فرعون وملئه، وذكر قصة مؤمن آل فرعون مع فرعون وقومه، وقد تبيّن منها أنه سبحانه نصر الرسل على أممهم حين هموا بأخذهم، فلم يصلوا إليهم، ثم أهلكهم الله في هذه الدنيا، وعذبهم أشد العذاب في الآخرة، قرر الله هذه القاعدة الكلية الحتمية الأبدية أنه ناصر ولابد رسله وأتباعه المؤمنين، ونصر المؤمنين داخل في نصر الرسل.

"والتعبير بالمضارع في قوله: ﴿لَنَنصُرُ ﴾ لما فيه من استحضار حالات النصر العجيبة التي وصف بعضها في هذه السورة ووصف بعض آخر في سور أخرى تقدم نزولها، وإلا فإن نصر الرسل الذين سبقوا محمدا ﷺ قد مضى، ونصر محمد ﷺ مترقب غير حاصل حين نزول الآية"[2].

قال ابن كثير (ت:٧٧٤هـ): "نصر الله سبحانه نبيه محمدا ﷺ وأصحابه على من خالفه وناوأه، وكذّبه وعاداه، فجعل كلمته هي العليا، ودينه هو الظاهر على سائر الأديان، وأمره بالهجرة من بين ظهراني قومه إلى المدينة النبوية، وجعل له فيها أنصارا وأعوانا، ثم منحه أكتاف المشركين يوم بدر، فنصره عليهم وخذلهم له، وقتل صناديدهم، وأسر سراتهم، فاستاقهم مقرنين في الأصفاد، ثم منّ عليهم بأخذه الفداء منهم، ثم بعد مدة قريبة فتح عليه مكة، فقرّت عينه ببلده، وهو البلد المحرم الحرام المشرف المعظم، فأنقذه الله به مما كان فيه من الشرك والكفر، وفتح له اليمن، ودانت له جزيرة العرب بكمالها، ودخل الناس في دين الله أفواجا، ثم قبضه الله تعالى إليه لما له عنده من الكرامة العظيمة، فأقام الله أصحابه خلفاء بعده، فبلّغوا عنه دين الله، ودعوا عباد الله إلى الله، وفتحوا البلاد والرساتيق والأقاليم والمدائن والقرى والقلوب، حتى انتشرت الدعوة المحمدية في مشارق الأرض ومغاربها، ثم لا يزال هذا الدين قائما منصورا ظاهرا إلى قيام الساعة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَٰدُ ﴾ أي: يوم القيامة تكون النصرة أعظم وأكبر وأجل"[3].

---

١) التفسير الحديث (٣٧٧/٤).

٢) التحرير والتنوير لابن عاشور (١٦٧/٢٤).

٣) تفسير القرآن العظيم (١٥١/٧).

٢) قوله تعالى: ﴿فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَـٰدُ﴾: لما كان إيفاء العهد بالنصر يتحقق ولو بوقوع نصرٍ في زمان دون آخر، أو في دار دون آخر، أكدّ الله تعالى أن عهده بنصر رسله والمؤمنين شامل لهذه الحياة الدنيا والدار الآخرة، وشامل لأعلى درجاته غير مكتف بأدنى مراتبه.

ونصر الآخرة ظاهر لا يخفى على أحد، ولكن نصر الدنيا ربما كان خفيا؛ "لأن الرسل وأتباعهم يُبتلون ثم تكون لهم العاقبة، فكان أكثر الجامدين -وهم أكثر الناس- يظن أنه لا نصرة لهم، بيّن الله أن الأمر على خلاف ما يظن المبطلون، وأن النصر كائن بيقين في هذه الحياة الدنيا، مع ما لهم من النصر والعلو والعزة في الآخرة.[١]

ويمكن أن تفهم هذه الآية على وجهين: الأول: أن يكون على وجه الخبر عن جميع الرسل والمؤمنين، والمراد به واحد، فيكون تأويل الكلام حينئذ: إنا لننصر رسولنا موسى عليه السلام والرجل المؤمن الذي وعظ فرعون وقومه في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد، أو إنا لننصر رسولنا محمدا ﷺ، والذين آمنوا به في الحياة الدنيا، ويوم يقوم الأشهاد، فإن العرب تخرج الخبر بلفظ الجميع، والمراد واحد إذا لم تنصب للخبر شخصا بعينه،[٢] أو أنه تعالى "ينصر من أراد من الأنبياء والمؤمنين ويعطيهم الظفر في الدنيا على من خالفهم"، فتكون الآية من العام الذي يراد به الخاص[٣].

الثاني: أن يكون عاما على ظاهره يراد به جميع الرسل والمؤمنين، وفي هذه الحالة يظهر إشكال ظاهري بكيفية تحقق هذه النصرة الموعودة في الدنيا ومن الأنبياء والرسل من قتل، ومنهم من نجا بنفسه أو بقليل ممن معه، لكن المراد بالنصر هو الانتصار لهم ممن آذاهم سواء كان ذلك بحضرتهم أو في غيبتهم أو بعد موتهم، والجواب عن الإشكال الظاهري من وجوه:

الأول: أن يكون المعنى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا﴾ أي: إنا لنعلي كلمة الرسل والمؤمنين بالحجة الباهرة، والآيات التي أعطيناها لهم في الدين حتى يدفعوا بها مجادلات الكافرين وتسويلات الشياطين وتمويهات السحرة والمكذبين، فنفتح لهم حجتهم في الدنيا فيظهروا ويتغلبوا ويعلوا بها على أعدائهم ومن خالف دينهم، وقد سمى الله الحجة سلطانا في غير موضع، وهذه النصرة عامة للمحقين

---

١) انظر: نظم الدرر للبقاعي (١٧/٨٦-٨٧).
٢) انظر: جامع البيان للطبري (٢١/٤٠٠-٤٠١). والجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٥/٣٢٢).
٣) الهداية إلى بلوغ النهاية لمكي بن أبي طالب (١٠/٦٤٤٦).

أجمع، ونِعم ما سمى الله هذه النصرة سلطانا؛ لأن السلطنة في الدنيا قد تبطل، وقد تتبدل بالفقر والذلة والحاجة والفتور، أما السلطنة الحاصلة بالحجة فإنها تبقى أبد الآباد ويمتنع تطرق الخلل والفتور إليها.

الثاني: أو بإعطائنا إياهم من النعمة في الدنيا والسعة فيها وإعلائنا لهم على من كذبنا وإظفارنا بهم، حتى يقهروهم غلبة، ويذلوهم بالظفر ذلة، ،كالذي فعل من ذلك بداود وسليمان عليهما السلام، فأعطاهما من الملك والسلطان ما قهرا به كل كافر، وكالذي فعل بمحمد ﷺ بإظهاره على من كذبه من قومه.

الثالث: أو بانتقامنا ممن حادهم وشاقهم بإهلاكهم وإنجاء الرسل ممن كذبهم وعاداهم، فنجعل لهم العواقب وآخر الأمر وإن كانوا في الابتداء قد يكون عليهم، كالذي فعل تعالى ذكره بنوح عليه السلام وقومه، من تغريق قومه وإنجائه منهم، وكالذي فعل بموسى عليه السلام وفرعون وقومه إذ أهلكهم غرقا، ونجى موسى عليه السلام ومن آمن به من بني إسرائيل وغيرهم ونحو ذلك، وعلى هذا لم يذكر الله تعالى عن أحد من الرسل إلا وقد كان عاقبة الأمر له؛ وهو كقوله تعالى: ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ١٢٨﴾ الأعراف:١٢٨، ولهذا أهلك تعالى قوم نوح وعاد وثمود وأصحاب الرس وقوم لوط وأهل مدين وأشباههم وأضرابهم ممن كذب الرسل وخالف الحق، وأنجى الله من بينهم المؤمنين فلم يهلك منهم أحدا وعذب الكافرين، فلم يفلت منهم أحدا.

الرابع: أو بانتقامنا في الحياة الدنيا من مكذبيهم بعد وفاة رسولنا من بعد مهلكهم، كالذي فعلنا من نصرتنا شعياء عليه السلام بعد مقتله، بتسليطنا على قتله من سلطنا حتى انتصرنا بهم من قتلته، وكفعلنا بقتلة يحيى عليه السلام، من تسليطنا بختنصر عليهم حتى انتصرنا به من قتلهم له، وكانتصارنا لعيسى عليه السلام من مريدي قتله حتى أهلكناهم بهم.

الخامس: أو بإبقاء مدحهم وتعظيمهم وذكرهم الحسن، فإن الظلمة وإن قهروا شخصا من المحقين إلا أنهم لا يقدرون على إسقاط مدحه عن ألسنة الناس ومحبته عن قلوبهم.

السادس: أو بحفظنا لآثارهم باقية على وجه الدهر والناس بهم يقتدون في أعمال البر والخير، بخلاف الظلمة والمبطلين فإنهم كما يموتون تموت آثارهم ولا يبقى لهم في الدنيا أثر ولا خبر إلا الذكر السيئ والعبرة والعظة من مصيرهم.[1]

---

١) انظر: جامع البيان للطبري (٢١/٤٠٠-٤٠١). وتفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم (١٠/٣٢٦٧). وتأويلات أهل السنة للماتريدي (٩/٣٧-٣٨). ومفاتيح الغيب للفخر الرازي (٢٧/٥٢٣-٥٢٤). وتفسير القرآن العظيم لابن كثير (٧/١٥٠).

قال ابن عجيبة: "النصر في الدنيا إما بالسيف، في حق مَن أمر بالجهاد، أو بالحجة والإهلاك فيمن لم يؤمر به، وبذلك يندفع قول مَن زعم تخصيص الآية أو تعميمها"[1].

وقد وصف الله يوم القيامة بوصف آخر هنا، وهو أنه يومٌ يقوم فيه الأشهاد -جمع شاهد-، والأشهاد هم:

١- الملائكة الذين يكتبون ويحصون أعمال بني آدم، فيشهدون للرسل بالتبليغ وعلى الكفار بالتكذيب، كما في قوله تعالى: ﴿ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ ﴾ق: ٢١.

٢- الأنبياء والرسل، فهم شهداء على أممهم، كما في قوله تعالى: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ ﴾النساء: ٤١، وقوله تعالى: ﴿ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾البقرة:١٤٣.

٣- أمة نبينا محمد ﷺ، فهم شهداء على الأمم، كما في قوله تعالى: ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾البقرة:١٤٣.

٤- الأجساد والجلود والجوارح، فهي تشهد على أصحابها، كما في قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾فصلت: ٢١، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾النور: ٢٤.[2]

ونصر الآخرة يكون بإعلاء كلمة الرسل والمؤمنين ورفع مكانتهم وتعظيمهم على رؤوس الأشهاد وإجزال ثوابهم، والقصاص لهم والانتقام من أعدائهم وإذلالهم وإهانتهم وإفحامهم بالحجة.[3]

وفي ذكر يوم الأشهاد دلالة مفيدة في التناسق الموضوعي لهذه السورة، فقد رأينا أن محور السورة الأساسي يدور حول التمكين للمؤمنين في معركة الحق والباطل ورعد المعتدين، والتمكين لهم في تلك المرحلة المكية الصعبة كان يعتمد أساسا على قوة الكلمة وبلاغة الحجة وعمق الترهيب والترغيب، وهكذا يذكر الله يوم القيامة في الآية فيصفه بيوم الأشهاد، فهؤلاء الأشهاد تتجسد فيهم صورة من أوضح وأروع صور

---

١) البحر المديد (١٤١/٥).

٢) انظر: غريب القرآن لابن قتيبة (٣٣٣/١). وتفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم (٣٢٦٧/١٠-٣٢٦٨). والنكت والعيون للماوردي (١٦١/٥). ومعالم التنزيل للبغوي (١١٥/٤).

٣) انظر: النكت والعيون للماوردي (١٦٠/٥). وغرائب القرآن للنيسابوري (٤١/٦).

الإفحام بالحجة ودحض الشبهة وإثبات التهمة، فكل هؤلاء يجتمعون ليقوموا بأداء وظيفة الشهادة على المكذبين المشركين الكافرين المجادلين بالباطل، فيشهدون عليهم بكل صغيرة وكبيرة اقترفوها في حق الله ورسالاته، وفي حق رسل الله والمؤمنين، فيومئذ ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴿٢٥﴾﴾النور: ٢٤-٢٥.

قال الفخر الرازي: "اعلم أن في قوله: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾ إلى قوله: ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ دقيقة معتبرة، وهي أن السلطان العظيم إذا خصّ بعض خواصه بالإكرام العظيم والتشريف الكامل عند حضور الجمع العظيم من أهل المشرق والمغرب كان ذلك ألذ وأبهج، فقوله: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾ إلى ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ المقصود منه هذه الدقيقة"[1].

وقال إسماعيل حقي[2]: "عبّر عن يوم القيامة [بيوم قيام الأشهاد] للإشعار بكيفية النصرة، وأنها تكون عند جمع الأولين والآخرين بشهادة الأشهاد، للرسل بالتبليغ وعلى الكفرة بالتكذيب"[3].

٣) قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ﴾: لما ذكر الله تعالى تحقق وظهور نصرته للرسل والمؤمنين في الدارين، أردفه ببيان مصير الظالمين المناوئين لأولئك الرسل ليتضح نصر الله لهم غاية الوضوح، فإنه لمّا كان للباطل بعض صولات وجولات في ظاهر الحياة الدنيا توحي بالنصر والغلبة والظفر، وكان ممكنا أن يخفى الحق وينزوي عن بعض الناس حينا، أكدّ الله تعالى أنه لابد من كشف ستر المبطلين على رؤوس الأشهاد يوم القيامة وبيان عاقبة أمرهم ومآل جدالهم ولجاجهم بالباطل ليعلم الجميع كيف أتم الله نصر رسله والمؤمنين وكيف أزهق الباطل وأذل أهله، فأول مظهر لذلك أنهم لا ينتفعون بأعذارهم ولا يرجعون منها بشيء، وقد كانوا في الدنيا يظنون أن جدالهم بالباطل ينفعهم ويمكن لهم في الأرض.

فهذه الآية وقعت مفسرا لقوله ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾، فلما كان افتضاحهم بشهادة الأشهاد حاصلا، ذكر أنهم مع الفضيحة وإثبات التهمة وإقرار الجريمة فإنهم يبغون المعذرة فلا يؤذن لهم ولا يسمع

---

١) مفاتيح الغيب (٢٧/٥٢٤).

٢) هو إسماعيل حقي بن مصطفى الإستانبولي الحنفي الخلوتي، المولى أبو الفداء، متصوف مفسر، تركي مستعرب، ولد في آيدوس، وسكن القسطنطينية، وانتقل إلى بروسة ومات فيها، له كتب عربية وتركية، توفي عام ١١٣٧هـ، -رحمه الله تعالى رحمة واسعة-. انظر: الأعلام للزركلي (١/٣١٣). ومعجم المؤلفين لكحالة (٢/٢٦٦-٢٦٧).

٣) روح البيان (٨/١٩٣).

منهم ولا تنفعهم شيئا، لأنه حال قيام الأشهاد لا تنفع المعاذير، ولأنهم لا يعتذرون إلا بباطل، وذلك أن الله قد أعذر إليهم في الدنيا، وتابع عليهم الحجج فيها فلا حجة لهم في الآخرة إلا أن يعتصموا بالكذب بأن يقولوا: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾﴾الأنعام:٢٣، أو بأعذار ساقطة كقولهم: ﴿رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾﴾الأحزاب:٦٧.[1]

٤) قوله تعالى: ﴿وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ﴾: معطوف على ما قبله من شهادة الأشهاد وعدم نفع الأعذار، وهنا زيادة عليهما السخط والطرد والإبعاد من رحمة الله لينقطع كل سبيل لهم إلى النجاة، فلما كانت معذرة الظالمين لم تنفع، وكان في الإمكان أو الاحتمال أن ينتفعوا برحمة من الله، قطع الله هذا الرجاء وآيسهم من رحمته، وهذا هو المظهر الثاني لهزيمتهم التامة، أن تلحقهم اللعنة بالغضب والطرد والإبعاد من رحمة الله وجنته، فلم يعد لهم أمل في ظَهر أو ظهير، ولم يعد لهم رجاء في نصر أو نصير.

٥) قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾: وهذا هو المظهر الثالث لهزيمتهم الكاملة المستمرة، فلما انقطع كل سبيل لهم إلى النجاة من العذاب والدخول في رحمة الله، أخبر الله أنّ مصيرهم إلى جهنم خالدين فيها أبدا لا محيص لهم عنها، وجهنم هي أسوء دار في الوجود وفيها أسوأ عذاب.

ومن هاتين الآيتين تبيّنت النتيجة الختامية لجميع المراحل التي يعيش فيها الحق وأهله في صراع مع الباطل وأهله، وظهر بجلاء أن كل جولة بين الفريقين مآلها نصر الأولى وقهر الأخرى بلا ريب، وتلك هي سنة الله التي لا مبدل لها.

وقد عبّر هنا بما سيناله الظالمون من اللعنة وسوء الدار بقوله: (لهم)، فإذا كان هذا لهم فما الظن بما هو عليهم!!، وقد علم من هذا أن لأعداء هؤلاء الظالمين -وهم الرسل وأتباعهم- نقيض ما لهم، فلهم الكرامة والرحمة ولهم قبول الاعتذار ولهم حسن الدار، فظهرت بذلك أعلام النصرة، وصحّ ما أخبر به من تمام القدرة.[2]

١) انظر: جامع البيان للطبري (٤٠٢/٢١). والهداية إلى بلوغ النهاية لمكي بن أبي طالب (٦٤٤٧/١٠). والكشاف للزمخشري (١٧٢/٤). وبيان المعاني لعبد القادر العاني (٥٨٩/٣).

٢) انظر: نظم الدرر للبقاعي (٨٨/١٧).

وفي تقديم (لهم) دلالة على الاختصاص، للاهتمام بالانتقام منهم، فلا لعنة إلا لهؤلاء، ولا سوء دار إلا لهؤلاء، وذكر ابن عرفة أنه عبّر —في (لهم)- باللام المقتضية للملك والاستحقاق وإشعار استحقاقهم اللعنة، كأنهم حائزون لها حوز المالك لها.[1]

قال الفخر الرازي: "اعلم أن المقصود أيضا من هذا شرح تعظيم ثواب أهل الثواب، وذلك لأنه تعالى بيّن أنه ينصرهم في يوم يجتمع فيه الأولون والآخرون، فحالهم في علو الدرجات في ذلك اليوم ما ذكرناه، وأما حال أعدائهم فهو أنه حصلت لهم أمور ثلاثة أحدها: أنه لا ينفعهم شيء من المعاذير البتة، وثانيها: أن لهم اللعنة، وهذا يفيد الحصر يعني اللعنة مقصورة عليهم وهي الإهانة والإذلال، وثالثها: سوء الدار وهو العقاب الشديد، فهذا اليوم إذا كان الأعداء واقعين في هذه المراتب الثلاثة من الوحشة والبلية، ثم إنه خص الأنبياء والأولياء بأنواع التشريفات الواقعة في الجمع الأعظم، فههنا يظهر أن سرور المؤمن كم يكون؟! وأن غموم الكافرين إلى أين تبلغ؟!"[2].

٦) قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ ﴾: دخل هذا في نصرة الرسل في الدنيا والآخرة، فلما ذكرت الآيات أن الله تعالى ناصر رسله والمؤمنين في الدنيا والآخرة، أردفه بذكر بعض أنواع النصر والتمكين في هذه الدنيا لأحد أنبياء الله تعالى، وأورد نموذجا عظيما من نماذج نصر الله وهو: إيتاء الكتاب والهدى، ووراثة الكتاب والهدى، وهذا النموذج الذي ضربه الله مثلا يكشف لنا رقعة فسيحة، نرى فيها صورة خاصة من صور النصر في قصة موسى عليه السلام، فقد أوتي النبوة والهدى والرشاد، ومعه من الله نور وبرهان وسداد.

والآية هذه وما بعدها قد وقعت جملة اعتراضية، بين قوله: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا ﴾ وبين التفريع عليه في قوله: ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ﴾، وقد حملت في طياتها متممات لنصر الله تعالى الموعود، فإن التقدير: لقد نصرنا رسولنا موسى عليه السلام مع إهلاك فرعون وقومه وإبادتهم، وعطف عليه قوله دالاً على الكرامة والرحمة، مؤكداً لإزالة ما استقر في النفوس من أن ملوك الدنيا لا يغلبهم الضعفاء، فأخبر أنه قد آتى موسى عليه السلام الهدى في الدين وهو البيان للحق الذي بعثه به، وجميع ما أوتي في باب الدين من المعجزات

---

١) انظر: تفسير ابن عرفة (٣٩٨/٣). والتحرير والتنوير لابن عاشور (١٦٩/٢٤).

٢) مفاتيح الغيب (٥٢٤/٢٧).

والتوراة والشرائع، ولازم ذلك أن يكون له العاقبة وإن تناهت ضخامة من يعانده وتفاقمت قوته وجبروته، فإنه ضال عن الهدى، والضال هالك وإن طال المدى، وذلك بما آتيناه من النبوة والكتاب.[1]

قال ابن عطية: أخبر تعالى بقصة موسى عليه السلام وما أتاه من النبوة تأنيسا لمحمد عليه السلام والصلاة، وضرب أسوة وتذكيرا لما كانت العرب تعرفه من أمر موسى عليه السلام، فيبيّن ذلك أن محمدا عليه الصلاة والسلام ليس ببدع من الرسل.[2]

٧) قوله تعالى: ﴿ وَأَوْرَثْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾: لما كانت النبوة خاصة والكتاب عاماً أخبر تعالى أنه أورث أتباع موسى عليه السلام وهم بنو إسرائيل بعد ما كانوا فيه من الذل الكتاب، وهو التوارة الذي أنزله على موسى عليه السلام وآتاه الهدى به، وقد أخبر أنه آتاهم الكتاب كالإرث لا ينازعهم فيه أحد، ولا أهل له في ذلك الزمان غيرهم.[3] فأتباع موسى عليه السلام قد أوتوا الآيات التي فيها هدى ونور، وتشرفوا بتعلم أحكام الله والعمل بها، فالتوراة كلها هداية إلى الحق والخير، وموعظة وذكرى لكل ذي فهم وعقل سليم، والمؤمنون به على صراط مستقيم يهديهم به الله سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور، ويمكن لهم الأرض، ويجعل مآلهم إلى الجنة.

٨) قوله تعالى: ﴿ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُولِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾: بيان لمكانة هذا الكتاب ففيه هدى وإرشاد وبيان عام لكل من تبعه، وفيه ذكرى وموعظة عظيمة بليغة لذوي الطباع المستقيمة والعقول الصحيحة السليمة الراجحة النيرة الوافية الشافية، والقلوب الزكية الراقية الصافية النقية الطاهرة، والأنفس المؤمنة العاملة العاملة، "والمراد بكون الكتاب هدى: أنه دليل في نفسه، وبكونه ذكرى: أن يكون مذكرا للشيء المنسي"[4].

"فذكرت الآية إيتاء موسى عليه السلام الثمرة، وذكرت إيراث بني إسرائيل السبب، إشارة إلى أنهم من جنى ثمرته فاهتدى، ومنهم من ضلّ، وذلك تحذير للأتباع، وتشريف للأنبياء بما نالوه من مراتب الارتفاع.[5]

قال ابن عاشور: "هذا من أوضح أمثلة نصر الله رسله والذين آمنوا بهم، وهو أشبه الأمثال بالنصر الذي قدّره الله تعالى للنبي محمد ﷺ والمؤمنين، فإن نصر موسى عليه السلام على قوم فرعون كوّن الله به أمة

١) انظر: الهداية إلى بلوغ النهاية لمكي بن أبي طالب (٦٤٤٨/١٠). والكشاف للزمخشري (١٧٣/٤). ومفاتيح الغيب للفخر الرازي (٥٢٥/٢٧). والجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٣٢٣/١٥). ونظم الدرر للبقاعي (٨٩/١٧). والتحرير والتنوير لابن عاشور (١٦٩/٢٤).

٢) المحرر الوجيز (٥٦٤/٤).

٣) انظر: نظم الدرر للبقاعي (٨٩/١٧).

٤) غرائب القرآن للنيسابوري (٤١/٦). وانظر: تفسير ملا علي قاري (٣٩٢/٤).

٥) انظر: نظم الدرر للبقاعي (٨٩/١٧).

عظيمة لم تكن يؤبه بها، وأوتيت شريعة عظيمة وملكا عظيما، وكذلك كان نصر النبي ﷺ والمؤمنين، بل كان أعظم من ذلك وأكمل وأشرف، وأي نصر أعظم من الخلاص من العبودية والقلة والتبع لأمة أخرى في أحكام تلائم أحوال الأمة التابعة، والمصير إلى أمة مالكة أمر نفسها ذات شريعة ملائمة لأحوالها ومصالحها وذات سيادة على أمم أخرى، وهذا مثل المسلمين مع النبي ﷺ وبعده، وهو إيماء إلى الوعد بأن القرآن الذي كذّب به المشركون باق موروث في الأمة الإسلامية.[1]

وبهذه الآية تنتهي ما قصها الله تعالى علينا من قصة موسى عليه السلام، وقد رأينا أن "قصة موسى عليه السلام خَدَمَتْ بشكل مباشر قوله تعالى: ﴿ ۞أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ ... ﴾غافر:٢١، كما خدمت مقدمة السورة كذلك؛ إذ بيّنت لنا الأسباب النفسية والقلبية لجدال الكافرين، واستحقاقهم الطبع على القلب بذلك، وبيّنت لنا أنماطا من جدال الكافرين بآيات الله، وبيّنت لنا تأييد الله لرسله وللمؤمنين، وبيّنت لنا مآل الكافرين، وكل ذلك قد تحدثت عنه مقدمة السورة، فالقصة خدمت ما سبقها من معان، وهي كذلك تخدم المعاني التي ستأتي بعدها"[2].

٩) قوله تعالى: ﴿ فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ ﴾: لما تبين مآل الفريقين موسى عليه السلام وفرعون، وظهر للجميع عاقبة أمرهما، أمر الله تعالى أخا موسى عليه السلام في النبوة نبينا محمدا ﷺ أن يتشبع بالصبر على مشاق الدعوة وكفر القوم والعشيرة، فإن وعد الله بنصره والتمكين لدينه وهزيمة أعدائه وعد حق لا يتخلف بحال من الأحوال.

فهذه الآية تفريع على قوله: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا ﴾، لما بيّن أن الله تعالى ينصر رسله وينصر المؤمنين في الدنيا والآخرة، وضرب المثال في ذلك بحال موسى عليه السلام، خاطب بعد ذلك نبينا محمدا ﷺ فقال له: اعلم أنا ناصروك والذين آمنوا معك في الدنيا، ومثيبوك والذين آمنوا في الآخرة، فاصبر لأمر ربك وعلى ما تلاقيه من قومك، وانفذ ما أرسلت به من الرسالة، وبلّغ قومك ومن أمرت بإبلاغهم ما أنزل إليك، وأيقن بحقيقة وعد الله الذي وعدك ومن صدقك وآمن بك بالنصر والأجر، ولا تستبطئ النصر فإنه واقع

١) انظر: التحرير والتنوير (١٦٩/٢٤).

٢) الأساس في التفسير لسعيد حوّى (٤٩٧٢/٩-٤٩٧٣).

لك في الدنيا، ووعد الله حق لا خلف له وهو منجزه له، فلا تهن ولا تحزن، وهذا كقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾ الصافات: ١٧١-١٧٣.[١]

ومناسبة الآية لما قبلها أنه لما كان التقدير بعد أن تقدم الوعد المؤكد بنصرة الرسل وأتباعهم: أنا قد آتيناك يا رسولنا محمد -صلى الله عليك وسلم- الهدى والكتاب كما كنا آتينا موسى -عليه السلام-، ولننصرنك وقومك مثل ما نصرناه وقومه، فسبّب عن هذا قوله: ﴿ فَٱصْبِرْ ﴾ فإنا نوقع الأشياء في أتم محالها على ما بنينا عليه أحوال هذه الدار من إجراء المسببات على أسبابها، وقد أريناك ما اتفق لموسى عليه السلام مع أجبر أهل زمانه وما كان له من العاقبة، ولهذا قدّم ذكر موسى عليه السلام على بشارته بالنصر ليتم التشبيه.[٢]

وجملة: ﴿ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ﴾ تعليل للأمر بالصبر. و﴿ إِنَّ ﴾ للاهتمام بالخبر. ووعد الله هو وعده رسوله بالنصر في الآية السابقة وفي غير ما آية، وذلك ما نصر به النبي ﷺ في أيامه على المشركين يوم بدر ويوم الفتح ويوم حنين وفي أيام الغزوات الأخرى، وما عرض من الهزيمة يوم أحد كان امتحانا وتنبيها على سوء مغبة عدم الحفاظ على وصية الرسول ﷺ أن لا يبرحوا من أماكنهم، ثم كانت العاقبة للمؤمنين.[٣]

١٠) قوله تعالى: ﴿ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ ﴾: عطفَ على الأمر بالصبر الأمر بالاستغفار والتسبيح فكانا داخلين في سياق التفريع على الوعد بالنصر، ليبين زاد الطريق، وليقرر أن أعظم أسباب النصر بعد الصبر أمران: الأول: الاستعانة بالاستغفار، فإن أصل الهزيمة تكون من الذنوب والمعاصي، فأرشد الله نبيه ﷺ وهو يعالج أسباب الدعوة والنصر أن يكثر من الاستغفار هو وأمته.

الثاني: -وسيأتي- الإكثار من ذكر الله تعالى في آخر المساء وأول الفجر بالصلاة، أو الإكثار على الدوام بالتسبيح والتقديس والتنزيه بحمد الله تعالى والثناء الحسن عليه، فإن في ذكر الله تعالى تزكية للنفس وتقوية للقلب وترق في العبودية.

فلما تكفل الله بإتمام النصر، وكان من المعلوم أن لزوم القربات يعلي الدرجات فيوصل إلى قوة التصرفات، أمر الله تعالى بالاشتغال بتهذيب الأحوال لتحصيل المراد، فإنَّ الاستغفار يمحو الذنوب التي

---

١) انظر: جامع البيان للطبري (٤٠٣/٢١). والنكت والعيون للماوردي (١٦١/٥). ومفاتيح الغيب للفخر الرازي (٥٢٤/٢٧). والتحرير والتنوير لابن عاشور (١٧٠/٢٤).

٢) انظر: نظم الدرر للبقاعي (٩٠/١٧). والبحر المديد لابن عجيبة (١٤٣/٥).

٣) انظر: التحرير والتنوير لابن عاشور (١٧٠/٢٤).

تعوق عن النصر، موجهاً الخطاب إلى أعلى الخلق ليكون من دونه من باب الأولى، وهذا مقام التخلية عن الأكدار النفسية، وتهييج للأمة على الاستغفار.[1]

وفي الأمر بالاستغفار إشارة إلى حتمية النصر كذلك، ذلك أنه في كثير من العبادات يؤمر بالاستغفار والتسبيح وذكر الله تعالى بعد الفراغ منها، كالصلاة والحج وغيرها، فكان أمره بما هو من آثار الشكر وجبر النقص "كناية عن كون نعمة النصر حاصلة لا محالة"[2].

١١) قوله تعالى: ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾: هذا مقام التحلي بالكمالات النفسية وبذلك يتم الشكر ظاهرا وباطنا، فبعد أن أمره بالاستغفار عند الترقية في درجات الكمال، أمره بالتنزيه عن شائبة نقص وإثبات لكل رتبة كمال، لافتاً القول إلى صفة التربية والإحسان لأنه من أعظم مواقعها، وبحكم السياق يتبين أن الآية لا علاقة لها بفرض الصلاة ولا بأوقاتها وإنما هي على نحو قوله تعالى في سورة النصر: ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ ﴾النصر:٣.[3]

لكن بعض أهل العلم ذهب إلى أن المراد بالتسبيح هنا هو الصلاة، وعليه يستفاد من مدلول الآية الحث على صلاتي الصبح والعصر، وهما الوسطى؛ لأنهما تشهدهما ملائكة الليل وملائكة النهار، أو الحث على الصلوات الخمس كلها؛ لأن العشى من زوال الشمس، والإبكار من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، فاقتصر على ذكر طرفي أوقات العمل ومراده الأوقات كلها، وقيل: المراد بهما صلاة مكة قبل أن تفرض الصلوات الخمس ركعتان غدوة وركعتان عشية.[4]

١٢) قوله تعالى: ﴿ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴾: لما كان المقام لإثبات قيام الساعة، وكان العشي أدل عليها قدمه على الإبكار، وفي تقلبهما الدائم دلالة على كمال مقلبهما وقدرته على إيجاد وتسوية المعدوم الممحوق كما كان.[5]

---

١) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير (١٥١/٧). ونظم الدرر للبقاعي (٩٠/١٧). والبحر المديد لابن عجيبة (١٤٣/٥). والتحرير والتنوير لابن عاشور (١٧٠/٢٤-١٧١).

٢) التحرير والتنوير لابن عاشور (١٧٠/٢٤).

٣) انظر: نظم الدرر للبقاعي (٩١/١٧). والتحرير والتنوير لابن عاشور (١٧١/٢٤).

٤) انظر: جامع البيان للطبري (٤٠٣/٢١). والنكت والعيون للماوردي (١٦١/٥). ونظم الدرر للبقاعي (٩١/١٧). والتحرير والتنوير لابن عاشور (١٧١/٢٤).

٥) انظر: نظم الدرر للبقاعي (٩١/١٧).

قال الفخر الرازي: اعلم أن مجامع الطاعات محصورة في قسمين: التوبة عما لا ينبغي، والاشتغال بما ينبغي، والأول مقدم على الثاني بحسب الرتبة الذاتية فوجب أن يكون مقدما عليه في الذكر، أما التوبة عما لا ينبغي فهو قوله: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾، وأما الاشتغال بما ينبغي فهو قوله: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَـٰرِ﴾ والتسبيح عبارة عن تنزيه الله عن كل ما لا يليق به، وبالجملة فالمراد من العشي والإبكار الأمر بالمواظبة على ذكر الله، وأن لا يفتر اللسان عنه، وأن لا يغفل القلب عنه، حتى يصير الإنسان بهذا السبب داخلا في زمرة الملائكة، كما قال في وصفهم: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾الأنبياء:٢٠. اهـ.[1]

تلخص من هذه الآية منهج النصر والتمكين لرسل الله تعالى وأتباعه المؤمنين، وأن كل سبب ووسيلة تؤدي إلى النصر لابد أن يتوفر فيها صبر بلا حدود، واستغفار بكثرة، ومواصلة ذكر وتسبيح بالليل والنهار، وهذه هي صورة النصر التي تتم في القلب، فتعقبها الصورة الأخرى في واقع الحياة، ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾﴾آل عمران:١٢٦.

قال سعيد حوّى: "بدأت قصة موسى ﷺ بقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾﴾غافر:٢٣، وختمت بقوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَـٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٥٤﴾﴾ غافر:٥٣-٥٤، فكأنه يشير إلى البداية والنهاية في حياة موسى ﷺ: مرحلة الصراع مع فرعون، ومرحلة النجاة، وهداية بني إسرائيل، ووراثتهم التوراة بعد ذلك وهي النعم الكبرى والنصر العظيم، فالنعمة الكبرى أن يكون الإنسان على الهدى، والنصر العظيم أن يوجد ورّاثٌ لدين الله ودعوته ... [ثم الخطاب] يتوجّه لرسول الله ﷺ آمرا إياه بالصبر والاستغفار والتسبيح".[2]

١٣) وبهذا نجد أن هذا المقطع خدم محور السورة الأساسي أيما خدمة، إذ لا أجلب للهزيمة الميدانية في المعركة من الهزيمة النفسية، فإذا قوي القلب باليقين وعلم أن نصر الحق حتم ولازم فإن شبح اليأس يزول، ومن ثم تتحرك كل الطاقات القلبية والجسمية لإحراز هذا النصر الموعود بالتوكل على الله تعالى ثم ببذل كل سبب ممكن ومتوفر، وهكذا نصر الله تعالى رسولنا محمدا ﷺ وأصحابه رضوان الله عليهم في جل معاركهم

---

١) انظر: مفاتيح الغيب (٥٢٥/٢٧).

٢) الأساس في التفسير (٤٩٦٧/٩).

بعد ذلك، ولم يلتحق النبي ﷺ بالرفيق الأعلى إلا وقد قرت عينه بمشاهد النصر العظيمة لأمته، وكان آخرها أن رأى صحابته صفوفا متراصين في صلاة الفجر، كأنما هذه اللقطة تأويل لآخر ما في هذا المقطع وهو قوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾، فكانت آخر تسبيحة له ولأمته في حياته هي تسبيحة الإبكار.

المطلب الرابع: التفسير الإجمالي للآيات:

يخبر الله تعالى في هذه الآيات عن سنة دائمة من سننه الكونية، ويقرر لحقيقة عظمى، وهو أنه يتولى ويتكفل بنصر رسله والمصدقين بهم نصرا يتحقق في الدنيا بظفرهم وعلوهم علوا ظاهرا، أو بهلاك مكذبيهم واستئصالهم، أو بنشر دينهم وبقائه، ويتحقق في اليوم الآخر الذي يقوم فيه الأشهاد من الملائكة والأنبياء والمؤمنين على الأمم المكذبة بالشهادة بأن الرسل قد بلغتهم الرسالة وأدت إليهم الأمانة ونصحت لهم، وأن الأمم كذبتهم وآذتهم وقاتلتهم، فيتحقق النصر للرسل والمؤمنين يومها بالنجاة من النار والقصاص من الأعداء وقطع حججهم الباطلة، فيومها يظهر حجج المرسلين، ويسقط أعذار الظالمين، وينالهم الطرد والإبعاد من رحمة الله وجنته، ويصيرون إلى شر ما في الدار الأخرة وهو العذاب الأليم.

هذا مصير المكذبين برسل الله، ومصير المكذبين بموسى عليه السلام، وأما موسى عليه السلام فإنه قد أوتي الهدى والبيان للحق الذي بعث به، وأورث قومه بنو إسرائيل التوراة وعلمها، وكان لهم ذلك هدى وبيانا لأمر دينهم وتذكرة لذوي العقول والحجا منهم.

وكما أوتي موسى عليه السلام الحق فقد أوتي ذلك نبي الله محمدا ﷺ، وكما كذب بموسى عليه السلام فرعون وقومه، فقد كذبت قريشا برسولها ﷺ، فأمر الله تعالى نبيه محمدا ﷺ بالصبر الجميل على بلاغ الرسالة، وتحمل أذى القوم الكافرة، والتيقن بالنصر والظفر فإن وعد الله حق متحقق لا يتخلف، وأمره بالإكثار من الاستغفار، ومواصلة التسبيح والتقديس بحمد الله وثنائه في آخر المساء وأول الفجر.

المطلب الخامس: بيان ما ترشد إليه الآيات[1]:

١- بيان وعد الله لرسله والمؤمنين وهو أنه ينصرهم بأحد أمور ثلاثة –أو بجميعها-:

الأول: أن ينصر دينهم ويظهره ويقرره وإن طال الزمن.

الثاني: أن يهلك عدوهم هلاكا عاما وينجيهم.

الثالث: أن يعليهم على من كذبهم ويظفرهم بهم بغلبة الملك وقهر السلطان.

فالنصر بوجه من الوجوه ثابت وأكيد للدعاة والمؤمنين والمجاهدين في سبيل الله وإعلاء كلمته وتطبيق شريعته.

٢- إن الإكرام العظيم والتشريف الكامل يكون أتم وأبهج وأمتع عند حضور الجمع العظيم من أهل المشرق والمغرب.

٣- عدم قبول المعذرة من المشركين البتة يوم القيامة.

٤- بيان منة الله تعالى على موسى عليه السلام وبني إسرائيل -وتكرر ذلك لرسول الله محمد ﷺ وأمته- بإنزال الكتاب وتوريثه فيهم هدى وذكرى لأولي الألباب.

٥- ومن هذا يتبين وحدة الدين، وأن الله أرسل رسله جميعا برسالة الإسلام والتوحيد، فلا تناقض بين الكتب المنزلة فالآخر منها ينزل مصدقا لما بين يديها.

٦- وجوب الصبر والتحمل في ذات الله تعالى، وعدم الضجر والسأم من الدعوة إلى الله، فإن الظفر مع الصبر، والاستعانة على ذلك بالاستغفار والذكر والصلاة.

***

١) انظر: جامع البيان للطبري (٢١/٤٠٠). وأيسر التفاسير لأبي بكر الجزائري (٤/٥٤١، ٥٤٤). والتفسير المنير للزحيلي (٢٤/١٤٥). والتفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم لجامعة الشارقة، بإشراف د. مصطفى مسلم (٦/٥٧٦).

الفصل الثالث: بيان أحوال المجادلين، وعرض دلائل التوحيد، والوعد بنصر المؤمنين وخسران الكافرين

ويشمل الآيات (٥٦-٨٥)

قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا
كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (٥٦) لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ
أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٥٧) وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ
آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ (٥٨) إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ
أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (٥٩) وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي
سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ (٦٠) اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ
لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (٦١) ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّا
إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (٦٢) كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٦٣) اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ
الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ
رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٦٤) هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ
الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٦٥) ۞ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي
وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٦٦) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ
طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى
وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٦٧) هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٦٨) أَلَمْ تَرَ إِلَى
الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ (٦٩) الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ
يَعْلَمُونَ (٧٠) إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ (٧١) فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ (٧٢) ثُمَّ
قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ (٧٣) مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُو مِن قَبْلُ شَيْئًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ
اللَّهُ الْكَافِرِينَ (٧٤) ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ (٧٥) ادْخُلُوا أَبْوَابَ
جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (٧٦) فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ

أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ
نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ
الْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا
مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ
آيَاتِ اللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا
أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم
بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا
بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ
فِي عِبَادِهِ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴿٨٥﴾ ».

تحت عنوان (بيان أحوال المجادلين، وعرض دلائل التوحيد، والوعد بنصر المؤمنين وخسران الكافرين) يتكون المقطع الأخير الذي يلّم أطراف الموضوع ليتكامل المشهد الموضوعي للسورة، ويتكون المقطع من تسع وعشرين آية تبدأ بالآية (٥٦)، وحتى ختام السورة الكريمة بالآية (٨٥)، فيبدأ بتقرير أن الذين يجادلون في آيات الله بغير حجة ولا برهان إنما يدفعهم إلى هذا كبر في نفوسهم عن الحق، وهم أصغر وأضأل من هذا الكبر، ويوجه القلوب حينئذ إلى هذا الوجود الكبير الذي خلقه الله، وهو أكبر من الناس جميعا، لعل المتكبرين يتصاغرون أمام عظمة خلق الله، وتتفتح بصيرتهم فلا يكونون عميا، ويذكرهم بمجيء الساعة، ويوجههم إلى دعوة الله الذي يستجيب للدعاء، فأما الذين يستكبرون فسيدخلون جهنم أذلاء صاغرين، ويعرض في هذا الموقف بعض آيات الله الكونية التي يمرون عليها غافلين، يعرض الليل سكنا والنهار مبصرا، والأرض قرارا والسماء بناء، ويذكرهم بأنفسهم وقد صوّرهم فأحسن صورهم، ويوجههم إلى دعوة الله مخلصين له الدين، ويلقن الرسول ﷺ أن يبرأ من عبادتهم، ويعلن نهي ربه له عن آلهتهم، وأمره له بالإسلام لرب العالمين، ويلمس قلوبهم بأن الله الواحد هو الذي أنشأهم من تراب ثم من نطفة، وهو الذي يحيي ويميت، ثم يعود فيُعَجِّبُ رسوله ﷺ من أمر الذين يجادلون في الله وينذرهم عذاب يوم القيامة في مشهد عنيف، تعلق الأغلال في أعناقهم، ويسحبون بالسلاسل في الحميم، ويحرقون بالنار جزاء كفرهم وطغيانهم وشركهم بالله، وإذ يتخلى عنهم ما أشركوا وينكرون هم أنهم كانوا يعبدون شيئا! وينتهي بهم الأمر إلى جهنم

يقال لهم: ﴿ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (٧٦) ﴾، وعلى ضوء هذا المشهد يوجه الله رسوله إلى الصبر مرة أخرى، والثقة بأن وعد الله حق، سواء أبقاه حتى يشهد بعض ما يعدهم أو توفاه قبل أن يراه، فسيتم الوعد هناك، ويذكره أنه قد أرسل رسلا قبله كثيرين، ﴿ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾، على أن في الكون آيات قائمة، وبين أيديهم آيات قريبة ولكنهم يغفلون عن تدبرها، فهذه الأنعام المسخرة لهم، من سخرها؟! وهذه الفلك التي تحملهم أليست آية يرونها؟! ومصارع الغابرين ألا تثير في قلوبهم العظة والتقوى؟! ويختم السورة بإيقاع قوي على مصرع من مصارع المكذبين، وهم يرون بأس الله فيؤمنون، ﴿ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ (٨٥) ﴾، هذا الختام الذي يصور نهاية المتكبرين، ويتفق مع جو السورة وظلها وطابعها الأصيل.[1]

ولنسر مع سياق هذا المقطع بالتفصيل في ستة مباحث.

---

١) انظر: في ظلال القرآن لسيد قطب (٥/٣٠٦٧-٣٠٦٨). وأهداف كل سورة ومقاصدها لعبد الله شحاتة (١/٣٤٥-٣٤٦).

المبحث الأول: كشف بواعث المجادلين، وإثبات الحجة عليهم

ويشمل الآيات (٥٦-٥٩)

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾.

المطلب الأول: ربط الموضوع بالمحور الأساس للسورة:

هذه المرة الرابعة بين خمس مرات ذكر فيها المجادلون في آيات الله في هذه السورة،: فذكرت مرة في أول السورة في قوله: ﴿ مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ ﴿٤﴾ ﴾غافر: ٤، ثم بعدها في قوله تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِن بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ ﴾غافر: ٥، ومرة على لسان مؤمن آل فرعون: ﴿ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ ﴾ غافر: ٣٤-٣٥ ، ومرة هنا: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ ﴾، ومع تكرارها تضيف معنى جديدا كل مرة، ففي المرة الأولى قرّرت أن المجادلة في آيات الله لا يفعلها إلا الكافرون، والمرة الثانية ذكرت أن الكافرين من سائر الأمم ما يجادلون إلا بالباطل، وليس لهم من غرض سوى إدحاض الحق، وفي المرة الثالثة بيّنت أن الإسراف والارتياب هما سبب الجدال في آيات الله، وأن المجادلين إنما يهرفون بجدال ليس فيه شائبة حجة ودليل وبرهان، وأن الجدل في آيات الله هو علامة بأن القلب قد طُبع عليه بسبب الكبرياء والجبروت، والمرة الرابعة بيّنت أن الجدال في آيات الله أثر عن الكبر الذي يستهدف أصحابه الجاه والعظمة والرياسة.

وإذ تحدّدت الأسباب النفسية والقلبية للجدال في آيات الله، وتبيّنت مظاهر ذلك وأهداف أصحابه، فإن الآية الأخيرة من المقطع السابق -﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ... ﴾غافر: ٥٥، الآية- قد حددت الموقف المكافئ لذلك، وهو الصبر والاستغفار، والتسبيح بحمد الله، ثم في هذه الآية زادت الاستعاذة بالله، ومن قبل أمرت الآية الأولى من آيات الجدال الأربعة -﴿ مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي ٱلْبِلَٰدِ ﴿٤﴾ ﴾غافر: ٤- بعدم الاغترار بما عليه الكافرون، وهكذا نرى كيف أن السياق يصبّ في مصبّ واحد مع تعرضه لكثير من المعاني خلال سيره الرئيسي لاحتياج المعنى الرئيسي إلى ذلك، وإذا كان الصبر مستحيل الوجود إلا إذا كان هناك إيمان بالله وباليوم الآخر، وإذا كان الاستغفار والتسبيح والاستعاذة أثرا عن معرفة الله عز وجل، فإن السياق يقتضي الحديث عن اليوم الآخر، ويتجه ليعرفنا على الله عز وجل،[1] وبهذا نجد أن السورة لم تفارق في أيّ من مقاطعها المحور الأساسي للسورة لا في الأسلوب ولا في العرض ولا في الحقائق المعروضة، وفي هذه الآيات أسلوب المحاججة واضح جدا في قوله: ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ ﴾غافر:٥٧، ﴿ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴾ غافر:٥٨، إلخ،[2] فتبين من كل هذا حسن وعظمة إدارة الله تعالى لمعركة الحق ضد الباطل ليزهقه في آخر المطاف حسا ومعنى، وليقطع دابر المجادلين في آياته بغير سلطان فتتحقق نصرة المؤمنين وتدفع سَورة الكافرين.

قال الفخر الرازي: "الكلام في أول هذه السورة إنما ابتدئ ردا على الذين يجادلون في آيات الله، واتصل البعض بالبعض وامتد على الترتيب الذي لخصناه، والنسق الذي كشفنا عنه إلى هذا الموضع، ثم إنه تعالى نبه في هذه الآية على الداعية التي تحمل أولئك الكفار على تلك المجادلة، فقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ ﴾ إنما يحملهم على هذا الجدال الباطل كبر في صدرهم، فذلك الكبر هو الذي يحملهم على هذا الجدال الباطل، وذلك الكبر هو أنهم لو سلّموا نبوتك لزمهم أن يكونوا تحت يدك وأمرك ونهيك، لأن النبوة تحتها كل مُلك ورئاسة، وفي صدورهم كبر لا يرضون أن يكونوا في خدمتك، فهذا هو الذي يحملهم على هذه المجادلات الباطلة والمخاصمات الفاسدة"[3].

١) انظر: الأساس في التفسير لسعيد حوّى (٤٩٧٤/٩).
٢) انظر: التفسير الموضوعي لسور القرآن لجامعة الشارقة، بإشراف د. مصطفى مسلم (٥٨٠/٦).
٣) مفاتيح الغيب (٥٢٦/٢٧).

المطلب الثاني: التناسق بين هذا الموضوع وسابقه:

ابتدأ هذا المقطع بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ ﴾ وهذا رجوع إلى الأصل الأول الذي بنيت عليه السورة وهو مناقشة المجادلين في آيات الله بالباطل، وكأن الآيات هنا تبيّن الأسباب الحاملة للكافرين على الجدال، وتذكر أمهات القضايا التي يجادلون فيها، وهي الساعة والإيمان والعمل الصالح والعبادة، وقد عرضها الله عز وجل عرضا يظهر منه أن جدالهم في غير محله، فذكر أن خلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس، فموضوع البعث بديهي، وذكر أن الإيمان والعمل الصالح لا يستوي مع الإساءة، كما لا يستوي الأعمى والبصير، فالإيمان والعمل الصالح لا ينبغي أن يمارى في فضلهما، والعبادة لله عز وجل بديهية من البديهيات، كيف والله عز وجل قد خلق للإنسان ما خلق مما سنراه في المباحث القادمة، فهذا المقطع يربط بين ما قبله وما بعده.

وجاءت هذه الآيات بعد أمر الله رسوله ﷺ بالصبر والاستغفار والتسبيح، فكانت برهانا على مجيء اليوم الآخر، وتهييجا على الإيمان والعمل الصالح والدعاء والعبادة التي فيها الاستغفار والتسبيح والاستعاذة، وإذا تأملنا محور السورة في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٦﴾ البقرة:٦ ، وتأملنا قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ٥٩﴾ غافر:٥٩ ، وإذا تأملنا عدم استواء الإيمان والكفر، والعمل الصالح والإساءة، أدركنا صلة ذلك بكون الكافرين لا يستفيدون من الإنذار، وأدركنا ضرورة الصبر على مثل هذه المواقف.

وسنرى أن الآيات القادمة تتحدث عن الله عز وجل، فكأن السياق يرينا أنه من البديهي أن تجب العبادة لله، ملاحظين أن لفظ الجلالة (الله) أو الضمير العائد إليه (هو) يتكرر ورودهما في آيات المقاطع التالية.[1]

قال سيد قطب: "هذا الشوط متصل تمام الاتصال بالشوط الذي قبله، وهو استمرار للفقرة الأخيرة من الدرس الماضي، وتكملة لتوجيه الرسول ﷺ للصبر على التكذيب والإيذاء والصد عن الحق والتبجح

1) انظر: الأساس في التفسير لسعيد حوّى (٤٩٧٧/٩-٤٩٧٨). والتفسير الواضح لمحمد حجازي (٣١٢/٣).

بالباطل، فبعد هذا التوجيه يكشف عن علة المجادلة في آيات الله بغير حجة ولا برهان، إنه الكبر الذي يمنع أصحابه من التسليم بالحق وهم أصغر وأضأل من هذا الكبر الذي يحيك في الصدور"[١].

مناسبة أخرى: في الآيات السابقة بيّن الله تعالى أن النصر حليف المؤمنين فما عليهم إلا الأخذ بالأسباب والصبر في الجهاد والدعوة والاستغفار، وفي هذه الآيات يبيّن الله تعالى أن المجادلين من المشركين لا يدفعهم فكر ولا عقيدة سليمة وإنما الدافع الوحيد للجدل بهذه الصورة هو التكبر، ومن ثم يبيّن الله تعالى سفاهة المتكبرين وخفة عقولهم فإن خلق السماوات والأرض أكبر من خلق الإنسان، وهي في وظيفتها وفي المساحة التي تحتلها في الكون لم يكن الإنسان إلا جزءاً يسيرا جدا من هذا الكون، فعلام التكبر إذن؟!![٢]

ومناسبة أخرى: أنه لما أكدّ الله لنبيه ﷺ نصره له وللمؤمنين، بيّن أنه كيف لا يوثق بوعد النصر بعد إقامة الدلائل التي لا دخل للمجادلة الصائبة فيها، وليست بقادحة في أدلة الرسل والأنبياء، إنما هي مجادلات باطلة نابعة عن كبر ساقط لا يبلغون مقامه ولا ينالون منه مرادهم، فما على الرسول ﷺ بعد الصبر والاستغفار والتسبيح أمام هذا الجدال والكبر إلا الاستعاذة بالله، فهو كفيل بأن يذهب عنه كيدهم ويذل كبرهم.[٣]

ومناسبة أخرى: أنه لما كان الأمر بشغل هذين الوقتين -العشي والإبكار- بالتسبيح أمراً بشغل غيرهما من باب الأولى، لأن أول النهار وقت الاشتغال بالأعمال والاهتمام بالابتداء والتمام، وآخره وقت التهيؤ للراحة والمقيل بالأكل والشرب وما يتبعهما، وكان ذلك موجباً للاشتغال عن أعداء الدين رأساً، وكان ذلك أمراً على النفوس شاقاً، علله بما يقتضي المداومة على الأعمال والإعراض عنهم؛ لأن خذلانهم أمر قد فرغ منه، فقال معللاً للمداومة على الطاعة: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ... ﴾ الآية.[٤]

وقال ابن عاشور: "جرى الكلام من أول السورة إلى هنا في ميدان الرد على مجادلة المشركين في آيات الله ودحض شبههم وتوعدهم على كفرهم، وضرب الأمثال لهم بأمثالهم من أهل العناد ابتداء من قوله: ﴿ مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ غافر: ٤، وقوله: ﴿ ۞أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ ﴾ غافر: ٢١، كما ذكرت أمثال أضدادهم من أهل الإيمان من حضر منهم

---

١) في ظلال القرآن (٥/٣٠٨٩).

٢) انظر: التفسير الموضوعي لسور القرآن لجامعة الشارقة، بإشراف د. مصطفى مسلم (٦/٥٧٧).

٣) انظر: تبصير الرحمن للمهايمي (٢/٢٣٠).

٤) انظر: نظم الدرر للبقاعي (١٧/٩٢).

ومن غبر من قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾غافر:٢٣-٢٤، ثم قوله: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾غافر:٢٨، وختم ذلك بوعد النبي ﷺ والمؤمنين بالنصر كما نُصر النبيون من قبله والذين آمنوا بهم، وأمر بالصبر على عناد قومه والتوجه إلى عبادة ربه، فكان ذكر الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان عقب ذلك من باب المثل المشهور: (الشيء بالشيء يذكر)"[١].

١) التحرير والتنوير (١٧٢/٢٤).

المطلب الثالث: أسباب النزول الواردة:

سورة غافر -كما سبق ذكره- سورة مكية، والصحيح أنها مكية كلها، غير أن لبعض أهل العلم أقوالا في آيات منها بأنها مدينة، منها قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ٥٦ ﴾، وأضاف بعضهم الآية التي بعدها.

والباعث لجعلهم هذه الآيات مدنية قولهم إنها نزلت في اليهود وقد كانوا بالمدينة، فقد أخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم، -وقال السيوطي بسند صحيح- عن أبي العالية: أن اليهود أتوا النبي ﷺ فقالوا: إن الدجال يكون منّا في آخر الزمان، ويكون من أمره كذا وكذا، فعظّموا أمره وقالوا: نصنع كذا وكذا، فأنزل الله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ ﴾، قال: لا يبلغ الذي يقول ﴿ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ ﴾ فأمر نبيه أن يتعوذ من فتنة الدجال، لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الدجال[١].

وعن كعب الأحبار في الآية، قال: هم اليهود نزلت فيهم فيما ينتظرونه من أمر الدجال[٢].

فاستدلوا بالأثر المروي وبالاستعاذة على أن المراد بالآية اليهود، وأن الاستعاذة هي من الدجال وفتنته، وقالوا إن الدجال آية من آيات الله.[٣]

والصحيح أن الآية نزلت في مشركي مكة منكري البعث، ثم هي عامة في كل مجادل مبطل ومنهم اليهود، فلا يُدرى بم صرفت مجادلتهم في آيات الله إلى المجادلة في الدجال ولا يسعهم ذلك بحسب الظاهر، وقد قال ابن كثير عما ذكره أبو العالية: "وهذا قول غريب، وفيه تعسف بعيد، وإن كان قد رواه ابن أبي حاتم"[٤]، ولم يذكره شيخ المفسرين ابن جرير الطبري.

---

١) تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم برقم "١٨٤٤٠" (٣٢٦٨/١٠). والدر المنثور للسيوطي (٢٩٤/٧). والإكليل في استنباط التنزيل للسيوطي (٢٢٧/١)، وقال: مرسل صحيح الإسناد.

ولا أدري وجه تصحيح السيوطي لإسناد هذه الرواية مع إرسالها: أهو من مراسيل الصحابة؟، أم على طريقة المتقدمين قبل المئتين؟، أم على استثناء مراسيل بعض الثقات؟، أم هو تساهل منه؟ ولعل قصده صحة السند إلى أبي العالية، فماذا عمن فوق أبي العالية؟ أهو متصل صحيح؟ أم منقطع؟

٢) تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم برقم "١٨٤٤١" (٣٢٦٨/١٠).

٣) انظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٣٧٧/٤). وبحر العلوم للسمرقندي (٢١٠/٣).

٤) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (١٥٢/٧). وانظر: زاد المسير لابن الجوزي (٤٣/٤). والتفسير المنير للزحيلي (١٤٢/٢٤).

قال الألوسي معلقا على كلام أبي العالية في أن المراد بالناس في قوله: ﴿أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ﴾ هو الدجال بناء على ما روي عنه في المجادلين، فقال: "ولعمري إن تطبيق هذا ونحوه على ذلك في غاية البعد، وأنا لا أقول به"[1].

والصحيح أن الآية نزلت في المشركين والكفار عامة، وهذه الآثار -ولو صحت- لم تكن فيها دلالة على أكثر من صلوحية الآية لأن تُضرب مثلا لكل فريق يجادلون في آيات الله بغير سلطان جدالا يدفعهم إليهم الكبر، فالتعميم أصح وأرجح وأحسن.[2]

قال دروزة: يلحظ أن آية قريبة في الصيغة إلى هذه الآية -﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ...﴾- قد وردت في الفصل القصصي السابق -﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡۖ كَبُرَ مَقۡتًا ...﴾غافر:٣٥- في صدد التنديد بالكافرين المتكبرين مما يسوغ القول إن هذه الآية أيضا مكية وفي صدد الحديث عن الكافرين، وفيها عود على بدء بالتنديد بهم، وتطمين النبي ﷺ وتثبيته من ناحيتهم. ويلحظ أيضا أن الآية السابقة لهذه الآية مباشرة قد وجه الخطاب فيها للنبي ﷺ وأمر بالصبر والاعتماد على الله وتسبيحه عشيا وبكورا، وأن الفقرة الأخيرة قد احتوت شيئا مثل ذلك من حيث توجيه الخطاب إلى النبي ﷺ وأمره بالاستعاذة بالله، فهذا التماثل أيضا مما يقوي ترجيح مكية الآية وصلتها بالسياق سبكا وموضوعا.

ويلحظ كذلك أن الآيات في صدد التدليل على قدرة الله على البعث وخلق الناس ثانية، وليس فيها صورة ما للآيات والسور المدنية، فهي أشد مماثلة للأسلوب والآيات المكية، وهذا ما يجعلنا نتوقف في رواية مدنيتها، ونرجح مكيتها، ثم نرجح صلة الآيات بالسياق السابق وموضوعه.[3]

---

١) روح المعاني للألوسي (١٢/٣٣٢).

٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٥/٣٢٥). وأنوار التنزيل للبيضاوي (٥/٦١). والتحرير والتنوير لابن عاشور (٢٤/١٧٥).

٣) انظر: التفسير الحديث (٤/٣٨٠، ٣٩٠).

المطلب الرابع: التناسب بين الآيات والجمل والكلمات:

تعود السورة الكريمة مرة أخرى إلى توبيخ الذين يجادلون في آيات الله بغير حجة أو برهان، وتبين الأسباب التي حملتهم على ذلك، وترشد إلى العلاج من شرورهم، وتنفى المساواة بين الكافر والمؤمن، وتؤكد على حتمية قيام الساعة.

١) قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ ﴾: يعود فيه ذكر المجادلين هذه المرة ليخبرنا الله عنهم بوصفين:

أولهما: أن هؤلاء المجادلين في دفع آيات الله لا يصدرون في جدالهم عن علم صحيح.

ثانيها: أن هؤلاء المجادلين لا يصدرون في جدالهم عن نية حسنة.

بل جدالهم عار عن كل بينة وحجة تؤسسها العقول السليمة، وعن كل سلطان مؤيد من الله، وهو ناشئ عن مرض قلبي عضال وهو الكبر الذي ملأ صدورهم عظمة لا يستحقون شيئا منها، وما هم ببالغين من تلك العظمة إلا نقيضها وهي الحقارة والذل، وقد امتد كبرهم من أنفسهم إلى كبرهم على غيرهم، فتكبروا على رسل الله وأنبيائه وأنفوا وترفعوا عن اتباعهم واتباع ما عندهم من الحق والعلم واليقين حسدا من عند أنفسهم من بعد تبين لهم الحق، وما هم بحاصلين على مبتغاهم من هذا الكبر المقرون بالحسد، فلا أمل لهم أن ينالوا شيئا من النبوة أو الرسالة، ولا قدرة لهم أن يسلبوا أنبياء الله ورسله شيئا مما آتاهم الله.

فانتقلت الآيات للحديث عن المجادلين في آيات الله وكشف ما تكنه صدورهم من أسباب جدالهم بغير حق، ليعلم الرسول ﷺ دخيلتهم، ويعلم دافعهم إلى التكذيب وهو الكبر، وإرادة التقدم والرياسة، والتكبر والترفع عن أن يكونوا تبعا وخضوعا للرسول ﷺ، وأن يكونوا خلف الذين سبقوهم بالإيمان ممن كانوا يحتقرونهم ولا يعبأون بهم،[١] وقد كانت المجادلة في دفع آيات الله من رؤساء الكفرة وأكابرهم يموهون بمجادلتهم في دفع آيات الله تعالى والطعن فيها على أتباعهم وسفلتهم ليبقى لهم العز والشرف الذي كان لهم، ويبطلوا به الحق، ويطفئوا نوره.[٢]

١) انظر: التحرير والتنوير لابن عاشور (١٧٢/٢٤).

٢) انظر: تأويلات أهل السنة للماتريدي (٤٢/٩). والكشاف للزمخشري (١٧٣/٤).

قال ابن عاشور: "قوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ الآية استئناف ابتدائي، وهو كالتكرير لجملة ﴿ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡۖ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ ﴾غافر:٣٥، تكرير تعداد للتوبيخ عند تنهية غرض الاستدلال كما يوقف الموبخ المرة بعد المرة، والذين يجادلون هم مشركو أهل مكة، وهم المخبر عنهم في قوله أول السورة: ﴿ مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴿٤﴾ ﴾غافر:٤"[1].

وإضافة ﴿ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ ﴾ وتقييد المجادلة بها مع استحالة إتيانه للإيذان بأن التكلم في أمر الدين لابد من استناده البتة إلى حجة واضحة وبرهان مبين، وليفيد هذا القيد تشنيع مجادلتهم، وإلا فإن المجادلة في آيات الله لا تكون إلا بغير سلطان؛ لأن آيات الله لا تكون مخالفة للواقع، وكذلك وصف ﴿ سُلۡطَٰنٍ ﴾ بجملة ﴿ أَتَىٰهُمۡ ﴾ لزيادة تفظيع مجادلتهم بأنها عرية عن حجة لديهم فهم يجادلون بما ليس لهم به علم، وقد أثبت لهم الكبرَ الباعثَ على المجادلة بطريق القصر لينفي أن يكون داعيهم إلى المجادلة شيء آخر غير الكبر على وجه مؤكد، فإن القصر تأكيد على تأكيد، لما يتضمنه من إثبات الشيء بوجه مخصوص مؤكد، ومن نفي ما عداه، فتضمن جملتين.[2]

قال ابن عرفة: "قوله تعالى: ﴿ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ ﴾ إشعار نفي الدليل السمعي، وقوله تعالى: ﴿ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ ﴾، إشعار بنفي الدليل العقلي، فدلّ على أن كفرهم عناد"[3].

٢) قوله تعالى: ﴿ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ ﴾: جاءت نصا صريحا وبشارة بأن كل من جادل الحق فإنه مغلوب، وكل من تكبر عليه فهو في نهايته ذليل، فلما أثبت الله تعالى حصول الكبر في قلوبهم، أخبر أنهم ليسوا ببالغي هذا الكبر، ونفي بلوغ الكبر بعد إثباته عائد ولابد إلى حالات هذا الكبر:

-فإما أن يراد نفي أهليتهم للكبر، إذ هم أقل من أن يكون لهم الكبر والعظمة، فكبرهم كبر زيف، كقوله تعالى: ﴿ لَيُخۡرِجَنَّ ٱلۡأَعَزُّ مِنۡهَا ٱلۡأَذَلَّۚ وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾المنافقون:٨، أي لا عزة حقا لهم.

---

١) التحرير والتنوير (١٧٢/٢٤).

٢) انظر: إرشاد العقل السليم لأبي السعود (٢٨١/٧). وروح المعاني للألوسي (٣٣١/١٢). والتحرير والتنوير لابن عاشور (١٧٣/٢٤).

٣) تفسير ابن عرفة (٣٩٨/٣).

-وإما أن يراد نفي نوالهم شيئا من آثار كبرهم ومقتضاه، مثل ما قصدوا من إطفاء النور الذي أعطاه الله المؤمنين، وإدحاض الحق وإبطال الدين، وإرادة أذية الرسول ﷺ وأصحابه، وتحقير الذين يتكبرون عليهم، ومخالفتهم إياهم فيما يدعونهم إليه فضلا عن الانتظام في سلك أتباعهم، وإذلالهم، وإفحام حجتهم، فهؤلاء ظنوا أنهم إن اتبعوا النبي ﷺ قل ارتفاعهم، ونقصت أحوالهم، وأنهم يرتفعون إذا لم يكونوا تبعا، فأعلم الله عز وجل أنهم لا يبلغون الارتفاع الذي أمّلوه بالتكذيب.

-وإما أن يراد نفي بلوغهم لما أرادوه من مهلك النبي ﷺ وأصحابه، وغلبتهم وعلو أمرهم عليهم، واندراس آثارهم حتى يصيروا مجرد حكاية، وفي هذا النفي الذي تضمن أنهم لا يبلغون أملا تأنيس للنبي عليه الصلاة السلام.[1]

قال ابن عاشور: تعليق نفي البلوغ باسم ذات الكبر يشمل جميع الأحوال التي يثيرها الكبر، وهذا من مقاصد إسناد الأحكام إلى الذوات إن لم تقم قرينة على إرادة حالة مخصوصة، فشمل قوله: ﴿مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ﴾ عدم بلوغهم شيئا مما ينطوي عليه كبرهم، فما بلغوا الفضل على غيرهم حتى يتكبروا، ولا مطمع لهم في حصول آثار كبرهم. وقد نُفِي أن يبلغوا مرادهم بصوغه في قالب الجملة الاسمية لإفادتها ثبات مدلولها ودوامه، فالمعنى: أنهم محرومون من بلوغه حرمانا مستمرا، فاشتمل تشويه حالهم إثباتا ونفيا على خصوصيات بلاغية كثيرة. اهـ.[2]

وقد قيل إنه المعني بالمجادلين في آيات الله هم اليهود، وأن الكبر الذي ليسوا ببالغيه هو تَوقعُهم أمر الدَّجالِ وأنه منهم، فتكبروا مُتَرَبصِينَ خروج الدجالِ، فأَعلم اللَّه أن هذه الفرقة التي تجادِلُ لا تبلغ خروج الدجَالِ.[3]

٣) قوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾: لما كان كبر المجادلين فيه الكثير من المكر والكيد، أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يتعوذ بالله ويستجير به من شر أولئك الأكابر والفراعنة الذين لا يتورعون بخلق ولا دين عن إيذاء الآخرين.

---

١) انظر: تأويلات أهل السنة للماتريدي (٤٣/٩). والهداية إلى بلوغ النهاية لمكي بن أبي طالب (٦٤٥٠/١٠). وتفسير السمعاني (٢٧/٥). والمحرر الوجيز لابن عطية (٥٦٥/٤). والجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٣٢٤/١٥). ونظم الدرر للبقاعي (٩٣/١٧). وتيسير الكريم الرحمن للسعدي (٧٤٠/١). والتحرير والتنوير لابن عاشور (١٧٤/٢٤).

٢) التحرير والتنوير (١٧٤/٢٤).

٣) انظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٣٧٧/٤).

ولما كان من فروع الكبر والحسد تمني زوال نعمة الغير، أخبر تعالى أنه ما كان للمجادلين أن يقدروا على سلب رسل الله شيئا من فضل الله عليهم وهم قد أمروا أن يستجيروا بالله ربهم من شر كل ذي شر، فهو السميع بكل قول صادر والبصير بكل حركة ناشئة ضد رسله وأولياءه، فالله هو المتكفل بحفظهم ونصرهم.

وجملة ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ تعليل للأمر بالدوام على الاستعاذة، أي لأنه المطلع على أقوالهم وأعمالهم وأنت لا تحيط علما بتصاريف مكرهم وكيدهم.[١]

٤) قوله تعالى: ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ ﴾: جاءت تنبيها على قدرته، وتحقيقا للحق، وتبيينا لأشهر ما يجادلون فيه، إذ كان غاية ما وصل إليه جدال الكافرين هو إنكارهم للبعث وقد ضربوا له الأمثال والأقيسة الفاسدة، وقالوا ﴿مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ۝٧٨﴾ يس:٧٨، فنقض الله تعالى إنكارهم وتعجبهم بأن الخلق وإعادة الخلق كل ذلك ناشئ عن القدرة، ومن قدر على خلق ما هو أكبر وأعقد من الإنسان سواء في الحجم أو التركيب أو الماهية، فهو قادر بلا ريب أن يخلق ما هو دون ذلك، وإن كان كل ذلك على القادر المطلق أمرا يسيرا، ولكن أكثر العقول كليلة لا تعلم ولا تعي حقيقة عظمة الخالق وقدرته على جميع مراتب الخلق، فهو يخلق من العدم ومن غير أصل، ويخلق من مادة وأصل، ويفني بعد الخلق، ويعيد خلق ما أفنى، كل ذلك عليه يسير.

قال سيد قطب: "ليس على قدرة الله أكبر ولا أصغر، ولا أصعب ولا أيسر، فهو خالق كل شيء بكلمة، إنما هي الأشياء كما تبدو في طبيعتها، وكما يعرفها الناس ويقدرونها"[٢].

فلما كان أهم ما جادلوا فيه وأعظم ما ناظروا فيه من آيات الله هي الآيات المثبتة للبعث وصيرورة العباد إلى الله بالحشر ليقع الحكم والفصل، وتتحقق فيه نصرة الأنبياء وأتباعهم، وكان جدالهم في إثبات البعث هو أكبر شبهة لهم ضللت أنفسهم، وروجوها في عامتهم، ولما كانوا مقرين بأن الله هو خالق السماوات والأرض مع شدَّة خلقهَا وضخامتها وكثافتها وعرضها وطولها، فكانت أكبر وأهول في قلوب الناس من خلق البشر، أقيمت عليهم الحجة على إثبات البعث بأن بعث الأموات لا يبلغ أمره مقدار أمر

---

١) انظر: التسهيل لابن جزي (٢/٢٣٣). والتحرير والتنوير لابن عاشور (٢٤/١٧٥).
٢) في ظلال القرآن (٥/٣٠٩٠).

خلق السماوات والأرض بالنسبة إلى قدرة الله تعالى، ومعنى الاستدلال عليهم: أنهم أنكروا البعث لاستبعادهم خلق الأجسام مع أن في خلق السماوات والأرض ما لا يبقى معه استبعاد مثل ذلك.

وقيل: نبّه تعالى أنه لا ينبغي أن يجادل في آيات الله ولا يتكبر الإنسان، ودلّت الآية على قدرة خالق الأرض والسماوات على خلق الإنسان بداية وإعادة، ليخبر بما هو كالتعليل لما نفاه في آية المجادلة من بلوغهم لما قصدوا من الكبر، والمراد بهذا توبيخ هؤلاء الكفرة المتكبرين، كأنه قال: مخلوقات الله أكبر وأجل قدرا من خلق البشر، فما لأحد منهم يجادل يتكبر على خالقه وهو من أصغر مخلوقاته وأحقرهم.[1]

قال الزمخشري: "فإن قلت: كيف اتصل قوله: ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ بما قبله؟ قلت: إن مجادلتهم في آيات الله كانت مشتملة على إنكار البعث، وهو أصل المجادلة ومدارها، فحجوا بخلق السماوات والأرض لأنهم كانوا مقرين بأن الله خالقها وبأنها خلق عظيم لا يقادر قدره، وخلق الناس بالقياس إليه شيء قليل مهين، فمن قدر على خلقها مع عظمها كان على خلق الإنسان مع مهانته أقدر، وهو أبلغ من الاستشهاد بخلق مثله"[2].

وقال الفخر الرازي: "لما وصف جدالهم في آيات الله بأنه بغير سلطان ولا حجة ذكر لهذا مثالا، فقال: ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ ﴾ والقادر على الأكبر قادر على الأصغر لا محالة، وتقرير هذا الكلام أن الاستدلال بالشيء على غيره على ثلاثة أقسام:

أحدها: أن يقال: لمّا قدر على الأضعف وجب أن يقدر على الأقوى، وهذا فاسد.

وثانيها: أن يقال: لمّا قدر على الشيء قدر على مثله، فهذا الاستدلال حق، لما ثبت في العقول أن حكم الشيء حكم مثله.

وثالثها: أن يقال: لمّا قدر على الأقوى الأكمل فبأن يقدر على الأقل الأرذل كان أولى، وهذا الاستدلال في غاية الصحة والقوة ولا يرتاب فيه عاقل البتة ... فهذا برهان جلي في إفادة هذا المطلوب، ثم إن هذا البرهان على قوته صار بحيث لا يعرفه أكثر الناس، والمراد منهم الذين ينكرون الحشر والنشر، فظهر

---

١) انظر: تفسير القرآن العزيز لابن أبي زمنين (١٣٨/٤). وتفسير السمعاني (٢٧/٥). والمحرر الوجيز لابن عطية (٥٦٥/٤). والتسهيل لابن جزي (٢٣٤/٢). والبحر المحيط لأبي حيان (٢٦٧/٩). ونظم الدرر للبقاعي (٩٤/١٧). والتحرير والتنوير لابن عاشور (١٧٦/٢٤-١٧٧).
٢) الكشاف (١٧٤/٤).

بهذا المثال أن هؤلاء الكفار يجادلون في آيات الله بغير سلطان ولا حجة، بل بمجرد الحسد والجهل والكبر والتعصب"[١].

قال محمود صافي[٢]: من فنون البلاغة في هذه الآية "فن الإلجاء ... وهذا الفن هو فن رفيع من فنون البلاغة، وهو أن يبادر المتكلم خصمه بما يلجئه إلى الاعتراف بصحته، وبهذا صح التحاقه مع ما قبله من الكلام، فإن مجادلتهم في آيات الله كانت مشتملة على أمور كثيرة من الجدال والمغالطة واللجاج والسفسطة، وفي مقدمتها إنكار البعث، وهو في الواقع أصل المجادلة ومحورها الذي تدور عليه، فبادر سبحانه إلى مبادهتهم بما يسقط في أيديهم، ويقطع عليهم طرق المكابرة والمعاندة، وهو خلق السموات والأرض، وقد كانوا مقرين بأن الله خالقها، وبأنها خلق عظيم، فخلق الناس بالقياس شيء هين، ومن قدر على خلقها مع عظمها كان ولا شك على خلق الإنسان الضعيف أقدر، وهو أبلغ من الاستشهاد بخلق مثله. والأولوية في هذا الاستشهاد ثابتة بدرجتين:

إحداهما: أن القادر على العظيم هو على الحقير أقدر.

وثانيتهما: أن مجادلتهم كانت في البعث وهو الإعادة، ولا شك أن الابتداء أعظم وأبهر من الإعادة"[٣].

ومناسبة أخرى لهذه الآية بما قبلها ذكرها عبد الكريم الخطيب فقال: "الآية السابقة أشارت إلى ما يملأ صدور المشركين من كبر وغرور واستعلاء، وأنهم يحسبون بما ملكوا من كثرة في المال والرجال أنهم لن يُغلبوا، فجاء قوله تعالى: ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ ﴾ ليريهم أنهم وإن كانوا -كما يرون في أنفسهم- أصحاب قوة وبأس، فإن قوتهم وبأسهم لا يغنيان عنهم من الله شيئا، ولا يردّان عنهم بأسه إذا جاءهم، فأين هم من الناس؟ وأين الناس من السماوات والأرض؟ إنّ كل ذلك من خلق الله، وفي قبضة الله، فهل من خلق هذا الوجود وقام بسلطانه عليه يعجزه قهر هؤلاء المتكبرين وإذلالهم والتنكيل بهم؟!"[٤].

---

١) مفاتيح الغيب (٥٢٦/٢٧).

٢) هو محمود بن عبد الرحيم الصافي، من أعلام مدينة (حمص) السورية، وهو مؤلف أول كتاب كامل مفصّل في إعراب القرآن وصرفه وبيانه ؛ ويعرف باسم : (الجدول في إعراب القرآن ، وصرفه ، وبيانه)، بعد أن أنفق فيه خلاصة عمره ، ويُذكر أنه سلّم الكتاب للناشر ، ثم توفى بعدها بساعة واحدة ، وطُبع الكتاب بعد وفاته ،وكانت وفاته سنة ١٣٧٦هـ ، -رحمه الله تعالى رحمة واسعة-. انظر: موقع المكتبة الشاملة على الشبكة العنكبوتية

٣) الجدول في إعراب القرآن (٢٦٣/٢٤). وانظر: إعراب القرآن وبيانه لمحيي الدين درويش (٥٠٢/٨).

٤) التفسير القرآني للقرآن (١٢٥٢/١٢-١٢٥٣).

٥) قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾: لما كان خلقهما -السماوات والأرض- أكبر من خلق الناس ومن إعادة خلقهم أمرا واضحا ومعلوما، أخبر أن أكثر الناس -وهم المشركون المنكرون- لا يعلمون دليل ذلك بسبب غفلتهم وعدم تأملهم، فهم "متلاهون عن النظر في الأدلة مقتنعون ببادئ الخواطر التي تبدو لهم فيتخذونها عقيدة دون بحث عن معارضها، فلمّا جروا على حالة انتقاء العلم نزلوا منزلة من لا علم لهم"[١].

وقال عبد الكريم الخطيب: هذه الجملة "إشارة إلى جهل هؤلاء المشركين وغيرهم من الضالين بقدرة الله وسلطانه القائم على كل شيء، وأنهم ما استعظموا ما هم فيه من قوة إلا عن جهل بقدرة الله، بل وعن جهل بقدرة مخلوقات الله التي إذا وضعوا أنفسهم إزاءها كانوا أشبه بالذر أو النمل تحت سفح جبل شامخ"[٢].

٦) قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ﴾: لما كان جدالهم داحضا منذ البداية، وكانت آيات الله قاهرة لذوي العقول السليمة والقلوب المنيبة، أخبر تعالى أن الفريقان لا يستويان كما لا يستوي الأعمى الذي لا يبصر شيئا، والبصير الذي يرى مد بصره، وكما لا يستوي الذي آمن بالحق وصدّق به وعمل بالأعمال الصالحة النافعة، والكافر الذي كفر بالحق وأنكره وتلبس بالأعمال السيئة الضارة، فهذان الفريقان لا يستويان في ظواهرهما فكيف يستويان في بواطنهما، لكن قليلا ما يتذكر الناس الحق ويتبعونه، وأكثر الناس ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ﴾الحشر: ١٩.

وكذلك لما بيّن الله تعالى أن الجدال المقرون بالكبر والحسد والجهل كيف يكون، وأن الجدال المقرون بالحجة والبرهان كيف يكون، نبّه تعالى على الفرق بين البابين بذكر المثال، ولما نزلهم منزلة من لا يعلم ضرب مثلا لهم وللمؤمنين لبيان التفاوت بين العالم والجاهل، والمثاب والمعاقب، فمثل الذين يجادلون في أمر البعث مع وضوح إمكانه مثل الأعمى، ومثل المؤمنين الذين آمنوا به حال البصير، ولا يستوي الذين اهتدوا والذين هم في ضلال، فإطلاق الأعمى والبصير استعارة للفريقين الذين تضمنهما قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾.

---

١) التحرير والتنوير لابن عاشور (١٧٦/٢٤). وانظر: مدارك التنزيل للنسفي (٢١٧/٣).

٢) التفسير القرآني للقرآن (١٢٥٣/١٢).

ونفي الاستواء بينهما يقتضي تفضيل أحدهما على الآخر، ومن المتبادر أن الأفضل هو صاحب الحال الأفضل وهو البصير، إذ لا يختلف الناس في أن البصر أشرف من العمى في شخص واحد.[1]

٧) قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِيٓءُ ﴾: معطوفة على ما قبلها لبيان التفاوت بين الآتي بالأعمال الصالحة وبين الآتي بالأعمال السيئة الباطلة، ولزيادة بيان فضيلة أهل الإيمان بذكر فضيلتهم في أعمالهم بعد ذكر فضلهم في إدراك أدلة إمكان البعث ونحوه من أدلة الإيمان، وفيه إيماء إلى اختلاف جزاء الفريقين، وهذا الإيماء إدماج للتنبيه على الثواب والعقاب.[2]

فمناسبة هذه الآية أنه "تعقيب على قوله تعالى: ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾، وذلك أنه إذا كان أكثر الناس لا يعلمون هذه الحقائق التي تكشف لهم عن قدرة الله سبحانه وتعالى وقوة سلطانه القائم على هذا الوجود، فإن بعضا من الناس -وهم أقلهم- يعلم من جلال الله وعظمته وقدرته ما يملأ القلب هدى وإيمانا، ومن هنا يختلف الناس إيمانا وكفرا وهدى وضلالا وإحسانا وإساءة. وإنه كما لا يستوى الأعمى والبصير، كذلك لا يستوى الذين آمنوا وعملوا الصالحات، والذين كفروا وعملوا السيئات، إن الاختلاف بينهما واضح لا يحتاج إلى بيان"[3].

وقال البقاعي: "والآية من الاحتباك: ذكر عمل الصالحات أولاً دليلاً على ضدها ثانياً، والمسيء ثانياً دليلاً على المحسنين أولاً، وسره أنه ذكر الصلاح ترغيباً والإساءة ترهيباً"[4].

ولما انتهت الآية السابقة بقوله: ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾، وكان ذلك صفة ذم ناسب أن يبدأ في ذكر التساوي بصفة الذم، فبدأ بالأعمى، وأيضا قدم ذكر الأعمى على ذكر البصير مع أن البصر أشرف من العمى بالنسبة لذات واحدة، والمشبه بالبصير أشرف من المشبه بالأعمى، إذ المشبه بالبصير المؤمنون، والمشبه بالأعمى الكافرون، فقدم ذكر تشبيه الكافرين مراعاة لكون الأهم في هذا المقام هو بيان حال الذين يجادلون في الآيات إذ هم المقصود بالموعظة.

١) انظر: بحر العلوم للسمرقندي (٢١١/٣). ومفاتيح الغيب للفخر الرازي (٥٢٦/٢٧). والتحرير والتنوير لابن عاشور (١٧٧/٢٤).
٢) انظر: اللباب لابن عادل (٧٤/١٧). والتحرير والتنوير لابن عاشور (١٧٧/٢٤).
٣) التفسير القرآني للقرآن لعبد الكريم الخطيب (١٢٥٣/١٢).
٤) نظم الدرر للبقاعي (٩٧/١٧).

وأما قوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِيٓءُ ﴾ فإنما رتب فيه ذكر الفريقين على عكس ترتيبه في التشبيه بالأعمى والبصير اهتماما بشرف المؤمنين، ولمجاورة قوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ قوله: ﴿ وَٱلْبَصِيرُ ﴾ ، فتجاور المتشابهان المتناسبان، حتى لكأن الذين آمنوا وعملوا الصالحات هم الامتداد الطبيعي لهذا البصير، لأنهما طبيعة واحدة، إذ قلّ أن تكون بصيرة لا يتبعها إيمان وعمل صالح، وهذا هو السر في التعبير بالبصير دون المبصر، وهذا باب من أبواب البلاغة.[1]

و "لم يقترن المسيء بالأعمى ولم يقابله مقابلة توافق وتوازن، إذ ليس مع كل عمى إساءة، وإنما تكون الإساءة مع عمى البصيرة، ومن هنا جاء النفي بعدم التسوية واقعا على المسيء"[2].

٨) قوله تعالى: ﴿ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴾: لما تقرر ما سبق على هذا النحو من الوضوح الذي لا مانع للإنسان من فهمه ورسوخه في علمه إلا عدم تذكره، وهذا مؤكد لمعنى قوله: ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾؛ لأن قلة التذكر تؤول إلى عدم العلم، والقلة هنا كناية عن العدم وهو استعمال كثير، ويجوز أن تكون على صريح معناها ويكون المراد بالقلة عدم التمام، أي هؤلاء المجادلون لا يعلمون، وإذا تذكروا تذكرا لا يتممونه، بل ينقطعون في أثنائه عن التعمق إلى استنباط الدلالة منه، فهو كالعدم في عدم ترتب أثره عليه، أو يقال إنهم وإن كانوا يعلمون أن العلم خير من الجهل، وأن العمل الصالح خير من العمل الفاسد، إلا أن الحسد يعمي قلوبهم، فيعتقدون في الجهل والتقليد أنه محض المعرفة، وفي الحسد والحقد والكبر أنه محض الطاعة.[3]

وقوله: ﴿ تَتَذَكَّرُونَ ﴾ على الخطاب بطريق الالتفات والضمير للكفار، وفائدة الالتفات في مقام التوبيخ هو إظهار العنف الشديد والإنكار البليغ، والمعنى: تذكرا قليلا تتذكرون أيها الكفار المجادلون.[4]

٩) قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأَتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا ﴾: لما أخبر تعالى أن التذكر في الناس قليل، أكدّ للغافلين وغيرهم بأن أمر قيام الساعة أمر يقيني لا ريب فيه، فهي آتية دون أدنى شك في ذلك، وهذا

---

١) انظر: البحر المحيط لأبي حيان (٢٦٨/٩). وروح البيان لإسماعيل حقي (١٩٩/٨). والتفسير القرآني للقرآن لعبد الكريم الخطيب (١٢٥٤/١٢). والتحرير والتنوير (١٧٨/٢٤).

٢) التفسير القرآني للقرآن لعبد الكريم الخطيب (١٢٥٤/١٢-١٢٥٥).

٣) انظر: مفاتيح الغيب للفخر الرازي (٥٢٧/٢٧). ونظم الدرر للبقاعي (٩٧/١٧). والتحرير والتنوير لابن عاشور (١٧٩/٢٤).

٤) انظر: روح البيان لإسماعيل حقي (١٩٩/٨).

التأكيد من الله يوجب العلم اليقيني الضروري، ولكن الآفة أن أكثر الناس لا يصدقون بذلك، وإن صدقوا بذلك فهو يجحدون ذلك ظلما وعلوا، فهذه الآية كالنتيجة لما قبلها، فلما تقرّر دليل إمكان وجود يوم القيامة والبعث والنشر، وأُعطي إثبات البعث ما يحق من الحجاج والاستدلال، وتهيأ المقام لاستخلاص تحقيقه كما تستخلص النتيجة من القياس، وثبت بهذا كله تمام القدرة وانتفاء ما توهمه المجادلون وما عموا عنه، أعلن بتحقيق مجيء ساعة البعث، وأخبر بأنها واقعة لا محالة، وأثبت قطعاً أن الساعة التي يجادلون فيها لآتية للحكم بالعدل في المقارنة بين المسيء والمحسن، وأنه لا شك في إتيانها بوجه من الوجوه، ليقضي الله فيها بالعدل فيدخل فيها أناساً في رحمته وآخرين في نقمته.[1]

وجملة ﴿ لَّا رَيْبَ فِيهَا ﴾ مؤكدة لجملة ﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌ ﴾، ومعنى نفي الريب في وقوعها: أن دلائلها واضحة بحيث لا يعتد بريب المرتابين فيها؛ لأنهم ارتابوا فيها لعدم الروية والتفكر.

١٠) قوله تعالى: ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾: لما وصل الحال في أمر الساعة إلى حدٍ لا خفاء به أصلاً، نفى الإيمان دون العلم، وبهذا يتبين فرق ما بين الطائع والعاصي.[2]

قال ابن عاشور: "موقع الاستدراك الذي في قوله: ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ هو ما يثيره نفي الريب عن وقوعها من أن يتساءل متسائل: كيف ينفي الريب عنها والريب حاصل لكثير من الناس؟! فكان الاستدراك بقوله: ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ جوابا لذلك السؤال.

والمعنى: ولكن أكثر الناس يمرون بالأدلة والآيات وهم معرضون عن دلالتها فيبقون غير مؤمنين بمدلولاتها، ولو تأملوا واستنبطوا بعقولهم لظهر لهم من الأدلة ما يؤمنون بعده، فلذلك نُفِي عنهم هنا وصف الإيمان".[3]

وقال عبد الكريم الخطيب مبينا مناسبة أخرى: "قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ وإذا كانت القضية قضية تفرقة بين المؤمنين ذوى البصائر، والكافرين الذين أصمهم الله وأعمى أبصارهم، وإذ كان هناك مؤمنون وكافرون، فقد حسن أن تعرض هذه الحقيقة التي هي المحك الذي يعرف به إيمان المؤمنين وكفر الكافرين، وتلك القضية هي قضية البعث والحساب والجزاء ...

---

١) انظر: غرائب القرآن للنيسابوري (٤١/٦). ونظم الدرر للبقاعي (٩٧/١٧-٩٨). والتحرير والتنوير لابن عاشور (١٧٩/٢٤).

٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٥٢٦/١٥). ونظم الدرر للبقاعي (٩٨/١٧).

٣) التحرير والتنوير (١٨٠/٢٤).

ومن هنا، جاء هذا الإعلان في قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٌ لَّا رَيۡبَ فِيهَا﴾ ليكون في ذلك اختبار لإيمان المؤمنين، وكفر الكافرين، فمن تقبل هذه الحقيقة وصدقها واستيقن بها فهو من الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ومن كذّب بها أو شك فيها فهو من الضالين المسيئين.

وقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ هو بيان لما ينكشف عنه امتحان الناس بهذا الإعلان وبتصديقهم به أو تكذيبهم، وقد كشف هذا الامتحان عن أن أكثر الناس لا يؤمنون، لأن أكثر الناس كذلك لا يعلمون ولا يتذكرون، كما يقول تعالى في الآية السابقة: ﴿قَلِيلٗا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾"[1].

١١) يتبين لنا من هذا المقطع أنه جاء لوضع التوضيحات والتأكيدات الختامية في قضية المجادلين في آيات الله، ولتندد بأكثر الناس الذين لا يعلمون ولا يتذكرون ولا يؤمنون، لتشرع الآيات في المقاطع الآتية في الحديث عن الله تعالى وآياته وآلائه بأساليب متعددة لا يتبقى بعدها عند المنصف إلا الإيمان والتسليم، أو كف الأذى ورفع الظلم والعدوان، وكل هذا من مقاصد السورة الكريمة التي نزلت دعما ونصرة للرسالة ورسولها والمؤمنين بها.

---

١) التفسير القرآني للقرآن (١٢/١٢٥٥).

المطلب الخامس: التفسير الإجمالي للآيات[1]:

في رابع موضع من هذه السورة الكريمة يتحدث الله تعالى مجددا عن المجادلين في آيات الله، فيقول مخاطبا نبيه ﷺ بأن الذين يخاصمونك فيما أتيتهم به من آيات الله البيّنات ودلائله الواضحات ما يفعلون ذلك استنادا إلى برهان عقلي أو حجة وسلطان من الله جاءهم بمخاصمتك في الآيات، وإنما يفعلون ذلك لأجل ما في قلوبهم من الكبر الذي به يتعالون عليك ويتكبرون عن اتباعك، ويرفضون الحق الذي جئتهم به حسدا على ما أعطاك الله من الفضل والكرامة وطمعا أن ينالوا شيئا من ذلك دونك، وما هم بمدركي شيء من ذلك ولا نائلي شيء من فضل الله عليك، فإن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، وليس بالأمر الذي ينال بالأماني، وقيل: إن في صدورهم إلا عظمة ما هم ببالغي تلك العظمة لأن الله مذلهم.

وفي حال كهذه من المخاصمة المتكبرة المتعالية أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يلوذ ويستعصم ويستجير به من شرّ المجادلين في آيات الله، فإنه إنما يستعيذ بالله السميع لما يقوله هؤلاء المجادلون في آيات الله وغيرهم من قول، البصير بما تعمله جوارحهم، لا يخفى عليه شيء من ذلك.

ثم ذكر طرفا من آيات الله التي ينكرها أولئك المجادلون، فأخبر بأن خلق السماوات والأرض وإبداعها وإنشاءها من غير مادة ولا مثال أعظم من خلق الناس، ولكن أكثر الناس لا يعلمون أن خلق جميع ذلك هين على الله، فلا يفقه ذلك أعمى البصيرة وعامل السيئة، لا يستوي الفريقان، لا يستوي الأعمى الذي لا يبصر شيئا، وهو مثل الكافر الذي لا يتأمل حجج الله فيتدبرها ويعتبر بها ويعلم وحدانيته وقدرته على خلق ما شاء فيؤمن به ويصدق، لا يستوي هذا والبصير، وهو الذي يرى بعينيه ما شخص لهما ويبصره، وهذا مثل للمؤمن الذي يرى حجج الله ويتفكر فيها ويتعظ، ويعلم ما دلّت عليه من توحيد صانعه، وعظيم سلطانه وقدرته على خلق ما يشاء.

ويقول جل ثناؤه أيضا لا يستوي الكافر والمؤمن، ولا الصالح والطالح، فلا يستوي المؤمنون بالله ورسوله المطيعون لربهم مع المسيء، وهو الكافر بربه العاصي له والمخالف أمره.

ويختم جل ثناؤه الآية بقوله: قليلا ما تتذكرون أيها الناس حجج الله، فتعتبرون بها وتتعظون، ولو تذكرتم آياته واعتبرتم بها لعرفتم خطأ ما أنتم عليه من إنكاركم قدرة الله على إحياء من فني من خلقه من بعد الموت، وإعادتهم لحياتهم من بعد وفاتهم، ولعلمتم قبح شرككم في عبادة ربكم. فإن الساعة التي يحيي

---

1) انظر: جامع البيان للطبري (٢١/٤٠٤-٤٠٦).

الله فيها الموتى للثواب والعقاب لجائية أيها الناس لا شك في مجيئها، فأيقنوا بمجيئها، فإنكم مبعوثون من بعد مماتكم، ومجازون بأعمالكم، فتوبوا إلى ربكم، ولكن أكثر الناس من قريش وغيرها لا يصدقون بمجيئها، وسوف يعلمون حقيقة ذلك يوما ما.

المطلب السادس: بيان ما ترشد إليه الآيات[1]:

١-إن الصراع بين الحق والباطل يستغرق عمر الإنسانية جمعاء، كما أنه يستخدم جميع الوسائل العقلية والحسية ويصل أحيانا إلى المواجهة العسكرية، وهنا تتكلم الآيات أن الجدل الذي أشارت إليه السورة في ابتدائها سببه الكبر عن اتباع الحق والعناد بغير حجة عقلية أو نقلية، وقصدهم إبطال آيات الله وإثارة الشبهات حولها.

٢-أكثر من يجادل بالباطل ليزيل به الحق إنما يجادل عن كبر يريد الوصول إليه وهو التعالي والغلبة والقهر للآخرين.

٣-لو أدرك الإنسان حقيقته وحقيقة هذا الوجود، ولو عرف دوره فأتقنه ولم يحاول أن يتجاوزه، ولو اطمأن إلى أنه كائن مما لا يحصى عدده من كائنات مسخرة بأمر خالق الوجود، وفق تقديره الذي لا يعلمه إلا هو، وأن دوره مقدر بحسب حقيقته في كيان هذا الوجود، لو أدرك هذا كله لاطمأن واستراح، ولتطامن كذلك وتواضع، وعاش في سلام مع نفسه ومع الكون حوله، وفي استسلام لله وإسلام.

٣-من حيثيات النقاش الاعتراض على إعادة خلق الإنسان أو بعثه بعد الموت، والآية تقرر عقيدة البعث بالبرهان العقلي، وهو أن البدء أصعب من الإعادة ومن أبدأ أعاد بلا نصب ولا تعب، وإن الله خلق أشياء كثيرة أعقد من الإنسان وأكبر منه، فليس من الصعب أن يخلق الله الإنسان ثم يفنيه ويبعثه مرة أخرى، ومن قدر على خلق الأعظم الأقوى بلا أصل ولا مادة، وجب أن يقدر على خلق الأذل الأضعف من الأصل والمادة بطريق الاولى، فكيف المشركون يقرون بأن الله خلق السموات والأرض وينكرون الخلق الجديد يوم البعث؟!!

٤-بيان حقيقة وهي أن الضدين لا يجتمعان، فالكفر والإيمان، والإحسان والإساءة، والعمى والبصر، والصمم والسمع، والطاعات والمعاصي، هذه كلها لا تستوي بعضها ببعض، فمحاولة الجمع بينها محاولة باطلة لا تنبغي.

٥-تأكيد قرب الساعة مع تحتم مجيئها، والأدلة على ذلك العقلية والنقلية أكثر من أن تحصر.

***

١) انظر: روح البيان لإسماعيل حقي (١٩٩/٨). وفي ظلال القرآن لسيد قطب (٣٠٨٩/٥). وأيسر التفاسير للجزائري (٥٤٤/٤، ٥٤٧). والتفسير الموضوعي لسور القرآن لجامعة الشارقة، بإشراف د. مصطفى مسلم (٥٨٠/٦). والتفسير المنير للزحيلي (١٤٦/٢٤).

المبحث الثاني: بيان طريق النجاة ودلائل ربوبيته تعالى وألوهيته

ويشمل الآيات (٦٠-٦٥)

قال تعالى: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ (٦٠) اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (٦١) ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (٦٢) كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٦٣) اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٦٤) هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ۗ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٦٥) ﴾.

المطلب الأول: ربط الموضوع بالمحور الأساس للسورة:

إن الصراع بين البشر له دوافع شتى، فقد يكون الصراع من أجل المال أو السلطة أو الشهرة أو الشهوة، وغير ذلك كثير، لكن من المعلوم أن الصراع بين الحق والباطل، وبين الإسلام والكفر، وبين التوحيد والشرك، منشؤه التعالي عن الخضوع لله تعالى وأحكامه وشرائعه، وإنكار ألوهية الواحد الأحد، فنتج عن هذا ولابد المعركة الأبدية بين أهل الحق وأهل الباطل، وقد رأينا سورة غافر في سيرها لردع الظالمين ونصرة المؤمنين قد اتخذت وسائل متعددة أشبعت أركان الباطل هدما وزجرا وترهيبا، وأركان الحق وعدا ودعما وتثبيتا، والآن تبدأ الآيات في رفع بنيان الحق وبيان أصوله وأسسه التي يقبلها كل ذي عقل، ويتيقنها كل ذي قلب، فيدعو كل متكبر متعال إلى الخضوع لله وعبادته ودعائه، وقد أقامت الآياتُ هذه الدعوة على قضية راسخة عميقة وهي: الخالقية، فمن خلق فهو من استحق العبادة وحده، وكل من استطاع أن يثبت خالقا غير الله فليعبده؛ ليبين لهم بهذا أن صراعهم ضد الحق باطل من كل وجه، فإن رسل الله تعالى لا يدعون أحدا إلى جهة مجهولة، بل يدعونهم إلى موجدهم وخالقهم من العدم، وهذه القضية لا تحتاج إلى أدلة لإثباتها، فهي مركوزة في الفطر معلومة للجميع، وهذا من تمام حكمة الله أن أورد صفات للخالق لا يشترك فيها المخلوق لا في الظاهر ولا في صورة من الصور، وإنما أورد أدلة وذكر سننا ينفرد بها الله عز وجل كخلق الأرض والسماء والليل والنهار، وخلق الإنسان من عدم وجعل نظام الكون صالحا لحياة الإنسان،

ولما كان المشركون يؤمنون بالله خالقا لكل شيء أقام الله هذه الآيات تذكيرا وتأكيدا لهم لعلهم إلى الحق يرجعون، ويكفوا أيديهم وألسنتهم عن المؤمنين، وهذا متوافق مع محور السورة الأساسي تمام التوافق، ويؤدي غرض الإثبات بعد النفي، والتحلية بعد التخلية.

وهذا يشبه ما قاله إبراهيم للذي حاجّه: ﴿ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ ﴾البقرة:٢٥٨، فلم يكذّبه إبراهيم في دعواه وتصوره للموت والحياة، وإنما جاء له بأمر لا يستطيع أن يدّعي مثله، وهذه من أدب الحوار وقواعد المحاجحة.[1]

قال ابن عاشور: "لما كانت المجادلة في آيات الله تشمل مجادلتهم في وحدانية الإلهية كما دل عليه قوله الآتي: ﴿ ثُمَّ قِيلَ لَهُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تُشۡرِكُونَ ٧٣ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا بَل لَّمۡ نَكُن نَّدۡعُواْ مِن قَبۡلُ شَيۡـٔٗاۚ ﴾غافر:٧٣-٧٤، فجعل ﴿لَّمۡ نَكُن نَّدۡعُواْ﴾ نقيض ما ﴿قِيلَ لَهُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تُشۡرِكُونَ ٧٣﴾، وتشمل المجادلة في وقوع البعث كما دلّ عليه قوله بعد هذه: ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصۡرَفُونَ ٦٩ ﴾غافر:٦٩، إلى قوله: ﴿ إِذِ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسۡحَبُونَ ٧١ ﴾غافر:٧١، أعقب ذكر المجادلة أولا بقوله: ﴿ لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ ﴾غافر:٥٧، وذلك استدلال على إمكان البعث، ثم عطف عليه تحذيرا من الإشراك به قوله: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ ﴾ غافر:٦٠، الآية، وأيضا لما ذكر أمر الله رسوله ﷺ بدعاء الله وحده أمرا مفرّعا على توبيخ المشركين بقوله: ﴿ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡۖ ﴾غافر:١٢، وعلى قوله عقب ذلك: ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ١٣﴾غافر:١٣، وانتقل الكلام إثر ذلك إلى الأهم وهو الأمر بإنذار المشركين بقوله: ﴿ وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡأٓزِفَةِ ﴾غافر:١٨، إلخ، وتتابعت الأغراض حتى استوفت مقتضاها، عاد الكلام الآن إلى ما يشمل عبادة المؤمنين الخالصة لله تعالى وهو أيضا متصل بقوله: ﴿ وَمَا دُعَـٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ ٥٠ ﴾

١) انظر: التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم لجامعة الشارقة، بإشراف د. مصطفى مسلم (٥٨٧/٦).

غافر: ٥٠، فلما تقدم ذكر الدعاء بمعنييه: معنى العبادة، ومعنى سؤال المطلوب، أردف بهذا الأمر الجامع لكلا المعنيين"[١].

قال سعيد حوّى: "أقامت هذه الآيات الحجة على ضرورة عبادة الله وشكره، بأن ذكّرت بنعم الله في خلقه الليل والنهار والأشياء كلها، وبأن ذكّرت بوحدانيته وربوبيته وألوهيته، كما أنكرت على من يصرف عن العبادة، وبيّنت أنّ سبب الصرف عن العبادة هو جحود آيات الله. فالجحود هو الصارف عن العبادة، وعن الشكر، وصلة ذلك بقوله تعالى: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ ﴾ واضحة، وصلة ذلك بالجدال في آيات الله واضحة"[٢].

---

١) التحرير والتنوير (٢٤/١٨٠-١٨١).

٢) الأساس في التفسير (٩/٤٩٧٩).

المطلب الثاني: التناسق بين هذا الموضوع وسابقه:

بعد الردّ على المجادلين في آيات الله بتعريفهم أنّ جدلهم بغير سلطان ولا حجة، وكان من جدلهم إنكار البعث، ذكر الله تعالى في هذه الآيات وما يليها عشرة أدلة على وجود الله وقدرته وحكمته، للدلالة على إمكان يوم القيامة ووجوده بالفعل، منها في هذا المقطع خلق السماوات والأرض، وتعاقب الليل والنهار، وجعل الأرض قرارا والسماء بناء، وخلق الإنسان في أحسن صورة، ورزقه من الطيبات، واتصافه تعالى بالحياة الذاتية والوحدانية، وكان يردف بعض هذه الأدلة بالأمر بعبادة الله وطاعته والإخلاص فيها.[1]

و"لما جعل المجادلة في آيات الله تعالى من الكبر جعل الدعاء وتسليم آياته من الخضوع؛ لأن الداعي له تعالى الملتجئ إليه عز وجل لا يجادل في آياته بغير سلطان منه البتة، والعطف في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ﴾ من عطف مجموع قصة على مجموع أخرى لاستوائهما في الغرض، ولهذا لما تمم هذه القصة أعني قوله سبحانه﴿ رَبُّكُمُ ﴾ إلى قوله عز وجل: ﴿كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾ ﴾غافر:٦٨، صرّح بالغرض في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾غافر:٦٩، كما بنى القصة أولا على ذلك في قوله تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ ﴾غافر:٥٦، ولو تؤمل في هذه السورة الكريمة حق التأمل وجد جُلُّ الكلام فيها مبنيا على رد المجادلين في آيات الله المشتملة على التوحيد والبعث وتبيين وجه الرد في ذلك بفنون مختلفة، ثم انظر إلى ما ختم به السورة كيف يطابق ما بدئت من قوله سبحانه: ﴿ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ ﴾غافر:٤، وكيف صرح آخرا بما رمز إليه أولا لتقضي منه العجب، فهذا وجه العطف"[2].

ومناسبة أخرى: ذكر الله في الآيات السابقة الدافع للجدل عن المشركين وأنه التكبر الذي ليسوا أهلا له ولا هم بنائلين من وراءه شيئا، وفي هذه الآيات يدعو الله المؤمنين إلى نبذ التكبر ويوجههم إلى دعائه وعبادته، محذرا أن الذين يتكبرون عن عبادة الله سيدخلون جهنم صاغرين، وبعدها يبيّن الله تعالى صفاته ونعمه على عبيده وآلائه، وكيف خلق الكون ونظّمه تنظيما دقيقا يعجز عنه غيره، ويعجز البشر عن إدراك الحكمة فيه أحيانا، وهذه كلها حجج للمؤمنين في دحض حجج المجادلين الكافرين.[3]

١) انظر: التفسير المنير للزحيلي (١٤٩/٢٤).

٢) روح المعاني للألوسي (٣٣٤/١٢) نقلا عن صاحب الكشف.

٣) انظر: التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم لجامعة الشارقة، بإشراف د. مصطفى مسلم (٥٨١/٦).

ومناسبة أخرى: أنه لما بيّن سبحانه أن قيام الساعة حق لا شك فيه ولا شبهة، وكان من المعلوم أن الإنسان لا ينتفع في يوم القيامة إلا بطاعة الله والتضرع له، وكان الدعاء أشرف أنواع الطاعات، أرشد تعالى عباده إلى ما هو الوسيلة إلى السعادة في دار الخلود بقوله: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾، فأمر بعبادته ودعائه بعد بيان عظمة قدرته، ليكون الداعي موقنا بالإجابة.[1]

١) انظر: غرائب القرآن للنيسابوري (٤١/٦). والبحر المديد لابن عجيبة (١٤٥/٥). وفتح القدير للشوكاني (٥٧١/٤). وفتح البيان لحسن صديق خان (٢٠٥/١٢). وتفسير المراغي (٨٧/٢٤).

المطلب الثالث: التناسب بين الآيات والجمل والكلمات:

بدأت الآيات في دعوة المؤمنين إلى الخضوع لربهم دعاء وعبادة بعد أن تحدث مرارا عن المجادلين في آيات الله وأحوالهم وأوصافهم وطرائق جدالهم، فيأمر الله عباده بعنوان الربوبية الدالة على الرعاية والعناية بأن يتوجهوا إليه وحده بالدعاء والعبادة، وهو يعدهم ويبشرهم بالإجابة والقبول.

١) قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾: بعد أن بيّن الله تعالى القول فيما سبق بأن القيامة حق وصدق، وكان من المعلوم بالضرورة أن الإنسان لا ينتفع في يوم القيامة إلا بتوحيد الله وطاعته، وكان الاشتغال بالطاعة من أهم المهمات، وكان أشرف أنواع الطاعات الدعاء والتضرع، أمر الله تعالى به في هذه الآية ووعد بإجابته وقبوله.[١]

قال محيي الدين شيخ زاده: لما كانت الحكمة في قيام الساعة مجازاة كل واحد من المحسن والمسيء على وفق عمله أمرنا بإحسان العمل ليحسن جزاؤنا، وبيّن أن جزاء المستكبرين عن عبادته سوء الجزاء.[٢]

وقال ابن عطية: "آية تفضل ونعمة ووعد لأمة محمد ﷺ بالإجابة عند الدعاء"[٣].

وسياق الآيات تشير إلى أن المراد الأعظم من الأمر بالدعاء هو التوحيد وإخلاص العبادة لله وحده، والإجابة تكون بقبول العبادات والثواب عليها ومغفرة الذنوب،[٤] وممارسة الدعاء في صورة السؤال والطلب يصب في نفس المعنى؛ لأن الدعاء باب من العبادة بل من أفضل ابوابها، ولأن المفترض في الداعي الإخلاص في دعائه وتوحيد داعيه لينال الإجابة المرجوة من الطلب والرجاء.

"وتعريف الله بوصف الرب مضافا إلى ضمير المخاطبين لما في هذا الوصف وإضافته من الإيماء إلى وجوب امتثال أمره؛ لأن من حق الربوبية امتثال ما يأمر به موصوفها، لأن المربوب محقوق بالطاعة لربه، ولهذا لم يعرج مع هذا الوصف على تذكير بنعمته ولا إشارة إلى كمالات ذاته"[٥].

---

١) مفاتيح الغيب للفخر الرازي (٢٧/٥٢٧).

٢) حاشية محيي الدين شيخ زاده على البيضاوي (٧/٣٤٠-٣٤١).

٣) المحرر الوجيز (٤/٥٦٦).

٤) انظر: الكشف والبيان للثعلبي (٨/٢٧٩).

٥) التحرير والتنوير لابن عاشور (٢٤/١٨٢).

٢) قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾: لما كان السبب في ترك الدعاء في العادة الكبر، علله ترهيباً في طيه ترغيب، وهذا إحسان عظيم من الله تعالى حيث ذكر الوعيد الشديد على ترك الدعاء،[1] فأردف وعده بالإجابة والقبول بوعيده الشديد لمن استكبر وتعاظم عن عبادة ربه، فإن مصيره سيكون دخول عذاب جهنم صاغرا ذليلا حقيرا بنقيض ما كان من حاله من كِبر وتعالي.

قال سيد قطب: "﴿ ... وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٥٩ ﴾غافر: ٥٩، ومن ثم فهم يجادلون ويستكبرون، فلا يذعنون للحق، ولا يعرفون مكانهم الحق، فلا يتجاوزوه.

والتوجه إلى الله بالعبادة، ودعاؤه والتضرع إليه، مما يشفي الصدور من الكبر الذي تنتفخ به، فيدعوها إلى الجدال في آيات الله بغير حجة ولا برهان، والله سبحانه يفتح لنا أبوابه لنتوجه إليه وندعوه، ويعلن لنا ما كتبه على نفسه من الاستجابة لمن يدعوه وينذر الذين يستكبرون عن عبادته بما ينتظرهم من ذل وتنكيس في النار: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ ... فأما الذين يستكبرون عن التوجه لله فجزاؤهم الحق أن يوجهوا أذلاء صاغرين لجهنم! وهذه نهاية الكبر الذي تنتفخ به قلوب وصدور في هذه الأرض الصغيرة، وفي هذه الحياة الرخيصة، وتنسى ضخامة خلق الله، فضلا على نسيانها عظمة الله، ونسيانها للآخرة وهي آتية لا ريب فيها، ونسيانها للموقف الذليل في الآخرة بعد النفخة والاستكبار"[2].

وقال الزمخشري: "هذا تفسير للدعاء بالعبادة ثم للعبادة بالتوحيد"[3]، و"تعليل للأمر بالدعاء تعليلا يفيد التحذير من إباية دعاء الله حين الإقبال على دعاء الأصنام، كما قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡ وَإِن يُشۡرَكۡ بِهِۦ تُؤۡمِنُواْۚ ﴾غافر:١٢ ، وكان المشركون لا يضرعون إلى الله إلا إذا لم يتوسموا استجابة شركائهم، كما قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ أَعۡرَضۡتُمۡۚ ﴾الإسراء:٦٧"[4].

١) انظر: نظم الدرر للبقاعي (١٠٠/١٧). ومفاتيح الغيب للفخر الرازي (٥٢٨/٢٧).
٢) في ظلال القرآن (٣٠٩١/٥).
٣) الكشاف (١٧٥/٤).
٤) التحرير والتنوير (١٨٢/٢٤-١٨٣).

وقال الألوسي: "في إيقاع العبادةِ صلةَ الاستكبارِ ما يؤذن بأن الدعاء باب من أبواب الخضوع؛ لأن العبادة خضوع"[1].

٣) قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ ﴾: لما ذكر الذين يستكبرون عن عبادة الله، شرع يعرض بعض نعم الله على الناس، ويعرض بعض مظاهر قدرة الله ورحمته وإحسانه إلى عباده، ليرى هؤلاء المستكبرون أين يقع استكبارهم من جلال الله وعظمته.

وكذلك لما دعا الله تعالى عباده إلى عبادته ودعائه، شرع يبيّن لهم دلائل استحقاقه للعبادة وحده لا شريك له، ويذكرهم بأفضاله وآلائه المتكاثرة، فهو الله الذي خلق الليل وجعله ساكنا مظلما ليكون للناس سكنا وراحة بسب النوم، ومأوى من صخب الأحداث وضجيج الغدو والرواح بالنهار لكسب المعاش وقضاء الحاجات.

وهو الله الذي خلق النهار وجعله منيرا مبصرا ليحصل فيه مكنة التصرف فيها على الوجه الأنفع، فيبصر الناس به وفيه أمور حياتهم، ويسعوا لكسب أرزاقهم وإنجاز مصالحهم.

فتعلق الآية بما قبلها من وجهين:

الأول: كأنه تعالى قال: إني أنعمت عليكم قبل طلبكم هذه النعم العظيمة، ومن أنعم عليكم قبل السؤال بهذه النعم العالية فكيف لا ينعم بالأشياء القليلة بعد السؤال؟!.

والثاني: أنه تعالى لما أمر بالدعاء والعبادة وكانت العبادة لا تنفع إلا إذا حصلت المعرفة بالمعبود وأقيمت الأدلة على وجوده، استأنف لذكر جانب منها، فذكر تعالى عشرة دلائل على وجوده وقدرته ووفور رحمته وبالغ حكمته، وبدأ بذكر الليل والنهار في هذا المقام لأن أكثر مصالح العالم والعباد مربوطا بهما، وهما تكوينان عظيمان دالان على عظيم قدرة مكونهما ومنظمهما وجاعلهما متعاقبين، ففي الآية تنبيه من الله تعالى على آيات وعبر، متى تأملها العاقل أدته إلى توحيد الله والإقرار بربوبيته.[2]

---

١) روح المعاني (١٢/٣٣٣).

٢) انظر: المحرر الوجيز لابن عطية (٤/٥٦٦). ومفاتيح الغيب للفخر الرازي (٢٧/٥٢٨). واللباب لابن عادل (١٧/٧٧). وحاشية محيي الدين شيخ زاده على البيضاوي (٧/٣٤١). والتحرير والتنوير لابن عاشور (٢٤/١٨٤). وتفسير المراغي (٢٤/٨٧).

وكذلك هذه الآية فيها تذكير بنعمة الله تعالى على الخلق كما اقتضاه لام التعليل في قوله: ﴿لَكُمُ﴾، واقتضاه التذييل بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ﴾، فالآية واقعة موقع التعليل لجملة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾، أي تسببوا لأنفسهم بذلك العقاب لأنهم كفروا نعمة الله إذ جعل لهم الليل والنهار، فسجّلت هذه الآية على الناس تقسيمهم إلى: شاكر نعمة وكافرها، كما سجّلت الآية السابقة عليهم تقسيمهم إلى: مؤمن بوحدانية الله وكافر بها.[1]

ولما كان من مقاصد هذه الآية -مع الاستدلال- الامتنان، ذكر الليل والنهار دون الشمس.[2]

وقال ابن عاشور: يجوز أن يكون اسم الجلالة في الآية بدلا من (ربكم) في قوله: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ﴾، أتبع (ربكم) بالاسم العلم ليقضى بذلك حقان: حق استحقاقه أن يُطاع بمقتضى الربوبية والعبودية، وحق استحقاقه الطاعة لصفات كماله التي يجمعها اسم الذات، ولذلك لم يؤت مع وصف الرب المتقدم بشيء من ذكر نعمه ولا كمالاته اجتزاء بمقتضى حق الربوبية، وذكر مع الاسم العلم بعض إنعامه وإفضاله ثم وصف الاسم بالموصول وصلته إشارة إلى بعض صفاته، وإيماء إلى وجه الأمر بعبادته، وتكون الجملة استئنافا بيانيا ناشئا عن تقوية الأمر بدعائه.[3]

قال البقاعي: "الآية من الاحتباك: حذف الظلام أولاً لكونه ليس من النعم المقصودة في أنفسها لما دلّ عليه من الإبصار الذي هو المقصود من نعمة الضياء المقصود في نفسه، وحذف الانتشار لأنه بعض ما ينشأ عن نعمة الإبصار لما دلّ عليه من السكون الذي هو المقصود الأعظم من الليل: للراحة لمن أرادها، والعبادة لمن اعتمدها واستزادها"[4].

٤) قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ﴾: تعقيب يخبر فيه الله تعالى بأنه وحده صاحب الفضل والإنعام على الناس بكل النعم المذكورة وغيرها، فكلها منه لهم

---

١) انظر: الهداية إلى بلوغ النهاية لمكي بن أبي طالب (٦٤٥٣/١٠). والتحرير والتنوير لابن عاشور (١٨٤/٢٤).
٢) انظر: التحرير والتنوير (١٨٥/٢٤).
٣) انظر: التحرير والتنوير لابن عاشور (١٨٣/٢٤).
٤) نظم الدرر (١٠١/١٧).

فضلا ومنة ورحمة لا باستحقاق يستحقونه به، ولكن الكفر والجحود وعدم الشكر والاعتراف بالفضل لأهله هو ديدن أكثر الناس.

فلما ذكر تعالى ما في الليل والنهار من المصالح والحكم البالغة والدلائل الظاهرة، أردفه بإثبات أن فضل الله على الخلق كثيرا جدا ولكنهم لا يشكرونه، والاستدراك بـ (لكن) ناشئ عن لازم ﴿لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾؛ لأن الشأن أن يشكر الناس ربهم على فضله فكان أكثرهم كافرا بنعمه، وأي كفر للنعمة أعظم من أن يتركوا عبادة خالقهم المتفضل عليهم ويعبدوا ما لا يملك لهم نفعا ولا ضرا.[١]

وتنكير ﴿فَضْلٍ﴾ للتعظيم؛ لأن نعم الله تعالى عظيمة جليلة.[٢]

وهذه آخر آية فيها ذكر (أكثر الناس) بصفة ما -في السورة-، ووجه اختلاف المنفيات في قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ غافر:٥٧ ، وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾﴾ غافر:٥٩ ، وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾﴾ ، أنه قد أتبع كل غرض أريد إثباته بما يناسب حال منكريه.[٣]

فـ"قَوْله فِي الْآيَة الأولى: ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ أَي لَا يعلمُونَ أَن خلق الْأَكْبَر أسهل من خلق الْأَصْغَر، ثمَّ قَالَ: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بِالْبَعْثِ، ثمَّ قَالَ: ﴿لَا يَشْكُرُونَ﴾ أَي لَا يشكرون الله على فَضله، فختم كل آيَة بِمَا اقْتَضَاهُ"[٤].

وقال الزمخشري: "إن قلت: فلو قيل: (ولكنّ أكثرهم)، فلا يتكرر ذكر الناس؟ قلت: في هذا التكرير تخصيص لكفران النعمة بهم، وأنهم هم الذين يكفرون فضل الله ولا يشكرونه، كقوله: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾﴾ الحج:٦٦ ، ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾﴾ العاديات:٦ ، ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾ إبراهيم: ٣٤"[٥].

---

١) انظر: مفاتيح الغيب للفخر الرازي (٥٢٩/٢٧). والتحرير والتنوير لابن عاشور (١٨٦/٢٤).

٢) التحرير والتنوير لابن عاشور (١٨٦/٢٤).

٣) انظر: التحرير والتنوير لابن عاشور (١٨٦/٢٤).

٤) البرهان في توجيه متشابه القرآن للكرماني (٢٢٠/١). وانظر: كشف المعاني في المتشابه من المثاني لابن جماعة (٣٢٢/١).

٥) الكشاف (١٧٦/٤).

٥) قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ﴾: تؤكد الآيات مجددا بأن صاحب النعم والفضل على عبيده هو الله لا إله ومعبود بحق إلا هو، فهو الرب المالك المدبر، وهو خالق الناس وخالق كل شيء، ويستحق الخالق بلا شك ولا شبهة أن يوحد بالعبادة مخلصا له الدين، فهو المخصوص بالأفعال المقتضية للألوهية والربوبية، ولا معبود بحق إلا هو سبحانه، فكيف وإلى أين أيها المشركون تذهبون عن الحق وتصرفون عن الإيمان به؟!.

فاتصل الكلام على دلائل التفرد بالإلهية والربوبية من قوله: ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ ﴾ إلى قوله: ﴿ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۗ ﴾ اتصال الأدلة بالمستدل عليه، فلما بيّن الله تعالى بتلك الدلائل المذكورة وجود الإله القادر الرحيم الحكيم جاءت الآية بأداة البعد وميم الجمع لإظهار التفخيم والتعظيم، ولإفادة أنه تعالى معلوم متميز بأفعاله المنفرد بها بحيث إذا ذكرت أفعاله تميز عما سواه فصار كالمشاهد المشار إليه، فكيف تلتبس إلهيته بإلهية مزعومة للأصنام؟!! فالذي خلق الليل والنهار وتفضل على الناس هو ربكم، خالق ما ذُكر وخالق كل شيء مخلوق، فكيف تضلون عنه؟! ففي اسم الإشارة هذا تعريض بغباوة المخاطبين الذين التبست عليهم حقيقة إلهيته.[1]

ثم أردف اسم الإشارة ﴿ ذَٰلِكُمُ ﴾ بأخبار أربعة هو سبحانه الجامع لها، فابتدأ فيها بالاسم الجامع لصفات الإلهية إجمالا، وأردف بعنوان الربوبية الذي دبّر خلق الناس وهيأ لهم ما به قوام حياتهم، ثم تلاه بصفة الخالقية التي خلقت الناس وخلقت كل شيء في الوجود، وختم بنفي الإلهية عن غيره تعالى، فجاءت مضامين هذه الأخبار الأربعة مترتبة بطريقة الترقي، وتخصص اللاحقةُ منها السابقةَ وتقررها، وقدم الخلق على التهليل لما كان السياق في الامتنان بالنعم للدلالة على الساعة التي ينكرونها ويجادلون في أمرها، وكان رابعها ﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ ﴾ نتيجة لها، ثم فرّع عليها استفهاما تعجيبيا من انصرافهم عن عبادته إلى عبادة غيره مع وضوح فساد إعراضهم عن عبادته، فكيف يصرفون ولم يعدلون عن هذه الدلائل ويكذبون بها، ومن أي وجه يصرفون عن عبادة الله إلى عبادة الأوثان؟!! وهذا تقرير بمعنى التوبيخ والتقريع.[2]

---

١) انظر: بحر العلوم للسمرقندي (٢١٢/٣). والمحرر الوجيز لابن عطية (٥٦٦/٤). ومفاتيح الغيب للفخر الرازي (٥٢٩/٢٧). وأنوار التنزيل للبيضاوي (٦٢/٥). ونظم الدرر للبقاعي (١٠٢/١٧). والتحرير والتنوير لابن عاشور (١٨٧/٢٤).

٢) انظر: الكشاف للزمخشري (١٧٦/٤). والمحرر الوجيز لابن عطية (٥٦٧/٤). ومفاتيح الغيب للفخر الرازي (٥٢٩/٢٧). ونظم الدرر للبقاعي (١٠٢/١٧-١٠٣). وروح البيان لإسماعيل حقي (٢٠٤/٨). والتحرير والتنوير لابن عاشور (١٨٧/٢٤).

٦) قوله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ يُؤۡفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ﴾: يبيّن الله تعالى فيه أن الذهاب والانصراف عن الحق والإيمان إلى الباطل والشرك سنة في القوم الجاحدين المنكرين لآيات الله تعالى السابقين منهم واللاحقين والمعاصرين، المكذبين بها ظلما وعلوا لا عن بينة ودليل، فهذه الجملة معترضة بمنزلة بيان لحال الذين وقفوا من نعم الله تعالى موقف الجحود والكفران، والتعليل لمضمون الجملة التي قبلها، وهو التعجيب من انصرافهم عن عبادة ربهم خالقهم وخالق كل شيء، فإن في تعليل ذلك ما يبين سبب التعجيب، فإن استمرارهم على الجحد بآيات الله دون تأمل ولا تدبر في معانيها ودلائلها يطبع نفوسهم على الانصراف عن العلم بوجوب الوحدانية له تعالى، ولما كشف السياق أنّ هذا الصرف أمر لا يقدم عليه عاقل، كأنه قيل: وهل وقع لأحد غير هؤلاء مثل هذا؟ فأجيب بقوله: ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ فإن كل من جحد بآيات الله ولم يتأملها، وتخلق بالإنكار والمكابرة قبل التأمل في المعلومات، ولم يكن فيه همة لطلب الحق وخوف العاقبة أفك كما أفكوا، وصرفوا عن انكشاف الحقائق العلمية، فتختلط عليهم المعلومات ولا يميزون بين صحيح وفاسد.[١]

وكذلك في الآية تسلية للنبي ﷺ، والمعنى: لا تحزن يا محمد -عليك الصلاة والسلام- على إنكار قومك فإن من قبلهم فعل ذلك.[٢]

٧) قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ ﴾: لما بيّن تهافت فكر الضالين، وأن سببه الجحود والكفران الذاتي، أردف يخبر عبيده بدلائل الحق والإيمان الواضحة، ويذكر الجميع بآلائه ونعمه التي تلامس كل شيء في الحياة، فهذا استدلال ثان في مقام تعداد دلائل انفراده تعالى بالتصرف وبالإنعام عليهم، وهي أيضا دلالة على تمييزه تعالى بأفعال خاصة أخرى، حتى يفتضح خطل المشركين في الإشراك به وكفران نعمه، ولذا لم تعطف على التي قبلها، فذكّرهم في الآية السابقة بآثار قدرته في إيجاد الأعراض القائمة بجواهر هذا العالم، وهما عرضا الظلمة والنور، وفي كليهما نِعم عظيمة على الناس، ثم زادهم في البيان ودلائل القدرة فذكّرهم في هذه الآية بآثار خلق الجواهر في هذا العالم على كيفيات هي نعمة لهم، وفي خلق أنفسهم على صور صالحة بهم.[٣]

---

١) انظر: مفاتيح الغيب للفخر الرازي (٥٢٩/٢٧). ونظم الدرر للبقاعي (١٠٤/١٧). والتحرير والتنوير لابن عاشور (١٨٨/٢٤-١٨٩). والتفسير الوسيط لطنطاوي (٣٠٧/١٢).

٢) انظر: صفوة التفاسير للصابوني (٩٩/٣).

٣) انظر: الكشاف للزمخشري (١٧٦/٤). وأنوار التنزيل للبيضاوي (٦٢/٥). والتحرير والتنوير لابن عاشور (١٨٩/٢٤).

فالله هو الذي خلق الأرض وجعله مستقرا ثابتا صالحا لحياة البشر والأنعام وسائر الكائنات، فلا تميد بهم ولا تطيش عنهم، بل يسيرون فوقها ويتمكنون من خيرها.

والله هو الذي خلق السماء وجعله بناء محكما وسقفا محفوظا.

ولما كان المقصود الأول من هذه الآية الامتنان كما دلّ عليه قوله: ﴿ لَكُمُ ﴾ قدمت الأرض على السماء، لأن الانتفاع بها محسوس، وتكون هذه الآية لبيان فضله تعالى المتعلق بالمكان بعد بيان فضله تعالى المتعلق بالزمان في آية الليل والنهار.[١]

٨) قوله تعالى: ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾: هذا بيان لفضله تعالى المتعلق بالأنفس والأجساد، فأعقب التذكير بما مهد للإنسان من خلق الأرض والسماء، بالتذكير بأنه خلقه خلقا مستوفيا مصلحته وراحته، فلما ذكر المسكن ذكر الساكن دالاً على أنه الفاعل في الكل باختياره وتمام قدرته بتصويره الإنسان بأحسن صورة وهيئة وأجمل خلقة صالحة للعيش على الأرض والاستفادة من خيراتها.[٢]

٩) قوله تعالى: ﴿ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ﴾: لما ذكر المسكن والساكن، ذكر ما يحتاج إليه في مدة السكن، فعطف على ما سبق من العبرة والمنة بخلق الأرض والسماء منة أخرى فيها عبرة، فأخبر أنه خلق الإنسان في أحسن صورة ثم أمده بأحسن رزق، فجمع لهم بين نعمتي الإيجاد والإمداد، وحيث وقعت الطيبات مع الرزق فإنما هي تعديد نعمة فيما يستحسنه البشر، لا سيما هذه الآية التي هي مخاطبة لكفار، فإنما عددت عليهم النعمة التي يعتقدونها نعمة.[٣]

١٠) قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ﴾: لما عدّد نعمه المتكاثرة التي لا غنى لأحد عنها أبدا، وهي بلا شك كلها من الله تعالى وحده فضلا ونعمة، أكدّ للناس بأن صاحب هذه الصفات والأفعال هو ربكم أيها الناس الذي تولاكم بالعناية ورعاكم بحسن التدبير والصيانة، وهو الجدير بكل أنواع العبادة والدعاء والشكر، لا أصنامكم وأوثانكم، فلما دلّت الآية السابقة قطعاً على تفرد الله ووحدانيته، قال على وجه الإنتاج ﴿ ذَٰلِكُمُ ﴾ أي ذلكم الذي تميز بصفاته وأفعاله هو الله الإله الواحد وهو ربكم الذي يتولاكم

---

١) انظر: روح البيان لإسماعيل حقي (٢٠٥/٨). والتحرير والتنوير لابن عاشور (١٨٩/٢٤).

٢) انظر: نظم الدرر للبقاعي (١٠٥/١٧). وروح البيان لإسماعيل حقي (٢٠٥/٨). والتحرير والتنوير لابن عاشور (١٩٠/٢٤).

٣) انظر: المحرر الوجيز لابن عطية (٥٦٧/٤). ونظم الدرر للبقاعي (١٠٥/١٧). والتحرير والتنوير لابن عاشور (١٩١/٢٤).

بالتربية والرعاية والعناية، فلا يصح بحال من الأحوال الكفر به أو جعل شريك له أو جحود شيء من نعمه التي لا تعد ولا تحصى.

١١) قوله تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: ختم آيات النعم والفضائل التي تفضل بها على عباده بكلمة (تبارك) الدالة على النماء والزيادة والبركة إتماما لجمالية الآيات وملائمة ما فيها من معان وألفاظ، ولما أفادت الأدلة والإنعامات حصول تربية لا مثل لها، ودلّ على إحاطة علم الله وتمام قدرته مع حسنه وثباته سبّب عنه ولابد قوله: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ﴾، أي تعالى علوا وثبت ثباتاً عظيماً مع اليمن والخير وحسن المدد والفيض، وفاضت منه البركة والزيادة على خلقه،[1] فتبارك الله وتعالى وتقدس مالك الإنس والجان وسائر المخلوقات، ومربي جميع العالمين بنعمه وآلائه.

و ﴿رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ خالق أجناس العقلاء من الناس والملائكة والجن، وهذا الوصف من تمام الإنشاء؛ لأن في ذكر ربوبيته للعالمين وهم أشرف أجناس الموجودات استحضار لما أفاضه عليهم من خيرات الإيجاد والإمداد.

وقد ختمت هذه الآية والآيتان اللتان تليهما تباعا بقوله: ﴿رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وهذا لا نظير له في سائر القرآن، ولا تعد مكررة؛ لأن مبدأ كل آية منها ومغزاه يغاير الأخرى، فالأولى للشكر على أفضاله، والثانية على توحيده، والثالثة على الاستسلام إليه.[2]

١٢) قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾: لما أمتنّ عليهم بنعمه العظيمة، أخبرهم صاحب هذه النعم بأنه هو المتصف بالحياة التامة الكاملة المطلقة أزلا وأبدا، فهو المستحق للربوبية الحقة والألوهية الكاملة، فلا معبود يستحق العبادة إلا هو، فبعد إثبات توحيد الربوبية شرعت الآيات في إثبات توحيد الألوهية، وهذا استدلال ثالث للارتقاء في إثبات إلهيته الحق بإثبات ما يناسبها وهو الحياة الكاملة، ولما ذكرت الآيات صفات الله تعالى التي تبين فساد حال الأصنام وكان من أبينها أن الأصنام موات جماد، أخبر أن الحي حقيقة هو الله تعالى، كما أنبأت عنه صيغة الحصر في قوله: ﴿هُوَ ٱلْحَىُّ﴾ وهو قصر ادعائي لعدم الاعتداد بحياة ما سواه من الأحياء؛ لأنها عارضة ومعرضة للفناء والزوال، فهذه الجملة مقدمة لجملة

---

١) انظر: بحر العلوم للسمرقندي (٣/٢١٢). ونظم الدرر للبقاعي (١٧/١٠٦-١٠٧). والتحرير والتنوير لابن عاشور (٢٤/١٩٢). والتفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم لجامعة الشارقة، بإشراف د. مصطفى مسلم (٦/٥٨٥).

٢) انظر: البرهان في توجيه متشابه القرآن للكرماني (١/٢٢٠-٢٢١). والتحرير والتنوير لابن عاشور (٢٤/١٩٢). وبيان المعاني لعبد القادر العاني (٣/٥٩٨).

﴿لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، وموقعها موقع النتيجة من الدليل؛ لأن كل من سواه لا حياة له واجبة، فهو معرض للزوال فكيف يكون إلها مدبرا للعالم؟!!.[١]

والحي هو المدرك الفعال لما يريد، وهذه إشارة إلى العلم التام والقدرة التامة، فلما نبّه على هذه الصفات نبّه على كمال الوحدانية بقوله: ﴿لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.[٢]

١٣) قوله تعالى: ﴿فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾: لما وصفه بهذه الصفات أمر العباد بشيئين: أحدها: الدعاء، والثاني: الإخلاص فيه، فبعد اتضاح الدلالة على انفراده تعالى بالإلهية فرّع عليه الأمران لنهوض انفراده باستحقاق أن يعبد، وأن يعبد وحده.[٣]

قال البقاعي: "دلّ على ما أفاده الدليل معللاً بقوله: ﴿هُوَ﴾ أي وحده ﴿ٱلْحَىُّ﴾ وكل ما عداه لا حياة له، لأنه ليس له من ذاته إلا العدم، فأنتج ذلك قطعاً قوله: ﴿لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، فتسبب عنه قوله: ﴿فَٱدْعُوهُ﴾ أي وحده بالقول والفعل على وجه العبادة، وذلك معنى ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أي من كل شرك جلي أو خفي"[٤].

١٤) قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾: لما كان الله تعالى موصوفا بصفات الجلال والعزة، ومنعوتا بالإنعام الكامل على خلقه استحق لذاته أن يقال: الحمد لله رب العالمين، فيجوز أن تكون الجملة إنشاء للثناء على الله، وتكون متصلة بفعل ﴿فَٱدْعُوهُ﴾ على تقدير محذوف، أي قائلين: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾، أو قولوا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ الذي صنع لنا كل هذا، والمعنى: فاعبدوه بالعمل وبالثناء عليه وشكره.

ويجوز أن تكون كلاما مستأنفا أريد به إنشاء الثناء على الله من نفسه تعليما للناس كيف يحمدونه، أو جاريا على لسان الرسول ﷺ على نحو قوله تعالى: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ الأنعام: ٤٥.

---

١) انظر: المحرر الوجيز لابن عطية (٥٦٧/٤). والتحرير والتنوير لابن عاشور (١٩٢/٢٤-١٩٣). التفسير المنير للزحيلي (١٥٣/٢٤).
٢) انظر: مفاتيح الغيب للفخر الرازي (٥٣٠/٢٧). ولباب التأويل للخازن (٧٩/٤).
٣) انظر: مفاتيح الغيب للفخر الرازي (٥٣٠/٢٧). والتحرير والتنوير لابن عاشور (١٩٣/٢٤).
٤) نظم الدرر (١٠٧/١٧).

ويجوز أن يكون على معنى الأمر، أي احمدوا الله رب العالمين، وعدل به عن النصب إلى الرفع لقصد الدلالة على الدوام والثبات.[1]

ويجوز أن يكون تعليلا لما أمر به آنفا من قصر الهمم عليه وحده بالدعاء والإخلاص فيه.[2]

١٥) وجدنا هذا المقطع عامرا بالأوامر الإلهية، ودلائل القدرة الربانية، فبعد شوط طويل في مناقشة المشركين والمجادلين في آيات الله بالباطل، بدأت الآيات بتوجيه بعض الأوامر للمؤمنين، وبدأت بتعداد الدلائل القاهرة والإنعامات الباهرة، في نسق يراد منه علو شأن المؤمنين، وظهور آيات الإيمان ودلائل الحق، فالآيات تحرك في القلوب الرغبة والشوق إلى الله، وتبعث فيها المحبة لمنعمها وخالقها، وتنشر في النفوس النفرة من الجدال الباطل والجحود الكاذب، إذ الجحود في مقابلة هذه النعم الواضحة والمتكاثرة كذب على النفس ومخادعة لصوت العقل وقمع لنداء الفطرة، ولا يستطيع الأسوياء من الناس مواصلة السير في هذا الجو من مغالطة الذات ومكابرة الحقائق، وبهذا يزداد الذين آمنوا إيمانا فتقوى نفوسهم لمجابهة المبطلين، ويميل كثير من الأعداء ذوي العقول والفطر السليمة إلى الاقتراب من حظيرة الحق أو الدخول فيه، وهذا يحقق أسمى مقاصد السورة وغاياتها في نصرة الحق وردع الباطل.

والخلاصة أن هذه الآيات الكريمات تلجئ السامع لها إلجاء نحو تأثر إيجابي مهما كانت درجته ومقداره، فكل هذه النعم والآء، وكل هذه التحننات والتوددات الربانية، كلها تلجئ العقل للاعتراف بالفضل لصاحبه، وتلجئ القلب للامتنان والشكر لمحسنه، وحقا كان خير تعبير لهذه المعاني هو قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ الذي ختم به المقطع.

١) انظر: بحر العلوم للسمرقندي (٢١٢/٣). والتحرير والتنوير لابن عاشور (١٩٤/٢٤). والتفسير الواضح لمحمد حجازي (٣١٤/٣).

٢) انظر: نظم الدرر للبقاعي (١٠٧/١٧).

المطلب الرابع: التفسير الإجمالي للآيات:

الآيات السابقة تحدثت عن كبر المجادلين، وهذه الآيات تدعو إلى تواضع المؤمنين وخضوعهم لربهم، فهو يقول لهم بعنوان الربوبية: ادعوني أستجب لكم، أي: سلوني حوائجكم وأخلصوا لي في سائر عباداتكم بالتوحيد والمتابعة أعطكم سؤلكم وأتقبل عملكم وأغفر لكم وأرحمكم، فإن المجادلين وغيرهم الذين يستكبرون ويترفعون ويرفضون الخضوع لربهم الواحد بالعبادة والدعاء سيكون مصيرهم جهنم يدخلونها صاغرين حقيرين أذلاء مقهورين.

ثم تذكر الآيات دلائل استحقاق الله تعالى لتوحيده وإخلاص العبادة له، فذكرت من صفاته أنه الخالق: خلق الليل وجعله مظلما ساكنا فيه سكن الأنفس وراحة الأبدان ومأوى الخلق بعد حركة النهار واضطرابهم في السعي لكسب الرزق والمعاش.

وخلق النهار وجعله منيرا يتصرف فيه الخلق لقضاء أمورهم وطلب حاجاتهم وكسب أرزاقهم.

وفي هذا منة من الله ظاهرة على خلقه، ولكن أكثرهم يكفرون ويجحدون وينسبون الفضل لغير الله ولا يشكرون الله بحمده وطاعته وإخلاص الألوهة والعبادة له، وكان الجدير بهم أن يفعلوا ذلك؛ فإن من خلق وجعل وأنعم الإنعامات هو مالك الناس ومصلح أمورهم، وهو خالقهم وخالق كل شيء، لا معبود بحق تصلح له العبادة إلا هو، فكيف تذهبون وتصرفون عن عبادته إلى عبادة غيره؟!!

ثم يبيّن الله تعالى أنه بمثل ذهاب وانصراف هؤلاء القوم -المعاصرين للتنزيل- عن الحق إلى الباطل، ومن الرشد إلى الضلال، بمثله انصرف وذهب من كان يكفر ويكذب بآيات الله وحججه وبراهينه ويجحدها، فسلكتم أنتم يا معشر قريش مسلكهم، وركبتم محجتهم في الضلال.

ثم يذكرهم الله تعالى مجددا بآلائه ونعمه الدالة على وحدانيته وألوهيته وفضله، فأخبرهم بأنه هو الله الخالق: خلق الأرض وجعله محلا لسكن الناس واستقرارهم فيها.

وخلق السماء فوقهم فرفعها وجعلها بناء محكما لمصالح العباد واستقامة عيشهم.

وخلق الناس فصورهم في الأرحام كيف يشاء في أحسن وأجمل صورة وخلقة وهيئة.

ورتب لمن خلق الرزق الطيب اللذيذ من المأكل والمشرب الذي به يعيش ويهنأ.

فيا أيها الناس إن من فعل لكم كل هذا، وأنعم عليكم بكل هذا، إنه هو ربكم المتولي لأموركم والمدبر لها بأحسن تدبير، فتبارك وتعالى وتقدس الله مالك جميع الخلق جنهم وإنسهم، وسائر أجناس الخلق غيرهم.

ثم يذكر الله صفات أخرى تدل على كمال ربوبيته وألوهيته ليأمرهم مجددا بدعائه، فأخبر بأنه سبحانه هو وحده الحي حياة كاملة مطلقة أزلا وأبدا، وما سواه فمنقطع الحياة غير دائمها، ولا معبود بحق تجوز عبادته إلا هو سبحانه، الذي هذه الصفات المذكورة صفاته، ألا فادعوه أيها الناس مخلصين له الدين، مخلصين له الطاعة، مفردين له الألوهة، غير مشركين في عبادته شيئا سواه من وثن وصنم، فلا تجعلوا له ندا ولا عدلا، فإن الثناء الحسن الكامل والمدح الجميل الشامل كله لله الذي هو مالك جميع أجناس الخلق، من ملك وجن وإنس وغيرهم، لا للآلهة والأوثان التي لا تملك شيئا، ولا تقدر على ضر ولا نفع، بل هو مملوك، إن ناله نائل بسوء لم يقدر له عن نفسه دفعا.

المطلب الخامس: بيان ما ترشد إليه الآيات[1]:

١-تشير الآيات إلى أن الدعاء هو العبادة، وقد ورد هذا نصا في قوله ﷺ: ((الدعاء هو العبادة))[2]، ولذا من دعا غير الله فقد أشرك بالله.

٢-يمتن الله تعالى على البشرية كلها بنعمه وآلائه التي لا تعد ولا تحصى، والتي من غيرها ما كان للحياة أن تقوم أو تستمر، فالفضل والمنة لله وحده.

٣-الأدلة على وحدانية الله وقدرته بينة واضحة، فهو الله المربي والمدبر، وخالق كل شيء، والواحد الأحد، فمن العجب كيف ينصرف الناس عن الإيمان بعد توافر أدلته؟

٤- يلاحظ أن الآيات انتهت بنهايات قوية مؤثرة تناسب مقام مخاطبة البشرية، وهي: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾﴾، ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾﴾، ﴿يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾﴾، ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾، ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾﴾.

٥- لا تتحقق القراءة الصحيحة لكتاب الله إذا تمت بمعزل عن القراءة الصحيحة لأحداث الكون والحياة، وكمثال للجمع بين القراءتين هذه الآيات التي مرّت معنا في المقطع، فنقرأها لنفهم منها أن الله عز وجل هو الذي خلق السماوات والأرض، وقدّر الليل والنهار، وأوجد الإنسان، ثم هو يرزقه الطيبات من خلال الأسباب ومنها (ماء السماء). وفي آيات ستأتي يتحدث الله عن نعمة الفلك لنفهم أن قدرة الله ومشيئته (أمره) توجه مخترعات الإنسان كالفلك، كما توجه مكونات الطبيعة كالرياح والبحار والأنهار. فالجمع بين القراءتين، قراءة كتاب الله المنظور (الكون)، وكتاب الله المسطور (القرن الكريم) يحقق للإنسان التناغم بين العقل والقلب، فتتفجر داخله ينابيع الإيمان، وفي الوقت نفسه يستشعر أهمية الإلمام بسنن الله في الكون، وعدم الركون إلى التواكل، بل التوكل على الله تعالى ثم السعي وفق سنن الله في أرض الله.

***

١) انظر: أيسر التفاسير للجزائري (٥٤٧/٤، ٥٥١). والتفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم لجامعة الشارقة، بإشراف د. مصطفى مسلم (٥٨٧/٦-٥٨٨). والتفسير المنير للزحيلي (١٥٥/٢٤-١٥٦). وكيف بدأ الخلق لعمرو شريف (١٤/١-١٦).

٢) سنن أبي داوود، أبواب فضائل القرآن، باب الدعاء، برقم "١٤٧٩" (٦٠٣/٢).

سنن الترمذي، أبواب تفسير القرآن، باب ومن سورة البقرة، برقم "٢٩٦٩" (٦١/٥)، وقال حديث حسن صحيح، وصححه الشيخ الألباني وغيره. انظر: صحيح الجامع الصغير وزياداته، برقم "٣٤٠٧" (٦٤١/١).

المبحث الثالث: لا مصالحة في الإشراك بالله، ولا مساومة في عبادة الله بعد أن توالت البيّنات ويشمل الآيات (٦٦-٦٨)

قال تعالى: ﴿ ۞ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٦﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ۖ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾ ﴾.

المطلب الأول: ربط الموضوع بالمحور الأساس للسورة:

في هذا المقطع سنرى المفاصلة مع الباطل وأهله حتى لا يدع مجالا لأحد أن يقترح للصراع الدائر بين الحق والباطل والمعركة المحتدمة بين الفريقين حلاً في صورة من صور التقارب أو التنازل أو الالتقاء في الوسط، فكل هذا مرفوض رفضا باتا، وقد حاولوا ذلك مرارا مع النبي ﷺ في أن يقبل ببعض ما عندهم على أن يقبلوا ببعض ما جاء به فنزلت الآيات ترفض ذلك وتأباه بشدة، منها سورة الكافرون، وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ ﴾الأنعام:١٤، ومن جملة تلك الآيات الرافضة لمبدأ التقارب بين الحق والباطل الآية التي معنا وهي قوله تعالى: ﴿ ۞ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ الآية، فهذه الآية تلقين من الله عز وجل للرسول صلى الله عليهم جوابا لمجادليه ومساوميه في الدين الحق، فالآية تشير إشارة واضحة إلى أن الرسول ﷺ يناقش قوما يطلبون منه الانصراف عما يعبد، فالصراع بين الحق والباطل والصواب والخطأ ظاهر جدا في هذا المقطع، وهذا متوافق مع محور السورة الأساسي.

قال دروزة: "عبارة الآية واضحة، وهي صريحة الدلالة أكثر مما قبلها على أن السياق في صدد مشهد جدلي أو صدد التعقيب عليه، وقد تكرر ما جاء في الآية من نهي وأمر في هذه السورة مباشرة وعلى لسان مؤمن آل فرعون ... حيث يدل ذلك على أن المشركين ظلوا يواصلون اقتراحاتهم للنبي ﷺ في التساهل معهم والمشاركة فيما هم عليه من طقوس وتقاليد"[١].

---

١) التفسير الحديث (٣٩٢/٤).

المطلب الثاني: التناسق بين هذا الموضوع وسابقه:

إن الآيات البيّنات الواضحات في الأفاق والأنفس والنعم والآء التي ذكرها الله في الآيات السابقة لتعطي حجة يقينية لرفض أي تبعية في العقيدة لقوم لا يملكون من الحق شيئا، فإن الآيات السابقة فيها من السنن الكونية التي لا يدّعيها أحد من الطغاة أو المعبودين من دون الله، فجاءت الآيات لتؤكد رفض أي مشاركة لله تعالى في عبادته، فلا أحد يستحق ذلك بحال من الأحوال، فالله وحده هو خالق الكون ومدبره، وهو خالق الإنسان من تراب، الذي هيأ له السماء والأرض وما فيها، فلابد من إفراده سبحانه بالعبادة.

ثم كيف تكون هناك مقاربة في الشرك بالله تعالى، وكيف يعبد رسول الله ﷺ أحدا غير الله ولو في صورة من الصور أو فترة من الزمن وقد ظهرت الآيات البيّنات والحجج الواضحات على وحدانية الله تعالى في ربوبيته وألوهيته، فهو الخالق لكل شيء من العدم ابتداء، ومالك العالمين أولا وآخرا، ثم هو المتفضل والمنعم على خلقه بما لا يحصى من النعم، فهو المتعين عبادته على الناس أجمعين، والإسلام له بالطاعة دون ندّ أو شريك.

قال الفخر الرازي: بعد إيراد دلائل القدرة والتوحيد وصفات الجلال والعظمة، نهى الله عن عبادة غيره، بقول لين لطيف، لصرف المشركين عن عبادة الأوثان، ثم أبان سبب النهي وهو البيّنات التي جاءت للنبي ﷺ من ربه، من دلائل الآفاق والأنفس، أما الأولى فهي أربعة: الليل والنهار والأرض والسماء، وأما الثانية فذكر منها ثلاثة وهي: تكوين الصورة، وحسن الصورة، ورزق الطيبات، ثم سيذكر من آيات الأنفس في هذا المقطع -زيادة على ما سبق- كيفية تكون الإنسان ومراحل تدرجه وأطوار حياته من الاجتنان إلى الولادة والطفولة، إلى الشباب والكهولة، ثم الشيخوخة، ثم الموت.[١]

قال سعيد حوّى: "ذكر الله عز وجل في هذه الآيات ما يستوجب شكره وعبادته وإفراده بالعبادة، وختم هذه الآيات بأن أمر رسوله ﷺ أن يبيّن أنه منهي عن عبادة غير الله عز وجل، ومأمور بالاستسلام لله، وفي ذلك بيان أنّ الموقف الصحيح من الآيات هو إفراد الله عز وجل بالعبادة والاستسلام، لا كما فعل الكافرون من ردّ الآيات، ورفض العبادة والاستسلام لله عز وجل، وهذا يؤكد الصلة بين هذه الآيات ومسار السورة عامة، كما يوضح الصلة بين هذه الآيات وبين قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾

١) انظر: مفاتيح الغيب (٢٧/٥٣٠-٥٣١). والتفسير المنير للزحيلي (٢٤/١٥٧).

غافر: ٦٠، كما يوضح أن الأمر بعبادة الله يدخل فيه النهي عن عبادة غيره، كما يدخل فيه التسليم لله رب العالمين"[١].

ومناسبة أخرى: أن الآية انتقلت إلى تقرير دليل الوحدانية بخبر الوحي الإلهي بإبطال عبادة غير الله على لسان رسوله ﷺ ليعمل بذلك في نفسه، ويبلغ ذلك إلى قومه فيعلموا أنه حكم الله فيهم، وأنهم لا عذر لهم في الغفلة عنها أو عدم إتقان النظر فيها أو قصور الاستنتاج منها بعد أن جاءهم رسول من الله يبين لهم أنواعا بمختلف أساليب البيان من أدلة برهانية وتقريبية إقناعية، وليعلموا أن هذا الرسول ﷺ إنما يدعوهم إلى ما يريده لنفسه، فهو بذا ممحض لهم النصيحة، وهاديهم إلى الحجة، لتتظاهر الأدلة النظرية بأدلة الأمر الإلهي بحيث يقوى إبطال مذهبهم في الشرك، فإن ما نزل من الوحي تضمن أدلة عقلية وإقناعية وأوامر إلهية وزواجر وترغيبات، وكل ذلك يحوم حول إثبات تفرد الله تعالى بالإلهية والربوبية تفردا مطلقا لا تشوبه شائبة مشاركة ولو في ظاهر الحال، فكان قوله تعالى: ﴿ ۞ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي ﴾ إبطالا لعبادة غير الله بالقول الدال على التحذير والتخويف بعد أن أبطل ذلك بدلالة الحجة على المقصود.[٢]

١) انظر: الأساس في التفسير لسعيد حوّى (٤٩٨١/٩).

٢) انظر: التحرير والتنوير لابن عاشور (١٩٥/٢٤).

المطلب الثالث: أسباب النزول الواردة:

ذُكر في هذه الآية ﴿ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ سبب للنزول، وهو مروي عن ابن عباس رضي الله عنهما من طريق جويبر بن سعيد[1]، وهو مجمع عند المحدثين على شدة ضعفه، ولكن كتب بعضهم عنه في التفسير.

فأخرج جويبر عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن الوليد بن المغيرة وشيبة بن ربيعة قالا: يا محمد ارجع عما تقول وعليك بدين آبائك وأجدادك، فأنزل الله تعالى: ﴿ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾.[2]

ولا ثبوت لهذه الرواية عند التحقيق، فهي في الإسناد ضعيفة جدا، لضعف لجويبر، ولوجود انقطاع في السند، فجويبر يروي عن الضحاك بن مزاحم[3] عن ابن عباس رضي الله عنهما وبينهما انقطاع، وقد رويت نفس الرواية أو قريبا منها سببا لنزول آيات أخر من كتاب الله، منها آية مدنية وهي قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ... ﴾الأحزاب: ١، الآية،[4] وآية في سورة الشورى هي قوله تعالى: ﴿ فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ ۖ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ۖ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ ﴾ الشورى: ١٥،[5] وهذا يدل -على فرض صحت المرويات- أنّ المراد بالنزول هو المشاركة في معنى الآيات لا نزول الآيات عقب هذه الحادثة، والله تعالى أعلم.

---

١) جويبر بن سعيد: هو البلخي المفسر صاحب الضحاك روى له ابن ماجه، قال ابن معين: ضعيف الحديث، ليس بشيء، وقال الجوزجاني: لا يشتغل به، وقال النسائي والدارقطني وغيرهما: متروك. وقال يحيى القطان: تساهلوا في أخذ التفسير عن القوم لتولعهم في الحديث، ثم قال: جويبر والضحاك والكلبي لا يحمد حديثهم ويكتب التفسير عنهم. اهـ. انظر: تاريخ ابن معين (١/٦٩). والكامل في الضعفاء للجرجاني، برقم "٣٢٩" (٢/٣٣٩-٣٤١). وميزان الاعتدال للذهبي، برقم "١٥٩٣" (١/٤٢٧).

٢) الدر المنثور للسيوطي (٧/٣٠٤).

٣) هو الضحاك بن مزاحم الهلالي، أبو محمد – وقيل أبو القاسم- الخراساني المفسر، كان من أوعية العلم، وثقه الإمام أحمد وغيره، وهو صدوق في نفسه، كان كثير الإرسال، مات سنة ١٠٢هـ، – رحمه الله تعالى رحمة واسعة-. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي، (٤/٥٩٨-٦٠٠). وطبقات المفسرين للداودي، (١/ ١٠).

٤) انظر: الدر المنثور للسيوطي (٦/٥٦٠).

٥) انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٦/١٤).

المطلب الرابع: التناسب بين الآيات والجمل والكلمات:

١) قوله تعالى: ﴿ ۞ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾: لما بيّنت الآيات السابقات صفات الجلال والعظمة والقدرة والحكمة، وامتنّت بكثير من نعم الله على الناس، أمر الله تعالى في هذه الآية نبيه محمدا ﷺ أن يصدع بأنه نُهي عن عبادة الأصنام التي عبدها الكفار من دون الله، وهذا نهي بدليل السمع، وإن كان منهيا عنه بدلائل العقل، فتظافرت أدلة السمع وأدلة العقل على النهي عن عبادة الأوثان.[1]

قال السعدي: لما ذكر الأمر بإخلاص العبادة لله وحده، وذكر الأدلة على ذلك والبينات، صرّح بالنهي عن عبادة ما سواه، فإن النهي عن عبادة ما سواه أعظم منهي عنه على الإطلاق. اهـ.[2]

ويحتمل أن يكون مجيء هذا النهي ابتداء من الله تعالى، لما أورد على المشركين تلك الأدلة الدالة على إثبات إله العالم أمره بهذا القول؛ لأجل صرف المشركين عن عبادة الأوثان بوسائل دعوية أخرى، منها هذا الأسلوب المبني على سحب كل أهلية وصلاحية لمعبودات المشركين، وإظهار أنها مجرد حجارة من السخف التفكير فيها لحظة فضلا عن التوجه إليها وعبادتها، وليس عندها بيّنة بشيء ولا برهان على شيء، وكان الأولى عبادة الله تعالى التي تظافرت البيّنات العقلية والنقلية على استحقاقه وحده لتوحيد الربوبية والألوهية.

ويحتمل أن يكون مجيء النهي بسبب دعوات وعروض صدرت من المشركين لرسول الله ﷺ بصرف شيء من العبادة لأصنامهم أو الاعتراف بشيء لها أو السكوت عنها، فجاءت الآية قطعا لأطماعهم ومقابلة لهم بالرفض الأكيد التام لأي مقاربة أو تنازل بخصوص التوحيد، مبينا أنه من العجب والسخف طلب شيء كهذا في أمر التوحيد الذي قد أيدته البيّنات من كل وجه، فكان الأحرى بكم التسليم لهذه البيّنات بدل تكذيبها والمجادلة فيها أو المساومة عليها.

٢) قوله تعالى: ﴿لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي ﴾: بيان لوقت وقوع النهي وسببه.

---

١) انظر: المحرر الوجيز لابن عطية (٥٦٧/٤). ومفاتيح الغيب للفخر الرازي (٥٣٠/٢٧). والبحر المحيط لأبي حيان (٢٧٠/٩).
٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن (٧٤٢/١).

فـإنّ ﴿لَمَّا﴾ هذه هي التي يدعونها التوقيتية، والجملة توقيت لنهيه عن عبادة غير الله بوقت مجيء البيّنات وبسببها، أي بيّنات الوحي بإنزال القرآن، والأدلة على تفرد الله بالإلهية التي مضت، وهو يقتضي أن النهي لم يكن قبل وقت مجيء البيّنات، وأنه لا نهي ولا وجوب إلا بعد ورود الشرع، ويدل على أنه ﷺ ما كان متعبداً قبل البعثة بشرع أحد، وفي الآية تعريض بالمشركين إذ لم ينتهوا عن عبادة غير الله وقد جاءتهم البيّنات من ربهم.[١]

قال الطيبي[٢]: معرفة الله تعالى ووحدانيته معلومتان بالعقل، وقد ترد الأدلة العقلية في مضمون السمعية، أما وجوب عبادة الله، وتحريم عبادة الأصنام، فحُكْمٌ شرعي لقوله: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ﴾ أي: حَرُم عليّ، وهذا إنما يتحقق بعد البعثة.[٣]

٣) قوله تعالى: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾: لما أخبر بالنهي بما يتخلى عنه، وهو عبادة ما يعبد من دون الله، أتبعه بالأمر بما يتحلى به، وهو الإسلام لمالك العالمين ومربيهم، سواء بالمعنى الخاص أو العام للإسلام، وإنما ذكر هذه الأحكام في حق نفسه ﷺ؛ للتعريض بنهي المشركين، لأنهم كانوا يعتقدون فيه أنه في غاية العقل وكمال الجوهر، ومن المعلوم بالضرورة أن كل أحد فإنه لا يريد لنفسه إلا الأفضل الأكمل، فإذا ذكر أن مصلحته لا تتم إلا بالإعراض عن غير الله والإقبال بالكلية على طاعة الله ظهر به أن هذا الطريق أكمل من كل ما سواه، وكذلك إذا كان ﷺ منهيا عن ذلك، فعليهم أن يتأملوا لأنفسهم ويستعملوا أنظارهم في ذلك، ليسوقهم إلى النظر في الأدلة سوقا لينا خفيا لاتباعه فيما نُهي عنه.[٤]

قال سيد قطب: "أمام هذه الآيات والهبات، وما تلاها من تعقيبات، وفي أشد اللحظات امتلاء بحقيقة الوحدانية، وحقيقة الألوهية، وحقيقة الربوبية، يجيء التلقين لرسول الله ﷺ ليعلن للقوم أنه منهي عن عبادة ما يدعون من دون الله، مأمور بالإسلام لله رب العالمين ...

١) انظر: المحرر الوجيز لابن عطية (٥٦٨/٤). ونظم الدرر للبقاعي (١٠٩/١٧). وروح البيان لإسماعيل حقي (٢٠٦/٨). وتفسير المراغي (٩١/٢٤). والتحرير والتنوير لابن عاشور (١٩٦/٢٤). وأيسر التفاسير للجزائري (٥٥٠/٤).

٢) هو الحسين –وقيل: الحسن– بن محمد بن عبد الله، شرف الدين الطيبي: من علماء الحديث والتفسير والبيان، من أهل توريز، من عراق العجم. كانت له ثروة طائلة من الإرث والتجارة، فأنفقها في وجوه الخير، حتى افتقر في آخر عمره. وكان شديد الردّ على المبتدعة، ملازما لتعليم الطلبة والإنفاق على ذوي الحاجة منهم، آية في استخراج الدقائق من الكتاب والسنة، متواضعا، له مؤلفات منها شرح على كشاف الزمخشري أسماه (فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب)، توفي سنة ٧٤٣هـ، –رحمه الله تعالى رحمة واسعة–. انظر: طبقات المفسرين للداوودي (١٤٦/١-١٤٧). والأعلام للزركلي (٢٥٦/٢).

٣) انظر: البحر المديد لابن عجيبة (١٤٩/٥).

٤) انظر: مفاتيح الغيب للفخر الرازي (٥٣٠/٢٧-٥٣١). ونظم الدرر للبقاعي (١٠٩/١٧).

أعلن لهؤلاء الذين يصرفون عن آيات الله ويجحدون هباته، أنك نهيت عن عبادة ما يدعون من دون الله، وقل لهم: إنني نهيت وانتهيت ﴿لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي﴾ فعندي بينة، وأنا بها مؤمن، ومن حق هذه البينة أن أقتنع بها وأصدق، ثم أعلن كلمة الحق.

ومع الانتهاء عن عبادة غير الله -وهو سلب- الإسلام لرب العالمين -وهو إيجاب-، ومن الشقين تتكامل العقيدة"[1].

٤) قوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى ﴾: لما قامت الأدلة وسطعت الحجج على أنه سبحانه رب العالمين الذين من جملتهم المخاطَبون، وأنه لا حكم للطبيعة ولا تصرف للأوثان وغيرها، وأن الأصنام عارية عن شيء من أمر الربوبية والألوهية، أتبع ذلك آية أخرى في الاستدلال والتذكير بنعم الله تعالى على العالمين، ليستعرض معهم آية من آيات الله في الأنفس، وهي آية الحياة الإنسانية وأطوارها العجيبة، ليتخذ الإنسان من هذه الحياة مقدمة لتقرير حقيقة الحياة كلها بين يدي الله تعالى، فهذا استدلال رابع لبيان أمر الوحدانية في الربوبية والألوهية بعد الاستدلال في قوله تعالى: ﴿ هُوَ الْحَيُّ ...﴾ غافر:٦٥، الآية وما تفرع عليها، وكلها ناشئ بعضه عن بعض، وهذا الامتنان بنعمة الإيجاد، وبالعبرة في ابن آدم وتدريج خلقه، فهو الذي يقلب الناس في هذه الأطوار كلها وحده لا شريك له، وعن أمره وتدبيره وتقديره يكون ذلك كله، فخلق آدم عليه السلام أبو البشر من تراب، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين، يمر بأطوار الخلق في الرحم حتى يخرج بقدرة الخالق طفلا، ليكبر فيبلغ قمة القوة والاستواء، وبعده يسير نحو الضعف والفناء، حتى يبلغ الشيخ أجله المقدر له من الله تعالى، فما بعد الشيخوخة إلا الموت، وقد يعرض الموت الإنسان في أي مرحلة كان، فلربما مات قبل أن يبلغ الطور الذي يليه، كل هذه تحمل في طياتها عبرا وآيات لمن عقل وتفكر.[2]

---

١) في ظلال القرآن (٣٠٩٥/٥).

٢) انظر: المحرر الوجيز لابن عطية (٥٦٨/٤). والبحر المحيط لأبي حيان (٢٧٠/٩). ونظم الدرر للبقاعي (١٠٩/١٧). وفي ظلال القرآن لسيد قطب (٣٠٩٥/٥). والتحرير والتنوير لابن عاشور (١٩٧/٢٤-١٩٩).

ولما كانت هناك فترة ممتدة بين طور وآخر عطف الجميع بـ (ثم) لإفادة التراخي، ولما كانت ولادة الجنين إخراجا جديدا له من وجود إلى وجود، جاء التعبير القرآني بقوله: ﴿ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ﴾ بفعل (الإخراج) الذي يدل على المغايرة بين ما كان قبل هذا الإخراج وبعده.[1]

قال الفخر الرازي: ذكرت الآية من دلائل الأنفس كيفية تكون هذا البدن من ابتدائه إلى آخر الموت، واعلم أنه تعالى رتّب عمر الإنسان على ثلاث مراتب أولها: كونه طفلا، وثانيها: أن يبلغ أشده، وثالثها: الشيخوخة، وهذا ترتيب صحيح مطابق للعقل، وذلك لأن الإنسان في أول عمره يكون في التزايد والنشوء والنماء وهو المسمى بالطفولية، والمرتبة الثانية: أن يبلغ إلى كمال النشوء وإلى أشد السن من غير أن يكون قد حصل فيه نوع من أنواع الضعف، وهو المسمى ببلوغ الأشد، والمرتبة الثالثة: أن يتراجع ويظهر فيه أثر من آثار الضعف والنقص، وهو المسمى بالشيخوخة، وإذا عرفت هذا التقسيم عرفت أن مراتب العمر بحسب هذا التقسيم لا تزيد على هذه الثلاثة.[2]

٥) قوله تعالى: ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾: لما ذكر دليل خلق الإنسان وإيجاده طورا بعد طور ذكر الحكمة الباعثة على جميع ذلك، وهي أن كل هذه الأمور رجاء أن يكون للناس عقول يعتبرون بها، فيعرفون مراد الله من ذلك الخلق، وما في أحواله من أنواع العبر وأقسام الدلائل، فمن حكمته أن جعل ذلك الخلق العجيب والمهلة في العمر علة لأمور كثيرة، ليعلم الناس بالمفاوتة بين الخلق فيها ببراهين المشاهدة بالتقليب في أطوار الخلقة وأدوار الأسنان وإرجاع أواخر الأحكام على أوائلها، أنّ فاعل ذلك قادر مختار حكيم قهّار، لا يشبه شيئاً ولا يشبهه شيء سبحانه، فيعقلوا حجج الله بذلك ويتدبروا آياته فيعرفوا أنه لا إله غيره فعل ذلك، ويوقنوا بالبعث بعد الموت، فهذه الآية حجة على المشركين وتنبيه لهم على قدرة الله عز وجل.[3]

---

١) انظر: التفسير القرآني للقرآن لعبد الكريم الخطيب (١٢٦٥/١٢).

٢) مفاتيح الغيب (٥٣١/٢٧).

٣) انظر: جامع البيان للطبري (٤١٢/٢١). والهداية إلى بلوغ النهاية لمكي بن أبي طالب (٦٤٥٨/١٠). ومفاتيح الغيب للفخر الرازي (٥٣١/٢٧). وتفسير القرآن العظيم لابن كثير (١٥٧/٧). ونظم الدرر للبقاعي (١١٠/١٧-١١١). والفواتح الإلهية للشيخ علوان (٢٦٩/٢). والتحرير والتنوير لابن عاشور (١٩٩/٢٤).

٦) قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُحۡىِۦ وَيُمِيتُۖ ﴾: تأكيد على الفاعل الحقيقي دفعاً لما قد يُتوهم من كونه لم يذكر الفاعل في قوله: ﴿ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبۡلُۖ ﴾غافر:٦٧، فرفع ذلك الإبهام بقوله: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُحۡىِۦ وَيُمِيتُۖ ﴾ لا غيره.[١]

وكذلك لما ذكر مراتب الإيجاد وانتقال الإنسان من حالة لأخرى ومن طور لآخر، واستدل بهذه التغيرات على وجود الإله القادر رجاء أن يعقلوا دلائل التوحيد، فلما رجى منهم أن يعقلوا، أردفه بذكر أول ما يرجى أن يعقلوه هو ذلك التصرف البديع الإحياء والإماتة، بخلق الحياة في الإنسان عند تكوينه بعد أن كان قطعة لا حياة فيها، وخلق الموت فيه عند انتهاء أجله بعد أن كان حيا متصرفا بقوته وتدبيره، فإن هذا من أعظم الدلائل على الإله الواحد الخالق القادر سبحانه، فتكون هذه الآية استدلالا خامسا على التوحيد.[٢]

قال البقاعي: "لما نظم سبحانه هذا الدليل في صنع الآدمي من التراب، وختمه بأن دلالته على البعث –بإجراء سنته في إرجاع أواخر الأمور على أوائلها وغير ذلك– لا يحتاج إلى غير العقل، أنتج عنه قوله: ﴿ هُوَ ﴾ لا غيره ﴿ ٱلَّذِى يُحۡىِۦ وَيُمِيتُۖ ﴾ كما تشاهدونه في أنفسكم وكما مضى لكم الإشارة إليه بخلق السماوات والأرض، فإن من خلقهما خلق ما بينهما من الآجال المضروبة باختلاف الليل والنهار والشهور والأعوام لبلوغ الأفلاك مواضعها، ثم رجوعها عوداً على بدء، مثل تطوير الإنسان بعد الترابية من النطفة إلى العلقة إلى ما فوقها، ثم رجوعه في مدارك هبوطه إلى أن تصير تراباً كما كان، فليست النهاية بأبعد من البداية"[٣].

٧) قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾: معطوفة بالفاء على ما سبقها للدلالة على أن ما بعدها من نتائج ما قبلها من اختصاص الاحياء والاماتة به سبحانه غير متوقفة على العدد والمواد، ولا على سبب أو علة، ففرّع على ما سبق إخباره بأنه إذا أراد أمرا من أمور التكوين من إحياء أو إماتة أو غيرهما فإنه يقدر على فعله دون تردد ولا معالجة ولا معاناة ولا كلفة ولا تعب ولا مهلة، فجعل هذا

---

١) البحر المديد لابن عجيبة (١٥٠/٥).

٢) انظر: مفاتيح الغيب للفخر الرازي (٥٣١/٢٧). والبحر المحيط لأبي حيان (٢٧١/٩). والتحرير والتنوير لابن عاشور (١٩٩/٢٤).

٣) نظم الدرر (١١١/١٧).

نتيجة من قدرته على الإحياء والإماتة وسائر ما ذكر من أفعاله الدالة على أن مقدورا لا يمتنع عليه، كأنه قال: فلذلك من الاقتدار إذا قضى أمرا كان أهون شيء وأسرعه.[1]

٨) تبين من هذا المقطع أنه استمرار لعرض دلائل التوحيد والعبودية لله تعالى مع زيادة عما قبلها بحسم قضية عبادة غير الله تعالى، فإن العبادة لله تعالى لا تصلح إلا على وجه إفرادها له وحده، لذا كان لابد من قطع أفكار الوثنين المشركين بالله تعالى عن هذا الجو الذي ألفوه وإقناعهم بإحداث نقلة شاملة نحو التوحيد، فإن دلائله تتساقط أمام العقول كحبات المطر من كثرتها ووضوحها، ولذا سنجد بعد عدة آيات قوله تعالى: ﴿ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾ ﴾غافر:٨١، لنخرج بنتيجة مفادها أن بقاء المشركين على شركهم بعد كل هذه الآيات البيّنات لم يكن إلا بناء على كبر وجحود نابع من مرض قلبي كما ذكرت لنا آية سابقة عن باعث أولئك المجادلين في آيات الله في قوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ ﴾ غافر:٥٦، وبهذا يتبين بجلاء التناسق التام بين موضوعات ومقاطع هذه السورة الكريمة، وكيف أن المقطع الحالي واللاحق يتعانق ويتآلف مع المقطع السابق حتى تكتمل الصورة البيانية لهذه السورة الكريمة.

---

١) انظر: الكشاف للزمخشري (١٧٨/٤). وإرشاد العقل السليم لأبي السعود (٢٨٤/٧). والتفسير المظهري لمحمد ثناء الله (٢٧٥/٨). والتفسير الوسيط لطنطاوي (٣٠٩/١٢).

المطلب الخامس: التفسير الإجمالي للآيات:

بعد عدة آيات كلها آيات بيّنات دالات على تفرد الخالق سبحانه وتعالى بالربوبية والألوهية، يأمر الله تعالى نبيه محمدا ﷺ أن يقول للمشركين ويسمعهم أن ربه تعالى قد نهاه أن يصرف شيئا من العبادة لغير الله تعالى من هذه الأصنام والأوثان التي يدعونها من دون الله تعالى، وأنه قد نهاه ربه عن عبادة تلك المعبودات الباطلة بعد أن أعطاه وأنزل عليه الآيات البيّنات الواضحات على استحقاقه تعالى وحده للعبادة وبطلان استحقاق تلك الأصنام والأوثان التي تعبد من دون الله لشيء من ذلك، فلما جاءته البيّنات من ربه نهاه عن عبادة غيره وأمره أن يسلم ويخضع بالطاعة لرب كل شيء ومالك كل شيء دون غيره من أحد أو شيء.

ثم ذكرت الآيات صفات أخرى لرب العالمين الذي أُمر النبي ﷺ أن يسلم له ويخضع، فهو الذي خلق البشر وابتدأ خلقه بخلق أبيهم آدم عليه السلام من تراب، ثم خلق أولاده بسنة التناسل التي وضعها وهي تتنقل من مرحلة لأخرى، فيبدأ خلق نفس بشرية من نطفة تتحول إلى علقة من دم متعلقة بجدار الرحم لتنمو في ذلك القرار المكين حتى يكتمل نمو الجنين فيخرج لهذه الدنيا طفلا صغيرا، لينمو مجددا ويكبر حتى تتكامل قواه ويشتد عوده فيبلغ شابا، ثم بعد تكامل قواه وخلقته ينحدر نحو الكبر والشيخوخة، وهذا هو خط سير أغلب البشر، وبعضهم قد لا يكمل كل هذه المراحل فيموت صغيرا أو شابا، وعلى كلٍ فإن الجميع ماض إلى بلوغ أجله الذي قدّره الله تعالى وجعله ميقاتا لحياة كل إنسان، وما جعل الله تلك المهلة حتى حضور الأجل إلا فرصة لمن أراد أن يتذكر آيات ربه ويعقل الحجج ويرى العبر فيؤمن لخالقه ويسلم لربه الذي من صفاته أيضا أنه يحيي من أراد من الموت، ويميت من أراد من الأحياء، وإذا قضى وكوّن وأبرم أمرا من الأمور التي يريد تكوينها فما هو إلا أن يقول لما يريد كن فإذا هو كائن بلا زمن ولا كلفة ومشقة، فهذه صفات الرب والإله الذي يجب على الخلق جمعيا توحيده وإخلاص العبادة له سبحانه وتعالى.

المطلب السادس: بيان ما ترشد إليه الآيات[1]:

١- توجيه الرسول ﷺ ليعلم الناس أن عبادة الأوثان منهي عنها جملة وتفصيلا، وأن عبادة الله تعالى وحده لا شريك واجبة بالخضوع التام والإخلاص والمتابعة.

٢- توجيه الرسول ﷺ ليعلم الناس أن هذه السنن المتكررة ومنها خلق الإنسان ومراحل تكوينه في رحم أمه والموت والحياة وعدم وجود ضابط لهما معروف إنما هي جميعا بأمر الله، وهذه جميعا تدعو للإيمان واليقين أن الله هو الفاعل الوحيد بالكون وأنه لا إله إلا هو.

٣- منهج المسلمين، ومنهج أهل السنة منهم خصوصا، قائم على البيّنات، فأصولهم وعقائدهم قائمة على الآيات المحكمات والبيّنات، وأما منهج غير المسلمين، ومنهج كثير من غير أهل السنة، فمنهج قائم على المتشابهات، وأصولهم وعقائدهم مختلطة بين علم وظن، ولا ترجع لأصول محكمة وآيات بيّنة.

***

١) انظر: أيسر التفاسير للجزائري (٥٥١/٤). والتفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم لجامعة الشارقة، بإشراف د. مصطفى مسلم (٥٩٠/٦).

المبحث الرابع: التعجيب من انحراف المجادلين وبيان لجزائهم الأخروي

ويشمل الآيات (٦٩-٧٦)

قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ (٦٩) الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٧٠) إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ (٧١) فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ (٧٢) ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ (٧٣) مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُو مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ (٧٤) ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ (٧٥) ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (٧٦) ﴾.

المطلب الأول: ربط الموضوع بالمحور الأساس للسورة:

عادت السورة الكريمة للحديث عن المجادلين في آيات الله بالباطل للمرة الخامسة، لتبقى السورة بمحورها وحوله، وهنا جاءت الآيات لتضيف معنى جديدا في المجادلة، وذلك بعد أن ذكرت الآيات الكريمات السابقات جملة كبيرة من آيات الله البيّنات في الأفاق وفي الأنفس مما ينقطع به كل جدال، وينتهي بعده كل نقاش، ويتوقف عنده كل سؤال وجواب، بعد أن وضح الحق تمام الوضوح لكل مبصر منصف، بعد كل هذا يكون الاستمرار في الجدال الباطل شيئا سخيفا يدعو إلى الاشمئزاز من أصحابه، ولذا نجد الآية الكريمة جاءت لتتعجب من أحوال مجادلين كهؤلاء صُرفوا عن الحق البين الواضح بأمور تافهة وآراء فاسدة، وذهبوا كل مذهب ليبتعدوا عن الحق، وكذّبوا بالكتاب المبين ومعجزات الرسول الأمين، وفرحوا في الأرض ومرحوا بغير الحق، وتشبعوا بالكبر المقيت بغير أهلية، تغير كل شيء وبقي المشركون على حالهم، فهذا نهاية الحديث معهم، وبيان لمصيرهم وعقابهم الأليم الشديد الذي لا يستحقون غيره، فإن الجدل معهم عقيم لا يثمر شيئا، فهم لا يخضعون للحق الأبلج، ويبقى جدلهم لا يزيدهم إلا عذابا مهينا؛ فإن الحجج التي أدلى بها المؤمنون هي آيات بينات مستقاة من القرآن الكريم والسنن الكونية وسيرة المصطفى ﷺ وقد أفحمت -ولابد- المشركين؛ فإنّ حججهم منبعثة من أهوائهم وشهواتهم، وهكذا نرى أن حجج الإيمان والتوحيد قد انتصرت وعلت في معركة الباطل وحججها الزائفة وجدالها القائم على الكبر والعناد، وأنّ حجج المشركين هوت وأخذت أصحابها معها إلى نار جهنم وبئس المصير، وهذا متوافق مع محور السورة

الأساسي، وبيان لمرحلة مهمة من مراحل أداء المعاني المتعلقة بموضوعات السورة الكريمة، فلابد أن يظهر الجدال بالباطل والمجادلين به في صورة باهتة ذهب بريقها، وأورثت خسارة لقضيتها مع خسارة لمصيرها.

قال ابن عاشور: "بُنيت هذه السورة على إبطال جدل الذين يجادلون في آيات الله جدال التكذيب والتورك كما تقدم في أول السورة، إذ كان من أولها قوله: ﴿ مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ غافر:٤، وتكرر ذلك خمس مرّات فيها، فنبه على إبطال جدالهم في مناسبات الإبطال كلها، إذ ابتدئ بإبطاله على الإجمال عقب الآيات الثلاث من أولها بقوله: ﴿ مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾، ثم بإبطاله بقوله: ﴿ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡۖ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ ﴾غافر:٣٥، ثم بقوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ ﴾ غافر:٥٦، ثم بقوله: ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصۡرَفُونَ ٦٩ ﴾غافر:٦٩، وذلك كله إيماء إلى أن الباعث لهم على المجادلة في آيات الله هو ما اشتمل عليه القرآن من إبطال الشرك، فلذلك أعقب كلَ طريقة من طرائق إبطال شركهم بالإنحاء على جدالهم في آيات الله"[1].

---

١) التحرير والتنوير (٢٠٠/٢٤).

المطلب الثاني: التناسق بين هذا الموضوع وسابقه:

بعد أن بيّن الله تعالى في الآيات السابقات حقائق الإيمان والتوحيد، وذكرت كيفية خلق الله تعالى الإنسان وتطوره في رحم أمه، وأثبتت أن الإله الحق هو واهب الحياة وسالبها والمبرم لما يشاء في لحظة بإرادة كن فيكون، بعد كل هذا لما لم تؤمن قلوب هؤلاء ولم يذعنوا للحق الواضح وبقوا في جدلهم العقيم، عادت الآيات إلى ذم المجادلين في آيات الله والتعجيب من أحوالهم الشنيعة وآرائهم الفاسدة، والتمهيد لما يعقبه من بيان عظيم جرمهم بتكذيبهم بالقرآن وسائر الكتب والشرائع، وترتيب الوعيد على ذلك، فعجّبت الآية رسول الله ﷺ من صرف الذين يجادلون في آيات الله عن الحق، وبيّنت أنهم سيعلمون الحقّ عندما يعذبون في الآخرة ويرون ما أدى إليه نكرانهم للحق، وذكرت أن استحقاقهم العذاب بسبب فرحهم في الأرض ومرحهم بغير الحق، ففهمنا علة جديدة من علل جدال الكافرين، وهي الفرح والمرح بغير الحق، وكان السياق قد ذكر من قبل الدنيا والإسراف والارتياب والتكبر والجبروت.[1]

قال ابن عرفة: "لما تضمن الكلام السابق التنبيه على كمال الله تعالى بالقدرة، وأخرج عالم الإنسان من العدم للوجود، وتصويره ونقله من حال إلى حال، ثم نقله إلى حالة العدم، واتصافه بالحياة والوحدانية عقّبه بذم حالة المجادلين في آيات الله مع وضوحها، وآيات الله إما القرآن وإما المعجزات"[2].

وقال سيد قطب: "أمام نشأة الحياة البشرية، وفي ظل مشهد الحياة والموت، وحقيقة الإنشاء والإبداع، يبدو الجدال في آيات الله مستغربا مستنكرا ويبدو التكذيب بالرسل عجيبا نكيرا، ومن ثم يواجهه بالتهديد المخيف في صورة مشهد من مشاهد القيامة العنيفة: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ ... ﴾ إلى قوله: ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾"[3].

وقال الزحيلي: "الحياة الإنسانية إما أن تزدان وتسمو بمواقف الحق والجرأة والإيمان، وإما أن تهبط وتنحدر بمواقف الباطل والكفر والخذلان، والناس بين هذين الموقفين في مرصد التاريخ، فإن كانوا من أصحاب الموقف الأول، خلّد التاريخ ذكرهم، وكانوا أسوة الأجيال، وإن كانوا من أصحاب الموقف الثاني طواهم التاريخ، ولم يُذكروا إلا للعبرة والشماتة، وهكذا كان المعارضون لدعوة النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم

---

١) انظر: غرائب القرآن للنيسابوري (٤٣/٦). والأساس في التفسير لسعيد حوّى (٤٩٨٣/٩). وتفسير المراغي (٩٣/٢٤). والتفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم لجامعة الشارقة، بإشراف د. مصطفى مسلم (٥٩١/٦).

٢) تفسير ابن عرفة (٤٠١/٣).

٣) في ظلال القرآن (٣٠٩٦/٥).

ورسالته عبرة للتاريخ، فإنهم جادلوا بالباطل في شأن الرسالة النبوية والكتاب الذي جاء به، وكذبوا بهما، فاستحقوا ويلات العذاب، كما تصف هذه الآيات الشريفة"[1].

ومناسبة أخرى: أنه بعد استنفاد الجهد في بيان حجج الحق وبراهين التوحيد ومقابلة المشركين كل ذلك بالتكذيب والجحود والإعراض، ساق الله تعالى بعد ذلك ما يسلّى النبي ﷺ عما أصابه من المشركين، بأن بيّن له سوء عاقبتهم يوم القيامة، وسيأمره بالصبر على كيدهم في المقطع الآتي، ويبشره بأن العاقبة ستكون له ولأتباعه.[2]

وقال دروزة: "الآيات كما هو المتبادر تعقيب على تلك السلسلة القوية الرائعة المملوءة بالشواهد العقلية والقلبية على عظمة الله وآياته وربوبيته وقدرته التي جاءت في صدد المشهد الجدلي الحجاجي. والإنذار والوصف اللذان احتوتهما الآيات قويان رهيبان من شأنهما إثارة الرعب والندم والارعواء، وهو مما استهدفته الآيات كما هو المتبادر، ولعل فيها كذلك تطمينا للنبي ﷺ والمؤمنين وتسلية لهم بما سوف يكون من مصير المكذبين المكابرين وحسرتهم وندمهم"[3].

١) التفسير الوسيط (٢٢٨٥/٣).

٢) انظر: التفسير الوسيط لطنطاوي (٣٠٩/١٢).

٣) التفسير الحديث (٣٩٤/٤).

المطلب الثالث: التناسب بين الآيات والجمل والكلمات:

١) قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴾: لما أخبر تعالى في الآية السابقة قدرته على ما يريد بـ(كن فيكون)، وعُلم منه أنه لا كلفة عليه سبحانه في شيء من الأشياء بهذه الأمور المشاهدة في أنفسهم وفي الآفاق، أنتج التعجب من حالهم لمن له الفهم الثاقب والبصيرة الوقادة، فلذلك قال لافتاً الخطاب إلى أعلى الخلق ﷺ؛ لأن ذم الجدال بالباطل من أجلّ مقصود هذه السورة، فعادت الآيات إلى ذم المجادلين في آيات الله بالباطل والتعجيب من انصرافهم وانحرافهم عن دلائل الحق بلا حجة يوردونها، مع تعاضد الدواعي إلى الإقبال عليها وانتفاء الصوارف عنها بالكلية، ثم أتبع هذا التعجيب بذكر وعيدهم، فالآية مستأنفة المراد منها التعجيب من حال انصراف المجادلين عن التصديق بعد تلك الدلائل البيّنة الظاهرة، التعجيب من أحوالهم الشنيعة وآرائهم الركيكة، والتمهيد لما يعقبه من بيان تكذيبهم بالقرآن وبسائر الكتب والشرائع، وترتيب الوعيد على ذلك.[١]

قال ابن عاشور: "أي: أرأيت عجيب انصرافهم عن التصديق بالقرآن بصارف غير بيّن منشؤه، ولذلك بني فعل ﴿يُصْرَفُونَ ﴾ للنائب؛ لأن سبب صرفهم عن الآيات ليس غير أنفسهم.

ويجوز أن تكون ﴿ أَنَّىٰ ﴾ بمعنى (أين)، أي: ألا تعجب من أين يصرفهم صارف عن الإيمان حتى جادلوا في آيات الله مع أن شبة انصرافهم عن الإيمان منتفية بما تكرر من دلائل الآفاق وأنفسهم وبما شاهدوا من عاقبة الذين جادلوا في آيات الله ممن سبقهم .... وبناء فعل ﴿يُصْرَفُونَ ﴾ للمجهول على هذا الوجه للتعجيب من الصارف الذي يصرفهم وهو غير كائن في مكان غير نفوسهم"[٢].

وهذا آخر موضع من المواضع الخمسة التي يذكر فيه ذم المجادلة، وليس في ذلك تكرار محض، بل كل موضع لإفادة معنى مناسب به، فإما لتعداد المجادلين بأن يكون في أقوام مختلفة، أو الجدال يكون في آيات مختلفة، أو لبيان صفات لازمة للمجادلين، أو صفات كانت السبب في نشوء الجدال لديهم، وهذه الآية -كما سبق- لبيان تكذيبهم بكل القرآن وبسائر الكتب والشرائع وترتيب الوعيد على ذلك وبيان نهاية وعاقبة جدالهم، كما أن ما سبقها من قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ... ﴾

---

١) انظر: مفاتيح الغيب للفخر الرازي (٥٣٢/٢٧). والبحر المحيط لأبي حيان (٢٧١/٩). وغرائب القرآن للنيسابوري (٤٣/٦). ونظم الدرر للبقاعي (١١٢/١٧). وإرشاد العقل السليم لأبي السعود (٢٨٤/٧). والتحرير والتنوير لابن عاشور (٢٠٠/٢٤).

٢) التحرير والتنوير (٢٠١/٢٤).

غافر:٥٦، كانت لبيان الباعث الحامل لهم على الجدال، وبيان ابتناء جدالهم على مبنى فاسد لا يكاد يدخل تحت الوجود كالأمنية الفارغة، فلا تكرار محض في ذكر المجادلين.[١]

٢) قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِٱلۡكِتَٰبِ ﴾: لما ذكر انصراف المجادلين عن الدلائل بغير صارف حقيقي، وصفهم بما يزيد في التعجيب من شدة جهلهم وتعاظم عماهم، فذكر أنهم انصرفوا بدلا عن التصديق بالقرآن المعجز إلى التكذيب به.[٢]

٣) قوله تعالى: ﴿ وَبِمَآ أَرۡسَلۡنَا بِهِۦ رُسُلَنَاۖ ﴾: لما كان التكذيب بالقرآن تكذيباً بجميع الكتب والرسالات الإلهية عطف على التكذيب بالقرآن التكذيب بما أرسل به الرسل، وهو يحتمل ثلاثة أمور:

-يحتمل أن يراد به أمرا مشتركا بين جميع الرسل كالإيمان بالبعث، وتوحيد الله، فهم يكذبون بيوم البعث، ويكذبون بالتوحيد.

-ويحتمل أن يراد به التكذيب بكتب الله السابقة المنزلة على رسل الله، فهم يكذبون بالإسلام وبجميع الأديان.

-ويحتمل أن يراد بالعطف التوكيد، ويكون المراد بقوله ﴿رُسُلَنَاۖ ﴾ هو النبي محمد ﷺ، ويكون في هذا العطف فائدة زائدة على ما في المعطوف عليه وهي الإشارة إلى ما جاء به الرسول ﷺ من المواعظ والإرشادات الكثيرة التي ليست من القرآن.[٣]

٤) قوله تعالى: ﴿ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴾: هذا تهديد شديد ووعيد أكيد، لما ذكر كفر المجادلين وتكذيبهم فرّع عليه وعيدهم وتهديدهم بما سيلقونه يوم القيامة فسوف يجدون العذاب الذي كانوا يجادلون فيه فيعلمونه علم عيان بعدما علموه علم خبر.[٤]

---

١) انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي (٦٣/٥). وإرشاد العقل السليم لأبي السعود (٢٨٤/٧).

٢) انظر: بحر العلوم للسمرقندي (٢١٣/٣). ونظم الدرر للبقاعي (١١٢/١٧).

٣) انظر: بحر العلوم للسمرقندي (٢١٣/٣). ونظم الدرر للبقاعي (١١٣/١٧). والتحرير والتنوير لابن عاشور (٢٠١/٢٤).

٤) انظر: تأويلات أهل السنة للماتريدي (٥٠/٩). وتفسير القرآن العظيم لابن كثير (١٥٧/٧). والتحرير والتنوير لابن عاشور (٢٠١/٢٤).

قال ابن عاشور: "عبّر عن وجدانهم العذاب بالعلم به بمناسبة استمرارهم على جهلهم بالبعث وتظاهرهم بعدم فهم ما يقوله الرسول ﷺ، فأنذروا بأن ما جهلوه سيتحققونه يومئذ، كقول الناس: ستعرف منه ما تجهل"[1].

٥) قوله تعالى: ﴿ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ﴾: لما أجمل تهديدهم ووعيدهم بالعذاب القادم أردفه بوصف كيفية عقابهم وما سينزل بهم، ففصّل لهم وذكر مضمون التهديد الشديد والوعيد الأكيد الذي من جملته القيود الغليطة والسلاسل المتينة التي تكون في أعناقهم وأيديهم وأرجلهم، يسحبون ويجرون بها بعنف في الحميم، وهو الماء الذي بلغ حرّه منتهاه، جمعا لهم بين الإيلام والإهانة.[2]

قال سيد قطب: "يعرض ماذا سوف يعلمون.. إنها الإهانة والتحقير في العذاب، لا مجرد العذاب"[3].

واجتمعت (سوف) وهي لما يستقبل، مع (إذ) وهي لما مضى، وهذا لا يستقيم إذ هو في معنى قولك: سوف أصوم أمس، والجواب: أن الأمور المستقبلة لما كانت في أخبار الله تعالى متيقنة مقطوعا بها عبّر عنها بلفظ ما كان ووجد، والمعنى على الاستقبال، فأفعال الله جلّ ذكره بعباده في معادهم كالكائنة الحالة بهم لصحة وقوع ذلك وكونه، ولا يجوز هذا المعنى إلا من الله جلّ ذكره، لأنه يعلم ما يكون في غد كعلمه بما كان في أمس.[4]

٦) قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴾: لما ذكر ما يسقون فيها ويصلون وهو الحميم، ذكر ما يحرقون به، فتملأ بهم النار كما يملأ التنور بالحطب، وهذا ارتقاء في وصف التعذيب الذي أُجمل، وذلك أن احتراقهم بالنار أشد في تعذيبهم من سحبهم على النار، والسحر بالنار حاصل عقب السحب سواء كان

---

١) انظر: التحرير والتنوير لابن عاشور (٢٠٢/٢٤).

٢) انظر: بحر العلوم للسمرقندي (٢١٣/٣). ومفاتيح الغيب للفخر الرازي (٥٣٢/٢٧). ونظم الدرر للبقاعي (١١٣/١٧). والتحرير والتنوير لابن عاشور (٢٠٣/٢٤). والتفسير المنير للزحيلي (١٦٢/٢٤).

٣) في ظلال القرآن (٣٠٩٦/٥).

٤) انظر: الهداية إلى بلوغ النهاية لمكي بن أبي طالب (٦٤٦١/١٠-٦٤٦٢). والكشاف للزمخشري (١٧٨/٤).

بتراخ أم بدونه، أو أنهم يعذبون مرة بالسحب في الماء الشديد الحرارة ومرة بالنار فيكون المراد بيان أنهم يعذبون بأنواع متعددة من العذاب ظاهرا وباطنا وينقلون من لون الى لون.[١]

٧) قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾: لما ذكر الله جانبا من العذاب والإيلام الجسدي أردفه ببيان جانب من العذاب الباعث للحيرة والحسرة والندم، "وبينما هم في هذا العذاب المهين يوجه إليهم التبكيت والترذيل والإحراج والإعنات"[٢]، ولما كان المدعُوُ إنما يُدّخَرُ لأوقات الشدائد أخبر أنهم "يوقفون يوم القيامة من جهة التوبيخ والتقريع"[٣] ليُسألوا عن أصنامهم ومعبوداتهم من دون الله، أين هم وأين نفعهم لهم؟!

وابتدأت الآية بـ (ثم) التي هي للتراخي، ويجوز أن يكون للتراخي الزمني، فيكون هذا الاستفهام كترتيب الآيات وهم في العذاب بعد الجر والسجر، وبعد أن طال عذابهم، وبلغ منهم كل مبلغ، ولم يجدوا ناصراً يخلصهم ولا شافعاً يشفع لهم، حينها يقال لهم توبيخا وتنديما أين شفعاؤكم من دون الله يخلصوكم مما أنتم فيه أو يخفف عنكم شيئا من العذاب؟!

ويجوز أن يكون (ثم) للتراخي الرتبي، ويكون هذا الاستفهام قبل دخول النار، بدليل أن مما وقع في آخر هذا قوله: ﴿ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ ﴾، ودخول أبواب جهنم يكون قبل السحب في حميمها والسجر في نارها، ويكون هذا القيل ارتقاء في تقريعهم وتوبيخهم على ما كان منهم في الدنيا من الكفر بالله وطاعة الشيطان، وإعلان لخطل آرائهم بين أهل المحشر وهو أشد على النفس من ألم الجسم في حينه، ولأن هذا القول مقدمة لتسليط العذاب عليهم لاشتماله على بيان سبب العذاب من عبادة الأصنام وازدهائهم في الأرض بكفرهم ومرحهم، وهو أيضا ارتقاء في وصف أحوالهم الدالة على نكالهم، إذ ارتقى من صفة جزائهم على إشراكهم -وهو شيء غير مستغرب ترتبه على الشرك- إلى وصف تحقيرهم آلهتهم التي كانوا يعبدونها، وذلك غريب من أحوالهم، وأشدُّ دلالة على بطلان إلهية أصنامهم، وهو المقصد المهم من القوارع التي سلطت عليهم في هذه السورة.[٤]

---

١) انظر: الهداية إلى بلوغ النهاية لمكي بن أبي طالب (٦٤٦٥/١٠). وغرائب القرآن للنيسابوري (٤٣/٦). وروح البيان لإسماعيل حقي (٢١١/٨). وروح المعاني للألوسي (٣٣٨/١٢). والتحرير والتنوير لابن عاشور (٢٠٣/٢٤).

٢) في ظلال القرآن لسيد قطب (٣٠٩٧/٥).

٣) البحر المحيط لأبي حيان (٢٧٢/٩).

٤) انظر: جامع البيان للطبري (٤١٦/٢١). ونظم الدرر للبقاعي (١١٥/١٧-١١٦). والتحرير والتنوير لابن عاشور (٢٠٣/٢٤-٢٠٤).

٨) قوله تعالى: ﴿قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا﴾: لما سئلوا عن أصنامهم ابتدروا بالجواب قبل انتهاء المقالة طمعا في أن ينفعهم الاعتذار، فقالوا بصيغة الماضي للدلالة على التحقق بأن أصنامهم تلفت وهلكت وذهبت عنهم وتركتهم في العذاب، فالجملة معترضة في أثناء القول الذي قيل لهم.[١]

٩) قوله تعالى: ﴿بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُواْ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا﴾: لما أجابوا على البداهة بأن أصنامهم غابت وتاهت وعدلت عنهم وتركتهم في هذا البلاء، اضطربوا وفزعوا وانتبهوا أنها لا تفيدهم شيئا إن غابت وإن حضرت، فلما تبيّن لهم ما كانوا فيه من الضلالة والجهالة أضربوا عن قولهم: ﴿ضَلُّواْ عَنَّا﴾ وقالوا: ﴿بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُواْ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا﴾ أي لم نكن في الدنيا ندعو شيئا يغني عنّا، فنفي دعاء شيء هنا راجع إلى نفي دعاء شيء يعتد به، إذ ليس المعنى على إنكار أن يكونوا عبدوا شيئا لمنافاته لقولهم: ﴿ضَلُّواْ عَنَّا﴾ المقتضي الاعتراف الضمني بعبادتهم، بل هو اعتراف بأن عبادتهم الأصنام كانت باطلة هباء بلا طائل.[٢]

ويحتمل على قول كثير من المفسرين أن يكون قولهم هذا إنكار لعبادة الأصنام بعد الاعتراف بها لما رأوا أن صدقهم قد أوجب اعترافهم بالشرك، فدعاهم اضطرابهم من الرعب ومن رداءة مكرهم ورذالة طباعهم إلى الكذب، ظانين أن ذلك ينفعهم كما كان ينفعهم عند المؤمنين في دار الدنيا، فتكون الآية من نحو قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾﴾ الأنعام: ٢٣.[٣]

١٠) قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾: على إثر جوابهم البائس يجيء هذا التعقيب العام معترضا بين أجزاء القول الذي يقال لهم مبالغة في توبيخهم وتعييرهم، يفيد تشبيه إضلال جميع الكافرين بإضلاله هؤلاء الذين يجادلون في آيات الله، والتشبيه كناية عن كون إضلال الذين يجادلون في آيات الله بلغ قوة نوعه بحيث ينظر به كل ما خفي من أصناف الضلال، وهو كناية عن كون مجادلة هؤلاء في آيات الله أشد الكفر.[٤]

---

١) انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٣٣٣/١٥). والبحر المحيط لأبي حيان (٢٧٢/٩). وإرشاد العقل السليم لأبي السعود (٢٨٥/٧). والتحرير والتنوير لابن عاشور (٢٠٤/٢٤).

٢) انظر: جامع البيان للطبري (٤١٦/٢١). وإيجاز البيان لمحمود النيسابوري (٧٢٧/٢). والجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٣٣٣/١٥). والبحر المحيط لأبي حيان (٢٧٢/٩). وفتح القدير للشوكاني (٥٧٥/٤). والتحرير والتنوير لابن عاشور (٢٠٤/٢٤-٢٠٥).

٣) انظر: نظم الدرر للبقاعي (١١٦/١٧). والتحرير والتنوير لابن عاشور (٢٠٥/٢٤).

٤) انظر: نظم الدرر للبقاعي (١١٧/١٧). والفواتح الإلهية للشيخ علوان (٢٦٩/٢). وفي ظلال القرآن لسيد قطب (٣٠٩٧/٥). والتحرير والتنوير لابن عاشور (٢٠٥/٢٤-٢٠٦).

وكذلك هو تشبيه لضلال آلهة الكافرين عنهم بضلالهم عن آلهتهم، حتى لو طلبوا الآلة أو طلبتهم الآلهة لم يتصادفوا.[1]

وكذلك يفيد بيانا لصورة ضياعهم عن حجتهم وتخبطهم فيها وهم الذين كانوا من قبل يجادلون في آيات الله بفصاحة وبلاغة، فكل هذا ضلّ عنهم فلا يستطيعون تركيب حجة لأنفسهم اليوم.

١١) قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴾: تكملة القيل الذي يقال لهم في موقف السؤال إشارة إلى ما هم فيه من العذاب وبيان لسببه، فيوجه إليهم التأنيب الأخير، ويقال لهم ذلكم العذاب الأليم وتلكم المهانة الشديدة مسبّبٌ عن فرحكم ومرحكم اللذين كانا لكم في الدنيا، تفرحون بما يسركم من الباطل وتزدهون به وتأشِرون وتبطرون وتظهرون السرور بفعل المعاصي، فالسارق يفرح بسرقته، والزاني يفرح بزناه، والباغي يفرح ببغيه، والظالم يفرح بظلمه، ومن آثار فرحهم بالباطل تطاولهم على الرسول ﷺ، ومن المرح بالباطل استهزاؤهم بالرسول ﷺ والمؤمنين، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ۝٣٠ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ۝٣١ ﴾ المطففين: ٣٠-٣١.[2]

١٢) قوله تعالى: ﴿ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾: لما سمعوا التقريع والتوبيخ وأيقنوا بانتفاء الشفيع، ترقبوا ماذا سيؤمر به في حقهم، فقيل لهم بعد تفضيحهم على رؤوس الاشهاد ﴿ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ ﴾ السبعة المقسومة لكم، فأين إذن كان السحب في السلاسل والأغلال، وكان الماء الحار والنار؟! يبدو أنها كانت مقدمة للدخول في جهنم للخلود.

أو أن هذا قد قيل لهم قبل هذه المحاورة في أول الأمر، وتكون المخاطبات السابقة إنما حدثت بعد دخولهم أبواب جهنم، وفي الوقت الذي فيه الأغلال في أعناقهم يسحبون في الحميم ويسجرون في النار.[3]

---

١) انظر: الكشاف للزمخشري (١٧٩/٤).

٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٣٣٣/١٥). وفي ظلال القرآن لسيد قطب (٣٠٩٧/٥). والتحرير والتنوير لابن عاشور (٢٠٦/٢٤). وأوضح التفاسير لمحمد بن الخطيب (٥٨٠/١).

٣) انظر: المحرر الوجيز لابن عطية (٥٧٠/٤). والفواتح الإلهية للشيخ علوان (٢٦٩/٢). وفي ظلال القرآن لسيد قطب (٣٠٩٧/٥). والتحرير والتنوير لابن عاشور (٢٠٦/٢٤).

١٣) قوله تعالى: ﴿ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾: لما أدخلوا أبواب جهنم بصفة الخلود فيها فرّع عليه هذا الذم لمصيرهم، وأوثر لفظ مثوى دون (مدخل) المناسب لقوله: ﴿ ٱدْخُلُوٓا۟ ﴾؛ لأن (المثوى) أدلّ على الخلود فهو أولى بمساءتهم.[1]

ولما كان السياق لذم الجدال، وكان الجدال إنما يكون عن الكبر، عدل عن ضميرهم إلى الاسم الظاهر وهو ﴿ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ للإشارة إلى أن من أسباب وقوعهم في النار تكبرهم على الرسل، فعن الكبر نشأت هذه المهانة، وجزاء على الكبر كان هذا التحقير، وليكون لكل موصوف بالكبر حظّ من استحقاق العقاب إذا لم يتب ولم تغلب حسناته على سيئاته إن كان من أهل الإيمان.[2]

والمتكبرون هم المخاطبون في الآية المتقدمة أنهم جادلوا في آيات الله عن كبر في صدورهم في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ﴾ غافر:٥٦ ، ولأن تكبرهم ناشئ عن فرحهم بالباطل، فجمع الله تعالى أهم أسباب ودواعي الجدال في هذه الآية. فهذا الذي ذكرته الآيات هو جزاء المجادلين في آيات الله بغير حق ولا حجة.

١٤) القارئ لهذه الآيات من المؤمنين تتمكن منه الرهبة والخشية فكيف بمن تخاطبهم الآيات من المتلبسين بأسباب هذا الجزاء، إنّ هذا ليردع كل عاقل عن اقتحام أسباب هذا العذاب، وإنّ هذا الترهيب العميق للمجادلين لهي دعوة بعد دعوة إلى أن يكفوا أيديهم عن أهل الإيمان المستضعفين في الأرض ويذروا الكبر بلا أهلية له أو استحقاق، والآيات تحذر وتهدد المشركين لتضعف من قوتهم على الباطل ولتعزز من قوة المؤمنين بما لديهم من الحق، ولذا الآيات التي تعقب هذا المقطع تأمر بالصبر وتؤكد على النصر، لتبشر المؤمنين بمثل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ آل عمران: ١٣٩، وهذا يبين التناسق الجميل بين مقاطع السورة الكريمة.

---

١) انظر: مفاتيح الغيب للفخر الرازي (٥٣٣/٢٧). والتحرير والتنوير لابن عاشور (٢٠٧/٢٤).

٢) انظر: جامع البيان للطبري (٤١٨/٢١). ونظم الدرر للبقاعي (١١٨/١٧). وفي ظلال القرآن لسيد قطب (٣٠٩٧/٥). والتحرير والتنوير لابن عاشور (٢٠٧/٢٤).

المطلب الرابع: التفسير الإجمالي للآيات:

بعد أن عرض الله تعالى لبعض آياته وصفاته الدالة على القدرة الكاملة على التصرف بمجرد الإرادة، دون وقت أو كلفة أو تردد أو عناء، شرعت الآيات الكريمات في مخاطبة النبي ﷺ لتعجيبه من حال المجادلين في آيات الله تعالى وهم يُصرفون عن الحق ويعدلون عن الرشد بلا أدنى دليل ينقض شيئا من آيات الله وبراهينه أو يثبت شيئا من مزاعمهم الباطلة، فهذه الحال بالفعل تقتضي الاستغراب والتعجيب، وليس هذا فحسب، بل تقتضي العذاب الشديد والعقاب الأليم المترتب على هذا الكبر الباعث على التكذيب بآيات الله تعالى المتلوة في القرآن والمنزلة على رسول الله ﷺ، والتكذيب بكل الكتب السابقة والرسالات الماضية وبمضمون جميع الرسالات الداعية إلى إخلاص العبادة لله والبراءةِ مما يُعبد من دون الله من الآلهة والأنداد والإقرارِ بالبعث بعد الممات للثواب والعقاب.

فهذه الأقوال والأفعال والاعتقادات الصادرة من هؤلاء المجادلين في آيات الله تقتضي تهديدهم أشد التهديد ليرتدع من كان في زمن الإمهال، وإلا فسيلقى عذابا أليما يوم القيامة، وحينها سوف يعلم هؤلاء الذين يجادلون في آيات الله ويكذّبون بالكتاب حقيقة ما أخبرهم به رسولهم محمد ﷺ، وصحة ما هم به اليوم مكذبون من هذا الكتاب، حين تجعل الأغلال والسلاسل في أعناقهم في جهنم وهم يجرونها، أو يجرونهم بها زبانية العذاب في الماء الحميم الذي قد انتهى حره وبلغ غايته، ثم يحرقون في النار وتوقد بهم فيصيرون حطبا لها، ثم يقال لهم توبيخا وتهكما شديدا يورثهم ألما نفسيا عميقا مضافا للألم الجسدي بل أشد منه، فيُسألون بعد عكوفهم دهرا على عبادة أصنامهم ودعائها واستقضائها الحوائج في الدنيا، يُسألون وهم في هذا الكرب الشديد: أين تلك الآلهة المعبودة من دون الله؟!، وأين تلك الأوثان التي كنتم تشركون بعبادتكم إياها؟! أين هم ينصرونكم ويغيثونكم فينقذوكم مما أنتم فيه من البلاء والعذاب، فإن المعبود يغيث من عبده وخدمه؟!

فيجيبونهم ولا جوابا لديهم، لكنّ هول الموقف وشدة العذاب يدفعهم باضطراب إلى البحث عن إجابة ربما يريدونها صادقة أملا في أن ينجيهم الصدق، أو يريدونها خادعة ظنا منهم أن الخداع مازال ينفع، أو يريدونها كاذبة ظنا منهم أن الإدانة لا تكون إلا بالاعتراف فحسب، فيجيبون على كل حال بأن معبوداتنا وآلهتنا قد غابت وتاهت وعدلت عنا، وأخذت غير طريقنا وتركتنا في هذا البلاء العظيم، بل تبيّن لنا أنّا ما كنا نعبد شيئا يعتد به له نفع أو ضر، أو ننكر أنّا كنا نعبدهم في وقت من الأوقات.

بعد هذا الجواب البائس اليائس المضطرب يعقب الله تعالى ويقرر أنه كما أضلّ هؤلاء -الذين ضل عنهم في جهنم ما كانوا يعبدون في الدنيا من دون الله من الآلهة والأوثان- آلهتُهم وأوثانُهم، كذلك يُضل الله أهل الكفر به عنه وعن رحمته وعبادته، فلا يرحمهم فينجيهم من النار، ولا يغيثهم فيخفف عنهم ما هم فيه من البلاء.

ثم يبين الله تعالى سببا جديرا بأن يلقوا به هذا المصير وينالوا به هذا الجزاء الأليم، وهو أن ما أصابكم إنما كان بسبب فرحكم الذي كنتم تفرحونه في الدنيا بغير ما أذن لكم به من الباطل والشرك والمعاصي، وبمرحكم فيها أشرا وبطرا وخيلاء، فالآن موعد أن نقول لكم ادخلوا ما تستحقونه من أبواب جهنم السبعة، فإنها بئس المثوى والمقام والمنزل لكل من تكبر في الدنيا على الله أن يوحده ويؤمن برسله.

فذكرت الآيات جزء من مصير المجادلين في آيات الله بالباطل وجانبا من عذابهم البئيس جزاء وفاقا، وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون.

المطلب الخامس: بيان ما ترشد إليه الآيات[1]:

١- التعجيب من حال المكذبين بآيات الله المجادلين فيها كيف يصرفون عن الحق بعد وضوح أدلته وقوة براهينه.

٢- بيان أن مصير الذين يجادلون في آيات الله عنادا ومغالطة وتكبرا إلى النار، ثم سيحاججهم الله يوم القيامة فيتبرؤون من شركهم ومن اللذين أشركوا، وبراءتهم تدل على أنهم حينما عاينوا الحقيقة وعرفوا أن الله هو الواحد الفاعل في الكون نسوا جميع عقائدهم حتى خُيِّل لهم أنهم لم يكونوا يشركون أصلا، فكيف يشركون وهذه الحقيقة العظمى أمامهم، فما أتفه ما أشركوا، وكيف لعاقل أن يتصور أنّ هذه الأشياء أو هؤلاء الأشخاص لهم قيمة أمام هذه الحقيقة الكبرى العظيمة.

٣- إبراز صورة واضحة للمكذبين بالآيات المجادلين لإبطال الحق وهم في جهنم يقاسون العذاب بعد أن وضعت الأغلال في أعناقهم والسلاسل في أرجلهم يسحبون في الحميم ثم في النار يسجرون.

٤- ذم الفرح بغير فضل الله ورحمته، وذم المرح بالباطل وهو أشد الفرح.

٥- ذم التكبر وسوء عاقبة المتكبرين الذين يمنعهم الكبر من الاعتراف بالحق ويحملهم على احتقار الناس وازدراء الضعفاء منهم، وكم رأينا في حياة الناس من مصائب ومشاكل لا حصر لها كان سببها الحقيقي هو الكبر المستقر في نفوس كثير من الناس -إلا من رحم الله-، فإن آفة الكبر ليست خاصة بالكافرين -وإن كانوا الأصل في هذا الباب، فلا كبر أعظم وأقبح من الكبر على الله تعالى والترفع عن عبادته والخضوع له- ولكنّه من علل النفوس التي يجب الانتباه لها وسرعة معالجتها قبل أن تودي بصاحبها إلى الهلاك والخسران -نسأل الله السلامة والعافية-.

***

---

١) انظر: أيسر التفاسير للجزائري (٥٥٣/٤). والتفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم لجامعة الشارقة، بإشراف د. مصطفى مسلم (٥٩٥/٦).

المبحث الخامس: الأمر بالصبر والتأكيد على النصر والاعتبار بمزيد من الآيات

ويشمل الآيات (٧٧-٨١)

قال تعالى: ﴿ فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ ٧٧ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا مِّن قَبۡلِكَ مِنۡهُم مَّن قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ وَمِنۡهُم مَّن لَّمۡ نَقۡصُصۡ عَلَيۡكَۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأۡتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ قُضِيَ بِٱلۡحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ٧٨ ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَنۡعَٰمَ لِتَرۡكَبُواْ مِنۡهَا وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ٧٩ وَلَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبۡلُغُواْ عَلَيۡهَا حَاجَةٗ فِي صُدُورِكُمۡ وَعَلَيۡهَا وَعَلَى ٱلۡفُلۡكِ تُحۡمَلُونَ ٨٠ وَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ فَأَيَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ٨١ ﴾.

المطلب الأول: ربط الموضوع بالمحور الأساس للسورة:

يحمل هذا المقطع في طياته أمورا ثلاثة:

أولها: أمرٌ للنبي ﷺ بالصبر ووعدٌ له بالنصر.

ثانيها: تذكيرٌ للنبي ﷺ بكوكبة رسل الله الذين هم سنته في التأييد بالمعجزات والقضاء بالحق على الأعداء.

ثالثها: استدلالات بالمزيد من آيات الله تعالى وامتنانٌ بمزيد من نعم الله وآلائه.

فالمقطع يؤدي دورا مهما مرتبطا بمحور السورة الأساسي، وذلك بدعم الرسول ﷺ في معركته مع المشركين مرة بعد مرة، ووعده بالنصر مرة بعد مرة، وتسليته بأحوال الرسل السابقين مرة بعد مرة، ليمتلئ قلب القائد ومن معه من المؤمنين ثقة وثباتا بنصر الله تعالى، وليتصاغر أمامهم كل كيد وكفر للأعداء، فإنهم ما يضرون إلا أنفسهم، ثم يزيد المشركين بدلائل أخرى على توحيد الله ليدعوهم مرة بعد مرة، ويعطيهم الفرصة مرة بعد مرة، وليرد حججهم الساقطة ويعجزهم مرة بعد مرة، لينتهي تذكيرهم بالله وآياته وآلائه بقوله تعالى: ﴿ وَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ فَأَيَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ٨١ ﴾، في حلقة أخيرة لدفع جدال المبطلين الخاسرين، وتعزيز موقف المؤمنين الصابرين.

المطلب الثاني: التناسق بين هذا الموضوع وسابقه:

قد مرّ بنا في المقاطع السابقة آياتٌ أمرت رسول الله ﷺ بالصبر والاستغفار، والتسبيح والاستعاذة، ليساعده ذلك على السير رغم مكابرة المكابرين، وأقامت الحجة على هؤلاء المكابرين في أمهات القضايا التي يكابرون فيها ويجادلون، رغبة في إبطالها، وبيّنت أن كل ما يجادلون فيه إنما هو من باب البدهيات لمن عقل أو تذكّر، فكان الكلام من أول السورة إلى هنا في تزييف طريقة المجادلين في آيات الله، حتى إذا قامت الحجة يعود السياق إلى أمر الرسول ﷺ مجددا بالصبر على أذى المشركين وتكذيبهم، ويعده بالنصر عليهم وإنزال العذاب على أعدائه، فبعد أن بيّن الله مصير المشركين وهم في النار، رجع فطمأن نبيه ﷺ بأن النصر حليفه وحليف أتباعه وحليف دعوته وما عليه إلا الصبر، وزادت الآيات لتقول له إنك لست وحدك وإنما هي كوكبة من رسل الله جاءت بما جئت به، فأهلك الله الظلمة الذين لم يؤمنوا بالرسل وانتصر لرسله وللمؤمنين.[1]

قال ابن عاشور: "قد كان فيما سبق من السورة ما فيه تسلية للنبي ﷺ على ما تلقاه به المشركون من الإساءة والتصميم على الإعراض ابتداء من قوله في أول السورة: ﴿ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ ﴿٤﴾ ﴾ غافر:٤، ثم قوله: ﴿ ۞أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ ۚ ﴾ غافر:٢١، ثم قوله: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا ﴾ غافر:٥١، ثم قوله: ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ ﴾ غافر:٥٥، الآية، ففرّع هنا على جميع ما سبق وما تخلله من تصريح وتعريض أن أمَرَ الله النبي ﷺ بالصبر على ما يلاقيه منهم، وهذا كالتكرير لقوله فيما تقدم: ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ ﴾، وذلك أن نظيره المتقدم ورد بعد الوعد بالنصر في قوله: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿٥١﴾ ﴾، ثم قوله: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ ﴿٥٣﴾ ﴾ غافر:٥٣، الآية، فلما تم الكلام على ما أخذ الله به المكذبين من عذاب الدنيا انتقل الكلام إلى ذكر ما يلقونه في الآخرة بقوله: ﴿ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ ﴾ غافر:٧٠-٧١، الآيات، ثم أعقبه بقوله: ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ۚ ﴾

---

١) انظر: الأساس في التفسير لسعيد حوّى (٤٩٨٣/٩). والتفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم لجامعة الشارقة، بإشراف د. مصطفى مسلم (٥٩٦/٦). والتفسير المنير للزحيلي (١٦٦/٢٤).

عودا إلى بدء، إذ الأمر بالصبر مفرّع على ما اقتضاه قوله: ﴿ مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ۝٤ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ ﴾غافر:٤-٥، الآيات، ثم قوله: ﴿ وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡأٓزِفَةِ إِذِ ٱلۡقُلُوبُ لَدَى ٱلۡحَنَاجِرِ ﴾غافر:١٨، ثم قوله: ﴿ ۞أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ ﴾غافر:٢١، وما بعده، فلما حصل الوعد بالانتصاف من مكذبي النبي ﷺ في الدنيا والآخرة، أعقب بقوله: ﴿ فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ ﴾ فإن مناسبة الأمر بالصبر عقب ذلك أن يكون تعريضا بالانتصار له، ولذلك فرّع على الأمر بالصبر الشرط المردد بين أن يريه بعض ما توعدهم الله به وبين أن لا يراه، فإن جواب الشرط حاصل على كلتا الحالتين، وهو مضمون ﴿فَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ ﴾ أي أنهم غير مفلتين من العقاب، فلا شك أنّ أحد الترديدين هو أن يرى النبي ﷺ عذابهم في الدنيا"[1].

وقال دروزة: المتبادر من هذه الآيات أنها استمرار للآيات السابقة في التعقيب والتطمين والتسلية، فإن مضمونها قد يلهم احتمال تضمنها ردا على تحدٍّ للكفار بدر منهم في ظروف نزول السورة باستعجال العذاب الموعود أو الإتيان بآية وهو ما تكرر منهم على ما حكته آيات أخرى، أو أن يكون فيها جواب على ما كان يقوم في ذهن النبي ﷺ أو المؤمنين من تساؤل عن موعد تحقيق وعيد الله فيهم، أو رجاء بإحداث آية تقنعهم أو ترهبهم حتى ينتهوا من موقف عنادهم وجحودهم.[2]

١) التحرير والتنوير (٢٤/٢٠٧-٢٠٨).
٢) انظر: التفسير الحديث (٤/٣٩٦).

المطلب الثالث: التناسب بين الآيات والجمل والكلمات:

١) قوله تعالى: ﴿ فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۚ ﴾: لمّا تكلم الله تعالى من أول السورة إلى هذا الموضع في تزييف طريقة المجادلين في آيات الله مرة بعد مرة، أمر في هذه الآية رسوله ﷺ بأن يصبر على إيذائهم وإيحاشهم بتلك المجادلات إلى إنجاز الوعد بالنصرة.[١]

وكذلك لمّا ذكر الله تعالى المصير الختامي والحتمي للمجادلين في آيات الله الذين كذّبوا بالقرآن وبسائر الكتب المنزلة وأنكروا يوم البعث، وكان هذا بيانا لجزائهم الأخروي، "وبعدما قد ظهر واتضح مآل حال الكفرة المستكبرين وعاقبة أمرهم"[٢]، عاد فأمر النبي ﷺ بالصبر وهو لازال في زمن المحنة والاستضعاف في الأرض، وأعاد له الوعد بالنصر "والظفر وإعلاء كلمته وإظهار دينه"[٣]، معززا في نفسه ونفوس أتباعه الثقة بالله، ورادا لشماتة أعدائه بأنه منصور على كل حال، وإتماما للتسلي.

قال البقاعي: لما ذكر عذاب المجادلين في الآيات السابقة، وكان في ذلك الجزاء أعظم الشماتة بهم، فكان فيهم أعظم التسلية لمن جادلوه وتكبروا عليه، سبّب عنه قوله: ﴿ فَٱصۡبِرۡ ﴾ أي ارتقاباً لهذه النصرة، ثم علل بقوله مؤكداً لأجل تكذيبهم بالوعد: ﴿إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۚ ﴾.[٤]

وقال الشيخ علوان: "الله لا يخلف الميعاد مطلقا، إلا ان وعده سبحانه مرهون بأجل مقدر عنده فلا تحزن من تأخير الموعود ولا تعجل بحلول الأجل المعهود"[٥].

وقد تكرر أمر النبي ﷺ بالصبر مرتين في هذه السورة، وتكرر معه التأكيد على أن وعد الله تعالى إياه حق ثابت حاصل لا محالة، ولا أحد يشك أن الوعد بالنصر كائن في الآخرة بمصير الجميع إلى الله تعالى، فيحكم عند ذلك بين الفريقين بالحق، بتخليد الكافرين في النار، وإكرام الرسول ﷺ والمؤمنين بجواره تعالى في جنات النعيم، لكن المراد بالوعد الحق بعد الأمر بالصبر هو الوعد بنصر عاجل في الدنيا مع ثبوت النصر الأخروي على كل حال، والفرق بين الآيتين أن الأولى فيها إثبات لنصر مطلق في الدنيا، وهذه الآية فيها إثبات لنصر ممتد في الدنيا، فجزء منه كائن ربما في حياته ﷺ، وجزء منه سيكون بعد وفاته ﷺ، وهذا

---

١) انظر: مفاتيح الغيب للفخر الرازي (٥٣٣/٢٧). وغرائب القرآن للنيسابوري (٤٣/٦).

٢) الفواتح الإلهية للشيخ علوان (٢٧٠/٢).

٣) البحر المحيط لأبي حيان (٢٧٤/٩).

٤) انظر: نظم الدرر (١١٩/١٧).

٥) الفواتح الإلهية (٢٧٠/٢).

النصر الذي سيكون بعد وفاته كائن في الآخرة في جميع الأحوال، ولكن أيضا يصح أن يراد بالنصر الذي سيكون بعد وفاته ﷺ ما هو كائن لأمته من النصر والفتوحات بعد وفاته ﷺ، وهو ممتد الزمن صالح لكل زمن بعد وفاته ﷺ إلى قيام الساعة في دلالة على استمرار بقاء هذا الدين إلى قرب نهاية العالم.

قال محيي الدين شيخ زاده: "المراد بالوعد تعذيب المجادلين بعذاب الآخرة، فقدّره ببيان أن تعذيبهم في حياته لا يسقط عنهم عذاب الآخرة، بل إنهم يعذبون فيها البتة سواء عذبوا في حياته أو لم يعذبوا"[1].

وأيضا في هذه الآية إخبار عن نصر يراه النبي ﷺ، فإما أن يراه في الدنيا قبل وفاته، فإن فاته أن يرى النصر في الدنيا فسوف يريه الله تعالى النصر يوم يرجع الجميع إليه سبحانه فيحكم بين الناس بالقسط والحق، ويعذّب الذين كفروا عذابا أليما شديدا، فرؤية النبي ﷺ للنصر مقصود ومحتفى به في هذه الآية.

وكذلك فإن أمره ﷺ بالصبر في المرة الأولى كان بعدما ضرب له مثلا في انتصار موسى عليه السلام على فرعون وقومه بعد وعده له بقوله: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾غافر: ٥١، فأنجز وعده ونصر موسى عليه السلام وقومه الضعفاء الغمر على فرعون أعتى الطغاة وجنوده الكثر الأشداء، فهي صورة من الصور التي تحكي علاقة الدعاة بأقوامهم ومصير الدعوة الحق.

فقال الله تعالى لرسوله ﷺ حينها: اصبر إن مصيرك كمصير موسى عليه السلام، إذ نصره الله، ومصير من كذبك وكفر بدعوتك مصير فرعون وملأه، إذ ليسوا أقوى من فرعون ولست أضعف من موسى عليه السلام وقومه.

وفي هذا المقام -الثاني- أمر الله رسوله ﷺ بالصبر ثم فصّل له عاقبة هذا النصر ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ﴾، فهو الثابت الواجب الصحيح فلا يخلف الله وعده، فإن العاقبة للدين الحق والشريعة التي تكفل لأتباعها السعادة في الحياة الدنيا وفي الآخرة، مع النعيم المقيم الذي لا يقدر قدره.

﴿ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ ﴾ من سوء العاقبة والقتل والذل، كما كان يوم بدر وفتح مكة ونفوذك في جميع جزيرة العرب، وقد لاحظ الرسول الكريم ﷺ هذا، وانتصر بنفسه في هذه المعارك التي قادها وأذلّ الشرك والمشركين ولم ينفعهم جدلهم ولا تكبرهم، والملاحظ أن هذه السورة مكية وهذه الوعود كانت والمسلمون أشد ضعفا، فأصدق الله له وعده فنصره وأعزّ جنده وأعلاه على قومه وعلى الناس، فإما هذا

---

١) حاشية محيي الدين شيخ زاده على البيضاوي (٧/٣٥٠).

-وقد حصل- ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ أي "إلى أمرنا وتعذيبنا يصيرون ويرجعون"[1]، فينصر الله دعوتك بعد وفاتك، كما هيأ الله أبا بكر رضي الله عنه خليفتك وصاحبك وأحب الناس إليك حيث أعاد الجزيرة العربية إلى الإسلام بعد أن حاول الأعراب نكث العهد والارتداد عن دين الله، ثم خرج بدعوة الله إلى العراق والشام وامتدت الفتوحات حتى قضت على عرشي كسرى وقيصر، كل ذلك في بضع سنين من وفاته ﷺ، وقد أكدّ القرآن الكريم هذه الدعوة وهذا النصر في هذه الكلمات التي تحكي النصر في حياة الرسول ﷺ وبعد موته بالنون في الجزأين من الآية ﴿نُرِيَنَّكَ﴾ و﴿نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾، ليطمئن الرسول الحبيب بأنه إما أن ينتصر وإما أن ينتصر جنوده حاملي دعوته وحماته، والله يرعاهم وإليه يرجعون في الحالتين، فالنصر حليفهم ما داموا متمسكين بشريعة الله مقاتلين لإعلاء كلمة الله، وسيهزم أعداء الرسالة ثم يحشرون إلى جهنم، ويكون النصر للنبي ﷺ وأمته عليهم في الدنيا والآخرة.[2]

٢) قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾: وهو كقوله تعالى: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾﴾ الزخرف:٤١-٤٢، لما وعد الله رسوله ﷺ بالنصر في الدنيا أخبره أنه ليس شرطا أن يكون ذلك في حياته، بل قد يرى بعضه في حياته، فإن اكتمل به النصر وإلا فسيتمه له ولأمته بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى، وفي هذا بشارة له ﷺ، وذلك أنه ما كان يحمل هما في صدره مثل همّ أمته، فطمأنه الله تعالى بأنه منصور وأمته من بعده منصورة، وهم منصورون في الدنيا، وعند الرجوع إليه في الآخرة فسينصرون مرة أخرى عليهم ويدخلهم الله دار النعيم ويدخل عدوهم دار العذاب والهوان، وهذا كله وعيد من الله عز وجل لقريش وتعزية للنبي ﷺ وتصبير له.[3]

ولسيد قطب رأي آخر في الأمر بالصبر في هذه الآية، فإنه يرى أنه أمر للنبي ﷺ بأن يعمل ويبلغ الرسالة ولا يعلق قلبه بالنتائج، فهي إلى الله وليست إليه، فعليه أن يصبر على الأذى ويجتهد في أداء الرسالة ولا يطلب شفاء صدره برؤية هلاك المستكبرين المتجبرين، عليه أن يعمل وكفى، وأن يؤدي واجبه ويمضي، فقال معلقا على هذا المعنى: "إنه لأمر شاق على النفس البشرية، أمر يحتاج إلى الصبر على أشواق القلب

---

١) المحرر الوجيز لابن عطية (٥٧٠/٤).

٢) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير (١٥٨/٧). ونظم الدرر للبقاعي (١٢٠/١٧). والتفسير القرآني للقرآن لعبد الكريم الخطيب (١٢٧١/١٢). والتفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم لجامعة الشارقة، بإشراف د. مصطفى مسلم (٥٩٤/٦-٥٩٥).

٣) انظر: الهداية إلى بلوغ النهاية لمكي بن أبي طالب (٦٤٦٦/١٠). ونظم الدرر للبقاعي (١٢٠/١٧). والأساس في التفسير لسعيد حوّى (٤٩٨٦/٩).

البشري العنيفة، لعله من أجل هذا كان التوجيه إلى الصبر في هذا الموضع من السورة، فلم يكن هذا تكرارا للأمر الذي سبق فيها، إنما كان توجيها إلى صبر من لون جديد، ربما كان أشق من الصبر على الإيذاء والكبر والتكذيب؟! إن احتجاز النفس البشرية عن الرغبة في أن ترى كيف يأخذ الله أعداءه وأعداء دعوته، بينما يقع عليها العداء والخصومة من أولئك الأعداء، أمر شديد على النفس صعيب، ولكنه الأدب الإلهي العالي، والإعداد الإلهي لأصفيائه المختارين، وتخليص النفس المختارة من كل شيء لها فيه أرب، حتى ولو كان هذا الأرب هو الانتصار من أعداء هذا الدين!"[1].

٣) قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴾: لما أمر الله تعالى نبيه بالصبر ووعده بالنصر، قدّم له جماعة رسل الله أجمعين، فإنهم تسلية وأسوة له ﷺ في الصبر والتماسك، فقد أُذوا وكُذبوا، وليس فيهم أحد أعطاه الله آيات ومعجزات إلا وقد جادله قومه فيها وكذبوه فيها وجرى عليهم من الهم ما يقارب ما جرى على النبي ﷺ فصبروا، فعلى النبي ﷺ أن يصبر كما صبروا.

وكذلك فقد كان من جملة الأمور التي يحتاج النبي ﷺ للصبر عليها هو ما كان يحصل من المشركين المجادلين من صور المجادلة القبيحة بتظاهرهم بعدم الاقتناع بمعجزة القرآن، ويقترحون على الأنبياء إظهار المعجزات الزائدة على قدر الحاجة على سبيل العناد والتعنت كيفما يشاؤون بقصد إفحام الرسول ﷺ، فأخبره الله تعالى بأن أمر الآيات والمعجزات ليس إليه ولا إلى أحد من الرسل، بل يأتي بها الله تعالى على وفق مراده وحكمته.

وكذلك في الآية رد على العرب الذين قالوا إن الله لا يبعث بشرا رسولا واستبعدوا ذلك، وأنكروا نبوة محمد ﷺ وقالوا إنه كاذب على الله تعالى، وردّ كذلك على تحديات المشركين بإنزال العذاب الذين أُوعدوا به، فقد كانوا يقولون، فيما حكاه القرآن الكريم عنهم: ﴿ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾الأنفال:٣٢.

---

١) في ظلال القرآن (٥/٣٠٩٧-٣٠٩٨).

وكذلك في الآية دفع لما يساور بعض نفوس المؤمنين من قلق، حتى إنهم ليقولون تحت وطأة البلاء الواقع عليهم من المشركين: ﴿ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ﴾ البقرة:٢١٤.

وكذلك لما انقضى تفصيل إبطال ضلال المجادلين بالأدلة البينة، والتذكير بالنعمة، والإنذار بالترهيب والترغيب، وضرب الأمثال بأحوال الأمم المكذبة، ثم بوعد الرسول ﷺ والمؤمنين بالنصر وتحقيق الوعد، أعقب ذلك بتثبيت الرسول ﷺ بأنه ما كان شأنه إلا شأن الرسل من قبله أن لا يأتوا بالآيات من تلقاء أنفسهم ولا استجابة لرغائب معانديهم، ولكن الآيات عند الله يظهر ما شاء منها بمقتضى إرادته الجارية على وفق علمه وحكمته، فما لم يكن في إظهارها صلاح لا جرم أنه لا يظهره، وفي ذلك تعريض بالرد على المجادلين في آيات الله، وتنبيه لهم على خطأ ظنهم أن الرسل بعثوا لمناقشة المعاندين.

ويتبيّن من هذا أن المقصود الأهم من هذه الآية هو قوله ﴿ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾، وهو يشعر أن الكافرين يقترحون على رسول الله ﷺ الآيات، ولذلك فإن الله عز وجل يلفت النظر فيما سيأتي إلى آية من آياته في الكون. وعطفها على الجملة التي قبلها بالواو دون الفاء يفيد استقلال هذه الجملة بنفسها لما فيها من معنى عظيم حقيق بأن لا يكون تابعا لغيره، ويكتفى في الدلالة على ارتباط الجملتين بموقع إحداهما من الأخرى، وأما قوله: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ ﴾ إلخ فهو كمقدمة للمقصود لتأكيد عموم قوله: ﴿ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾، وهو مع ذلك يفيد بتقديمه معنى مستقلا من رد مجادلتهم، فإنهم كانوا يقولون: ﴿ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ ﴾ الأنعام:٩١، ويقولون: ﴿ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ﴾ الأنعام:٨، فدمغت مزاعمهم بما هو معلوم بالتواتر من تكرر بعثة الرسل في العصور والأمم الكثيرة، فالرسل كثير، وقد حصل من العلم ببعضهم وبعض أممهم ما فيه كفاية لتحصيل العبرة في الخير والشر، والترغيب والترهيب.[1]

وقال البقاعي: من هذه الآية أخذ سبحانه في ردّ مقطع السورة على مطلعها، فهذه الآية ناظرة إلى قوله تعالى: ﴿ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ﴾ غافر:٥، وقوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ ﴾ ناظر إلى قوله تعالى: ﴿ وَجَٰدَلُواْ بِٱلْبَٰطِلِ ﴾ غافر:٥، وقوله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾

١) انظر: المحرر الوجيز لابن عطية (٥٧٠/٤). ومفاتيح الغيب للفخر الرازي (٥٣٣/٢٧). والبحر المحيط لأبي حيان (٢٧٤/٩). وغرائب القرآن للنيسابوري (٤٤/٦). والتفسير القرآني للقرآن لعبد الكريم الخطيب (١٢٧٢/١٢). والتحرير والتنوير لابن عاشور (٢٠٩/٢٤-٢١٠، ٢١٢). والأساس في التفسير لسعيد حوّى (٤٩٨٦/٩).

غافر:٨٢، الآتي ناظر إلى قوله تعالى: ﴿فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ۝٥﴾غافر:٥، وهذا وما بعده مما اشتمل عليه من الحكمة والقدرة ناظر إلى الثلاث الآيات الأول.[١]

ويبدو -والله أعلم- أن الله اختار مجموعة من الرسل وقصّ خبرهم على الرسول ﷺ وترك الآخرين لحكمة، فإن قصص الرسل مع مجتمعاتهم فيها عبرة ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ يوسف:١١١، ولا تكون القصة عبرة إلا إذا كانت وصفا لحالة إنسانية قابلة للتكرار.

فاختار الله تعالى هذه القصص التي تحكي صورا لمجتمعات إنسانية منحرفة أرسل لها الله الرسل لإصلاحها، وهذه المجتمعات التي قص الله أخبارها للرسول ﷺ تمثل جميع أنواع الانحرافات التي قد تقع في المجتمع الإنساني، وهي أيضا نموذج لكل ما يلاقي الرسول ﷺ والدعاة من الفتنة والعنت والتكذيب، ويحكي القرآن الكريم علاج الرسل لها، وردود الفعل الذي تحدثه الدعوة فيها، وانتصار الحق في آخر المطاف، على أن القاسم المشترك فيها جميعا هو فساد العقيدة.

فنظرة فاحصة لهذه القصص نجدها تمثل جميع أنواع الانحرافات في المجتمع الإنساني الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وكل ما يندرج تحتها وبسببها من أحوال وصور.

فالقرآن الكريم قصّ لنا هذه الانحرافات وعلاج الرسل لها ومجابهتهم من قبل المستفيدين من هذه الانحرافات، فمثلا قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام ومجتمعه الذي يعبد النجوم، وصالح عليه السلام وتنفذ مراكز القوى والعصابات، وشعيب عليه السلام والغش في التعامل المالي، وقارون وتمركز المال عنده وإفقار المجتمع، وموسى عليه السلام والطغيان السياسي وتأليه الحكام لأنفسهم، وقصة لوط عليه السلام والانحراف الجنسي، وهكذا في جميع قصص القرآن الكريم.

ولذا فإن الله عز وجل ذكر ما فيه الكفاية لرسم صورة صادقة للمجتمع الإنساني وعلاج الخلل الذي فيه مما يتكرر حدوثه في المجتمعات عبر الزمن ومما يستفيد منه الدعاة إلى يوم القيامة، وهذه السورة تحكي لنا حالة من المغالطات والنكوص والعناد غير المبرر للحق والخير والهدى.

وقد مرت بنا صور لهذا الجدل وهذه المغالطات، وفي هذه الآيات صورة من صور المغالطات، فإن المعاندين حينما لا يجدون حجة على الرسول ولا يستطيعون رد بيّنات الله التي أعطاه إياها أو رافقه بها

١) انظر: نظم الدرر (١٧/١٢٢-١٢٣).

يلجؤون إلى طلب معجزات ليس لها مبرر ولا سبب، كما طلبوا من نبينا ﷺ أن يكون له بيت من زخرف، وأن يأتي مَلَكٌ معه يصدّقه، وأن ينزّل لهم كتاب في قرطاس، وهم جميعا يعلمون أنها لمجرد المغالطة.

فيجيب الله عز وجل عن نبيه ﷺ ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ غافر:٧٨، فلم يكن النبي هو الذي يختار المعجزة، وإنما هي من الله أصلا، والله يعلم ماذا يريد المجتمع وماذا يحتاج وماذا ينفع الدعاة، وقد لا يعلم النبي حقيقة المعجزة، كما خاف موسى عليه السلام من معجزته، ولذا فإن معجزة الرسول محمد ﷺ القرآن الكريم، وفيها قال ﷺ: ((أرجو أن أكون أكثرهم تابعا))[1]، ولو نظرنا إلى المجتمعات الإنسانية نجد المسلمين أضعاف أضعاف كل دين من الأديان الراهنة.[2]

وقوله: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِىَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾﴾ هذا "وعيد ورد عقيب اقتراح الآيات"[3] لبيان أن الآيات القاهرة إذا نزلت فإنها تفصل بين المؤمنين والكافرين فلا يكون إمهال بعد ذلك، بل يجيء عندها قضاء الله بين الأنبياء وأممهم بالعدل، لأنه يقع الاضطرار عندها، فينجي الله رسله والمؤمنين، ويهلك المبطلين المعاندين المكذبين بآيات الله من غير إمهال، كما أظهر الله الناقة آية لثمود فعقروها فأخذهم الله بالعذاب واستأصلهم جميعا.

ومن حِكم تأخير ظهور هذه الآيات "إسلام من علم الله إسلامه منهم ولمن في أصلابهم من المؤمنين"[4]، مثلما حصل من التأخير في فتح مكة لأجل الرجال المؤمنين والنساء المؤمنات، كما بيّنه الله تعالى في قوله: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾﴾ الفتح:٢٥.

٤) قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾: هذه الآيات متصلة بقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ...﴾ غافر:٦٨، وهي عودة إلى خطاب المشركين ولفت نظرهم إلى بعض أفضال الله عليهم منطوية على التنديد بجحودهم ومكابرتهم، ومناسبتها لما قبلها أنه لمّا أطنب في تقرير وعيد المكذبين المبطلين المجادلين في آيات الله بما فيه العبرة والكفاية لمن كان له قلب أو ألقى

---

١) متفق عليه: صحيح البخاري، في كتاب فضائل القرآن، وباب كيف نزل الوحي، وأول ما نزل، برقم "٤٩٨١" (١٨٢/٦).
وصحيح مسلم، في كتاب الإيمان، وباب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس، ونسخ الملل بملته، برقم "١٥٢، ٢٣٩" (١٣٤/١).
٢) انظر: التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم لجامعة الشارقة، بإشراف د. مصطفى مسلم (٥٩٧/٦-٥٩٨).
٣) الكشاف للزمخشري (١٨٠/٤). وانظر: مفاتيح الغيب للفخر الرازي (٥٣٣/٢٧). ومدارك التنزيل للنسفي (٢٢٢/٣).
٤) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٣٣٤/١٥).

السمع وهو شهيد، عاد الحق تعالى إلى ذكر دلائل أخرى تدل على وجود الإله الحكيم الرحيم ووحدانيته، ويصلح تعدادها نعما على العباد، مذكراً لهم نعمه الحاضرة التي ينسون وجودها بطول الألفة، ومستعطفاً إلى طاعته، ودالاً على التوحيد بعد تليينهم بالوعيد، مقررا ربوبيته الموجبة لألوهيته، فيلفت أنظارهم إلى ما يحيط بهم من أدلة هم عنها معرضون، وهي لو تدبروها بعض هذه الخوارق التي يطلبون، وهي شاهدة كذلك بالألوهية لبطلان أي ادعاء بأن أحدا غير الله خلقها، وأي ادعاء كذلك بأنها خلقت بلا خالق مدبر مريد.[1]

وكذلك لما بيّن الله تعالى لنبيه ﷺ مصير قومه بمقتضى وعده الحق إما بإصابتهم أو وفاته ﷺ قبل الانتقام منهم، وكان قد بقي مما هو أقرُّ لعينه وأشفى لصدره ﷺ أن يريهم الله في حياته آية تحملهم على الإيمان، استأنفت الآيات لذكر المزيد من دلائل الوحدانية، والنعم المستحقة للشكر -بدل الكفر- لعلها تسوقهم إلى الإيمان.[2]

قال عبد الكريم الخطيب: "الآية السابقة تهددت المشركين بوقوع ما توعدهم الله به، إن عاجلا أو آجلا، إذا هم ظلوا على ما هم عليه من ضلال وعناد، فجاءت هذه الآية، تفتح طريقا لهؤلاء المشركين إلى الهدى، إن كان بهم متجه إليه، بعد أن سمعوا هذا التهديد"[3].

وكذلك لما كان المجادلون يقترحون على رسول الله ﷺ أن يأتي بالآيات والمعجزات التي يريدونها تعجيزا وإفحاما وتشويشا، وبعد أن قطع الله أطماعهم في تلك الآيات وأعلمهم بأنها بيد الله وحده يأتي بها متى وكيف أراد، أردف هذا بلفت أنظارهم إلى كثير من آيات الله التي تحيط بهم، فإنها كافية لمن أراد أن يؤمن ويتذكر ويعتبر، فتكون هذه الآية استدلالا سادسا على وحدانية الله تعالى وقدرته وحكمته، فانتقل من الامتنان على الناس بما سخره وخلقه في الآفاق والأنفس لأجلهم، وبما منحهم من الإيجاد والإمداد وتطور الخلق في الأرحام وما في ذلك من الألطاف بهم، وما أدمج من الاستدلال على انفراده تعالى بالإحياء والإماتة وقضاء الأمور بكن فيكون، وبعد التعجيب من انصراف المجادلين عن عبادته إلى الشرك والتكذيب، انتقل بعد هذه الاستدلالات والامتنانات إلى الاستدلال والامتنان بما سخر لهم من الأنعام لمنافعهم الجمة خاصة وعامة، ثم فصّل هذا الإجمال بعض التفصيل بذكر المهم من نعم الأنعام وعلى رأسها منفعة الركوب

---

1) انظر: مفاتيح الغيب للفخر الرازي (٥٣٤/٢٧). ونظم الدرر للبقاعي (١٢٣/١٧). والتفسير المظهري لمحمد ثناء الله (٢٧٧/٨). وفي ظلال القرآن لسيد قطب (٣٠٩٩/٥-٣١٠٠). والتفسير الحديث لدروزة (٤٠١/٤). وأيسر التفاسير للجزائري (٥٥٥/٤). والتفسير المنير للزحيلي (١٧٠/٢٤).

2) انظر: نظم الدرر للبقاعي (١٢٠/١٧).

3) التفسير القرآني للقرآن (١٢٧٣/١٢).

والتنقل، ومنفعة الأكل والغذاء، فأخبرهم أنه إنما أنشأ هذه الأنعام نعما للبشر، ولم ينشئها لأنفسها، لينتفعوا بها ويستعملونها كيف شاؤوا.[1]

وعطف منفعة الأكل على منفعة الركوب تعميم بعد تخصيص، لأن المركوب خاص ببعض النَّاس، وخاص بالإبل، والأكل عام في جميع النَّاس، وعام في جميع الأنعام.[2]

٥) قوله تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ ﴾: معطوفة على ما قبلها لإفادة زيادة في التعميم بعد التخصيص، لأن الركوب خاص، وأعمّ منه الأكل، وأعمّ منهما المنافع الأخرى فهي أكثر من أن تحصى، والجملة كذلك على اعتبار التعليل أيضا، كأنه قيل: (لتركبوا منها ولتأكلوا منها ولتنتفعوا بمنافعها الكثيرة)، وإنما غيّر أسلوب التعليل تفننا في الكلام وتنشيطا للسامع لئلا يتكرر حرف التعليل تكرارات كثيرة.[3]

٦) قوله تعالى: ﴿ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ ﴾: عاد إلى أسلوب التعليل الأول فعطف هذه الجملة على ما قبلها، وهو عطف للخاص على العام، فذكر أولا الشائع المطروق عندهم وهو الركوب، ثم ذكر مثيله في الشيوع وأعمّ منه وهو الأكل منها، ثم عاد إلى عموم المنافع بلا تخصيص، ثم عاد فخصّ من المنافع الركوب في الأسفار ونقل الحمولات الثقيلة، فإن اشتداد الحاجة إلى الأنعام فيها تجعل الانتفاع بركوبها للسفر ونقل الأثقال في محل الاهتمام، كما قال تعالى: ﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ ۚ ﴾النحل:٧، أو يراد بالركوب هنا ركوب فئة خاصة تشتد حاجتهم للحمل كالنساء والولدان يحملون عليها بالهودج سترا وحماية ورفقا بهم.[4]

٧) قوله تعالى: ﴿ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴾: ليجمع بين سفائن البر وسفائن البحر، فأعقب الامتنان بالأنعام بالامتنان بالفلك لمناسبة قوله: ﴿ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ ﴾ فقال: ﴿ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾، وهو انتقال من الامتنان بجعل الأنعام مسخرة للركوب وحمل الأمتعة، إلى الامتنان بنعمة الركوب على الفلك في البحار والأنهار، ووجه الامتنان بالفلك أنه معين بقطع

---

١) انظر: التحرير والتنوير لابن عاشور (٢١٤/٢٤-٢١٥).

٢) انظر: تفسير ابن عرفة (٤٠٣/٣).

٣) انظر: المحرر الوجيز لابن عطية (٥٧١/٤). والتحرير والتنوير لابن عاشور (٢١٥/٢٤).

٤) انظر: تفسير ابن عرفة (٤٠٣/٣). والبحر المديد لابن عجيبة (١٥٥/٥). والتحرير والتنوير لابن عاشور (٢١٥/٢٤-٢١٦).

المسافات الشاسعة ونقل الحمولات الثقيلة بأقل جهد وأسرع وقت، وكذلك هو امتنان بما ركّب الله في الإنسان من التدبير والذكاء الذي توصل به إلى المخترعات النافعة باختلاف العصور والأجيال.[1]

وكل هذه النعم ذكرت في مقام الاستدلال بالأساس كقوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ ﴾الغاشية:١٧، كما يشعر به السياق، وذِكر المنافع والامتنان بها فإنه استطرادي ويحمل معنى الاستدلال، فالمقام مقام دعوة إلى الإيمان والتوحيد مقابل الكفر والشرك، ومن الكفر كفران النعمة عوض شكرها، وشكر نعم الله تعالى يكون أولا بتوحيده والإسلام لدينه.[2]

٨) قوله تعالى: ﴿ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾: لما لفت الله تعالى الانتباه إلى بعض آياته ونعمه ختمه بذكر آياته عامة جامعة لكل عبرة وموضع نظر، وهذا غير منحصر لاتساعه، ولأن في كل شيء له آية تدل على وحدانيته.[3]

وكذلك لمّا استدل عليهم في ست آيات ابتداء من قوله: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ ﴾غافر:٦١، وقوله: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا ﴾غافر:٦٤، وقوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ﴾غافر:٦٧، وقوله: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ ﴾، فبعد تلك الآيات والدلائل والنعم التي ذكرت في معرض الامتنان تذكيرا بالشكر، وفي معرض الدليل تذكيرا بالتوحيد، عطف هنا منبها على أن في كل تلك المنن آيات دالة على ما يجب لله من الوحدانية والقدرة والحكمة، أي يريكم آيات وحدانيته وألوهيته، وآيات نعمه وإحسانه إليهم في النعم المذكورات وغيرها من كل ما يدلّ على وجوب توحيده وتصديق رسله ونبذ المكابرة فيما يأتونهم به من آيات صدقهم.

وقد جيء في جانب إراءة الآيات بالفعل المضارع (يريكم) لدلالته على التجدد، لأن الإنسان كلما انتفع بشيء من النعم علم ما في ذلك من دلالة على وحدانية خالقها وقدرته وحكمته.

وفائدة الامتنان تقريب نفوسهم من التوحيد لأن شأن أهل المروءة الاستحياء من المنعم.[4]

---

١) انظر: روح المعاني للألوسي (٣٤٢/١٢). والتحرير والتنوير لابن عاشور (٢١٦/٢٤-٢١٧).

٢) انظر: روح المعاني للألوسي (٣٤٣/١٢).

٣) انظر: المحرر الوجيز لابن عطية (٥٧١/٤).

٤) انظر: المحرر الوجيز لابن عطية (٥٧١/٤). ومفاتيح الغيب للفخر الرازي (٥٣٤/٢٧). والتحرير والتنوير لابن عاشور (٢١٦/٢٤-٢١٧).

٩) قوله تعالى: ﴿فَأَيَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ﴾: لما ذكر الله هذه الدلائل الكثيرة أعقبه بتقريرهم على جهة التوبيخ بقوله: ﴿فَأَيَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ﴾، وبيّن أن هذه الآيات التي عددناها كلها ظاهرة باهرة تنبيها على أنه ليس في شيء من الدلائل التي تقدم ذكرها ما يمكن إنكاره إلا عنادا وكبرا، فالآية الكريمة توبيخ شديد لأولئك الذين استحبوا العمى على الهدى مع أن كل شيء في هذا الكون يدعوهم إلى الإيمان بالله الواحد القهار.

وفرّع على إراءة الآيات استفهاما إنكاريا عليهم من أجل إنكارهم ما دلّت عليه تلك الآيات، وهو هنا مستعمل في إنكار أن يكون شيء من آيات الله يمكن أن ينكر دون غيره من الآيات، فيفيد أن جميع الآيات صالح للدلالة على وحدانية الله وقدرته، ولا مساغ لادعاء خفائه، وأنهم لا عذر لهم في عدم الاستفادة من إحدى الآيات.[١]

وإضافة الآيات إلى الاسم الجليل (الله) لتربية المهابة وتهويل إنكارها.[٢]

١٠) رأينا في هذا المقطع مرحلتين، الأولى: لتعزيز الثبات واليقين في قلب النبي ﷺ والمؤمنين الذين معه بالصبر والوعد الحق، وبيان أن هزيمة المجادلين وعقوبة المشركين قضية محسومة لا نقاش فيها، وأن مسألة الإتيان بالآيات ليست بيد أحد من رسل الله تعالى من أولهم لآخرهم، وإنما هي لله وبأمر الله.

والثانية: لتعزيز التفكر في آيات الله ونعمه المحيطة بالناس من كل مكان وفي كل زمان، ليبعث هذا التفكر القلوب المنكرة إلى مراجعة عقائدها ومواقفها من الإيمان والتوحيد والرسول والرسالة، فتقبل بالحق أو تكف عن الأذى، فإن الله يعطيهم الفرصة تلو الفرصة، ويعدد لهم الآية تلو الآية، كل هذا أملا في إحداث تأثير إيجابيا في قلوب المؤمنين والكافرين، وهذا يؤدي دورا مهما في نصرة المؤمنين وردع الكافرين، وهو دور أساسي في موضوعات هذه السورة، وتناسقها مع ما قبلها واضح بيّن.

وكذلك في الآيات فائدة قلّما أشار إليها أحد من المفسرين، وهي أنه ليس بالضرورة أن تكون آيات الله معجزة وخارقة للعادة حتى تعتبر آية دالّة على الله تعالى وقدرته ووحدانيته وغير ذلك من صفاته العلى، بل كلّ ما في الكون والطبيعة من سننها ونواميسها التي تتكرر وتتكرر بلا عدّ ولا حدّ هي كلها آيات باهرات دالّات على وجود الله تعالى ووحدانيته وقدرته، فإن هذه الأمور الطبيعية المعتادة وغير الخارقة والتي

---

١) انظر: غرائب القرآن للنيسابوري (٤٤/٦). والتحرير والتنوير لابن عاشور (٢١٤/٢٤، ٢١٧-٢١٨). والتفسير الوسيط لطنطاوي (٣١٦/١٢).

٢) انظر: إرشاد العقل السليم لأبي السعود (٢٨٦/٧).

نراها كلّ يوم، إنها لم تخلق ولم تكن من تلقاء نفسها هكذا، بل الله سبحانه هو من خلقها وأوجدها وأعطها سننها وقوانينها التي بها تسير وبها تفنى، وينبغي ألا يقف فهمنا للقدرة الإلهية وطلاقتها عند قدرته سبحانه وتعالى على تحدي القوانين الطبيعية وكسرها وخرقها بالمعجزات، كأننا بهذا نضع الطبيعة في مواجهة الإله -تعالى وتقدس-، بل الحق أن قوانين الطبيعة هي أداة في يد خالقها وضعها ويستخدمها كيفما شاء في تصريف شؤون الكون والحياة، ولذا نجد أكثر الآيات الدالة على الله تعالى وصفاته هي آيات طبيعية ليست من قبيل المعجزات، أو لا يعتبرها الناس من قبيل المعجزات لإلفهم لها أو جحودهم بخالقها، فالسماء والأرض والليل والنهار والشمس والقمر والنجوم والبحر والفلك والرياح والزرع والثمار والحمل والولادة، وغير ذلك كثير في كتاب الله، وكلها آيات تدّل على الله الواحد الذي خلق كل شيء ثم هداه، ليظهر بذلك أن تجلي الألوهية يكون من خلال الالتزام بالقوانين الطبيعية أكثر مما يكون من خلال خرق هذه القوانين ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾الأعراف: ٥٤، ثم يعرض القرآن الكريم مع هذه الآيات "بعضا من معجزات الأنبياء والرسل السابقين ليبين أن الله عز وجلّ الذي خلق قوانين الطبيعة وشاء أن يُسيِّر الوجود من خلالها قادر على خرق هذه القوانين، وبذلك يتعمق ويتكامل فهم المؤمن للقدرة الإلهية"[1].

١) كيف بدأ الخلق لعمرو شريف (١/١٦). وانظر: نظم الدرر للبقاعي (١٧/١٣٠-١٣٣).

المطلب الرابع: التفسير الإجمالي للآيات:

بعدما حكت الآيات السابقة جزاء المجادلين في آيات الله ومصيرهم التعيس، وبيّنت أن ذلك كائن لهم بسبب فرحهم بأعمالهم الباطلة أشرا وبطرا، وكان علوهم هذا في الأرض مما يؤذي الرسول ﷺ حساً ومعنى، جاءت الآيات هنا تأمر النبي ﷺ مجددا بالصبر على أذيتهم وجدالهم وتكذيبهم وكفرهم بالله، وتؤكد له مجددا بأن وعد الله بهلاك أعدائه والنصر عليهم حق ثابت، وأنه منجز له ما وعده من الظفر والعلو عليهم وإحلال العقاب بهم، واحتمال كبير أن يكون ذلك في حياته فيريه فيهم ما تقرّ به عينه من العذاب والنقمة والهلاك، وإن توفاه الله تعالى وفاته أن يرى شيئا من هلاكهم والنصر عليهم في هذه الدنيا، فوعد الله ممتد مستمر فسيريه فيهم أشد العذاب والانتقام يوم يرجعون إليه، وهذا كائن يقينا بمصيره ومصيرهم إليه، فيحكم الله تعالى حينها بينه وبينهم بالحق، بتخليدهم في النار، وإكرام النبي ﷺ بجواره في جنات النعيم.

ثم يقول الله تعالى لنبيه ﷺ معينا له على الصبر ومسليا عنه الهم: قد أرسلنا رسلا كثيرين، وأنت كهؤلاء الرسل من قبلك، وقد ذكرنا لك حال بعضهم، ولم نذكر حال الباقين اكتفاء بمحل الأسوة فيهم، وليس منهم أحد أعطاه الله آياتٍ ومعجزاتٍ إلا وقد جادله قومُه فيها وكَذَّبُوه وآذوه، فصبروا على ما كذبوا وما أذوا حتى جاءهم نصر الله، وكانت أقوامهم أبداً يقترحون على رسلهم إظهار المعجزات الزائدة على الحاجة تحكما وعِناداً وعبثاً، ويطالبونهم أن يأتوهم بآيات فاصلة بينه وبينهم، ولكن ما كان أمر الإتيان بالآيات والمعجزات إلا بيد الله وبإذنه، يريها وينزلها بإرادته وحده وفق حكمته ورحمته، فإذا جاء قضاءُ الله بين الرسل وأممها بإبراز الآيات القاهرة أو قيام الساعة، فحينها يُقضى بالحق والعدل فينجي رسله والذين آمنوا معهم، ويخسر عندها المبطلون المعاندون الذين يجادلون في آيات الله فيقترحون المعجزات الفاصلة أو الزائدة على قدر الحاجة تعنتاً وعبَثاً.

ثم يخبر الله تعالى بمزيد من دلائل قدرته وحكمته الدالة على ربوبيته وألوهيته، ويمتنّ بالعديد من نعمه الداعية إلى الاعتراف بصاحبها وشكره، فهو الله سبحانه الذي خلق لأجل عباده الكثير من الأنعام كالإبل والبقر والغنم لفوائد كثيرة، فينتفعوا بالركوب على بعضها للتنقل، وينتفعوا بالأكل والتغذي من لحومها وشحومها وما يصلح منها، ولهم فيها منافع كثيرة كالانتفاع بجلودها وأصوافها وأوبارها وأشعارها وغير ذلك كثير، وينتفعون منفعة عظيمة بالركوب عليها هم ونساؤهم وأطفالهم وضعفاؤهم للتنقل في الأسفار البعيدة، وحمل الأمتعة الثقيلة عبر البلاد، ليصلوا بها إلى حاجتهم التي ما كانوا لولاها قادرين على بلوغها إلا بجهد جهيد، فيسرها الله لهم بالركوب والحمل والسفر على بعض هذه الأنعام، وخاصة منها الإبل، فعليها يحملون

في البر، وعلى السفن يحملون في البحر، فهذه النعم والمنافع العظيمة ما جاءت من تلقاء نفسها بل خلقها وسخرها بقدرته وحكمته لتدل على أنه واحد.

ثم يؤكد الله تعالى على ظهور آياته وحججه ووضوحها وكثرتها، ويستنكر من جحود شيء منها أو إنكاره، فهو الذي يريهم ويرشدهم إلى آياته وحججه ليؤمنوا بها، فأي حجج الله التي يريها في القرآن والسماء والأرض والأنفس ينكر صحتها الناس ولا يعترفون بها، ويكذبون بتوحيد الله من أجل فسادها ويدعون من دونه إلها؟! فلم يبق للإنكار محل، ولا للإعراض عنها موضع، بل أوجبت لذوي الألباب، بذل الجهد، واستفراغ الوسع، للاجتهاد في طاعته، والتبتل في خدمته، والانقطاع إليه.

المطلب الخامس: بيان ما ترشد إليه الآيات[1]:

١- بيان وجوب الصبر على دعوة الحق والعمل في ذلك إلى أن يحكم الله تعالى، والأمر بالصبر للنبي ﷺ تسلية له، وإعلامه بأن الله سينتقم له من قومه المكذبين لرسالته، إما في حياته، أو في الآخرة، وأمة النبي ﷺ مأمورة مثله بالصبر.

٢- اقتراح المقترحين على الرسل الإتيان بالآيات، ظلم منهم وتعنت وتكذيب، بعد أن أيدهم الله بالآيات الدالة على صدقهم وصحة ما جاءوا به.

٣- بيان أن الرسل تصدق عليهم كلمة الرسل بكل أبعادها، فإنهم مبلغون عن الله ليس لهم أن يبلغوا أكثر ولا أقل مما أرسلوا به، حتى معجزاتهم ليس لهم دخل فيها، وفي أغلب الأحيان لا يعرفون حقيقتها، فإن موسى عليه السلام خاف من عصاه التي جعلها الله له حية تسعى.

***

١) انظر: تيسير الكريم الرحمن للسعدي (٧٤٣/١). وأيسر التفاسير للجزائري (٥٥٦/٤). والتفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم لجامعة الشارقة، بإشراف د. مصطفى مسلم (٦٠١/٦). والتفسير المنير للزحيلي (١٦٨/٢٤، ١٧١-١٧٢).

المبحث السادس: ختم السورة بوعيد المجادلين وتحذيرهم بحتمية انقضاء زمن الإمهال ويشمل الآيات (٨٢-٨٥)

قال تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٢) فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٨٣) فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ (٨٤) فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ (٨٥) ﴾.

المطلب الأول: ربط الموضوع بالمحور الأساس للسورة:

هذا هو المشهد الختامي للسورة، يختم بها محور السورة الأساسي بإصدار تحذير ختامي، وبيان عاقبة المشركين بعد جولات الصراع التي خاضوها ضد رسل الله، والمعارك التي أقاموها لدحض الحق والتوحيد، فبعد أن انتهى الجدال والمحاجحة، وآمن من فتح الله قلبه لقول الحق وأبصر آيات الله تعالى ونعمه فعرفها واعترف بالفضل لصاحبها، وأصرّ من أصرّ ممن غلبته شقوته على الباطل الذي هو فيه، وحافظ على مركزه الدنيوي، وتكبّر عن السير في صفوف المؤمنين، بعد بيان هذا جميعا، وبعد الآيات التي حملت في طياتها ترغيبا أكيدا وترهيبا شديدا ووعدا ووعيدا، وبعد الصراع المرير وإدلاء كل فريق بحجته إن بحق أو بباطل، يبين الله تعالى أن المشركين الذين ساروا في الأرض فلم يجدوا فيها عبرة لمعتبر ولا عظة لمتعظ، والذين فرحوا بما عندهم من علم ظاهري استغنوا به عن الحق المبين، هؤلاء حينما يحشرون إلى ربهم ويقفون بين يديه ويرون بأسه الشديد سيؤمنون بما جاءت به الرسل ويكفرون بكل تلك الأصنام والأوثان التي عبدوها من دون الله، ولكن قد فات الأوان ولا ينفعهم يومئذٍ إيمان، وما هو إلا الخسران المبين، هذه نتيجة المعركة ومآل الصراع بين الحق والباطل، حتى لو كان أهل الحق من المستضعفين في الأرض وأراذل القوم كما يصفونهم المشركون، وحتى لو كان أهل الباطل من المستكبرين وسادة القوم كما يحسبون أنفسهم، فإن القضاء يومئذٍ بيد الملك الواحد القهار الذي يقضي بالحق، ثم يُمضي قضاءه ويُنفِذُهُ على الجميع طوعا أو كرها.[١]

---

١) انظر: التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم لجامعة الشارقة، بإشراف د. مصطفى مسلم (٦/٦٠٤).

ومن تأمل السورة كلها وجد أنه قد جاء بعد آيتين في أوائلها قوله: ﴿ مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴿٤﴾ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۖ وَهَمَّتۡ كُلُّ أُمَّةِۢ بِرَسُولِهِمۡ لِيَأۡخُذُوهُۖ وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ فَأَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ ﴾غافر: ٤-٥.

ثم بعد آيات كثيرة بعد المقدمة جاء قوله تعالى: ﴿ ۞أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُواْ هُمۡ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَءَاثَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٖ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانَت تَّأۡتِيهِمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُواْ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ قَوِيّٞ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٢٢﴾ ﴾غافر: ٢١-٢٢.

ثم جاء في آخر السورة قوله تعالى: ﴿ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِنۡهُمۡ وَأَشَدَّ قُوَّةٗ وَءَاثَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥ وَكَفَرۡنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشۡرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمۡ يَكُ يَنفَعُهُمۡ إِيمَٰنُهُمۡ لَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَاۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ فِي عِبَادِهِۦۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾ غافر: ٨٢-٨٥.

إنّ المتأمل ليجد وحدة السياق من خلال وحدة هذه المعاني المتشابهة في أول السورة ووسطها وخاتمتها، كما سيجدها في غير ذلك، كموضوع جدال الكافرين في آيات الله الذي عرض خمس مرات في أول السورة ووسطها وخاتمتها.

والمتأمل للقصة المركزية في السورة -وهي قصة موسى عليه السلام ومؤمن آل فرعون- لوجدها تخدم المعاني التي سبقتها، والمعاني التي لحقتها، ولو تأمل معاني المقاطع الأخيرة في السورة لوجد تلاحمها مع بعضها، ولوجد صلاتها مع ما سبقها في السورة، فالسورة كلٌ متكامل، تقسم المعاني بين مقاطعها لتعزيز هدف أساسي عام، وبين ثنايا ذلك تنثر شيئا من الفوائد والتفاصيل المؤثرة مرة بعد مرة.[1]

---

١) انظر: الأساس في التفسير لسعيد حوّى (٤٩٨٨/٩).

المطلب الثاني: التناسق بين هذا الموضوع وسابقه:

لما قال تعالى في آخر آيات المقطع السابق: ﴿ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ غافر: ٨١، قال لهم في هذه الآيات إن هذه الدلائل وهذه الحقائق والآيات مبثوثة في الكون، وفي الأنفس، وفي الأنعام، وفي الماضين قبلكم، وفي كل ما حولكم، فلو أنكم نظرتم لما حولكم نظرة منصف عاقل لتيقنتم أن الله عز وجل هو المعبود الحق وهو القادر والفاعل الوحيد في الكون، ولكنكم كفرتم وأشركتم وجادلتم بالباطل عنادا واستكبارا، طلبا للرياسة والجاه، والحصول على المال، وكسب حظوظ الدنيا، ولما كان هذا ديدنهم وصنيعهم ختم الله السورة بتهديدهم وبيان مصيرهم، وأبان لهم أن هذه الدنيا فانية ذاهبة، فما فيها من مال وجاه ظل زائل لا يغني عنهم من الله شيئا، وقد ضرب لهم المثل بمن كانوا قبلهم ممن كانوا أكثر منهم عددا وأشد منهم قوة وآثارا في الأرض، فلم ينفعهم شيء من ذلك حين حلّ بهم بأس الله.[١]

وبعد التأمل في قوله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ... ﴾ الآية نجد تناسقا وتكاملا بدعيا بينه وبين ما قبله، فهذه الآية تدعو إلى السير في الأرض، والغرض من هذا السير هو النظر في آيات الله، لذا جاءت معطوفة على قوله تعالى: ﴿ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾ ﴾، ولما كان السير في الأرض لرؤية آيات الله جاءت الآية الأخيرة معطوفة على آيات الامتنان بنعمة الركوب في البر والبحر، فهما من أعظم الوسائل التي تعين على السير في الأرض لرؤية آيات الله، ومن هنا نفهم جيدا امتنان الله عليهم بنعمة الأنعام التي يركبون عليها ويبلغون بها حاجة في صدروهم والتي عليها وعلى الفلك يحملون، فيجوبون القفار والبحار، ويمرّون على الآثار والديار، ويرون آيات الله تعالى المبثوثة في كل مكان، فمن كان منهم ذو عقل وفكر سليم لاعتبر بما رأى من العبر، ولاتعظ بما علم من العظات، ولكنهم يكابرون ويغالطون أنفسهم وينكرون الحق الواضح جحودا وعنادا واستكبار في الأرض بغير الحق، وبهذا يتبيّن لنا التناسق التام بين هذه الآيات، ومناسبة أحدها للآخر غاية التناسب.

ومناسبة أخرى: أنه بعدما عرض لهم الله تعالى ما رأوا فيه آياته، وما أمدهم به من نعمه، رغبة لدخولهم في رحمته، أعقبه بتهديد المعاندين المصرّين على الكفر والشرك والجدال الباطل، ليعلموا أنه كما لله سبحانه وتعالى نعمه وفضله وإحسانه ورحمته، كذلك له سبحانه نقمه وبطشه وعذابه بالمكذبين الجاحدين،

---

١) انظر: التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم لجامعة الشارقة، بإشراف د. مصطفى مسلم (٦٠٢/٦). والتفسير المنير للزحيلي (١٧٤/٢٤).

فالآيات بمجموعها تؤدي معنى قوله تعالى: ﴿ ۞ نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلۡعَذَابُ ٱلۡأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ ﴾الحجر:٤٩-٥٠.[١]

قال الزحيلي: "لا يمكن لأحد في العالم عنده مسكة من عقل أن ينكر فضل الله ونعمه على الناس، لأن الواقع المشاهد حجة دامغة، ولا يستطيع أحد إنكاره أو تجاوزه، وما أكثر الأدلة الحسية الميدانية من التاريخ في تعذيب المبطلين المكابرين بالمجادلين في آيات الله تعالى، لذا كان تحدي الواقع سببا موجبا للتهديد بالعذاب، وإيقاعه على أولئك المعاندين المغترين بدنياهم، المستهزئين بآيات الله، وإذا وقع العذاب، حدث الندم الشديد، ولم ينفع الإيمان والاعتذار في ذلك الوقت"[٢]، كما تصوره آيات هذا المقطع.

وقال دروزة: "واضح أن الآيات متصلة بالسياق وما جاء بسببيله من تعقيب على موقف المشركين الجدلي والحجاجي، وقد استهدفت تذكير المشركين وحملهم على الارعواء والاعتبار بما كان من أمر أمثالهم الذين كانوا أقوى وأغنى منهم، وأسلوبها قوي نافذ، وقد جاءت في ذات الوقت خاتمة للسورة وربطت بين أولها وآخرها، حيث احتوت أوائل السورة آية مماثلة للآية الأولى منها"[٣].

---

١) انظر: التفسير القرآني للقرآن لعبد الكريم الخطيب (١٢٧٥/١٢).

٢) التفسير الوسيط (٢٢٨٨/٣).

٣) التفسير الحديث (٤٠٢/٤).

المطلب الثالث: التناسب بين الآيات والجمل والكلمات:

١) قوله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾: لما ذكر الله بعض نعمه، وعرض آياته، وكانت حقائق النّعم لا تُعرف إلا بالتفكر، أرشدهم إلى الاعتبار، وأمرهم بالتفكر في أحوال الغابرين السعيدة، وعواقبهم الأليمة، فالآية استئناف مسوق لبيان مبادي أحوال الهالكين السابقين وعواقبهم، وتفريع هذا الاستفهام عقب قوله: ﴿ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ ﴾غافر:٨١، يقتضي أنه مساوق للتفريع الذي قبله، وهو ﴿فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾﴾، فيقتضي أن السير المستفهم عنه بالإنكار على تركه هو سير تحصل فيه آيات ودلائل على وجود الله ووحدانيته، وكلا التفريعين متصل بقوله: ﴿وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾﴾غافر: ٨٠، فذلك هو مناسبة الانتقال إلى التذكير بعبرة آثار الأمم التي استأصلها الله تعالى لما كُذبت رسله وجُحدت آياته ونعمه، فبالسير تكون رؤية بعض آيات الله، وأكثر الوسائل التي تعين على هذا السير في الأرض هي نعمة الركوب في البر والبحر، فتناسقت الآيات الأخيرة فيما بينها تناسقا بديعا، وكأن الله تعالى يقول: هيأت لكم أسباب السير في الأرض، وجعلت آياتي مبثوثة في كل مكان، وقد حصل منكم السير في الأرض، فمررتم ببعض تلك الآيات المتمثلة في آثار الغابرين، فكيف لم تتفطن عقولكم إلى أخذ العبرة وفهم الموعظة، أم أن المانع كان -بلا شك- التغافل عمدا والكفر عنادا والتكذيب استكبارا.

فحصل بهذه الآية تكرير الإنكار الذي مضى من قبل في قوله: ﴿ ۞أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ ﴾ غافر:٢١، الآية، فمضمونهما واحد، يلفت نظرهم إلى الاعتبار بالسير إلى علة هلاك الأمم السابقة، وفي ذلك تحذير وأي تحذير، واحتجاج على قريش بما ظهر في الأمم السالفة من نقمات الله في الكفرة، والفرق بينهما: أن ما تقدم كان انتقالا عقب آيات الإنذار والتهديد، وكان هذا انتقالا عقب آيات الامتنان والاستدلال، وفي كلا الانتقالين تذكير وتهديد ووعيد، وهو يشير إلى أنهم إن لم يكونوا ممن تزعهم وتمنعهم النعم عن كفران مسديها كشأن أهل النفوس الكريمة، فليكونوا ممن يردعهم الخوف من البطش كشأن أهل النفوس اللئيمة، فليضعوا أنفسهم حيث يختارون من إحدى الخطتين.[1]

١) انظر: المحرر الوجيز لابن عطية (٥٧١/٤). والجواهر الحسان للثعالبي (١٢٤/٥). وإرشاد العقل السليم لأبي السعود (٢٨٦/٧). والبحر المديد لابن عجيبة (١٥٦/٥). وفتح القدير للشوكاني (٥٧٦/٤). والتحرير والتنوير لابن عاشور (٢١٩/٢٤). والأساس في التفسير لسعيد حوّى (٤٩٨٧/٩).

فالآيات التي سبقت الآية الأولى ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ ... ﴾غافر:٢١ كانت تتحدث عن عذاب الآخرة ويوم القيامة، فجاء قوله: ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ ... ﴾ في مقام التهديد والتخويف والوعيد بحلول عذاب الدنيا قبل عذاب الاخرة على المشركين اذا بقوا على شركهم، مكملة بذلك للفكرة التي سبقتها مع تقديم دليل حسيّ وهو النظر والاعتبار بآثار الذين سبقوا والعذاب الذي حلّ بهم لما كفروا، في قوله تعالى: ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْأَزِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ ﴾غافر:١٨، فهذا عذاب الاخرة، ﴿ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ﴾غافر:٢١، وهذا عذاب الدنيا.

والآية الكريمة الثانية ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ ... ﴾ جاءت في سياق الامتنان ومعرض التذكير بنعم الله على عباده، وتعداد آلائه وما سخره للإنسان من سنن كونية وأنعام وسفن لتسهيل حياته وعيشه على الأرض، مهيبا بهم أن يشكروا منعمهم ولا يعرّضوا بالكفر كل هذه النعم للزوال، فإن من سبقوهم كانوا في نعيم ورغد من العيش فكفروا بأنعم الله، واغتروا بقوتهم وأعدادهم وعمرانهم لهذه الدنيا الفانية، فصرفهم ذلك عن الاقرار بوحدانية الله وافراده بالعبادة، فجرّ عليهم وبالُ أمرهم هذا الخسران والهلاك المبين.[١]

وكذلك لما قال الله للمشركين: ﴿ فَأَيَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾ ﴾غافر:٨١، وكان من جملة آياته قدرته سبحانه على أنواع الانتقام والعذاب، أعقب الله الاستفهام بالتنبيه على آيات قدرته على عقاب المشركين المصرّين على الخروج عن مقتضى الحدود الإلهية، فأردف قائلا: هل ينكر هؤلاء كمال قدرته بالبطش بأعدائه وهم يرون آثار ذلك كيفما ساروا في الأرض؟![٢]

قال سيد قطب: مصارع الغابرين كثيرة في تاريخ البشرية، والقرآن كثيرا ما يوجّه القلوب إليها، لما فيها من دلالة على حقائق ثابتة في خط سير البشرية، ولما لها كذلك من أثر في النفس الإنسانية عميق عنيف، وهنا يسألهم وينشطهم للسير في الأرض، بعين مفتوحة، وحسٍ متوفز، وقلب بصير لينظروا ويتدبروا ما كان في الأرض قبلهم وما يتعرضون هم لجريانه عليهم.[٣]

---

١) انظر: التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم لجامعة الشارقة، بإشراف د. مصطفى مسلم (٦٠٣/٦).
٢) انظر: الفواتح الإلهية للشيخ علوان (٢٧١/٢).
٣) انظر: في ظلال القرآن (٣١٠١/٥).

٢) قوله تعالى: ﴿كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِنۡهُمۡ وَأَشَدَّ قُوَّةٗ وَءَاثَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾: بيان لموضع الشاهد من آثار الغابرين، فإنهم كانوا أكثر عددا من هؤلاء المشركين، وأشد قوة وبطشا، وأكثر أعمالا في الأرض، فهم أولى من هؤلاء في دفع العذاب والنجاة من العقاب، فهل حقا استطاعوا ذلك؟!

٣) قوله تعالى: ﴿فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾: هذا نتيجة لقوله: ﴿كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِنۡهُمۡ ...﴾، وهو إتمام لمحل الشاهد بإفادة أن كثرة عدد السابقين وقوتهم ومنعة حصونهم وقلاعهم وقصورهم، وقدرتهم في الأرض بالسير وقطع المسافات، لم تغن عنهم من بأس الله شيئا، فهؤلاء من مشركي مكة أحق ألا يقدروا على دفع العذاب عن أنفسهم إذا نزل بهم مع ضعفهم وقلة عددهم، وهذا تهديد وتنبيه لمشركي مكة.[1]

قال الفخر الرازي: "اعلم أنه تعالى راعى ترتيبا لطيفا في آخر هذه السورة، وذلك أنه ذكر فصلا في دلائل الإلهية وكمال القدرة والرحمة والحكمة، ثم أردفه بفصل في التهديد والوعيد، وهذا الفصل الذي وقع عليه ختم هذه السورة هو الفصل المشتمل على الوعيد، والمقصود أنّ هؤلاء الكفار الذين يجادلون في آيات الله وحصل الكبر العظيم في صدورهم بهذا، والسبب في ذلك كله طلب الرياسة والتقدم على الغير في المال والجاه، فمن ترك الانقياد للحق لأجل طلب هذه الأشياء فقد باع الآخرة بالدنيا، فبيّن تعالى أن هذه الطريقة فاسدة، لأن الدنيا فانية ذاهبة، واحتج عليه بقوله تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾ يعني لو ساروا في أطراف الأرض لعرفوا أن عاقبة المتكبرين المتمردين، ليست إلا الهلاك والبوار، مع أنهم كانوا أكثر عددا ومالا وجاها من هؤلاء المتأخرين، فلمّا لم يستفيدوا من تلك المكنة العظيمة والدولة القاهرة إلا الخيبة والخسار، والحسرة والبوار، فكيف يكون حال هؤلاء الفقراء المساكين؟!"[2].

٤) قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾: مفرّعة على جملة ﴿كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِنۡهُمۡ﴾، لذِكر حالهم حين عاينوا العذاب، فلمّا أخبر عن كثرتهم وقوتهم وآثارهم الدالة على مكنتهم، سبّب عنه شرح حالهم، الذي أدى إلى هلاكهم واغتيالهم، فبيّن الله أنهم كانوا على الصفة المذكورة

---

١) انظر: الهداية إلى بلوغ النهاية لمكي بن أبي طالب (٦٤٧١/١٠). والتحرير والتنوير لابن عاشور (٢٢٠/٢٤).
٢) مفاتيح الغيب (٥٣٤/٢٧-٥٣٥).

من كثرة العدد وقوة البدن ومتانة الآثار إلى أن جاءتهم رسل الله بالبينات فلم يصدقوهم واستغنوا بما عندهم من العلم فرأوا بأسنا.

وهي كذلك جارية مجرى البيان والتفسير لقوله تعالى: ﴿ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم ... ﴾، فالفاء في قوله: ﴿ فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ ... ﴾ تفسير وتفصيل لما أُبهم وأُجمل من عدم الإغناء، فهي تعقيبية وتفسيرية، إذ التفسير يعقب المفسَر.

ومعنى التوقيت في (لمّا) أفادت أن الله لم يغير ما بهم من النعم العظمى حتى كذبوا رسله، وجواب (لما) جملة ﴿ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ ﴾ وما عطف عليها.[1]

وهذا بيان لسبب آخر من أسباب جدالهم، وهو أنهم جادلوا الرسل وكابروا الأدلة وأعرضوا عن النظر اعتمادا ورضا واكتفاء وازدهاء بما عندهم من العلم.[2]

وهذا العلم يحتمل أن يكون مما كان لديهم من علوم الدنيا الظاهرة كما في قوله تعالى: ﴿ يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ﴾ الروم: ٧، فذلك مبلغهم من العلم، "فلما جاءهم الرسل بعلوم الديانات –وهي أبعد شيء من علمهم لبعثها على رفض الدنيا والظلف عن الملاذ والشهوات– لم يلتفتوا إليها وصغّروها واستهزؤوا بها، واعتقدوا أنه لا علم أنفع وأجلب للفوائد من علمهم ففرحوا به"[3].

قال سيد قطب: "العلم –بغير إيمان– فتنة، فتنة تعمي وتطغي، ذلك أن هذا اللون من العلم الظاهري يوحي بالغرور، إذ يحسب صاحبه أنه يتحكم بعلمه هذا في قوى ضخمة، ويملك مقدرات عظيمة، فيتجاوز بنفسه قدرها ومكانها! وينسى الآماد الهائلة التي يجهلها، وهي موجودة في هذا الكون ولا سلطان له عليها، بل لا إحاطة له بها، بل لا معرفة له بغير أطرافها القريبة، وبذلك ينتفخ فيأخذ أكثر من حقيقته، ويستخفه علمه وينسى جهله، ولو قاس ما يعلم إلى ما يجهل، وما يقدر عليه في هذا الكون إلى ما يعجز حتى عن إدراك سره لطامن من كبريائه، وخفف من فرحه الذي يستخفه"[4].

---

١) انظر: الكشاف للزمخشري (١٨٣/٤). ومفاتيح الغيب للفخر الرازي (٥٣٥/٢٧). ونظم الدرر للبقاعي (١٢٧/١٧). وروح البيان لإسماعيل حقي (٢٢٠/٨). وتفسير المراغي (١٠٠/٢٤). والتحرير والتنوير لابن عاشور (٢٢٠/٢٤).

٢) انظر: غريب القرآن لابن قتيبة (٣٣٤/١).

٣) الكشاف للزمخشري (١٨٢/٤).

٤) في ظلال القرآن لسيد قطب (٣١٠١/٥).

ويحتمل أن يراد بالعلم ما هم فيه من الجهل، فهو من قبيل قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾﴾ الأنعام: ١٤٨.

ويحتمل أن يراد بالعلم معتقداتهم الموروثة عن أهل الضلالة من أسلافهم، وتقليدهم لآبائهم على وجه الإصرار بلا التفات لآيات الحق وبراهينه، وقولهم لرسلهم نحن أعلم منكم لن نبعث ولن نعذب، وهو كقوله تعالى: ﴿بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾ النمل: ٦٦، وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾﴾ الكهف: ٣٦، وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ ۚ﴾ فصلت: ٥٠، فكانوا يفرحون بهذا ويدفعون به البيّنات وعلم الأنبياء، كما قال عز وجل: ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾﴾ المؤمنون: ٥٣، وإطلاق العلم على هذا تهكم بهم وجري على حسب معتقدهم وإلا فهو جهل، وهو كقوله: ﴿وَانظُرْ إِلَىٰ إِلَٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ﴾ طه: ٩٧، أي: انظر إلى إلهك الذي هو عندك إله، وإلا لم يكن ذلك عند موسى عليه السلام إلها.[1]

٥) قوله تعالى: ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾: بيان لسبب آخر من أسباب جدالهم، أو لمظهر من مظاهر جدالهم وهو الاستهزاء بالحق وأصحابه، فإن رسلهم لمّا أوعدوهم بالعذاب استهزؤوا به وبوقوعه، فكانت النتيجة أن أحاط بهم الاستئصال والعذاب الذي كانوا من قبل يستهزؤون به، وفي الإتيان بـ ﴿يَسْتَهْزِئُونَ﴾ مضارعا إفادة لتكرر استهزائهم، وفيه دلالة على إمهال الله لهم وحلمه عليهم وإعطائه الفرصة لهم مرة بعد مرة.[2]

٦) قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾: مفرّعة على جملة ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾، أي دام دعاء الرسل إياهم ودام تكذيبهم واستهزاؤهم إلى أن رأوا بأسنا، فلمّا رأوه قالوا عندئذ ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾، فهذه حكاية حالة الذين آمنوا بعد تلبس

١) انظر: تفسير مجاهد (٥٨٤/١). والكشاف للزمخشري (١٨٢/٤). والدر المنثور للسيوطي (٣٠٧/٧). والفواتح الإلهية للشيخ علوان (٢٧٠/٢). والتحرير والتنوير لابن عاشور (٢٢١/٢٤). وموسوعة الصحيح المسبور من التفسير بالمأثور لحكمت ياسين (٢٦٧/٤).

٢) انظر: التحرير والتنوير لابن عاشور (٢٢١/٢٤).

العذاب بهم فلم ينفعهم ذلك، وفي ذِكر هذا حضّ للعرب على المبادرة، وتخويف من التأني، لئلا يدركهم عذاب لا تنفعهم توبة بعد تلبسه بهم.[1]

٧) قوله تعالى: ﴿ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَـٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا ﴾: تفريع على قوله: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا ... ﴾ غافر:٨٤، لعرض موقف الضالين جميعا حين يرون بأس الله يحيط بهم، ولبيان عدم انتفاعهم بالإيمان بعد ما شاهدوا العذاب وعاينوا الهلاك؛ لأن النافع هو الإيمان الاختياري الواقع مع القدرة على خلافه، ومن عاين نزول العذاب لم يبق له القدرة على خلاف الإيمان، ويكون إيمانه إيمان اضطرار وإيمان مشاهدة لا إيمان غيب، فلا ينفعه ذلك، وعدم نفعه في الدنيا دليل على عدم نفعه في الآخرة، فالله لا يقبل الإيمان عند نزول عذابه. والذين ﴿ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ﴾غافر: ٨٣، هم الذين ﴿ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ ﴾، وهم الذين حاق ﴿ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾، وهم الذين رأوا بأس الله، فالضمائر متحدة عائدة على نفس المخاطبين في جميع هذه آيات هذا المقطع.[2]

٨) قوله تعالى: ﴿ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ﴾: ذكر الله حكما عاما، فلمّا نفى قبول إيمانهم أردفه ببيان أنّ هذه سنته فيهم وفي أمثالهم من المكذبين، فالجملة مستأنفة استئنافا بيانيّا جوابا لسؤال من يسأل: لماذا لم ينفعهم الإيمان وقد آمنوا؟! والجواب أنّ ذلك تقدير قدّره الله على الأمم السالفة أعلمهم به وشرَطَهُ عليهم، فهي قديمة في عباده أنه لا ينفع الكافر الإيمان إلا في حالة الاختيار قبل ظهور البأس، ولم يستثن من ذلك إلا قوم يونس عليه السلام، فقال تعالى: ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَـٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ يونس:٩٨، وفي هذا تخويف لمشركي مكة وتحذير أن يصنعوا مثل صنيع الأولين.[3]

٩) قوله تعالى: ﴿ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾: لما رأوا البأس والعذاب هلكوا، أو تبيّن لهم عندها الخسران بذهاب نعيم الدارين، فخسروا حياتهم الدنيا بالموت، وحياتهم الأخرى بالجحيم، وأفاد الاسم

---

١) انظر: المحرر الوجيز لابن عطية (٥٧٢/٤). والجواهر الحسان للثعالبي (١٢٤/٥). والتحرير والتنوير لابن عاشور (٢٢١/٢٤-٢٢٢).

٢) انظر: روح البيان لإسماعيل حقي (٢٢٢/٨).وتفسير المراغي (١٠١/٢٤). والتفسير القرآني للقرآن لعبد الكريم الخطيب (١٢٧٦/١٢). والتحرير والتنوير لابن عاشور (٢٢٢/٢٤).

٣) انظر: تفسير المراغي (١٠١/٢٤). والتحرير والتنوير لابن عاشور (٢٢٢/٢٤).

الظاهر ﴿ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ بيان سبب خسرانهم وأنه الكفر بالله، وفي هذا إعذار للمشركين من قريش مرة بعد مرة.[1]

وقد قال هاهنا ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ۝٨٥﴾وفي السابقة قال: ﴿ٱلۡمُبۡطِلُونَ ۝٧٨﴾غافر:٧٨؛ لأنه قال هناك ﴿قُضِيَ بِٱلۡحَقِّ﴾غافر:٧٨، ونقيض الحق الباطل، وهاهنا ذكر أن إيمان البأس غير مجد ونقيضه الكفر، فحسن كلٌ في موضعه.[2]

قال دروزة: في الآية الأخيرة تلقين مستمر المدى، فالتراجع عن مواقف البغي والانحراف والجريمة، والإنابة إلى الله إنما يمكن أن ينفع قبل فوات الوقت إلى قبل وقوع العذاب أو الموت، وقد تكرر تقرير هذا في سور مكية ومدنية عديدة، وفي تكرار ذلك حكمة سامية وهي مواصلة الإهابة بالضالين والمنحرفين إلى الارعواء، والرجوع إلى الله والاستقامة واتباع طريق الحق والهدى في فسحة من العمر والعافية.[3]

١٠) رأينا في هذا المقطع الختامي صورةً لرغبةٍ أكيدةٍ في هداية المشركين حتى النهاية، فلم تزل الآيات تذكر وتنذر وتحذر وتؤكد التحذير رغبة في استفاقة تهز ضمائر بعض المشركين فينتفعوا بآية بينة، أو قصة صادقة، أو موعظة بليغة، أو عذاب سابق، أو وعيد آت، فإن في ذلك أو بعضه ما يحيي القلب الميت، ويحث التفكر في العقل السليم، ويبعث الرهبة والخوف في البشر السويّ، فإما قبول كامل للحق، أو انكفاء عن بعض الظلم والغي، وكف للبغي والأذى، وهذا ما أرادته السورة بموضوعاتها، وقد تناسقت فيما بينها مرحلة مرحلة لأداء المعاني بوجه بديع لا يكون إلا في أرقى كلام وأجمل بيان، وهو كلام الباري سبحانه وتعالى.

قال سيد قطب: "يختم السورة بلمسة قوية عن مصارع الغابرين، الذين وقفوا موقف المكذبين، وغرّهم ما كانوا فيه من القوة والعمارة والعلم، ثم أدركتهم سنة الله: ﴿ فَلَمۡ يَكُ يَنفَعُهُمۡ إِيمَٰنُهُمۡ لَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَاۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ فِي عِبَادِهِۦۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ۝٨٥﴾ .. وبهذا الإيقاع تختم السورة التي دارت كلها على المعركة بين الحق والباطل، والإيمان والكفر، والصلاح والطغيان حتى ختمت هذا الختام الأخير

١) انظر: إعراب القرآن للنحاس (٣٣/٤). ومعالم التنزيل للبغوي (١٢٤/٤). وزاد المسير لابن الجوزي (٤٤/٤). والتحرير والتنوير لابن عاشور (٢٢٤/٢٤). وأوضح التفاسير لمحمد بن الخطيب (٥٨٢/١).

٢) انظر: البرهان في توجيه متشابه القرآن للكرماني (٢٢١/١). وغرائب القرآن للنيسابوري (٤٥/٦).

٣) انظر: التفسير الحديث (٤٠٢/٤-٤٠٣).

... وعلى هذا المشهد العنيف، مشهد بأس الله يأخذ المكذبين، ومشهدهم يستغيثون ويفزعون، ويعلنون كلمة الإذعان والتسليم، تختم السورة، فيتناسق هذا الختام مع جوّها وظلّها وموضوعها الأصيل.

ولقد مررنا في ثنايا السورة بقضايا العقيدة التي تعالجها السور المكية: قضية التوحيد، وقضية البعث، وقضية الوحي، ولكنها لم تكن هي موضوع السورة البارز، إنما كانت المعركة بين الحق والباطل، والإيمان والكفر، والصلاح والطغيان، هي البارزة، وكانت ملامح المعركة هي التي ترسم (شخصية السورة) وسماتها المميزة لها بين سور القرآن"[1].

---

١) في ظلال القرآن (٥/٣٠٩٩، ٣١٠٢).

المطلب الرابع: التفسير الإجمالي للآيات:

بعد الدعوة إلى الإيمان بآيات الله والتفكر فيها أملاً في استمالة قلوب المشركين للدخول في رحمة الله، جاءت الآيات لتبرز النموذج الختامي لفئة لا تنتفع بالتذكير ولا تنزجر بالإنذار والوعيد، لتؤكد لهم حتمية الهلاك والعذاب بعرض نماذج الأمم الغابرة التي هلكت وبقيت آثارهم شاهدة على قصص كفرهم وبغيهم في الأرض بغير الحق، ورغم أن مشركي مكة قد امتلأت قلوبهم كبرا وعنادا وجحودا ونكرانا، إلا أن الآيات لا تفتأ ترغّبهم وترهّبهم وتضرب لهم القصص والأمثال لعلهم يتقون أو تحدث لهم ذكرا، فتقول لهم هذه الآيات: أفلم تسيروا في أرض الله الواسعة فتروا مصير الأقوام والأمم التي سبقتكم وعاقبة أمرهم من مثل قوم نوح -عليه السلام- وعاد وثمود والذين من بعدهم ممن أشركوا بالله وكذبوا رسله وجحدوا آياته، وتَقِفُوا على ما بقي من آثار العذاب الشديد الذي استأصلهم الله به، فتعرفوا من ذلك كيف كان عقبى كفرهم وتكذيبهم، وهم كانوا أكثر منكم عددا، وكثرة العدد قوة، وأشدّ منكم قوة وبأسا، وهذه زيادة في القوة، وأبقى منكم آثار في الأرض مشيا عليها وبناء للمعابد والمقابر والقصور والحصون والقلاع الصلبة الراسخة الباقية عبر الأزمان، وهذا رسوخ في القوة، ولكن كل هذا لم يدفع عنهم ولم يصرف عنهم شيئا من عذاب الله لما نزل بهم، فأبادهم جميعا واستأصلهم ولم يملكوا حولا ولا قوة تمنعهم، فهل أنتم تعون هذا عند رؤية آثارهم فتعرفون بذلك أنكم أقلّ عددا وأضعف قوة وأرق آثارا، لا تملكون صرفا ولا نصرا، ولن تجدوا ملجأ أو مغارات أو مدّخلا تحتمون فيها.

فأولئك الأقوام أتتهم رسلهم بالآيات البيّنات الواضحات الكاشفات عن الحق المبين فأعرضوا عنها وكفروا بها، وفرحوا بما لديهم من العلم الدنيوي الظاهري، وأحاط بهم من عذاب الله ما كانوا يستعجلون رسلهم به استهزاء وسخرية.

فلما انتهى زمن الإمهال وأتى زمن الأخذ والعذاب وحلّ العقاب ونزل البلاء ونظروا عيانا لبأس الله الشديد وهو يتلبس بهم، قالوا حينها في عجل واضطرار: أقررنا بتوحيد الله، وصدّقنا أنه لا إله غيره، وجحدنا جميع الآلهة التي كنا قبل اللحظة نشركها في عبادتنا ونعبدها مع الله، ونتخذها آلهة، تبرأنا من كل هذا.

ولكن هيهات فإنه من رأى عذاب الله في الدنيا لم ينفعه الإيمان عند ذلك، فهو كإيمان فرعون عند غرقه لما عاين الموت والهلاك، وهذه سنة الله وعادته التي قررها على عبيده، بأنه لا توبة ولا إيمان يُقبل وينفع إلا ما كان قبل رؤية البأس وقبل الغرغرة وقبل طلوع الشمس، فعند مجيء هذه الأمور أو بعضها يكون

الأوان قد فات والهلاك قد تأكد، فيخسر عندها الكافرون وتغبن صفقتهم، ويبتدئ شقاؤهم بانقضاء نعيم الدنيا وحلول عذاب الآخرة، فيا لخسارة من باع الآخرة بالدنيا، والمغفرة بالعذاب، والإيمان بالكفر، ويا لخسارة الكافرين بربهم، الجاحدين توحيد خالقهم، المتخذين من دونه آلهة يعبدونهم من دون بارئهم.

المطلب الخامس: بيان ما ترشد إليه الآيات[1]:

١- يحث تعالى المكذبين لرسلهم على السير في الأرض بأبدانهم وقلوبهم وسؤال العالمين، للعظة والاعتبار وتقوية للإيمان.

٢- بيان سنة بشرية وهي أن الماديين يغترون بمعارفهم المادية ليستغنوا بها عن العلوم الروحية في نظرهم إلا أنها لا تغني عنهم شيئا عند حلول العذاب بهم في الدنيا وفي الآخرة.

٣- إن هناك معان كثيرة تذكر في القرآن باختصار، إن مجرد الإشارة إليها يعتبر معجزة ضخمة لمن عقل، وتأمل من ذلك قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ ﴾، فالإشارة إلى أن العلم الدنيوي عامل من عوامل الغرور الصاد عن متابعة الرسل، معجزة من معجزات هذا القرآن، وهي معجزة لا يدرك الإنسان مداها كما يدركه في عصرنا هذا، إذ وصل الغرور البشري إلى ذروته، فأصبح أهل العلم بقوانين هذا الكون يحتقرون كل العلوم الدينية إلا المنصفين منهم، وقليل ما هم.

٤- فرح المشركين بما لديهم من العلم، يدل على شدة رضاهم به وتمسكهم، ومعاداة الحق الذي جاءت به الرسل، وجعل باطلهم حقا، وهذا عام لجميع العلوم التي نوقض بها ما جاءت به الرسل، ومن أحقها بالدخول في هذا علوم الفلسفة والمنطق اليوناني الذي رُدّت به كثير من آيات القرآن الكريم، ونقّصت قدره في القلوب، وجعلت أدلته اليقينية القاطعة أدلة لفظية لا تفيد شيئا من اليقين، ويقدم عليها عقول أهل السفه والباطل، وهذا من أعظم الإلحاد في آيات الله والمعارضة لها والمناقضة.

٥- كل من غالط نفسه في الدنيا فإنه سيندم ويعترف بالحق حين حلول العذاب الدنيوي والأخروي، ولكن يكون الوقت قد فات على التوبة وإصلاح الفساد.

٦- بيان سنة الله التي لا تتخلف في كل من كفر في وقت الإمهال أنه لا ينفعه الإيمان عند رؤية العذاب العاجل أو الآجل، وهنا سيتحقق الخسران الكامل للكافرين.

***

---

١) انظر: تيسير الكريم الرحمن للسعدي (١/٧٤٤). والأساس في التفسير لسعيد حوّى (٩/٤٩٨٨-٤٩٨٩). وأيسر التفاسير للجزائري (٤/٥٥٨). والتفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم لجامعة الشارقة، بإشراف د. مصطفى مسلم (٦/٦٠٤). والتفسير المنير للزحيلي (٢٤/١٧٦-١٧٨).

كلمة أخيرة جامعة في سورة غافر

تبيّن من الدراسة السابقة أن سورة غافر يدور محورها حول قضية الصراع بين الحق والباطل، والإيمان والكفر، وقد عرضت السورة هذا الصراع في صور شتى، منها:

١- مصارع الأمم الغابرة مثل قوم نوح عليه السلام ومن بعدهم الذي أهلكهم الله بسبب تكذيبهم لأنبيائهم ورسلهم عليهم الصلاة والسلام.

٢- قصة موسى عليه السلام وإرساله إلى فرعون الطاغية الذي أدعى الألوهية وأراد قتل موسى عليه السلام.

٣- قصة مؤمن آل فرعون ودفاعه عن موسى عليه السلام ونصحه قومه و تذكيره إياهم.

٤- عرض بعض مشاهد القيامة وتخاصم الضعفاء والمستكبرين في النار.

٥- عرض الجدال والمجادلين في آيات الله وبيان أحوالهم وسنة فيهم وفي المكذبين لآياته ورسله.

- وهناك موضوعات أخرى اهتمت بها السورة، منها:

١- نزول القرآن من عند الله وبيان بعض صفات منزله.

٢- علاقة الملائكة بالله والكون والإنسان وبيان بعض وظائفهم التي وكّلها الله إليهم.

٣- إثبات البعث والحساب والجزاء وبيان أحوال المؤمنين والكافرين فيه.

٤- بيان حقيقة الألوهية ونشر دلائله وإثبات التوحيد.

٥- وجوب عبادة الله والإخلاص فيها وذكر بعض أنواعها من الدعاء والاستغفار والتسبيح والاستعاذة.

٦- إثبات النبوة والرسالة ووظيفتها وأنها اصطفاء من الله.

٧- التأكيد على أنّ حكم الله نافذ وقضاؤه ماضٍ ولا معقب لحكمه.

٨- الحث على السير في الأرض لمعرفة سنن الله في خلقه والاعتبار بأحوال وأخبار السابقين.

٩- بيان خطورة بعض الذنوب وأنها سبب للغواية وعدم الاهتداء إلى الحق، مثل: الإسراف والكذب والارتياب والكبر.

١٠- بيان سنة الله الدائمة في نصره لرسله واتباعه المؤمنين في الدنيا والآخرة.

١١- الحث على الصبر وبيان عاقبته الحسنة العاجلة والآجلة.

١٢- حقيقة الإنسان ومراحل تكوينه، وسنة الله في موت خلقه فهو الذي يتوفاهم ويحدد آجالهم.

١٣- التحذير من الشرك والأمر بالإسلام والانقياد لله تعالى.

وقد افتتحت سورة غافر بالحرفين المقطعين من حروف الهجاء؛ لأن أول أغراضها أن القرآن من عند الله، ففي حرفي الهجاء رمز إلى عجزهم عن معارضته بعد أن تحداهم لذلك فلم يفعلوا، وفي ذلك الافتتاح تشويق إلى تطلع ما يأتي بعده للاهتمام به.

وكان في الصفات التي أجريت على اسم منزل القرآن إيماء إلى أنه لا يشبه كلام البشر؛ لأنه كلام العزيز العليم، وإيماء إلى تيسير إقلاعهم عن الكفر، وترهيب من العقاب على الإصرار، وذلك كله من براعة الاستهلال، ثم تخلص من الإيماء والرمز إلى صريح وصف ضلال المعاندين وتنظيرهم بسابقيهم من الأمم التي استأصلها الله.

وتخلل في ذلك كله من المستطردات والانتقالات بذكر ثناء الملأ الأعلى على المؤمنين والدعاء لهم ومقتهم على الكافرين، وذِكر ما هم صائرون إليه من العذاب والندامة، وتمثيل الفارق بين المؤمنين والكافرين، وتشويه حال الكافرين في الآخرة، وتثبيت المؤمنين على إيمانهم وأنّ الله ناصر رسوله والمؤمنين في الدنيا والآخرة، وأمرِهم بالصبر والتوكل، وأنّ شأن الرسول ﷺ كشأن الرسل من قبله في لقيان التكذيب، وفي أنه يأتي بالآيات التي أجراها الله على يديه دون مقترحات المعاندين.

وخصّ بالذكر أعظم الرسل السالفين وهو موسى عليه السلام، مع أمة من أعظم الأمم السالفة وهم أهل مصر، لشدة مماثلة حالهم لحال المشركين من العرب في الاعتزاز بأنفسهم، وفي قلة المؤمنين منهم مثل مؤمن آل فرعون، وتخلل ذلك ثبات موسى عليه السلام، وثبات مؤمن آل فرعون، إيماء إلى التنظير بثبات محمد ﷺ وأبي بكر رضي الله عنه، ثم انتقل إلى الاستدلال على الوحدانية وسعة القدرة على إعادة الأموات، وختمت بذكر أهل الضلال من الأمم السالفة الذين أوبقهم الإعجاب برأيهم وثقتهم بجهلهم فصمت آذانهم عن سماع حجج الحق، وأعماهم عن النظر في دلائل الكون، فحسبوا أنهم على كمال لا ينقصهم ما به حاجة إلى الكمال، فحاق بهم العذاب، وفي هذا رد العجز على الصدر، وخوّف الله المشركين من الانزلاق في هاوية الأولين، بأن سنة الله في عباده الإمهال ثم المؤاخذة، فكان ذلك كلمة جامعة للغرض أذنت بانتهاء الكلام فكانت محسن الختام.[1]

وقال البقاعي ملخصا أوجه الترابط بين موضوعات سورة غافر: "لما كانت هذه السورة في بيان العزة التي هي نتيجة كمال العلم وشمول القدرة، وكان عظم العزة بحسب عظمة المأخوذ بها المعاند لها، كرّر ذكر

---

١) انظر: التحرير والتنوير لابن عاشور: (٢٤/٢٢٤-٢٢٥).

المجادلة في هذه السورة تكريراً أذن بذلك، فقال في أولها: ﴿ مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ غافر:٤، ثم دلّ على أنهم مأخوذون من غير أن يغني عنهم جدالهم الذي أنتجه ضلالهم، وعلى توابع ذلك ترغيباً وترهيباً، إلى أن قال: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ ﴾غافر:١٣، وذكر بعض ما اشتد إلفهم له حتى سقطت غرابته عندهم، فنبههم على ما فيه ليكفهم عن الجدال ويغتنوا به على اقتراح غيره، ثم ذكر قصة موسى عليه الصلاة والسلام مذكراً لهم ما حصل من تعذيب المكذبين المجادلين بعد وقوع ما اقترحوا من الآيات بقولهم: ﴿فَأۡتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ١٥٤﴾الشعراء:١٥٤، ومضى يذكر وينذر ويحذر في تلك الأساليب التي هي أمضى من السيوف، وأجلى من الشموس في الصحو دون الكسوف، حتى قال: ﴿ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡۖ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ ﴾غافر:٣٥، ثم شرع في إتمام قصة موسى عليه السلام إلى أن قال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ ﴾غافر:٥٦، لشدة الإلف ووضوحها جدال المجادل، وضلال المماحك المماحل، لولا أنه قد أخرجتها شدة الألف لها من حيز الغرابة من خلق الخافقين وتكوير الملوين، وبسط الأرض ورفع السماء وتصوير الإنسان وما فيه من عظيم الشأن، فكشفت ستورها، وبيّن دلالتها وظهورها، ولفت الكلام إلى تهديد المجادلين بقوله منكراً عليهم: ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ ﴾غافر:٦٩، خصمه بما هو من حججه كالشمس نوراً وطلعة وظهوراً أنكر بالاستفهام الذي هو أمرّ من وقع السهام، فلما ثبت بذلك عنادهم وغلظتهم وقوتهم في لددهم واشتدادهم، بيّن جهلهم بذُلّهم عندما أحكموا عُقَدَهُ من شرّهم، فقال مبيناً لما أجمل من الحيق مسبباً عنه لافتاً القول إلى مظهر العظمة ترهيباً: ﴿ فَلَمَّا رَأَوۡاْ ﴾غافر:٨٤، أي عاينوا ﴿ بَأۡسَنَا ﴾غافر:٨٤، وقد التف آخرها -بما بيّن من كمال العزة وتمام القدرة وشمول العلم مما رتب من أسباب الهداية والإضلال والإشقاء والإسعاد والنجاة والإهلاك- بأولها أي التفاف، واكتنفت البداية والنهاية بيان ذلك مع ما اشتمل عليه الوسط أيضا منه أعظم اكتناف، فسبحان من هذا إنزاله، وتبارك اسمه وجل جلاله، ولا إله سواه ولا حول ولا قوة إلا بالله"[1].

---

١) نظم الدرر (١٧/١٣٠-١٣٣).

وقال سعيد حوّى: رأينا أن محور سورة غافر هو قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ۝٧ ﴾البقرة:٦-٧.

وقد رأينا في السورة الكثير مما له علاقة بالمحور، فرأينا أنّ علامة الكفر هي المجادلة في آيات الله: ﴿ مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ غافر: ٤.

ورأينا أن الجدال في آيات الله هو علامة الطبع على القلب: ﴿ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ مُّرۡتَابٌ ۝٣٤ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡۖ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ ۝٣٥ ﴾غافر: ٣٤-٣٥.

ورأينا أنّ العلة الحقيقية للجدال في آيات الله هي الكبر: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ ﴾غافر: ٥٦.

ورأينا أنّ المجادلين في آيات الله مصرفون عن الحق بسبب العمى والصمم، اللذين يصاب بهما القلب الكافر ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصۡرَفُونَ ۝٦٩ ﴾غافر: ٦٩.

ورأينا في السورة: استحقاق الكافرين لعذاب الله في الدنيا، ورأينا صورة عن عذابهم في البرزخ، ورأينا صورة عن عذابهم يوم القيامة، ورأينا -مع هذا كله- كيف أن الحجة قائمة عليهم، ورأينا أدب النذير، ونماذج من الإنذار، ورأينا ما ينبغي أن يفعله النذير في مقابلة كفر الكافرين، وارتباط ذلك كله بمحور السورة واضح.

ولما كانت سورة الزمر قد فصّلت في نقطة البداية للاهتداء بهذا القرآن، وبيّنت أن الاهتداء بهذا القرآن لصالح الإنسان، جاءت سورة غافر فبيّنت خطر المجادلة في آيات الله، وربّت على التسليم، وستأتي سورة فصّلت لتبين مواقف الكافرين من دعوة رسول الله ﷺ ومن القرآن، وترد عليها، وتبين ملامح الطريق إلى الله، وتدفع المسلم إلى السير الصحيح فيه، وهكذا تجد أن السورة وما حولها كمّلت بعضها بعضا، مع كون كل سورة قد خدمت محورها في سياقها الرئيسي.

وهذه سورة غافر قد انسجمت بداياتها ونهاياتها وأواسطها مع بعضها، وخدمت محورها، وخدمت ما حولها، وتداخلت هذه المعاني كلها مع سياقها الخاص.[1]

وبعد، فإن المتدبر لسورة غافر بعد هذه الدراسة لآياتها يراها قد أقامت أنصع الأدلة وأقواها على وحدانية الله تعالى وقدرته، كما يراها قد ساقت ألوانا من التسلية للرسول ﷺ عمّا لحقه من قومه، تارة عن طريق قصص الأنبياء السابقين مع أقوامهم، وتارة عن طريق التصريح بأن العاقبة ستكون له ولأتباعه، كما في الآية المحورية: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿٥١﴾ ﴾غافر: ٥١.

كما يراها قد فصّلت الحديث عن تكريم الله تعالى لعباده المؤمنين، تارة عن طريق استغفار الملائكة لهم، وتضرعهم إلى خالقهم أن يبعد الذين آمنوا عن عذاب الجحيم، وتارة عن طريق وعدهم بإجابة دعائهم.

كما يرها قد اهتمت بالحديث عن مصارع الغابرين، ولفتت الأنظار لموضع العبرة من إهلاك السابقين، وهو كفرهم بالآيات البيّنات التي جاؤوا بها، بأسلوب يغرس الخوف في القلوب، ويبعث على التأمل والتدبر والتفكر في العواقب.

كما يراها قبل كل ذلك وبعد كل ذلك لها أسلوبها البليغ المؤثر في إحقاق الحق وإبطال الباطل، وفي تثبيت المؤمن وزلزلة الكافر، وفي تعليم الدعاة كيف يخاطبون غيرهم بأسلوب مؤثر حكيم، نراه متمثلا في تلك النصائح الغالية التي وجهها مؤمن آل فرعون إلى قومه، والتي حكاها القرآن بالتفصيل والتمام.

وقد ختمت السورة بما يؤكد الغرض المهم منها: وهو الاعتبار بمصرع الظالمين المكذبين، وما يلقونه من أصناف العذاب، ومبادرتهم إلى الإيمان حين رؤية العذاب، ولكن لا ينفعهم ذلك، فإن سنة الله الثابتة ألا يقبل إيمان اليأس أو حال رؤية البأس.[2]

---

١) انظر: الأساس في التفسير (٩/٤٩٨٩-٤٩٩٢).

٢) انظر: التفسير الوسيط لطنطاوي (١٢/٢٥٧-٢٥٨). والتفسير المنير للزحيلي (٢٤/٦٩-٧٠).

الخاتمة

أحمد الله رب العالمين، حمدا يبتدي ولا ينتهي، وأشكره فهو الموفق والمعين، توفيقا يرتقي ولا ينقضي، وأصلي على الرسول الأمين، صلاة تترى ولا تفنى، وأسلم عليه سلام المحبين، محبة تبقى ولا تبلى، وبعد:

فقد أنعم الله تعالى عليّ بأن قضيت فترة من عمري في دراسة كلام الله العزيز، ومحاولة فهمه وتدبره واكتساب هداياته وعلومه، والفضل والمنة لله وحده، لا أحصي ثناء عليه، هو سبحانه كما أثنى على نفسه، وقد بذلت في هذا البحث من الجهد الكثير في حق نفسي، القليل في حق ربي وكتاب ربي، فمنه كان التوفيق، وإليه الرجاء بحسن القبول، ورغم ما يكتنف العمل البشري من قصور ونقص، إلا أني سعيت بحسب وسعي وطاقتي إلى إحسان هذا العمل واتقان هذا البحث، فكنت أرجع في كل آية إلى أكثر من مائة كتاب ومصنف في التفسير وعلوم القرآن من أجل استيعاب العلوم والفهوم، وتحصيل ملكة التدبر والتأمل، فخرجت بخير كثير -أرجو ذلك-، والحمد لله رب العالمين.

وقد قسّمت البحث إلى قسمين رئيسيين، قسم نظري فيه مقدمات وتمهيدات وتعريفات، وقسم تطبيقي فيه دراسة مفصلة ومعمقة للتناسق الموضوعي في سورة غافر، وهذه أبرز نتائج القسمين:

- **أولا نتائج القسم النظري:**

١- أنّ التناسق الموضوعي كمصطلح علمي يعني: تتابع القضايا وانتظامها وترتيبها في القرآن العظيم وسوره.

٢- أنّ التناسق الموضوعي في السورة القرآنية يعني: إظهار تماسك بناء السورة القرآنية، واتساق معانيها المتشعبة التي تتضمنها، والتحام موضوعاتها ضمن غرض محوري واحد، لخدمة مقصود واحد، دون تنافر أو تفكك.

٣- أنّ التناسق الموضوعي اسم جديد في إطلاقه وتعريفه، قديم في معناه وتطبيقه، نجده مبثوثا في كلام المفسرين الأوائل وكتبهم.

٤- أنّ الهدف والغاية من التناسق الموضوعي هي إبراز نظام الموضوعات داخل السورة، وأنها في تلاؤم وانسجام وترتيب وتتابع بديع، يتجلّى ذلك بوضوح في اتساق مبادئ الآي والمقاطع، والارتباط بينها في السورة الواحدة بحيث تأخذ كلُّ كلمة موضعَها في التركيب والترتيب لا يُرى غيرُها أصلح منها في موضعها، وفي هذا إبرازا لوجه من أوجه إعجاز القرآن الكريم في نظمه

ونسقه، مما يكشف بجلاء جمال التنزيل الكريم، ويزيد المؤمن حلاوة في الإيمان، ويقينا بعظمة القرآن، الذي أحكمت آياته ثم فصّلت من لدن حكيم خبير.

٥- أنّ النظر إلى موضوعات السورة في التناسق الموضوعي يتم على أساس أن السورة (ذات المواضيع المتعددة) تشكل بناء موضوعياً على الدارس إبرازه، وترتيب الموضوعات داخل السورة على أساسه، ملاحظاً أسرار الترتيب التوقيفي داخل السورة على ذلك.

٦- أنّ التناسق الموضوعي في السورة القرآنية وثيق الصلة بالوحدة الموضوعية في السورة وكذا بعلم المناسبات، فالتناسق هو الطريق إلى الوحدة، والمناسبات هي الطريق إلى التناسق، وتدخل معه داخل دائرة عظيمة هي دائرة النظم القرآني.

٧- فالعلاقة بين هذه الثلاثة: أنّ كل وحدة موضوعية هي تناسق موضوعي، وكل تناسق موضوعي ووحدة موضوعية هو مناسبات، وليس كل مناسبة هي تناسق موضوعي أو وحدة موضوعية.

٨- أنّ للبحث في التناسق الموضوعي للسور القرآنية فوائد عديدة، من أهمها: تيسير فهم ما أشكل على المفسرين، وترجيح ما اختلفوا فيه، واستجلاء أسرار القصص القرآني، واستنباط بعض الحكم التربوية والإشارات والنكت اللطيفة، وغيرها من الفوائد التي تنبئ عن أهمية دراسة التناسق في السورة القرآنية وجعلِه مرتكَزًا في الدراسات التفسيرية.

٩- من استطاع أن يقف على مقاصد القرآن الكريم الكلية، وعلى المقاصد الرئيسية والفرعية لسوره، فقد تمكن من وضع أساسات هذا الدين وتشيد جميع أركانه وتكميل بنيانه ورفع قواعده.

١٠- أبرز مقصد من بين المقاصد الكلية للقرآن الكريمة التي تهدف سورة غافر إلى تحقيقه بشكل أكبر هو المقصد القرآني المتمثل في أبواب الترغيب والترهيب بالمواعظ والإنذار والتحذير والتبشير، والذي يجمع جميع آيات الوعد والوعيد، وكذلك المحاجة والمجادلة للمعاندين.

١١- بعد التدبر والتفكر، واستعراض أقوال أهل التفسير والبيان، تبين أن مقصد سورة غافر الأعظم ومحورها الأساسي ووحدتها الموضوعية -بحسب وجهة نظر الباحث- هو: ردع العدوان ودفعه عن الرسالة والرسول والمؤمنين ونصرتهم في خضم الصراع بين الحق والباطل في أشد مراحل الاستضعاف بالعهد المكي.

١٢- تبيّن بعد الدراسة أن لسورة غافر على وجه الشهرة اسمان: (غافر، والمؤمن)، وعلى وجه التقصي سبع أسماء: (غافر، والمؤمن، والطول، وحم غافر، وحم المؤمن، وحم الأولى، وحم الأول).

١٣- أنّ سورة غافر مكية، ومحاطة بسورتين مكيتين (الزمر وفصلت) بلا خلاف في ذلك، ولكن وقع الخلاف في ثلاث آيات منها أنها مدنية، ولا تقوم لمدنية تلك الآيات حجة صحيحة صريحة، والصحيح أن سورة غافر مكية كلها، وحكي في هذا إجماع.

١٤- أن سورة غافر تنتمي لمجموعة سور الحواميم السبعة المتتالية المكية، وهي أولها في ترتيب المصحف، وأولها بحسب النزول أيضا على الراجح، ومن أبرز سماتها أنها قد خلت من الأحكام، واقتصرت على المواعظ والزجر وطرق الآخرة، واشتملت على ذكر صفات الله جل جلاله، وما أعده للمؤمنين، وما أوعد به الكافرين.

١٥- لم تثبت أحاديث صحيحة في فضل سورة غافر بخصوصها، ولكن وردت أحاديث وآثار صحيحة وحسنة في فضل سور الحواميم، وسورة غافر إحدى الحواميم.

١٦- وردت أربع أسباب نزول في سورة غافر، وكلها ضعيفة سندا لا تنهض بحجة.

ثانيا: نتائج القسم التطبيقي:

١- أنّ موضوعات سورة غافر قد تفرّعت إلى سبع عشرة مقطعا، تكاملت وتناسقت كلها فيما بينها لتحقيق هدف أعظم، ولخدمة وإبراز محور ومقصد رئيسي واحد.

٢- أنّ الآية الموضوعية المحورية لهذه السورة والتي تجذب موضوعات السورة الأخرى نحوها هي قوله تعالى: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ﴿٥١﴾ ﴾غافر: ٥١، ففي هذه الآية تتمثل الوحدة الموضوعية لسورة غافر.

٣- أنّ الآية القرآنية المحورية التي تفصّل فيها وتشرحها سورة غافر هي قوله تعالى من سورة البقرة: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٧﴾ ﴾البقرة: ٦-٧.

٤- أنّ أبرز أسباب الكفر والفجور التي عالجتها هذه السورة هي الكفر القائم على الجدال الباطل في آيات الله، وقد تكرر ذكر الجدال في السورة خمس مرات، ولا مثيل لهذا في باقي سور القرآن.

٥- أنّ أبرز أسلوب يظهر في السورة هو أسلوب الشدة والقوة، والتهديد والوعيد، والترهيب الشديد، والتهكم والتوبيخ، وحتى آيات الترغيب والوعد الحسن تتخللها معاني التهريب والشدة، وكلمات القوة والرهبة.

٦- وظّفت السورة الكريمة لتحقيق غرضها أمورا عدة، وهي:

أ- تقرير أسماء الله الحسنى وصفاته العلى.

ب- التذكير بقصص الرسل السابقين وعاقبة الأمم الغابرين وأمثلة الماضين.

ت- الاستدلال بآيات الله المبثوثة في الأفاق والأنفس، والامتنان بنعمه وآلائه الخارجة عن الحصر.

ث- الترهيب والوعيد الشديد بذكر صفات جلال الله وقهره وجبروته، ووصف مشاهد الهلاك والعذاب والخسران المبين.

ج- الترغيب والوعد بذكر شرف الإيمان والمؤمنين والجزم بحتمية النصر العاجل والآجل.

٧- بيان صفات الجدال المذموم، وتتلخص في الآتي:

أ- أنّه جدال وخصام من أجل ردّ آيات الله البيّنات ودفعها لا من أجل فهمها واستيعابها.

ب- أنّ الجدال في آيات الله لا يفعله إلا الذين كفروا بالله وآياته.

ت- أنّ جدال هؤلاء الكافرين قائم على الجدال بالباطل لدحض الحق.

ث- أنّ الباعث والدافع لهؤلاء الكافرين إلى الجدال هو الكبر الذي امتلأ به صدورهم.

ج- أنّ جدال هؤلاء الكافرين لا يستند إلى بينة أو برهان.

ح- أنّ المجادلين في آيات الله مصرفون عن الحق بسبب عمى البصيرة الذي يصاب به القلب الكافر.

خ- أنّ الجدال في آيات الله علامة الطبع على القلب.

٨- تكشف لنا السورة أنه مهما بلغت الرسالة من الكمال في عقائدها وأحكامها، ومهما بلغ الرسول من الكمال في صفاته ودعوته، فلن يؤمن جميع الناس، بل ستظل مجموعة تنابذ الإيمان والمؤمنين بالكفر، وذلك لأن كفرهم قائم على الكبر والجحود والعناد، لا على نقص في الدعوة أو عيب في الداعية.

٩- وعدت السورة الكريمة رسل الله وأتباعه المؤمنين بالنصر في الدنيا والآخرة، ودعتهم إلى الاستعانة بأعظم أسباب النصر المتمثلة في الآتي:

أ- الصبر الجميل.

ب- الاستغفار من الذنوب.

ت- الإكثار من التسبيح بحمد الله تعالى بالعشي والإبكار.

ث- الاستعاذة بالله تعالى من شر الأعداء.

١٠- أنّ من أبرز المقاصد التي عالجتها السورة هي تسلية النبي صلى الله عليه وتثبيته والربط على قلبه وتقويه، هو ومن معه من المؤمنين، لأن جو المعركة القائمة ضده والمؤمنين في مرحلة الاستضعاف تقتضي بشدة رفع معنويات أهل الحق وتعزيز الإيمان والأمل بل الثقة واليقين في قلوبهم، حتى تنقضي فترة المحنة والاستضعاف بسلامٍ، بل بنصرٍ من بعض الوجوه -المهمة- ريثما يتحقق النصر الأكيد لاحقا في مرحلة القوة والاستقرار بالمدينة.

١١- كذلك من أبرز الأمور التي عالجتها السورة وركزت عليها -إضافة إلى الجدال والمجادلين- هو موضوع الكبر، فحذّرت منه أشد التحذير، وذكرت أنه الباعث الحقيقي وراء كثير من الجدال الباطل والكفر الظالم.

١٢- أنّ من أبرز كتب التفسير التي يمكن الاستفادة منها في التناسق الموضوعي هي: مفاتيح الغيب للفخر الرازي، ونظم الدرر للبقاعي، وروح البيان لإسماعيل حقي، وفي ظلال القرآن لسيد قطب، والتحرير والتنوير لابن عاشور، والتفسير الحديث لمحمد دروزة، والتفسير القرآني للقرآن لعبد الكريم الخطيب، والأساس في التفسير لسعيد حوّى، وهو أفضلها على الإطلاق -في نظر الباحث- خدمة لهذا الموضوع.

وفي الختام، وقد بلغت الرسالة التمام، في بلد الله الحرام، وبين ظهراني أمي وأبي الكرام، أشكر الله تعالى شكرا يمتد عبر الأزمان، ولا ينقضي بفناء الأكوان، فقد وفق مولاي الكريم وأعان، وله وحده الفضل والامتنان، ثم أتبع بالشكر الجزيل، والعرفان الجميل، لجامعة أم القرى، التي التحقت بها فتى يافعا، لأتخرج منها -بفضل الله وتوفيقه- دكتورا، فالشكر الجزيل لجامعة أم القرى، منبع العلم والهدى، وكلية الدعوة وأصول الدين، مركز العلماء المتقين، وقسم الكتاب والسنة، مدرسة القرآن والحكمة، وشعبة التفسير وعلوم القرآن، مجلس التلاوة والبيان، وينقضي السجع حين يتقدم القلب متوجها بالشكر العميق إلى المشرف على رسالتي شيخي وأستاذي ووالدي فضيلة الشيخ الأستاذ الدكتور / جمال بن مصطفى عبد الحميد عبد الوهاب النجار، أسأل الله أن يجزيه عني وعن طلاب العلم خير الجزاء وأوفاه، فقد بذل لي من غزير علمه وحسن خلقه وجمال أدبه ما أعجز عن شكره وأداء حقه، فحفظه الله تعالى وبارك في علمه وعمره، وجعل لي نصيبا في صالح دعائه، ولا يفوتني تقديم الشكر الجميل إلى مرشدي الكريم وموجهي الحكيم فضيلة الشيخ الأستاذ الدكتور / صديق بن أحمد مالك، حفظه الله ورعاه، فقد أحسن توجيهي وإرشادي، فجزاه الله عني خيرا، والشكر موصول كذلك لكل من أعانني أو أحب إعانتي وإرشادي من زملائي الأكارم، وأقاربي وأحبابي، وعموم المسلمين، فلكم مني الشكر والتقدير والذكر الجميل، ولكم جميعا من الله تعالى المثوبة والأجر.

وهذا أوان الانصراف، ووضع القلم والقرطاس، فبحمد الله بدأت، وبحمده يكون الختام.

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

وصلى الله وسلم وبارك على خير خلقه وإمام رسله، سيدنا ونبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

﴿ سُبۡحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ١٨٠ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٨١ ﴾

﴿ وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٨٢ ﴾

****

***

*

ثبت المراجع والمصادر

م	المصادر والمراجع
١	القرآن الكريم، كلام رب العالمين.
٢	الإتقان في علوم القرآن، لعبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ)، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة: ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م، عدد الأجزاء: ٤.
٣	الأذكار، لأبي زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (المتوفى: ٦٧٦هـ)، تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط -رحمه الله-، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، طبعة جديدة منقحة، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.
٤	إرشاد الثقات إلى اتفاق الشرائع على التوحيد والمعاد والنبوات، لمحمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني (المتوفى: ١٢٥٠هـ)، المحقق: جماعة من العلماء بإشراف الناشر، الناشر: دار الكتب العلمية – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م، عدد الأجزاء: ١.
٥	إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، أبي السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى (المتوفى: ٩٨٢هـ)، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت.
٦	أساس البلاغة، لأبي القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (المتوفى: ٥٣٨هـ)، تحقيق: محمد باسل عيون السود، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م، عدد الأجزاء: ٢.
٧	الأساس في التفسير، لسعيد حوى (المتوفى:١٤٠٩هـ)، الناشر: دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، الطبعة الأولى: ١٤٠٥هـ.
٨	أسرار ترتيب القرآن (تناسق الدرر في تناسب السور)، لعبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ)، الناشر: دار الفضيلة للنشر والتوزيع، عدد الأجزاء: ١.
٩	أسماء القرآن الكريم وأسماء سوره وآياته؛ معجم موسوعي ميسر، تأليف: د. آدم بمبا، الناشر: مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، الإمارات العربية المتحدة، الطبعة الأولى: ١٤٣٠هـ-٢٠٠٩م.
١٠	أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، لمحمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي (المتوفى : ١٣٩٣هـ)، الناشر : دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع بيروت – لبنان، عام النشر : ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م.
١١	إعراب القرآن وبيانه، لمحيي الدين بن أحمد مصطفى درويش (المتوفى : ١٤٠٣هـ)، الناشر : دار الإرشاد للشئون الجامعية-حمص - سورية، (دار اليمامة - دمشق - بيروت)، (دار ابن كثير - دمشق - بيروت)، الطبعة : الرابعة، ١٤١٥ هـ، عدد المجلدات : ١٠.
١٢	إعراب القرآن، لأبي جعفر النَّحَّاس أحمد بن محمد بن إسماعيل بن يونس المرادي النحوي (المتوفى:

	٣٣٨هـ)، وضع حواشيه وعلق عليه: عبد المنعم خليل إبراهيم، الناشر: منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ.
١٣	الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام المسمى بـ (نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر)، لعبد الحي بن فخر الدين بن عبد العلي الحسني الطالبي (المتوفى: ١٣٤١هـ)، دار النشر: دار ابن حزم - بيروت، لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ، ١٩٩٩م، عدد الأجزاء: ٨.
١٤	الأعلام، لخير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي الدمشقي (المتوفى: ١٣٩٦هـ)، الناشر: دار العلم للملايين، الطبعة: الخامسة عشر - أيار / مايو ٢٠٠٢ م.
١٥	الإكليل في استنباط التنزيل، لعبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ)، تحقيق: سيف الدين عبد القادر الكاتب، دار النشر: دار الكتب العلمية – بيروت، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م، عدد الأجزاء: ١.
١٦	إمتاع الأسماع بما للنبي من الأحوال والأموال والحفدة والمتاع، لأحمد بن علي بن عبد القادر، أبو العباس الحسيني العبيدي، تقي الدين المقريزي (المتوفى: ٨٤٥هـ)، المحقق: محمد عبد الحميد النميسي، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م، عدد الأجزاء: ١٥.
١٧	إمعان النظر في نظام الآي والسور، لمحمد عناية الله أسد سبحاني، طبعة دار عمار.
١٨	أنوار التنزيل وأسرار التأويل، لناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (المتوفى: ٦٨٥هـ)، المحقق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٨هـ.
١٩	أهداف كل سورة ومقاصدها، لعبد الله محمود شحاته، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٦م.
٢٠	الأهوال، لأبي بكر عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان بن قيس البغدادي الأموي القرشي المعروف بابن أبي الدنيا (المتوفى: ٢٨١هـ)، المحقق: مجدي فتحي السيد، دار النشر: مكتبة آل ياسر – مصر، عام النشر: ١٤١٣ هـ، عدد الأجزاء: ١.
٢١	أوضح التفاسير، لمحمد محمد عبد اللطيف بن الخطيب (المتوفى: ١٤٠٢هـ)، الناشر: المطبعة المصرية ومكتبتها، الطبعة: السادسة، رمضان ١٣٨٣ هـ - فبراير ١٩٦٤ م، عدد الأجزاء: ١.
٢٢	إيجاز البيان عن معاني القرآن، لمحمود بن أبى الحسن بن الحسين النيسابوري أبو القاسم، نجم الدين (المتوفى: نحو ٥٥٠هـ)، المحقق: الدكتور حنيف بن حسن القاسمي، الناشر: دار الغرب الإسلامي – بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٥هـ.
٢٣	أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، لجابر بن موسى بن عبد القادر بن جابر أبو بكر الجزائري، الناشر: مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الخامسة، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، عدد الأجزاء: ٥.

٢٤	الإيضاح في القراءات، لأَحْمَدَ بنِ أَبي عُمَرَ الأَنْدَرَابِيّ (ت: بعد ٥٠٠ هـ)، دراسة و تحقيق: منى عدنان غني، الى مجلس كلية التربية للبنات في جامعة تكريت، بإشراف الأُستاذ الدكتور : غانم قدُّوري حمد، ربيع الثاني ١٤٢٣هـ، تموز ٢٠٠٢م.
٢٥	بحث الإعجاز البياني في قصة مؤمن آل فرعون، لماجد محمد الماجد، قسم اللغة العربية، كلية الآداب، جامعة الملك سعود، الرياض، السعودية، مجلة اتحاد الجامعات العربية للآداب، مجلة علمية محكمة، المجلد ٥ العدد٢، ٢٠٠٨م، صفحة ١- ٤٠.
٢٦	بحر العلوم، لأبي الليث نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم السمرقندي (المتوفى: ٣٧٣هـ). دار النشر: دار الفكر - بيروت، تحقيق: د. محمود مطرجي.
٢٧	البحر المحيط في التفسير، لأبي حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي (المتوفى:٧٤٥هـ)، المحقق: صدقي محمد جميل، الناشر: دار الفكر–بيروت، الطبعة: ١٤٢٠هـ.
٢٨	البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، لأبي العباس أحمد بن محمد بن المهدي بن عجيبة الحسني الأنجري الفاسي الصوفي (المتوفى: ١٢٢٤هـ)، المحقق: أحمد عبد الله القرشي رسلان، الناشر: الدكتور حسن عباس زكي – القاهرة، الطبعة: ١٤١٩ هـ.
٢٩	البداية والنهاية، لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى:٧٧٤هـ)، الناشر: دار الفكر، عام النشر: ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٦م، عدد الأجزاء: ١٥.
٣٠	البرهان في تناسب سور القرآن، لأحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي الغرناطي، أبو جعفر (المتوفى: ٧٠٨هـ)، تحقيق: محمد شعباني، دار النشر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية . المغرب، عام النشر: ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م، عدد الأجزاء: ١.
٣١	البرهان في توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان - أسرار التكرار في القرآن، لمحمود بن حمزة بن نصر، أبو القاسم برهان الدين الكرماني، ويعرف بتاج القراء (المتوفى: نحو ٥٠٥هـ)، المحقق: عبد القادر عطا، مراجعة وتعليق: أحمد عوض، دار النشر: دار الفضيلة، عدد الأجزاء: ١.
٣٢	البرهان في علوم القرآن، لأبي عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي (المتوفى: ٧٩٤هـ)، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة: الأولى، ١٣٧٦هـ - ١٩٥٧م، الناشر: دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي وشركائه، عدد الأجزاء: ٤.
٣٣	بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، لمجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادي (المتوفى: ٨١٧هـ)، المحقق: محمد علي النجار، الناشر: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، عدد الأجزاء: ٦، عام النشر: جـ ١، ٢، ٣: ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦م، جـ ٤، ٥: ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢م، جـ ٦: ١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣م.
٣٤	البصائر والذخائر، لأبي حيان التوحيدي، علي بن محمد بن العباس (المتوفى: نحو ٤٠٠هـ)، المحقق: د/ وداد القاضي، الناشر: دار صادر – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م، عدد الأجزاء:

١٠ (٩ ومجلد فهارس).	
بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، لعبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ)، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: المكتبة العصرية-لبنان / صيدا، عدد الأجزاء:٢.	٣٥
بيان المعاني، لعبد القادر بن ملّا حويش السيد محمود آل غازي العاني (المتوفى: ١٣٩٨هـ)، الناشر: مطبعة الترقي – دمشق، الطبعة: الأولى، ١٣٨٢ هـ - ١٩٦٥ م.	٣٦
البيان في عدّ أي القرآن، لعثمان بن سعيد بن عثمان بن عمر أبو عمرو الداني (المتوفى: ٤٤٤هـ)، المحقق: غانم قدوري الحمد، الناشر: مركز المخطوطات والتراث – الكويت، الطبعة: الأولى، ١٤١٤هـ- ١٩٩٤م، عدد الأجزاء: ١.	٣٧
بين علم المناسبة والتفسير الموضوعي للقرآن الكريم، دراسة منهجية مقارنة للدكتورة/ زهراء العبيدي، منشورة على الشبكة العنكبوتية.	٣٨
تاج العروس من جواهر القاموس، لمحمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، أبو الفيض، الملقّب بمرتضى، الزَّبيدي (المتوفى: ١٢٠٥هـ)، المحقق: مجموعة من المحققين، الناشر: دار الهداية.	٣٩
تاريخ ابن معين، معرفة الرجال عن يحيى بن معين، وفيه عن علي بن المديني، وأبي بكر بن أبي شيبة، ومحمد بن عبد الله بن نمير، وغيرهم، رواية أحمد بن محمد بن القاسم بن محرز، لأبي زكريا يحيى بن معين بن عون بن زياد بن بسطام بن عبد الرحمن المري بالولاء، البغدادي (المتوفى: ٢٣٣هـ)، المحقق: الجزء الأول: محمد كامل القصار، الناشر: مجمع اللغة العربية – دمشق، الطبعة: الأولى، ١٤٠٥هـ، ١٩٨٥م، عدد الأجزاء: ٢.	٤٠
تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، لشمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي (المتوفى: ٧٤٨هـ)، المحقق: عمر عبد السلام التدمري، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م، عدد الأجزاء: ٥٢.	٤١
تاريخ الرسل والملوك، لمحمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (المتوفى: ٣١٠هـ)، الناشر: دار التراث – بيروت، الطبعة: الثانية - ١٣٨٧ هـ، عدد الأجزاء: ١١.	٤٢
تاريخ العرب القديم، لتوفيق برو، الناشر: دار الفكر، الطبعة: إعادة الطبعة الثانية ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م، عدد الأجزاء: ١.	٤٣
تاريخ بغداد، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب البغدادي (المتوفى: ٤٦٣هـ)، المحقق: الدكتور بشار عواد معروف، الناشر: دار الغرب الإسلامي – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢ م، عدد الأجزاء: ١٦.	٤٤
تاريخ دمشق، لأبي القاسم علي بن الحسن بن هبة الله المعروف بابن عساكر (المتوفى: ٥٧١هـ)، المحقق: عمرو بن غرامة العمروي، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، عام النشر: ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥م، عدد الأجزاء: ٨٠ (٧٤ و ٦ مجلدات فهارس).	٤٥

٤٦	تأويل مختلف الحديث، لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (المتوفى: ٢٧٦هـ)، الناشر: المكتب الاسلامي - مؤسسة الإشراق، الطبعة: الطبعة الثانية- مزيده ومنقحة ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م، عدد الأجزاء: ١.
٤٧	تأويلات أهل السنة، لمحمد بن محمد بن محمود، أبو منصور الماتريدي (المتوفى: ٣٣٣هـ)، المحقق: د. مجدي با سلوم، الناشر: دار الكتب العلمية-بيروت، لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م، عدد الأجزاء:١٠.
٤٨	تبصير الرحمن وتيسير المنان بعض ما يشير إلى إعجاز القرآن، لعلي بن أمد بن إبراهيم بن إسماعيل المهايمي، (المتوفي:٨٢٥هـ)، طبع بمطبعة بولاق بمصر، عام ١٢٩٥هـ.
٤٩	التبيان في إعراب القرآن، أبو البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله العكبري (المتوفى : ٦١٦هـ)، المحقق : علي محمد البجاوي، الناشر : عيسى البابي الحلبي وشركاه، عدد الأجزاء : ٢ (في ترقيم مسلسل واحد).
٥٠	تحرير التفسير الموضوعي والوحدة الموضوعية للسورة للدكتور محمد با زمول، صفحة المؤلف على موقع جامعة أم القرى.
٥١	التحرير والتنوير (تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد)، لمحمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى : ١٣٩٣هـ)، الناشر : الدار التونسية للنشر – تونس، سنة النشر: ١٩٨٤ هـ، عدد الأجزاء : ٣٠ (والجزء رقم ٨ في قسمين).
٥٢	تحقيق جانب مشكلة الربط بين الآيات والسور في تفسير الطبري، رسالة دكتوراه لسرحان جوهر سرحان، جامعة البنجاب / الكلية الشرقية / باكستان، رسالة دكتوراه (٣٨٧ صفحة)، إشراف: أ. د ظهور أحمد أظهر، ١٩٩٦م.
٥٣	تذكرة الحفاظ، لشمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي (المتوفى: ٧٤٨هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية بيروت-لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٩هـ- ١٩٩٨م، عدد الأجزاء:٤.
٥٤	ترتيب الأمالي الخميسية للشجري، ليحيى (المرشد بالله) بن الحسين (الموفق) بن إسماعيل بن زيد الحسني الشجري الجرجاني (المتوفى ٤٩٩ هـ)، رتبها: القاضي محيي الدين محمد بن أحمد القرشي العبشمي (المتوفى: ٦١٠هـ)، تحقيق: محمد حسن محمد حسن إسماعيل، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م، عدد الأجزاء: ٢.
٥٥	التسهيل لعلوم التنزيل، لأبي القاسم، محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله، ابن جزي الكلبي الغرناطي (المتوفى: ٧٤١هـ)، المحقق: الدكتور عبد الله الخالدي، الناشر: شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم – بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٦ هـ.
٥٦	تفسير ابن عرفة، لمحمد بن محمد ابن عرفة الورغمي التونسي المالكي، أبو عبد الله (المتوفى: ٨٠٣هـ)، المحقق: جلال الأسيوطي، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٨ م، عدد الأجزاء: ٤.

٥٧	تفسير الجلالين، لجلال الدين محمد بن أحمد المحلي (المتوفى: ٨٦٤هـ)، وجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ)، الناشر: دار الحديث–القاهرة، الطبعة: الأولى، عدد الأجزاء:١.
٥٨	التفسير الحديث، لمحمد عزت دروزة، الناشر: دار إحياء الكتب العربية–القاهرة، الطبعة: ١٣٨٣ هـ.
٥٩	تفسير السمعاني، لأبي المظفر، منصور بن محمد بن عبد الجبار ابن أحمد المروزي السمعاني التميمي الحنفي ثم الشافعي (المتوفى: ٤٨٩هـ)، المحقق: ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس بن غنيم، الناشر: دار الوطن، الرياض – السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ- ١٩٩٧م.
٦٠	تفسير القرآن (وهو اختصار لتفسير الماوردي)، لأبي محمد عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن الحسن السلمي الدمشقي، الملقب بسلطان العلماء (المتوفى: ٦٦٠هـ)، المحقق: الدكتور عبد الله بن إبراهيم الوهبي، الناشر: دار ابن حزم – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م، عدد الأجزاء: ٣.
٦١	تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، لمحمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين بن منلا علي خليفة القلموني الحسيني (المتوفى: ١٣٥٤هـ)، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة النشر: ١٩٩٠ م، عدد الأجزاء: ١٢ جزءا.
٦٢	تفسير القرآن العزيز، لأبي عبد الله محمد بن عبد الله بن عيسى بن محمد المري، الإلبيري المعروف بابن أبي زَمَنِين المالكي (المتوفى: ٣٩٩هـ)، المحقق: أبو عبد الله حسين بن عكاشة - محمد بن مصطفى الكنز، الناشر: الفاروق الحديثة - مصر/ القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م، عدد الأجزاء:٥.
٦٣	تفسير القرآن العظيم، لابن أبي حاتم، أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس بن المنذر التميمي، الحنظلي، الرازي، (المتوفى: ٣٢٧هـ)، المحقق: أسعد محمد الطيب، الناشر: مكتبة نزار مصطفى الباز- المملكة العربية السعودية، الطبعة: الثالثة - ١٤١٩ هـ.
٦٤	تفسير القرآن العظيم، لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ)، المحقق: سامي بن محمد سلامة، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة: الثانية ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩ م، عدد الأجزاء: ٨.
٦٥	التفسير القرآني للقرآن، لعبد الكريم يونس الخطيب (المتوفى: ١٤٠٦هـ)، الناشر: دار الفكر العربي–القاهرة.
٦٦	التفسير القيم، لمحمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، المحقق: مكتب الدراسات والبحوث العربية والإسلامية بإشراف الشيخ إبراهيم رمضان، الناشر: دار ومكتبة الهلال – بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٠ هـ.
٦٧	تفسير المراغي، لأحمد بن مصطفى المراغي (المتوفى: ١٣٧١هـ)، الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة: الأولى، ١٣٦٥ هـ - ١٩٤٦ م، عدد الأجزاء: ٣٠.

٦٨	التفسير المظهري، لمحمد ثناء الله المظهري، المحقق: غلام نبي التونسي، الناشر: مكتبة الرشدية – باكستان، الطبعة: ١٤١٢ هـ.
٦٩	التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، لوهبة بن مصطفى الزحيلي، الناشر : دار الفكر المعاصر – دمشق، الطبعة : الثانية ، ١٤١٨ هـ، عدد الأجزاء : ٣٠.
٧٠	التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم لجامعة الشارقة، إعداد: نخبة من علماء التفسير والقرآن، بإشراف: أ. د. مصطفى مسلم، الإصدار رقم ١٠٢، كلية الدراسات العليا والبحث العلمي، جامعة الشارقة، الطبعة الأولى: ١٤٣١هـ-٢٠١٠م، عدد الأجزاء: ١٠مجلدات.
٧١	التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، لأحمد السيد الكومي، ومحمد أحمد يوسف القاسم، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م .
٧٢	التفسير الموضوعي" للدكتور عبد الحميد غانم، مجلة البيان، العدد (١٩/١٦٥)، دراسات في الشريعة والعقيدة، جمادى الأولى - ١٤٢٢هـ، أغسطس - ٢٠٠١م، (السنة: ١٦).
٧٣	التفسير الواضح، لمحمد محمود حجازي، الناشر: دار الجيل الجديد – بيروت، الطبعة: العاشرة - ١٤١٣ هـ.
٧٤	التفسير الوسيط (الوسيط في تفسير القرآن المجيد)، لأبي الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي (المتوفى: ٤٦٨هـ)، تحقيق وتعليق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الشيخ علي محمد معوض، الدكتور أحمد محمد صيرة، الدكتور أحمد عبد الغني الجمل، الدكتور عبد الرحمن عويس، قدمه وقرظه: الأستاذ الدكتور عبد الحي الفرماوي، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م، عدد الأجزاء: ٤.
٧٥	التفسير الوسيط للقرآن الكريم، لمحمد سيد طنطاوي، الناشر: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة – القاهرة، الطبعة: الأولى، تاريخ النشر: أجزاء ١ - ٣: يناير ١٩٩٧م، جزء ٤:يوليو ١٩٩٧م، جزء٥:يونيو١٩٩٧م، أجزاء٦-٧:يناير١٩٩٨م، أجزاء٨-١٤:فبراير ١٩٩٨م، جزء١٥:مارس ١٩٩٨م.
٧٦	التفسير الوسيط، لوهبة بن مصطفى الزحيلي، الناشر: دار الفكر – دمشق، الطبعة : الأولى- ١٤٢٢هـ. عدد الأجزاء : ٣ مجلدات في ترقيم مسلسل واحد.
٧٧	تفسير جزء عمَّ، للشيخ مساعد الطيار، نشر دار ابن الجوزي بالدمام، عام ١٤٢٠هـ.
٧٨	تفسير غريب القرآن، لكاملة بنت محمد بن جاسم بن علي آل جهام الكواري، الناشر: دار بن حزم، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٨م، عدد الأجزاء:١.
٧٩	تفسير مجاهد، لأبي الحجاج مجاهد بن جبر التابعي المكي القرشي المخزومي (المتوفى: ١٠٤هـ)، المحقق: الدكتور محمد عبد السلام أبو النيل، الناشر: دار الفكر الإسلامي الحديثة، مصر، الطبعة: الأولى، ١٤١٠ هـ - ١٩٨٩م، عدد الأجزاء: ١.
٨٠	تفسير مقاتل بن سليمان، لأبي الحسن مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي البلخي (المتوفى: ١٥٠هـ)،

	المحقق: عبد الله محمود شحاته، الناشر: دار إحياء التراث – بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤٢٣ هـ.
٨١	تفسير ملا علي قاري المسمى (أنوار القرآن وأسرار الفرقان، الجامع بين أقوال علماء الأعيان، وأحوال الأولياء ذوي العرفان)، لنور الدين علي بن سلطان الهروي المكي الحنفي، الشهير بملا علي القاري (المتوفى:١٠١٤هـ)، تحقيق: د. ناجي السويد، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى:١٤٣٤هـ-٢٠١٣م، عدد الأجزاء: ٥ مجلدات.
٨٢	التفسير والمفسرون، لمحمد السيد حسين الذهبي (المتوفى: ١٣٩٨هـ)، الناشر: مكتبة وهبة، القاهرة، عدد الأجزاء: ٣ (الجزء ٣ هو نُقول وُجدت في أوراق المؤلف بعد وفاته ونشرها د محمد البلتاجي).
٨٣	تكملة معجم المؤلفين، وَفيات (١٣٩٧ - ١٤١٥ هـ) = (١٩٧٧ - ١٩٩٥ م)، لمحمد خير بن رمضان بن إسماعيل يوسف، الناشر: دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م، عدد الأجزاء: ١.
٨٤	تناسق الدرر في مناسبات السور، لعبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ)، نسخة مخطوطة من ٣٥ صفحة، موجودة على الشبكة العنكبوتية.
٨٥	التناسق الموضوعي في السورة القرآنية للدكتور محمد با زمول، صفحة المؤلف على موقع جامعة أم القرى.
٨٦	التناسق الموضوعي في سورة الأحزاب لمحمد القرشي، رسالة جامعية نوقشت بجامعة أم القرى، كلية الدعوة وأصول الدين، قسم الكتاب والسنة.
٨٧	التناسق الموضوعي في سورة الجمعة لأحمد رشاد، رسالة جامعية نوقشت بجامعة أم القرى، كلية الدعوة وأصول الدين، قسم الكتاب والسنة.
٨٨	التناسق الموضوعي في سورتي الممتحنة والصف لمحمد الذبياني، رسالة جامعية نوقشت بجامعة أم القرى، كلية الدعوة وأصول الدين، قسم الكتاب والسنة.
٨٩	تهذيب اللغة، لمحمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، أبو منصور (المتوفى: ٣٧٠هـ)، المحقق: محمد عوض مرعب، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الأولى، ٢٠٠١م، عدد الأجزاء: ٨.
٩٠	التوقيف على مهمات التعاريف، لزين الدين محمد المدعو بعبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين الحدادي ثم المناوي القاهري (المتوفى: ١٠٣١هـ)، الناشر: عالم الكتب ٣٨ عبد الخالق ثروت-القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤١٠هـ-١٩٩٠م، عدد الأجزاء: ١.
٩١	تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، لعبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي (المتوفى: ١٣٧٦هـ)، المحقق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى ١٤٢٠هـ -٢٠٠٠ م، عدد الأجزاء: ١.
٩٢	جامع البيان في تأويل القرآن، لمحمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (المتوفى: ٣١٠هـ)، المحقق: أحمد محمد شاكر، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م، عدد الأجزاء: ٢٤.

٩٣	الجامع الكبير - سنن الترمذي، لمحمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى (المتوفى: ٢٧٩هـ)، المحقق: بشار عواد معروف، الناشر: دار الغرب الإسلامي – بيروت، سنة النشر: ١٩٩٨ م، عدد الأجزاء: ٦.
٩٤	الجامع لأحكام القرآن، لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (المتوفى: ٦٧١هـ)، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، الناشر: دار الكتب المصرية – القاهرة، الطبعة: الثانية، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤ م، عدد الأجزاء: ٢٠ جزءا (في ١٠ مجلدات).
٩٥	الجدول في إعراب القرآن الكريم، لمحمود بن عبد الرحيم صافي (المتوفى: ١٣٧٦هـ)، الناشر: دار الرشيد، دمشق - مؤسسة الإيمان، بيروت، الطبعة: الرابعة، ١٤١٨ هـ، عدد الأجزاء: ٣١ (٣٠، ومجلد فهارس) في ١٦ مجلدا.
٩٦	جمال القراء وكمال الإقراء، لعلي بن محمد بن عبد الصمد الهمداني المصري الشافعي، أبو الحسن، علم الدين السخاوي (المتوفى: ٦٤٣هـ)، تحقيق: د. مروان العطيَّة - د. محسن خرابة، الناشر: دار المأمون للتراث - دمشق – بيروت، الطبعة: الأولى ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م، عدد الأجزاء: ١.
٩٧	جمهرة أشعار العرب، لأبي زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي (المتوفى: ١٧٠هـ)، حققه وضبطه وزاد في شرحه: علي محمد البجادي، الناشر: نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، عدد الأجزاء: ١.
٩٨	الجواهر الحسان في تفسير القرآن، لأبي زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي (المتوفى: ٨٧٥هـ)، المحقق: الشيخ محمد علي معوض والشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٨ هـ.
٩٩	جواهر القرآن، لأبي حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (المتوفى: ٥٠٥هـ)، المحقق: الدكتور الشيخ محمد رشيد رضا القباني، الناشر: دار إحياء العلوم، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م، عدد الأجزاء: ١.
١٠٠	حاشية محيي الدين شيخ زاده على البيضاوي، لمحمد بن مصلح الدين مصطفى القوجوي الحنفي (المتوفى: ٩٥١هـ). حققه: محمد عبد القادر شاهين، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، الطبعة الأولى: ١٤١٩هـ-١٩٩٩م.
١٠١	الحاوي في تفسير القرآن الكريم، ويُسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ في تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)، لعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مُحَمَّدٍ الْقَمَّاش، إِمَامُ وَخَطِيبُ مَسْجِدِ بُورُسْلِي . رَأْسُ الْخَيمَةِ، دَوْلَةُ الإِمَارَاتِ الْعَرَبِيَّةِ الْمُتَّحِدَةِ، الإِصْدَارُ الأَوَّلِ يُونيُو ٢٠٠٩ م، عدد الأجزاء / ٨٤٠ مجلداً، المكتبة الشاملة.
١٠٢	حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن، لمحمد الأمين بن عبد الله الأرمي العلوي الهرري الشافعي، إشراف ومراجعة: هاشم مهدي، الطبعة الأولى: ١٤٢١هـ-٢٠٠١م، دار طوق النجاة، بيروت-لبنان.
١٠٣	الحديث في علوم القرآن والحديث، لحسن محمد أيوب (المتوفى: ١٤٢٩هـ)، الناشر: دار السلام – الإسكندرية، الطبعة: الثانية،١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م، عدد الأجزاء: ١.

١٠٤	حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، لأبي نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران الأصبهاني (المتوفى: ٤٣٠هـ)، الناشر: السعادة - بجوار محافظة مصر، ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م، عدد الأجزاء: ١٠.
١٠٥	الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، لأبي العباس، شهاب الدين، أحمد بن يوسف بن عبد الدائم المعروف بالسمين الحلبي (المتوفى: ٧٥٦هـ)، المحقق: الدكتور أحمد محمد الخراط، الناشر: دار القلم، دمشق، عدد الأجزاء: ١١.
١٠٦	الدر المنثور في التفسير بالمأثور، لعبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ)، الناشر: دار الفكر – بيروت، عدد الأجزاء: ٨.
١٠٧	دراسات في علوم القرآن لمحمد بكر إسماعيل (المتوفى: ١٤٢٦هـ)، الناشر: دار المنار، الطبعة: الثانية ١٤١٩هـ-١٩٩٩م، عدد الأجزاء: ١.
١٠٨	الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، لأبي الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (المتوفى: ٨٥٢هـ)، المحقق: مراقبة / محمد عبد المعيد ضان، الناشر: مجلس دائرة المعارف العثمانية - حيدر اباد/ الهند، الطبعة: الثانية، ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م، عدد الأجزاء: ٦.
١٠٩	دلائل النظام (نظام القرآن)، لعبد الحميد الفراهي الهندي (المتوفى: ١٣٤٩هـ). المطبعة الحميدية، سنة ١٣٨٨هـ.
١١٠	دمية القصر وعصرة أهل العصر، لعلي بن الحسن بن علي بن أبي الطيب الباخرزي، أبو الحسن (المتوفى: ٤٦٧هـ)، الناشر: دار الجل، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٤ هـ، عدد الأجزاء: ٣.
١١١	روح البيان، لإسماعيل حقي بن مصطفى الإستانبولي الحنفي الخلوتي ، المولى أبو الفداء (المتوفى: ١١٢٧هـ)، الناشر: دار الفكر – بيروت.
١١٢	روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، لشهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي (المتوفى: ١٢٧٠هـ)، المحقق: علي عبد الباري عطية، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٥ هـ، عدد الأجزاء: ١٦ (١٥ ومجلد فهارس).
١١٣	زاد المسير في علم التفسير، لجمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (المتوفى: ٥٩٧هـ)، المحقق: عبد الرزاق المهدي، الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤٢٢ هـ.
١١٤	الزهد والرقائق لابن المبارك، يليه (مَا رَوَاهُ نُعَيْمُ بْنُ حَمَّادٍ فِي نُسْخَتِهِ زَائِدًا عَلَى مَا رَوَاهُ الْمَرْوَزِيُّ عَنِ ابْنِ الْمُبَارَكِ فِي كِتَابِ الزُّهْدِ)، لأبي عبد الرحمن عبد الله بن المبارك بن واضح الحنظلي، التركي ثم المرْوزي (المتوفى: ١٨١هـ)، المحقق: حبيب الرحمن الأعظمي، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، عدد الأجزاء: ١.
١١٥	السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير، المؤلف: شمس الدين، محمد بن أحمد الخطيب الشربيني الشافعي (المتوفى: ٩٧٧هـ)، الناشر: مطبعة بولاق (الأميرية) –

	القاهرة، عام النشر: ١٢٨٥ هـ، عدد الأجزاء: ٤.
١١٦	سعادة الدارين في بيان وعدّ آي معجز الثقلين، لمحمد بن علي بن خلف الحسيني المشهور بالحداد، شيخ المقارئ المصرية، طبع بمطبعة المعاهد بجوار قسم الجمالية بمصر، الطبعة الأولى سنة ١٣٤٣هـ.
١١٧	سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، لأبي عبد الرحمن محمد ناصر الدين بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري الألباني (المتوفى: ١٤٢٠هـ)، الناشر: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة: الأولى، (لمكتبة المعارف)، عدد الأجزاء: ٦، عام النشر: جـ ١-٤: ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م، جـ ٦: ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م، جـ ٧: ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠٢ م.
١١٨	سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة، لأبي عبد الرحمن محمد ناصر الدين، بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري الألباني (المتوفى: ١٤٢٠هـ)، دار النشر: دار المعارف، الرياض - المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى،١٤١٢هـ / ١٩٩٢ م، عدد الأجزاء: ١٤.
١١٩	سنن أبي داود، لأبي داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السِّجِسْتاني (المتوفى: ٢٧٥هـ)، المحقق: شعَيب الأرنؤوط - محَمَّد كامِل قره بللي، الناشر: دار الرسالة العالمية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م، عدد الأجزاء: ٧.
١٢٠	السنن الكبرى، لأبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النسائي (المتوفى: ٣٠٣هـ)، حققه وخرج أحاديثه: حسن عبد المنعم شلبي، أشرف عليه: شعيب الأرناؤوط، قدم له: عبد الله بن عبد المحسن التركي، الناشر: مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م، عدد الأجزاء: (١٠ و ٢ فهارس).
١٢١	السنن الكبرى، لأحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (المتوفى: ٤٥٨هـ)، المحقق: محمد عبد القادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الثالثة، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م.
١٢٢	سير أعلام النبلاء، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي (المتوفى: ٧٤٨هـ)، الناشر: دار الحديث- القاهرة، الطبعة: ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م، عدد الأجزاء: ١٨.
١٢٣	السيرة النبوية دروس وعبر، لمصطفى بن حسني السباعي (المتوفى: ١٣٨٤هـ)، الناشر: المكتب الإسلامي، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م، عدد الأجزاء: ١.
١٢٤	السيرة النبوية على ضوء القرآن والسنة، لمحمد بن محمد بن سويلم أبو شُهبة (المتوفى: ١٤٠٣هـ)، الناشر: دار القلم – دمشق، الطبعة: الثامنة - ١٤٢٧ هـ، عدد الأجزاء: ٢.
١٢٥	السيرة النبوية، لعبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري، أبو محمد، جمال الدين (المتوفى: ٢١٣هـ)، تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي، الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة: الثانية،١٣٧٥هـ - ١٩٥٥ م، عدد الأجزاء: ٢.
١٢٦	شذرات الذهب في أخبار من ذهب، لعبد الحي بن أحمد بن محمد ابن العماد العَكري الحنبلي، أبو

	الفلاح (المتوفى: ١٠٨٩هـ)، حققه: محمود الأرناؤوط، خرج أحاديثه: عبد القادر الأرناؤوط، الناشر: دار ابن كثير، دمشق – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م، عدد الأجزاء: ١١.
١٢٧	شرح الزرقاني على المواهب اللدنية بالمنح المحمدية، المؤلف: أبو عبد الله محمد بن عبد الباقي بن يوسف بن أحمد بن شهاب الدين بن محمد الزرقاني المالكي (المتوفى: ١١٢٢هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولى ١٤١٧هـ-١٩٩٦م، عدد الأجزاء: ١٢.
١٢٨	شعب الإيمان، لأحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (المتوفى: ٤٥٨هـ)، حققه وراجع نصوصه وخرج أحاديثه: الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد، أشرف على تحقيقه وتخريج أحاديثه: مختار أحمد الندوي، صاحب الدار السلفية ببومباي – الهند، الناشر: مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي بالهند، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٣ م، عدد الأجزاء: ١٤ (١٣، ومجلد للفهارس).
١٢٩	الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، لأبي نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي (المتوفى: ٣٩٣هـ)، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، الناشر: دار العلم للملايين – بيروت، الطبعة: الرابعة ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م، عدد الأجزاء: ٦.
١٣٠	صحيح ابن حبان (الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان)، لمحمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبدَ، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، البُستي (المتوفى: ٣٥٤هـ)، ترتيب: الأمير علاء الدين علي بن بلبان الفارسي (المتوفى: ٧٣٩ هـ)، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه: شعيب الأرنؤوط، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م، عدد الأجزاء: ١٨ (١٧ جزء ومجلد فهارس).
١٣١	صحيح أبي داود – الأم، لأبي عبد الرحمن محمد ناصر الدين، بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري الألباني (المتوفى: ١٤٢٠هـ)، الناشر: مؤسسة غراس للنشر والتوزيع، الكويت، عدد الأجزاء: ٧ أجزاء، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م.
١٣٢	صحيح البخاري (الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه)، لمحمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر، الناشر: دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي)، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ، عدد الأجزاء: ٩.
١٣٣	صحيح الجامع الصغير وزياداته، لأبي عبد الرحمن محمد ناصر الدين، بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري الألباني (المتوفى: ١٤٢٠هـ)، الناشر: المكتب الإسلامي، عدد الأجزاء: ٢.
١٣٤	الصحيح المسند من أسباب النزول، لمُقْبلُ بنُ هَادِي بنِ مُقْبِلِ بنِ قَائِدَةَ الهَمْدَاني الوادعِيُّ (المتوفى: ١٤٢٢هـ)، الناشر: مكتبة ابن تيمية – القاهرة، الطبعة: الرابعة مزيدة ومنقحة، ١٤٠٨هـ- ١٩٨٧م، عدد الأجزاء: ١.
١٣٥	صحيح مسلم (المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه

	وسلم)، لمسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (المتوفى: ٢٦١هـ)، المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، عدد الأجزاء: ٥.
١٣٦	صحيح وضعيف سنن الترمذي، لمحمد ناصر الدين الألباني (المتوفى: ١٤٢٠هـ)، مصدر الكتاب: برنامج منظومة التحقيقات الحديثية - المجاني - من إنتاج مركز نور الإسلام لأبحاث القرآن والسنة بالإسكندرية.
١٣٧	صفوة التفاسير، لمحمد علي الصابوني، الناشر: دار الصابوني للطباعة والنشر والتوزيع – القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م، عدد الأجزاء: ١.
١٣٨	الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة، لمحمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، المحقق: علي بن محمد الدخيل الله، الناشر: دار العاصمة، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٠٨هـ، عدد الأجزاء: ٤.
١٣٩	ضعيف أبي داود – الأم، لمحمد ناصر الدين الألباني (المتوفى : ١٤٢٠هـ)، دار النشر : مؤسسة غراس للنشر و التوزيع – الكويت، الطبعة : الأولى - ١٤٢٣ هـ، عدد الأجزاء : ٢.
١٤٠	ضعيف سنن الترمذي، لمحمد ناصر الدين الألباني (المتوفى: ١٤٢٠هـ)، أشرف على طباعته والتعليق عليه: زهير الشاويش، بتكليف: من مكتب التربية العربي لدول الخليج – الرياض، توزيع: المكتب الاسلامي – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١١ هـ - ١٩٩١ م.
١٤١	الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، لشمس الدين أبو الخير محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن أبي بكر بن عثمان بن محمد السخاوي (المتوفى: ٩٠٢هـ)، الناشر: منشورات دار مكتبة الحياة – بيروت، عدد الأجزاء: ٦.
١٤٢	طبقات الفقهاء، لأبي اسحاق إبراهيم بن علي الشيرازي (المتوفى: ٤٧٦هـ) ، هذبهُ: محمد بن مكرم ابن منظور (المتوفى: ٧١١هـ)، المحقق: إحسان عباس، الناشر: دار الرائد العربي، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٩٧٠م.
١٤٣	الطبقات الكبرى، لأبي عبد الله محمد بن سعد بن منيع الهاشمي بالولاء، البصري، البغدادي المعروف بابن سعد (المتوفى: ٢٣٠هـ)، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م، عدد الأجزاء: ٨.
١٤٤	طبقات المفسرين، لأحمد بن محمد الأدنه وي من علماء القرن الحادي عشر (المتوفى: ق ١١هـ)، المحقق: سليمان بن صالح الخزي، الناشر: مكتبة العلوم والحكم – السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٧هـ- ١٩٩٧م، عدد الأجزاء: ١.
١٤٥	طبقات المفسرين، لمحمد بن علي بن أحمد، شمس الدين الداوودي المالكي (المتوفى: ٩٤٥هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، راجع النسخة وضبط أعلامها: لجنة من العلماء بإشراف الناشر، عدد الأجزاء: ٢.
١٤٦	الطبقات، متمم الصحابة، الجزء المتمم لطبقات ابن سعد (الطبقة الخامسة في من قبض رسول

	الله صلى الله عليه وسلم. وهم أحداث الأسنان)، لأبي عبد الله محمد بن سعد بن منيع الهاشمي بالولاء، البصري، البغدادي المعروف بابن سعد (المتوفى: ٢٣٠هـ)، تحقيق: محمد بن صامل السلمي، الناشر: مكتبة الصديق – الطائف، الطبعة: الأولى، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م، عدد الأجزاء: ٢.
١٤٧	العزف على أنوار الذكر، معالم الطريق إلى فقه المعنى القرآنيّ في سياق السورة، لمحمود توفيق محمد سعد، المكتبة الشاملة.
١٤٨	علوم القرآن الكريم، لنور الدين محمد عتر الحلبي، الناشر: مطبعة الصباح – دمشق، الطبعة: الأولى، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م، عدد الأجزاء: ١.
١٤٩	علوم القرآن عند الشاطبي من خلال كتابه الموافقات، لمحمد سالم أبو عاصي، الناشر: دار البصائر – القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م، عدد الأجزاء: ١.
١٥٠	عمل اليوم والليلة (سلوك النبي مع ربه عز وجل ومعاشرته مع العباد)، لأحمد بن محمد بن إسحاق بن إبراهيم بن أسباط بن عبد الله بن إبراهيم بن بُدَيْح، الدِّيْنَوَرِيُّ، المعروف بابن السُّنِّي (المتوفى: ٣٦٤هـ)، المحقق: كوثر البرني، الناشر: دار القبلة للثقافة الإسلامية ومؤسسة علوم القرآن - جدة / بيروت، عدد الأجزاء: ١.
١٥١	عناية القاضي وكفاية الراضي، حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي، لشهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي المصري الحنفي (المتوفى: ١٠٦٩هـ)، دار النشر: دار صادر – بيروت، عدد الأجزاء: ٨.
١٥٢	غاية النهاية في طبقات القراء، لشمس الدين أبو الخير ابن الجزري، محمد بن محمد بن يوسف (المتوفى: ٨٣٣هـ)، الناشر: مكتبة ابن تيمية، الطبعة: عني بنشره لأول مرة عام ١٣٥١هـ ج. برجستراسر، عدد الأجزاء: ٣.
١٥٣	غرائب التفسير وعجائب التأويل، لمحمود بن حمزة بن نصر، أبو القاسم برهان الدين الكرماني، ويعرف بتاج القراء (المتوفى: نحو ٥٠٥هـ)، دار النشر: دار القبلة للثقافة الإسلامية - جدة، مؤسسة علوم القرآن – بيروت، عدد الأجزاء: ٢.
١٥٤	غرائب القرآن ورغائب الفرقان، لنظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري (المتوفى: ٨٥٠هـ)، المحقق: الشيخ زكريا عميرات، الناشر: دار الكتب العلمية –بيروت، الطبعة: الأولى- ١٤١٦ هـ.
١٥٥	غريب القرآن، لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (المتوفى: ٢٧٦هـ)، المحقق: أحمد صقر، الناشر: دار الكتب العلمية (لعلها مصورة عن الطبعة المصرية)، السنة: ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م.
١٥٦	فتح الباري شرح صحيح البخاري، لأبي الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (المتوفى: ٨٥٢هـ)، الناشر: دار المعرفة - بيروت، ١٣٧٩هـ، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي، قام بإخراجه وصححه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب، عليه تعليقات العلامة: عبد العزيز بن عبد الله بن باز، عدد الأجزاء: ١٣.

فتح البيان في مقاصد القرآن، لأبي الطيب محمد صديق خان بن حسن بن علي ابن لطف الله الحسيني البخاري القِنَّوجي (المتوفى: ١٣٠٧هـ)، عني بطبعهِ وقدّم له وراجعه: خادم العلم عَبد الله بن إبراهيم الأنصَاري، الناشر: المكتبة العصريَّة للطبَاعة والنّشْر، صَيدَا – بَيروت، عام النشر: ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م، عدد الأجزاء: ١٥.	١٥٧
الفتح السماوي بتخريج أحاديث القاضي البيضاوي، لزين الدين محمد المدعو بعبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي المناوي (المتوفى: ١٠٣١هـ)، المحقق: أحمد مجتبى، الناشر: دار العاصمة – الرياض، عدد الأجزاء: ٣ أجزاء في ترقيم واحد مسلسل.	١٥٨
فتح القدير، لمحمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني (المتوفى: ١٢٥٠هـ)، الناشر: دار ابن كثير، دار الكلم الطيب - دمشق، بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٤ هـ.	١٥٩
الفرائد الحسان في عدّ آي القرآن، لعبد الفتاح بن عبد الغني بن محمد القاضي (المتوفى: ١٤٠٣هـ)، الناشر: مكتبة الدار بالمدينة المنورة، الطبعة: الأولى ١٤٠٤ هـ، عدد الأجزاء: ١.	١٦٠
فضائل القرآن، لأبي العَبَّاسِ جَعْفَرُ بنُ مُحَمَّدِ بنُ المُعْتَزِّ بنِ مُحَمَّدِ بنِ المُسْتَغْفِرِ بن الفَتْحِ بنِ إِدْرِيْسَ المُسْتَغْفِرِيُّ، النَّسَفِيُّ (المتوفى: ٤٣٢هـ)، المحقق: أحمد بن فارس السلوم، الناشر: دار ابن حزم، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٨ م، عدد الأجزاء: ٢.	١٦١
فضائل القرآن، لأبي العَبَّاسِ جَعْفَرُ بنُ مُحَمَّدِ بنُ المُعْتَزِّ بنِ مُحَمَّدِ بنِ المُسْتَغْفِرِ بن الفَتْحِ بنِ إِدْرِيْسَ المُسْتَغْفِرِيُّ، النَّسَفِيُّ (المتوفى: ٤٣٢هـ)، المحقق: أحمد بن فارس السلوم، الناشر: دار ابن حزم، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٨ م، عدد الأجزاء: ٢.	١٦٢
فضائل القرآن، لأبي عُبيد القاسم بن سلاّم بن عبد الله الهروي البغدادي (المتوفى: ٢٢٤هـ)، تحقيق: مروان العطية، ومحسن خرابة، ووفاء تقي الدين، الناشر: دار ابن كثير (دمشق - بيروت)، الطبعة: الأولى، ١٤١٥ هـ -١٩٩٥ م.	١٦٣
فقه الأسماء الحسنى، لعبد الرزاق بن عبد المحسن البدر، النشر: دار التوحيد للنشر، الرياض، الطبعة الثانية: ١٤٣٠هـ-٢٠٠٩م، عدد الأجزاء: ١.	١٦٤
فقه السيرة، لمحمد الغزالي السقا (المتوفى: ١٤١٦هـ)، الناشر: دار القلم – دمشق، تخريج الأحاديث: محمد ناصر الدين الألباني، الطبعة: الأولى، ١٤٢٧ هـ، عدد الأجزاء: ١.	١٦٥
فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات، لمحمد عَبْد الحَيّ بن عبد الكبير بن محمد الحسني الإدريسي، المعروف بعبد الحي الكتاني (المتوفى: ١٣٨٢هـ)، المحقق: إحسان عباس، الناشر: دار الغرب الإسلامي - بيروت ص. ب: ٥٧٨٧/١١٣، الطبعة: ٢، ١٩٨٢م، عدد الأجزاء: ٢.	١٦٦
الفواتح الإلهية والمفاتح الغيبية الموضحة للكلم القرآنية والحكم الفرقانية، لنعمة الله بن محمود النخجواني، ويعرف بالشيخ علوان (المتوفى: ٩٢٠هـ)، الناشر: دار ركابي للنشر - الغورية، مصر، الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٩ م.	١٦٧

١٦٨	الفوز الكبير في أصول التفسير، لأحمد بن عبد الرحيم المعروف بـ (الشاه ولي الله الدهلوي) (المتوفى: ١١٧٦هـ)، عَرَّبَه من الفارسية: سلمان الحسيني النَّدوي، الناشر: دار الصحوة – القاهرة، الطبعة: الثانية - ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٦ م.
١٦٩	في ظلال القرآن، لسيد قطب إبراهيم حسين الشاذلي (المتوفى: ١٣٨٥هـ)، الناشر: دار الشروق - بيروت- القاهرة، الطبعة: السابعة عشر - ١٤١٢ هـ.
١٧٠	القاموس الفقهي لغة واصطلاحا، لسعدي أبو حبيب، الناشر: دار الفكر. دمشق – سورية، الطبعة: الثانية ١٤٠٨ هـ = ١٩٨٨ م، تصوير: ١٩٩٣ م، عدد الأجزاء: ١.
١٧١	القاموس المحيط، لمجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادي (المتوفى: ٨١٧هـ)، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، بإشراف: محمد نعيم العرقسُوسي، الناشر: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، الطبعة: الثامنة، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م، عدد الأجزاء: ١.
١٧٢	قواعد الأحكام في مصالح الأنام، لأبي محمد عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن الحسن السلمي الدمشقي، الملقب بسلطان العلماء (المتوفى: ٦٦٠هـ)، راجعه وعلّق عليه: طه عبد الرؤوف سعد، الناشر: مكتبة الكليات الأزهرية – القاهرة، (وصورتها دور عدة مثل: دار الكتب العلمية - بيروت، ودار أم القرى - القاهرة)، طبعة: جديدة مضبوطة منقحة، ١٤١٤ هـ - ١٩٩١ م، عدد الأجزاء: ٢.
١٧٣	القول المعتبر في بيان الإعجاز للحروف المقطعة من فواتح السور، لإياس محمد حرب آل خطاب، الناشر: مطابع برنتك للطباعة والتغليف - السودان – الخرطوم، الطبعة: الأولى، ٢٠١١م، عدد الأجزاء: ١.
١٧٤	القول الوجيز في فواصل الكتاب العزيز على ناظمة النُهر للإمام الشاطبي، للشيخ رضوان بن محمد بن سليمان المكنى بأبي عيد، المعروف بالمخللاتي (المتوفى: ١٣١١هـ)، تحقيق: عبد الرزاق بن علي بن إبراهيم موسى، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ-١٩٩٢م، مطابع الرشيد-المدينة المنورة.
١٧٥	الكافي الشافِ في تخريج أحاديث الكشاف، لأبي الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (المتوفى: ٨٥٢هـ)، دار عالم المعرفة بيروت / طبع الكتاب بذيل الكشاف في المجلد الرابع.
١٧٦	الكامل في ضعفاء الرجال، لأبي أحمد بن عدي الجرجاني (المتوفى: ٣٦٥هـ)، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود-علي محمد معوض، شارك في تحقيقه: عبد الفتاح أبو سنة، الناشر: الكتب العلمية - بيروت-لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ١٩٩٧م.
١٧٧	كتاب العين، لأبي عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري (المتوفى: ١٧٠هـ)، المحقق: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي، الناشر: دار ومكتبة الهلال، عدد الأجزاء: ٨.
١٧٨	الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار، لأبي بكر بن أبي شيبة، عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن

	عثمان بن خواستي العبسي (المتوفى: ٢٣٥هـ)، المحقق: كمال يوسف الحوت، الناشر: مكتبة الرشد – الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٠٩هـ، عدد الأجزاء: ٧.
١٧٩	الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، لأبي القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (المتوفى: ٥٣٨هـ)، الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة - ١٤٠٧ هـ، عدد الأجزاء: ٤.
١٨٠	كشف المعاني في المتشابه من المثاني، لأبي عبد الله، محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة الكناني الحموي الشافعي، بدر الدين (المتوفى: ٧٣٣هـ)، تحقيق: الدكتور عبد الجواد خلف، الناشر: دار الوفاء . المنصورة، الطبعة: الأولى، ١٤١٠ هـ / ١٩٩٠ م، عدد الأجزاء: ١.
١٨١	الكشف والبيان عن تفسير القرآن، المؤلف: أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، أبو إسحاق (المتوفى: ٤٢٧هـ)، تحقيق: الإمام أبي محمد بن عاشور، مراجعة وتدقيق: الأستاذ نظير الساعدي، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت–لبنان، الطبعة: الأولى ١٤٢٢هـ ٢٠٠٢م، عدد الأجزاء: ١٠.
١٨٢	الكشكول، لمحمد بن حسين بن عبد الصمد الحارثي العاملي الهمذاني، بهاء الدين (المتوفى: ١٠٣١هـ)، المحقق: محمد عبد الكريم النمري، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ -١٩٩٨م، عدد الأجزاء: ٢.
١٨٣	الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، لأيوب بن موسى الحسيني القريمي الكفوي، أبو البقاء الحنفي (المتوفى: ١٠٩٤هـ)، المحقق: عدنان درويش - محمد المصري، الناشر: مؤسسة الرسالة – بيروت، عدد الأجزاء: ١.
١٨٤	كيف بدأ الخلق، سرنا في الارض، ونظرنا، لنعرف، للدكتور عمرو شريف، أستاذ الجراحة العامة، الناشر: مكتبة الشروق الدولية، مصر الجديدة، الطبعة الأولى، ١٤٣٢هـ-يناير٢٠١١م.
١٨٥	لباب التأويل في معاني التنزيل، لعلاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم بن عمر الشيحي أبو الحسن، المعروف بالخازن (المتوفى: ٧٤١هـ)، المحقق: تصحيح محمد علي شاهين، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٥ هـ.
١٨٦	اللباب في تهذيب الأنساب، لأبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري، عز الدين ابن الأثير (المتوفى: ٦٣٠هـ)، الناشر: دار صادر – بيروت.
١٨٧	اللباب في علوم الكتاب، لأبي حفص سراج الدين عمر بن علي بن عادل الحنبلي الدمشقي النعماني (المتوفى: ٧٧٥هـ)، المحقق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ -١٩٩٨م، عدد الأجزاء: ٢٠.
١٨٨	لسان العرب، لمحمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعي الإفريقي (المتوفى: ٧١١هـ)، الناشر: دار صادر – بيروت، الطبعة: الثالثة- ١٤١٤ هـ، عدد الأجزاء: ١٥.
١٨٩	لطائف الإشارات (تفسير القشيري)، لعبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري (المتوفى: ٤٦٥هـ)، المحقق: إبراهيم البسيوني، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب – مصر، الطبعة: الثالثة.

١٩٠	اللمسات الحانية في مقاصد السور الغانية، لعدنان عبد القادر، الناشر: دار حامل المسك للنشر والتوزيع، الكويت، الطبعة الأولى، ١٤٣٢هـ-٢٠١٢م، عدد الأجزاء: ١.
١٩١	مباحث في التفسير الموضوعي، لمصطفى مسلم، الناشر: دار القلم، الطبعة: الرابعة ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م، عدد الأجزاء: ١.
١٩٢	مباحث في علوم القرآن، لمنّاع بن خليل القطان (المتوفى: ١٤٢٠هـ)، الناشر: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الطبعة: الطبعة الثالثة ١٤٢١هـ- ٢٠٠٠م، عدد الأجزاء: ١.
١٩٣	المتفق والمفترق، لأبي بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي (المتوفى: ٤٦٣هـ)، دراسة وتحقيق: الدكتور محمد صادق آيدن الحامدي، الناشر: دار القادري للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، الطبعة: الأولى، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م، عدد الأجزاء: ٣.
١٩٤	المثل السائر، في أدب الكاتب والشاعر، لضياء الدين بن الأثير، نصر الله بن محمد (المتوفى: ٦٣٧هـ)، المحقق: أحمد الحوفي، بدوي طبانة، الناشر: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة . القاهرة، عدد الأجزاء: ٤.
١٩٥	مجاز القرآن، لأبي عبيدة معمر بن المثنى التيمي البصري (المتوفى: ٢٠٩هـ)، المحقق: محمد فواد سزگين، الناشر: مكتبة الخانجي – القاهرة، الطبعة: ١٣٨١ هـ.
١٩٦	المجلّى (في شرح القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى للعلامة محمد صالح العثيمين)، لكاملة بنت محمد بن جاسم بن علي آل جهام الكواري، الناشر: دار ابن حزم، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠٢ م، عدد الأجزاء: ١.
١٩٧	محاسن التأويل، لمحمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي (المتوفى: ١٣٣٢هـ)، المحقق: محمد باسل عيون السود، الناشر: دار الكتب العلميه – بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٨ هـ.
١٩٨	المحبر، لمحمد بن حبيب بن أمية بن عمرو الهاشمي، بالولاء، أبو جعفر البغدادي (المتوفى: ٢٤٥هـ)، تحقيق: إيلزة ليختن شتيتر، الناشر: دار الآفاق الجديدة، بيروت، عدد الأجزاء: ١.
١٩٩	المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لأبي محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي (المتوفى: ٥٤٢هـ)، المحقق: عبد السلام عبد الشافي محمد، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤٢٢ هـ.
٢٠٠	المحرر الوجيز في عدّ آي الكتاب العزيز، شرح أرجوزة العلامة محمد المتولي شيخ المقارئ المصرية في وقته، لعبد الرزاق عي إبراهيم موسى، مكتبة المعارف-الرياض، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.
٢٠١	المحكم والمحيط الأعظم أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي (ت: ٤٥٨هـ)، المحقق: عبد الحميد هنداوي، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠م، عدد الأجزاء: ١١ (١٠ مجلد للفهارس).
٢٠٢	مدارك التنزيل وحقائق التأويل، لأبي البركات عبد الله بن أحمد بن محمود حافظ الدين النسفي

	(المتوفى: ٧١٠هـ)، حققه وخرج أحاديثه: يوسف علي بديوي، راجعه وقدم له: محي الدين ديب مستو، الناشر: دار الكلم الطيب، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م، عدد الأجزاء: ٣.
٢٠٣	مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد، لمحمد بن عمر نووي الجاوي البنتني إقليما، التناري بلدا (المتوفى: ١٣١٦هـ)، المحقق: محمد أمين الصناوي، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٧ هـ.
٢٠٤	مراصد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع - بحث في العلاقات بين مطالع سور القرآن وخواتيمها، لعبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ)، قرأه وتممه: د. عبدالمحسن بن عبد العزيز العسكر، الناشر: مكتبة دار المنهاج للنشر والتوزيع، الرياض - المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٢٦ هـ، عدد الأجزاء: ١.
٢٠٥	المستدرك على الصحيحين، لأبي عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نُعيم بن الحكم الضبي الطهماني النيسابوري المعروف بابن البيع (المتوفى: ٤٠٥هـ)، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١١هـ– ١٩٩٠م، عدد الأجزاء: ٤.
٢٠٦	مسند الإمام أحمد بن حنبل، لأبي عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (المتوفى: ٢٤١هـ)، المحقق: أحمد محمد شاكر، الناشر: دار الحديث – القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٥ م، عدد الأجزاء: ٨ (القسم الذي حققه أحمد شاكر).
٢٠٧	مسند البزار المنشور باسم البحر الزخار، لأبي بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق بن خلاد بن عبيد الله العتكي المعروف بالبزار (المتوفى: ٢٩٢هـ)، المحقق: محفوظ الرحمن زين الله، (حقق الأجزاء من ١ إلى ٩)، وعادل بن سعد (حقق الأجزاء من ١٠ إلى ١٧)، وصبري عبد الخالق الشافعي (حقق الجزء ١٨)، الناشر: مكتبة العلوم والحكم - المدينة المنورة، الطبعة: الأولى، (بدأت ١٩٨٨م، وانتهت ٢٠٠٩م). عدد الأجزاء: ١٨.
٢٠٨	مسند الدارمي المعروف بـ (سنن الدارمي)، لأبي محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بَهرام بن عبد الصمد الدارمي، التميمي السمرقندي (المتوفى: ٢٥٥هـ)، تحقيق: حسين سليم أسد الداراني، الناشر: دار المغني للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٢ هـ - ٢٠٠٠ م، عدد الأجزاء: ٤.
٢٠٩	مشاهير علماء الأمصار وأعلام فقهاء الأقطار، لمحمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبدَ، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، البُستي (المتوفى: ٣٥٤هـ)، حققه ووثقه وعلق عليه: مرزوق على ابراهيم، الناشر: دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع – المنصورة، الطبعة: الأولى ١٤١١ هـ - ١٩٩١ م، عدد الأجزاء: ١.
٢١٠	مشكاة المصابيح، لمحمد بن عبد الله الخطيب العمري، أبو عبد الله، ولي الدين، التبريزي (المتوفى: ٧٤١هـ)، المحقق: محمد ناصر الدين الألباني، الناشر: المكتب الإسلامي – بيروت، الطبعة: الثالثة،

	١٩٨٥، عدد الأجزاء: ٣.
٢١١	مصابيح الدرر في تناسب آيات القرآن الكريم والسور، لعادل بن محمد أبو العلاء، الناشر: الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، الطبعة: العدد١٢٩ - السنة ٣٧ – ١٤٢٥هـ.
٢١٢	مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور، ويُسَمَّى: (المَقْصِدُ الأَسْمَى فِي مُطَابَقَةِ اسْمِ كُلِّ سُورَةٍ لِلمُسَمَّى)، لإبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي (المتوفى: ٨٨٥هـ)، دار النشر: مكتبة المعارف – الرياض، الطبعة: الأولى ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧ م، عدد الأجزاء: ٣.
٢١٣	المصنف، لأبي بكر عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميري اليماني الصنعاني (المتوفى: ٢١١هـ)، المحقق: حبيب الرحمن الأعظمي، الناشر: المجلس العلمي- الهند، يطلب من: المكتب الإسلامي – بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤٠٣هـ، عدد الأجزاء: ١١.
٢١٤	معالم التنزيل في تفسير القرآن، لمحيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي (المتوفى : ٥١٠هـ)، المحقق : عبد الرزاق المهدي، الناشر : دار إحياء التراث العربي –بيروت، الطبعة : الأولى ، ١٤٢٠ هـ، عدد الأجزاء :٥.
٢١٥	معاني القرآن وإعرابه، لإبراهيم بن السري بن سهل، أبو إسحاق الزجاج (المتوفى: ٣١١هـ)، المحقق: عبد الجليل عبده شلبي، الناشر: عالم الكتب – بيروت، الطبعة: الأولى ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م، عدد الأجزاء: ٥.
٢١٦	معاني القرآن، لأبي جعفر النحاس أحمد بن محمد (المتوفى: ٣٣٨هـ)، المحقق: محمد علي الصابوني، الناشر: جامعة أم القرى - مكة المرمة، الطبعة: الأولى، ١٤٠٩هـ.
٢١٧	معاني القرآن، لأبي زكريا يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الديلمي الفراء (المتوفى:٢٠٧هـ)، المحقق: أحمد يوسف النجاتي / محمد علي النجار / عبد الفتاح إسماعيل الشلبي، الناشر: دار المصرية للتأليف والترجمة – مصر، الطبعة: الأولى.
٢١٨	معجم الأدباء (إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب)، لشهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي (المتوفى: ٦٢٦هـ)، المحقق: إحسان عباس، الناشر: دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م، عدد الأجزاء: ٧.
٢١٩	معجم اللغة العربية المعاصرة، لأحمد مختار عبد الحميد عمر (المتوفى: ١٤٢٤هـ) بمساعدة فريق عمل، الناشر: عالم الكتب، الطبعة: الأولى، ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م، عدد الأجزاء: ٤ (٣ ومجلد للفهارس) في ترقيم مسلسل واحد.
٢٢٠	معجم المناهي اللفظية وفوائد في الألفاظ، لبكر بن عبد الله أبو زيد بن محمد بن عبد الله بن بكر بن عثمان بن يحيى بن غيهب بن محمد (المتوفى: ١٤٢٩هـ)، الناشر: دار العاصمة للنشر والتوزيع – الرياض، الطبعة: الثالثة، ١٤١٧ هـ -١٩٩٦ م، عدد الأجزاء: ١.
٢٢١	معجم المؤلفين، لعمر بن رضا بن محمد راغب بن عبد الغني كحالة الدمشقي (المتوفى: ١٤٠٨هـ)، الناشر: مكتبة المثنى - بيروت، دار إحياء التراث العربي بيروت، عدد الأجزاء: ١٣.

٢٢٢	المعجم الوسيط، لمجمع اللغة العربية بالقاهرة (إبراهيم مصطفى / أحمد الزيات / حامد عبد القادر/ محمد النجار)، الناشر: دار الدعوة.
٢٢٣	معجم علوم القرآن، لإبراهيم محمد الجرمي، الناشر: دار القلم – دمشق، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م، عدد الأجزاء: ١.
٢٢٤	معجم مقاييس اللغة، لأحمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي، أبو الحسين (المتوفى: ٣٩٥هـ)، المحقق: عبد السلام محمد هارون، الناشر: دار الفكر، عام النشر: ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م، عدد الأجزاء: ٦.
٢٢٥	معرفة أنواع علوم الحديث (مقدمة ابن الصلاح)، لعثمان بن عبد الرحمن، أبو عمرو، تقي الدين المعروف بابن الصلاح (المتوفى: ٦٤٣هـ)، المحقق: نور الدين عتر، الناشر: دار الفكر- سوريا، دار الفكر المعاصر – بيروت، سنة النشر: ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م، عدد الأجزاء: ١.
٢٢٦	مفاتيح الغيب (التفسير الكبير)، لأبي عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (المتوفى: ٦٠٦هـ)، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة - ١٤٢٠ هـ.
٢٢٧	المفردات في غريب القرآن، لأبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (المتوفى: ٥٠٢هـ)، المحقق: صفوان عدنان الداودي، الناشر: دار القلم، الدار الشامية - دمشق بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٢ هـ.
٢٢٨	المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، لأبي العباس أحمد بن عمر بن إبراهيم القرطبي (المتوفى: ٦٥٦هـ)، حققه وعلق عليه وقدم له: محيي الدين ديب مستو، ويوسف علي بديوي، وأحمد محمد السيد، ومحمود إبراهيم بزّال، الناشر: دار ابن كثير ودار الكلم الطيب –دمشق – بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ-١٩٩٦م.
٢٢٩	المقدمات الأساسية في علوم القرآن، لعبد الله بن يوسف بن عيسى بن يعقوب اليعقوب الجديع العنزي، الناشر: مركز البحوث الإسلامية ليدز – بريطانيا، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م، عدد الأجزاء: ١.
٢٣٠	مقدمة الدكتور سليمان صالح القرعاوي على قاعدة في فضائل القرآن لابن تيمية، طبعة ١٤١٤هـ.
٢٣١	مقدمة العجاب في بيان الأسباب لعبد الحكيم الأنيس، و(العجاب في بيان الأسباب) لأبي الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (المتوفى: ٨٥٢هـ)، المحقق: عبد الحكيم محمد الأنيس، الناشر: دار ابن الجوزي، عدد الأجزاء: ٢.
٢٣٢	مقدمة مفردات القرآن للفراهي لمحققه (مفردات القرآن-نظرات جديدة في تفسير ألفاظ قرآنية)، لعبد الحميد الفراهي الهندي (المتوفى: ١٣٤٩هـ)، المحقق: د/ محمد أجمل أيوب الإصلاحي، الناشر: دار الغرب الإسلامي، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٢ م، عدد الأجزاء: ١.
٢٣٣	من أسرار القرآن الإشارات الكونية في القرآن الكريم ومغزي دلالتها العلمية، للدكتور زغلول راغب

	النجار، بحث منشور على الشبكة العنكبوتية.
٢٣٤	المنار المنيف في الصحيح والضعيف، لمحمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، المحقق: عبد الفتاح أبو غدة، الناشر: مكتبة المطبوعات الإسلامية، حلب، الطبعة: الأولى، ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م، عدد الأجزاء: ١.
٢٣٥	المناسبات في القرآن الكريم، ودراسة تطبيقية في سورتي الفاتحة والبقرة من تفسير الفخر الرازي، رسالة ماجستير للدكتور/ عبد الله بمن مقبل بن ظافر القرني، بجامعة أم القرى، كلية الدعوة وأصول الدين، قسم الكتاب والسنة، بإشراف د. عبد الحميد عمر الأمين، ١٤١٢-١٤١٣هـ.
٢٣٦	مناهج المفسرين، لمنيع بن عبد الحليم محمود (المتوفى: ١٤٣٠هـ)، الناشر: دار الكتاب المصري - القاهرة، دار الكتاب اللبناني – بيروت، عام النشر: ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م، عدد الأجزاء: ١.
٢٣٧	مناهل العرفان في علوم القرآن، لمحمد عبد العظيم الزُّرْقاني (المتوفى: ١٣٦٧هـ)، الناشر: مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، الطبعة: الطبعة الثالثة، عدد الأجزاء: ٢.
٢٣٨	المنمق في أخبار قريش لمحمد بن حبيب بن أمية بن عمرو الهاشمي، بالولاء، أبو جعفر البغدادي (المتوفى: ٢٤٥هـ)، المحقق: خورشيد أحمد فاروق، الناشر: عالم الكتب، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م، عدد الأجزاء: ١.
٢٣٩	منهجيات الإصلاح والتغيير في سور (الزمر، غافر، فصلت) دراسة موضوعية، رسالة ماجستير للباحث: محمد أحمد عبد الفتاح يحيى، كلية أصول الدين، الجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية، ٢٠١٢م.
٢٤٠	الموافقات، لإبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي (المتوفى: ٧٩٠هـ)، المحقق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، الناشر: دار ابن عفان، الطبعة: الطبعة الأولى ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م، عدد الأجزاء: ٧.
٢٤١	موسوعة الصحيح المسبور من التفسير بالمأثور، لحكمت بن بشير بن ياسين، الناشر : دار المآثر للنشر والتوزيع والطباعة- المدينة النبوية، الطبعة : الأولى ، ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م، عدد الأجزاء : ٤.
٢٤٢	الموسوعة القرآنية المتخصصة، لمجموعة من الأساتذة والعلماء المتخصصين، الناشر: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، مصر، عام النشر: ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م، عدد الأجزاء: ١.
٢٤٣	الموسوعة القرآنية، خصائص السور، لجعفر شرف الدين، المحقق: عبد العزيز بن عثمان التويجري، الناشر: دار التقريب بين المذاهب الإسلامية – بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤٢٠ هـ.
٢٤٤	مؤمن آل فرعون ودروس في الدعوة لمحمود محمد محمد عمارة، مكتبة الإيمان للنشر والتوزيع، المنصورة، أمام جامع الأزهر، الطبعة الأولى: ١٤١٧هـ-١٩٩٧م.
٢٤٥	ميزان الاعتدال في نقد الرجال، لشمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي (المتوفى: ٧٤٨هـ)، تحقيق: علي محمد البجاوي، الناشر: دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٣٨٢ هـ - ١٩٦٣ م، عدد الأجزاء: ٤.

٢٤٦	النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن الكريم، لمحمد بن عبد الله دراز (المتوفى : ١٣٧٧هـ)، اعتنى به : أحمد مصطفى فضلية، قدم له : أ. د. عبد العظيم إبراهيم المطعني، الناشر : دار القلم للنشر والتوزيع، الطبعة : طبعة مزيدة ومحققة ١٤٢٦هـ- ٢٠٠٥م، عدد الأجزاء : ١.
٢٤٧	نزول القرآن الكريم والعناية به في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم لمحمد بن عبد الرحمن الشايع، منشور في المحور الأول من الجزء الأول من ندوة عناية المملكة العربية السعودية بالقرآن الكريم وعلومه، ١٤٢١هـ.
٢٤٨	نظرية الوحدة الموضوعية للقرآن الكريم من خلال كتاب (الأساس في التفسير) لأحمد الشرقاوي، نشر: ١٤٢٣هـ، وهو مقتبس من كتابه (منهج الشيخ سعيد حوى في كتابه الأساس في التفسير)، رسالة التخصص الماجستير، طبع الجزء الأول منها بمطبعة الفردوس بالزقازيق . ١٤٢١هـ .
٢٤٩	نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، لإبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي (المتوفى: ٨٨٥هـ)، الناشر: دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، عدد الأجزاء: ٢٢.
٢٥٠	نظم العقيان في أعيان الأعيان، لعبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ)، المحقق: فيليب حتي، الناشر: المكتبة العلمية – بيروت.
٢٥١	النكت والعيون، لأبي الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي (المتوفى: ٤٥٠هـ)، المحقق: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان، عدد الأجزاء: ٦.
٢٥٢	النهاية في غريب الحديث والأثر، لمجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد بن محمد ابن عبد الكريم الشيباني الجزري ابن الأثير (المتوفى: ٦٠٦هـ)، الناشر: المكتبة العلمية - بيروت، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي - محمود محمد الطناحي، عدد الأجزاء: ٥.
٢٥٣	نور اليقين في سيرة سيد المرسلين، لمحمد بن عفيفي الباجوري، المعروف بالشيخ الخضري (المتوفى: ١٣٤٥هـ)، الناشر: دار الفيحاء – دمشق، الطبعة: الثانية - ١٤٢٥ هـ، عدد الأجزاء: ١.
٢٥٤	الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره، وأحكامه، وجمل من فنون علومه، لأبي محمد مكي بن أبي طالب حَمّوش بن محمد بن مختار القيسي القيرواني ثم الأندلسي القرطبي المالكي (المتوفى: ٤٣٧هـ)، المحقق: مجموعة رسائل جامعية بكلية الدراسات العليا والبحث العلمي - جامعة الشارقة، إشراف أ. د: الشاهد البوشيخي، الناشر: مجموعة بحوث الكتاب والسنة - كلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة الشارقة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م، عدد الأجزاء: ١٣ (١٢، ومجلد للفهارس).
٢٥٥	الوحدة الموضوعية للقرآن الكريم، لمحمد محمود حجازي، القاهرة دار الكتب الحديثة، الطبعة الأولى: ١٣٩٠ هـ ١٩٧٠ م.
٢٥٦	وحدة النسق في السورة القرآنية، فوائدها وطرق دراستها، لرشيد الحمداوي، مجلة معهد الإمام الشاطبي للدراسات القرآنية، العدد الثالث (جمادى الآخرة ١٤٢٨ هـ).

الفهارس العامة

وهي ستة

- فهرس الآيات القرآنية الكريمة.
- فهرس الأحاديث النبوية الشريفة.
- فهرس الآثار.
- فهرس الشواهد الشعرية.
- فهرس الأعلام المترجم لهم.
- فهرس الموضوعات.

فهرس الآيات القرآنية الكريمة

م	الآية	رقمها	السورة	رقمها	الصفحة
١	﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٧ ﴾	٦ – ٧	البقرة	٢	١١٦، ١١٧، ١٥٣، ٢٤١، ٢٤٢، ٢٦٨، ٢٦٩، ٣٣٥، ٣٦٠، ٤٦٠، ٤٦٤
٢	﴿ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾	١١	البقرة	٢	٨٤
٣	﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ ﴾	١٦	البقرة	٢	١٩٢- ١٩٣
٤	﴿ وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ ﴾	٢٣	البقرة	٢	٨٨
٥	﴿ وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا فَأَحۡيَٰكُمۡۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡ ﴾	٢٨	البقرة	٢	١٩٦
٦	﴿ ثُمَّ ٱتَّخَذۡتُمُ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ ﴾	٥١	البقرة	٢	٢٩٠
٧	﴿ فَلِمَ تَقۡتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبۡلُ ﴾	٩١	البقرة	٢	٢٩٠
٨	﴿ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ ﴾	١٢٤	البقرة	٢	٣٢٩
٩	﴿ لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ ﴾	١٤٣	البقرة	٢	٣٤٣
١٠	﴿ فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾	١٤٤	البقرة	٢	٨٤
١١	﴿ فِي خَلۡقِ ﴾	١٦٤	البقرة	٢	٨٤

١٢	﴿إِذۡ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ﴾	١٦٦	البقرة	٢	٣٢٢
١٣	﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ﴾	١٨٦	البقرة	٢	٢١٧
١٤	﴿سَلۡ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ كَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّنۡ ءَايَةِۭ بَيِّنَةٍ﴾	٢١١	البقرة	٢	٥٦
١٥	﴿مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ﴾	٢١٤	البقرة	٢	٤٣١
١٦	﴿إِنَّ ءَايَةَ مُلۡكِهِۦٓ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾	٢٤٨	البقرة	٢	٥٦
١٧	﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ﴾	٢٤٨	البقرة	٢	٥٦
١٨	﴿رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ﴾	٢٥٨	البقرة	٢	٣٨٠
١٩	﴿يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾	٢٦٩	البقرة	٢	٥٢
٢٠	﴿فَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾	٢٨٤	البقرة	٢	١٧٧
٢١	﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ﴾	٧	آل عمران	٣	٥٧
٢٢	﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ﴾	١٨	آل عمران	٣	٢٩٤
٢٣	﴿وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ١٢٦﴾	١٢٦	آل عمران	٣	٣٥١
٢٤	﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾	١٣٩	آل عمران	٣	٤٢٠
٢٥	﴿ إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾	١٩٠	آل عمران	٣	٢٠٧
٢٦	﴿ وَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ مِنكُمۡ طَوۡلًا﴾	٢٥	النساء	٤	٧٠

٢٧	﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾	٤١	النساء	٤	٣٤٣
٢٨	﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا (٨٢) ﴾	٨٢	النساء	٤	٣٧
٢٩	﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ ﴾	١٠٨	النساء	٤	٢١٥
٣٠	﴿ يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾	١٥٣	النساء	٤	١٥٨
٣١	﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ (١٥) يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٦) ﴾	١٥ – ١٦	المائدة	٥	٧
٣٢	﴿ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ (٧٧) ﴾	٧٧	المائدة	٥	٧
٣٣	﴿ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ۖ ﴾	١٩	المائدة	٥	٣٩٢
٣٤	﴿ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ ﴾	٨	الأنعام	٦	٤٣١
٣٥	﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ (١٤) ﴾	١٤	الأنعام	٦	٣٩٨
٣٦	﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ (٢٣) ﴾	٢٣	الأنعام	٦	٣٤٥، ٤١٨
٣٧	﴿ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾	٢٨	الأنعام	٦	١٩٥
٣٨	﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٤٥) ﴾	٤٥	الأنعام	٦	٣٩٣
٣٩	﴿ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾	٨٨	الأنعام	٦	٧
٤٠	﴿ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ ﴾	٩١	الأنعام	٦	٤٣١
٤١	﴿ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ (٩٦) ﴾	٩٦	الأنعام	٦	١٤٣

٤٢	﴿ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ ﴾	١٢٤	الأنعام	٦	٢١٣
٤٣	﴿ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ (١٤٨) ﴾	١٤٨	الأنعام	٦	٤٥٠
٤٤	﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ۚ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾	٣٢	الأعراف	٧	١٧٦
٤٥	﴿ قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ ۖ ﴾	٣٨	الأعراف	٧	٣٢٢
٤٦	﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٥٤) ﴾	٥٤	الأعراف	٧	٤٣٨
٤٧	﴿ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ ۚ ﴾	١٢٧	الأعراف	٧	٢٦٠
٤٨	﴿ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (١٢٨) ﴾	١٢٨	الأعراف	٧	٣٤٢
٤٩	﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾	١٧٢	الأعراف	٧	١٩٦
٥٠	﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا ﴾	٢	الأنفال	٨	١٢، ١٥٧
٥١	﴿ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢) ﴾	٣٢	الأنفال	٨	٤٣٠
٥٢	﴿ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ (٦٢) ﴾	٦٢	الأنفال	٨	٢٩٤
٥٣	﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٦٤) ﴾	٦٤	الأنفال	٨	٢٩٤
٥٤	﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾	٧١	التوبة	٩	١٨٤، ٢٩٤
٥٥	﴿ اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ ﴾	٨٦	التوبة	٩	٦٦
٥٦	﴿ الر ﴾	١	يونس	١٠	٥٧
٥٧	﴿ لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ۖ ﴾	٤١	يونس	١٠	٣٠٤

٥٨	﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا ﴾	٨٨ – ٨٩	يونس	١٠	٢٩٨
٥٩	﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾	٩٨	يونس	١٠	٤٥١
٦٠	﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾﴾	١	هود	١١	٤٠، ٥٧
٦١	﴿ قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا ﴾	٣٢	هود	١١	١٥٦
٦٢	﴿يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾﴾	٧٤	هود	١١	١٥٧
٦٣	﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾﴾	٢٦ – ٢٧	يوسف	١٢	٢٧٨
٦٤	﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾﴾	٣٩	يوسف	١٢	٢٩٠
٦٥	﴿ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ﴾	٥٤	يوسف	١٢	٢٩٠
٦٦	﴿إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾﴾	٥٤	يوسف	١٢	٢٩٠
٦٧	﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ﴾	٧٦	يوسف	١٢	٢١٢
٦٨	﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾	١١١	يوسف	١٢	٤٣٢
٦٩	﴿الٓمٓر ﴾	١	الرعد	١٣	٥٧
٧٠	﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾	١٢	الرعد	١٣	٢٠٧
٧١	﴿ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم	٢٢ – ٢٣	الرعد	١٣	١٧٨

	مِّن كُلِّ بَابٖ ﴿٢٣﴾ ﴾				
٧٢	﴿ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَۖ وَمِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ مَن يُنكِرُ بَعۡضَهُۥ ﴾	٣٦	الرعد	١٣	١٥٧
٧٣	﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ ﴿٣٤﴾ ﴾	٣٤	إبراهيم	١٤	٣٨٨
٧٤	﴿ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ ﴿٤١﴾ ﴾	٤١	إبراهيم	١٤	١٨٥
٧٥	﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ﴾	٤٨	إبراهيم	١٤	٢١٥
٧٦	﴿ ۞ نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلۡعَذَابُ ٱلۡأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ ﴾	٤٩ – ٥٠	الحجر	١٥	١٤٥، ٤٤٥
٧٧	﴿ إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ﴾	٩٥	الحجر	١٥	١٥٤
٧٨	﴿وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ إِلَىٰ بَلَدٖ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ ﴾	٧	النحل	١٦	٤٣٥
٧٩	﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ﴾	١٢٥	النحل	١٦	١٥٦
٨٠	﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا ﴿١٥﴾ ﴾	١٥	الإسراء	١٧	٣٢٩، ٣٣٣
٨١	﴿مَرَحًا ﴾	٣٧	الإسراء	١٧	١٠٨
٨٢	﴿فَلَمَّا نَجَّىٰكُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ أَعۡرَضۡتُمۡۚ ﴾:٦٧	٦٧	الإسراء	١٧	٣٨٥
٨٣	﴿ قَالَ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرۡعَوۡنُ مَثۡبُورٗا ﴿١٠٢﴾ ﴾	١٠٢	الإسراء	١٧	٢٦٥، ٢٨٣
٨٤	﴿ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهَا مُنقَلَبٗا ﴿٣٦﴾ ﴾	٣٦	الكهف	١٨	٤٥٠
٨٥	﴿وَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِي ظَلۡتَ عَلَيۡهِ عَاكِفٗاۖ ﴾	٩٧	طه	٢٠	٤٥٠
٨٦	﴿ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾	٢٠	الأنبياء	٢١	٣٥١
٨٧	﴿ أَمۡ لَهُمۡ ءَالِهَةٞ ﴾	٤٣	الأنبياء	٢١	١٥٤

٨٨	﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ ٦٦﴾	٦٦	الحج	٢٢	٣٨٨
٨٩	﴿وَجَعَلۡنَا ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةٗ﴾	٥٠	المؤمنون	٢٣	٥٦
٩٠	﴿كُلُّ حِزۡبِۢ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ٥٣﴾	٥٣	المؤمنون	٢٣	٤٥٠
٩١	﴿وَمَن يَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرۡهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ١١٧﴾	١١٧	المؤمنون	٢٣	١٥٤
٩٢	﴿سُورَةٌ أَنزَلۡنَٰهَا وَفَرَضۡنَٰهَا وَأَنزَلۡنَا فِيهَآ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ لَّعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾	١	النور	٢٤	٥٥
٩٣	﴿يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٢٤ يَوۡمَئِذٖ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلۡحَقَّ وَيَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ ٱلۡمُبِينُ ٢٥﴾	٢٤ - ٢٥	النور	٢٤	٣٤٣، ٣٤٤
٩٤	﴿وَلَا يَأۡتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا ٣٣﴾	٣٣	الفرقان	٢٥	٢٦
٩٥	﴿أَلَمۡ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدٗا﴾	١٨	الشعراء	٢٦	٢٦١
٩٦	﴿يَأۡتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٖ﴾	٣٧	الشعراء	٢٦	٢٥٥
٩٧	﴿فَأۡتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ١٥٤﴾	١٥٤	الشعراء	٢٦	٤٥٩
٩٨	﴿طسٓ﴾	١	النمل	٢٧	٥٧
٩٩	﴿زَيَّنَّا لَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُمۡ يَعۡمَهُونَ ٤﴾	٤	النمل	٢٧	١٤٣، ٢٩٧
١٠٠	﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾	٢٤	النمل	٢٧	٢٩٧- ٢٩٨
١٠١	﴿فَإِنَّ رَبِّي غَنِيّٞ كَرِيمٞ ٤٠﴾	٤٠	النمل	٢٧	١٤٣
١٠٢	﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلۡمُهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّنۡهَاۖ بَلۡ هُم مِّنۡهَا عَمُونَ ٦٦﴾	٦٦	النمل	٢٧	٤٥٠
١٠٣	﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ﴾	٦٩	النمل	٢٧	٢٤٥
١٠٤	﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَكۡثَرَ ٱلَّذِي هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ٧٦ وَإِنَّهُۥ لَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٧٧ إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُم	٧٦ - ٧٨	النمل	٢٧	١٤٤

	بِحُكْمِهِۦ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ ﴾				
١٠٥	﴿ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾	٢٠	القصص	٢٨	١٠٧
١٠٦	﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا ﴾	٣٨	القصص	٢٨	٢١٦، ٢٩٥
١٠٧	﴿ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾	٨٥	القصص	٢٨	٣٣٥
١٠٨	﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾	٤٣	العنكبوت	٢٩	٢٠٩
١٠٩	﴿ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾	٤٦	العنكبوت	٢٩	١٩٨
١١٠	﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾	٧	الروم	٣٠	٤٤٩
١١١	﴿ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾	١٩	الروم	٣٠	٢٠٨
١١٢	﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ﴾	٢٢	الروم	٣٠	٥٦
١١٣	﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾	١٣	لقمان	٣١	٢٢٩
١١٤	﴿ مَرَحًا ﴾	١٨	لقمان	٣١	١٠٨
١١٥	﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ۗ ﴾	١	الأحزاب	٣٣	٤٠١
١١٦	﴿ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ ﴾	١٠ – ١١	الأحزاب	٣٣	٢٢٨
١١٧	﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ ﴾	٥٦	الأحزاب	٣٣	١٨٥
١١٨	﴿ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ ﴾	٦٧	الأحزاب	٣٣	٣٤٥
١١٩	﴿ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ ﴾	٢٤	سبأ	٣٤	٢٧٨
١٢٠	﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ	٣١	سبأ	٣٤	٣١٩

	لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ ﴾				
١٢١	﴿ مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ﴾	٢	فاطر	٣٥	٢٥٧
١٢٢	﴿ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ﴾	١٤	فاطر	٣٥	٣٠٣
١٢٣	﴿ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ﴾	٣٩	فاطر	٣٥	١٩٣
١٢٤	﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ ﴾	٣٨	يس	٣٦	١٤٣
١٢٥	﴿ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ ﴾	٦٠	يس	٣٦	٢٨٧
١٢٦	﴿ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ ﴾	٧٨	يس	٣٦	٣٦٨
١٢٧	﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾	١٧١ – ١٧٣	الصافات	٣٧	٣٤٩
١٢٨	﴿ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ﴿١﴾ ﴾	١	ص	٣٨	٨٤
١٢٩	﴿ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾ ﴾	٢	ص	٣٨	٨٤
١٣٠	﴿ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾	٤ – ٥	ص	٣٨	٢٠٠، ٢٥٥
١٣١	﴿ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ ﴾	٨٤	ص	٣٨	٨٤
١٣٢	﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾	٨٥	ص	٣٨	٨٤
١٣٣	﴿ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ ﴾	١	الزمر	٣٩	١٠٠
١٣٤	﴿ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ﴾	٢ – ٣	الزمر	٣٩	١٠٠
١٣٥	﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾ ﴾	٣	الزمر	٣٩	١٠٠
١٣٦	﴿ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ	٥	الزمر	٣٩	١٠٠-١٠١

	مُّسَمًّىۗ أَلَا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّٰرُ ﴿٥﴾ ﴾				
١٣٧	﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِۖ ﴾	٤٥	الزمر	٣٩	٢١١
١٣٨	﴿ وَتَرَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنۡ حَوۡلِ ٱلۡعَرۡشِ ﴾	٧٥	الزمر	٣٩	١٧٣
١٣٩	﴿ فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ﴿٤﴾ ﴾	٤	فصلت	٤١	١٠٣
١٤٠	﴿ ۞ قُلۡ أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ وَتَجۡعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ ﴾	٩	فصلت	٤١	١٠٣
١٤١	﴿ فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ وَأَوۡحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمۡرَهَاۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفۡظٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴿١٢﴾ ﴾	١٢	فصلت	٤١	١٤٣
١٤٢	﴿ فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَقُلۡ أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةٗ مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٖ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ ﴾	١٣	فصلت	٤١	١٠٣، ١٠٤، ١٠٥
١٤٣	﴿ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا فِيٓ أَيَّامٖ نَّحِسَاتٖ لِّنُذِيقَهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَخۡزَىٰۖ وَهُمۡ لَا يُنصَرُونَ ﴾	١٦	فصلت	٤١	١٢٠
١٤٤	﴿ وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمۡ لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَاۖ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيۡءٖ ﴾	٢١	فصلت	٤١	٣٤٣
١٤٥	﴿ وَلَٰكِن ظَنَنتُمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعۡلَمُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ﴾	٢٢	فصلت	٤١	٢١٥
١٤٦	﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ ﴾	٣٠	فصلت	٤١	١٠٥
١٤٧	﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوۡنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ ﴾	٤٤	فصلت	٤١	١٩٠
١٤٨	﴿ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ وَلَئِن رُّجِعۡتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلۡحُسۡنَىٰۚ ﴾	٥٠	فصلت	٤١	٤٥٠
١٤٩	﴿ سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ ﴾	٥٣	فصلت	٤١	٢٠٤
١٥٠	﴿ فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ وَقُلۡ	١٥	الشورى	٤٢	٤٠١

	ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ١٥ ﴾				
١٥١	﴿ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡعَلِيمُ ٩ ﴾	٩	الزخرف	٤٣	١٤٣
١٥٢	﴿ وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ ٣١ ﴾	٣١	الزخرف	٤٣	١٤٤، ٢١٣
١٥٣	﴿ فَإِمَّا نَذۡهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنۡهُم مُّنتَقِمُونَ ٤١ أَوۡ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِي وَعَدۡنَٰهُمۡ فَإِنَّا عَلَيۡهِم مُّقۡتَدِرُونَ ٤٢ ﴾	٤١ - ٤٢	الزخرف	٤٣	١٤٦، ٤٢٩
١٥٤	﴿ أَلَيۡسَ لِي مُلۡكُ مِصۡرَ وَهَٰذِهِ ٱلۡأَنۡهَٰرُ تَجۡرِي مِن تَحۡتِيٓۚ ﴾	٥١	الزخرف	٤٣	٢١٦
١٥٥	﴿ فَٱسۡتَخَفَّ قَوۡمَهُۥ فَأَطَاعُوهُۚ ﴾	٥٤	الزخرف	٤٣	٢٩٦
١٥٦	﴿ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ ٥٨ ﴾	٥٨	الزخرف	٤٣	١٥٦
١٥٧	﴿ أَفَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ ﴾	٢٣	الجاثية	٤٥	١٥٤
١٥٨	﴿ وَلِلۡكَٰفِرِينَ أَمۡثَٰلُهَا ١٠ ﴾	١٠	محمد	٤٧	٣٢٢
١٥٩	﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ ﴾	١٩	محمد	٤٧	١٨٥
١٦٠	﴿ وَلَوۡلَا رِجَالٞ مُّؤۡمِنُونَ وَنِسَآءٞ مُّؤۡمِنَٰتٞ لَّمۡ تَعۡلَمُوهُمۡ أَن تَطَـُٔوهُمۡ فَتُصِيبَكُم مِّنۡهُم مَّعَرَّةُۢ بِغَيۡرِ عِلۡمٖۖ لِّيُدۡخِلَ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ لَوۡ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبۡنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا ٢٥ ﴾	٢٥	الفتح	٤٨	٢٤٧، ٤٣٣
١٦١	﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ ﴾	١٠	الحجرات	٤٩	١٧٥
١٦٢	﴿ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ وَنَعۡلَمُ مَا تُوَسۡوِسُ بِهِۦ نَفۡسُهُۥۖ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ ﴾	١٦	ق	٥٠	٢٣٢
١٦٣	﴿ وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّعَهَا سَآئِقٞ وَشَهِيدٞ ٢١ ﴾	٢١	ق	٥٠	٣٤٣
١٦٤	﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ ﴾	٢١	الطور	٥٢	١٨٦

١٦٥	﴿أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُۥ﴾	٢٤	القمر	٥٤	٢١٣
١٦٦	﴿مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾﴾	٦٤	الرحمن	٥٥	٥٧
١٦٧	﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾	١١	المجادلة	٥٨	٢١٢
١٦٨	﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾	١٩	الحشر	٥٩	٣٧١
١٦٩	﴿لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾	٨	المنافقون	٦٣	٣٦٦
١٧٠	﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾	١	الملك	٦٧	٨٧
١٧١	﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾﴾	٤٤ – ٤٦	الحاقة	٦٩	٢٨١
١٧٢	﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾	٢٨	نوح	٧١	٢٨٥
١٧٣	﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾﴾	١	المزمل	٧٣	١١١
١٧٤	﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾﴾	١	المدثر	٧٤	١١١
١٧٥	﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢﴾﴾	١ – ٢	النبأ	٧٨	٢١٧
١٧٦	﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾﴾	٣٤	عبس	٨٠	٢٨٨
١٧٧	﴿وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾﴾	٣٠ – ٣١	المطففين	٨٣	٤١٩
١٧٨	﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾﴾	١٧	الغاشية	٨٨	٤٣٦
١٧٩	﴿وَٱلْفَجْرِ ﴿١﴾﴾	١	الفجر	٨٩	٥٧
١٨٠	﴿وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾﴾	١ – ٣	الضحى	٩٣	١١١
١٨١	﴿يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾	٧ – ٨	الزلزلة	٩٩	٢٣٧

١٨٢	﴿ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٞ ٦ ﴾	٦	العاديات	١٠٠	٣٨٨
١٨٣	﴿ لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ ٦ ﴾	٦	الكافرون	١٠٩	١٥٤، ٣٠٤
١٨٤	﴿ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ ﴾	٣	النصر	١١٠	٣٥٠

فهرس الأحاديث النبوية الشريف

م	طرف الحديث	رقم الصفحة
١	إِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ فَلْيَبْدَأْ بِتَحْمِيدِ اللَّهِ وَالثَّنَاءِ عَلَيْه	١٨٦
٢	أرجو أن أكون أكثرهم تابعا	٤٣٣
٣	أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر أو أمير جائر	٢٧١
٤	اقْرَأْ ثَلَاثًا من ذوات الراء ... فاقرأ ثلاثا من ذوات حم	٧٣، ٨٢
٥	إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي	٣٠٨
٦	إن بيّتكم العدو فليكن شعاركم: حم لا ينصرون	٨٢، ٨٣، ١٢٠
٧	أنا الملك، أين ملوك الأرض؟	٢١٧، ٢٢٢
٨	بئس عبد الله هذا	١٥٤
٩	جدال في القرآن كفر	١٥٦
١٠	الدعاء هو العبادة	٣٩٧
١١	سورة من القرآن ثلاثون آية تشفع لصاحبها حتى يغفر له	٨٧
١٢	سيد الشهداء حمزة، ورجل قام إلى ظالم فأمره ونهاه فقتله	٢٦٥
١٣	كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته	٣٣٣
١٤	لا تكونوا إمعة، تقولون: إن أحسن الناس أحسنا	٣٣٣
١٥	لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم	٢٠٢
١٦	ما نالت قريش مني شيئا أكرهه حتى مات أبو طالب	١١٠
١٧	مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ، وَتَرَاحُمِهِمْ، وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ	١٨
١٨	مَنْ حَفِظَ عَشْرَ آيَاتٍ مِنْ أَوَّلِ سُورَةِ الْكَهْفِ عُصِمَ مِنَ الدَّجَّالِ	٨٧
١٩	من قام بعشر آيات لم يكتب من الغافلين	٨٧
٢٠	مَنْ قَرَأَ آيَةَ الْكُرْسِيِّ، وَحم الْأَوَّلَ	٦٤
٢٢	مَنْ قَرَأَ بِالْآيَتَيْنِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ البَقَرَةِ فِي لَيْلَةٍ كَفَتَاهُ	٨٧
٢٣	مَنْ قَرَأَ حم الْمُؤْمِنَ إِلَى ﴿إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾، وَآيَةَ الْكُرْسِيِّ	٦٤، ٧٨
٢٤	مَنْ قَرَأَ سُورَةَ حم الْمُؤْمِنِ، لَو تبق رُوحُ نَبِيٍّ وَلَا صِدِّيقٍ وَلَا شَهِيدٍ	٦٤، ٧٨
٢٥	وَلَكِنْ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى اسْمُهُ، إِذَا قَضَى أَمْرًا سَبَّحَ حَمَلَةُ الْعَرْشِ	١٧٣

فهرس الآثار

م	طرف الأثر	الراوي	ص
١	أَبْنِيهِ مِنْ أَجْلِ آلِ حم	أبو الدرداء	٨٣
٢	إذا وقعت في آل حم وقعت في روضات دمثات أتأنق فيهن	عبد الله بن مسعود	٨١
٣	إِذَا وَقَعْتَ فِي آلِ حَمِيمَ	عبد الله بن مسعود	٧٥
٤	اعمل ولا تيأس	عمر بن الخطاب	٧٩
٥	اكتب: من عمر بن الخطاب إلى فلان بن فلان سلام عليك	عمر بن الخطاب	٧٨-٧٩
٦	آل حم ديباج القرآن	عبد الله بن مسعود، ومجاهد	٧٣، ٨٠
٧	أن الوليد بن المغيرة وشيبة بن ربيعة قالا: يا محمد ارجع عما تقول	عبد الله بن عباس	٤٠١
٨	إن الْيَهُود أَتَوا النَّبِي ﷺ فَقَالُوا: إن الدَّجّال	أبو العالية	٩٥، ٣٦٣
٩	إِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ لُبَابًا، وَإِنَّ لُبَابَ الْقُرْآنِ آلُ حم	ابن عبّاس	٨١
١٠	إِنَّ مَثَلَ الْقُرْآنِ كَمَثَلِ رَجُلٍ انْطَلَقَ يَرْتَادُ لِأَهْلِهِ مَنْزِلًا	عبد الله بن مسعود	٨١
١١	أنها نزلت في الحارث بن قيس السهمي، أحد المستهزئين	أبو مالك	١٥٤
١٢	حَدَّثَنَا مَنْ كَانَ يُقْرِئُنَا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ	أبو عبد الرحمن	٨٧-٨٨
١٣	الحواميم كلها نزلت بمكة	عبد الله بن عباس، وغيره	٩٤
١٤	دخلت حائطا أصلي ركعتين فافتتحت حم المؤمن	ثابت البناني	٦٤
١٥	رأيت عقبة بن أبي معيط، جاء إلى النبي ﷺ وهو يصلي	عبد الله بن عمرو	١٢١، ٢٧٧
١٦	كَانَ يُقَالُ لَهُنَّ: الْعَرَائِسُ	مسعر بن كدام	٨٠
١٧	كُنَّ الْحَوَامِيمَ يُسَمَّيْنَ الْعَرَائِسَ	سعد بن إبراهيم	٧٣، ٨٠
١٨	لَقَدْ تَعَلَّمْتُ النَّظَائِرَ الَّتِي كَانَ النَّبِيُّ ﷺ	عبد الله بن مسعود	٧٥
١٩	مَنْ قَرَأَ حم فِي لَيْلَةِ الْجُمُعَةِ، أَصْبَحَ مَغْفُورًا لَهُ	أبو رافع	٨٣
٢٠	نزلت حم المؤمن بمكة	عبد الله بن عباس، وعبد الله بن الزبير	٦٤، ٩٤
٢٢	هَذًّا كَهَذِّ الشِّعْرِ!! إِنَّا قَدْ سَمِعْنَا الْقِرَاءَةَ	عبد الله بن مسعود	٨٢
٢٣	هم اليهود نزلت فيهم فيما ينتظرونه من أمر الدجال	كعب الأحبار	٣٦٣
٢٤	يا زر بن حبيش قد بلغت عرائس القرآن	علي بن أبي طالب	٨١

فهرس الشواهد الشعرية

م	البيت	نسبته	ص
١	والنجم تستصغر الأبصار رؤيته ... والذنب للطرف لا للنجم في الصغر	أبو العلاء المعري	١٤
٢	وجدنا لكم في آل حم آية ... تأملها منا تقي ومعرب	الكميت	٧٤
٣	وبالطواسين التي قد ثلثت ... وبالحواميم التي قد سبعت	أبو عبيد	٧٤
٤	هذا رسول الله في الخيرات ... جاء بياسين وحاميمات	مالك بن مالك	٧٦
٥	قد يُدرِكُ المتأني بَعضَ حاجَتِهِ ... وقد يكونُ مع المُستَعجِلِ الزَّلَلُ	القطامي	٢٧٨

فهرس الأعلام المترجم لهم

م	الاسم والشهرة، أو الكنية	رقم الصفحة
١	إبراهيم بن السّري بن سهل، أبو إسحاق الزجاج	٧٠
٢	أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي الغرناطي، أبو جعفر	٤٥
٣	أحمد بن أبي عمر الأندرابي، أبو عبد الله	٨٤
٤	أحمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي	٢٦
٥	أحمد بن فرح بن جبريل البغدادي، أبو جعفر	٨٥
٦	إسماعيل بن جعفر بن أبي كثير الأنصاري، أبو إسحاق المدني	٨٥
٧	إسماعيل حقي بن مصطفى الإستانبولي، أبو الفداء	٣٤٤
٨	ثابت بن أسلم البناني	٦٤
٩	جابر بن موسى بن عبد القادر بن جابر، أبو بكر الجزائري	٢٠٦
١٠	جويبر بن سعيد البلخي	٤٠١
١١	حسن بن محمد بن حسين النيسابوري، ابن القمي	٢٥٢
١٢	الحسين بن محمد بن عبد الله، شرف الدين الطيبي	٤٠٣
١٣	خالد بن معدان بن أبي كرب، أبو عبد الله الكلاعي الحمصي	٨٦
١٤	زر بن حبيش بن حباشة بن أوس، أبو مريم الأسدي	٨١
١٥	زغلول راغب محمد النجار	١١٧
١٦	سَعْدُ بنُ إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف الزهري	٧٣
١٧	سعيد بن محمد بن ديب حوى، أبو محمد	١٥
١٨	الشاه وَلِيُّ الله أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي الهندي، أبو عبد العزيز	٥٠
١٩	شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي	٧٥
٢٠	شيبة بن نصاح بن سرجس بن يعقوب	٨٥
٢١	الضحاك بن مزاحم الهلالي الخراساني، أبو محمد	٤٠١
٢٢	عاصم بن أبي الصباح العجاج، أبو المجشر الجحدري البصري	٨٥
٢٣	عبد الحميد بن عبد الكريم الفراهي، المعلم الهندي	١٤
٢٤	عبد الرحمن بن زيد بن أسلم العدوي العُمَرِي المدني	١٩٦
٢٥	عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الجزائري المغربي، أبو زيد الثعالبي	٢٥٧
٢٦	عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن ناصر بن حمد آل سعدي	١٤٧
٢٧	عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك بن طلحة، أبو القاسم القشيري	٢٢١
٢٨	عبد الكريم محمود يونس أحمد حسن الخطيب	٢٧٦

٢٩	عبد الله بن عامر بن يزيد بن تميم اليحصبي	٨٦
٣٠	عبد الله بن محمد بن الصديق الغماري الحسني الإدريسي	٤٦
٣١	عدنان بن عبد القادر بن محمد القادري	١١٨
٣٢	علي بن أحمد بن إبراهيم بن إسماعيل المهايمي الهندي، أبو الحسن	٦٦
٣٣	علي بن محمد بن إبراهيم بن عمر بن خليل الشيحي	٧٠
٣٤	القاسم بن سلام، أبو عبيد	٧٤
٣٥	القاسم بن علي بن محمد بن عثمان البصري، أبو محمد الحريري	٧٤
٣٦	الكميت بن زيد بن خنيس بن مجالد الأسدي	٧٤
٣٧	محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي، أبو عبد الله	٣٨
٣٨	محمد بن عبد الله دراز	٨
٣٩	محمد بن محمد بن محمد البجائي، أبو الفضل	٤٣
٤٠	محمد ثناء الله الهندي المظهري	١٨٩
٤١	محمد عِزّت بن عبد الهادي دروزة	١٧١
٤٢	محمد علي الصابوني	١١٧
٤٣	محمد محمود حجازي	١٥
٤٤	محمود بن عبد الرحيم الصافي	٣٧٠
٤٥	مساعد بن سليمان بن ناصر الطيار	٢٦
٤٦	مسعر بن كدام بن ظهير الهلالي، أبو سلمة	٨٠
٤٧	مصطفى مسلم محمد	١٦
٤٨	مطرف بن عبد الله بن مطرف، أبو مصعب	١٨٤
٤٩	معمر بن المثنّى التيمي البصري، أبو عبيدة	٧٥
٥٠	نعمة الله بن أبي الفضل محمود النخجواني، الشيخ علوان	١٨٦
٥١	نفيع بن رافع، أبو رافع الصائغ	٨٣
٥٢	وهبة بن مصطفى الزحيلي	١١٧
٥٣	يحيى بن الحارث بن عمرو بن يحيى، أبو عمرو	٨٦
٥٤	يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الفرّاء، أبو زكريا	٧٤
٥٥	يحيى بن معاذ الرازي، أبو زكريا	١٨٥

فهرس الموضوعات

التقسيمات	الموضوعات	رقم الصفحة
	ملخص الرسالة.	٣
	الإهداء.	٥
	شكر وتقدير.	٦
المقدمة	مقدمة الرسالة، وتتضمن أهمية الموضوع، وسبب اختياريه، والهدف منه، ومنهجي دراسته، والدراسات السابقة، وخطة البحث.	٧
التمهيد	مقدمات تعريفية	٢٤
	تعريف التناسق الموضوعي.	٢٥
	أولا: تعريف التفسير الموضوعي.	٢٦
	ثانيا: تعريف الوحدة الموضوعية.	٣٠
	ثالثا: تعريف التناسق الموضوعي.	٣٢
	العلاقة بين التناسق الموضوعي والوحدة الموضوعية.	٣٥
	العلاقة بين التناسق الموضوعي والتفسير الموضوعي.	٣٦
	العلاقة بين التناسق الموضوعي والتفسير الموضوعي.	٣٧
	رابعا: تعريف علم المناسبات.	٣٨
	فوائد وثمرات علم المناسبات.	٤٠
	العلاقة بين التناسق الموضوعي وعلم المناسبات.	٤٢
	العلاقة بين التفسير الموضوعي وعلم المناسبات.	٤٤
	مواطن الافتراق والاتفاق بين علم المناسبة والتفسير الموضوعي.	٤٥
	خامسا: تعريف علم المقاصد.	٤٨
	بيان المقاصد القرآنية العظمى.	٤٨
	العلاقة بين التناسق الموضوعي والمقاصد الكلية للقرآن الكريم.	٥٣
	سادسا: تعريف السورة القرآنية.	٥٤
	سابعا: تعريف الآية القرآنية.	٥٦
الباب الأول	**التناسق الموضوعي في سورة غافر.**	٥٨

	التمهيد: عرض موجز للسورة الكريمة.	٥٩
<u>الفصل الأول</u>	**تعريف بسورة غافر، وفيه سبعة مباحث:**	٦٣
المبحث الأول	اسم السورة الكريمة.	٦٣
المبحث الثاني	سبب التسمية.	٦٥
المبحث الثالث	معاني أسماء السورة.	٦٧
المبحث الرابع	آل حاميم.	٧٢
المبحث الخامس	فضائل السورة.	٧٧
المبحث السادس	فضائل آل حاميم.	٨٠
المبحث السابع	عدد آيات السورة وكلماتها وحروفها، وفيه:	٨٤
	أولا: علم العدد القرآني.	٨٤
	ثانيا: فوائد معرفة عدد الآيات.	٨٨
	ثالثا: عدد الآيات في سورة غافر.	٨٩
	رابعا: عدد الكلمات في سورة غافر.	٩٠
	خامسا: عدد الحروف في سورة غافر.	٩٠
<u>الفصل الثاني</u>	**خصائص السورة الزمانية والمكانية والتنزيلية والموضوعية، وفيه خمسة مباحث:**	٩٢
المبحث الأول	تاريخ نزول السورة.	٩٢
المبحث الثاني	مكان نزول السورة والمكي والمدني فيها.	٩٣
المبحث الثالث	أسباب النزول الواردة في السورة، وفيه:	٩٧
	فوائد معرفة سبب النزول وثمرته.	٩٩
المبحث الرابع	مناسبة السورة لما قبلها وما بعدها، وفيه:	١٠٠
	المسألة الأولى: مناسبتها لسورة الزمر التي قبلها:	١٠٠
	أولا: التناسب العام بين السورتين.	١٠٠
	ثانيا: المناسبة بين فاتحة السورتين.	١٠٠
	ثالثا: المناسبة بين خاتمة السورة الأولى وفاتحة السورة الثانية.	١٠١
	المسألة الثانية: مناسبتها لسورة فصلت التي بعدها:	١٠٣
	أولا: التناسب العام بين السورتين.	١٠٣
	ثانيا: المناسبة بين فاتحة السورتين.	١٠٣
	ثالثا: المناسبة بين خاتمة السورة الأولى وفاتحة السورة الثانية.	١٠٤

المبحث الخامس	اختصاصات السورة.	١٠٦
الفصل الثالث	**جو السورة ومقاصدها ومناسباتها، وفيه ستة مباحث:**	١١٠
المبحث الأول	الجو العام الذي نزلت فيه السورة.	١١٠
المبحث الثاني	الوحدة الموضوعية للسورة ومحورها الأساسي ومقصدها الأعظم.	١١١
	شراسة المشركين في محاربة الدعوة وقت نزول السورة.	١١٩
	وسائل ردع الله لكيدهم ودحض باطلهم.	١١٩
	تثبيت الله للمؤمنين وتقويتهم.	١٢١
	نموذج من أثر السورة على أرض الواقع	١٢١
المبحث الثالث	مقاصد وأهداف السورة وموضوعاتها.	١٢٣
المبحث الرابع	المناسبة بين اسم السورة وموضوعها الكلي.	١٢٩
المبحث الخامس	مناسبة فاتحة السورة لموضوعاتها.	١٣١
المبحث السادس	مناسبة فاتحة السورة لخاتمتها.	١٣٤
الباب الثاني	**التناسق الموضوعي في سورة غافر دراسة تطبيقية، ويشتمل على ثلاثة فصول:**	١٣٥
	تمهيد.	١٣٦
الفصل الأول	**صفات منزل القرآن، ومشاهد الفريقين والدارين، ويشمل الآيات (١-٢٠)، وفيه ستة مباحث:**	١٣٧
* المبحث الأول	صفات منزل القرآن، ويشمل الآيات (١-٣).	١٣٩
المطلب الأول	مقدمة السورة، وعلاقتها بالمحور الأساس للسورة.	١٣٩
المطلب الثاني	التناسب بين الآيات والجمل والكلمات.	١٤١
المطلب الثالث	التفسير الإجمالي للآيات.	١٤٩
المطلب الرابع	بيان ما ترشد إليه الآيات.	١٥٠
*المبحث الثاني	بيان حال المجادلين في آيات الله، ويشمل الآيات (٤-٦).	١٥١
المطلب الأول	ربط الموضوع بالمحور الأساس للسورة.	١٥١

المطلب الثاني	التناسق بين هذا الموضوع وسابقه.	١٥٢
المطلب الثالث	أسباب النزول الواردة.	١٥٤
المطلب الرابع	التناسب بين الآيات والجمل والكلمات.	١٥٦
المطلب الخامس	التفسير الإجمالي للآيات.	١٦٧
المطلب السادس	بيان ما ترشد إليه الآيات.	١٦٨
*المبحث الثالث	إعانة قوية للمؤمنين في تصديهم للمشركين، ويشمل الآيات (٧-٩).	١٦٩
المطلب الأول	ربط الموضوع بالمحور الأساس للسورة.	١٦٩
المطلب الثاني	التناسق بين هذا الموضوع وسابقه.	١٧٠
المطلب الثالث	التناسب بين الآيات والجمل والكلمات.	١٧٣
المطلب الرابع	التفسير الإجمالي للآيات.	١٨٣
المطلب الخامس	بيان ما ترشد إليه الآيات.	١٨٤
*المبحث الرابع	مشاهد من مصير الكافرين وندمهم الشديد، ويشمل الآيات (١٠-١٢).	١٨٧
المطلب الأول	ربط الموضوع بالمحور الأساس للسورة.	١٨٧
المطلب الثاني	التناسق بين هذا الموضوع وسابقه.	١٨٨
المطلب الثالث	التناسب بين الآيات والجمل والكلمات.	١٩٠
المطلب الرابع	التفسير الإجمالي للآيات.	٢٠٠
المطلب الخامس	بيان ما ترشد إليه الآيات.	٢٠٢
*المبحث الخامس	بيان دلائل قدرة الله تعالى ووحدانيته وصفاته العلى وآثارها، ويشمل الآيات (١٣-١٧).	٢٠٣
المطلب الأول	ربط الموضوع بالمحور الأساس للسورة.	٢٠٣
المطلب الثاني	التناسق بين هذا الموضوع وسابقه.	٢٠٥
المطلب الثالث	التناسب بين الآيات والجمل والكلمات.	٢٠٧
المطلب الرابع	التفسير الإجمالي للآيات.	٢٢٠
المطلب الخامس	بيان ما ترشد إليه الآيات.	٢٢١
*المبحث السادس	الإنذار المباشر للمشركين بسوء العاقبة في الآخرة، ويشمل الآيات (١٨-٢٠).	٢٢٣
المطلب الأول	ربط الموضوع بالمحور الأساس للسورة.	٢٢٣
المطلب الثاني	التناسق بين هذا الموضوع وسابقه.	٢٢٦

المطلب الثالث	التناسب بين الآيات والجمل والكلمات.	٢٢٧
المطلب الرابع	التفسير الإجمالي للآيات.	٢٣٦
المطلب الخامس	بيان ما ترشد إليه الآيات.	٢٣٧
الفصل الثاني	**الاعتبار بمصارع الغابرين، وجهاد الرسل والمؤمنين مع أقوامهم بالكلمة، ويشمل الآيات (٢٠- ٥٥)، وفيه خمسة مباحث:**	٢٣٨
***المبحث الأول**	**إنذار المشركين بسوء العاقبة في الدنيا بالنظر إلى مصارع الغابرين، ويشمل الآيات (٢١-٢٢).**	٢٤١
المطلب الأول	ربط الموضوع بالمحور الأساس للسورة.	٢٤١
المطلب الثاني	التناسق بين هذا الموضوع وسابقه.	٢٤٣
المطلب الثالث	التناسب بين الآيات والجمل والكلمات.	٢٤٥
المطلب الرابع	التفسير الإجمالي للآيات.	٢٤٨
المطلب الخامس	بيان ما ترشد إليه الآيات.	٢٤٩
***المبحث الثاني**	**ذكر نموذج للاعتبار من قصص الغابرين الهالكين، ويشمل الآيات (٢٣-٢٧).**	٢٥٠
المطلب الأول	ربط الموضوع بالمحور الأساس للسورة.	٢٥٠
المطلب الثاني	التناسق بين هذا الموضوع وسابقه.	٢٥١
المطلب الثالث	التناسب بين الآيات والجمل والكلمات.	٢٥٣
المطلب الرابع	التفسير الإجمالي للآيات.	٢٦٣
المطلب الخامس	بيان ما ترشد إليه الآيات.	٢٦٤
***المبحث الثالث**	**قصة مؤمن آل فرعون في دعوته ودفاعه عن الحق، ويشمل الآيات (٢٨-٤٦).**	٢٦٦
المطلب الأول	ربط الموضوع بالمحور الأساس للسورة.	٢٦٧
المطلب الثاني	التناسق بين هذا الموضوع وسابقه.	٢٧٢
المطلب الثالث	التناسب بين الآيات والجمل والكلمات.	٢٧٣
المطلب الرابع	التفسير الإجمالي للآيات.	٣١٤
المطلب الخامس	بيان ما ترشد إليه الآيات.	٣١٧
***المبحث الرابع**	**مشهد الخصام بين أهل النار، ويشمل الآيات (٤٧-٥٠).**	٣١٩
المطلب الأول	ربط الموضوع بالمحور الأساس للسورة.	٣١٩

المطلب الثاني	التناسق بين هذا الموضوع وسابقه.	٣٢١
المطلب الثالث	التناسب بين الآيات والجمل والكلمات.	٣٢٤
المطلب الرابع	التفسير الإجمالي للآيات.	٣٣٢
المطلب الخامس	بيان ما ترشد إليه الآيات.	٣٣٣
*المبحث الخامس	وعد الله الحق بنصر الرسل والمؤمنين، ويشمل الآيات (٥١-٥٥).	٣٣٤
المطلب الأول	ربط الموضوع بالمحور الأساس للسورة.	٣٣٤
المطلب الثاني	التناسق بين هذا الموضوع وسابقه.	٣٣٧
المطلب الثالث	التناسب بين الآيات والجمل والكلمات.	٣٣٩
المطلب الرابع	التفسير الإجمالي للآيات.	٣٥٣
المطلب الخامس	بيان ما ترشد إليه الآيات.	٣٥٤
الفصل الثالث	**بيان أحوال المجادلين، وعرض دلائل التوحيد، والوعد بنصر المؤمنين وخسران الكافرين، ويشمل الآيات (٥٦-٨٥)، وفيه ستة مباحث:**	٣٥٥
*المبحث الأول	كشف بواعث المجادلين، وإثبات الحجة عليهم، ويشمل الآيات (٥٦-٥٩).	٣٥٨
المطلب الأول	ربط الموضوع بالمحور الأساس للسورة.	٣٥٨
المطلب الثاني	التناسق بين هذا الموضوع وسابقه.	٣٦٠
المطلب الثالث	أسباب النزول الواردة.	٣٦٣
المطلب الرابع	التناسب بين الآيات والجمل والكلمات.	٣٦٥
المطلب الخامس	التفسير الإجمالي للآيات.	٣٧٦
المطلب السادس	بيان ما ترشد إليه الآيات.	٣٧٨
*المبحث الثاني	بيان طريق النجاة ودلائل ربوبيته تعالى وألوهيته، ويشمل الآيات (٦٠-٦٥).	٣٧٩
المطلب الأول	ربط الموضوع بالمحور الأساس للسورة.	٣٧٩
المطلب الثاني	التناسق بين هذا الموضوع وسابقه.	٣٨٢
المطلب الثالث	التناسب بين الآيات والجمل والكلمات.	٣٨٤
المطلب الرابع	التفسير الإجمالي للآيات.	٣٩٥
المطلب الخامس	بيان ما ترشد إليه الآيات.	٣٩٧

*المبحث الثالث	لا مصالحة في الإشراك بالله، ولا مساومة في عبادة الله بعد أن توالت البينات، ويشمل الآيات (٦٦-٦٨).	٣٩٨
المطلب الأول	ربط الموضوع بالمحور الأساس للسورة.	٣٩٨
المطلب الثاني	التناسق بين هذا الموضوع وسابقه.	٣٩٩
المطلب الثالث	أسباب النزول الواردة.	٤٠١
المطلب الرابع	التناسب بين الآيات والجمل والكلمات.	٤٠٢
المطلب الخامس	التفسير الإجمالي للآيات.	٤٠٨
المطلب السادس	بيان ما ترشد إليه الآيات.	٤٠٩
*المبحث الرابع	التعجيب من انحراف المجادلين وبيان لجزائهم الأخروي، ويشمل الآيات (٦٩-٧٦).	٤١٠
المطلب الأول	ربط الموضوع بالمحور الأساس للسورة.	٤١٠
المطلب الثاني	التناسق بين هذا الموضوع وسابقه.	٤١٢
المطلب الثالث	التناسب بين الآيات والجمل والكلمات.	٤١٤
المطلب الرابع	التفسير الإجمالي للآيات.	٤٢١
المطلب الخامس	بيان ما ترشد إليه الآيات.	٤٢٣
*المبحث الخامس	الأمر بالصبر والتأكيد على النصر والاعتبار بمزيد من الآيات، ويشمل الآيات (٧٧-٨١).	٤٢٤
المطلب الأول	ربط الموضوع بالمحور الأساس للسورة.	٤٢٤
المطلب الثاني	التناسق بين هذا الموضوع وسابقه.	٤٢٥
المطلب الثالث	التناسب بين الآيات والجمل والكلمات.	٤٢٧
المطلب الرابع	التفسير الإجمالي للآيات.	٤٣٩
المطلب الخامس	بيان ما ترشد إليه الآيات.	٤٤١
*المبحث السادس	ختم السورة بوعيد المجادلين وتحذيرهم بحتمية انقضاء زمن الإمهال، ويشمل الآيات (٨٢-٨٥).	٤٤٢
المطلب الأول	ربط الموضوع بالمحور الأساس للسورة.	٤٤٢
المطلب الثاني	التناسق بين هذا الموضوع وسابقه.	٤٤٤
المطلب الثالث	التناسب بين الآيات والجمل والكلمات.	٤٤٦
المطلب الرابع	التفسير الإجمالي للآيات.	٤٥٤
المطلب الخامس	بيان ما ترشد إليه الآيات.	٤٥٦
	كلمة أخيرة جامعة في سورة غافر.	٤٥٧

	الخاتمة.	٤٦٢
	ثبت المراجع والمصادر.	٤٦٨
الفهارس العامة		٤٩١
	فهرس الآيات القرآنية الكريمة.	٤٩٢
	فهرس الأحاديث النبوية الشريفة.	٥٠٥
	فهرس الآثار.	٥٠٦
	فهرس الشواهد الشعرية.	٥٠٧
	فهرس الأعلام المترجم لهم.	٥٠٨
	فهرس الموضوعات.	٥١٠

تم بفضل الله وتوفيقه

والحمد لله رب العالمين